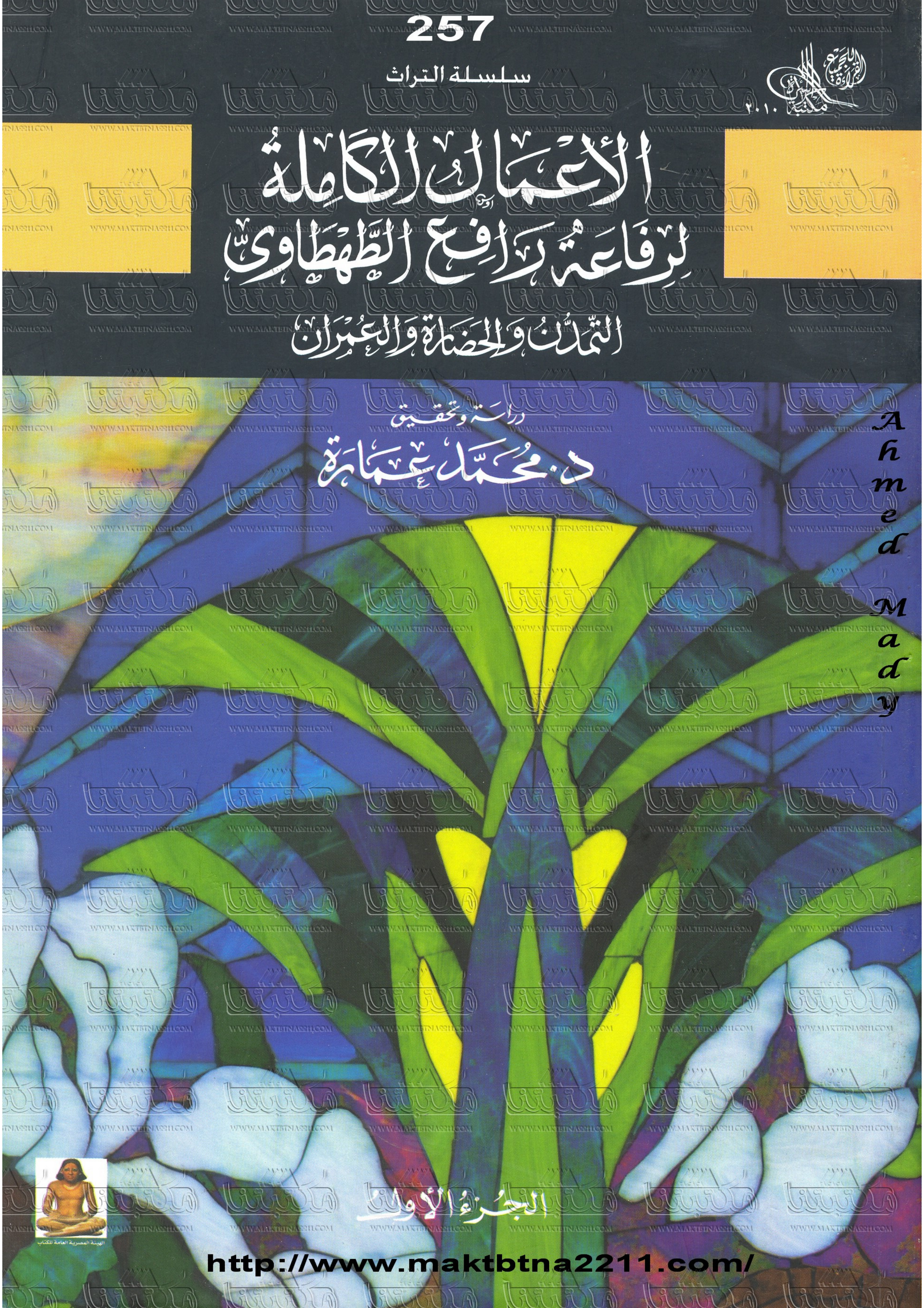
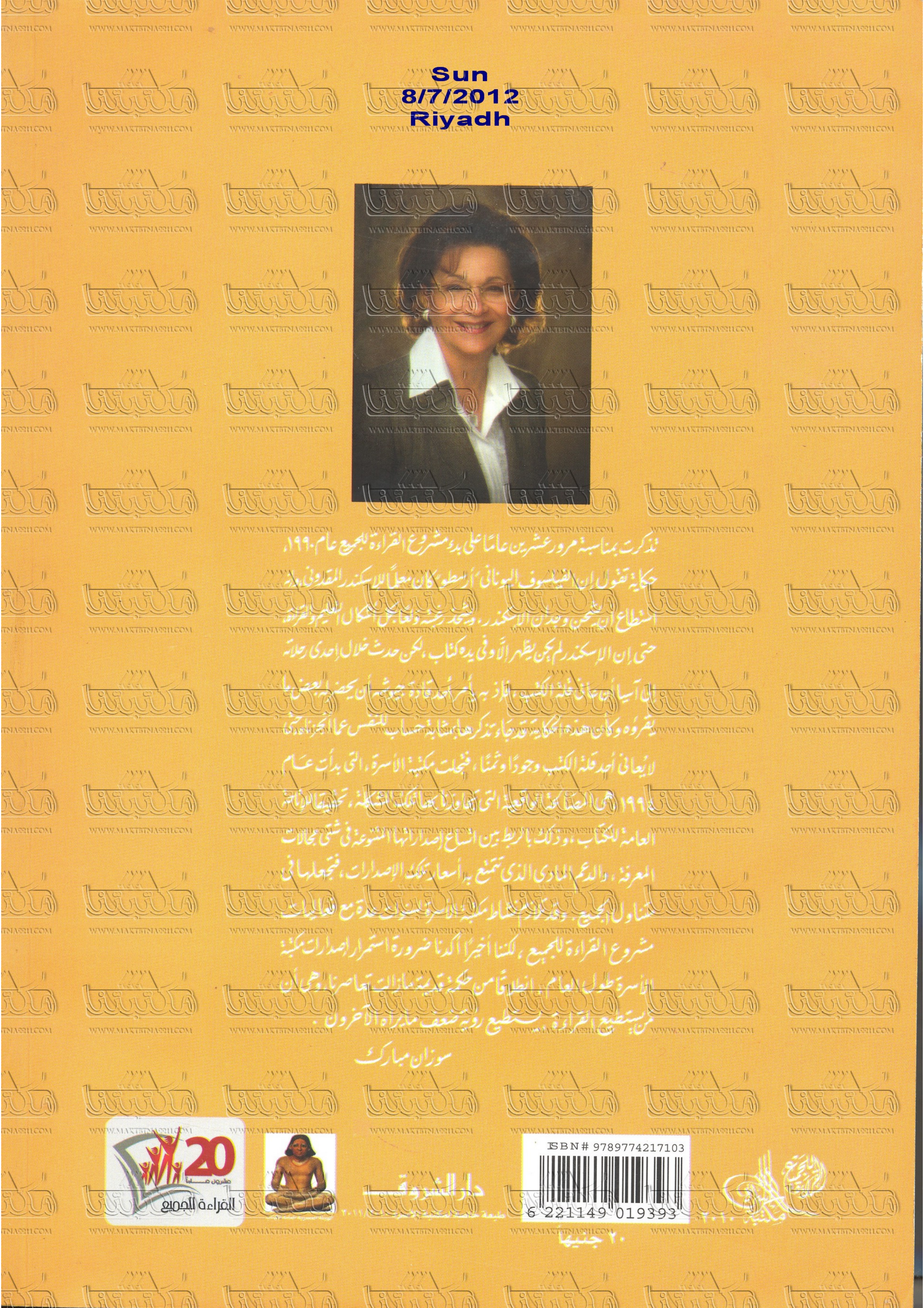


257
سلسلة التراث
الأعمال الكاملة
لرفاعة رافع الطهطاوى
التمدن والحضارة والعمران
دراسة وتحقيق
د. محمد عمارة
الجزء الأول
Ahmed Mady
http://www.maktbtna2211.com/



Sun
8/7/2012
Riyadh

تذكرت بمناسبة مرور عشرين عامًا على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠،
حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني "أرسطو" كان معلمًا للإسكندر المقدوني وإنه
استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته وولعه بكل أشكال العلم والمعرفة
حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفي يده كتاب، لكن حدث خلال إحدى رحلاته
إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فلاذ به [illegible] أحد قادة جيشه أن يحضر له بعض ما
يقرؤه وكانت هذه الحكاية قد جاءت تذكرها بشأنه بحساب النفس عما أنجزناه حتى
لا يعاني أحد قلة الكتب وجودًا وثمنًا، فتجلت مكتبة الأسرة، التي بدأت عام
١٩٩٤ هي الصياغة الواقعية التي [illegible] هذه المشكلة، تحقيقًا للإتاحة
العامة للكتاب، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات
المعرفة، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فتجعلها في
متناول الجميع. وقد كان نشاط مكتبة الأسرة [illegible] مع فعاليات
مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرًا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة
الأسرة طول العام، انطلاقًا من حكمة قديمة مازالت تعاصرنا، وهي أن
من يستطيع القراءة يستطيع رؤية ضعف ما يراه الآخرون.

سوزان مبارك

القراءة للجميع
20
دار الشروق
ISBN# 9789774217103
6 221149 019393
٢٠ جنيها



الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي

الجزء الأول

التمدن والحضارة والعمران

دراسة وتحقيق

د. محمد عمارة

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة، وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى

والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

فهرس الموضوعات

الباب الرابع

(فى التشبث بعود المنافع العمومية إلى مصر،

حسب الإمكان، فى عهد محيى مصر جنتمكان)

الباب الخامس

(فى الآمال الحسنة والأعمال المستحسنة من الإصلاحات المصرية،

بمقتضى اصطلاحات الحال العصرية)



دراسة فى فكر الطهطاوى
عن التمدن والسياسة والاجتماع

تمهيد

فى يولية سنة ١٩٠٣م توفى الأبن الأصغر لرفاعة رافع الطهطاوى . . . ـ واسمه على فهمى رفاعة ـ وكان فى حياته لامعا فى ميدان الأدب والصحافة والتعليم . . وفى تأبينه جادت قريحة أمير الشعراء العرب أحمد شوقى [١٢٨٥ـ ١٣٥١هـ/ ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م] بقصيدة تناول فيها شخصه وصفاته ومآثره، ثم تطرق فأشار إلى والده ـ رفاعة الطهطاوى [١٢١٦ـ ١٢٩٠هـ ١٨٠١ ـ ١٨٧٣م] فقال فيما قال :

يابن الذى أيقظت مصرا معارفه   أبوك كان لأبناء البلاد أبا!!

وأنا أعتقد أن ضرورة الشعر هى التى جعلت شوقى يضع «مصرا» فى بيته هذا، ولا يضع مكانها «الوطن العربى » و«العالم الاسلامى» . . ذلك أن ساحاتهما الفكرية، جميعا، ومنتدياتهما العلمية، قاطبة، قد أيقظتها معارف الطهطاوى . . ومن ثم كان، بحق، أبا ليقظتنا الحديثة، وأبا لكل الذين يعتزون بهذه النهضة التى قادها فى مطلع عصرنا الحديث . . .

وهذه الحقيقة التى لخصها أمير الشعراء، فى بيته الشعرى هذا، ليست ضربا من ضروب البلاغة أو المبالغة، ولا هى مما يدخل فى باب المديح الذى عرفه شعرنا فى القديم والحديث . . ذلك أن أبوة الطهطاوى لحركة اليقظة العربية الحديثة، وريادته لدرب الصحوة الوطنية والتنبه القومى، وبناءه للأعمدة الراسخة التى أصبح بها للعرب عصر حديث، ووصله حركة اليقظة التى صنعها، بعصر المجد العربى وفترات ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وقيادته العقل العربى وإرشاده كى يتخطى عصور التراجع «المملوكية ـ العثمانية» التى سادت عالمنا لأكثر من خمسة

قرون . . ذلك أن هذه الإنجازات، بل وأضعافها، هى حقائق صلبة وعنيدة، كما هى واضحة وبسيطة، تطالعنا دائما عندما ننظر فى أعمال الرجل الفكرية التى أبدعها، والنوافذ الحضارية التى فتحها، والآثار العلمية والفلسفية والأدبية والتاريخية والجغرافية التى ترجمها، والجيل الذى صنعه كى ينهض معه بعبء صناعة الحضارة العربية الحديثة، والمستنيرة، ويواصل من بعده احتراف هذه الصناعة، التى هى أشرف الصناعات.

ونحن نقول: إن حديث شوقى عن الطهطاوى ليس بلاغة شاعر أو مبالغة أديب، لأننا أمام إنجازات الطهطاوى، وبإزاء محاولتنا تقييم دوره فى ريادة بعثنا ونهضتنا وتحضرنا الحديث، نشعر باستمرار أن عظمة هذا الدور تجعل التعبير عنه والوصف له مما يحسبه البعض ضربا من البلاغة أو نوعا من المبالغات.

ولكننا حريصون الحرص كله على أن نقدم دراستنا هذه عن الطهطاوى - والتى نقدم بها لأعماله الفكرية الكاملة - بالمنهج العلمى، وأيضا بالأسلوب العلمى البعيد عن التزيد والمبالغات . . وفى ذات الوقت استنادا إلى الحقائق الموضوعية التى نستقيها من أعمال الرجل الفكرية الكاملة. ومن التقييم الموضوعى لدوره، وحجم هذا الدور فى عملية التطور التاريخية التى عرفتها أمتنا العبية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقيمة فكر الرجل ومواقفه من «عصر التنوير» الذى دخلته أمتنا من خلفه بعد أن تجاوزت بواسطة محمد على وحكومته المدنية، عصور التراجع التى صنعها وكرسها المماليك والعثمانيون.

ونحن نعتقد أن الوفاء بهذا الغرض يستوجب أن نضع أمام الباحث والقارئ إشارات تكون صورة مكثفة لملامح الحياة الفكرية قبل الطهطاوى، حتى إذا انتقل الباحث والقارئ إلى فصول هذه الدراسة التى تعرض لفكر الطهطاوى فى التمدن والحضارة، والسياسة والاجتماع، كانت لديه مقومات التقييم الموضوعى لدور هذا المفكر العظيم فى صنع حضارتنا العربية ويقظتنا الوطنية والقومية فى عصرنا الحديث.

فى أواخر القرن الثامن عشر، وقبل سنوات من ولادة الطهطاوى - (١٥ من

أكتوبر سنة ١٨٠١ م) ـ كانت الأغلبية الساحقة من أجزاء الوطن العربى غارقة فى ظلمة التخلف، لا تتجاوز حياتها الفكرية عوالم الشعوذة والدجل والخرافة التى أُلصقت بالإسلام زورا وبهتانا.

ولقد أجمعت كل المصادر التاريخية والأدبية التى وصفت تلك الحقبة الزمنية ـ سواء منها الوطنية أو الأجنبية ـ على أن درجة هذا التخلف والتحلل قد بلغت النهايات القصوى، حتى لا يكاد القارئ فى عصرنا الراهن يتخيل تلك الأوضاع، مهما جنح به الخيال..

فالسائح الفرنسى «مسيو فولنى» (volney) [١٧٥٧ ـ ١٨٢٠ م] قد زار مصر وبلاد المشرق العربى، وخاصة الشام، فى تلك السنوات، ثم كتب رحلته تلك، وضمنها وصفا للحالة الفكرية فى السنوات التى سبقت ميلاد الطهطاوى، فقال: **«إن الجهل فى هذه البلاد عام شامل، مثلها فى ذلك مثل سائر البلاد التركية، يشمل الجهل كل طبقاتها، ويتجلى فى كل جوانبها الثقافية، من أدب وعلم وفن، والصناعات فيها فى أبسط حالاتها، حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها، إلا أن يكون أجنبيا!!»**[١].

والقنصل الروسى فى القاهرة «دوهاميل» يتحدث فى تقريره الذى كتبه عن حالة البلاد عندما تولى الحكم فيها محمد على ـ [١٢٢٠هـ ـ ١٨٠٥ م] ـ أى بعد ولادة الطهطاوى بأربع سنوات.. يتحدث «دوهاميل» لا عن الفن والعلم والأدب والصناعة، كما صنع «فولنى»، بل عن الذين بلغوا من «العلم» مرتبة «القراءة والكتابة»!! فيقول: «إن مصر حين وليها محمد على لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة، باستثناء الكتبة من القبط»[٢].

---

(١) أحمد أمين (زعماء الإصلاح فى العصر الحديث) ص ٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٤٩م.

(٢) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ٢٩ طبعة القاهرة. سلسلة (أعلام العرب) رقم ٥٣.
(ولا يقلل من قيمة هذه الحقيقة أننا نتحفظ على أرقامها هذه، لأننا نعتقد أن مقصود «دوهاميل» هو الحديث عن العاصمة، ولم يدخل فى حسبانه الحديث عن الذين تعلموا القراءة فى مكاتب تحفيظ القرآن بالريف، فلم يكن بمصر يومئذ من يهتم بالإحصاء حتى تتحصل له أرقام هؤلاء..).

كما يتحدث «بورنج» فى تقريره عن التجارة فى بلاد الشام، فيذكر أنه « لم يكن فى دمشق أو حلب بائع واحد للكتب!»[1].

ونحن إذا ضربنا صفحا عن تقارير الرحالة والسفراء الأجانب، فإننا واجدون هذه الصورة السلبية والبشعة، بتجسيد أكثر، وتفصيل أدق عند المؤرخ الوطنى والعالمى الحجة عبد الرحمن الجبرتى (١١٦٧ ـ ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ ـ ١٨٢٥م) والذى يعد أوثق مصدر أرخ لهذه الحقبة، وأصدق من نفذ إلى أعماق الأحداث التى شهدها ذلك التاريخ . .

يتحدث الجبرتى عن الحالة لفكرية فى الأزهر فى منتصف القرن الثامن عشر ـ وكان الأزهر يومئذ موطن صفوة العلماء والمفكرين والأدباء والمثقفين فى العالم العربى والإسلامى قاطبة ـ يتحدث الجبرتى عن ذلك فيقدم لنا، ضمن ما يقدم، تلك القصة التى وقعت أحداثها فى «قلعة الجبل» بالقاهرة بين الوالى التركى «أحمد باشا» ـ المعروف بكوروزير!! ـ والذى بعثه السلطان العثمانى واليا على مصر سنة ١٧٤٩م (سنة ١١٦٢ ـ سنة ١١٦٣ هـ) ـ وبين وجوه شيوخ الأزهر وأفاضلهم، بزعامة شيخه الشيخ عبد الله الشبراوى (١٠٩٢ ـ ١١٧٠ هـ ـ ١٧٥٧م) . . ذلك أن هذا الوالى التركى ـ على غير العادة ـ كان ـ كما يقول الجبرتى ـ : «من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية . . » فلما وصل إلى القاهرة، وحضر العلماء لتهنئته بالولاية، قابل «صدور العلماء فى ذلك الوقت، وهم: الشيخ عبد الله الشبراوى ـ شيخ الجامع الأزهر ـ والشيخ سالم النفراوى، والشيخ سليمان المنصورى، فتكلم معهم، وناقشهم وباحثهم، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا، وقالوا: لا تعرف هذه العلوم! . . ».

ويحكى الجبرتى أن الوالى تعجب من هذا الأمر . . وسكت . . ثم عاود الحديث فى يوم آخر مع الشيخ الشبراوى فى أمر العلوم الرياضية وموقف الأزهر إزاءها وحصيلة العلماء منها فدار بين الوالى وبين شيخ الأزهر هذا الحوار:

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩.

الوالى: المسموع عندنا بالديار الرومية (التركية) أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت فى غاية الشوق إلى المجىء اليها، فلما جئتها وجدتها ـ كما قيل ـ : (تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه؟!).

شيخ الأزهر: هى ـ يا مولانا ـ كما سمعتم، معدن العلوم والمعارف.

الوالى: وأين هى؟! وأنتم أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا، **وغاية تحصيلكم: الفقه، والمعقول، والوسائل، ونبذتم المقاصد!!**

شيخ الأزهر: نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام، **وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشئ من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث.**

الوالى: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلّة، وغير ذلك..

شيخ الأزهر: نعم.. معرفة ذلك من فروض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، **وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط، والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك..».**

ثم يتحدث عبد الحمن الجبرتى، كيف أن الشيخ الشبراوىٰ قد أخبر الوالى بأن الشيخ حسن الجبرتى (١١٠٩ـ١١٨٨ هـ ـ ١٦٩٨ ـ ١٧٧٤ م) ـ والد المؤرخ ـ له إلمام بمثل هذه العلوم، وكيف قامت علاقات علمية بين الوالى وبين الشيخ حسن الجبرتى، وكيف وجد الوالى عده بغيته من المعرفة بالرياضيات، فخفت حدة غضبه على جهل مشايخ الأزهر بهذه العلوم.. ثم يحكى الجبرتى كيف كان سرور الشيخ الشبراوى بذلك فيقول: «كان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوى كلما تلاقى مع

المرحوم الوالد يقول: سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا . . فإنه لولا وجودك كنا جميعا عنده حميراً !!»[1].

فالعلوم التى بحث عنها الوالى التركى المستنير، فى الأزهر، فلم يجدها كانت مجرد« وسائل» لمعرفة أوقات الصلاة، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم، والأهلة التى تحدد أوائل الشهور العربية . . وهو لم يبحث فى الأزهر ولا عند شيوخه عن علوم الصناعة والحضارة والعمران . . ومع ذلك لم يجد عندهم شيئا من ذلك . . وصور الشيخ الشبراوى حال رجال الأزهر يومئذ بأنهم «فقراء، أخلاط مجتمعة من القرى والآفاق» وإنه «يندر فيهم القابلية» لهذه العلوم التى تحتاج إلى «شروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقة الطبيعة . . و . . و الخ . . »!! ونحن نعتقد أنه ليس هناك أبلغ ولا أصدق من هذه الكلمات، وتلك الحقائق التى تضع يدنا عليها هذه القصة وذلك الحوار . . فهى التجسيد النموذجى لحالة التخلف والتدهور التى وصلت إليها هذه الأمة تحت سلطة العثمانيين وسلطان المماليك . .

* * *

ثم جاءت سنة ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م، وشهدت مصر حملة «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] العسكرية، التى لقيت مقاومة من المماليك سرعان ما انهارت فى أول مواجهة بين جيشه العصرى وجيوشهم التى كانت قطعا أثرية متلكئة من الزمن الغابر، تنتظر من يدفعها إلى عالم الذكريات ومتحف التاريخ!! . . ولكن لقيت هذه الحملة العسكرية البونابرتية كذلك مقاومة شعبية استمرت نارها مشتعلة حتى اضطرت «بونابرت» إلى الرحيل عن مصر، هربا من المواجهة والهزيمة، كما اضطرت جيشه إلى الانسحاب فى ١٥ من أكتوبر سنة ١٨٠١م . . وهو اليوم الذى ولد فيه رفاعة الطهطاوى؟!

---

(١) الجبرتى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) المجلد الأول ص ٢٧٦ وما بعدها طبعة دار فارس ببيروت. و: د. جمال الدين الشيال (رفاعة رافع الطهطاوى) ص ٩ - ١١ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م (سلسلة نوابغ الفكر العربى).

ومع هذه الحملة البونابرتية جاءت إلى مصر، خاصة، وإلى الشرق، عامة، صور جديدة وأفكار جديدة، وقيم جديدة، ساهمت جميعا فى كسر الحاجز الذى كان قائما حول عقول الشرقيين. . وثارت فى عقول الكثيرين أسئلة كثيرة: لماذا انهزم العثمانيون وفروا؟ وتحطم غرور المماليك وجيشهم فى أول لقاء؟ ولماذا تحمل منشورات «بونابرت» نغمة لا تتردد النفس فى قبولها والترحيب بها إلا لأنها صادرة عن الغزاة؟! ولماذا نحن غرباء عن هذا العالم الذى تمثله البعثة العلمية التى صحبت الجيش الغازى؟! وهل حيوية هؤلاء الغزاة وقوتهم مبعثها الحضارة الجديدة والفتية القائمة على علم هؤلاء العلماء؟!

نجحت الحملة الفرنسية فى أن تلعب دور «خطر الماس الكهربائى» الذى لامس عقول الشرقيين، وخاصة المصريين والعرب المشارقة، إلى الحد الذى «**ينبه ويوقظ**» دون أن «**يصعق ويميت**». . ولعبت بعثة العلماء التى صحبت الجيش الغازى أهم الأدوار عندما فتحت العيون، لا على علوم المواقيت والأهلة والمواريث فقط، بل على «الكيمياء» و «الجغرافيا» و«الطوبوغرافيا» و «التاريخ» و «الإدارة والاقتصاد» و«الفن» وغيرها من العلوم العملية والإنسانية. . وتذكر بعض الذين احتكوا بعلماء هذه البعثة أن فى تراثهم، هم العرب، أصولا وجذورا وصروحا لأغلب هذه العلوم. . وبدت أمام البعض معالم طرق لا زال يكتنفها الضباب والغموض، ولكنها توحى **بأن سقوط «سور التخلف العثمانى والمملوكى» يفتح طرقا آمنة تصل حياة هذه الأمة وحاضرها ومستقبلها بهذه الحضارة الأوروبية الحديثة، وبالتراث الحضارى العربى والإسلامى فى عصره الذهبى، وبذلك تتخطى هذه الأمة أسوار العزلة فتصل ما تتمثله من الحضارة الفرنسية والأوروبية بتراثها الحضارى العربى الإسلامى، ثم تواصل طريق الإبداع والإضافة والخلق والتجديد، كما صنع أسلافها مع تراث اليونان والفرس والهنود..**

ثارت فى العقول كل هذه الأسئلة، ولاحت فى عديد من «المخيلات» كل هذه الرؤى والأحلام. . وكان هذا هو النجاح الأول الذى أسهمت به حملة «بونابرت» فى بعث الشرق العربى من جديد. . لقد كانت الخطر الذى حرك عوامل المقاومة والمنعة فى جسم الأمة وعقلها.

أما النجاح الثانى الذى أصابته هذه الحملة - **ولعلها لم تكن تقصد كل أبعاده** ومزاياه - فإنه يتمثل فى إلحاحها المستمر على زرع الثقة فى العنصر الوطنى المصرى، كى تضرب نقطة الضعف التى تجعل هذا العنصر يسلم زمامه للأتراك والمماليك .

فقبل الحملة الفرنسية كانت هبات الشعب وثوراته تقف دائما عند حدود الإطار العثمانى والمملوكى لا تتعداها . . كانت تناضل ضد « **المظالم** » لا من أجل «الاستقلال» . . وحتى «الاستقلال» الذى ناضلت فى سبيله أحيانا كان مقصودا به استقلال مملوك أو مماليك بحكم هذه البلاد ! ! . . أما الحملة الفرنسية فإنها قد لمست بعنف، وهزت من الأعماق أوتار الحس الوطنى والمشاعر القومية لدى المصريين والعرب، حرضتهم على أن ينفضوا عن كاهلهم هذا الرداء العثمانى المملوكى الذى قبرت فيه شخصيتهم القومية عدة قرون . .

ولقد كان الناس فى مصر يفكرون تفكيرا «إسلاميا» يعرف «الملة» دون تركيز على «الوطن» أو «القومية» . . فسلكت الأفكار «الوطنية والقومية»، التى ألقى الفرنسيون بذورها فى تربة مصر، سلكت إلى عقول الناس يومئذ طريق «العقلانية»، واحتكمت وإياهم إلى العقل، وغلفت نفسها بأغلفة من الدين . .

ونحن نقرأ فى منشور «بونابرت» الذى وجهه إلى المصريين قوله : «.. **إن جميع الناس متساوون عند الله، وأن الشئ الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط** . وبين المماليك والعقل والفضل تضارب، فإذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم، ويختصوا بكل شئ حسن فيها، من الجوارى الحسان، والخيل العتاق، والمساكن المفرحة؟؟! . . فإذا كانت الأرض «التزاما» للمماليك، فليرونا «الحجة» التى كتبها الله لهم ! ! . . .

من الآن فصاعدا، لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها ! ..»[١] .

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ٣٠ .

حقيقة يعلم المسلمون جميعا - ولو من الناحية النظرية، على الأقل - أنه لافضل لإنسان على آخر إلا «بالتقوى»، أى الفضائل، ولكن فكر الثورة الفرنسية يضيف إلى هذا المعيار «العقل» و «العلوم»!! . . ويفتح أما المصريين وحدهم - دون المماليك - باب « المناصب السامية والمراتب العالية» إذا هم كانوا من «العلماء والفضلاء والعقلاء» . . ويظل هذا الفكر مثابرا فى تنبيهه للحس الوطنى والمشاعر القومية - كى يستثمرها ضد المماليك، لا ضده هو بالطبع - ويسلك لذلك، ضمن ما يسلك، طريق تذكير الناس بماضيهم المشرق ومجدهم الغابر وتراثهم العريق . . وفى الوقت الذى كان فيه «جان فرانسوا شمبليون» (١٧٩٠ - ١٨٣٢) يفك رموز اللغة المصرية القديمة ليفتح أمام المصريين الطريق لمعرفة عظمتهم الحضارية التى تبعث فيهم التعالى على الأتراك والاستعلاء على المماليك، كان المهندس الجغرافى الفرنسى «جومار» (Edme Francois Jomard) الذى كان أحد علماء الحملة الفرنسية، والذى أشرف على نشر كتاب «وصف مصر» (Description de l Egypte) كان «جومار» يتحدث إلى أعضاء البعثة العلمية المصرية - وفيها الطهطاوى - بباريس، فيذكر المصريين بأمجادهم القومية والحضارية، ويدعو هذه النخبة المثقفة إلى أن تجعل من حاضر مصر ومستقبلها الامتداد لذلك التراث العريق، فيقول: «أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم . . اقتبسوا من فرنسا **نور العقل الذى رفع أوربا على أجزاء الدنيا، وبذلك تردون إلى وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون فى الأزمان الماضية. فمصر التى تنوبون عنها ستسترد بكم خواصها الأصلية، وفرنسا التى تعلمكم وتهذبكم تفى ما عليها من الدَّين الذى للشرق على الغرب كله!..**»[1].

فشلت، إذاً، حملة «بونابرت» العسكرية . . ونجحت البعثة العلمية التى صحبت جيشه فى «تنبيه وتحريك» الحس الوطنى والشعور القومى . . فتساءل . . وتخيل . . وراودته أحلام البعث والنهضة والإحياء التى ترتكز على دخول حلبة

---

(١) الأمير عمر طوسون (البعثات العلمية فى عهد محمد على، ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد) ص٣٣، ٣٤ طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤م.

الإنسانية الواعية من جديد. . فاليونان أخذوا عن المصريين القدماء. . والعرب أخذوا عن اليونان والفرس والهنود. . وأوروبا، بكل أجناسها وأقوامها، أخذت عن العرب. . إذا، فمن المفيد والممكن، بل والضرورى أن ندخل نحن الميدان من جديد، بعد أن تخدرنا بالخرافة لعدة قرون، فنأخذ عن أوربا، ونصل هذا الزاد الحضارى بالمشرق من صفحات حضارتنا القديمة، ونواصل السير كى نبدع ونضيف كما صنع أسلافنا الأقدمون. . لقد أراد الغزاة الفرنسيون سلخ الشرق ـ بالوطنية والقومية ـ عن الإسلام، فكانت التفاتة الشرق إلى الوطنية والقومية فى إطار الإسلام.

* * *

تلك هى المهمة الحضارية التى نبهت إليها البعثة العلمية الفرنسية شعوب الشرق فى مطلع القرن التاسع عشر. . ولقد اختمرت هذه الأفكار فى مصر أكثر من غيرها من البلاد. . . لا لأن هذه الافكار قد ألقيت فى تربتها وحدها، ولا لأنها قد لامست عقول أبنائها دون غيرهم، وإنما وقف خلف هذا الامتياز عاملان:

أولهما: أن التطور الحضارى ـ على ضعفه ـ كان بمصر أقوى وأنضج من غيرها من بلدان الشرق العربى، وكانت الحركة الوطنية فيها توشك على التبلور والوصول إلى المدى الذى يكسر الطوق «العثمانى ـ المملوكى» عن الأعناق. . .

وثانيهم: أن مصر قد أتيح لها، فى ظل الدولة المدنية الحديثة التى بناها محمد على، أن تضع العديد من الآمال والأحلام التى راودت العقول، عند الاحتكاك بالفرنسيين، موضع التطبيق، أو على الأقل أن تفتح المجال والطريق لهذا التطبيق.

ولقد كان من الطبيعى أن يفرز هذا المجتمع من أحشائه قيادات جديدة تحمل على كاهلها مهمة إقامة هذا العصر الجديد. . عصر البعث والنهضة والأحياء. . فالقيادات التى احتكت بالفرنسيين ـ جيشا وعلماء ـ كانت تعبر عن تيارات اجتماعية

وفكرية مختلفة ومتمايزة، وكان الكثير من هذه القيادات، بحكم مصالحه الطبقية ومواقفه الاجتماعية ونوعية فكره وثقافته، غير صالح ولا مؤهل لقيادة الوطن فى هذا الطريق الجديد. .

١ ـ كانت هناك القيادة الشعبية التقليدية التى قادت المقاومة ضد الغزو الفرنسى، وعارضت السلطان المطلق الذى يريده المماليك والعثمانيون، وعبرت عن الإرادة الشعبية فاختارت محمد على واليا على البلاد سنة ١٨٠٥م. وكان السيد «عمر مكرم» [١١٦٨ ـ ١٢٣٧هـ/ ١٧٥٥ ـ ١٨٢٢م] «نقيب الأشراف»، هو رأس هذه القيادة التى ضمت العديد من شيوخ الأزهر الشريف. .

ولم تكن هذه القيادة مؤهلة، لا طبقيا ولا اجتماعيا ولا فكريا، لحمل أمانة المهام الجديدة التى طرحت فى الساحة بعد الهزة الفكرية والاجتماعية التى أحدثها الغزو الفرنسى للبلاد. . فهذه القيادة كانت معارضة للعثمانيين، غير مستعدة للحلول محلهم. . وكذلك كان حالها مع المماليك. . أضف إلى ذلك أن عناصر هذه القيادة كانوا، فى الغالب، من «الملتزمين» و «نظار الأوقاف»، أى أنهم كانوا عمدا من أعمدة النظام الاستغلالى فى الزراعة، والقائم على «الالتزام» و «دوائر الأوقاف». . ومن ثم فان عصرا حضاريا جديدا ذا طابع مدنى مغاير لا يمكن أن يقود الأمة إلى ساحاته وميادينه هؤلاء الشيوخ «الملتزمون» «نظار الأوقاف». .

ولأهمية هذه الحقيقة، لابد من أن نقدم عليها الدليل المتمثل فى عدد من الوقائع التى لا تحتمل اللبس أو الإبهام. .

* فالملتزمون كانوا يحصلون على ثلث إنتاجية الأرض الزراعية فى مصر، وكانت هذه الحصة تسمى «الفائض»، وعندما اقتطع منهم محمد على ثلث هذه الحصة، لحساب الدولة، سنة ١٨٠٥م، كان الذى تزعم «الملتزمين» فى معارضة هذا الإجراء هو السيد عمر مكرم ومن معه من الشيوخ؟!

* وفى سنة ١٨٠٦م طلبت الحكومة من هؤلاء «الملتزمين» قرضا، فعارضوا، وتزعمهم فى معارضتهم هذه السيد عمر مكرم أيضا؟!

* وفى سنة ١٨٠٧م كان «الألفى بك» زعيم المماليك قد عاد من إنجلترا بعد أن اتفق مع الإنجليز على غزو مصر، وتحالف معهم ضد محمد على، وشرع فى تجميع صفوف المماليك لمعاونة حملة «فريزر» ضد الوطن، ومع ذلك نجد السيد عمر مكرم يتعاطف مع المماليك، ويتوسط لهم عند محمد على، فيطلب لهم العفو، ويطلب لهم «جهة» من «جهات» مصر يستغلونها لحسابهم الخاص. . أى دولة مملوكية خاصة بهم!![1] حتى بلغ الأمر حد فتور الحماس لدى السيد عمر مكرم، فى البداية، إزاء مقاومة حملة «فريزر» سنة ١٨٠٧م، بسبب علاقته بالمماليك الذين استدعوا هذه الحملة لغزو البلاد. . وفتور حماسه هذا هو الذى عبر عنه القنصل الفرنسى بمصر يومئذ «دروفتى» بأنه: «مسلك يكاد يكون طابعه عدم الاهتمام التام!»[2].

* وبعد هزيمة حملة «فريزر» أرادت الحكومة أن تخضع الأرض التى يملكها «الشيوخ» أو «يلتزمونها» للضريبة، وكانت قد استثنتهم من الضريبة سنة ١٨٠٥م، ورغم ذلك ظلوا يحصلونها من الفلاحين لحسابهم الخاص!!!. . . أرادت الحكومة تحصيل الضريبة من أرضهم هذه فثاروا وطالبوا باستمرار هذا الإعفاء وذلك الاستغلال. . ودار بين الشيخ عبد الله الشرقاوى (١١٥٠ ـ ١٢٢٧هـ ١٧٣٧ ـ ١٨١٢م) وبين محمد على ذلك النقاش:

الشرقاوى: يجب أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم.

محمد على: أنا لست بالظالم وحدى! وأنتم أظلم منى، فإنى رفعت عن حصتكم «الفرَد والمغارم»[3]، وأنتم تأخذونها من الفلاحين، وعندى «دفتر» محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ ألفى كيس![4].

---

(١) د. محمد عمارة (فجر اليقظة القومية) ص ٢٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م. و (العروبة فى العصر الحديث) ص ٧١ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٢) د. محمد فؤاد شكرى (مصر فى القرن التاسع عشر) ج ٢ ص ٦١٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.

و: د. محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ١٦٥، ١٦٦ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

(٣) الفرد ـ بكسر الفاء وفتح الراء ـ جمع فرْدة، وهى الضريبة والإتاوة، والمغارم هى الغرامات المالية.

(٤) (فجر اليقظة القومية) ص ٢٣٢، ٢٣٣.

*معارضة هذه القيادة سنة ١٨٠٩م لفرض الضرائب على أراضى الأوقاف - لأن الشيوخ كانوا هم أغلب نظار هذه الأوقاف - ومعارضتها لاقتطاع الحكومة نصف «الفائض» الذى كان يستأثر به «الملتزمون»، وهى المعارضة التى قادها السيد عمر مكرم ومن خلفه «الشيوخ» و «الملتزمون».

* مطالبة هذه القيادة الحكومة سنة ١٨٠٩م بإلغاء الضريبة التى فرضتها على أرض «الوسية»، وهى الأرض التى كانت خالصة «للملتزمين»، يفلحها لهم الفلاحون عن طريق «السخرة»، ولا يدفعون عنها للدولة أية ضرائب!![١] . . .

فهذه القيادة التى وصف الجبرتى أفرادها وقادتها بأنهم «افتتنوا بالدنيا، وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم، إلا بمقدار حفظ الناموس، مع ترك العمل بالكلية، **وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء**، وأخذوا الخدم والمقدمين والأوان، وأجروا الحبس والتعذيب والضرب - (فى دوائر التزامهم الإقطاعية) - **وصار ديدنهم واجتماعهم ذكر المسائل الدنيوية، و «الحصص»، و «الالتزام»، و «حساب الميرى»، و« الفائض»، و «المضاف»، و«الرماية»، والمرافعات»، و«المراسلات».. زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة، والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور، وحظوظ الأنفس، على الأشياء الواهية!..»**[٢].

هذه القيادة لم تكن صاحبة مصلحة فى المضى إلى نهاية الطريق الذى لا بد من سلوكه كى تبنى الأمة حضارتها الجديدة ذات الطابع الاقتصادى والاجتماعى والفكرى الجديد.

ولقد كان موقف هذه القيادة من العلم والفكر والفن الذى حملته إلى مصر بعثة العلماء الفرنسيين هو وقف العاجز عن الاستيعاب، غير المؤهل لحمل هذا المشعل الجديد. . وعن هذا الموقف يعبر الجبرتى - وهو أحد «الملتزمين» - فيقول عن علم علماء الحملة افرنسية: « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣٣و (العروبة فى العصر الحديث) ص ٧٢، ٧٣.

(٢) (فجر اليقظة القومية) ص ٢٣٣.

تسعها عقول أمثالنا!!!» . . [1] كما يعبر عن دهشته التى تجسد البون الشاسع بين العقليتين والعزمين عندما يتحدث عن العربة الصغيرة ذات «العجلة» الواحدة، التى كان يستخدمها الفرنسيون لحمل التراب والمخلفات من شوارع القاهرة، فيصفها بأنها «معجزة الناس الفرنساوية»؟! . .

فلم تكن، إذا، هذه القيادة مؤهلة ولا قادرة ولا راغبة فى حمل اللواء لصنع الأسس والدعائم لعصر التنوير العربى الجديد والحديث.

٢ ـ وفريق آخر من الذين أتاحت لهم الظروف والأحداث الاحتكاك بعلماء الحملة الفرنسية، مثل الشيخ حسن العطار (١١٨٠ ـ ١٢٥٠ هـ ـ ١٧٦٦ ـ ١٨٢٥م)، والذى عمل مدرسا يدرس اللغة العربية لهؤلاء العلماء، فاستفاد منهم الكثير، وكما يقول على مبارك [١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣م] فى الترجمة له: إنه «اتصل بناس من الفرنساوية، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم، ويفيدهم اللغة العربية» [2] . .

ولقد ثارت فى عقل الشيخ العطار الكثير من الأسئلة وعلامات الاستفهام حول الواقع الذى تحياه هذه الأمة، واقتنع الرجل بضرورة التغيير، فأطلق صيحته الشهيرة التى قال فيها: «**إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها!..**».

ولكن العطار لم يستطع أن يحول الأزهر إلى أداة تنهض بمهام هذا التغيير، فقرر الرجل أن يرعى كوكبة من النابهين، كان على رأسهم: رفاعة رافع الطهطاوى، وإبراهيم الدسوقى، ومحمد عياد الطنطاوى، ومحمد عمر التونسى . . فأخذ يلتقى بهم فى منزله، ويلقى إليهم بمشاهداته وحصيلة احتكاكه بعلماء الحملة الفرنسية ويحدثهم عن ما وصلت إليه الأمة الفرنسية «من المعارف والعلوم، وكثرة

---

(١) الجبرتى «عجائب الآثار» جـ ٣ ص طبعة القاهرة ١٣٢٢هـ.

(٢) على مبارك (الخطط الجديدة) جـ ٤ ص ٣٨ طبعة القاهرة نة ١٣٠٥ هـ.

كتبهم، وتحريرها، وتقريبها لطرق الاستفادة . . »[1] كما يحكى لهم عن تجاربه وخبراته التى تحصلت له من أسفاره، فى البر والبحر، إلى بلاد الشام والأتراك العثمانيين . .

وكان واضحا من طبيعة قيادة الشيخ العطار وقدراتها أنها تحاول الإسهام فى تكوين الجيل الذى ينهض بالمهام المطروحة، لا أن هذه القيادة هى القادرة على ارتياد هذا الدرب الجديد . . فلقد كان الرجل واسع الأفق، ملما بعلوم تقف منها القيادة الأزهرية التقليدية موقف العداء، مثل التاريخ والجغرافيا والأدب؟! . . غير أن المهام الجديدة كانت تتطلب ما هو أكثر من هذه العلوم، **كانت تتطلب علوما عملية إلى جانب العلوم النظرية، وكانت تتطلب نوعا جديدا من المثقفين لا يقدمون لأمتهم فقط التاريخ والجغرافيا والأدب والفلسفة.. بل والرياضة، والهندسة، والزراعة، والمعادن، ويعلمون هذه وفيها صناعة الحرب وتجييش الجيوش وبناء الأساطيل.. وفيها التعدين واستكشاف كنوز البلاد... وفيها تربية الماشية، وزراعة القطن، وتربية دود القز، وغرس أشجار التوت**... وفيها الزاد الفنى والأدبى والروحى الذى تتجاوز فيه روحانيات الشرق المسلم مع أساطير اليونان، ونشيد الثورة الفرنسية «المارسيليز (Marseillaise) والقصيدة الباريسية (Parisienne) . . . كان عصر التنوير الذى يلح على الأمة العربية كى تلج بابه يتطلب قيادة جديدة تفى بما لهذا العصر من ضرورات ومتطلبات . . . ولقد تجسدت هذه القيادة، وتمثلت هذه الريادة فى ذلك المثقف المصرى العربى رفاعة رافع الطهطاوى، وفى الكوكبة من المفكرين والمثقفين الذين صنعهم الرجل على عينه، وصاغهم من خلال المؤسسات التربوية والصحفية والفكرية التى أقامها ورعاها قرابة النصف قرن . . كما ستقدم الأدلة على ذلك الدراسة التى سنقدم بها لهذه الأعمال .

* * *

وإذا كانت هذه هى أهمية الطهطاوى، وهذا هو مكانه من قيادة عالمنا العربى إلى

---

(١) المصدر السابق .

عصر التنوير والبعث والإحياء، فمن الطبيعى والمنطقى أن تتضح جهود الطهطاوى فى أذهان مثقفينا العرب والمسلمين، وأن تهتم مؤسساتنا التربوية بتعريف طلابها وتلاميذها بمكانه ومكانته من حركة النهضة العربية فى القرن التاسع عشر، وأن تدور حول حياته وأفكاره الأبحاث فى أقسام الدراسات العليا بالجامعات.. كما أن الطبيعى والمنطقى أيضا، أن يتصدر الرجل أى بحث أو دراسة يقوم بها مستشرق أو مؤرخ لحركة النهضة الشرقية الحديثة، وخاصة ما يتعلق منها بميادين التربية والتعليم والترجمة والتأليف..

هذا هو الطبيعى والمنطقى.. أما الواقع فغير ذلك.. بل ضد ذلك على طول الطريق؟!! وهذه مجرد أمثلة:

١ - المستشرق الألمانى الشهير «كارل بروكلمان» [١٨٦٨ - ١٩٥٦م] يكتب كتابه الكبير والهام عن (تاريخ الشعوب الإسلامية)، وفى هذا الكتاب يعقد قسما يتحدث فيه عن مصر فى القرن التاسع عشر، ويتناول الحديث عن الحياة الأدبية فيها، وحركة التجديد الدينى، والنهضة والتعليم فى عهد الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢هـ/ ١٨٣٠ - ١٨٩٥م].. وفى هذا القسم الذى يستغرق من الكتاب قرابة المائة صفحة لا ترد إشارة واحدة إلى رفاعة الطهطاوى؟![١].

٢ - والمستشرق الدكتور فيليب حتى، يضع مع الدكتورين إدورد جرجى، وجبرائيل جبور كتاب (تاريخ العرب) - (المطول) - وفى الجزء الثالث منه يتحدثون عن عصر محمد على، مؤسس مصر الحديثة[٢]، وعن تأثير الغرب ونفاذ ثقافته إلى مصر[٣]، ومع ذلك لا يشير المؤلفون، حتى مجرد إشارة، إلى رفاعة الطهطاوى؟!!

---

(١) انظر الطبعة العربية لهذا الكتاب ص ٥٣٥ - ٦١٨ ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكى. طبعة بيروت سنة ١٩٦٨م.

(٢) ص ٨٥١ طبعة بيروت سنة ١٩٥٣م.

(٣) ص ٨٧٦ وما بعدها.

٣ـ و«تيودور رتشتين» صاحب المؤلف الفذ (تاريخ المسألة المصرية) يتناول فى كتابه دراسة عصر الخديو إسماعيل والتعليم فى ذلك الحين، ومع ذلك لا يشير مطلقا إلى رفاعة الطهطاوى[١]، رغم أن الطهطاوى كان يومئذ ملء السمع والبصر والعقل، ورغم صلاته الوثيقة بحركة التعليم. . بل لقد كان العضو الوحيد الدائم «بقومسيون المدارس» يومئذ[٢]؟!.

٤ـ والمستشرق السوفيتى فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكى» (١٩٠٦ ـ ١٩٦٢) وهو أكبر متخصص سوفيتى فى مجال تاريخ البلاد العربية الحديث والمعاصر. . يكتب كتابه القيم عن (تاريخ الأقطار العربية الحديث)[٣]، ويخصص الفصل الثالث منه للحديث عن «مصر تحت حكم محمد على»، والفصل الثانى عشر عن «مصر فى منتصف القرن التاسع عشر» (١٨٤١ ـ ١٨٧٦م)[٤]، ومع ذلك لا يرد فى هذا الكتاب ذكر لرفاعة الطهطاوى؟!!

٥ـ والكاتب الأمريكى، «ناداف صفران» (Nadav Safran) ـ وهو من اليهود المصريين الذين هاجروا إلى أمريكا ـ يكتب كتابا عن (مصر تسعى إلى تكوين جماعة سياسية ـ تحليل لتطور مصر الثقافى والسياسى من ١٨٠٤ إلى ١٩٥٢م) ورغم أنه يعرض للفترة التى صنع فيها الطهطاوى الوجه الجديد والمتطور لثقافة مصر والعرب، فهو يتجاهل الطهطاوى بشكل مطلق؟!![٥].

ما سر هذا التجاهل شبه «الجماعى»!! الذى شارك فيه باحثون من الشرق والغرب، ومن اليمين واليسار؟!. . قد نستسيغ أحيانا تعليل تجاهل بعض الباحثين

---

(١) انظر الطبعة العربية لهذا الكتاب، ترجمة عبد الحميد العبادى، ومحمد بدران. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠م.

(٢) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٥٠.

(٣) انظر الطبعة العربية لهذا الكتاب ص ٥٧ ـ ٧٥. طبعة موسكو.

(٤) ص ١٨٣ وما بعدها.

(٥) انظر تعليق الدكتور وليم سليمان قلادة على هذا الكتاب. مجلة (الطليعة) المصرية عدد سبتمبر سنة ١٩٧٢م. ص ١١٨ ـ ١٢٤.

للطهطاوى بموقفهم المعادى للتطور العقلانى للعرب، وترويجهم لفكرة: أن العرب، وضمنهم مصر، لا يصلح لها إلا نمط الفكر العثمانى الذى سادها قبل عصر محمد على. . ومن ثم يكون التجاهل للطهطاوى ثمرة لهذا الموقف غير الأمين فى دراسة تطورنا الثقافى فى القرن التاسع عشر. .

وقد نعلل هذا التجاهل عند بعض الباحثين بأن نرده إلى نقلهم عن مصادر تجاهلت الرجل لغياب آثاره الفكرية عن الوجود بأيدى هؤلاء الباحثين!!. . ورغم أن هذا التعليل غير منطقى، ولا ينهض عذرا لباحث يتناول تاريخنا الفكرى فى هذه المرحلة التى عاشها وقاد صناعة حضارتنا وثقافتنا فيها الطهطاوى. . إلا أن هذا «التعليل» يقودنا إلى الجانب الأهم فى الموضوع، والذى يتعلق بمسؤوليتنا نحن العرب عن هذا الصمت وذلك التجاهل الذى حدث للطهطاوى من قبل هؤلاء الباحثين. .

فلا جامعاتنا أعطت الرجل حقه، فى رسائلها الجامعية، ودراساتها العليا، ودورياتها العلمية المتخصصة. .

ولا مدارسنا حرصت على إبراز دوره، وهداية الناشئة إلى مكانه من تاريخنا الفكرى والحضارى الحديث. .

ولا وزارات الثقافة عندنا، بهيئات النشر والتأليف فيها، قدمت عن الرجل من المؤلفات والأبحاث ما يفى بحقه على الثقافة العربية الحديثة. .

بل إن رؤية ـ مجرد الرؤية ـ لآثار الرجل الفكرية، المطبوعة، المؤلف منها والمترجم، هو أمر شديد التعذر أحيانا، ومستحيل، لفقدانها، فى بعض الأحايين. . ناهيك عن آثاره الفكرية التى لا تزال مخطوطة، لم تطبع، والتى لا زالت حبيسة فى مكتبته الخاصة التى أهدتها أسرته إلى مكتبة بلدية «سوهاج» سنة ١٩٣٢م. . وناهيك أيضا عن آثاره الفكرية التى «دشتت» وتحولت إلى أوراق مبعثرة جمعتها أسرته فى عدد من الصناديق تنتظر من يفحصها ويرتبها ويعيدها إلى عالم النور!!

هذه هى مسئوليتنا نحن، وقبل أن نحمل أمانتها، وننهض بعبئها، فنجمع كل تراث الرجل الفكرى الإبداعى، ونحققه التحقيق العلمى، وننشره النشر اللائق به، ونقدم بين يديه بدراسة مستفيضة تعيد فكر الرجل حيا ومؤثرا من جديد، وإلى الأبد، فى حياة العرب الثقافية ومحافلهم الفكرية، وعقول أجيالهم الحاضرة والمستقبلة. . قبل أن ننهض نحن بهذه المسئولية، لا أعتقد أن من حقنا أن نوزع الاتهامات على الباحثين الأجانب الذين تجاهلوا الطهطاوى فيما كتبوا عن عصره من دراسات.

وهذه المهمة الصعبة والجليلة التى نحمل الآن عبئها، ونسعى لإنجازها، والوفاء بتبعاتها، بتقديمنا إلى المفكرين والباحثين والقراء، العرب وغير العرب، هذه (الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى) ـ فى خمسة أجزاء ـ وبين يديها دراستنا المستفيضة عن فكره فى التمدن والحضارة والسياسة والاجتماع.

* * *

ونحن نجد من الضرورى، قبل ختام هذا التمهيد، أن ننوه بالجهود التى أفردت وخصصت للحديث عن الطهطاوى، وإن كانت قليلة لا تنهض بما للرجل وفكره علينا من ديون. . وفى مقدمتها:

١ ـ كتاب الدكتور جمال الدين الشيال [١٣٢٩ ـ ١٣٨٧هـ/ ١٩١١ ـ ١٩٦٧م] عن (رفاعة رافع الطهطاوى) الذى أخرجه فى صورتين متميزتين. . إحداهما تلك التى صدرت فى سلسلة (مجموعة أعلام الإسلام) سنة ١٩٤٥ م، وثانيتهما تلك التى صدرت فى مجموعة (نوابغ الفكر العربى) وطبعت طبعتها الثانية سنة ١٩٧٠م. . وهما مستخرجان من رسالة الماجستير التى قدمها الدكتور الشيال عن (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على). .

٢ ـ كتاب الدكتور أحمد بدوى عن (رفاعة رافع الطهطاوى) والذى صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٥٩م.

٣ ـ كتاب الدكتور حسين فوزى النجار عن (رفاعة الطهطاوى) الصادر فى سلسلة أعلام العرب (رقم ٥٣).

أما فيما يتعلق بالموقف من الأعمال الفكرية التى أبدعها الطهطاوى، وغيابها من المكتبة العربية، واستحالة حصول المثقفين والباحثين عليها، فلا نعتقد أن هناك جهدا، يفى بهذا الغرض، قد بذله باحث قبل هذا الجهد الذى نتقدم به الآن إلى المفكرين والباحثين والقراء. . .

وهذه الحقيقة تستوجب منا كلمات نسوقها عن الطبعة التى أخرجها، بالقاهرة، (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية) لكتاب الطهطاوى (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) بمناسبة احتفال المجلس بذكرى وفاة الطهطاوى الخامسة والثمانين سنة ١٩٥٨م. . وهى الطبعة التى «أشرف على إخراجها، وحققها وعلق عليها، وقدم لها» الأساتذة: الدكتور مهدى علام، والدكتور أحمد أحمد بدوى، والدكتور أنور لوقا. .

وواجبنا فى هذا التقديم أن نشيد بالجهد الذى بذل من هؤلاء الأساتذة الأفاضل فى إعادة (تخليص الإبريز). . فمثلا:

١ ـ لم ينشر المحققون النص الكامل للكتاب، كما كتبه المؤلف، فتعمدوا حذف أجزاء من النص قالوا إنها « بعض العبارات التى كانت تستخدم عادة عند ذكر أسماء الحكام تفخيما لهم، مما كان متبعا فى عصر المؤلف. **ولم يمس هذا الحذف ما فى الكتاب من الحقائق العلمية أو التاريخية**»[١].

ولكن. . هل حقا اقتصر الحذف ـ وهو غير جائز فى التحقيق لهذا الكتاب أصلا ـ على عبارات التفخيم للحكام، و «لم يمس هذا الحذف ما فى الكتاب من الحقائق العلمية أو التاريخية. . »؟؟.

نحن نأسف إذ نقول: إن الحقيقة غير ذلك، وأن هذا الحذف قد شوه أشياء كثيرة من كتاب الطهطاوى، وتناول حقائق تاريخية لا بد للباحث فى الطهطاوى من الاطلاع عليها. . وعلى هذه الحقيقة نقدم الدليل. . . فمثلا:

---

(١) انظر الطبعة المشار إليها ص ٣١٥.

(أ) فى (الفصل الأول) من (المقالة الخامسة) من الكتاب، يتحدث الطهطاوى عن النظام الجمهورى، ثم يستطرد ليمثل له بأنه مثل «جمهورية همام» [1].
و«همام» هذا هو أحد مشايخ القبائل العربية بصعيد مصر، قاد ثورة ضد المماليك والأتراك فى عهد على بك الكبير (١١٤٠ - ١١٨٧هـ ١٧٢٨ - ١٧٧٣م). . ولقد أسقطت هذه الطبعة ذلك النص الهام، فأسقطت من هذا الكتاب الإشارة إلى هذه الثورة، وتقييم الطهطاوى لنظامها السياسى الجمهورى، وعلاوة على حرمان الباحث من العثور على هذه الحقيقة التاريخية والسياسية فى كتاب الطهطاوى، فإن هذا الحذف قد يفسر على أنه إرضاء للذين يحاولون تزييف التاريخ القديم وطمس صفحاته المشرقة. . حتى لا يقال مثلا إن فى تاريخ مصر من أقام نظاما جمهوريا، أو حاول ذلك، قبل سنة ١٩٥٣م؟!!!

(ب) فى (الفصل الأول) من (المقالة الثانية) من الكتاب حذف المحققون نحو صفحة من الشعر الذى استشهد به الطهطاوى «للشهاب الحجازى»، و «الصفتى» وغيرهما، فى الطبيعة. . وأهم من ذلك فإن بين الشعر المحذوف شعرا فى مدينة «عكا» وحديثا عن فتح الجيش المصرى لها وشعرا فى هذا الفتح الذى انتصر فيه الجيش المصرى بقيادة إبراهيم باشا [١٢٠٤ - ١٢٦٤هـ ١٣٩٠ - ١٨٤٨م] على الجيش العثمانى. . [2].

فإذا علمنا أن هذا الفتح قد حدث لعكا سنة ١٨٣٢م، أى بعد تأليف (تخليص الإبريز) فى باريس، أثناء بعثة الطهطاوى، وقبل صدور الطبعة الأولى للكتاب سنة ١٨٣٤م. أدركنا أن هذا الشعر فى فتح «عكا» قد أضافه الطهطاوى لنص الكتاب قبل طبعه، وأنه قد فعل ذلك ليعبر عن رأيه فى هذا الموقف وذلك الفتح الذى كان مبعث فخر للوطنية المصرية ضد العثمانيين، وأدركنا كذلك أن مثل هذا النص

---

(١) مكان النص المحذوف فى الطبعة المشار إليها ص ٢٥٢، فانظره فى طبعتنا هذه.

(٢) مكان النص المحذوف فى الطبعة المشار إليها ص ١١٠، فانظره فى طبعتنا هذه.

المحذوف هو من النصوص الضرورية التى لا غنى عنها فى أى تقييم دقيق وموضوعى لفكر الطهطاوى وموقفه من الخلافة العثمانية، والوطنية المصرية، والصراع الذى بينهما فى ذلك التاريخ . . .

(ج) فى (الفصل الأول) من (المقالة الثالثة) قصيدة شعرية نظمها الطهطاوى فى مصر ومحمد على، أثناء مقامه، مبعوثا، فى باريس . . وعدد أبيات هذه القصيدة ثمانية وأربعون بيتا، حذفت طبعة (المجلس الأعلى) منها ستة عشر بيتا، تحدث فيها الطهطاوى عن محمد على، **وعن انتصاراته ضد العثمانيين فى حروب الشام**.. [1] وهو فكر لا غنى عنه - كما قلنا - فى دراسة موقفه الوطنى والقومى وتقييمه لسلطة العثمانيين وخلافتهم وسلطانهم (بل إن لهذه الأبيات أهمية أخرى، حيث أنها من إضافات رفاعة التى أحدثها بعد عودته، وضمها للقصيدة، فلم تكن هذه الأحداث قد حدثت بعد وهو بباريس . . ففيها ضوء على إضافاته إلى هذا الكتاب الذى وضعه بباريس) . .

(د) وتصنع هذه الطبعة نفس الشئ عندما تحذف من (الفصل الأول) من (المقالة الثالثة) حديثا للطهطاوى عن فتح محمد على «لعكا» ومدن الشام والروم (الأتراك)[2]، وهو نص هام - كما قدمنا - فى تقييمه لهذه الأحداث وموقفه من الأتراك . .

(هـ) فى آخر (الفصل السابع) من (المقالة السادسة) تحذف طبعة (المجلس الأعلى، كلاما هاما للطهطاوى تحدث فيه عن آماله فى تقدم العلم بدولة محمد على، ومن العبارات المحذوفة تلك العبارة التى يقول فيها: « . . . حتى تعد دولته من الأزمنة التى تؤرخ بها العلوم والمعارف المتجددة فى مصر **تجددها فى زمن خلفاء بغداد!**».. [3] وهى عبارة ذات دلالة على طموح الطهطاوى، وعلى تحديد

---

(١) انظر فى الطبعة المشار إليها ص ١١٤، ١١٥ وقارن بالطبعة التى حققناها ونشرناها فى هذه الأعمال.

(٢) مكان النص المحذوف فى الطبعة المشار إليها ص ١١٠ فانظره فى طبعتنا هذه.

(٣) مكان العبارات المحذوفة فى الطبعة المشار إليها ص ٢٩٩، فاظرها فى طبعتنا هذه.

النموذج الحضارى التاريخى الذى كان فى ذهن الرجل، يريد أن يحذو حذوه ويستلهم تجربته، وهو ينجز المشاريع الكبار التى خطط لها وأشرف عليها وأبدع فيها كل الإبداع . .

كل هذه الأمثلة ـ وهى مجرد أمثلة ـ تثبت أن هذا الحذف الذى أجراه الأساتذة المحققون (لتخليص الإبريز) قد تجاوز «حذف بعض العبارات التى كانت تستخدم عادة عند ذكر أسماء الحكام تفخيما لهم، مما كان متبعا فى عصر المؤلف»، وأن هذا الحذف قد امتد إلى «الحقائق العلمية والتاريخية» فى الكتاب بما يقرب من «التشويه» إذا نحن التزمنا قواعد التحقيق العلمى للنصوص . .

٢ ـ بل إن ذلك لم يكن كل ما أصاب هذه الطبعة (لتخليص الإبريز) من التشويه» . . . فبعد هذا الحذف الذى أجراه الأساتذة المحققون، جاء دور «المصحح» الذى أشرف على «تصحيح» تجارب الطبع للكتاب، فأجرى هو الآخر ما شاء أن يجريه من «التشويه»!!.

ونحن لن نقدم الأمثلة على صنيعه هذا، بل نكتفى بذكر رأى الأساتذة المحققين فى هذا التجاوز الذى قام به، فلقد تفضلوا مشكورين بالتنبيه عليه فى الكتاب تحت عنوان (تنبيه واعتذار) وقالوا: إنه قد «عهد بتجارب الطبع إلى مصحح أقحم نفسه فى العمل فشوه بعض نصوص الكتاب، وأفسد الكثير من تعليقاتنا عليه!!»(١).

وهذه الحقائق التى قدمناها، عن طبعة (تخليص الإبريز) هذه، تؤكد على الضرورة القصوى والأهمية البالغة للعمل الذى نحاول النهوض به هنا، بتحقيق الأعمال الفكرية الإبداعية الكاملة للطهطاوى، بعد جمعها وتبويبها، والتقديم بين يديها بدراسة مستفيضة عن الرجل والمعالم البارزة فى فكره عن الحضارة والتمدن والسياسة والاجتماع . . فذلك هو السبيل إلى حضور فكر الطهطاوى كى يعاود فعاليته وتأثيره فى دفع عجلة التطور لهذه الأمة نحو مزيد من التقدم والتحرر والإسهام فى إثراء الرصيد الحضارى والثقافى للإنسان بوجه عام.

---

(١) انظر فى الطبعة المشار إليها ص ٣٢٠.

بطاقة حياة

{بنو الآداب إخــوان جــمــيــعــا — وإخـــوان بمخـــتلـف البـــلاد

وآدابـى تســـــامـى بى الـذرارى — على شـــعـــثى وتُبلغـنى مـــرادى

وحـــسـبى أننى أبرزت كـــتـــبـــا — تبـــيـــد كـــتــائـبــا يوم الـطراد

على عـــدد التـــواتر مـــعـــرباتى — تفـى بفنـون سلـم أو جـــهـــاد}

الطهطاوى

لن نحاول هنا كتابة «ترجمة» مستفيضة لحياة الطهطاوى وسيرته، فنحن نترك ذلك لكتاب التراجم والسير . . . وإنما المهمة التى نريد إنجازها من وراء تقديم (بطاقة حياة) الطهطاوى، فى هذه الصفحات، هى أن نوجز ونكثف كل ما يتعلق بالواقع والأحداث والمواقف والتطورات والإنجازات التى تمثل المعالم البارزة فى حياة هذا الرجل العظيم، والعطاء الذى قدمه لوطنه وأمته . . وهذه المعالم من الممكن أن تنظمها مراحل مرت بها حياة الطهطاوى، تميزت كل مرحلة منها بما يجعل لها بعض الخصوصيات عن ما عداها من مراحل حياته . . أما هذه المراحل التى سنجعل منها درجات السلم الذى صعده الطهطاوى منذ ولادته سنة ١٨٠١م حتى وفاته سنة ١٨٧٣م فإنها :

١ ـ **مولده ونشأته الأولى..** (١٨٠١ ـ ١٨١٧م) : وما اكتنف حياته، كطفل، من صعاب، وما بذل هو وبُذل معه من جهود فى سبيل سلوكه طريق العلم والثقافة الدينية .

٢ ـ **فى الجامع الأزهر.. طالبا** (١٨١٧ ـ ١٨٢٢م) : وما أحاط بطلبه للعلم من ظروف مادية معوقة، وما سلكه الطالب من سبل لتذليل هذه الصعاب والتغلب على هذه العقبات، وما أحرز خلال طلبه العلم بالأزهر من التفوق والنبوغ، ودور الشيوخ الذين تتلمذ عليهم فى تكوينه الفكرى المبكر .

٣ ـ **فى الأزهر.. مدرسا** (١٨٢٢ ـ ١٨٢٤م) : وهى الفترة التى استغرقت من حياته عامين لفت فيهما الأنظار واسترعى الانتباه .

٤ ـ **فى الجيش .. واعظا وإماما** (١٨٢٤ ـ ١٨٢٦م) : والأمر الذى اضطره إلى ذلك العمل بدلا من التدريس بالأزهر الشريف .

٥ ـ **فى باريس** (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) حكاية السنوات الخمس التى قضاها الطهطاوى فى البعثة المصرية بباريس، حيث ذهب إليها كى يتلو القرآن ويعظ الطلاب ويؤمهم فى الصلاة، وعاد منها كى يترجم علوم الحضارة الأوروبية وفنونها ويؤم الشرق العربى والعالم الإسلامى فى تخطى عصور التخلف والولوج إلى رحاب عصر التنوير، والدقائق والتفاصيل التى شهدتها هذه السنوات الخمس من حياته.

٦ ـ **العودة من باريس، وسنوات الصعود** (١٨٣١ ـ ١٨٥٠م) وهى سنوات تقرب من العشرين، تولى فيها الطهطاوى من المناصب، وترجم فيها من الكتب، وأقام فيها من المؤسسات التربوية والفكرية، وخرّج فيها من التلاميذ والمريدين والمثقفين ما غير وجه الواقع الثقافى فى البلاد، وأضاف إلى البناء المادى الحديث، الذى أقامه محمد على، الجانب الفكرى والحضارى، وهو الأمر الذى ما كان بدونه أن يقول قائل: إن الشرق قد عرف طريقه إلى العصر الحديث.

٧ ـ **النكسة.. والمنفى فى السودان** (١٨٥٠ ـ ١٨٥٤): وهى السنوات التى انتكست فيها جهود الطهطاوى فى ظل سلطة الخديو عباس الأول [١٢٢٨ ـ ١٢٧٠هـ/ ١٨١٣ ـ ١٨٥٤م]، الرجعية، وما عاناه فيها، وما أنجزه فى الخرطوم.

٨ ـ **العودة واستئناف الصعود** (١٨٥٤ ـ ١٨٧٣م): وهى الفترة التى حكم فيها الخديو سعيد [١٢٣٧ـ ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ ـ ١٨٦٣م]، وسنوات من عصر الخديو إسماعيل، وجهود الطهطاوى لوصل ما انقطع من الجهود الفكرية والثقافية والتربوية، وما تميزت به هذه الفترة من إنجازات استمر الرجل فى تقديمها إلى وطنه وشعبه فى سخاء نادر حتى توفاه الله.

٩ ـ **آثاره الفكرية وأسلوبه فى الإنشاء**: والأمور التى ميزته، ومكانه من حركة التطور فى التعبير العربى الحديث. ومكانه من حركة التأليف والترجمة، وقيمة مؤلفاته ومترجماته فى حركة بعثنا ونهضتنا، وما طبع من مؤلفاته قديما، وما تنفرد

(الأعمال الكاملة) التى نقدم لها الآن بنشره للمرة الأولى من المخطوطات التى حررها.

١٠ ـ صفاته الخُلقية والخلقية: والملامح البارزة التى تجعل القارئ المعاصر يتمثل فى ذهنه الصورة الحقيقية لذلك الرجل الذى أحدث فى حياتنا كل هذا التأثير . .

١١ ـ وفاته: ومشاعر الأمة، فى مصر والوطن االعربى، عند حدوثها، والصور التى عبرت بها عن الوفاء لهذا الرائد الذى أعطاها عقله وجهده فى دأب ومثابرة واستمرارية جديرة بالتأمل والاحتذاء . .

فهى إذن (بطاقة حياة) نوجز فيها ونكثف أبرز معالم سيرة هذا الرجل، حتى تتضح أمام القارئ معالم هذه السيرة قبل أن نقدم له دراستنا عن فكره، التى يليها ما أبدع الرجل من أعمال.

ـ ١ ـ

* فى مدينة «طهطا»، إحدى مدن محافظة «سوهاج» بصعيد مصر، ولد رفاعة رافع الطهطاوى فى ١٥ من أكتوبر سنة ١٨٠١م (٧ من جمادى الثانية سنة ١٢١٦هـ) . . وكان نسب والده: بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع، يتصل، عبر عدد من أشراف الصعيد وعلمائه وقضاة الشرع فيه، ومارا بالأئمة: جعفر الصادق، ومحمد الباقر، وزين العابدين، إلى الحسين بن على بن أبى طالب . . أما أمه السيدة: فاطمة بنت الشيخ أحمد الفرغلى، فإن نسبها يرتفع عبر عديد من العلماء والصالحين إلى الأنصار، وإلى قبيلة «الخزرج» بالتحديد . .

* وكانت عائلة والد الطهطاوى ـ وهم من الأشراف ـ ذوى مال ويسار، فلقد كانت «للأشراف» فى ذلك العصر امتيازات مالية، منها «الالتزامات» التى كانت لهم فى الأرض، والتى كانوا بها يدخلون فى عداد الأغنياء أو الإقطاعيين . .

ولكن الطهطاوى الذى ولد قبل تولى محمد على حكم مصر بأربع سنوات قد

شهدت طفولته المبكرة إلغاء محمد على لنظام «الالتزام» وسحبه للامتيازات الاقتصادية التى كان يتمتع بها الأشراف والشيوخ . . فبعد أن كانت هذه الأسرة «زمن أسلافه ذات شأن واعتبار، وثروة كثيرة ويسار، عدت عليها عوادى الأيام، وقعد بها الدهر مدة من الزمان . . »(1) وذلك عندما «أخذت الالتزامات من العلماء والأشراف . . »(2).

* ولقد ترتب على سحب «الالتزامات» من أسرة الطهطاوى أن أصاب هذه الأسرة ضيق اقتصادى، اضطر والده بدوى رافع إلى أن يهجر موطنه «طهطا» سنة ١٨١٣م، ويصحب معه ابنه رفاعة، وسنة يومئذ اثنى عشر عاما . . . حيث لجأ إلى أسرة تربطها بأسرته قرابة هى أسرة «أبو قطنة» فى بلدة « منشأة النيدة» بالقرب من مدينة «جرجا» . . كما لجأ الوالد بابنه إلى مدينة «قنا» زمنا . . وإلى مدينة «فرشوط» زمنا آخر . .

* وفى أثناء هذه السياحة، التى تغرب فيها الصبى رفاعة عن مسقط رأسه «طهطا»، أجاد تعلم القراءة والكتابة، وأتم حفظ القرآن الكريم فى «منشأة النيدة» . . وبعد أن توفى والده فى هذه السياحة، وأصبح وحيدا، عاد إلى موطنه «طهطا» لتكفله أسرة أخواله.

* وكانت أسرة أخوال رفاعة زاخرة بالشيوخ والعلماء والصالحين: الشيخ محمد الأنصارى، والشيخ عبد الصمد الأنصارى، والشيخ عبد العزيز عبد الصمد الأنصارى والشيخ فراج الأنصارى . . وكانت لبعضهم شروح على مؤلفات فى النحو، ومنظومات على بعض «المتون»، وتخميسات لبعض دواوين الشعر . . وتقارير على بعض كتب الفقه فى مذهب الإمام الشافعى.

وفى هذا الجو العلمى نمت مدارك رفاعة، ورعاه هؤلاء الأخوال، فحفظ «جميع

---

(١) صالح مجدى (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن - سيرة رفاعة رافع الطهطاوى) ص ٢٠، ٢١ تحقيق د. جمال الدين الشيال. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.

(٢) على مبارك (الخطط الجديدة) جـ١٣ ص ٥٣.

المتون المتداولة فى المعقول والمنقول»[1]. «وحضر بعض الكتب عليهم فقها ونحوا..»[2].. فقطع بذلك رفاعة بعض الطريق فى دراسة المنهج الذى كان يتلقاه يومئذ طلاب الأزهر الشريف.

* * *

-٢-

* وعندما بلغ رفاعة السادسة عشرة من عمر قررت والدته وأخواله إلحاقه بالجامع الأزهر، فى القاهرة، فركب نهر النيل من طهطا إلى القاهرة فى رحلة ملاحية استغرقت نحو أسبوعين شاقين من الملاحة البدائية؟! حيث التحق بالأزهر فى سنة ١٨١٧م (١٢٣٢هـ) بعد أن مضى نصف العام الدراسى الأزهرى.. ولقد أعانته الدروس التمهيدية التى تلقاها على يد أخواله «بطهطا» على مواصلة الدرس مع زملاء سبقوه إلى حلقات الدرس بنصف عام.. كما ساعده على ذلك جد ومثابرة واستعداد واضح للنبوغ..

* وبعد نصف عام من الدرس بالجامع الأزهر عاد رفاعة في إجازة الصيف إلى مسقط رأسه، فأدهش أقاربه ومواطنيه عندما جلس بالجامع اليوسفى فى مدينة «ملوى» كى يلقى دروسا يشرح فيها كتاب (صغرى الصغرى) للسنوسى؟![3].

* وفى العام الدراسى التالى انتظم رفاعة من بدايته فى تلقى الدروس بالجامع الأزهر، واستمر فى هذا الانتظام ست سنوات تأهل بعدها ليكون أحد العلماء الذين ينتقلون من ميدان التلمذة والطلب إلى مجال التدريس، فى نفس الأزهر الذى تعلم فيه.

---

(١) (حلية الزمن) ص ٢١.
(٢) (الخطط الجديدة) جـ١٣ ص ٥٣.
(٣) (حلية الزمن) ص ٢٣.

وفى تلك السنوات تلقى رفاعة العلم عن عديد من شيوخ الأزهر الأعلام، بل لقد أتيحت له الفرصة ـ بفضل نظام الدراسة الحرة يومئذ فى تلك الجامعة العتيقة ـ أن يتتلمذ على عدد من الشيوخ الذين وصل بهم علمهم إلى تولى منصب مشيخة الأزهر الشريف.

. . . لقد درس (صحيح البخارى) على الشيخ الفضالى (المتوفى سنة ١٨٢٠ م سنة ١٢٣٦هـ).

. . . ودرس (جمع الجوامع) فى الأصول، و (مشارق الأنوار) فى الحديث على الشيخ حسن القويسنى ـ الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٤م (سنة ١٢٥٠هـ).

. . . ودرس (الحكم) لابن عطاء الله السكندرى على الشيخ البخارى (المتوفى سنة ١٨٤٠م سنة ١٢٥٦هـ).

. . . ودرس (تفسير الجلالين) على الشيخ البنا، شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطى.

. . . ودرس (مغنى اللبيب) و (جمع الجوامع) على الشيخ محمد حبيش (المتوفى سنة ١٨٥٢م، سنة ١٢٦٩هـ).

. . . ودرس (شرح ابن عقيل) على الشيخ الدمنهورى (المتوفى سنة ١٨٦٩م سنة ١٢٨٦هـ).

. . . ودرس (الأشمونى) على الشيخ أحمد الدمهوجى ـ الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٨م (سنة١٢٥٤هـ)، (والمتوفى سنة ١٨٤٨مسنة ١٢٦٤هـ).

. . . كما درس على الشيخ إبراهيم البيجورى (١١٩٨ ـ ١٢٧٧هـ ١٧٨٣ ـ ١٨٦٠م) والذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١٨٤٧م سنة ١٢٦٣هـ. .

وكان أهم أستاذ تتلمذ عليه رفاعة من بين هؤلاء الشيوخ هو الشيخ حسن العطار ـ (١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م ١١٨٠ ـ ١٢٥١هـ) وهو الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١٨٣٠م سنة ١٢٤٦هـ، وكانت له فى حياة الطهطاوى العلمية والعملية مكانة

الراعى والموجه والدافع إلى الأمام . . . «فكانت تلمذته للشيخ العطار . . مستمرة من مبدأ دخوله الأزهر حتى سفره إلى باريس سنة ١٨٢٦م» . وكان له «الامتياز عند الأستاذ العطار عن سائر طلبته ، وكثيرا ما كان يلازم بيت الأستاذ المذكور فى غير الدروس ليتلقى عنه علوما أخرى كالتاريخ والجغرافيا والأدب . . »(١) وكان «يشترك معه فى الاطلاع على الكتب الغربية التى لم تتداولها أيدى علماء الأزهر» (٢) .

* واستمر رفاعة على عادته من إلقاء الدروس بالمساجد الجامعة بموطنه عندما يتحول إليه فى إجازات الصيف سنوات طلبه العلم بالأزهر . . فشهدت مساجد «طهطا» دروسه فى تفسير سورة «القدر» وقراءته وتفسيره لكتاب (شرح الملوى على «السمرقندية» بحاشية «الأمير») - (فى الاستعارات) - . . . حتى شهد له العلماء من أخواله بالسبق فى هذا المضمار .

* ولقد بدأت أولى محاولات رفاعة فى ميدان التأليف وهو لا يزال طالبا بالجامع الأزهر ، فنظم (أرجوزة فى التوحيد) حازت إعجاب الشيخ الفضالى . . وطلب منه أحد شيوخه «تأليف خاتمة» لكتاب «ابن هشام» (قطر الندى وبل الصدى) - فى النحو - « فأجابه لذلك» ، وألف هذه الخاتمة « بصحن الأزهر ، فى جلسة خفيفة ، مع أنه لم يكن عنده من المواد ما يستعين به فى تأليفه على إتمام المراد . . » وحازت هذه الخاتمة إعجاب أستاذه ، فختم بها دروسه التى ألقاها ذلك العام . . وكان رفاعة يومئذ فى سن العشرين؟! . (٣)

ولقد كان لجوء أساتذته إليه ، وثقتهم بقدراته ، واعتمادهم فى بعض الأحيان عليه مدعاة للجوء زملائه الطلاب إليه «فى حل الغوامض» التى تعترضهم فى الدرس والتحصيل . . (٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣ - ٢٥

(٢) (الخطط الجديدة) جـ ١٣ ص ٥٣ .

(٣) (حلية الزمن) ص ٢٥ ، ٢٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٩ .

* ولم يكن جهاد الطهطاوى سنوات درسه بالأزهر مخصصا كله للدرس والتحصيل.

فلقد كان الطالب الذكى الطموح يعانى من عسر مالى لازم الأسرة منذ طفولته . . . وكانت والدته الصامدة الصبورة تجتهد لتعين ولدها على طلب العلم بثمن ما تبيعه من بقايا الحلى والعقار التى بقيت لديها من سنوات اليسار . . بل لقد احترف رفاعة العمل بالتدريس أثناء درسه بالأزهر . . فكان «أثناء مجاورته بالأزهر يعبر النيل كل يوم ليقرأ بالجانب الغربى منه، درسا لجناب حسين بك، نجل المرحوم طوز أوغلو»؟! كما عمل مدرسا بالمدرسة الخاصة التى أنشأها، فى داره، «محمد لازوغلو» كى يتعلم فيها «المماليك وغيرهم»؟! . . [1] فاحترف صناعة التدريس فى قصور الأثرياء كى يستعين بدراهمهم على بلوغ الغايات الطموحة التى رحل فى سبيلها من «طهطا» إلى ساحات الأزهر الشريف.

* * *

-٣-

* فى سنة ١٨٢١، تخرج رفاعة من الجامع الأزهر، وكانت سنه يومئذ واحدا وعشرين عاما . . فجلس للتدريس فى نفس الجامع الأزهر بعد أن أثبت جدارة فى هذا العمل الذى كان خاضعا للكفاءة والتجربة وحكم الطلاب الدارسين . . فلقد كانت الدراسة حرة، يقبل الطلاب على من يلمسون الاستفادة منه، وينصرفون عمن لا يزودهم بما هو هام ومفيد . .

* ولقد ألقى الطهطاوى على طلبته دروسا فى علوم شتى، منها علوم: الحديث، والمنطق، والبيان والبديع، والعروض، وغيرها . . وكما يقول تلميذه، ومؤرخ حياته «صالح مجدى»: إن درسه كان «غاصا بالجم الغفير من الطلبة، وما منهم إلا من استفاد منه، وبرع فى جميع ما أخذ عنه، لما علمت من أنه كان حسن

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

الأسلوب، سهل التعبير، مدققا محققا، قادرا على الإفصاح عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ولا كد ولا نصب. . وكان إذا أراد أن يغوص فى المعانى الدقيقة، ويعترض، ويجيب، ويخطّئ، ويصوّب، ويجمع الفروع لأصولها، والأشياء لمداركها، لم يكد - لعلو نفسه - أن يفهم ما يلقيه إلا الألمعى الذكى الذهن!!»(١).

* وفى أحد الدروس التى جلس الطهطاوى ليلقيها على طلبته، شارحا لهم كتاب: (المعجم الوجيز فى أحاديث الرسول العزيز). كان أحد أخواله العلماء الشيخ فراج الأنصارى، وهو من العلماء الزهاد الذين كتبوا تقريرات نفيسة على (شرح الرملى) فى مذهب الإمام الشافعى - كان الشيخ فراج يجلس متخفيا بين الطلاب المجتمعين من حول رفاعة، يستمع معهم إلى إلقائه ويسبر غور علمه، فلم يتمالك نفسه أن صاح قائلا: «لله درك يا بن الأخت! لقد بلغت فى العلم درجة الأعلام، ونلت - بمساعدة اللغة - مرتبة تقف دون وصفها الأقلام!!»(٢).

* * *

- ٤ -

*كانت لدى الطهطاوى ميول طبيعية لاحتراف صناعة التدريس، قد مارسها، هاويا ومحترفا، منذ مرحلة طلبه العلم فى الأزهر، وها هو يمارسها، كعالم، بعد تخرجه، ويمكث فى ممارسته لها عامين (١٨٢٢ - ١٨٢٤م).

* ولم يكن التدريس بالأزهر يدر على صاحبه دخلا ماديا فى تلك الأزمنة، فلم يكن وظيفة حكومية لأصحابها الرواتب كما هو الآن. . وكانت الضائقة الاقتصادية التى لازمت أسرة رفاعة لا زالت تسبب له الأزمات، وكما دفعته هذه

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٨.

الضائقة، وهو طالب، إلى احتراف التدريس فى منازل الأثرياء والمدارس الخاصة التى يتعلم فيها المماليك، فلقد دفعته دفعا إلى أن يهجر عمله المحبب إليه ـ التدريس بالأزهر ـ فتحول إلى الوظائف «الميرية»، بل ودخل سلك العسكرية بالذات، وذلك عندما «اضطر سنة ١٢٤٠هـ» (١٨٢٤م) ـ كما يقول صالح مجدى ـ «إلى التحول عن خدمة الطلبة إلى خدمة الجيش. . . ، وأقام فى أحد (الآلايات) بوظيفة واعظ وإمام!»،[١] وكان ذلك، بداية، فى «آلاى» حسن بك المناسترلى. . ثم انتقل بعد ذلك إلى «آلاى» أحمد بك المنكلى[٢]. . واستمر فى هذا العمل حتى سنة ١٨٢٦م. .

* * *

- ٥ -

* وفى سنة ١٨٢٦م قررت الحكومة المصرية، إيفاد أكبر بعثاتها العلمية وأهمها إلى فرنسا، كى يطلب طلابها العلم الحديث هناك. . وكانت هذه البعثة هى الإطلالة الهامة والحقيقية للعنصر المصرى والعربى على الحضارة الأوروبية الحديثة فى مواطنها وديارها. . ذلك أن المجموعة التى هربت من مصر فى ركاب جيش الحملة الفرنسية المنسحب سنة ١٨٠١م قد ذابت فى المجتمع الفرنسى، «فتفرنست»، وانقطعت صلتها بالوطن، علاوة على شبه الخيانة والتعاون مع المحتل التى طبعت علاقتهم بالفرنسيين. . فلا تدخل ثقافتهم ولا ثمرات فكرهم فى إطار ما نعنيه بالإطلالة المصرية العربية الحقيقية والهامة على حضارة أوروبا فى باريس.

كما أن البعثة التى أرسلها محمد على إلى إيطاليا سنة ١٨١٣م لم يعرف من طلابها إلا طالب واحد هو «نقولا مسابكى أفندى»، وكانت بعثته إلى «ميلان»

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠.

(٢) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ٦٧.

لدراسة «سبك الحروف» وفن الطباعة . . وقد عاد بعد سنوات دراسته ليتولى منصب مدير مطبعة بولاق سنة ١٨١٢م.

كما كانت البعثة التى أرسلها محمد على إلى فرنسا سنة ١٨١٨م تستهدف دراسة الفنون الحربية والبحرية . . ولم يعرف من طلابها إلى طالب واحد هو «عثمان نور الدين أفندى» الذى عاد إلى مصر سنة ١٨٢٠م وتولى المناصب العسكرية حتى وصل إلى رتبة قائد الأسطول المصرى - «سر عسكر ورئيس العمارة البحرية» . سنة ١٨٢٨م، خلفا «لمحرم بك»، زوج بنت محمد على . .

أما هذه البعثة التى صحبها رفاعة الطهطاوى إلى باريس سنة ١٨٢٦م فإنها كانت، بحق، الإطلالة الهامة والحقيقية للعنصر الوطنى على الحضارة الأوروبية فى ربوعها . .

فلقد بلغ عدد أفرادها فى البداية اثنين وأربعين دارسا، انضم إليهم آخرون، فيما بعد، حتى بلغ عدد أفرادها ١١٤ طالبا.

وكان الطابع الوطنى واضحا فيها، فمن بين أربعة وثلاثين طالبا من طلاب هذه البعثة دخلوا أحد الامتحانات التى عقدت لهم بباريس سنة ١٨٢٨م كان هناك سبعة عشر مصريا من أصل عثمانى، وسبعة عشر مصريا وطنيا صميما . . والذين نالوا الجوائز على تفوقهم كانوا ١٧ مصريا وطنيا و١٦ مصريا من أصل عثمانى؟! . .

والتخصصات التى ذهبت هذه البعثة كى تدرسها وتتعمقها فى باريس لم تكن فقط «سبك الحروف وفن الطباعة» أو «الفنون الحربية والبحرية»، كما كان الحال في مبعوثى ١٨١٣ و ١٨١٨م، بل لقد امتدت دراساتهم إلى فروع وفنون مدنيه كثيرة ومتنوعة، وأيضا إلى العلوم والمعارف الإنسانية، فتوزع أفراد هذه البعثة على تخصصات مثل :

١ - الإدارة الحربية، بفروعها المختلفة . .

٢ - الإدارة الملكية، أى السياسة والإدارة - بما فى ذلك الإحصاء والاقتصاد السياسى - «ليكونوا من رجال السياسة» . .

٣ ـ الهندسة الحربية وعلم المدفعية . .

٤ ـ الكيمياء وعمليات السبك . .

٥ ـ الطب البشرى . .

٦ ـ الطب البيطرى . .

٧ ـ علوم البحرية وفنونها . .

٨ ـ الرسم والمعمار . .

٩ ـ الزراعة والاقتصاد الزراعى . .

١٠ ـ المعادن والتاريخ الطبيعى . .

١١ ـ الترجمة، الشاملة لمختلف العلوم والفنون والآداب .

ومع هذه التخصصات يدرسون جميعا : اللغة، والحساب، والرسم، والتاريخ، والجغرافيا(١) .

فهى إذن بعثة تستهدف أن يعود طلابها للإسهام فى بناء «دولة» وصنع «حضارة» لا أن يكونوا مجرد «عساكر» فى «الجيش» الوطنى الذى قام بمصر يومئذ للمرة الأولى منذ عصر الفراعنة الأقدمين ! !

* وفى البداية لم يكن رفاعة طالبا من طلاب هذه البعثة، بل لقد رشحه لصحبتها الشيخ حسن العطار، كى يقوم لطلابها بالوعظ والإرشاد، ويؤمهم فى الصلاة، وكان معه فى هذه الوظيفة الروحية شيخان آخران من شيوخ الأزهر . .

* ولم تكن والدة رفاعة راضية عن سفره إلى باريس، ولا متصوِّرة إمكانية احتمالها فراق ابنها الذى أصبح واعظا وإماما فى الجيش، بعد أن انفقت على تعليمه ثمن

---

(١) الأمير عمر طوسون (البعثات العلمية فى عهد محمد على، ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد ص ١٠ ـ ٢٦ طبعة الإسكندرية سنة ١٩٣٤م .

ما باعته مما كانت تمتلكه من حلى وعقار . . بل لقد اعتزلت هذه السيدة الطيبة قومها، وأضربت عن ممارسة الحياة العادية مدة غيابه فى باريس (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) «فأغلقت على نفسها الباب طول مدة الغياب» . . وعندما عاد الطهطاوى من باريس لم تكن تصدق «فأخذ ينبئها بعودته، ويقنعها بشخصيته، حتى فتحت له بابها غير مصدقة!!»(١) . . وهو الأمر الذى يعكس نظرة المجتمع الريفى المصرى ـ وخاصة فى الصعيد ـ يومئذ إلى مثل هذه الرحلات، التى رآها مغامرة يجب أن تقابل الدعوة إليها بالرفض أو الإحجام؟! . .

* ولكن رفاعة الذى كان قد درس مع أستاذه الشيخ حسن العطار بعض «العلوم الغربية» عن الأزهر ورجاله، وسمع من العطار عن علوم الفرنسيين وفنونهم التى اقترب منها الشيخ أثناء احتكاكه بعلماء الحملة الفرنسية، وآمن مثل أستاذه بأن «بلادنا لابد أن تتغير ويتجدد بها من العلوم ما ليس فيها» . . رفاعة هذا، رحب بترشيحه إماما وواعظا لهذه البعثة، بل وعزم على أن يكون أكثر من واعظ، وأكثر من إمام فى أمور الدين؟! . .

* وفى ربيع سنة ١٨٢٦م انتهز محمد على فرصة مرور السفينة الحربية الفرنسية «لاترويت» (La Truite) فكلف قبطانها «روبيلار» (Robillard) أن يحمل معه إلى «مرسيليا» أعضاء هذه البعثة، تمهيدا لنقلهم إلى باريس . . فتم ذلك، وأبحرت الباخرة بأعضاء البعثة من ميناء الإسكندرية فى يوم الخميس ٢٤ من أبريل سنة ١٨٢٦م (٦ من رمضان سنة ١٢٤١هـ) ووصلت إلى ميناء «مرسيليا» بعد شهر تقريبا (٩ من شوال سنة ١٢٤١هـ مايو سنة ١٨٢٦م) . .

* وفى عبور السفينة «لاترويت» البحر الأبيض المتوسط، فى طريقها إلى «مرسيليا»، مرت، لتتزود، بميناء «مسينة» بجزيرة «صقلية»، ومكثت به خمسة أيام، لم يغادر فيها الركاب السفينة إلى أرض الميناء، وكانت مشاعر الطهطاوى

---

(١) على عزت الأنصارى (رفاعة فى أسرته) بحث منشور فى كتاب (مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى) ص١٩٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠م.

وأحاسيسه تتطلع وتتسلل وتستكشف هذه العوالم الجديدة، وصادف أن أهل «مسينة» كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم التى تدق لها أجراس الكنائس بالمدينة، فتفجرت فى رفاعة أخيلة وأحاسيس كشفت عن نفس فنان أصيل، فاستدعى أحد زملاء البعثة الظرفاء، وانتحى به فى إحدى الليالى ركنا قصيا من السفينة، وحدثه فى أن يتباريا معا فى إنشاء «مقامة» على نمط «مقامات» «الحريرى» و«بديع الزمان الهمذانى» يدور مضمونها حول «ثلاثة معان»:

الأول: المجادلة فى أنه لا مانع من أن الطبيعة السليمة تميل إلى استحسان الذات الجميلة، مع العفاف، ونظم الطهطاوى فى ذلك شعرا، من بينه:

أصبو إلى كل ذلك جمال ... ولست من صبوتى أخاف

وليس بى فى الهوى ارتياب ... وإنما شيمتى العفاف

«**الثانى**: سكر المحب من معانى خمر عين محبوبه!»، وأنشأ الطهطاوى فى هذا المعنى شعرا جاء فيه:

قد قلت لما بدا، والكأس فى يده ... وجوهر الخمر فيها شبه خديه

حسبى نزاهة طرفى فى محاسنه ... ونشوتى من معانى سحر عينيه!

«**الثالث**: فى تأثر النفس بضرب الناقوس، إذا كان من يضرب الناقوس ظريفا يحسن ذلك!»، كما تخيل الطهطاوى نواقيس كنائس «مسينة» وهى تضرب فى يوم العيد.. وفى ذلك أنشد يقول:

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له

من علّم الظبى ضربا بالنواقيس

وقلت للنفس: أى الضرب يؤلمك

ضرب النواقيس؟ أم ضرب النوى؟ قيسى[1]!!

---

(١) الطهطاوى (تخليص الإبريز) المقالة الأولى. الفصل الرابع.

وعلى الرغم من أن الرجل لم يكن محترفا للشعر . . وبالرغم من قوله :

ومـا نظم القـريض برأس مـالى ولا سـنـدى أراه ولا سـنـادى

إلا أنه قد عبر بشعره هذا الذى أنشأه فى ميناء «مسينة» عن ذوق شاعر وحسّ فنان انطلقت كل مشاعره وأحاسيسه تتطلع إلى هذا العالم الجديد الذى يدنو منه فى بلاد الفرنسيين . .

* وكان رفاعة قد قرر أن يدرس مع طلاب البعثة ، وأن يتجاوز مهمة الواعظ والإمام . . فبدأ منذ وصول البعثة إلى مرسيليا - وحتى قبل الذهاب إلى باريس - فى دراسة اللغة الفرنسية ، فتعلم «التهجى» - كما يقول - فى ثلاثين يوما . .

ويتضح من الزوايا التى اهتم بها فى تعلّمه للفرنسية المقصد الذى ابتغاه ، فلم يكن اهتمامه منصبا على تجويد النطق الصحيح لهذه اللغة ، لأنه لم يكن يبغى لنفسه مكانة رجل المجتمعات فى محافل باريس ، وإنما كان يريد أن يترجم علوم القوم إلى العربية ، حتى يصنع ما صنعه أسلافه العظام زمن العباسيين ، وخاصة على عهد الخليفة العباسى المستنير «المأمون» [١٧٠ - ٢١٨هـ/ ٧٨٦ - ٨٣٣م] . وكما يقول صالح مجدى ، فإنه «لم يحفل بحسن التلفظ بها . . لانشغاله عن تهذيب نطقه بها بالانهماك على الترجمة منها إلى اللغة العربية ، لمجرد اقتداره على فهم بديع معانيها والتسلق على رفيق مبانيها ! . . »[١] .

* وأمام هذه المبادرة من رفاعة نحو التعلم والانتظام فى سلك الدارسين ، صدرت أوامر الحكومة المصرية بضمه إلى أفراد البعثة ، بحيث يتخصص فى الترجمة ، لميزته عن الكثيرين من زملائه فى التفوق باللغة العربية وثقافته الأزهرية ، فإذا ما ضم إلى العربية وتراثها الفرنسية وعلومها كان مؤهلا للنهوض بالترجمة أكثر من الآخرين . .

* وتحت إشراف «جومار» قضت البعثة عاما تسكن فى منزل واحد ، ثم توزع

---

(١) (حلية الزمن) ص ٣١ .

أفرادها فى «بنسيونات» متعددة، حتى تتاح لهم فرص الاختلاط الكثير مع الفرنسيين فتتقوى قدراتهم فى اللغة الفرنسية . . وفى هذه الأثناء لم يكتف رفاعة بالبرنامج العام الذى تخضع له البعثة فى الدرس والتحصيل، فأخذ يقتطع من مصاريفه التى تقدمها له إدارة البعثة عددا من الفرنكات، فاستأجر معلما خاصا يعطيه دروسا إضافية فى اللغة، وأخذ يشترى كتبا خاصة غير ما تشتريه إدارة البعثة . . وانهمك ليلا ونهارا فى القراءة والدرس والتحصيل، حتى لقد أصيبت عينه اليسرى بالضعف من كثرة الاطلاع، وعندما نصحه الطبيب بالراحة، ونبه عليه بعدم الاطلاع ليلا، ضرب بنصائح الطبيب وتعليماته عرض الحائط، «ولم يمتثل لخوف تعويق تقدمه[1]!» . . . صنع الطهطاوى ذلك، واقتطع هذه الأجزاء من راتبه الذى لم يتجاوز ٢٥٠ قرشا فى الشهر، بينما لم يصنع شيئا من ذلك رئيس البعثة - وكان يدرس السياسة - «مهر دار عبدى شكرى أفندى» الذى كان راتبه الشهرى ٥٠٠ , ٢ قرشا؟!!

* وفى ٢٨ من فبراير، وأول مارس سنة ١٨٢٨م عقد أول امتحان لأفراد هذه البعثة[2]، حضره عديد من رجالات فرنسا، وأشرف عليه ورأسه «الكونت دى شبرول» (Conte de Chabrol) محافظ ولاية «السين» وعضو مجلس النواب - وكان أحد علماء الحملة البونابرتية على مصر - وأدوا الامتحان فى اللغة الفرنسية، والرسم، والرياضة . . وكان رفاعة من الناجحين . . وقدم له «جومار» جائزة هى عبارة عن كتاب (رحلة أنخرسيس إلى بلاد اليونان) فى مجلدات سبعة «جيدة التجليد، مموهة بالذهب»، ومعه خطاب كله تشجيع وتقدير[3] . .

* ولقد لفت النجاح الذى أصابه طلاب البعثة، وخاصة المصريين الوطنيين منهم، انتباه المشرفين الفرنسيين على أمورها . . فكتب «جومار» عن هذا النجاح يقول:

---

(١) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ٢٥ .

(٢) (البعثات العلمية) ص ٣٤، ٣٥، ١٤ .

(٣) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٢٧ .

إنه «من المدهش، الذى لا يكاد يصدق، أن عربا أتوا باريس منذ عشرين شهرا تمكنوا من أن يعبروا عن أفكارهم بشعر فرنسى لا عيب فيه، وألفوا مقطوعات منه يشرف الفرنسيين إتيانهم بها، وإنما يعرف قيمة ما كتبوه من يعرف من هم هؤلاء الذين كتبوا. . . وفى كل ما يخطه قلم هؤلاء الشبان المصريين باللغة الفرنسية يجد القارئ ضربا من البساطة وحرية الفكر يستأهل الذكر.

فمن المنتظر أن الخرافات الشرقية ستنمحى من عقولهم، وأن الحجب الكثيفة التى تغطى أعين الشرقيين وتقيدهم بسلاسل الطفولة ستسقط تدريجيا(١)! . .».

وخص «جومار» رفاعة بالحديث عنه فى تقريره هذا فقال: «. . . وممن امتازوا من بين هؤلاء الشبان الشيخ رفاعة، الذى أرسل ليحرز فن الترجمة. . . حتى إذا رجع إلى بلاده أطلع بترجماته الجمهور المصرى على تآليفنا العلمية، وأدنى منه ثمرات آدابنا وعلومنا. وقد ابتدأ هذا الشيخ يقوم بتحقيق مقاصد حكومته، فترجم من الفرنسية كتاب (مبادىء العلوم المعدنية)، وأرسله إلى مصر ليطبع فيها، وترجم أيضا تقويما لسنة ١٢٤٤ هجرية (١٨٢٨م) وضعناه لمصر وسورية، وفيه فوائد كبرى لهما، ولا سيما إذا نشر سنويا. . . والشيخ رفاعة هذا رجل متعلم، فهو لا بد أن ينجح فى ترجمة الكتب التاريخية وسائر التآليف الأخرى(٢)».

ومعنى كلمات«جومار» هذه أن الطهطاوى قد أنجز ترجمة بعض الكتب الفرنسية إلى العربية ولما تمض على إقامته بباريس، مبعوثا، سنة وثمانية أشهر، وأنه قد بعث بهذه الكتب إلى مصر كى تطبع وتحدث تأثيرها فى البلاد؟!! . .

* وكان على طلاب البعثة الذين أنجزوا المرحلة التمهيدية من برنامج دراستهم (ونلاحظ أن الطهطاوى سبقهم إلى إنجاز بعض المقاصد!) كان عليهم أن ينتظموا فى البرنامج الدراسى الذى يتوزعون بموجبه على التخصصات التى تقرر لهم أن يدرسوها. . ولقد تحدث إليهم« جومار» وهم على أبواب هذه المرحلة فى حفل

---

(١) (البعثات العلمية) ص ١٨، ١٩.

(٢) المصدر السابق. ص ٢١، ٢٢.

توزيع جوائز النجاح، بالامتحان، الذى أقيم فى ٤ من يولية سنة ١٨٢٨م، فاستنهض فيهم الهمة، ولمس لدى الطهطاوى أوتارا حساسة، عندما قال لهم: **«إنكم منتدبون لتجديد وطنكم، الذى سيكون سببا فى تمدين الشرق بأسره. فيا له من نصيب ترقص لـه طربا القلوب التى تحب الفخر وتـدين بالإخلاص للوطن... ومصركم تضاهى فى ذلك فرنسا فى أوائل هذا القرن، فإنها بينما كانت جيوشها تنتصر فى ساحات الحرب ورجالها يفوزون فى ميادين السياسة ويقاومون زوابعها وأعاصيرها، كانت تحمل مع أكاليل النصر أكاليل العلم والمدنية.. أمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم، وهذا قبسه المضىء بأنواره أمام أعينكم، فاقتبسوا من فرنسا نور العقل الذى رفع أوربا على سائر أجزاء الدنيا، وبذلك تردون إلي وطنكم منافع الشرائع والفنون التى ازدان بها عدة قرون فى الأزمان الماضية. فمصر، التى تنوبون عنها، ستسترد بكم خواصها الأصلية، وفرنسا التى تعلمكم وتهذبكم تفى ما عليها من الدَّين الذى للشرق عل الغرب كله...»**[1].

وإزاء هذا الفكر الذى تحدث به «جومار»، وهذه القيم التى ألقى بها إلى أفراد البعثة المصرية، كان من الطبيعى أن تزداد وطنية الطهطاوى تأججا، واعتزازه بوطنه رسوخا.. وإزاء حديث «جومار» عن «الشرائع والفنون التى ازدانت» بها مصر «عدة قرون فى الأزمان الماضية»، وضرورة أن تسترد مصر بأبنائها هؤلاء «خواصها الأصلية» أدرك الطهطاوى - وهو أكثر أعضاء البعثة وعيا بتراث أمته - أن المطلوب ليس التنكر لتراث أمته، بل - كما قال «جومار»: «إنكم منتدبون لتجديد وطنكم التجديد الذى سيكون سببا فى تمدين الشرق بأسره».. وإزاء حديث «جومار» عن وفاء فرنسا بتعليم المصريين وتهذيبهم بعض الدين «الذى للشرق على الغرب كله» لم تصب الطهطاوى «عقد النقص ومركباته»، بل وعى جيدا **وحدة نهر الحضارة الإنسانية الذى يسرى مع الزمن عبر القارات والقوميات والشعوب،**

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣، ٣٤.

ولا يصد الناس عن بعض فروعه النابعة من الأقاليم الأخرى إلا ضيق الأفق وفقدان الاتجاه!!

* ولقد تجلت روح الطهطاوى ووعيه بهذه الحقيقة فى إقباله الذى ميزه عن زملائه على إتقان فن الترجمة من الفرنسية إلى العربية، ونهمه فى الترجمة وهو بباريس حتى «أنا لنحس فى جهوده التى ذكرها أنه ما كان يفرغ من قراءة كتاب فى أى علم من العلوم أو فن من الفنون حتى يقبل على ترجمته، يريد بذلك أن ينقل لمصر وبنيها هذا العلم الجديد عله يبعثهم على نهضة جديدة تنتهى بهم إلى أن يكونوا كأبناء أوروبا حضاريا ورقيا[1] . . ».

فتتلمذ على مجموعة من أنبه علماء فرنسا فى ذلك الحين، وعقد مع الكثيرين منهم الصداقات . . وعكف على مؤلفاتهم، ولم تفته أمّهات هذه المؤلفات، ومنها «روح القوانين (L'Esprit des Lois) لمنتسكيو [١٦٨٩ ـ ١٧٥٥م] و «العقد الاجتماعى» لجان جاك روسو [١٧١٢ ـ ١٧٧٨م] إلخ . . إلخ . .

فلم يكن الرجل ينظر إلى هذه البضاعة الفكرية والعلمية على أنها غريبة تجب الاسترابة فيها، وإنما عكف ـ هو وزملاؤه ـ كما يقول صالح مجدى «على اكتساب العلوم، **التى فارقت مهدها بتقلب الأيام وتداول الشهور والأعوام، ثم قيّض الله لها من أهتم بإحيائها بعد الاندراس، واحتفل بردها إلى مصره، ووضعها فيها على أمتن أساس[2]!!**».

* وفى سنة ١٨٢٩م عقد الامتحان الثانى لأعضاء البعثة، ونجح الطهطاوى بتفوق وكانت جائزة تفوقه هذه المرة كتابين من كتب أستاذه، الذى كان رأس علماء الاستشراق فى عصره «سلفستر دى ساسى» (Silvestre de sacy) [١٧٥٨ ـ ١٨٣٨م] وهما: كتاب (الأنيس المفيد للطالب المستفيد) و (جامع الشذور من منظوم ومنثور)[3].

---

(١) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٢٧.

(٢) (حلية الزمن) ص ٣١.

(٣) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٢٧.

* وفى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠م عقد الامتحان النهائى لرفاعة الطهطاوى وباشر امتحانه مجلس جمعه «جومار» حتى تتضح ـ كما يقول الطهطاوى ـ «قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا» . . وتقدم رفاعة إلى لجنة الامتحان بالإنجازات التى قام بها فى ميدان الترجمة، وكانت اثنى عشر مترجما، هى:

١ ـ نبذة فى (تاريخ الإسكندر الأكبر) . . مأخوذ من كتاب (تاريخ القدماء) . .

٢ ـ كتاب (أصول المعادن) . .

٣ ـ روزنامة ـ (تقويم) ـ سنة ١٢٤٤هـ ـ (١٨٢٨م) ـ الذى ألفه «جومار» لمصر والشام، وضمنه فوائد علمية وعملية . .

٤ ـ كتاب (دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم) من تأليف «مسيو ديبنج» (Depping) . . (وهو الذى طبعه الطهطاوى بعد ذلك فى بولاق سنة ١٢٤٩هـ بعنوان (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) .

٥ ـ مقدمة جغرافية طبيعية، مصححة على «مسيو دهنبلض» .

٦ ـ قطعة من كتاب «ملطبرون» (Malt - Brun) فى الجغرافية .

٧ ـ ثلاث مقالات من كتاب «لجندر» (Legendre) فى علم الهندسة .

٨ ـ نبذة عن علم هيئة الدنيا .

٩ ـ قطعة من (علماء ضباط عظام) فى العسكرية والحرب .

١٠ ـ أصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الإفرنج أصلا لأحكامهم .

١١ ـ نبذة فى «الميثولوجيا» يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم .

١٢ ـ نبذة فى علم سياسات الصحة ـ (وهى منشورة فى (تخليص الإبريز)[١] .

---

(١) (تخليص الإبريز) المقالة الرابعة . الفصل السادس .

كما قدم الطهطاوى إلى لجنة الامتحان مخطوطة كتابه الذى ألفه عن رحلته إلى باريس، وهو (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) كما تقدم «الأبحاث» و «التقارير» فى الامتحانات العليا.

ورأت لجنة الامتحان أن تزداد ثقة من قدراته فى الترجمة، فأجرت له امتحانا «شفوهيا» بأن أحضر له بعض الكتب العربية المطبوعة فى مطبعة «بولاق» بالقاهرة فترجم بعض فقراتها بسرعة، وأحضرت له عددا من صحيفة «الوقائع المصرية» فقرأ مواضع من عباراتها العربية باللغةالفرنسية.. وعند ذلك قررت اللجنة أن الطالب قد «تخلص من هذا الامتحان على وجه حسن»!.

كما كتب الممتحنون تقريرا عن امتحانه جاء فيه: إن أهل مجلس الامتحان قد تفرقوا «جازمين بتقدم التلميذ المذكور، ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع فى دولته، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج إليها فى نشر العلوم، والمرغوب تكثيرها فى البلاد المتمدنة!».

وكتب المستشرق «دى ساسى» تقريرا عن كتاب الطهطاوى (تخليص الإبريز) فى فبراير سنة ١٨٣١ م جاء فيه: «.. إن صناعة ترتيبه عظيمة.. وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد سليم الفهم... إن مسيو رفاعة أحسن صرف زمنه مدة إقامته فى فرنسا، واكتسب فيها معارف عظيمة، وتمكن فيها كل التمكن، حتى تأهل لأن يكون نافعا فى بلاده، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس، وله عندى منزلة عظيمة ومحبة جسيمة[١]..».

كما كتب عن (تخليص الإبريز) أيضا أستاذ رفاعة المستشرق« كوسان دى برسفال» (Caussin de perceval) [١٧٥٩ ـ ١٨٣٥م] يقول: إن رفاعة « أراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام، ويدخل عندهم الرغبة فى المعارف المفيدة، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجى والترقى فى صنائع المعاش... **وما تكلم عليه**

---

(١) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الفصل الرابع.

من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها وغيرها أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك»[1]؟!.

ولقد لمس «برسفال» بعباراته هذه مقصدا هاما وأساسيا من مقاصد دراسة رفاعة وجهوده فى الترجمة والتأليف منذ كان مبعوثا فى باريس. . **فالرجل لم يكن مجرد مثقف يتمتع ويترفه بالفكر والثقافة، ولم يكن مجرد ناقل لفكر الغرب وحضارته إلى اللغة العربية، وإنما كان مناضلا فى سبيل «أن يوقظ» أمته ووطنه.. بل والشرق و«أهل الاسلام» قاطبة... كما كان حديثه فى السياسة والدستور، ووصفه لما درسه وشاهده بباريس من مؤسسات الديمقراطية البورجوازية، مقصودا به أن يفتح لوطنه وشعبه ساحات الديمقراطية، ويدعوه لطرق بابها بقوة، حتى يتجاوز الشرق مستنقعات الاستبداد والطغيان والحكم الفردى البغيض..**

* * *

- ٦ -

* فى سنة ١٨٣١م (سنة ١٢٨٣هـ) عاد الطهطاوى إلى مصر من بعثته فى باريس، وكانت قد سبقته إلي محمد على ودوائر حكومته تقارير أساتذته، وخاصة «جومار»، المشرف على بعثات محمد على إلى فرنسا، تحكى تفوقه، وتلفت إليه النظر، وتعلق عليه الآمال. . . بل كانت قد سبقته إلى مصر بعض مترجماته التى أرسلها منذ سنة ١٨٢٨م كى تطبع فى مطبعة «بولاق». . فلقد أرسل فى ذلك التاريخ ترجمته لكتاب (مبادىء العلوم المعدنية). . . ونحن نرجح أن هذا الكتاب - ٤٧ صفحة - هو الذى طبعته مطبعة «بولاق» بعنوان: (المعادن النافعة لتدبير معايش الخلايق) (فى علم المعادن) تأليف «فرارد». . ورغم أن تاريخ الطبع المكتوب عليه هو سنة ١٢٤٨هـ أى سنة ١٨٣٢م إلا أننا نرجح أن طبعه قد تم قبل ذلك التاريخ، وقبل عودة الطهطاوى من باريس، يزكى ذلك أن اسم الطهطاوى

---

(١) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الفصل الرابع.

قد كتب على الغلاف هكذا : «بدوى رافع الطهطاوى» وهو تحريف ما كان ليتم لو آنه كان بمصر وقت طبع الكتاب . . أما كتاب(جغرافية صغيرة) الذى ترجمه بباريس فإن على غلاف الطبعة التى أخرجتها له مطبعة «بولاق» أن تاريخ طبعه هو سنة ١٢٤٦هـ سنة ١٨٣٠م . . أى أنه قد طبع ولا يزال رفاعة فى باريس[١] . .

وأكثر من ذلك فلقد عاد الطهطاوى ومعه كتابه الذى صور فيه رحلته ـ كما أوصاه بذلك التدوين أستاذه الشيخ حسن العطار ـ وبعد أن طالعه العطار، وقرظه، قدمه إلى محمد على الذى أعجب به وأمر بقراءة نسخته الخطية «فى قصوره وسراياته) ثم أمر بترجمته إلى التركية، وطبعه باللغتين، وتوزيع نسخه، بعد طبعها، «على الدواوين والوجوه والأعيان، والمواظبة على تلاوتها للانتفاع بها فى المدارس المصرية[٢]!» .

كما أعان الطهطاوى على التقدم فى طريق تحقيق الآمال التى عقدها وعزم على تنفيذها صلات كانت بين إبراهيم باشا ابن محمد على، وبين عائلة رفاعة بطهطا، وعندما وصل رفاعة من فرنسا إلى ثغر الإسكندرية كان إبراهيم باشا أول من استقبله من الأمراء« فسأله عن بيت آبائه بطهطا، بعد أن عرف أنه من ذريتهم . . . ووعده بإدامة الالتفات إليه . . » . . . ومن الإسكندرية سافر رفاعة إلى القاهرة، فاستقبله محمد على، فرأى الطهطاوى«من ميله إليه ما حمله على الثقة بنجاح المبدأ والنهاية[٣] . . » .

* وكانت أولى الوظائف التى تولاها رفاعة، بعد عودته من باريس، هى وظيفة مترجم بمدرسة الطب، فكان أول مصرى يعين فى مثل هذا العمل، إذ كان القائمون بأمور الترجمة فى مصر من قبله مترجمون من «المغاربة والسوريين

---

(١) يوسف إليان سركيس (معجم المطبوعات العربية والمعربة) طبعة القاهرة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩م .
(٢) (حلية الزمن) ص ٦١ و د . جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٢٤ .
(٣) (الخطط الجديدة) ج ١٣ ص ٥٤ .

والأرمن وغيـرهم»، وكـانوا ينقلون عن المدرسين الأجـانب، الذين يتـحـدثون ويحاضرون بلغاتهم الأوربية، إلى التلاميذ الذين لا يعرفون سوى العربية . . وكـانـوا ينهـضـون بعـملهـم الشـاق هذا، فى مـحـيـط العلـوم، مـسـتـعـينين بـمـا جمعوه من ثروة لغوية من المصطلحات العربية اكتملت لديهم بعد مراجعتهم لكتب العلم فى التراث العربى، مثل : (مفردات ابن البيطار) و (قانـون ابـن سينا) و (كليات ابن رشد) وغيرها، بحثا وراء المصطلحات التى تؤدى مطالب العلم الحديث . . . ومع ذلك فلم تكن مهمتهم باليسيرة ولا عملهم وافيا بالغرض المطلوب[1] . . .

وعندما ذهب رفاعة ليتسلم عمله كمترجم بمدرسة الطب استقبله«رئيس التراجم» «يوحنا ـ أو أوحنا، أو حنين ـ عنحورى» [2] . . وكان الوالى قد طلب من «عنحورى» أن يمتحن المترجم الجديد« فأعطاه فصلا فى كتاب، وقال له : (ترجمه فى مجلسنا هذا)!! فترجمه رفاعة، وعرضه عليه، فلما قرأه لم يسعه سوى كونه توجه بترجمته إلى الديوان ـ ديوان المدارس ـ وقال للرؤساء : « هذا أستاذى! وهو أحق منى بالرياسة، لأنه أدرى منى بالتعريب، والتنقيح، والتهذيب، وهذه هى شهادة الحق، التى تقضى له بالسبق[3]!!» .

ولقد أمضى الطهطاوى فى عمله هذا بمدرسة الطب عامين أنجز فيهما، ضمن ما أنجز، مراجعة الترجمة التى قام بها يوسف فرعون لكتاب (التوضيح لألفاظ التشريح)[4] أما التصحيح اللغوى لهذه الترجمة فلقد قام به الشيخ مصطفى حسن كساب . . . أى أنه كان هناك مترجم، ومراجع، ومصحح للغة العربية .

---

(١) عمر الدسوقى (فى الأدب الحديث) ج ١ ص ١٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩م .

(٢) نسبة إلى «عين حور» بسوريا . وكان عنحورى يتقن الطليانية، ويصفه صالح مجدى بأنه «عيسوى ـ (نصرانى) ـ نبيل! . .» .

(٣) (حلية الزمن) ص ٣٤، ٣٥ .

(٤) د . جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٣٠ .

* وإلى جانب عمل الطهطاوى فى مدرسة الطب، أسند إليه الإشراف على المدرسة التجهيزية للطب (مدرسة المارستان) وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات، يدرس فيها طلابها: الحساب، والهندسة، ووصف الكون، والتاريخ الطبيعى، والتاريخ القديم والحديث، والمنطق[١]..

* وفى سنة ١٨٣٣م (سنة ١٢٤٩هـ) انتقل رفاعة من مدرسة الطب إلى مدرسة «الطوبجية» (المدفعية) «بطره» فى ضواحى القاهرة، كى يعمل مترجما للعلوم الهندسية والفنون العسكرية، وكان ناظر هذه المدرسة «دون أنتونيودى سكويرا بك» (Don Antonio de Sequera Bey).. وهو إسبانى الأصل[٢]، لم يكن على وفاق مع المرءوسين ذوى الثقافة الفرنسية.

* وكان رفاعة يحلم بإنشاء جامعة مصرية على غرار «مدرسة اللغات الشرقية» بباريس (L'Ecole des Langues Orientales) ذات الأقسام.. ومنذ السنة الأولى التى دخل فيها مدرسة «الطوبجية» (المدفعية) خطى الخطوة الأولى نحو تحقيق حلمه هذا، وكانت خطته أن ينشىء، بالتدريج، عددا من المدارس «الخاصة» - أى العالية - تجتمع مع بعضها، بالتدريج، لتكون الجامعة التى يحلم بإقامتها.. فأنشأ فى سنة ١٨٣٣م (سنة ١٢٤٩هـ) (مدرسة التاريخ والجغرافيا) وألقى على طلبتها فصولا ترجمها فى الجغرافيا ثم طبعها فى كتاب عنوانه (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية)، وذكر لنا فى مقدمة هذا الكتاب خبر قيام هذه المدرسة عندما قال: إنه «لما سمحت مشورة الجهادية... أن أفتح لفنون الجغرافية والتاريخ مدرسة... أخذت عدة تلاميذ لهذا المعنى الممدوح[٣]....». وهذا الكتاب الذى تؤرخ مقدمته لإنشاء هذه المدرسة قد فرغ الطهطاوى من ترجمته فى الشهر الأخير من

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٠٠.

(٢) (حلية الزمن) ص ٣٥.

(٣) د. جمال الدين الشيال. بحث عن (رفاعة المؤرخ) منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى). ص١١٩.

سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م) ثم أسلمه للمطبعة فى أوائل سنة ١٢٥٠هـ (سنة ١٨٣٤م) فطبع[١] . . .

* وفى سنة ١٨٣٤م (١٢٥٠هـ) انتشر بالقاهرة وباء الطاعون، فغادرها رفاعة دون استئذان، إلى بلده «طهطا» ومكث هناك نحو ستة أشهر، ترجم فى شهرين منها مجلدا من (جغرافية ملطبرون)، وعندما عاد إلى القاهرة قدم ترجمته إلى محمد على، فكافأه مكافأة مالية، ورقاه إلى رتبة «الصول قول أغاسى»؟! . . وانتهز رفاعة فرصة هذا الرضى من محمد على فطلب منه إعفاءه من الترجمة بمدرسة «الطوبجية» لخلافاته مع «سكويرابك»، فأجابه الوالى إلى طلبه[٢].

* وبعد أن نفض رفاعة يديه من هذه المدرسة الحربية ـ «الطوبجية» ـ تقدم إلى محمد على باقتراح إنشاء المدرسة التى كان يخطط لإنشائها . . مدرسة الألسن، وقال للوالى، عنها، فى مشروعه: إنه «**يمكن أن ينتفع بها الوطن، ويستغنى عن الدخيل**؟!»[٣] . . وقال فى خطبته بحفل تخريج الدفعة الأولى منها سنة ١٨٣٩م، (سنة ١٢٥٦هـ) عن قصده من إنشائها: « . . ولا يخفى أن أصل تصدينا لإنشاء هذه المدرسة: **حب إيصال االنفع إلى الوطن ـ الذى حبه من الإيمان ـ وتقليل التغرب فى بلاد أوربا، حيث لا يتيسر لكل إنسان، والنصح فى الخدمة**..»[٤]..

وكانت تسمى أول ما افتتحت سنة ١٨٣٥م (سنة ١٢٥١هـ) (مدرسة الترجمة) ثم تغير اسمها بعد ذلك إلى (مدرسة الألسن).

* وبعد تخرج الدفعة الأولى من مدرسة الألسن سنة ١٨٣٩م ـ وكان عددها عشرين

---

(١) د. جمال الدين الشيال. بحث عن (رفاعة المترجم) منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى). ص١٦٤.

(٢) (حلية الزمن) ص ٣٦.

(٣) (الخطط الجديدة) ج ١٣ ص ٥٤.

(٤) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٠٧.

خريجا – كانت مترجمات هؤلاء الخريجين قد طبعت أو فى طريقها إلى الطبع، وكانت اهتماماتهم، بتوجيه رفاعة، بالعلوم الإنسانية والفلسفة واضحة كل الوضوح، فلقد كان تلاميذ الفرقة النهائية يترجمون كتبا فى التاريخ والأدب. . ولقد عين المتقدمون من الدفعة الأولى لتدريس العربية والفرنسية بنفس المدرسة، وعين آخرون منهم فى (مدرسة المهندسخانة)، ومنهم من عين ببعض المدارس الأخرى، أو بالمصالح الحكومية المختلفة، وكان شرط الترقى لأى منهم هو ترجمة كتاب من الكتب التى يختارها رفاعة، ويشرف على مراجعتها، ثم يدفع بها إلى مطبعة «بولاق». .

* وكان عمل رفاعة فى هذه المدرسة ـ التي اتخذت لها مقرا سراى «الدفتردار» بحى الأزبكية ـ هو الإشراف الفنى والإدارى، وتدريس الأدب والشرائع، الإسلامية والغربية، واختيار الكتب المرشحة للترجمة، وتوزيعها على المترجمين، تلامذة وخريجين، ومداومة الإشراف، ثم المراجعة والتهذيب للترجمات. .[1] . لقد كان الطهطاوى يعمل بهذه المدرسة عمل أصحاب الرسالات لا عمل الموظفين. . وكما يقول على مبارك: «فلقد كان دأبه فى (مدرسة الألسن)، وفيما اختاره للتلامذة من الكتب التى أراد ترجمتها منهم، وفى تأليفاته وتراجمه خصوصا، أنه لا يقف فى ذلك فى اليوم والليلة على وقت محدود، فقد كان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء، أو عند ثلث الليل الأخير، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية. . وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالمية. . ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة والتأليف. . »[2].

* وفى سنة ١٨٤١ (سنة ١٢٥٧هـ) شرعت مدرسة الألسن تأخذ الشكل

---

(١) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٣٢ـ٣٤.

(٢) (الخطط الجديدة) ج ١٣ ص ٥٤، ٥٥.

والمضمون الحقيقيين للجامعة المدنية، دون أن يكون فى هذا الوصف أى تزيد أو مبالغة . .

فالمدرسة التجهيزية التى كانت بقرية «أبو زعبل» أحيلت نظاراتها على رفاعة، وانتقلت إلى نفس السراى التى بها مدرسة الألسن . .

وأنشئت فى ذات المكان (مدرسة الفقه والشريعة الإسلامية) لدراسة العلوم الفقهية على مذهب أبى حنيفة، وكان خريجوها يعينون قضاة فى الأقاليم . . فهى كلية للشريعة والقانون ـ (الحقوق) ـ . .

وأنشئت (مدرسة المحاسبة) ـ ككلية للتجارة . .

وأنشئت (مدرسة الإدارة الافرنجية) وهى متخصصة فى دروس الإدارة والسياسة . . سنة ١٨٤٤م (سنة ١٢٦٩هـ) . .

وأنشىء قسم (الإدارة الزراعية الخصوصية) . . أى العالية سنة ١٨٤٧م (سنة ١٢٦٣هـ) .

أما (مدرسة الألسن) فإنها كانت تدرس لطلبتها آداب العربية واللغات الأجنبية، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية، ثم الإيطالية والإنجليزية، وعلوم التاريخ والجغرافية . .

ونحن نجد لدى صالح مجدى تعبيرا يلفت نظرنا إلى أن هذه المدرسة قد كانت «جامعة» بالمعنى الدقيق لكلمة «الجامعة» . . فهو يتحدث عن الطهطاوى فيقول: إنه « كان يسوس هذه **المدرسة المجتمعة** بغاية الدقة»؟![1] .

* ومما هو جدير بالذكر أن العلوم جميعها كانت تدرس فى هذه الجامعة باللغة العربية، وذلك بفضل حركة الترجمة والتعريب التى نهض بها الطهطاوى . . وهو الأمر الذى صرف الوطن العربى عنه منهج التعليم الذى خصعنا له فى ظل

---

(١) (حلية الزمن) ص ٣٧ و (فى الأدب الحديث) ج ١ ص ٢٥ وبحث (رفاعة فى مدرسة الألسن) لفريد عبد الرحمن . منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص ١٧٤، ١٧٥ .

الاستعمار فالأمر الذى حققه الطهطاوى فى ميدان تعريب التدريس للعلوم فى ثلاثينيات القرن الماضى لا زال بالنسبة لنا الآن، وبعد ما يقرب من قرن ونصف، مجرد مطلب تصدر من أجله «القرارات» و «التوصيات»!! . . [1].

بل لقد بلغت الكارثة الحد الذى جعل تدريس العلوم يتم بغير العربية فى كليات جامعة الأزهر الشريف . . .

* وفى سنة ١٨٤١م أنشأ رفاعة (قلم الترجمة) كمجمع متخصص فى الترجمة، وقسمه إلى أربعة أقسام:

١ ـ قسم لترجمة الرياضيات، ويرأسه محمد بيومى أفندى . .

٢ ـ وقسم لترجمة العلوم الطبية والطبيعية، ويرأسه مصطفى واطى أفندى .

٣ ـ وقسم لترجمة العلوم الاجتماعية، ويرأسه خليفة محمود أفندى .

٤ ـ وقسم للترجمة التركية، ويرأسه ميناس أفندى .

* وقلم الترجمة هذا الذى أنشأه الطهطاوى سنة ١٨٤١م تشعر الجامعات العربية اليوم بحاجتها إلى إعادة إنشائه من جديد، فيوصى مؤتمرها الثانى ـ (القاهرة ـ فبراير سنة ١٩٧٣م) ـ «بإنشاء ديوان للترجمة يتابع نقل الكتب والبحوث الأجنبية إلى العربية» ؟! [2].

* وفى سنة ١٨٤٣م رقى رفاعة إلى رتبة «قائمقام» لجهوده فى قلم الترجمة . [3]

* وإلى جانب هذه المهام الإدارية والفنية والعلمية التى كان ينهض بها رفاعة أحيلت على مسؤوليته مهام أخرى، منها: تفتيش عموم مكاتب الأقاليم، ونظارة

---

(١) أوصى المؤتمر العام الثانى لاتحاد الجامعات العربية، المنعقد بالقاهرة فى فبراير سنة ١٩٧٣م بتنفيذ البرنامج الخاص بتعريب التدريس الجامعى على مراحل! . . انظر صحيفة (الأهرام) الصادرة فى ١٢، ١٣ من فبراير سنة ١٩٧٣م .

(٢) (الأهرام) ١٢ ـ ٢ ـ ١٩٧٣م .

(٣) (حلية الزمن) ص ٣٨ .

«الكتبخانة الإفرنجية» و «مخزن عموم المدارس»، وتفتيش مدارس «الخانقاة» و«أبو زعبل»، ورئاسة امتحان تلاميذ المكاتب، سنويا، فكان يركب النيل إلى حيث المكاتب بالقرى، ويتخير نجباء تلاميذها، ويأتى بهم إلى القاهرة فيلحقهم بالمدرسة التجهيزية، [1]، تمهيدا لإدخال المتفوقين منهم جامعة مصر المدنية الأولى ـ (مدرسة الألسن) . .

* ولم يكن رفاعة أول منشىء لجامعة مدنية عربية فقط، بل وأول عربى أنشأ متحفا لآثار مصر، وخطط لجمعها وصيانتها؟! ففى نفس العام الذى أنشأ فيه مدرسة الألسن ـ (سنة ١٨٣٥م) ـ قدم إلى محمد على مشروعا لحماية الآثار، ونشرت (الوقائع المصرية) المشروع الذى ينص على أن تسلم إلى مدير (مدرسة الألسن) جميع الآثار التى يجدها الأفراد، وكان أن تحول فناء مدرسة الألسن إلى نواة لأول متحف للآثار فى مصر؟![2] . .

ولم يكن اهتمام الطهطاوى بآثار البلاد ضربا من ضروب التعلق بالفن، ولا نابعا من اهتماماته كمثقف يبحث عن مصادر للبحث والتاريخ . . بل كان اهتمامه هذا ـ فوق كل دوافع المثقف وقبلها ـ **موقفا وطنيا** مرتبطا بحبه لوطنه وعدائه الأصيل لحركة النهب الاستعمارى التى تستغل غفلتنا عن آثارنا وإهمالنا وقصورنا عن إدراك أهميتها ودورها فى تكوين وجداننا القومى . . فهو عندما يرى فى باريس «المسلة» التى أهداها محمد على إلى الفرنسيين، تعبيرا عن صداقتهم له، لا يسعه إلا أن ينتقد هذا التفريط ـ رغم علاقته بمحمد على وإعجابه به ـ فيكتب فى (تخليص الإبريز) يقول عن آثار مصر القديمة: « . . . والبرابى هى المشهورة عند العامة بالمسلات، ولغرابتها نقل منها الإفرنج اثنتين إلى بلادهم، إحداهما نقلت إلى «رومة» فى الزمن القديم، والأخرى نقلت إلى باريس فى هذا العهد، **من فائض**

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٠٨، ١٠٥، ١٠٦.

(٢) د. أنور لوقا. بحث عن (رفاعة بين القاهرة وباريس) منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص ١٣٩.

معـروف ولى النعم!!» . . ثم يرفع الطهطاوى صوته فيكتب : «**وأقول: حيث إن مصر أخذت الآن فى أسباب التمدن والتعلم على منوال بلاد أوربا، فهى أولى وأحق بما تركه لهـا سلفها من أنواع الزينة والصناعـة، وسلبه عنها شيئا بعـد شىء يعد عند أرباب العقول من اختـلاس حلى الغير للتحلى به، فهو أشبه بالغصب! وإثبات هذا لا يحتاج إلى برهان، لما أنه واضح البيان..؟!»**.[1]

* ولم يكن الطهطاوى أول من أنشأ جامعة مدنية، ومتحفا للآثار الوطنية فحسب، بل وأول من أنشأ صحيفة عربية فى مصر؟! وهذه الحقيقة يذكرها كاتب سيرته صالح مجدى فيقول : «**إنه أول منشىء لصحيفة أخبار فى الديـار المصرية، فإنه تكفل بعـد رجوعه من باريس بنشـر صحيـفة خبـريـة ـ مـع تعـذر الحصول على موادها إذ ذاك ـ ومكثت مـدة، ثم اعترتها فتـرة يسيرة، ثم أعيـدت، واستمـرت إلي الآن**».[2] .

ولكن . . رغم وضوح عبارات صالح مجدى هذه وحسمها، يشكك فيها بل وينكر واقعيتها الذين أرخوا للصحافة المصرية والعربية، وفى مقدمتهم الدكتور إبراهيم عبده. فهو يتحدث فى كتابه (تاريخ الوقائع المصرية) (١٨٢٨ ـ ١٩٤٢م) فيحكى الوقائع المشهورة لصدورها لأول مرة فى ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨م (٢٥من جمادى الأولى سنة ١٢٤٤هـ)، وكان الطهطاوى فى باريس . . ويقول : إننا لا نعرف صحيفة أصدرها الطهطاوى . . وليس هناك سوى إشرافه على (الوقـائع) فى سنة ١٨٤٢م (سنة ١٢٥٧هـ) . . والتجديدات والتطويرات التى أدخلها على مادتها وإخراجها . .

أما غير الدكتور إبراهيم عبده، ممن درسوا الطهطاوى، فإنهم قد مروا على عبارة صالح مجدى هذه دون أن يقفوا عندها، على الرغم من خطورة ما تعنيه بالنسبة للطهطاوى، **وبالنسبة لنشأة الصحافة العربية فى مصر** . .

---

(١) (تخليص الإبريز) الخاتمة.

(٢) (حلية الزمن) ص ٣٤.

أما نحن فإننا نتفق مع صالح مجدى ـ وهو تلميذ الطهطاوى ومعاصره وكاتب سيرته ـ ونوافقه على أن الطهطاوى هو أول من أنشأ صحيفة أخبار بالديار المصرية . . ونضيف إلى ذلك أن الصحيفة التى عناها صالح مجدى قد قال عنها : إنها قد «مكثت مدة، ثم اعترتها فترة يسيرة، ثم أعيدت، واستمرت إلى الآن» أى استمرت إلى ما بعد وفاة الطهطاوى . . وهذه الأوصاف لا تنطبق إلا على (الوقائع المصرية) فلقد مكثت تصدر على عهد ارتفاع نجم الطهطاوى زمن محمد على وإبراهيم باشا . . ثم اعترتها فترة ـ أى توقف ـ لزمن يسير زمن عباس الأول . . ثم عادت واستمرت فى الصدور . .

ولكن . . كيف يتأتى أن يكون الطهطاوى هو أول منشىء لهذه الصحيفة المصرية، على حين أن الثابت هو صدورها فى ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨م، والثابت كذلك أن قرار الشورى الذى أحال الإشراف على (الوقائع) إلى الطهطاوى قد صدر فى ١١ من يناير ١٨٤٢م (٢٧ من ذى القعدة سنة ١٢٥٧هـ)؟!!! . . إن تبديد هذا الغموض يتأتى بعرضنا هذه الحقائق :

١ ـ لقد كانت (الوقائع المصرية) منذ صدورها فى ٣ من ديسمبر سنة ١٨٢٨م وحتى تولى الطهطاوى الإشراف عليها سنة ١٨٤٢م تصدر باللغتين التركية والعربية . . وكانت صفحاتها تنقسم إلى «نهرين»، تكتب المادة بالتركية فى «النهر» الأيمن، وترجمة هذه المادة إلى العربية تكتب فى «النهر الأيسر» . . وعندما أشرف الطهطاوى عل تحريرها فى سنة ١٨٤٢م جاء فى قرار «الشورى» الذى أسند إليه هذه المهمة : « . . وحيث إن حضرة الشيخ رفاعى (كذا) **سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية، فتحال أعمال إفراغ الترجمة فى قالب حسن، بدون الإخلال بالأصل العربى، وتنظيم المواد حسب النظام التركى على حضرة حسين أفندى، ناظر المطبعة العامرة..»**[1] .

---

(١) د. إبراهيم عبده (تاريخ الوقائع) ص ٤٣ .

٢ ـ لقد ترتب على ذلك أن صارت اللغة العربية تحتل «النهر» الأيمن فى صفحات الجريدة، وانتقلت التركية إلى «النهر» الأيسر لصفحاتها . .

٣ ـ ونحن نقول إن هذا التغيير ـ وحدة ـ **كان حدا فاصلا بين عهدين لصحيفتين اثنتين، وليس تطويرا حدث فى أمور صحيفة واحدة**.. ومن باب أولى فإنه لم يكن مجرد «غيرة . . شكلية» على اللغة العربية «تحمد للطهطاوى» كما يخطىء فيقول ذلك بعض الأساتذة الدارسين؟ ![1] .

ذلك أن الوقائع منذ صدورها فى سنة ١٨٢٨م وحتى إشراف الطهطاوى عليها سنة ١٨٤٢م، لم تكن صحيفة عربية مصرية، وانما كانت صحيفة تركية يصدرها الوالى، وتوضع مادتها باللغة التركية، ثم تترجم هذه المادة ترجمة ركيكة جدا إلى العربية، دون أن تلتزم هذه الترجمة العربية الدقة أو الوفاء بمضمون المادة التركية التى تحتل «النهر» الأيمن لصفحاتها.. والتغيير الحقيقى والأساسى الذى أحدثه الطهطاوى لم يكن نقل العربية من اليسار إلى اليمين، وإنما كان «وضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية، ثم إفراغ الترجمة التركية فى قالب حسن».. فلقد أصبحت (الوقائع) منذ ذلك التاريخ صحيفة عربية، تترجم مادتها إلى التركية، كى تنتفع بها حاشية الوالى التى كانت التركية لغتها، ومن هنا كان الطهطاوى ـ كما يقول بحق صالح مجدى ـ « أول منشىء لصحيفة أخبار فى الديار المصرية».. باللغة العربية..

٤ ـ ويشهد لهذا التفسير الذى نقدمه أن رفاعة قد أراد أن يكون إشرافه على (الوقائع) واضحا وحاسما كبدء جديد لإصدار صحيفة جديدة، فأراد تغيير اسمها من (الوقائع المصرية) إلى (مظهر أخبار مصرية) وأقر الشورى هذا التغيير فى غرة ذى الحجة سنة ١٢٥٧هـ . . ولكن محمد على رفض هذا التغيير فاستمر اسم (الوقائع المصرية) [2] للصحيفة العربية الجديدة . .

---

(١) د. عبد اللطيف حمزة (رفاعة الصحفى) بحث منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص١١٢ .
(٢) (تاريخ الوقائع) ص ٤٨ .

٥ ـ إن انتقال العربية إلى «النهر» الأيمن بدلا من التركية، لم يكن هو التغيير، كما فهم البعض، بدليل أن اللغة التركية قد عادت ثانية فاحتلت «النهر» الأيمن لصفحات الجريدة، وأصبح «النهر» الأيسر من نصيب العربية، فى أواخر سنة ١٨٤٢م[١]، وذلك دون أن تعود للصحيفة أوضاعها القديمة.. فظلت أصولها توضع بالعربية، كأى صحيفة عربية، ثم تترجم هذه الأصول إلى التركية كى يقرأها الذين لا يعرفون اللغة العربية.

وإذا كان هذا هو الإبداع الأساسى والتغيير الأول الذى أحدثه الطهطاوى بإشرافه على (الوقائع المصرية) فإن هناك عددا من التغييرات الفنية والصحفية التى أحدثها الرجل، وبالأحرى: إن هناك عددا من الخصائص التى طبع بها صحيفته الجديدة، والتى تميزت بها عن تلك الترجمة العربية الركيكة لتلك الصحيفة التركية التى كانت تصدر بنفس الاسم فيما قبل يناير سنة ١٨٤٢م.. ومن أهم هذه الخصائص:

(أ) ظهور المقال السياسى فى الجريدة.. ويعد المقال الذى عنونه الطهطاوى بعنوان (تمهيد) والذى تحدث فيه عن السياسة فى نظم الحكم الشرقية، وحاول فيه تفنيد حملات كتاب الغرب على مصر بعد أزمة سنة ١٨٤٠م، يعد هذا المقال ـ وهو للطهطاوى ـ تاريخا لظهور المقال فى صحافتنا المصرية [٢] (على رأى من يرى فى (الوقائع) قبل إشراف الطهطاوى صحيفة عربية مصرية ـ أما من وجهة نظرنا فإنه تأريخ لظهور فن المقال فى لغتنا بوجه عام ـ فلقد كانت صلة العربية قد انقطعت بهذا الفن، تقريبا، من عصر (رسائل الجاحظ) حتى ذلك التاريخ..

(ب) عرفت هذه الصحيفة تحت إشراف الطهطاوى الانتظام فى مواعيد صدورها، فأصبحت تصدر أسبوعيا كل يوم جمعة.

---

(١) المصدر السابق ص ٥٤.

(٢) د. عبد اللطيف حمزة. بحث (رفاعة الصحفى) منشور بكتاب (مهرجان رفاعة) ص ١١٣.

(جـ) حدد الطهطاوى فى خطته الجديدة لها «أن الأخبار المصرية ستكون المادة الأساسية» فيها، وذلك إلى جانب نشر الحوادث الخارجية . . [1].

(د) تعين لها مراسلون، مهمتهم الذهاب إلى الدواوين لاستقاء الأخبار وتحريرها، إذا تأخرت الدواوين فى إرسال الأخبار، إذ تقرر أن «يكلف على لبيب أفندى، معاون ديوان المدارس، والمترجم العربى، للذهاب إلى الدواوين لإحضار الأخبار» [2].

(هـ) أصبح للجريدة محررون من الكتاب، كان من بينهم أحمد فارس الشدياق [١٨٠٤ ـ ١٨٨٨م] والسيد شهاب الدين، تلميذ الطهطاوى . . [3].

(و) تحدد لها سعر ثابت ـ (١ قرش) ـ واشتراك محدد ـ (١٢ قرشا فى ثلاثة اشهر، وضعفها فى نصف سنة، وضعفها فى العام الكامل) وتعين لبيعها مكان معروف ـ (دار الطباعة العامرة ببولاق) [4] ـ واتسع نطاق توزيعها.

(ز) أصبح لها تبويب صحفى ثابت، فأضحت «تشتمل على (الأخبار الملكية ـ (السياسية) . .) داخلية وخارجية . . صناعية وتجارية . . علمية وأدبية» [5].

(حـ) اهتمت بنشر الشعر لأول مرة، والمختارات الأدبية من كتب التراث العربى . .

(ط) وفى أواخر عهد محمد على أخذت (الوقائع) تصدر صحيفة عربية خالصة، ثم تصدر لها ترجمة تركية مستقلة تماما عن الصحيفة العربية المصرية . .

* وإلى جانب هذا العمل الصحفى الرائد الذى استحق به رفاعة أن يكون أول صحفى مصرى ـ وهو الأمر الذى يستوجب إعادة كتابة العديد من صفحات

(١) (تاريخ الوقائع) ص ٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٩ .
(٤) المصدر السابق ص ٥١ .
(٥) المصدر السابق ص ٥١ .

تاريخنا القومى حتى يأخذ كل ذى حق حقه - إلى جانب إنشاء (الوقائع المصرية) مصرية عربية، أشرف رفاعة الطهطاوى كذلك على تحرير (المجلة العسكرية) بالفرنسية والعربية[1]، كمجلة متخصصة للجندية وعلوم الحرب يهتم بها العسكريون . .

* وفى سنة ١٨٤٥م (سنة ١٢٦٢هـ) ترجم رفاعة مجلدا آخر من (جغرافية ملطبرون) فكافأة محمد على لذلك بأن رقاه إلى رتبة «أميرالاى الرفيعة»[2]، وصار يدعى منذ ذلك التاريخ «رفاعة بك» بعد أن كان يلقب «بالشيخ رفاعة» ثم استمر فى ترجمة هذا المؤلف الضخم حتى أكمل منه أربعة مجلدات[3] . .

* ومن خلال هذه العملية الحضارية الكبرى التى قادها وأشرف عليها وساهم فيها الطهطاوى، حتى آخر عهد محمد على وخلفه إبراهيم باشا، وضعت أسس عصر النهضة فى مصر، التى كانت، فى ذلك، طليعة الأمة العربية وشعوب الشرق . . وعرفت مصر جيلا من المترجمين والمؤلفين والمثقفين الذين تخرجوا من المؤسسات الفكرية والتربوية والصحفية التى أقامها رفاعة طوال تلك السنوات . . وهو الجيل الذى قسمه صالح مجدى إلى طبقات ثلاث، وأشار إلى أبرز أعلامه فعدد منهم أكثر من المائة من الذين أبدعوا فى الحركة الفكرية، تأليفا وترجمة، وأسهموا فى الحياة العملية بأوفى نصيب . . [4]

* * *

(١) من تقرير بعثة مدرسة ليسية الحرية بالإسكندرية إلى مسقط رأس رفاعة - ديسمبر سنة ١٩٥٧م. وهو منشور بكتاب (لمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات رفاعة بدوى رافع الطهطاوى) من وضع حفيده: فتحى رفاعة الطهطاوى. ص ٢٠، ٢١. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م.

(٢) (حلية الزمن) ص ٣٨.

(٣) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٣٥.

(٤) (حلية الزمن) ص ٤٣ - ٥٨.

- ٧ -

* فى ١٠ من نوفمبر سنة ١٨٤٨م (١٣ من ذى الحجة سنة ١٢٦٤هـ) توفى حاكم مصر إبراهيم باشا، فخلفه الخديو عباس الأول فى ٤ من ديسمبر سنة ١٨٤٨م (٢٧ من ذى الحجة سنة ١٢٦٤هـ) فحكم فى ظل حياة غير مؤثرة كان يحياها محمد على مريضا . . وبعد نحو عام (٢ من أغسطس سنة ١٨٤٩م ١٢ من رمضان سنة ١٢٦٥هـ) مات محمد على، فاستقل عباس بحكم البلاد دون أن تقيد سلطاته المطلقة أية قيود . . وبعد أقل من عام (رجب سنة ١٢٦٦هـ سنة ١٨٥٠م) أوعز عباس إلى «المجلس المخصوص» برغبته فى نفى رفاعة الطهطاوى من البلاد . . واهتدى المجلس إلى وسيلة مغلفة لنفى قائد الحركة الفكرية وأبى المؤسسات التربوية والثقافية، فاكتشف المجلس أن السودان فى حاجة إلى مدرسة ابتدائية، وأن هذه المدرسة المقترحة فى حاجة إلى «ناظر»، وأن هذا «الناظر» لابد أن يكون رفاعة الطهطاوى، وأنه لابد له وللمدرسة المقترحة من مدرسين، وأنه يحسن أن يكون مدرسو هذه المدرسة الابتدائية من أبرز علماء مصر ومثقفيها الذين تعلموا فى باريس ونهضوا بالبناء الفكرى والثقافى الحديث فى البلاد؟! . .

* وهناك خلاف بين الباحثين حول الأسباب التى دعت عباس الأول إلى نفى رفاعة إلى السودان . . فالبعض يرى أن الطهطاوى قد أدرك منذ البداية تخلف عباس وضيق أفقه ورجعيته واستبداده، فاتجه إلى مقاومته، وعندما مات محمد على، واستقل عباس بالأمر أعاد الطهطاوى طبع كتابه (تخليص الإبريز) للمرة الثانية، وهو الكتاب الذى قدم فيه فكر البورجوازية الفرنسية الديمقراطى، وترجم فيه دستورها، ووصف ثورة الشعب الفرنسى سنة ١٨٣٠م وانتصر لها وتعاطف معها . . وأن عباس قد استشعر هذه المقاومة فقرر نفى رفاعة إلى الخرطوم . .

ويرى البعض أن المنافسة بين على مبارك ورفاعة كانت من أسباب هذا النفى، فلقد قرب عباس على مبارك بدلا من رفاعة، حتى إذا ما تولى الحكم سعيد (١٤ من

يولية سنة ١٨٥٤م) قرب الطهطاوى وبعث بعلى مبارك إلى «القرم»؟! ، كما يرى هذا البعض أن تعصب شيوخ الأزهر ، أو بعضهم على الأقل ، ضد عصرية رفاعة وتقدميته كان مناخا سهل لعباس القيام بهذا النفى والإبعاد . . . [١]

وقد تكون هذه الأسباب ، وغيرها مما يماثلها ويشبهها ، قد لعبت دورا فى نفى الطهطاوى من البلاد . . ولكن الرأى الذى نحبذه نحن يميل إلى الاعتقاد بوجود أسباب أعمق من كل ذلك خلف هذا النفى الذى كان بمثابة **انقلاب رجعى وردة كاملة** ضد البناء الحضارى والثقافى الذى صنعته تجربة حكم محمد على ، وخاصة فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر . .

فلقد كان فى قمة السلطة بمصر يومئذ تياران ، أحدهما يناضل فى سبيل استقلال مصر من العثمانيين ، وتأكيد هذا الاستقلال . . وفى سبيل الاستنارة الفكرية وتطوير البلاد فى اتجاه النمط البورجوازى فى تنظيم المجتمعات . . وفى سبيل إبراز دور العنصر الوطنى المصرى كبديل للعناصر المرتزقة من الألبان والجراكسة والأتراك والمتمصرين . . وعلى المستوى الاقتصادى يناضل هذا التيار فى سبيل تجاوز علاقات الإنتاج الإقطاعية فى الاقتصاد الزراعى باعتبارها عقبة تثقل خطى البلاد فى سعيها إلى بناء اقتصاد بورجوازى يعتمد على المشروع الحر فى التجارة والصناعة ، وذلك باعتباره الطريق المتقدم الذى يجب أن تسلكه البلاد . .

وفى هذا التيار كان الطهطاوى ورجاله ومدرسته والمؤسسات التى أقامها ورعاها فى ظل حكم محمد على وإبراهيم . . وفى الجانب الآخر كان عباس باشا ، الذى استند إلى الملاك العقاريين الكبار الذين كونوا إقطاعات واسعة قبل عهده ، زادها لهم اتساعا بعد توليه السلطة ، وهم الذين كانوا يسعون إلى الاحتفاظ بصلات مصر بتركيا ، كما يسعون إلى تقليص دور العنصر الوطنى المصرى فى تسيير دفة الأمور . . وكانت هذه الفئة ، وهى غريبة عن الثقافة الحديثة ، تحتقر الثقافة وتغار من المثقفين ، وكان هؤلاء المثقفون ذوى صلات فكرية بالثقافة الفرنسية ، بحكم

---

(١) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٣٩ ـ ٤١ .

علاقات محمد على والبعثات الباريسية التى تربى فيها هؤلاء المثقفون، ومن ثم تجلى ضيق أفق هذا التيار فى صورة احتقاره للثقافة الفرنسية ونفوره من أعلامها والمؤسسات ذات الصلة بها. . وكان المستعمرون الإنجليز، الذين حاربوا محمد على، ونافسوا فرنسا على النفوذ الفكرى فى مصر فلم ينجحوا زمن محمد على وإبراهيم، يباركون ويدفعون هذا التيار إلى الأمام، لقد باركوا احتقار الثقافة الغربية والعصرية طالما كانت هذه الثقافة فرنسية غير إنجليزية؟!.

ولقد كان انفراد عباس الأول بالسلطة سنة ١٨٤٩م التعبير عن نجاح هذا التيار الرجعى الإقطاعى فى الانقلاب على عصر التنوير الذى ساد البلاد، فأصاب الضمور والذبول والتحلل مؤسسات البلاد الفكرية والثقافية والتربوية. . [١]

(أ) فالجامعة المدنية التى بناها الطهطاوى - (مدرسة الألسن) - بدأ هذا الانقلاب الرجعى فى عملية تصفيتها. . فألغى قسم الفقه فيها. . . ثم صفى وفصل عددا كبيرا من طلابها. . . ثم نقل مقرها من الأزبكية إلى مكان «مدرسة المبتديان» «بالناصرية» فى أكتوبر سنة ١٨٤٩م (ذى الحجة سنة ١٢٦٥هـ). . وبعد أيام من هذا النقل ألغاها كلية وأغلق أبوابها فى نوفمبر سنة ١٨٤٩م (محرم سنة ١٢٦٦هـ) وضم بقايا طلابها إلى المدرسة التجهيزية، ثم ألغى هذه المدرسة التجهيزية كذلك؟!!![٢]. وبعد أقل من ستة أشهر من إغلاق أبواب هذه الجامعة وتصفيتها نفى رفاعة الطهطاوى، بشكل مغلف، إلى السودان!!

(ب) والجيش المصرى الوطنى الذى عرفته مصر وطنيا لأول مرة منذ عصر الفراعنة تحول على يد عباس الأول إلى حرس شخصى له كوَّنه «من عناصر أقوام أجنبية، وخاصة من الألبانيين والأرقاء - المماليك». [٣].

---

(١) لوتسكى (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٨٣ وما بعدها. طبعة موسكو سنة ١٩٧١م.

(٢) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٣٦.

(٣) (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٨٤.

(جـ) و (الوقائع المصرية) التى تحولت بالنشأة الجديدة التى أنشأها لها الطهطاوى إلى صحيفة مصرية عربية، وازداد نطاق تأثيرها فى البلاد، قصر عباس الأول «توزيعها» على قلة من أصحاب الرتب العالية من «الحائزين على رتبة: فريق، ورتبة: ميرميران، ورتبة: ميرلوا، ورتبة: ميرالاى، فقط[1]؟! فى سنة ١٨٥٣م (٢٣ من صفر سنة ١٢٦٩هـ). .

فهو إذًا انقلاب رجعى، وردة اجتماعية، وتحول إلى الخلف أصاب التجربة الاجتماعية والسياسية والفكرية التى ساهم الطهطاوى فى صنعها، ومن ثم **فإن نفيه إلى السودان ـ فى رأينا ـ كان عملية من عمليات العنف المغلف التى استهدفت تصفية تلك التجربة التقدمية** من قبل عباس الأول وتياره الرجعى، ولم يكن الصراع مع على مبارك ـ إن صح ـ ولا تحفظ بعض شيوخ الأزهر إزاء فكر الطهطاوى وجهوده، ولا توقيت طبع (تخليص الإبريز) مع انفراد عباس بالسلطة. . لم تكن هذه «الأسباب» هى الجوهرية ولا الأساسية ولا البواعث الحقيقية على نفى هذا الرائد الفذ من البلاد إلى الخرطوم. .

ونحن نجد الرجل ذاته، عندما تعرض لمحنته هذه يعزو نفيه إلى «عصبة» معادية للمعرفة والثقافة التى ازدهرت بمصر يومئذ. . فيقول فى «تخميسه» لإحدى القصائد وهو بالخرطوم:

رفاعة يشتكى من عصبة سخرت لما رأت أبحر العرفان قد زخرت.

كما يقيم ما حدث له التقييم الدقيق عندما يراه عملا مقصودا به «الحرمان من النفع الوطنى» وليس مجرد موقف ضد فرد مثقف لصراعات شخصية بينه وبين الآخرين. . فيكتب يقول عن إقامته بالسودان: «. . إن مدة الإقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع الوطنى! . . . »[2].

* ولعمق الأسباب التى أدت إلى نفى رفاعة عن مصر، ولإدراك الرجل أن معركته

(١) (تاريخ الوقائع المصرية) ص ٥٥.
(٢) (مناهج الألباب) الباب الرابع. الفصل الرابع.

هى ضد الردة التى يمثلها عباس الأول وتياره، لم يبذل الرجل جهودا جدية فى استعطاف هذا التيار أو المصالحة معه . . فعندما نظم قصيدته « الدالية» التى تشكى فيها من نفيه، والتى استغاث فيها بحسن باشا ـ كتخدا مصر ـ يومئذ، عاد فعدل عن إرسال هذه القصيدة إلى أولى الأمر فى القاهرة . . بل لقد لاحظ أحمد أمين أن الطهطاوى قد تعمد نظم القصيدة من نفس البحر وعلى نفس القافية التي نظمت عليه وعليها القصيدة الشهيرة التى مطلعها :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى؟!

لأنه كان فاقد الرجاء فى المصالحة مع عباس الأول ونظام حكمه .[1]

* ولم يكره الطهطاوى السودان كوطن، ولا السودانيين كشعب، ولا الخرطوم كمكان . . وإنما كره فى هذا الموطن معنى «المنفى»، وثار على تعطيل كفاءته، والذبول، بل والمرض والموت الذى التهم نصف زملائه[2] . . حتى قال فى رثاء زميله محمد أفندى بيومى، الذى مات هناك ـ وكان رفيقا لرفاعة فى البعثة بباريس، وأستاذا للرياضيات فى المهندسخانة، ورئيسا لأحد أقسام «قلم الترجمة» ـ قال رفاعة فى رثائه :

وحسبى فتكها بنصيف صحبى كأن وظيفتى لبس الحداد؟!

فلم تكن هناك شبهة عنصرية يكره لها رفاعة شعب السودان وبلاده، وهو الذى يقول شعرا عن علاقة مصر بالسودان منه :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد جميعا فى الحب ضم النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى عزة كوكبية الانفلاق..[1].

* ولم يستسلم رفاعة لأحزان المنفى وآلامه، فصرف بعضا من السنوات الأربع التى

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ٥ .

(٢) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الططاوى) ص ٤٠، ٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١ .

قضاها هناك فى ترجمة رواية القسيس الفرنسى «فنلون» (Fenelon) (مغامرات تلماك) (Les Avontures de Telemaque) وهى رواية مستقاة من «الميثولوجيا» اليونانية، ألفها ذلك القسيس الذى عمل مربيا لحفيد لويس الرابع عشر « دوق دى بورجونى»، فجاءت رائعة من روائع الأدب الرمزى الهادف إلى تقويم الحاكم والنصح لولى الأمر . . ترجم الطهطاوى هذه الرواية الهادفة فى منفاه، فقدم للأدب العربى الحديث أول رواية فرنسية، وقدم للأدب العربى ـ تقريبا ـ أول عمل فنى مستقى من أساطير اليونان؟![1] .

* ويدل على أن إقامة الطهطاوى فى الخرطوم كانت «نفيا» لا مواربة فيه، وأن قصة افتتاح المدرسة الابتدائية لم تكن لتجوز حتى على الذين اخترعوها، أن الرجل قد مكث بالخرطوم عامين و «ديوان المدارس» لا يعلم عن عمله شيئا، وبالتالى فلم تكن هناك مدرسة قد افتتحت طوال هذين العامين . . ومن ثم كان حتى «المظهر» للطهطاوى وزملائه هو «مظهر» النفى لا الحضور للتدريس؟! . . ويبدو أن المسئولين فى القاهرة تحركوا لتلافى ذلك الافتضاح لفعلتهم، فأرسلوا إلى رفاعة يطلبون تقريرا عن إنجازات المدرسة خلال هذه المدة، فكان رده عليهم: « إن التلامذة هربوا إلى الجبال، وإن المعلمين قد توفى الله ثلاثة منهم إلى رحمته . . وأما «المهمات» فقد استولى عليها حكمدار السودان ووزعها على فرق الجيش . . . . وليست المدرسة إلا (اسما بدون جسم) . . »!! . . فأرسل الخديو إلى حكمدار السودان، وأرسل الديوان إلى رفاعة طالبين افتتاح المدرسة، فافتتحت لمدة تسعة أشهر، انضم إليها فيها تسعة وثلاثون تلميذا، تعلموا فيها «طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط» . . ومن توسم فيهم رفاعة النجابة خصهم «بقراءة القرآن»، وحفظه، وإعراب الأجرومية، وحفظ مفردات وجمل تركية، وخط الثلث، والحساب . . . »[2] .

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٣٤، ١٣٥ وعمر الدسوقى (فى الأدب الحديث) ج١ ص ٣٣، ٣٤. ومحمد خلف الله أحمد بحث عن (جانب من جهود رفاعة فى تجديد اللغة والفكر والأدب) منشور بكتاب: (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص ١٥٥ .

(٢) د. حسين فوزى النجار (أعلام العرب) ص ١١١ ـ ١١٣ .

* ومن الحقائق الهامة فى «منفى» الطهطاوى و«نفيه» أن الرجل لم يكن مستسلما للبقاء فى هذا القيد الذى حال دون إسهامه الجدى فى «النفع الوطنى العام» . . ونحن نميل إلى أنه قد حاول الهرب من منفاه ودبر لذلك الخطط وأرسل الرسائل إلى أهله وذويه وأصدقائه «بطهطا» و «القاهرة» كى يساعدوه؟! . . وذلك على الرغم من أنه كان فى الخرطوم «خاضعا لرقابة شديدة تفرض عليه أن لا يتسلم خطابا إلا عن طريق الحكومة التى تفض رسائله لتعرف ما بها ، وقد امتنعت عليه ، بهذه الوسيلة ، صلته بأصدقائه فى مصر ممن يخشون عواقب تلك الرقابة! . . »[1] .

وعندما التقى رفاعة ، فى الخرطوم ، بالرحالة الأمريكى «بايارد تيلور» حمّله رسالتين سريتين ، إحداهما إلى ولده وأهله بطهطا والثانية إلى قنصل إنجلترا بالقاهرة وقال له : «إننى لا أستطيع ائتمان التجار المصريين على هاتين الرسالتين ، **فلو فضتا وقرئتا لطال أمد نفيى فى هذه البلاد سنين عديدة. أما إذا تفضلت بإيصالهما فإن أصدقائى بمصر سيعرفون السبيل إلى معاونتى، وربما تمكنوا من إعادتى إلى وطنى ! !**[2]» .

ولو كانت هذه الرسائل استعطافا ، أو سعيا إلى وساطة لدى حكام القاهرة يومئذ ، لما قال الطهطاوى عنها إن فضّها وقراءتها سيؤدى إلى إطالة أمد نفيه فى هذه البلاد سنين عديدة ، عل حين أو وصولهما فى سرية سيجعل أصدقاءه بمصر يعرفون السبيل لمعاونته على العودة للوطن . . فالطهطاوى ، إذا لم يستسلم لمنفاه ، بل حاول كسر هذا القيد الذى طوقه به الانقلاب الرجعى الذى حكم مصر نحوا من خمس سنوات . .

* وحقيقة أخرى نتلمسها من تقرير الرحالة الأمريكى «بايارد تيلور» ، هى الحب

---

(١) من رحلة المستر «بايارد تيلور» سفير أمريكا فى برلين ، الذى لقى رفاعة بالخرطوم . كتاب : (لمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات الطهطاوى) ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق . ص ٦٩ .

والتعلق واللهفة التى كانت تمثل مشاعر مواطنى الطهطاوى فى موطنه تجاهه وهو فى المنفى بالسودان . . ففى تقرير «تيلور» نقرأ كيف وصل إلى منزل رفاعة فى «طهطا» وانتظر حضور ابنه ـ وكان سنه أحد عشر عاما ـ كى يتسلم خطاب والده . . . «..**وقد تسامع مع أهل البلد، عند وجودى فى الانتظار، أنى آت من الخرطوم، وأنى أعرف «الباشا» ـ (رفاعة) ـ فأتوا من كل حدب ليسألونى عنه، وكانوا جميعا فى نهاية الأدب والود، واغتبطوا لما طمأنتهم عليه كما لو كانوا جميعا من أفراد أسرته!!».. وحتى معلم «كتاب» بطهطا «صرف جميع الطلبة، وأغلق المكتب، وجاء ليسمع أخبار «الباشا»** . . ويعلق «تيلور» على الحديث الذى أسر به ابن رفاعة إلى الشيخ معلم «الكتاب» بعد قراءة رسالة «الباشا» إلى ولده، فيقول : «**وليست أشك فى أنهما كانا يحاولان تدبيرا لإعادة الباشا من منفاه..**»؟!![1] .

فهو إذا : انقلاب رجعى، ونفى، ونضال ضد هذا النفى الذى قام به هذا الانقلاب .

* * *

- ٨ -

* خلف الخديو سعيد سلفه عباس الأول فى حكم مصر فى ١٤ من يولية سنة ١٨٥٤م . . ففكت قيود المنفيين فى السودان، وأسرع رفاعة وبقايا زملائه بالعودة إلى القاهرة . . وكان سعيد «ذا تفكير حر، وميول غربية»،[2] فكان طبيعيا أن يبعث الحياة فى المؤسسات الفكرية والثقافية والتربوية التى نمت فى عهد محمد على وإبراهيم، وأغلقت فى عهد عباس . . ولكن اهتمامات هذا الخديو كانت عسكرية فى معظمها . . ومن ثم فإن جهود رفاعة المدنية وطموحه إلى تجديد ما

---

(١) المرجع السابق . ص ٩٦ ـ ٩٨ .

(٢) (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٨٧ .

انهدم، ووصل ما انقطع من حياة البلاد الثقافية، لم تتح له فرص كبرى للتحقق في السنوات العشر التى حكمها سعيد (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣م) . . ولكنه صنع فى هذه السنوات العشر أشياء ذات قيمة لا تنكر :

(أ) فعند عودته من الخرطوم كان إبراهيم أدهم بك ـ وهو من الذين أبعدوا على عهد عباس ـ محافظا للعاصمة، وناظرا «لديوان المدارس» ـ بمثابة وزارة التربية والتعليم ـ وبعد أن استقبل الخديو رفاعة، أصدر أوامره بتعيينه عضوا ومترجما فى مجلس المحافظة . . ولكن الطهطاوى حاول عن طريق إبراهيم أدهم بعث مشروع قديم كان قد تقدم به أدهم على عهد محمد على «لنشر التعليم بين عامة أفراد الشعب، هو مشروع (مكاتب الملة) . . » أى مكاتب الأمة، واقترح أدهم أن يكون رفاعة ناظرا عاما على هذه «المكاتب» . . كما اقترح أن يلحق بالمشروع مترجمون لإتمام عمل الطهطاوى فى ترجمة جغرافية «ملطبرون» وغيره من الكتب، وذلك كبعث «لقلم الترجمة» القديم . . ولكن الخديو سعيد لم يؤمن بفائدة المشروع . . [١] .

(ب) وفى سنة ١٨٥٥م (سنة ١٢٧١هـ) عين الطهطاوى وكيلا ـ ناظرا ثانيا ـ للمدرسة الحربية «بالحوض المرصود» «بالصليبة» . . كان ناظرها سليمان باشا الفرنساوى، قائد جيش سعيد . . ولكن طموح الطهطاوى إلى التربية المدنية جعله يسعى حتى نجح فى سنة ١٨٥٦م فى إنشاء مدرسة مستقلة «بالقلعة»، كانت فى أصل نشأتها مدرسة حربية لأركان الحرب ـ تمشيا مع اهتمام الخديو المركز على الجيش وحده ـ ولكنها تحولت عمليا بفضل جهود ناظرها الطهطاوى إلى صورة جديدة للمدارس المدنية التى كان ينشئها ويديرها على عهد محمد على وإبراهيم . . فجعل دراسة اللغة العربية بها إجبارية على جميع الطلبة، وجعل لهم حرية اختيار إحدى اللغتين الشرقيتين : التركية أو الفارسية، وإحدى اللغات الأوروبية : الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية . . ثم

---

(١) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٤٢، ٤٣ .

أنشأ بها فرقة خاصة للمحاسبة . . وبعد قليل أنشأ بها «قلما للترجمة» رأسه تلميذه صالح مجدى . . فاقترب بمدرسة أركان الحرب هذه من مدرسة الألسن القديمة! . .

وتولى، إلى جانب نظارة هذه المدرسة، نظارة مدرستى «الهندسة الملكية والعمارة» و«تفتيش مصلحة الأبنية» . . ويصف على مبارك انتعاش الطهطاوى فى هذه الفترة فيتحدث عن نشاط مدرسة أركان الحرب قائلا: إن رفاعة قد جعلها «كافلة للعلوم الأدبية، وافية بالفنون المدنية، فبذل همته فى ذلك، وراعى فى نظاماته ما يجذب خواطر الأهلين إلى تلك المدرسة، ورتب لها من المعلمين كل من له به ثقة من أهل العلم والمعرفة التامة المتدربين على تعليم العلوم وإفادتها، ومن الموظفين ذوى الاجتهاد ما فيه الكفاية، وأدارها إدارة جيدة حتى ظهرت نجابة تلامذتها واستفادتهم استفاده جيدة فى أقرب وقت . . »[(١)] .

(جـ) وفى هذه الفترة أيضا أنجز الطهطاوى أول مشروع لإحياء التراث العربى الإسلامى فى مصر، فنجح بمساعدة بعض الأمراء فى استصدار أمر الخديو سعيد «بطبع جملة كتب عربية» على نفقة الحكومة وعم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره»[(٢)] . . ومن كتب التراث هذه:

١ ـ (تفسير القرآن) للفخر الرازى.

٢ ـ و (معاهد التنصيص على شواهد التلخيص) لعبد الرحيم العباسى ـ (٨٦٨ ـ ٩٦٣هـ) وفيه فنون أدبية متنوعة وطرائف يمتزج فيها الجد بالهزل، فطبعته مطبعة بولاق سنة١٨٥٧م (سنة ١٢٧٤هـ)[(٣)] . .

٣ ـ و (خزانة الأدب).

---

(١) (الخطط الجديدة) ج ١٣ ص ٥٥ .

(٢) المصدر السابق . ج ١٣ ص ٥٥، ٥٦ .

(٣)(معجم المطبوعات العربية والمعربة) ج ٧ ص ١٢٦٧ .

٤ ـ و (المقامات الحريرية) . . «وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت . . »[١] .

* غير أن هذا النشاط الذى استأنفه رفاعة في عهد سعيد عاد فتوقف فى سنة ١٨٦١م . . ففى ٧ من مارس من ذلك العام «فصل رفاعة من الخدمة»؟! . . وفى أغسطس من نفس العام ألغيت مدرسة أركان الحرب التى كان قد مضى على إنشاء رفاعة لها خمس سنوات[٢] . . . وظل الرجل «عاطلا عن العمل» لأكثر من عامين حتى ذهب عهد سعيد وجاء إلى الحكم الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٣م .

* وفى السنوات العشر التى عاشها الطهطاوى فى ظل حكم الخديو إسماعيل ـ من سنة ١٨٦٣ حتى وفاته سنة ١٨٧٣م ـ عادت للرجل حيويته ، وازدهرت أنشطته ، وفتحت أمامه مرة أخرى أبواب العمل فى مجالات التربية والتعليم ، وميدان الترجمة ، وألقى بثقله ـ كما لم يحدث له من قبل ـ فى ميدان التأليف . . فاقترب مستوى نشاطه مما كان عليه زمن محمد على وإبراهيم . .

(أ) فلقد أعاد إسماعيل إنشاء «ديوان المدارس» ، وعين رفاعة فى «قومسيون» ذلك الديوان «للنظر فيما يجب نحو افتتاح المدارس الجديدة» .

(ب) وفى سنة ١٨٦٧م (رجب سنة ١٢٨٤هـ) عهد على مبارك ـ ناظر ديوان المدارس ـ إلى رفاعة النظر فى «لائحة تنظيم المكاتب الأهلية» ، ثم جعل إليه الإشراف الدائم ـ من قبل ديوان المدارس ـ على هذه المكاتب ، فرأس (مجلس المكاتب الأهلية) وكان له النظر فى شئونها وتقرير مفتشيها . . إلخ . . إلخ . .

كما أشرف على تدريس اللغة العربية بالمدارس ، فاختار مدرسيها ، ووجههم

---

(١) (الخطط الجديدة) ج ١٣ ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) د . جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٤٥ .

إلى طرق التدريس الحديثة، واختار الكتب المقررة . . ورأس الكثير من لجان الامتحان بالمدارس المصرية والأجنبية[١] . .

(جـ) وعندما أراد الخديو إسماعيل إصلاح القضاء، أنشأ لترجمة القوانين الحديثة (قلم) الترجمة الجديد سنة ١٨٦٣م، وعين رفاعة ناظرا له فاستدعى تلاميذه القدامى الذين تخرجوا من مدرسة الألسن، وعاونوه فى ترجمة القوانين . . ومن هؤلاء التلاميذ القدامى: عبد الله السيد، وصالح مجدى، ومحمد قدرى، ومحمد لاظ، وعبد الله أبو السعود . . وكان مقر هذا القلم فى «غرفة» واحدة بديوان المدارس!! ومع ذلك أنجزوا ترجمة مجلدات القانون الفرنسى - «كود» نابليون - الذى طبع فى «بولاق» ما بين عامى سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٦٨م . . كما ترجموا الدستور العثمانى و«الجريدة العسكرية» وحسابات البعثة المصرية بباريس . . وأيضا ترجموا كتاب رفاعة - أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) - الجزء الخاص بمصر القديمة - إلى اللغة التركية[٢] . .

كما ترجم رفاعة أيضا القانون المدنى فى مجلدين، طبعا سنة ١٨٦٨م، وقانون التجارة الذى طبع فى سنة ١٨٦٨م. مع ما تطلبته عملية ترجمة القوانين هذه من إلمام واسع «بالقوانين الفرنسية، وأحكام الشريعة الإسلامية، لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها فى القانون الفرنسى» وهو جهد رائد غير مسبوق فى العربية، لم يطرق بابه أحد قبل الطهطاوى وتلاميذه[٣] .

(د) وفى سنة ١٨٧٠م (١٢٨٧هـ) قرر «ديوان المدارس»، وناظره على مبارك، إصدار مجلة فكرية وثقافية وأدبية، كانت الأولى من نوعها فى مصر، وهى (روضة المدارس) وقرر الديوان إسناد رئاسة تحريرها إلى رفاعة الطهطاوى،

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١١٥ .

(٢) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٤٦، ٤٧ . وعمر الدسوقى (فى الأدب الحديث) ج ١ ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق. ج ١ ص ٢٩ .

وصـــدر العـــدد الأول منهـــا فى أبريل سنة ١٨٧٠م (١٥ من المحـــرم سنة ١٢٨٧هـ) . . وجاء فى قرار الديوان إسناد رئاسة تحرير المجلة إلى رفاعة : إنه «هو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل إنسان»[١] .

ولم تكن (روضة المدارس معنية «بتقييد الأحوال السياسية الوقتية، والأفعال الرئاسية والإدارية[٢]» وإنما كانت أشبه «بمجمع» علمى وأدبى وفنى . . فلقد نظمها الطهطاوى أقساما يرأس كل قسم أكبر المتخصصين فيه بمصر فى ذلك التاريخ، فكان أن ضمت هذه المجلة ضمن من ضمت :

١ ـ صالح مجدى، وكيل ديوان المدارس، والمتخصص فى ترجمة الرياضيات والعلوم الهندسية والعسكرية . .

٢ ـ محمود الفلكى، أبرز علماء الفلك يومئذ . .

٣ ـ إسماعيل الفلكى، ناظر «الرصدخانة»، وناظر مدرسة «المهندسخانة» فى عصر إسماعيل .

٤ ـ عبد الله فكرى، الأديب، الشاعر، الذى تولى نظارة المعارف فى وزارة محمود سامى البارودى .

٥ ـ محمد قدرى، المشرِّع القانونى، صاحب النظام القضائى للمحاكم الأهلية الجديدة، والذى تولى نظارة الحقانية ثم المعارف . .

٦ ـ محمد ندا، الكيماوى، والأستاذ بمدارس الطب، والمهندسخانة، وأركان الحرب، وصاحب الترجمات العديدة فى الزراعة وعلم الحيوان . .

٧ ـ الشيخ حمزة فتح الله، اللغوى والأديب الشهير . .

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٢٢، ١٢٣ .
(٢) (روضة المدارس) افتتاحية العدد الأول .

٨ ـ عبد الله أبو السعود، الصحفى الرائد فى ميدان الصحافة غير الحكومية ـ (صاحب جريدة «النيل») ـ . . .

٩ ـ محمد بدر، الطبيب اللامع فى عصره . .

١٠ ـ الشبخ عبد الهادى نجا الإبيارى، من اللغويين المشهورين فى عصره . .

١١ ـ الشيخ حسين المرصفى، اللغوى والأديب . .

إلى غيرهم وغيرهم من أبرز علماء العصر ومفكريه ومترجميه ومثقفيه[١] . .

ولقد دأبت (روضة المدارس) على نشر «ملاحق» لأعدادها، تنشر فيها فصولا متتابعة تكون كتبا كبيرة فى موضوعاتها، بأقلام هؤلاء العلماء المتخصصين . .

فنشرت لعبد الله فكرى (آثار الأفكار ومنثور الأزهار)، ولعلى مبارك (حقائق الأخبار فى أوصاف البحار) . . وللدكتور محمد بدر (الصحة التامة والمنحة العامة) و(المباحث البينات فيما يتعلق بالنبات) و(بهجة المطالب فى علم الكواكب) . . كما نشرت للطهطاوى (القول السديد فى الاجتهاد والتجديد) و(بقاء حسن الذكر باستخدام الفكر) و(إحسان السيرة بإخلاص السريرة) وكتابه الكبير (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) الذى أرخ فيه لظهور الإسلام وسيرة الرسول وبناء الدولة العربية الإسلامية .

ولقد ظل الطهطاوى رئيسا لتحرير (روضة المدارس)، يظهر اسمه على أعدادها حتى عددها السادس من سنتها الرابعة، الصادر يوم الاثنين ٢٦ من مايو سنة ١٨٧٣م (نهاية ربيع الأول سنة ١٢٩٠هـ) إذ توفى، رحمه الله، فى اليوم التالى لصدور هذا العدد . . فنعته المجلة فى عددها التالى، ورأس تحريرها ابنه على فهمى رفاعة، فواصل نهجه، بل واستمر ينشر فيها كتاب والده (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) . الذى كان آخر مؤلفات الطهطاوى، كما كانت (روضة المدارس)

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٢٢ ـ ١٢٧ .

آخر الإنجازات العملاقة التى قدمها لوطنه الذى أحبه، وقال فى كل مناسبة: إن حبه من الإيمان!..

* * *

-٩-

* تتميز الآثار الفكرية التى أبدعها الطهطاوى - ونحن لا نتحدث هنا عن مترجماته - بشمول غطى احتياجات عصر النهضة العربية فى زمنه تقريبا.. فنحن إذا قارنا الرجل مثلا بجمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) أو بالإمام محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م) أو بعبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ - ١٩٠٢م) وجدناه نوعية مختلفة عن هؤلاء المثقفين والمفكرين، **فهو لم يحصر جهوده فى نطاق الفكر الذى تتميز به حركة «المثقفين» بالمعنى الخاص والضيق، وإنما كان «مثقفا» فهم «الثقافة» بمعناها العام، وقدم لشعبه وأمته زادا ثقافيا يغطى احتياجات هذه الأمة، تقريبا، فى عملية التطوير والتغيير الجارية لمختلف جوانب الحياة.. حياة الأمة بطبقاتها وفئاتها، لا حياة «المثقفين» فقط من أبنائها..**

فنحن عندما نطالع كتابه (مناهج الألباب) نجد فيه فكرا وثقافة للمفكر فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة.. وفكرا للفلاح فى الزراعة، والتربة، والثروة الحيوانية والسمكية وتربية دود القز، وميزات الصوف الذى تعطيه أغنام «المارينوس»؟! إلخ.. إلخ.. وفكرا وثقافة للطبيب، وللمهندس وللمعمارى.. وثقافة للعسكريين وللمدنيين على السواء.. وزادا للبسطاء وللمتفلسفين، وللحاكمين والمحكومين.. **لأن الرجل كان محترفا لصناعة «التمدن والحضارة» بمعناها الشامل وليس مجرد مثقف تنصرف اهتماماته وتنحصر فى فن من الفنون أو علم من العلوم..**

كما تطالعنا لدى الطهطاوى أصالة لا يتميز بها كثير من المثقفين، وارتباط بالواقع تطغى عليه الثقافة عند الكثيرين.. فمن يقرأ أحاديث الطهطاوى عن

الزراعة أو الصناعة أو التعليم يدهشه أن الرجل الذى استوعب أكثر حضارات عصره تقدما وخصوبة وتطورا - وهى الحضارة الفرنسية وفكر أعلامها - يتحدث فى آثاره الفكرية كمصرى نابع من أحشاء هذا الشعب، واع كل الوعى بواقعه، ومتمثل جيدا لتضاريس العقبات التى تبطىء بتطوره وتمدنه ورقيه . . ولعلى لا أبالغ إذا قلت : **إننى قد أحسست وأنا أقرأ آراء الطهطاوى فى الزراعة المصرية ومقترحاته لتطويرها، وأحاديثه عن التعليم المصرى والثقافة والتمدن الذى يريده لبلاده وأمته، أننى أمام نموذج من المثقفين النادرين، الذين تمثلوا أكثر ما فى حضارات عصرهم تقدما وعصرية، ثم طوعوها لواقعهم البسيط والساذج، الذى ظلوا مرتبطين به كل الارتباط، ومن ثم فإنهم قد امتازوا بعبقرية تتمثل فى الربط الخلاق ما بين «النظرية» و «الواقع والتطبيق»، ولم تبتعد بهم «الثقافة» عن الواقع المتخلف الذى نشأوا فيه..**

تميز فكر الطهطاوى بهذه القسمة، وامتاز بها على كثير من المثقفين والمفكرين، ومن ثم فإن الرجل لم يكن «ناقلا» عن الغير، حتى عندما يسترشد بفكر الآخرين، وإنما كان «هاضما ومتمثلا» لذلك الفكر، يقدمه فكرا مصريا عربيا مستنيرا لأمته كى تتجاوز بواسطته عصور التخلف، وتلحق بالركب الحضارى، وتسهم من جديد فى العطاء للإنسانية، كما أسهم أسلافها العظام، وكما يسهم الذين سبقوها فى هذا المضمار فى العصر الحديث . .

هذا عن ميزة فكر الطهطاوى وخاصية إبداعه وعطائه . . أما عن حجم الثروة الفكرية التى قدمها الرجل وتلاميذه للأمة العربية، فإننا لو ذهبنا نتتبع مترجماتهم ومؤلفاتهم فإن المقام سيتشعب بنا ويطول . . ونحن نحيل فى ذلك على دراسة الدكتور جمال الدين الشيال عن (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على)[1] . . فقط نعطى القارىء مؤشرا يبصر بواسطته حجم هذا الزاد الفكرى فنقول : إن الدولة العثمانية قد عرفت الطباعة العربية قبل مصر، ولكن حصيلة

---

(١) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢م.

إنتاج المطابع فى تركيا خلال قرن من الزمان ـ وهو مقياس لا ينكر صدقه على حيوية الحركة الفكرية وجديتها وخصوبتها ـ إن حصيلة هذه المطابع خلال قرن (من ١٧٢٨ حتى ١٨٣٠م) لم تتعد الأربعين كتابا، بينما أعطى الطهطاوى والحركة الثقافية التى أنشأها ورعاها للأمة أكثر من ألفى كتاب[١] خلال أقل من الأربعين عاما؟! ولا تسل عن النوعية التى تفرق بين ما طبع فى الآستانة وما طبع فى القاهرة، فالأول كان تكريسا للتخلف وإشاعة للخرافة ومزيدا من محاولات تعويق التقدم، أما الثانى فكان الأساس المتين والخلاق لبناء عصر التنوير والبعث والإحياء.

* وحتى نفهم دور الطهطاوى فى هذا «الهرم الثقافى والفكرى الذى قام فى تلك السنوات، لابد أن نقرأ كلمات صالح مجدى التى وصف بها رفاعة، عندما قال عنه: إنه «كان قليل النوم، كثير الانهماك على التآليف والتراجم، حتى أنه ما كان يعتنى بملابسه، كما هى عاد الأفاضل من الأواخر والأوائل، لاشتغالهم عنها بما هو أنفع منها[٢]!..».

ولابد أن نستعيد ثانية كلمات على مبارك التى قال فيها عن رفاعة: «وكان دأبه فى مدرسة الألسن، وفيما اختاره للتلامذه من الكتب التى أراد ترجمتها منهم، وفى تأليفاته وتراجمه خصوصا، أنه لا يقف فى ذلك فى اليوم والليلة على وقت محدود، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء، أو عند ثلث الليل الأخير، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الإدارة والشرائع الاسلامية والقوانين الأجنبية... ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف[٣]».

وأيضا لابد لنا من أن نتأمل صورته، كما تحدثت عنها زوجته، فقالت: إنها

---

(١) من تقرير «موريس شيمول» (Maurice Chemoal) عن رفاعة، انظر كتاب (لمحة تاريخية) المقدمة.

(٢) (حلية الزمن) ص ٦٥.

(٣) الخطط الجديدة ج ١٣ ص ٥٤، ٥٥.

«كانت تسهر على راحته، وهو يقرأ أو يكتب طول الليل . . هو على حشية على الأرض، وهى على سرير بجواره، يبيت يشتغل طول الليل، ويدخن طول الليل كذلك[1]! . . ».

بل إن كلمات رفاعة نفسه فى وصف «الكتاب» ذات دلالة كبرى وحاسمة على هذه الحقيقة التى نقررها . . فهو يقول : « . . إن مثل الكاتب كالدولاب، إذا تعطل تكسر! وكالمفتاح الحديد، إذا ترك ارتكبه الصدأ. [2].

* ولقد كان الطهطاوى يدرك الفرق بين «العالم المتخصص» و « المفكر والكاتب الموسوعى» . . فنقل عن « ابن قتيبة» قوله : من أراد أن يكون عالما فليلزم فنا واحدا، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم» وعلق الطهطاوى على قول «ابن قتيبة» هذا بقوله : «وهذا من أحسن ما نتخذه مذهبا، وإلى محاسنه نميل ونذهب[3]» . . فمال إلى «محاسن» هذا المذهب، **فكان مفكرا موسوعيا، متمسكا بعمق العلماء ودقة المتخصصين،** لأنه كان الراعى الأول لحركة البعث، التى كانت تتطلب منه وتستدعى أن يتصف بهذه الصفات . .

وكما يقول صالح مجدى عنه : «إنه أول مترجم نشأ بالديار المصرية من أبنائها . . وأول منشىء لصحيفة أخبار فى الديار المصرية». وأول من وقف على «التواريخ القديمة والحديثة والأنساب» بلا خرافة أو أساطير، حتى «لم يكد يلحقه فيه غيره . . وأول من نجح فى تعليمه لأبناء الوطن اللغات الأجنبية[4]. . وأضف إلى ذلك المنشآت التربوية التى كان رائدا فى إقامتها فى ربوع الشرق على الإطلاق، مما سبق عنها حديثنا فيما تقدم من صفحات . .

---

(١) على عزت الأنصارى، بحث عن (رفاعة فى أسرته) منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص١٩٦ (والانصارى من أسرة والدة رفاعة، وهو ينقل مباشرة عن زوجة رفاعة التى تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى . . وكانت من المعمرات).

(٢) (تخليص الإبريز) المقدمة . الباب الرابع .

(٣) (المرشد الأمين) الباب السابع . الفصل الثانى .

(٤) (حلية الزمن) ص ٣٤ .

* أما الثمار الفكرية التى خلفها الرجل فإن نصيب الترجمة منها أكبر حجما من نصيب التأليف - وإن كانت مؤلفاته تضعه فى مقدمة المؤلفين، كما يتضح من أعماله الإبداعية هذه التى نقدم لها - فلقد بدأ الطهطاوى بالترجمة منذ كان مبعوثا فى باريس، بل إن (تخليص الإبريز)، الذى هو «تأليف» أصلا، قد تضمَّن فصولا هى «ترجمة» فى الأساس. . وكما كان الرجل مفكرا موسوعيا فى «إبداعه» كان كذلك فى «ترجماته». . إذ على الرغم من دراسته الإنسانية الأزهرية الأولى، وميله الأدبى، وحبه للتاريخ والجغرافيا الذى جعله يقول: إننا «قد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة. . [1]. .» إلا أن «ترجماته» قد غطت أغلب الميادين. .

فترجم فى **التاريخ، والجغرافيا، وفى الطب، والعلوم، والقانون، والهندسة، كما ترجم فى الأدب والشعر..الخ.. الخ..**

ولقد كان الطهطاوى يمزج الترجمة بالتأليف أحيانا، وذلك لأسباب منها:

أولا: أنه لم يكن مترجما محترفا بالمعنى الشائع فى حقل الترجمة، وإنما كان يختار الكتب التى يراها خليقة بأن تلعب دورا فى عملية «التمدن» التى يقود صنعها فى وطنه، فإذا ما رأى الكتاب المترجم قد قصر فى ناحية من النواحى التى لا تهم المؤلف بسبب اختلاف العقلية أو المزاج أو البيئة والاحتياجات، شرع الطهطاوى - كمؤلف ومصنف - فى استكمال جوانب النقص هذه. . مثال ذلك ترجمته لكتاب: (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية)، فلقد أوجز مؤلفه فى الحديث عن جغرافية البلاد العربية، وأسهب فى جغرافية أوربا، فرجع الطهطاوى إلى مراجع أخرى، واستقى منها ما أكمل به هذا النقص وبسط به ذلك الاختصار. . ومثل ذلك ماصنعه فى ترجمته لرسالة (جغرافية بلاد الشام) التى رجع فى زيادة مادتها وبسط ما أوجز منها إلى المراجع الفرنسية والعربية القديمة. . وأشار إلى كل ذلك فى تقديمه لهذه الترجمات. .

---

(١) (تخليص الإبريز) المقالة السادسة. الفصل السابع.

ثانيا: أن الطهطاوى ـ كرائد لحقل بكر وجديد ـ قد اصطدم بمشكلة «المصطلحات» وبغياب القاموس الذى يعين المترجمين والقراء . . فاختط لنفسه ولتلاميذه خطة تقضى إلى وضع مادة قاموس، بالتدريج، وذلك عن طريق وضع قاموس لمصطلحات كل كتاب يترجمونه، يلحق بهذا الكتاب، على أن تجمع كل هذه الجهود فيما بعد لتكون القاموس المطلوب . . وذلك علاوة على ما فى هذا العمل، بشكله الأولى، من نفع كبير للقارىء الذى يطرق باب هذه المعارف بعد أن تغرب عنها وطنه وابتعدت عنها ثقافته عده قرون . . فلقد أدرك الطهطاوى جيدا أن «فن الترجمة . . . يعنى ترجمة الكتب، هو من الفنون الصعبة، خصوصا ترجمة الكتب العلمية، فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها . . »[١] .

ومن الكتب التى ترجمها الطهطاوى ووضع لها قاموس مصطلحاتها، مثلا كتاب : (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) فقاموس مصطلحاته يستغرق من ص ٢ حتى ص ١٠٥[٢] . . وكتاب (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية)، فقاموس مصطلحاته يستغرق من ص ٦٢ حتى ص ٩٦ . . [٣]

ثالثا: أن الطهطاوى، كوطنى يعتز بقيم مجتمعه وخصائص أمته، قد حرص فى ترجماته على أن يرد سهام بعض المؤلفين الذين دفعهم التعصب إلى الافتراء على الإسلام والعروبة، والشرق بوجه عام . . وينهض مثلا على ذلك تعليقاته وتصحيحاته وإضافاته على كتاب(قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) «لديبنج» (Depping) وهو الذى كان قد ترجمه فى باريس بعنوان (دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدها)ثم عدل عنوانه وأضاف إليه تعليقاته قبل أن يطبعه فى مصر سنة ١٢٤٩ هـ (سنة ١٨٣٣م) . ولقد نهض الطهطاوى، وهو يبحث عن

---

(١) المصدر السابق . المقدمة . الباب الثانى .

(٢) طبعة سنة ١٢٤٩ هـ سنة ١٨٣٣م .

(٣) طبعة بولاق سنة ١٢٥٠ هـ سنة ١٨٣٤م .

المصطلحات، ببناء صرح مذهل فى ضخامته أضافه إلى صروح اللغة العربية، وذلك عندما أدى عمله هذا إلى بعث مفرداتها العلمية والفنية القديمة، وتزويدها بالجديد الذى ليس فى خزائن مفرداتها، مما أفضى إلى «توسيع المحيط الضيق للغة القديمة الموروثة - (خصوصا فى صورتها المملوكية) - بالإحياء، وبإمدادها بفيض من الألفاظ الجديدة، فسمح للعقلية العربية بالتجديد . . .»[1] ونجح فى «أن يطوع اللغة العربية للأفكار والتصورات المستحدثة، وأن يضع اللبنة الاولى فى التطور الحديث لهذه اللغة»[2].

ولم يغفل الطهطاوى لغة البلاد العامية والدارجة، فلقد «اختط لنفسه ولمدرسته، فى القاموس اللغوى، خطة تقوم على استعمال اللفظ العربى الفصيح، فإن لم يوجد فاللفظ الدارج، فإن ضاق الاثنان فاللفظ الأجنبى معربا . .» . .[3]

فلم يقف الرجل من لغة الشعب الدارجة موقف التعالى أو الجمود والمحافظة، بل فضل ألفاظها ومصطلحاتها على ما هو أجنبى، إذا لم تسعفه الفصحى فى التعبير . . . وهو قد عبر عن خطته تلك فى تقديمه لكتاب (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) عندما قال عن مصطلحاته: « . . . ولما كانت هذه الألفاظ، فى الأغلب، أعجمية، فلم ترتب إلى الآن فى كتب اللغة العربية . . . عربناها بأسهل ما يمكن التلفظ به فيها على وجه التقريب، حتى أنه يمكن أن تصير، على مدى الأيام، دخيلة فى لغتنا، كغيرها من الألفاظ المعربة عن الفارسية واليونانية. ولو وضع المترجمون، نظير ذلك (أى نظير القاموس الذى وضعه لهذا الكتاب) - فى كل كتاب ترجم لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب».

فهو هنا يدعو المترجمين إلى الاقتداء بأسلافهم الذين نقلوا عن الفرس واليونان،

---

(١) من تقرير «موريس شيمول» عن رفاعة. انظر كتاب (لمحة تاريخية) المقدمة.

(٢) محمد خلف الله أحمد. بحث عن (جانب من جهود رفاعة فى تجديد اللغة والفكر والأدب) منشور فى كتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص ١٥٣ .

(٣) المرجع السابق. ص ١٥١، ١٥٢ (نفس البحث).

لأنه كان يدرك أن العمل الذى قاده لا يقل فى تجديد الفكر العربى والحضارة العربية عن ذلك الذى نهض به أولئك الأسلاف العظام . .

ونحن نعتقد أن جهد الطهطاوى فى هذا الحقل بالذات ، يستحق رسالة جامعية يخصصها له ويتخصص فيها أحد الدارسين لتطور لغتنا وتجديدها واتساع أفقها فى عصر نهضتنا الحديث . . . إنه ميدان هام وخصب ينتظر أحد الفرسان الباحثين المخلصين . .

❊ ❊ ❊

أما الآثار الفكرية للطهطاوى فى حقل التأليف والخلق والإبداع فإن الباحث والقارىء سيجدها جميعا فى هذه الطبعة لهذه الأعمال الكاملة . . محققة التحقيق العلمى ، مشروحة ألفاظها الغريبة ، مترجمة أعلامها ، ومعلقا على ما يستحق التعليق ويتطلبه من نصوصها . . . ومبوبة التبويب الذى يخدم ويساعد على وعيها وتمثلها والاستفادة بها ، وهو أساسا التبويب الموضوعى ، إذ هو الأنسب لها . . سيجد القارىء والباحث كل نصوص الطهطاوى ، كتبا أو مقالات فى الصحف ، لم تجمع من قبل ، ومخطوطات وأوراقا لم تر النور حتى إنجاز هذا العمل الذى نقدم له الآن ، والذى يقع فى خمسة أجزاء . .

ونحن لن نتحدث هنا عن هذه المؤلفات والأعمال ، حتى لا يطول بنا الحديث ويتشعب ، فقط نود أن نلمس بعض النقاط والمميزات عند الطهطاوى المؤلف . . وعلى سبيل المثال :

١ ـ فالهدف العام والأساسى والجوهرى الذى استهدفه الطهطاوى من كل جهوده ، وهو بعث هذه الأمة وتنويرها ، نراه محورا لكل المؤلفات التى أبدعها هذا الرائد العظيم . . ففى كتابه الأول (تخليص الإبريز) الذى كتبه عن رحلته إلى فرنسا ، ينبه على أنه قد قصد من ورائه « كشف القناع عن محيا هذه البقاع » ، لا من باب المتعة والترف وأحاديث السائحين ، وإنما «ليبقي دليلا يهتدى به إلى السفر إليها طلاب الأسفار » ، وليس ذلك فحسب ، وإنما يتحدث الطهطاوى كيف «أنطق»

كتاب رحلته هذا «**بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرانية، والفنون والصنائع، فإن كمال ذلك ببلاد الإفرنج أمر ثابت شائع، والحق أحق أن يتبع!**» كما يسأل الله «**أن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام، من عرب وعجم؟!..**»(١).

ونفس الموقف الهادف نجده فى الكتاب الأخير لرفاعة (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز)، فهو لا يؤرخ لسيرة الرسول لمجرد التعبد ونيل الثواب، وهو لا يتحدث عن البناء السياسى والاقتصادى والقضائى للدولة الإسلامية الأولى، ودواوينها ووظائفها، بهدف البحث التاريخى المجرد، وإنما يكتب هذا التاريخ كى يتعلم منه الذين يبنون الدولة العصرية فى زمنه، فيحذو حذو بعض القدماء الذين استهدفوا من كتابة تاريخ الدولة على عهد الرسول، عليه السلام، أن يعلم الذين يتولون الوظائف المعاصرة أن عملهم هذا عمل شريف، سبق للرسول وللصحابة أن مارسوا مثيله أو شبيهه، فيجب أن ينظروا إليه بقدسية، ويحسنوا له الأداء؟!(٢)

ولم يغب هذا الهدف أبدا عن الطهطاوى فيما أبدع بين (تخليص الإبريز) و(نهاية الإيجاز) من مؤلفات..

٢ - إن مكانة الطهطاوى من حركة التأليف العربى هى مكانة بارزة ومتميزة بلا شك..

وليس حجم مؤلفاته - وهو كبير - هو الذى يضعه فى هذا المكان البارز والمتميز، وإنما الموسوعية والإحاطة التى لم تقف عند علوم الدين وفنونه فقط، بل ضمت إلى ذلك العلوم العربية، وأيضا - وهذا هو الجديد على عصره - العلوم الدنيوية المتعلقة بصناعة الحضارة والتمدن وأمور المعاش اللازمة للأمم والجماعات والأفراد..

---

(١) (تخليص الإبريز). الخطبة.

(٢) (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) المقالة الخامسة. الباب الخامس. الفصل الرابع.

٣ ـ كما كان الطهطاوى «محققا» ـ بالمعنى العلمى ـ عندما يستشهد بكلام الآخرين أو يقتبس عنهم العبارات . . يذكر أسماءهم حينا، ويكتفى بصفاتهم أو جنسياتهم حينا، ثم يضع كلمة «انتهى» ختاما للعبارات التى اقتبسها من مصادره ومراجعه، وقد يشير إلى اسم الكتاب الذى رجع إليه، وإذا «تصرف» فى «أسلوب» العبارة التى اقتبسها حرص على أن يذكر أن اقتباسه هذا «بتصرف» . . فنحن أمام «محقق»، لا ينسب لنفسه ما ليس لها، ولا يخلط آراءه بآراء الآخرين! . .

٤ ـ والذين يطالعون (تخليص الإبريز) يرون شيخا معمما يذهب إلى باريس ـ عاصمة الحضارة ـ وهو لم يحسن استخدام «الملعقة» ولم يعتد الجلوس للأكل على مائدة الطعام، ولم ير من قبل أن لكل إنسان كوبا خاصا يشرب منه!! الخ . . الخ . . ومع ذلك لا تبهره هذه المدنية إلى حد الدهشة التى تعميه عن النظرة الفاحصة والفكرة المستقلة والخاطرة الناقدة لما فى حياة الباريسيين من سلبيات . . وهذه النظرة الناقدة العقلانية هى التى عبر عنها أستاذه المستشرق «دى ساسى» عندما قال عن (تخليص الإبريز): « . . . وبه يستدل على أن المؤلف جيد النقد سليم الفهم . . » . . كما سبق أن ذكرنا . . ولقد تجلت هذه النظرة الناقدة بمعاييرها العقلانية فى مؤلفات الطهطاوى، فى أغلب المواطن والصفحات، وخاصة عندما تعرض للتأريخ لمصر القديمة والعرب والإسلام . . . فتاريخ مصر القديم ـ على وجه الخصوص، كان قبل الطهطاوى خرافات وألغازا وأساطير، حتى كتب الرجل كتابه (أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) الذى أصبح أول عمل تاريخى فى اللغة العربية تناول هذه الحقبة بعقلانية وعلمية، ودون خرافات . . . ونحن لا نملك إلا أن نمتلىء إعجابا به وإكبارا له عندما نقرأ قوله: إنه قد نظر، وهو يكتب صفحات هذا التاريخ، فى «التواريخ القديمة والجديدة، عربية كانت أو غير عربية» وأنه قد تجنب فى كتابة هذه الصفحات «الأقاويل غير المرضية، مما يظهر **بعرضه على ميزان العقل** أنه محض الخرافات، مما تولع به الإخباريون والقصاص من اختراع

الأباطيل والخزعبلات، أو مما توهمه أرباب الأوهام الفاسدة من العجائب التخيلية **التى بدون فائدة**، إذ كثير من كتب السير مشحون بخوارق العادات، ومملوء ببوارق خيال الاعتقادات، مما ليس بمعجزة ولا كرامة، والجزم به فى مقام التاريخ الأرفع مما يخفض مقامه . . » .[١]

فهو يجعل العقل الميزان الذى يجب عرض المأثورات عليه كى يميز بين ما هو معقول وما هو خرافى، وهو يرفض «العجائب التخيلية **التى بدون فائدة**» . . وهذه إشارة هامة تعنى أن الرجل قد آمن بدور الأسطورة والخيال إذا كان مسوقا لهدف تربوى أو تعليمى، أما «العجائب التخيلية **التى بدون فائدة**» فإنه يرفضها، مثلها فى ذلك مثل الخرافات الضارة بالناس والعقول . .

وعندما تعرض له فى قصص المصريين القدماء الأحاديث عن الآثار وعظمتها التي تفوق تصورات عقول البعض . . يرد أسباب عظمتها إلى العلم ومنجزاته وتطبيقاته، ويرجع التصورات الخرافية والخيالية لدى البعض عن هذه الآثار وأصلها إلى جهلهم بالعلم وقدراته وطاقاته، فيحدثنا عن (عمود السوارى) بالإسكندرية، مثلا، ذلك الذى «على رأسه قاعدة أخرى عظيمة، وارتفاعها عليه بهندام يقتضى القوة عند قدماء مصر فى العلم برفع الأثقال، ومهارتهم فى الهندسة العملية» . . ثم يتحدث عن موقف العقل من خرافات العوام وتصوراتهم الساذجة حول هذه الآثار القديمة فيقول: **«...وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم فى الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم كانت عظيمة، أو أنهم كانت لهم عصا إذا ضربوا به الحجر سعى بين أيديهم، وذلك لقصور الأذهان عن مقدار ما يحتاج إليه ذلك من علم الهندسة، واجتماع الهمة، وتوفر العزيمة، ومصابرة العمل، والتمكن من الآلات، والتفرغ للأعمال، والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان، وخاصة الإنسان، ومقاديرها ونسب بعضها إلى بعض، إلى غير ذلك مما يتعجب منه غاية العجب..»**[٢] . .

---

(١) (أنوار توفيق الجليل) ج ١ الخطبة .

(٢) المصدر السابق . ج ١ . المقالة الأولى . الباب الحادى عشر .

فعد الطهطاوى أن مرد هذا الإعجاز الذى نراه فى هذه الآثار هو إلى قدرات الإنسان وتطبيقات العلم . . وأن مصدر شيوع الخرافة عن هذه الآثار المعجزة هو الجهل بقدرات الإنسان وإمكانيات العلم عندما يوضع فى التطبيق .

بل لعل الطهطاوى هو أول عربى التفت، فى عصرنا الحديث، إلى المنهج الاجتماعى فى كتابة التاريخ، فتخلص من معالجته باعتباره تاريخ ملوك وعظماء، وأرخ للحضارة بظواهرها وإنجازاتها، وعبر عن ذلك فى حديثه عن منهجه فقال : إنه اكتفى «بذكر جوامع الكلم فى هذا التاريخ النافع، وبيان ما اشتمل عليه . . **مما يتعلق بالمدنية والعسكرية.. والإفصاح عما سلف من إبداع الفنون والصنائع، واختراع وسائل عموم المنافع، ووسائط الصنائع.**» كما ذكر أن مهمته ليست التسجيل والتدوين فقط، بعد النقد والاختيار، بل إن **من مهامه أن يضيف ما يستحق أن «يضاف إلى ذلك من ملاحظات»** . . [1]

وهو منهج مؤرخ اجتماعى، ، عقلانى، جعل مؤلفات الطهطاوى التاريخية تتصدر عصر نهضتنا كعمل مبتكر غير مسبوق فى لغتنا العربية .

هذا عن نضج الحس النقدى عند الطهطاوى . . وإن كنا نلاحظ أن هذا الحس يتخلف أحيانا، خصوصا عندما يتعلق الأمر برواية الأحاديث النبوية . . فكثيرا ما يذكرها الطهطاوى تأييدا لمذهبه وهدفه دون أن يحفل بعرض مضمونها على المنطق أو محاكمتها إلى أحداث التاريخ أو أساليب التعبير التى كانت سائدة فى عصر النبوة . . فنجد فى بعض كتبه، أحيانا، بعض الأحاديث التى يتميز أسلوبها بخصائص الركاكة التى سادت فى عصر المماليك والعثمانيين؟!!! . . كما يذكر مثلا رواية عن على بن أبى طالب يقول فيها على : «أنه لو كانت إمرة «أى إمارة المؤمنين» لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة»؟![2] ونحن نستبعد أن يمدح على عائشة هذا اللون من المديح، خصوصا والرواية تنسب له هذا القول بعد أن تولى الخلافة وبلغت علاقته بعائشة حد الحرب الضروس! .

---

(١) المصدر السابق ج ١ الخطبة .

(٢) (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل الرابع .

فالطهطاوى صاحب نظرة ناقدة، بل وجيدة النقد، وصاحب موقف عقلانى عندما يتعلق الأمر بأمور الدنيا وأصول التمدن والحضارة. . أما فى بعض القضايا الدينية والروحية فلقد تغيب عنه هذه النظرة النقدية العقلانية. . وهو تناقض سنعالجه فى دراستنا لفكره فى مكانه من هذه الدراسة التى نقدم بها لهذه الأعمال.

٥ ـ إن أسلوب الطهطاوى فى التأليف يتميز بميزات هامة تستحق دراسة مستقلة ومستفيضة تتضح بها معالم تطورنا اللغوى والأدبى والتعبيرى الحديث. .

(أ) فالرجل يلتزم السجع أحيانا ويتخلص منه أحيانا. . وكثيرا ما يلزمه عندما يمدح، أو عندما لا تكون للموضوع حرارة، ولا للفكر قوة. . أما عندما تتدفق الأفكار بقوة، أو يكون الموضوع عمليا وعصريا فكثيرا ما يهجر السجع!! وهو فى ذلك يعبر بصدق عن موقعه من حركة التطور الحديثة. . فهو ـ فى الأسلوب ـ مرحلة انتقال من عصر الركاكة والتزام المحسنات البديعية، بلا هدف ولا غاية، إلى مرحلة الجزالة وعودة الروح العربية الفتية إلى أساليبنا فى التعبير . .

(ب) وهو يحفل كثيرا بالاستطرادات، والاستشهادات بالشعر العربى وقصص الأولين والقدماء، لأغراض تتعلق بالترويح عن القارىء، وكوسائل تعين على بلوغ الغرض التربوى المقصود. . وهذه الاستشهادات ـ وخاصة الشعرية ـ التى تزخر بها مؤلفات الطهطاوى تعكس ثقافة أدبية وموسوعية غير عادية. . وربما لوحظيت بدراسة مستقلة من باحث فى الشعر العربى لكشفت عن الكثير مما هو هام وجديد وطريف. .

* * *

وبعد هذه النظرة التى استعرضنا بها خصائص الآثار الفكرية لرفاعة الطهطاوى، ربما كان مفيدا أن تقدم ثبتا بأهم هذه الآثار، حتى تكتمل الصورة لدى القارىء والباحث، وحتى يدرك منذ الآن أهمية هذه الآثار، وشمولها، وحتى نقدم بعض الملاحظات على بعض المشكلات التى ثارت حول بعض هذه الآثار. .

أ - المؤلفات:

١ - **تخليص الإبريز فى تلخيص باريز، أو الديوان النفيس بإيوان باريس**: «وهو الذى كتبه الطهطاوى فى باريس مصورا فيه رحلته إليها وتقدم به إلى لجنة الامتحان فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠م».

ثم أضاف إليه فصولا بعد عودته إلى مصر، وطبعه فى حياته طبعتين، الأولى سنة ١٨٣٤م (سنة ١٢٥٠هـ)، والثانية سنة ١٨٤٩م (سنة ١٢٦٥هـ)، ثم طبع بعد وفاة المؤلف طبعة ثالثة سنة ١٩٠٥م (سنة ١٣٢٣هـ). . ولقد جاءت طبعته الثالثة على أساس الطبعة الأولى، بينما امتازت الثانية بإضافات وتعديلات أجراها الطهطاوى فى الكتاب. . ولقد حققنا نصه على أساس مقارنة الطبعات الثلاث، وخاصة الثانية التى أضاف إليها المؤلف بعض ما لم يضمنه طبعته الأولى. . أما الطبعة التى أصدرها (المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية) سنة ١٩٥٨م فلقد أبدينا رأينا فيها فى (التمهيد). .

٢ - **مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية**.. وهو الذى خصصه الطهطاوى لمعالجة «التمدن»، وأودع فيه فكره الاجتماعى. . ولقد طبع فى حياة المؤلف سنة ١٨٦٩م (سنة ١٢٨٦هـ). . ثم طبع مرة ثانية بعد وفاته فى سنة ١٩١١م (سنة ١٣٣٠هـ). .

٣ - **المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين**.. وهو الذى خصصه الطهطاوى لفكره فى التربية، وآرائه فى الوطنية، والتمدن. . ولقد طبع فى العام الذى توفى فيه سنة ١٨٧٣م (سنة ١٢٩٠هـ). [1]

٤ - أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل. . وهو الجزء الأول من موسوعة التاريخ التى كان الطهطاوى قد عزم على تأليفها ويضم هذا الجزء

---

(١) يخطىء (معجم المطبوعات العربية والمعربة) فيسمى هذا الكتاب (الرسول الأمين للبنات والبنين) ويحدد تاريخ طبعه فى سنة ١٢٩٢هـ.

تاريخ مصر القديمة حتى الفتح العربى، وتاريخ العرب حتى إرهاصات ظهور النبى صلى الله عليه وسلم والإسلام . . ولقد طبع فى حياة المؤلف سنة ١٨٦٨م (سنة ١٢٨٥ هـ).

٥ - **نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز**.. وهو الجزء الثانى من موسوعة التاريخ التى شرع فيها المؤلف، خصصه لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومقومات البناء السياسى والإدارى والقضائى للدولة الإسلامية الأولى، وهو آخر كتاب ألفه الطهطاوى، وكان قد شرع فى نشره بملاحق (روضة المدارس)، ثم أعاد نشره فى صورة كتاب، وتوفى وهو يصحح تجارب الطبع، فأكمل ابنه على فهمى رفاعة تصحيح تجارب طبعه على نمط والده، وصدرت طبعته هذه سنة ١٨٧٣م (سنة ١٢٩٠هـ). .

ولنا تعليق على ما ذكره بعض الباحثين حول هذا الكتاب - فصالح مجدى يقول: إن الطهطاوى قد بلغ فى تأليف الجزء الثانى من كتاب التاريخ الذى شرع فيه «إلى خلافة المطيع . . وأن ولده على فهمى بك شمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى تكميله على حسب المراد، بعد أن استأذن فى ذلك وتصرح له بالإتمام[(١)] . . ».

ويعلق الدكتور جمال الدين الشيال على قول صالح مجدى هذا فيقول: «ولست أعرف شيئا عن الجزء الثانى الذى يشير إليه صالح مجدى هنا . . وليس هناك ما يثبت أن ولده على فهمى أتم تأليف هذا التاريخ[(٢)] . . ».

ونحن نعتقد أن هناك تصحيفا في كتاب صالح مجدى جعل من قوله خلافة «الصديق» خلافة «المطيع»، فكتاب (نهاية الإيجاز) ينتهى إلى خلافة «الصديق»، لا إلى خلافة «المطيع» العباسى (٩٤٦ - ٩٧٤م). . إذ لا يعقل أن يشمل الجزء الثانى من تاريخ الطهطاوى الفترة الطويلة التى تمتد من بدايات ظهور الإسلام، وسيرة

---

(١) (حلية الزمن) ص ٦٣، ٦٤.

(٢) هامش (٦) ص ٦٣ من (حلية الزمن). .

الرسول، ثم الراشدين، والأمويين، وتاريخ ثلاثة وعشرين خليفة من الخلفاء العباسيين . .

أما حديث صالح مجدى عن عزم ولد رفاعة على فهمى تكميل هذا الجزء الثانى، واستئذانه فى ذلك، والتصريح له به . . وهو الحديث الذى يشكك فيه الدكتور الشيال . . فإنه صحيح، ولكن لا على النحو الذى فهمه الدكتور الشيال . . . فلقد عزم ولد رفاعة على فهمى على تكميل تصحيح تجارب طبع هذا الكتاب، وعلى وضع جدول للغزوات الإسلامية، من واقع الكتاب، كان والده قد عزم على وضعه فلم تترك له المنية فسحة من الأجل لإنجاز عزمه هذا . . . وعلى فهمى قد استأذن فى إكمال طبع هذا الجزء من «نظارة ديوان المعارف المصرية» . . ولو كان الأمر متعلقا بإكمال «تأليف» الكتاب لما كان هناك وجه ولا داع للاستئذان، أما والأمر يتعلق باستكمال طبع كتاب تطبعه الدولة، فإن الاستئذان هنا وارد، بل واجب .

ويشهد لرأينا هذا أمران :

الأول: أن الجزء الأول من (أنوار توفيق) ينتهى (بالمقالة الرابعة) وأبوابها، بينما يبدأ الجزء الثانى - (نهاية الإيجاز) (بالمقالة الخامسة) . . فهو الجزء الثانى بلا جدال .

والثانى: أن ولد رفاعة على فهمى يقص علينا المراد بإكماله عمل أبيه فى (نهاية الإيجاز) فيقول : « . . . وحيث كانت هذه السيرة النبوية جزءا من التاريخ المسمى (بتوفيق الجليل فى تاريخ مصر وتوثيق بنى إسماعيل)، الذى قد شرع الوالد فى تأليفه بأمر الخديو المعظم . . . فلنبتهل إلى الله . . أن يوفقنا لإ تمامه إلى أن تستشرف على آفاق هذه الخديوية المصرية، لتاريخ محاسن آثارها العصرية، بُدور أسفاره السافرة الساطعة» .

ثم يتحدث عن موت أبيه وهو يصحح تجارب الطبع . . وعزمه هو على أن يكمل تصحيح هذه التجارب حتى يكمل طبع هذا الجزء «لاسيما وقد قوى عزيمتى على

ذلك التصريح لى من نظارة ديوان المعارف المصرية بأن أكون على قدم الوالد فى تنجيز هذه الآثار العصرية [1] . . »

فهو هنا يعزم على إتمام كتابة هذا التاريخ حتى العصر الحديث . . ويبتهل إلى الله أن يعينه على ذلك . . ويعزم على استكمال تصحيح تجارب طبع (نهاية الإيجاز) بعد أن تصرح له بذلك من «نظارة ديوان المعارف المصرية» . ولقد حقق هذا . . ولم يتيسر له تحقيق ذاك . . . فوقف هذا التاريخ عند فراغ رفاعة من سيرة الرسول عليه السلام، والدولة التى بناها هو وأصحابه بعد ظهور الإسلام .

٦ ـ **القول السديد فى الاجتهاد والتجديد**.. وهو بحث فى موضوع الاجتهاد فى الإسلام، والذين يأتون ليجددوا لهذه الأمة أمر دينها . . نشره الطهطاوى كملحق (لروضة المدارس) ثم طبع ككتاب .

٧ ـ **التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية**.. وهى محاولة لتبسيط قواعد العربية وتيسير تعليمها طبعت طبع حجر [*] فى حياة المؤلف سنة ١٨٦٩م (سنة ١٢٨٦هـ) .

٨ ـ **جُمل الأجرومية**.. وهى منظومة، طبعت سنة ١٨٦٣م (سنة ١٢٨٠ هـ) .

٩ ـ **تخميس** [**] **قصيدة الشهاب محمود**.. وهى فى ستة وأربعين بيتا، طبعت سنة ١٨٩١م (سنة ١٣٠٩هـ) .

١٠ ـ **قصيدة وطنية مصرية**.. أنشأها رفاعة فى مدح الخديو محمد سعيد، وطبعت سنة ١٨٥٥م (سنة ١٢٧٢هـ) .

١١ ـ **قصيدة وطنية مصرية**.. قالها الطهطاوى فى مدح الخديو إسماعيل، وطبعت سنة ١٨٦٤م (سنة ١٢٨١هـ) .

---

(١) (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) تنبيه كتبه على فهمى رفاعة فى آخر الكتاب ص ٥٣٠ . طبعة مطبعة روضة المدارس سنة ١٢٩١هـ .

(*) ضرب من ضروب الطباعة كان يتم باستخدام الحجر الجيرى الدقيق الحبيبات . وكان هذا الضرب من الطباعة هو الشائع فى الكتابة والرسم .

(**) التخميس ـ خمسّ الشعر : جعل كل قطعة منه خمس شطور . (الشروق) .

١٢ ـ **الكواكب النيرة فى ليالى أفراح العزيز المقمرة**.. وهى مجموعة تهانى لبعض الأمراء، طبعت سنة ١٨٧٢م (سنة ١٢٨٩ هـ).

١٣ ـ **منظومة وطنية مصرية**.. مطبوعة سنة ١٨٦٦م (سنة ١٢٨٣هـ).

١٤ ـ **منظومة وطنية مصرية**.. مطلعها: (هيا نتحالف يا إخوان)، طبعت سنة ١٨٥٥م (سنة ١٢٧٢هـ).

١٥ ـ **منظومة وطنية مصرية**.. مطلعها: (يا جند مصر لكم فخار)، طبعت سنة ١٨٥٥م (سنة ١٢٧٢هـ).

١٦ ـ **منظومة وطنية مصرية**.. مطلعها: (يا حزبنا قم بنا نسود)، طبعت سنة ١٨٥٥م (سنة ١٢٧٢هـ).

١٧ ـ **منظومة وطنية مصرية**.. مطلعها: (يا سعد أتحف مسمعى بصبا الصباح)، طبعت سنة ١٨٥٥ م (سنة ١٢٧٢هـ).

ونحن نلاحظ أن المنظومات الوطنية الأربعة الأخيرة (١٤ ـ ١٧) قد طبعت كلها فى سنة ١٨٥٥م عقب عودة الطهطاوى من منفاه بالسودان.. فهى أشبه ما تكون بالعمل السياسى الذى بذله الطهطاوى وحزبه لجمع الشمل وتجاوز آثار النكسة التى أحدثها حكم عباس الأول فى النفوس والعقول والمؤسسات..

١٨ ـ **مجموع فى المذاهب الأربعة**.. وهو لا زال مخطوطا لم يطبع من قبل..

١٩ ـ **أرجوزة فى التوحيد**.. نظمها الطهطاوى وهو طالب بالأزهر.. ولم تطبع من قبل.

٢٠ ـ **خاتمة لقطر الندى وبل الصدى**.. أنشأها الطهطاوى وهو طالب بالأزهر ـ ولم تطبع من قبل.

ب ـ المترجمات:

١ ـ **تاريخ قدماء المصريين**.. طبع سنة ١٨٣٨م (سنة ١٢٥٤ هـ)..

٢ ـ **تعريب قانون التجارة**.. طبع سنة ١٨٦٨م (سنة ١٢٨٥ هـ)..

٣ ـ **تعريب القانون المدنى الفرنساوى**.. طبع سنة ١٨٦٦م (سنة ١٢٨٣هـ).

٤ ـ **التعريبات الشافية لمريد الجغرافية**.. طبع سنة ١٨٣٥م (سنة ١٢٥٠ هـ).

٥ ـ **جغرافية صغيرة**.. طبع سنة ١٨٣٠م (سنة ١٢٤٦ هـ)..

٦ ـ **رسالة المعادن**.. طبع سنة ١٨٦٧م (سنة ١٢٨٤هـ)..

٧ ـ **قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر**.. طبع سنة ١٨٣٣م (سنة ١٢٤٩هـ)..

٨ ـ **كتاب قدماء الفلاسفة**.. طبع سنة ١٨٣٦م (سنة ١٢٥٢هـ)..

٩ ـ **مبادىء الهندسة**.. طبع سنة ١٨٥٤م (سنة ١٢٧٠هـ)..

١٠ ـ **المعادن النافعة لتدبير معايش الخلايق**.. طبع سنة ١٨٣٢م (سنة ١٢٤٨هـ)..

١١ ـ **المنطق**.. طبع سنة ١٨٣٨م (سنة ١٢٥٤هـ)..

١٢ ـ **مواقع الأفلاك فى أخبار تليماك**.. طبع سنة ١٨٦٧م (سنة ١٢٨٤هـ)..

١٣ ـ **هندسة ساسير**.. طبع سنة ١٨٧٤م (سنة ١٢٩١هـ)..

١٤ ـ **روح الشرائع ـ لمونتسكيو**.. ولم تطبع هذه الترجمة.. ولقد أشار رفاعة فى القصيدة التى نظمها بالسودان ونشرها (بمناهج الألباب) إلى أنه قد ترجم «منتسكيو» فقال:

على عدد التواتر معرباتى ... تفى بفنون سلم أو جهاد

و«ملطبرون» يشهد وهو عدل ... و «منتسكو» يقر بلا تماد

وفى ختام الطبعة الثانية (لمناهج الألباب)، الصادرة سنة ١٩١١م، ما يشير إلى أن أصول هذه الترجمة موجودة عند حفيد الطهطاوى محمد بك رفاعة، وإلى عزمه على نشرها استجابة لطلب الشيخ عبد الكريم سلمان، الذى طلب منه نشرها ونشر ما لم يطبع من ترجمات جده.. ولقد ذكر رفاعة فى (تخليص الإبريز) أنه قرأ فى

بعثته «مع مسيو (شواليه) - (شيفالييه Chevalire) - جزأين من كتاب يسمى (روح الشرائع) مؤلفه شهير بين الفرنساوية، يقال له «منتسكيو»، وهو أشبه بميزان بين المذاهب الشرعية والسياسية، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين، ويلقب عندهم «بابن خلدون» الإفرنجى، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا «منتسكيو الشرق» أى «منتسكيو الإسلام»[١].

١٥ - **أصول الحقوق الطبيعية، التى تعتبرها الإفرنج أصلا لأحكامهم**.. ولم تطبع هذه الترجمة. . ولكن رفاعة قد أشار فى (تخليص الإبريز) إلى أنه ترجمها وهو فى باريس. . ذكر ذلك، وهو يعدد المترجمات التى قدمها إلى لجنة الامتحان النهائى[٢]. . وأيضا عندما تحدث عن دراسته وقراءته هناك، فقال: «وقرأت فى الحقوق الطبيعية، مع معلمها، كتاب «برلماكى»، وترجمته، وفهمته فهما جيدا وهذا الفن عبارة عن التحسين والتقبيح العقليين، يجعله الإفرنج أساسا لأحكامهم السياسية المسماة عندهم شرعية. . [٣]. . »

ولعل فى موقف الطهطاوى الفكرى، المتحفظ إزاء مبدأ «التحسين والتقبيح العقليين»، أى الحقوق الطبيعية - وهو الموقف الفكرى الذى سنعرض له عند دراستنا لفكره - لعل فى موقفه هذا السبب فى عدم نشره لترجماته لهذين الكتابين - (روح الشرائع) و (أصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الإفرنج أصلا لأحكامهم) - .

١٦ - **نظم العقود فى كسر العود**.. وهى مترجمة شعرية لقصيدة فرنسية نظمها الخواجة «يعقوب» طبعت فى باريس سنة ١٨٢٧م بعنوان: (La Lyre Brisee).

١٧ - **نبذة فى تاريخ إسكندر الأكبر**.. وهى مأخوذة من تاريخ القدماء. . ترجمها وهو بباريس. .

---

(١) (تخليص الإبريز) المقالة الرابعة، الفصل الخامس. وانظر كذلك بحث الدكتور جمال الدين الشيال عن (رفاعة المترجم) وهو منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص ١٦٧، ١٦٨.

(٢) (تخليص الإبريز) المقالة الرابعة. الفصل السادس.

(٣) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الفصل الخامس.

١٨ ـ **تقويم سنة ١٢٤٤هـ**.. الذى ألفه لمصر والشام مسيو «جومار» . . ترجمه وهو بباريس . .

١٩ ـ **مقدمة جغرافية طبيعية**.. ترجمها وهو بباريس . .

٢٠ ـ **ثلاث مقالات من كتاب «لجندر» فى علم الهندسة**.. ترجمها وهو بباريس .

٢١ ـ **قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية**.. ترجمها وهو بباريس . . إلى جانب عدد من المترجمات التى ترجمها منفردة ، ثم أضافها عند الطبع إلى كتب أخرى من نفس فنها ، مثل :

٢٢ ـ **نبذة فى علم هيئة الدنيا**.. التى ترجمها وهو بباريس . .

٢٣ ـ **نبذة فى الميثولوجيا ـ يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم**.. التى ترجمها بباريس . .

٢٤ ـ **نبذة فى علم سياسات الصحة**.. التى ترجمها بباريس ، ونشرها فى (تخليص الإبريز) . .

٢٥ ـ **الدستور الفرنسى**.. الذى نشره فى (تخليص الإبريز) أيضا . .

٢٦ ـ **كتاب الجغرافية العمومية**.. وهو كتاب «ملطبرون» . . ترجم منه رفاعة أربعة مجلدات من ثمانية . وطبع بدون تاريخ ، ولعله سنة ١٢٥٤هـ.

وذلك غير ما أشرف عليه من الترجمات ، وما راجعه وصححه وهذبه ، واختاره ورشحه كى يقوم تلامذته بترجمته ، وهى الجهود التى بلغت ـ كما قدمنا ـ ألفى كتاب .

❋ ❋ ❋

ـ ١٠ ـ

❋ ولقد كان الرجل الذى حقق لوطنه وأمته كل هذا المجد ، فنهض بها من «كهف» التخلف إلى مدارج عصر التنوير والبعث والإحياء . . كان هذا الرجل فى خلق

العلماء . . تواضعا . . وتفانيا وبذلا وسخاء . . وخدمة لتلاميذه ومريديه وقاصديه . .

وكما يقول تلميذه وكاتب سيرته صالح مجدى : لقد «كان فيه زيادة كرم وسماحة . . كثير التواضع ، جم الأدب ، محبا للخير ، وكان كلما ارتقى إلى أسنى المناصب ، وجلس على أسمى المراتب ، ازداد تواضعه للرفيع والوضيع ، وتضاعف سعيه فى قضاء حوائج الجميع ، ولم يغتر بزينة الدنيا وزخرفها . . . وكان حسن السريرة ، حميد السيرة[١] .

* وعلى الرغم من أن رفاعة قد جدد لأسرته من نشاطه وجوائزه ومكافآته ثروة كبيرة بلغت حين وفاته نحوا من ١٦٠٠ (ألف وستمائة) فدان[٢] ، غير العقارات ، إلا أنه لم يتصرف فى حياته تصرف الأثرياء .

فأوقف من أطيانه ٨٣٢ فدانا منها ٦٣ فدانا خصصها للإنفاق على «الأرقاء» الذى اشتراهم وحررهم . . والباقى جعله وقفا على ذريته ، «واشترط فى الوقفية : أنه بعد انتهاء طبقة - (أى جيل) - يقسم من جديد على جميع الورثة[٣]» وذلك حتى لا يحوز البعض هذه الثروة ويحرم منها آخرون . .

ولم تكن تشغله هذه الثروة أثناء حياته ، بل كان شاغله العلم الذى جعله «قليل النوم ، كثير الانهماك على التآليف والتراجم ، حتى أنه ما كان يعتنى بملابسه ، كما هى عادة الأفاضل من العلماء . . لاشتغالهم عنها بما هو أنفع منها[٤]»!!

---

(١) (حلية الزمن) ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) يذكر على مبارك أن إبراهيم باشا أهدى لرفاعة «حديقة نادرة المثال فى «الخانقاة» تبلغ ٣٦ فدانا» . . وأهداه محمد على ٢٥٠ فدانا بطهطا . . وأهداه سعيد ٢٠٠ فدانا ، وإسماعيل ٢٥٠ فدانا . . وأنه قد اشترى هو ٩٠٠ فدان «فبلغ جميع ما فى ملكه من الأطيان إلى حين وفاته ١٦٠٠ فدان ، غير ما اشتراه من العقارات العديدة فى بلده وفى القاهرة» . (الخطط الجديدة) ج ١٣ ص ٥٤ ، ٥٦ .

(٣) لمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات رفاعة الطهطاوى) المقدمة .

(٤) (حلية الزمن) ص ٦٥ .

ولذلك نفض رفاعة يده من رعاية هذه الثروة، وأبعد شواغلها عن عقله وفكره وفوض أمرها لولده الكبير «بدوى» وكتب إليه هذا التوكيل والتفويض:

لقد استصوبنا تفويض إدارة المنزل بطهطا إلى حضرتكم.. وكافة ما تجروه أنتم مفوّضون فيه، من تصدقات وإنعامات، وتحسينات منزلية، ومباشرة العمل والأشغال ومعلومية الدخل والخرج والوارد والمنصرف.. فأنتم مثلنا سواء بسواء فى الأوامر والنواهى.. ويلزم المحافظة على خطابنا هذا[1]!».

ولقد انبأ بذلك، أيضا، عن موقف يؤمن بالاستقلالية فى تربية الأولاد وتنمية ما لديهم من قدرات..

* أما خلق الرجل مع المرأة، الممثلة فى زوجته، فإنه يعكس موقفا اتحد فيه فكر الرجل المتقدم، فى النظر إلى المرأة وتقديرها، بالتطبيق لهذا الفكر فى حياته المنزلية الخاصة.. وكما سيأتى فى دراستنا لموقف رفاعة من المرأة، فإن الرجل قد كره تعدد الزوجات، ونبه على مضاره، ودعا إلى تقييده.. ولقد كان سلوكه الخاص مطابقا تماما لهذا الآراء.. فهو الذى كتب لزوجته بخط يده تلك الوثيقة النادرة المثال فى عصره، والتى يقول فيها:

«التزم كاتب هذه الأحرف، رفاعة بدوى رافع، لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلى الأنصارى، أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء، أو تمتع بجارية أخرى، فإن تزوج بزوجة أيا ما كانت.. كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة، وكذلك إذا تمتع بجارية ملك يمين.. ولكنه وعدها وعدا صحيحا، لا ينتقص ولا يخل، أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة، مقيمة على الأمانة والعهد لبيتها ولأولادها ولخدمها وجواريها، ساكنة معه فى محل سكناه، لا يتزوج بغيرها أصلا، ولا يتمتع بجوار أصلا، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لأحدهما بقضاه[2]..»؟

---

(١) (لمحة تاريخية) ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) د. رفعت السعيد (تاريخ الفكر الاشتراكى فى مصر) ص ٣٥. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩م.

فرفاعة هنا يحرم على نفسه تعدد الزوجات، بل ويحرم على نفسه الطلاق طالما كانت زوجته على العهد باقية وللأمانة الزوجية مؤدية . .

بل إن هذه الوثيقة تشير إلى ملمح هام من ملامح خلق رفاعة . . فالرجل كان يعيش فى عصر لم يكن الرقيق قد حرم فيه بعد[(١)] . . وفى منزل رفاعة كان يوجد الرقيق، عبيدا وإماء، وكان التفسير السائد للشريعة الإسلامية يبيح التمتع والاستمتاع بما يشاء الإنسان مما يملك من الجوارى . . ومع ذلك كله نجد رفاعة «يحرم» على نفسه هذا الاستمتاع، ويخلص فى «وحدانية» الحب لزوجته الواحدة . . بل ويعتق ويحرر الكثير من هؤلاء «الأرقاء، من الإناث والذكور» ويداوم رعاية أحوالهم المادية وشؤونهم المعاشية[(٢)] . . حتى لقد أوقف عليهم بعض أراضيه . .

وعندما ماتت زوجة رفاعة التى كتب لها هذه الوثيقة الفريدة، تزوج الرجل من إحدى الجوارى، كانت تعيش بمنزله . . فعاملها نفس معاملة الزوجة الأولى، التى كانت ابنة أحد أخواله، حتى لقد تحدثت عنه هذه الزوجة فقالت إنه كان «يقرأ أو يكتب، وهو على حشية على الأرض، وهى على سرير بجواره[(٣)]؟!».

* أما صفاته الجسمانية والخلقية فيوجزها صالح مجدى فى قوله: إنه «كان قصير القامة، عظيم الهامة، واسع الجبين، متناسب الأعضاء فى اليسار واليمين، أسمر اللون، ثابت الكون . . وكان، رحمه الله «كابن عطاء» فى لثغة الراء[(٤)]! . .».

---

(١) بدأت أولى تشريعات تحريم الرق فى إنجلترا سنة ١٨٠٧م وطبقت على مستعمراتها فى جزر الهند الغربية سنة ١٨٣٣م ولم تتعهد الحكومات فى البلاد الإسلامية بتحريم الرقيق إلا عندما انضمت إلى اتفاقية برلين سنة ١٨٨٥م ثم اتفاقية بروكسل سنة ١٨٩٠م.

(٢) (حلية الزمن) ص ٦٥.

(٣) على عزت الأنصارى. بحث عن (رفاعة فى أسرته) منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص ١٩٦.

(٣) (حلية الزمن) ص ٦٦ . ونود أن ننبه هنا إلى خطأ وقع فيه الدكتور الشيال، وهو يحقق (حلية الزمن) عندما غير كلمة «ابن عطاء» بكلمة «عطاء»، وعلق بأنه «لم يعرف أن ابن عطاء الله السكندرى كان ألثغ، وإنما الذى عرف فيه أنه كذلك «عطاء السندى» . . . فصاحب «اللثغة» الذى يشبه الطهطاوى =

* أما صفاته النفسية فإننا ندرك معالمها الرئيسية من قول صالح مجدى: «. . وكان فيه دهاء وحزم، وجراءة وعزم، وإقدام ورياسة، ووقوف تام على أحوال السياسة، وتفرس فى الأمور» . .

ويبدو أن صفة الثبات والعزم كانت واضحة فى الطهطاوى إلى الحد الذى جعل شيخ الصوفية فى زمنه الشيخ أبو الأنوار السادات يلقب رفاعة بلقب: «أبو العزم»، على عادته فى إطلاق ألقاب مبتكرة على رواد مجلسه تتفق وأهم ما يتمتعون به من صفات . .

نعم . . كانت هذه صفات الطهطاوى، الخُلقية والخلقية، ولا شك أن بعضها قد أعانه على إنجازاته الفكرية الكبرى، كما أن بعضها الآخر كان ثمرة من ثمار تلك الإنجازات . .

* * *

- ١١ -

* فى سنة ١٨٧٣م كان الطهطاوى قد بلغ الثانية والسبعين من عمره . . وعرف الوهن طريقه إلى جسمه الذى أضناه النضال العلمى غير العادى لأكثر من نصف قرن . . فمرض «بالنزلة المثانية» . . وعولج منها حتى برىء . . ولكنها عاودته ثانية، فعولج منها وبرىء . . وعندما عاودته للمرة الثالثة، لازم الفراش حتى انتقل إلى جوار ربه فى يوم الثلاثاء ٢٧ من مايو سنة ١٨٧٣م (غرة ربيع الثانى سنة ١٢٩٠هـ) . .

= به صالح مجدى هو «واصل بن عطاء» (٦٩٩ - ٧٤٩م) أحد مشاهير المعتزلة. والدكتور الشيال يقول فى تعليقه: «راجع البيان والتبيين، للجاحظ» . . . ولكنه لا يشير إلى الجزء أو الصفحة. ومن يرجع إلى (البيان والتبيين) يجد الجاحظ يتحدث عن «لثغة» واصل بن عطاء ج ١ ص ١٥، ٣٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨م !!.

* وفى اليوم التالى - ٢٨ من مايو - تجهز جثمانه كى ينام فى أحضان التراب الوطنى الذى قدم الرجل لأهله - لأول مرة فى حياتهم - فكر الوطنية والمواطنة، وحدثهم عن أن حبه من الإيمان . . تجهز جثمانه لرقدته الأخيرة الأبدية، وتجهزت مصر كى تسعى على قدميها فى مشهده المهيب، وفاء رمزيا ببعض ما لهذا الابن البار على الوطن الذى أعطاه فى حب وروعة وحدب وسخاء .

فحمل جثمانه، فى نعشه، على الأعناق من حديقة منزله بشارع «مهمشة» فى حى «الشرابية» بالقاهرة، ومن حوله كل الذين تتلمذوا عليه، وطالعوا له، وتعلموا منه، وسمعوا به، وعرفوا طرفا من فضله العظيم . . وانتظم فى موكب جنازته عدد من كبار المسؤولين . . وأبناء المدارس الملكية، والمكاتب الأهلية . .

وعندما اقترب المشهد من قلب العاصمة كانت جماهير طلبة الأزهر وعلمائه فى انتظاره، يتقدمهم شيخ الإسلام، كى يسيروا فى موكب الوداع لأبر أبناء الأزهر الشريف .

وعند باب الجامع الأزهر كانت جموع أخرى غفيرة فى انتظار جثمان الطهطاوى «تلقته بالتحية والإبرار» «ولما وضع جسمه فى القبلة الجديدة - التى لا يوضع فيها إلا كبار العلماء الأفاضل - وتليت مرثيته ونسبته . . صلى عليه شيخ الإسلام بنفسه» ومن خلفه جمهور غفير . . ومن خلف هذا الجمهور قلب مصر والعروبة والإسلام . .

وبعد الصلاة على جثمانه، انتظم موكب جنازته المهيب، وفيه كبار العلماء، ووجوه رجال الدولة، وجماهير الطلبة والمدرسين، وعامة الشعب، وكثيرون من رعايا الدول الأخرى، وأهل المهن والحرف المختلفة . . وبتعبير صالح مجدى، فلقد «انتظم المشهد من العلماء الكرام، والذوات العظام، والطلبة والتلامذة، ومعلميهم الجهابذة، وأبناء الوطن، وكثير من رعايا الدول، وأعيان التجار والأطباء والرؤساء الأول» . .

وسار هذا الموكب يحف بنعش الطهطاوى وجثمانه حتى بلغوا به مدافن

عائلته بقرافة «باب الوزير» فى منطقة «بستان العلماء» بحى «الدرب الأحمر» قرب الجامع الأزهر . . حيث واروا جثمانه التراب، و«وقفوا على الضريح بفؤاد حزين[1]!».

* ولكن الطهطاوى الذى تحدث كثيرا فى كتابه (المرشد الأمين) عن خلود الإنسان بآثاره النافعة، وذكراه الطيبة، وسيرته الحسنة، وذريته الصالحة . . كان قد غرس - على امتداد أكثر من نصف قرن - فى تربة هذا الوطن وعقل هذه الأمة ووجدانها - ما يضمن الخلود لهذه الأمة، فضلا عن خلود هذا الإبن البار بها، الوفى لتراثها، الفاتح بجيشه الثقافى أمام حاضرها ومستقبلها أعظم الفتوحات.

* * *

تلك هى (بطاقة حياة) رفاعة رافع الطهطاوى . . لم نرد بها كتابة سيرته، وإنما تركيز مراحل حياته، وتكثيف معالمها الرئيسية والبارزة، حتى نضع بين يدى الباحث والقارىء صورة دقيقة عن مسيرة ذلك الرائد الفذ الذى قاد أمته إلى العصر الحديث، وأخرج شعبه من الظلمات إلى النور . .

وذلك قبل أن نعرض لأهم القضايا التى عرض لها الرجل فى آثاره الفكرية فنمهد بذلك طريق الباحثين والقراء إلى (الأعمال الكاملة) لهذا المفكر العظيم . .

---

(١) (حلية الزمن) ص ٥٩، ٦٠.

رؤية عميقة لحضارة حديثة

[إن مخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانوا من أولى الألباب، تجلب للأوطان المنافع العمومية . . . والبلاد الإفرنجية ـ مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران . . . فهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف، حتى أنهم دونوه وجعلوه علما . . .

و «التياتر» عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل . .

ويتعلقون بالحرية، حتى أنه لا تطول عندهم ولاية ملك جبار، ولا وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار! . . .]

الطهطاوى

كان الطهطاوى أول عين عربية تأملت ، فى وعى عميق، ومن موقع المحب الناقد، حضارة الغرب الحديثة، ممثلة فى حضارة الفرنسيين . .

كان البون شاسعا بين واقع وطنه المتخلف وبين واقع حضارة فرنسا المزدهرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكن الرجل الذى ذهب إلى باريس سنة ١٨٢٦م، بزيه الشرقى وتصوراته الإسلامية كان قد قرر أن يصنع لوطنه صنيع الذين نقلوا إلى العرب الأقدمين فكر اليونان وعلومهم، وتراث الفرس وفنهم، وفلسفة الهند وحكمتها . . وكما أدخل هؤلاء الأسلاف أمة العرب فى مركز التأثير الإنسانى وجعلوها تعطى الحضارة الإنسانية عطاءها الغنى السخى، فإن رفاعة قد عزم على أن يعيد أمته مرة ثانية إلى القيام بدورها هذا، بعد أن عزلتها عن ميدانه جحافل فرسان المماليك والانكشارية لأكثر من خمسة قرون . .

ومن هنا ناضل الطهطاوى فى سبيل وصل الخيوط بين وطنه وبين مراكز الحضارة الحديثة فى أى مكان، ووقف موقف العداء من دعوات العزلة وعقد النقص التى تسلم إلى الانغلاق على الذات . . فأخذ يدعو قومه إلى «الانفتاح» على المجتمعات المتحضرة ويسفه من أحلام دعاة العزلة أصحاب النزعات «السلفية الجامدة وأخذ ينادى بتجديد «المخالطات» بين المصريين وغيرهم من ذوى الحضارة والنباهة . . بل لقد اعتبر الرجل أن الصلات التى تجددت بين العرب، وخاصة مصر، وبين أوربا فى القرن التاسع عشر ـ والتى كانت رحلته إلى باريس وثقافته الحديثة إحدى ثمارها ـ اعتبر هذه الصلات من اهم إنجازات نظام حكم محمد على، ورأى فى هذه الصلات الحضارية «الدواء الشافى والعلاج المعافى» للداء الذى عانى منه العرب لعدة قرون، فكتب يقول : إنه «لو لم يكن للمرحوم محمد على من المحاسن إلا

تجديد المخلطات المصرية مع الدول الأجنبية، بعد أن ضعفت الأمة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة، لكفاه ذلك، فلقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد، وآنسها بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد، لنشر المنافع العمومية، واكتساب السبق فى ميدان التقدمية[1]».

بل لقد اعتبر الطهطاوى هذه المخالطات والتفاعلات «مغناطيس المنافع العمومية»، ورآها مع العمل الوطنى، طريق التطور والتقدم والعمران، ورأى أن الحرية هى سبيلها، فقل إن «المخالطة مغناطيس المنافع، فهى تساوى حركة العمل فى ذلك، وكلاهما لا يستغنى عن الحرية والرخصة [2]، ومنبع الجميع كسب المعارف العمومية والمحبة الوطنية التى يترتب عليها اجتماع القلوب، والتعاون فى إبلاغ الوطن المطلوب، **فمخالطة الأغراب، لاسيما إذا كانوا من أولى الألباب تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب[3]».**

ولقد أدرك الطهطاوى أن وراء احتكاك أوربا بالشرق أهدافا استعمارية يبتغيها الأوربيون، فحذر من رد الفعل الانعزالى لدى الشرقيين إزاء هذه المطامع الاستعمارية، ونبه إلى ضرورة الاستفادة حتى من المخالطة التى تحدث نتيجة للصراعات التى تقوم بيننا وبين أعداء بلغوا درجة أرقى منا فى سلم التطور العمرانى، واستنكر موقف الذين يرفضون ذلك أو يفزعون منه، إذ من الممكن والضرورى للعرب أن يستفيدوا جوانب إيجابية من خلال هذا «الاحتكاك العنيف والساخن» الذى يصاحب هذا الصراع، فهو يقول، بعد حديثه عن المنافع التى تجلبها مخالطة الأغراب ذوى الألباب، إن هذه المنافع مؤكدة حتى «ولو كانت مترتبة على التغلب والاغتصاب، فربما صحت الأجسام بالعلل [4]!!» . .

وفى نفس الوقت نبه الرجل على ضرورة المحافظة على الاستقلال الوطنى،

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الرابع . الفصل الثالث .

(٢) الرخصة هى الإباحة، أى الحرية .

(٣) (مناهج الألباب) الباب الثالث . الفصل الثالث .

(٤) المصدر السابق . الباب الثالث . الفصل الثالث .

فكتب فى الوطنية، ما لم يكتبه عربى من قبله، وضرب مثلا على ضرورة التمييز بين الاستفادة، بلا حدود، من فكر أوربا وتقدمها، وبين رفض الجوانب الاستعمارية فى مواقفها، باستفادته هو من الجهود الفكرية لعلماء الحملة الفرنسية على مصر، تلك الجهود التى تمثلت فى كتاب (وصف مصر) (Description de l' Egypte) وفى نفس الوقت رفضه لقول علماء فرنسا هؤلاء: إن الإصلاحات التى يقترحونها لتقدم مصر وعمرانها يتطلب تنفيذها ونجاحها « دوام هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية». . يرفض الطهطاوى هذا المنطق الاستعمارى، ويعلق عليه ببيت من الشعر يقول:

نعم.. بيننا جنسية الود والصفا ولكننى لم أُلفها علة الضم[1]!!

ذلك « أن الأمة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للأغراب[2]!» .

بهذه العقلية الجديدة «المنفتحة» على الحضارة الأوربية رأى الطهطاوى حضارة الفرنسيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر، وإكبارا لهذه الحضارة وبناتها، وإيمانا بقيمتها رأى الطهطاوى خطأ النظرة القديمة التى سادت العالم كله فى العصور الوسطى، والتى قسمت البشر إلى «مؤمنين» و «كفار» فقط، ولم تلق بالا إلى حضارة هؤلاء «المؤمنين» وهؤلاء «الكفار»؟!. . . فقبل الحروب الصليبية كانت نظرة أوربا للشرق الإسلامى أنه «وثنى» يعبد «النبىّ» ويسجد «للحجر الأسود»، وليس لديه سوى هذه « الوثنية» !. . ولكن الاحتكاك العنيف الذى صاحب الحروب الصليبية قد فتح عيون الأوربيين على حضارة شابة وفتية كانت غائبة عن أذهان جماهيرهم غيابا تاما، وكان هذا «الانفتاح» من أهم عوامل الإصلاح الدينى فى أوربا، ومن أبرز مكونات عصر النهضة الذى ارتقى به الأوربيون. . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الشرق عندهم معقل «الوثنية»، ولم يعد سائدا في أوساطهم الفكرية، بل ولا الشعبية، ذلك التقسيم البدائى الذى يقسم البشر إلى «مؤمنين»

---

(١) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الثانى.

(٢) د. جمال الدين الشيال. بحث (رفاعة المؤرخ) منشور بكتاب (مهرجان رفاعة الطهطاوى) ص ١٢٦.

و «كفار» فقط . ونفس الشيء أحدثه الطهطاوى عندما قاد الاحتكاك الحضارى بين الشرق وبين أوربا . . فقبل عصره كانت النظرة المحافظة والجامدة تمجد كل ما هو قديم وعتيق ، وترفض الحديث والمستحدث ، لأنه بدعة وضلالة مصيرها إلى النار ! ، ولقد حافظ هذا التقديس للقديم على سيادة النظرة التى تقسم البشر إلى «مؤمنين» ، هم المسلمون ، و «كفار» هم ماعدا المسلمين ، وهى النظرة التى تطمس الفروق الحضارية بين البشر والأمم والشعوب ، فضلا عن الفوارق بين الطبقات فى المجتمعات . . . ولكن الطهطاوى جاء ليلفت النظر إلي عكس هذه النظرة تماما ، فعنده أن مرور الزمن يصاحبه تقدم وتطور ورقى عن الأزمنة السالفة « فكلما تقادم الزمن فى الصعود رأيت تأخر الناس فى الصنائع البشرية والعلوم المدنية ، وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن فى الهبوط رأيت ، فى الغالب ، ترقيهم وتقدمهم فى ذلك» . . ثم ينتقل من هذه النظرة «المستقبلية» المتفائلة والمستبشرة إلى تقديم تقسيم جديد للبشر ، لا يقوم على أساس معيار **«الكفر والإيمان»** وحده ، وإنما يتخذ من **«التحضر والتمدن»** معيارا آخر لهذا التقسيم . . «فالرقى» الذى أصاب البشرية بمرور الزمن هو الذى أثمر وأحدث هذا التقسيم ، إذ «بهذا الترقى ، وقياس درجاته ، وحساب البعد عن الحالة الأصلية ، والقرب منها ، انقسم **سائر الخلق** إلى عدة مراتب :

المرتبة الأولى : مرتبة الهمل المتوحشين . .

المرتبة الثانية : مرتبة البرابرة الخشنيين . .

المرتبة الثالثة : مرتبة أهل الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر المتطرقين[1] . . »

وبعد هذا **التقسيم الحضارى** يمضى الطهطاوى ليضع الأمم والشعوب فى مكانها من هذه **المراتب الحضارية** ، فيضع القبائل البدائية فى مرتبة «الهمل المتوحشين» . . كما يضع «عرب البادية» ـ وهم مسلمون مؤمنون ـ فى مرتبة «البرابرة الخشنيين» ،

---

(١) المراد بالمَتطرقين : المخترعين والمحدثين .

«فإن عندهم نوعا من الاجتماع الإنسانى والاستئناس والائتلاف، لمعرفتهم الحلال من الحرام، والقراءة والكتابة، وغيرها، وأمور الدين، ونحو ذلك. . غير أنهم أيضا **لم تكمل عندهم درجة الترقى فى أمور المعاش والعمران والصنائع البشرية والعلوم العقلية والنقلية**، وإن عرفوا البناء والفلاحة، ونحو ذلك. . » . . . فمعرفتهم لأمور الدين لا تضعهم فى مرتبة أهل «الأدب والظرافة والتحضر والتمدن والتمصر»، لأنهم مفتقرون إلى «الترقى فى أمور المعاش والعمران والصنائع البشرية والعلوم العقلية والنقلية» . .

أما الذين تحصلت لهم مرتبة « التحضر والتمدن» فإن الطهطاوى يذكر منهم أهل «بلاد مصر والشام واليمن والروم والعجم والإفرنج والمغرب وسنار وبلاد أمريكة، على أكثرها، وكثير من جزائر البحر المحيط . . فإن جميع هؤلاء الأمم أرباب عمران وسياسات، وعلوم وصناعات، وشرائع وتجارات، ولهم معارف كاملة فى آلات الصنائع . . ولهم علم بالسفر فى البحور . . » .

وبعد أن وضع الطهطاوى قوما مسلمين فى مرتبة «البرابرة الخشنين»، ووضع قوما غير مسلمين، مع بعض المسلمين، فى مرتبة أهل «التحضر والتمدن» يمضى ليميز بين مراتب الذين تحضروا، حسب منزلة كل منهم فى المدنية ومبلغ ما وصل إليه فى سلم الترقى والتحضر، فيقول: إن «هذه المرتبة الثالثة تتفاوت فى علومها وفنونها . . مثلا البلاد الإفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية، والطبيعية، وما وراء الطبيعة، أصولها وفروعها . . . ولبعضهم - (المستشرقين) - نوع مشاركة فى العلوم العربية، وصلوا إلى دقائقها وأسرارها» بينما نحن الذين كنا - باعترافهم - «أساتيذهم فى سائر العلوم» قد اقتصر اهتمامنا على «العلوم الشرعية، والعمل بها، والعلوم العقلية» وأهملنا «العلوم الحكْمية بجملتها» حتى قال حكماء الإفرنج عن علمائنا: إنهم لا يعرفون غير «شريعتَهم ولسانهم، يعنى ما يتعلق باللغة العربية» . . وهذا الواقع يجعل بلادنا محتاجة «إلى البلاد الغربية فى كسب ما لا تعرفه» من المعارف والعلوم[1] . .

---

(١) (تخليص الإبريز) المقدمة . الباب الأول .

فـالمدمـون المتـقـدمـون هنا هم أهل «بلاد الإفـرنجة»، لأن المقـيـاس والمعـيـار حضارى. . ولم يشفع «لعرب البادية» إيمانهم وإسلامهم، ولا سكناهم فى موطن هبـوط الـوحى وأرض الرسـالةالمقـدسـة، لـم يشـفع لـهم ذلك فى الخـروج من دائرة «البـرابرة الخشنيين». . كـما لم تشـفع لأهل مـصر والشـام والمغـرب، مثـلا، علوم الشريعة واللغة التى برعوا فيها، فى اللحاق بمرتبة «الفرنجة» ـ غير المسلمين ـ أولئك الذين صاروا «أحكم الأمم[1]» بفضل ما اكتسبوا من المعارف والعلوم. .

ولـم يقف الطهطاوى عند هذا الحـد من تقسيم البشر، ذلك التـقسيـم الجديد، الذى يستند إلى معيار «**التحضر والتمدن**» دون معيار «**الكفر والإيمان**» فدعا «الجامع الأزهر» ـ الذى كـانت تتحصـن فيه المحـافظة ـ إلى أن يطور مناهجه وبرامجه، ويفـتح أروقته ويفسح حلقات دروسه لتلك العلوم التى جعلت من «بلاد الإفرنجة» «أحكم الأمم»، التى حـازت «أقصى مراتب البراعة فى العلوم». . دعـا الطهطاوى الأزهر إلى ذلك. . وعندما اصطدم بمن يزعمون أن هذه العلوم «**أجنبية**» و «**مـستوردة**» نبه الرجل إلى أن العلم والمعرفة لا وطن لهما ولا قومية تحتسبهما، بل وأوضح أن هذه العلوم والمعـارف التى قـام عليهـا عصـر النهضـة الأوربية إنما هى مـوروثات عـربية إسلامية، أخذها الأوربيون وطوّروها، فيجب أن نفتح لها الأبواب والنوافذ لنأخذ منها ونطور نحن أيضا. .

نعم. . طرق الرجل باب هذه القـضيـة «**القديمة ـ الجـديدة**»، وعلق على تغـيير الأزهر مناهجـه وبرامجه آمـالا كـبارا، وأبدى استـياءه من الموقف الرافض لجـهود محمد على فى التطوير والإصلاح، فكتب يقول: إن مـحمد على «قد جدد دروس العلوم بعـد اندراسـهـا. . غـيـر أنه. . لم يسـتطع، إلى الآن، أن يعـمـم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر. . . ولم يجذب طلابه إلى تكميل عقـولهم بالعلوم الحكْميـة، التى كـبير نفـعهـا فى الوطن ليس ينكر. . ومـدار سلوك جـادة الرشـاد والإصابة منوط، بعد ولى الأمر، بهذه العصابة، **التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب**

---

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الثامن.

عليـها من نشر السـنة الشريفة، ورفـع أعلام الشريعـة المنيفـة، معـرفة سائـر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقـدم الوطنية.. وإن هذه العلوم الـحكْمية العلمية التى يظهر الآن أنها أجنبية، هى علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة، بل لا يزال يتشبث بقراءتها ودرسها من أهل أوربا حكماء الأزمنة الأخيرة[1]» . .

بهذا المنهج، ومن هذا المنطلق، وبهذه العقلية رأى الطهطاوى حضارة أوربا، وتحدث عن تجربته الرائدة فى ربوع حضارة الفرنسيين بباريس . .

* * *

بطبيعة التسلسل المنطقى لمراحل الاحتكاك بين عقل الطهطاوى والحضارة الفرنسية، كانت أولى درجات هذا الاحتكاك مع الفرنسية ـ التى شرع فى تعلمها وهو على السفينة التى أقلته من الإسكندرية إلى مرسيليا ـ ثم مع العلوم والفنون والآداب التى أخذ يلتهمها فى هذه اللغة، ويترجم منها ما استطاع إلى لغته القومية . .

ولقد كان الطهطاوى يعلم أن الكثيرين من قومه ـ وخاصة فى الأزهر ـ يعتقدون أن اللغة الفرنسية، مثلها كمثل كل اللغات «الأعجمية»، لا نصيب لها من «الفصاحة والبلاغة والبيان»، بل لا نصيب لها من «القواعد» التى تحكم أصولها ومبانيها وتصريفات مفرداتها!! الخ . . الخ . . فكتب الطهطاوى يصحح لقومه هذا الوهم الغريب الذى كرسه استعلاء العزلة والتقوقع فقال: «**إن اللغة الفرنساوية، كغيرها من اللغات الإفرنجية**، لها اصطلاح خاص بها، وعليه ينبنى نحوها وصرفها وعروضها وقوافيها وبيانها وخطها وإنشاؤها ومعانيها، وهذا ما يسمى: «أغر ما تيقى» فحينئذ سائر اللغات ذات القواعد لها فن يجمع قواعدها . . **فحينئذ ليست اللغة العربية هى المقصورة على ذلك!**».

---

(١) (مناهج الألباب) الخاتمة. الفصل الثانى.

ولقد أدرك الطهطاوى من **ميزات اللغة الفرنسية، سواء فى القواعد أو الأساليب**، ما جعله ينادى بإصلاح اللغة العربية، فكان أول صوت يرتفع بهذه الدعوة فى عصرنا الحديث. . فقومه كانوا، فى أساليبهم، أسرى للمحسنات البديعية، التى تحولت فى عصور المماليك والعثمانيين إلى هدف فى ذاتها، تُقصد كغاية، بعد أن كانت زينة يتزين بها الأسلوب. . فتحدث الطهطاوى عن الفرنسية التى لا تعرف ولا تعترف بهذه المحسنات البديعية، مفضلا إياها على لغتنا الزاخرة والمثقلة بهذه المحسنات، فقال: إن أهل فرنسا «لسانهم - (لغتهم) - من أشيع الألسن وأوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة، لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية اللفظية، فإنه خال عنها، وكذا غالب المحسنات البديعية المعنوية. **وربما عد ما يكون من المحسنات فى العربية ركاكة عند الفرنسيين**. مثلا: لا تكون «التورية» من المحسنات الجيدة الاستعمال إلا نادرا، فإن كانت فهى من هزليات أدبائهم، وكذلك مثل «الجناس، التام، والناقص»، فإنه لا معنى له عندهم[1]. .»

كما أدرك الطهطاوى يسر التعلم للغة الفرنسية وسهولته، بالمقارنة بالعربية، وتعبيرها المباشر عن المعانى، مما يعين على الأسلوب العلمى، وييسر التحصيل على القارىء فيها، فتحدّث عن هذه الميزات، مفضلا لها على الزخارف والمترادفات والألفاظ غير المباشرة فى العربية، فقال: إن «من جملة مايعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم وسائر ما يكملها، **فإن لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة فى تعلمها**، فأى إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان، حيث إنه لا التباس فيها أصلا، فهى غير متشابهة، وإذا أراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبدا، فإن الألفاظ مبينة بنفسها. . فإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أى علم كان، تفرغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكة الألفاظ، فيصرف سائر همته فى البحث عن

---

(١) (تخليص الإبريز) المقالة الثالثة. الفصل الثانى.

موضوع العلم . . . **بخلاف اللغة العربية، مثلا، فإن الإنسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة، ويدقق الألفاظ ما أمكن. ويحمّل العبارة معانى بعيدة عن ظاهرها!**».[1]

ونحن نعتقد أن هذه الحقائق اللغوية الجديدة التى تفتحت عليها عين رفاعة، أول ماتفتحت وهو فى باريس، كانت وراء جهوده الرائدة فى محاولة إصلاح طرق تعليم العربية بعد عودته إلى بلاده، تلك الجهود التى كان من بينها كتاب: (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية).

ونظر الطهطاوى فى العلوم المدونة بلغة الفرنسيين، وتحدث عنها بعد أن تحدث عن صلة هذه اللغة وعونها على تعلم هذه العلوم . . وفى حديثه عن العلوم والمعارف الفرنسية لم يهتم كثيرا «بالشكل» أو «الكم»، بل نفذ فى عمق إلى الحديث عن «العقلية العلمية»، و «المناخ العلمى» وما يمكن أن نسميه: «بالمنهج العلمى» السائد فى تلك البلاد.

فهم نصارى، ولكن مذهبهم وتحررهم لا يضعهم فى جمود المذهب «الأرثوذكسى» الذى تدين به الكنيسة القبطية المصرية، والذى يحسب المسلمون المصريون أن كل النصارى كمثل «الأرثوذكس» مقلدون قدريون . . فعند الطهطاوى أن أهل باريس «ليسوا مثل النصارى القبطية ـ (القبط) ـ فى أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة، وليسوا أسراء التقليد أصلا، **بل يحبون دائما معرفة أصل الشىء، والاستدلال عليه**» . . وهذه العقلية العلمية ليست مقصورة على كبار علمائهم ومثقيفهم، فإنها «مناخ» عام، «حتى أن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة، **ويدخلون مع غيرهم فى الأمور العميقة**، كل إنسان على قدر حاله[2]! . . »

وتحدث **الطهطاوى** كذلك عن ما يمكن أن نسميه «بالذوق العلمى» عند الفرنسيين . . . فتحف قصورهم، وما يتجملون به تعتمد القيمة فيه على «الصنعة»

---

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الثالث عشر.

(٢) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الثانى.

وجودتها، لا على الكم والمظهر والبهرج، **كما هو الحال عند الشرقيين،** وعندما دخل رفاعة القصر الملكى، زائرا، وشاهد جناح الملكة وما به من أثاث وتحف، قال إن المعيار فى اختيار هذه الأشياء هو كونها «**مستحسنة من جملة جودة صناعتها، لا نفاستها بالمادة.. إنه لا يوجد بها كثير من الأحجار الكريمة كما يوجد ببلادنا ببيوت الأمراء الكبار بكثرة، فمبنى أمور الفرنساوية، فى جميع أمورهم، على «التجمل» لا على «الزينة»وإظهار الغنى والتفاخر!..**».

وعندما تحدث عن المعارف والآداب قرر أن عموم «البلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب، التى لا ينكر إنسان أنها تجلب الأنس وتزين العمران، وقد تقرر أن الملة الفرنساوية ممتازة بين الأمم الإفرنجية بكثرة تعلقها بالفنون والمعارف، فهى أعظم أدبا وعمرانا[1].. ».

ولم ينس الرجل أن ينبه قومه إلى خاصيتين من خواص العلم عند الفرنسيين قد غابتا عن عالمنا العربى، وكان غيابهما من أسباب تأخره:

الأولى: أن مفهوم العلم هناك وثيق الصلة بالصناعة والإنتاج، وأن هذه الصلة قائمة بالنسبة لمختلف الصناعات والحرف، ذلك أن «سائر العلوم والفنون والصنائع مدونة فى الكتب، حتى الصنائع الدنيئة، فيحتاج «الصنائعى» بالضرورة إلى معرفة القراءة والكتابة لإتقان صنعته، وكل صاحب فن يجب أن يبتدع فى فنه شيئا لم يسبق به، أو يكمل ما ابتدعه غيره. ومما يعينهم على ذلك، زيادة عن الكسب، حب الرياء والسمعة ودوام الذكر[2]!!».

ويلفت نظرنا، فى حديث الطهطاوى هذا، أنه يقدم «الرياء، والسمعة» كأشياء مستحسنة، لقيامها على أساس من العمل و العلم والاختراع، وهى مفاهيم جديدة، بل ومضادة لما كان شائعا على ألسنة المتصوفة والزهاد فى ربوع الشرق فى ذلك الحين..

---

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الرابع.

(٢) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الثانى.

والثانية: أن الطهطاوى قد فاجأ قراءه عندما حدثهم عن أن «العلماء» فى فرنسا ليسوا هم «رجال الدين»، ففقه الشريعة ليس هو العلم الذى يصنع الحضارة ويبنى العمران، ومن يظن ذلك فهو واهم؟! . . ولقد تحدث الرجل إلى قارئه فقال: « . . ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس، لأن القسوس إنما هم علماء الدين فقط، وقد يوجد من القسوس من هو عالم أيضا، **وأما ما يطلق عليه اسم العلماء فهو من له معرفة فى العلوم العقلية**، ومعرفة العلماء فى فروع الشريعة النصرانية هينة جدا. فإذا قيل فى فرانسا: هذا الإنسان «عالم»، لا يفهم منه أنه يعرف فى دينه، بل إنه يعرف علما من العلوم الأُخر! . . » .

وحتى لا يدع الطهطاوى فرصة لظان أنه يصف فقط حال الفرنسيين دون أن يعنى نقد الوضع فى الشرق . . أو أنه «يلمح» دون أن «يصرح»، استطرد الرجل لينقد صراحة تخلفنا الذى يجعل من «علمائنا» ودور «العلم» عندنا، لا صلة لهم ولا لها بحقيقة «العلوم»، فتحدث إلى قارئه قائلا: «.. **وسيظهر لك فضل هؤلاء النصارى، فى العلوم، عمن عداهم، وبذلك تعرف خلو بلادنا عن كثير منها، وأن الجامع الأزهر المعمور، بمصر القاهرة، وجامع بنى أمية، بالشام، وجامع الزيتونة، بتونس، وجامع القرويين، بفاس ومدارس بخارى، ونحو ذلك، كلها زاخرة بالعلوم النقلية وبعض العلوم العقلية، كعلوم العربية والمنطق ونحوه من العلوم الآلية**[1].» .

فعلماؤنا ليسوا هم «العلماء»، ومجامعنا ومعاهدنا وقفت عند (الآلات والأدوات) وغفلت عن «المقاصد والغايات» . . !! . . ذلك أن الطهطاوى كان ممثلا لعصر جديد، فنفذ ببصيرته وعقله إلى أسباب تقدم «بلاد الفرنجة»، وحدث قومه عن هذه الأسباب، ودعاهم إلى سلوك نفس الطريق . .

* * *

ورأى الطهطاوى - ما وسعته الرؤية وأسعفته الظروف - اقتصاد فرنسا

---

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الثالث عشر.

الرأسمالى، والمظاهر الاجتماعية لهذا الاقتصاد. . فالعمل الدائم والحوافز الذاتية تفعل فعلها فى تحقيق المكاسب والأرباح، حتى أنه «قد يوجد (بباريس) من أهالى «الحرف الدنيئة» من إيراده كل سنة أبلغ من مائة ألف فرنك . . » ولهذا الكسب الذى يحققونه علاقة بالديمقراطية البرجوازية، وبتعبير الطهطاوى فإن «ذلك من كمال العدل عندهم، فهو المعول عليه فى أصول سياستهم، **فلا تطول عندهم ولاية ملك جبار أو وزير اشتهر بينهم أنه تعدى مرة وجار!**».. وتقديرهم للعمل وضرورته يجعلهم ينكرون ما نسميه نحن «بالكرم» و «الإحسان» إلى القادرين على العمل، ذلك «أن البلاد المتحضرة يقل كرمها، وأيضا يرون أن إعطاء القادر على الشغل شيئا، فيه إعانة له على عدم التكسب» . . وهذه الأخلاقيات الجديدة للمجتمع البورجوازى ترفض. بذخ الشرق الإقطاعى، وذلك أيضا من أسباب اتساع ثرائهم « . . . فمن جملة أسباب غناء الفرنساوية أنهم يعرفون التوفير وتدبير المصاريف، حتى أنهم دونوه وجعلوه علما متفرعا من تدبير الأمور الملكية - (السياسية) - ولهم فيه حيل عظيمة على تحصيل الغنى، فمن ذلك: عدم تعلقهم بالأشياء المقتضية للمصاريف، **فإن الوزير مثلا، ليس له أزيد من نحو خمسة عشر خادما، وإذا مشى فى الطريق لا تعرفه من غيره، فإنه يقلل أتباعه ما أمكنه، داخل داره وخارجه.. فانظر الفرق بين باريس ومصر، حيث إن العسكرى بمصر له عدة خدم؟!!**».. (١)

وليس معنى هذا أن الطهطاوى لم يبصر من المظاهر الاجتماعية للاقتصاد الرأسمالى الفرنسى إلا هذه الجوانب والمظاهر الإيجابية، فالرجل قد امتدت بصيرته النافذة إلى القطب السلبى لظاهرة النظام الرأسمالى فأبصر بعض مظاهره. . فهو، كمسلم، رأى فى نظام «الربا» شائبة تشوب الكسب فى هذا النظام، فقال: «ولولا أن كسبهم مشوب، فى الغالب، بالربا لكانوا أطيب الأمم كسبا!!» . . وأهم من ذلك أبصر الرجل مظاهر الصراع فى المجتمع الرأسمالى على الكسب والربح والإثراء، وكيف يطحن الكبير الصغير، «والإفلاسات» التى

---

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الحادى عشر.

تذهب بثروات الأغنياء فتتحول بهم إلى صفوف الفقراء، بل إلى صفوف المتسولين. . تحدث عن هذه السلبيات، لا باعتبارها حالات نادرة أو شاذة، بل على أنها «الأمر الغالب» «الكثير الوقوع» فى تلك البلاد، «فإذا كسدت تجارة أحدهم، **كما هو الغالب فى تلك البلاد،** فسد حاله، وآل أمره إلى تطلب ما فى أيدى الناس، وربما أخذ معه مكتوبا من أحد الكبار يدل على كساد حاله، وأنه يستحق الإعانة!! **ويكثر وقوع مثل هـذا الأمر فى هذه المدينة ـ (باريس) ـ وإن كثر أخذها وعطاؤها؟!»**. . بل لقد أبصر الرجل كيف أن النظام الرأسمالى قد حول قطاعا كبيرا من الحركة الثقافية ونشر الكتب إلى عملية تستهدف الربح وحده، فالكتب المنشورة يعسر حصرها، ولكن «أغلبها المقصود منه الكسب لا النفع[1]»؟!. .

* * *

وفى ميدان الفن رأى الطهطاوى أشياء كثيرة، حدّث عنها قومه حديث الناصح الأمين. .

وبعض هذه الأشياء كان غريبا عن الشرق كل الغربة، ومستغربا من أهله كل الغرابة. . فالمسرح «التياتر» و «السبكتاكل») رآها الطهطاوى لأول مرة فى باريس، وكتب عنها مادحا، رغم أنها من «الأمور الدنيوية واللهو واللعب، ويتفننون فى ذلك تفننا عجبا، فمن مجالس الملاهى عندهم محال تسمى «التياتر» و «السيكناكل» وهى يلعب فيها تقليد سائر ما وقع. **وفى الحقيقة إن هذه الألعاب هى جد فى صوة هزل، فإن الإنسان يأخذ منها عبرا عجيبة، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة، ومدح الأولى وذم الثانية، حتى أن الفرنساوية يقولون: إنها تؤدب أخلاق الناس وتهذبها، فهى وإن كانت مشتملة على المضحكات فكم فيها كثير من المبكيات. ومن المكتوب على «الستارة» التى ترخى بعد فراغ اللعب ـ باللغة «اللاطينية» ـ ما معناه ـ باللغة العربية ـ : (قد**

---

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الثالث عشر.

تنصلح العوائد باللعب)!! فالتياتر عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل![1]..».

وبعض هذه الأشياء الفنية التى رآها الطهطاوى، بباريس، كان لها شبه فى بلاد الشرق، ولكن الطهطاوى أبصر الفروق الجوهرية بين مضمونها هنا ومضمونها هناك، والاختلاف الجذرى بين أهدافها عند قومه وأهدافها عند الفرنسيين..

فعندنا «رقص» وعند القوم «رقص» ولكن «الرقص عندهم فن من الفنون»؟! وحتى لا يستنكر قارىء الطهطاوى وصف «الرقص» بأنه «فن من الفنون» يذكر الرجل أن المؤرخ العربى المسلم «المسعودى» (٩٥٧م) قد «أشار إليه فى تاريخه المسمى (مروج الذهب)، فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ودفع قوى بعضها إلى بعض، فليس كل قوى يعرف المصارعة، بل قد يغلبه ضعيف البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم، وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء!».. وبعد هذا الحديث «الفنى» عن الرقص، تاريخيا، وعنه عند الفرنسيين، يجرى الطهطاوى المقارنة بين الرقص، كفن، عند الفرنسيين، وبينه كعهر، عند الشرقيين.. فيقول: «ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس، وكأنه نوع من «العافية» و«الشلبنة»، لا من الفسق، فلذلك كان دائما غير خارج عن قوانين الحياء، بخلاف الرقص فى أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء، لأنه لتهييج الشهوات، وأما فى باريس فإنه «نط» مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبدا!!»[2]..

* * *

ومن الأشياء الهامة التى لفتت نظر الطهطاوى بباريس «الديمقراطية الليبرالية»، ومؤسساتها السياسية، ودستورها، وقوانينها.. ولقد أعطى الرجل هذه الناحية

---

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل السابع.

(٢) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل السابع.

اهتماما كبيرا، ورام من وراء حديثه عنها، وترجمته لدستورها، بل وشرح مواده، ووصفه لمؤسساتها، رام أن يدخل هذا الفكر السياسى إلى الشرق الذى سادت وتسود فيه أنظمة الحكم الفردى وشريعة الاستبداد بالسلطات، والسلطان. . فهو يعلل اهتمامه «بكشف الغطاء عن تدبير الفرنساوية. . وأحكامهم» فيذكر الهدف قائلاً: «**ليكون تدبيرهم العجيب عبرة لمن اعتبر**»!

ثم يتحدث عن توازن المؤسسات السياسية والتشريعية، فيما يمكن أن نسميه «لعبة الديمقراطية الليبرالية» فى المجتمع الرأسمالى، فيذكر لنا أن (ديوان البير «الشيوخ») هو الذى يناصر الملك، بينما (ديوان رسل العمالات - أى نواب المقاطعات) هو الذى «يحامى عن الرعية». . ومن مهام هذا الديوان «امتحان القوانين والسياسات والأوامر والتدبير، والبحث عن إيراد الدولة ومدخولها ومصرفها، والمنازعة فى ذلك، والممانعة عن الرعية فى المكوس و «الفِرَد»، وغيرها، إبعادا للظلم والجور». .

كما يتحدث عن تقييد الملك وسلطاته بالدستور، وكيف «أن ملك فرانسا ليس مطلق التصرف، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيّد». .

ثم تحدث الطهطاوى عن مصادر التشريع والتقنين لدى الفرنسيين، فذكر أن قوانينهم قائمة على «الحقوق الطبيعية» التى تعتمد على العقل فى التحسين والتقبيح، وأنها ليست مستوحاة من الكتب الدينية، ومع ذلك فهى عادلة !! وأنها تمتاز بالمرونة فى الفروع، مما يجعلها قابلة للتطور بتطور الظروف والمصالح. . «فأحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب السماوية، إنما هى مأخوذة من قوانين أُخر، أغلبها سياسية، وهى مختلفة بالكلية عن الشرائع، وليست قارة الفروع».

ونفس الشيء للدستور. . «فغالب ما فيه ليس فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله، صلى الله عليه وسلم. . **وفيه أمور لا ينكر ذوو العقل أنها من باب العدل... فلقد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك**

وراحة العباد، وانقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم، وكثرت معارفهم، وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم.. والعدل أساس العمران!!..».

ولا يكتفى الطهطاوى بترجمة الدستور الفرنسى، والتعليق على مصادره، ومقارنتها بالشريعة الإسلامية - وهى أول دراسة مقارنة فى تراثنا الدستورى والتشريعى - لا يكتفى بذلك، فيشرح مواده ويعلق عليها، ليقول لقومه، بأسلوب مباشر أو قريب من المباشر، ما يوقظهم ويخرجهم من عصور الاستبداد، فيعلق على المادة الأولى من مواد هذا الدستور، التى تقول: «سائر الفرنسيين مستوون «قدام» الشريعة..» فيقول: إن معناها أن «سائر من يوجد فى بلاد فرانسا، من رفيع ووضيع، لا يختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون، **حتى إن الدعوة الشرعية تقام على الملك، وينفذ عليه الحكم كغيره**». وبعد هذا الشرح يعلق الطهطاوى فيقول «فانظر إلى هذه المادة الأولى، فإن لها تسلطا عظيما على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم، نظرا إلى إجراء الأحكام، ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية، **وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية، وتقدمهم فى الآداب الحاضرة. وما يسمونه الحرية، ويرغبون فيه، هو عين ما يطلق عليه عندنا: العدل والإنصاف، وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين، بحيث لا يجور الحاكم على إنسان، بل القوانين هى المحكمة والمعتبرة..»**.

ويعلق الطهطاوى على المادة الثانية التى تنظم فرض الضرائب وتحصيلها، فيتمنى أن يكون ببلاد الإسلام تنظيم لهذا الأمر، إذ «لو كانت مرتبة فى بلاد الإسلام كما هى فى تلك البلاد لطابت النفس، خصوصا إذا كانت الزكوات والفىء والغنيمة لا تفى بحاجة بيت المال، أو كانت ممنوعة بالكلية. وربما كان لها أصل فى الشريعة على بعض أقوال الإمام الأعظم..».

أما تعليق الطهطاوى على المادة الثامنة، الخاصة بحرية الرأى والتعبير، فإنه

يكشف عن إيمانه العميق بالحرية «الليبرالية» فى هذا الباب، فهى «تقوى كل إنسان على أن يظهر رأيه وعلمه وسائر ما يخطر بباله مما لا يضر غيره، فيعلم الإنسان سائر ما فى نفس صاحبه، خصوصا الورقات اليومية المسماة «بالجرنالات» و«الكازيطات». . . وإن كان قد يوجد فيها من الكذب ما لايحصى، إلا أنها قد تتضمن أخبارا تتشوف نفس الإنسان إلى العلم بها. . . ومن فوائدها أنها ربما تضمنت مسائل علمية جديدة. . وكذلك إذا كان الإنسان مظلوما من إنسان كتب مظلمته فى هذه الورقات فيطلع عليها الخاص والعام، فيعرف قصة المظلوم والظالم. . فيكون مثل هذا الأمر عبرة لمن يعتبر. . ».

لقد وقف الطهطاوى من النظام الديمقراطى الليبرالى الفرنسى هذا الموقف المحبذ والمؤيد، بل والمشبع بالإعجاب، والآمل فى أن تستفيد منه بلاده، فتنفض عن كاهلها كابوس الاستبداد. . وكان الرجل بموقف هذا منحازا إلى أكثر أشكال النظم السياسية التى عرفها عصره تقدما ورقيا واقترابا من تحقيق آمال الانسان فى الحرية والمساواة السياسية. .

ونحن نزداد إعجابا بموقف الطهطاوى عندما نراه لا يقف عند هذه الحدود فقط، بل يكشف جوانب نقص فى هذا النمط من أنماط الحكم وتنظيم المجتمعات. . فحرية الصحافة فى هذا النظام مشوبة بتضمنها «من الكذب ما لا يحصى»؟!. . والعدل الذى يتحقق للفقير من المساواة أمام القانون لا يتعدى المساواة فى «إجراء الأحكام» وهو الأمر الذى يؤدى إلى «**إرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم**». . إذ يكاد الطهطاوى أن يشير إلى أن هذا النوع من المساواة لا يجعل «**الفقير**» «**عظيما**». . بل «**يرضى خاطره**» فقط!! بل إن الرجل يصرح بذلك فيقول: «وبالجملة، **إذا وجد العدل فى قطر من الأقطار فهو نسبى، إضافى، لا عدل كلى، حقيقى، فإنه لا وجود له الآن فى بلدة من البلدان، فإنه كالإيمان الكامل والحلال الصرف، وأمثال ذلك ونظائره؟!**[1].».

(١) المصدر السابق. المقالة الثالثة. الفصل الثالث.

ونكاد أن نقول: إن **قضايا عصرنا** وفكرنا الراهن قد طرحا القضية بشكل يجعل تحقيق العدل السياسى رهنا بتحقيق العدل الاجتماعى.. فهل فكر الطهطاوى على هذا النحو؟؟.. نحن لا نقطع بذلك.. وإن كنا نرى أن عمقه وذكاءه جعلاه لا ينسى، فى لحظات إعجابه بالديمقراطية الليبرالية، أنها لا تفى بكل ما يتطلع إليه الإنسان!..

* * *

ولقد أتيحت للطهطاوى، وهو بباريس، فرصة ذهبية عندما شهد أحداث ثورة الشعب الفرنسى سنة ١٨٣٠م على الملك «شارل العاشر» (١٧٥٧ - ١٨٣٦م) وعلى القوى الإقطاعية والاستبدادية التى تقف وراءه وتؤيد استبداده.. فعاش الطهطاوى أحداث هذه الثورة، ونزل شوارع باريس وسجل مشاعر الجماهير وتحركاتهم المسلحة، ووصف انتصاراتهم ضد جهاز الدولة الفرنسية، والسلطة الثورية المؤقتة التى أقاموها فى الأحياء.. **وصف الطهطاوى كل ذلك بوعى الثائر المنحاز إلى ثورة هذه الجماهير..**

ولقد استخدم الرجل مصطلح «الفتنة» فى وصف هذه الثورة، لا عداء لها، ولا تقليلا من شأنها، وإنما لأن مصطلح «الثورة» لم يكن شائعا مألوفا فى لغة عصره، واللغة العربية قد استخدمت مصطلح «الفتنة» للتعبير عن الثورة، كما استخدمت مصطلح «الدماء» للتعبير عن «الحرب»!.. وفى كتب الأقدمين أوصاف للعلماء الذين يرجع إليهم فى تاريخ «الثورات» و «الحروب»، تقول عن أحدهم مثلا: (وكان عالما فى «الفتن» و «الدماء»[1]..!!).. كما أطلق الطهطاوى على علَم الثورة تسمية «بيرق الحرية؟!» وسمى الجماهير باسم «أهل البلد» الذين حاربوا جيش الملك، أو «عساكر السلطان»؟! كما تحدث عن أحد قادة هذه الثورة، وهو «لافييته» (La Faytte) الذى شارك فى الثورة الفرنسية الأولى، ووقف الطهطاوى أمام الحقيقة التى تجعل القادة، زمن الثورات، ليسوا بالضرورة من ذوى الثقافات

---

(١) انظر مقدمة كتابنا (مسلمون ثوار) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.

العلمية المنظمة، ولا من الذين نالوا الدرجات العلمية العالية . . «فلافييته»، ليس حائزا على شيء من ذلك، ولكنه نصير للحرية، ثابت على «حالة واحدة ومذهب واحد فى «البوليتيقة» ـ (السياسية) فلذلك صار، فى الثورة، «أعظم الناس مقاما![1]» .

وأهم من ذلك أن الطهطاوى لم يقف عند حدود وصف الثورة، والانحياز إلى الثوار، بل نفذ بتحليله لأسبابها وجذورها إلى الأعماق، بل لا نغالى إذا قلنا إنه قد لمس بوضوح «الصراعات الطبقية» التى تقف خلف هذه الأحداث . . فهو يتحدث عن انقسام الرأى العام الفرنسى «فى الرأى إلى فرقتين أصليتين، وهما : الملكية، والحرية . .

والمراد بالملكية : أتباع الملك، القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر، من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء .

والأخرى يميلون إلى الحرية، بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر إلا إلى القوانين فقط، **والملك إنما هو منفذ للأحكام، على طبق ما فى القوانين، فكأنه عبارة عن آلة ! . .»**.

ثم يحدد الطهطاوى «الطبقات» التى تقف فى هذين المعسكرين، فيقول : **إن «الملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم، وأكثر الحريين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية[2] . .»**.

بل ويكشف عن حقيقة أن «الحزب الملكى» هو الذى كان وراء الغزو الاستعمارى الفرنسى للجزائر سنة ١٨٣٠م وأن الشعب الفرنسى لم يستقبل انتصار جيش الملك على الجزائر كما استقبله «الحزب الملكى» . . وكيف غطت أحداث الثورة على أحداث هذا الانتصار، حتى أصبح «الملك شارل العاشر» مادة لسخرية

---

(٢) (تخليص الابريز) المقالة الخامسة . الفصل الثانى .

(١) المصدر السابق . المقالة الخامسة . الفصل الأول .

صحافة الثورة تتحدث عن طرده بتهكم أشد من تهكمها على طرد حاكم الجزائر من بلاده!!

يتحدث الطهطاوى فيكشف لنا العلاقات الطبقية والأهداف الاقتصادية التى تكمن خلف هذه الأحداث السياسية والعسكرية، فيطلعنا على صفحة هامة من صفحات وعيه السياسى والاجتماعى، فيقول:

«اعلم أنه جاء إلى الفرنساوية خبر وقوع بلاد الجزائر فى أيديهم قبل حصول هذه «الفتنة» بزمن يسير، **فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة، وإن أظهروا الفرح والسرور به، فبمجرد ما وصل هذا الخبر إلى رئيس الوزراء «بولنياق» أمر «بتسبيب» مدافع الفرح والسرور.. وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه، حيث إن مراده نفذ، وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزارته على بلاد الجزائر، فما كانت أيام قلائل إلا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك، حتى أن مادة الجزائر نسيت بالكلية، وصار الناس لا يتحدثون إلا عن النصرة الأخيرة.. ومما وقع أن «المطران» الكبير لما سمع بأخذ الجزائر، ودخل الملك.. الكنيسة، يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك؟! جاء إليه «المطران» ليهنئه على هذه النصرة، فمن جملة كلامه، ما معناه: إنه يحمد الله، سبحانه وتعالى، على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية، ولا زالت كذلك!!»**.

ويعلق الطهطاوى على محاولة «المطران» ستر المطامع الاستعمارية بستار من الدين، وإخفاء الطابع الاستغلالى الاستعمارى خلف ستار الحروب الدينية، فيقول، مستطردا: «**مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهل الجزائر إنما هى مجرد أمور سياسية، ومشاحنات تجارات ومعاملات، ومشاجرات ومجادلات!!.**».

ويتشفى الطهطاوى فى هذا «المطران» فيقول: «. . فلما وقعت «الفتنة» كسر الفرنساوية بيت «المطران»، بعد هروبه، وخربوه، وأفسدوا جميع ما فيه، حتى إنه تخفى ولم يعلم له أثر، ثم ظهر، واختفى ثانيا، وهجم على بيته ثانيا، **ولا زال مذموما مخذولا!..**».

ثم يحكى عن سخرية الصحافة الثورية من الملك وحزبه الرجعى، وكيف «صوروه، هو ووزيره «بولنياق»، خارجين من كنيسة. . إشارة إلى أنهما لا يفلحان إلا فى هذه العبادة الباطلة، وأنهما قسوس لا أمراء؟![1] . . »

ولا ينسى الطهطاوى أن يحدث قومه عن دور الفكر والبلاغة الثورية والدعاية والإثارة فى أحداث هذه الثورة، والمهام الكبرى التى تلعبها الصحافة فى كل ذلك، فيقول: «وبهذه الديار، بل وفى غيرها، قد يبلغ الكلام حيث تقصر السهام، خصوصا مادة الخطابات - (الخطب) - فإنها قوية، وخصوصا بلاغة الإنشاء، فلها «مدخلة» عظيمة، كما قيل: **إن نزل الوحى على قوم بعد الأنبياء نزل على بلغاء الكتاب! خصوصا إذا كان ما يذكر فى تلك اليوميات مقبولا عند العامة، ومقصودا عند الخاصة،** فإن هذا هو عين البلاغة الصحيحة، فإنها ما فهمته العامة، ورضيت به الخاصة! . . فما مررت بهذا الوقت «بحارة» إلا وسمعت: السلاح! السلاح! أدام الله «الشَّرْطة» - (الدستور) - وأهلك شدة الملك[2]!!».

وهذا التعريف الحديث للبلاغة، الذى ابتكره الطهطاوى، للمرة الأولى فى أدب اللغة العربية الحديث، لا بد وأن يكون تاريخ ميلاد جديد لوعى جديد اكتسبه العقل العربى والذوق العربى فى عصرنا الحديث. .

وإذا كان الطهطاوى قد كتب ما كتبه عن هذه الثورة كإضافة إلى كتابه (تخليص الإبريز) صاغها بعد انتهاء أحداث هذه الثورة، فلقد نبه الرجل إلى بقاء آثارها حية فاعلة فى حياة فرنسا، بل وفى حياة غيرها من البلاد، فقال: « . . ولا زالت هذه «الفتنة» **باقية الآثار إلى الآن، وربما تعدت آثارها إلى غيرها من البلاد**» . . ثم أشار بعد ذلك إلى تأثيراتها فى الأحداث الداخلية بإيطاليا، والحركات الاستقلالية التى أدت إلى استقلال «البلجيك» عن مملكة «الفلمنك» وقيام ثورات وطنية تطلب الاستقلال عن الحكومة القيصرية الروسية. . فنبه الرجل بهذه الإشارات على وعيه

---

(١) المصدر السابق. المقالة الخامسة. الفصل السادس.

(٢) المصدر السابق. المقالة الخامسة. الفصل الثانى.

التــام بآثار هذه الثــورة التى هزت فــرنســا وأوربا من الأعــمــاق . . والتى قــدم الطهطاوى، من خلال حديثه عنها، إلى شعبه، تجربة غنية وفريدة، أراد بها أن يستيقظ الناس على هذا العالم الجديد . .

* * *

ولقد كان عالم المرأة فى «بلاد الإفرنج» عامة، وبلاد فرنسا خاصة ميدانا لخيال واسع وعريض، ومريض، لدى الشرقيين، تخيلوه غاصا بكل ألوان الإباحية والفوضى والانحلال . . وكان طبيعيا أن ينتظر الطهطاوى من قومه أسئلة كثيرة عن مشاهداته فى هذا الميدان، فلذلك كتب فى رؤيته لهذه الحضارة عن هذا الميدان، لأنه ـ كما قال ـ: «كثيرا ما يقع السؤال من **جميع الناس** عن حالة النساء عند الإفرنج» كتب الطهطاوى عن نساء فرنسا، وحدث قومه عن علامات استفهامهم عنهن، وحسب تعبيره: فلقد «كشفنا عن حالهن الغطاء»؟!(١)

فكيف كانت انطباعاته عن المرأة فى باريس؟؟ . . إن الرجل يعلم أن قومه لا يسألون عن علمها أو جمالها، فى الأساس، وإنما عن عفّتها وعفافها! . . كما يسألون عن موقف الرجل الفرنسى من «العرض والشرَف والتعفف» عن نساء الآخرين . . . فلمس فى حديثه جوهر ما يسأل عنه مواطنوه . . وحدثهم بأن مذهب الفرنسيين فى هذا الأمر قريب من مذهب العرب وخلقهم، بل هم «أقرب شبها بالعرب منهم للترك ولغيرهم من الأجناس»؟! ثم ضرب أمثلة للأخلاق التى يقترب فيها الفرنسيون من العرب، وعدد منها: «العرض، والحرية، والافتخار!».

فالفرنسيون «يسمون «العرض» «شرفا»، ويقسمون به عند المهمات، وإذا عاهدوا عاهدوا عليه، ووفوا بعهودهم». ولا ينسى الطهطاوى أن يفرق بين «الغيرة» وبين «العرض» . . فالأولى ليست شائعة عندهم، أما الثانى فهم حريصون عليه . . ثم ينتقد فى الرجال الفرنسيين «تسليم القياد للنساء» ولكنه يعود فيتحفظ قائلا: «وإن

---

(١) المصدر السابق. المقالة الخامسة. الفصل السادس.

كانت المحصنات لا يخشى عليهن شيء» . . ثم ينظر للأمر نظرة أشمل فيقول : «وبالجملة ، فسائر الأمم تتشكى من النساء ، ولو العرب؟!» . . وأخيرا يجمل موقف الرجل الفرنسى من هذا الخلق ، فيقول : إن «مادة العرض - التى تشبه الفرنساوية فيها العرب - هو اعتبار المروءة ، وصدق المقال ، وغير ذلك من صفات الكمال . **ويدخل فى العرض أيضا العفاف، فإنهم تقل فيهم دناءة النفس**، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب ، والمركوزة فى طباعهم الشريفة . . » .

أما مواقف المرأة الفرنسية من العفة ، فإن الطهطاوى يميز بين عادات الفرنسيات فى الزينة والثياب وبين عفافهن ، فمرجع عفة المرأة عنده هو التربية والتكوين و«الوحدانية» فى الحب ، والوفاق العائلى بين الأزواج والزوجات ، لا كشف أجزاء جسمها أو سترها!! . . كما أن للاوضاع الاجتماعية علاقة وثيقة بالتزام العفة أو شيوع الانحلال ، فالمرأة الفقيرة تدفعها الحاجة إلى التحلل من التزام عفتها ، كما أن المترفة تدفعها الرفاهية والفراغ إلى الانحراف ، أما الوضع الاقتصادى والاجتماعى الوسط فإنه هو الأمثل للحفاظ على العفاف وصون النفس عن الابتذال والانحلال . . يتحدث الطهطاوى عن هذه القضية فيقول : «وحيث أن كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس عن حالة النساء عند الإفرنج ، كشفنا - عن حالهن الغطاء ، ولخص ذلك : **إن وقوع «اللخبطة» بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك فى المحبة، والالتئام بين الزوجين، وقد جرب فى فرانسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى الرتبة - (الطبقة) - الوسطى من الناس، دون نساء «الأعيان» و «الرعاع»، فنساء هاتين المرتبتين تقع عندهن الشبهة كثيرا، ويتهمن فى الغالب، فكثيرا ما كانت الفرنساوية تتهم نساء «العيلة» الملكية المسماة «البريون»؟!!**[1] .

ويتحدث الطهطاوى عن «**استيلاء فن العشق فى فرانسا على قلوب غالب**

---

(١) المصدر السابق . الخاتمة .

الناس، ذكورا وإناثا»، أى **اعتراف المجتمع بعلاقات الحب بين الرجل** والمرأة، وعن مساهمة ذلك فى شيوع الحالات التى تذهب فيها العفة عن النساء، ولكنه يتحفظ فيذكر أن العشق «قد يقع بين الشاب والشابة فيعقبه الزواج» . . . « . . . وبالجملة . . . . فما كل بارقة تجود بمائها!» أى ليست كل متزينة ودودة تفرط فى عفتها . . . «ففى نساء الفرنساوية ذوات العرض[1] . . » كما عند غير الفرنساوية من الشعوب . . ذلك أن جمال المرأة الفرنسية يتعدى المظهر والحديث اللطيف، إلى العقل الذى صقلته التربية والمعارف والعلوم، « ومن هنا يظهر لك أن قول بعض أرباب الأمثال : (جمال المرء عقله، وجمال المرأة لسانها)، لا يليق بتلك البلاد» فإن عقل المرأة الفرنسية «وقريحتها وفهمها ومعرفتها» هى من أصول زينتها وأسلحتها فى الحياة[2] . .

* * *

وكما أبصر الطهطاوى التعصب الدينى المذموم لدى «مطران» باريس وحزبه الرجعى، ومحاولتهم تغليف الأهداف الرجعية الاستعمارية بغلاف من الدين . . أبصر كذلك «**العلمانية والعقلانية**» كقسمة من قسمات الحياة الفكرية فى الحضارة الفرنسية، ووقف الرجل من هذه القسمة - (العلمانية والعقلانية) - موقفا يحتاج منا إلى وقفة متأنية متأملة، فموقفه وفكره ومشاعره وأحساسيه قد تناقضت وتذبذبت من حول هذا الموقف «العلمانى العقلانى» الذى وجده قسمة بارزة وأصلية عند المفكرين والمثقفين والعلماء الفرنسيين . .

١ - فالطهطاوى يمتدح «علمانية» الفرنسيين، وتسامحهم الدينى الناتج عن هذه «العلمانية»، ولا ينكر بعضهم «التحرر» من الإيمان بالأديان جميعا، أو بالجوانب الغيبية من هذه الأديان، خصوصا ما خالف منها السنن الطبيعية التى اكتشفتها العلوم فى الكون وحركته . . فيقول مثلا : إنه «لاينكر منصف أن بلاد

---

(١) المصدر السابق . المقالة الثالثة . الفصل الرابع .

(٢) المصدر السابق . المقالة الثالثة . الفصل الثانى .

الإفرنج الآن فى غاية البراعة فى العلوم الحكْمية، وأعلاها فى التبحر . . . والغالب على أهلها البشاشة فى وجوه الغرباء، ومراعاة خاطرهم، ولو اختلف الدين، وذلك لأن أكثر أهل هذه المدينة - (باريس) - إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا يتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل، أو فرقة من الرباحيين - (المتحررين) - الذين يقولون: إن كل عمل يأذن فيه **العقل** صواب، فإذا ذكرت له دين الإسلام فى مقابلة غيره من الأديان أثنى على سائرها، من حيث إنها كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وإذا ذكرته له فى مقابلة العلوم الطبيعية، قال: إنه لا يصدق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية. وبالجملة، ففى بلاد الفرنسيين يباح التعبد بسائر الأديان(١) . . ».

وهو يعلن ثقته فى العقل وقدرته على «التحسين والتقبيح» فيقول: إن الله قد أكرم الإنسان «**وزينه بالعقل الذى يميز بين الحسن والقبيح، والضار والنافع، والخطأ والصواب**، وجعل سبحانه وتعالى الإنسان المتصف بالقريحة الذكية والملكة القوية، موفقا لتحصيل العلم واستفادته واستنباطه وإفادته(٢) . . **وإن الإنسان** «**بالإدراك يقتدر أن يرتب المقدمات لاستخراج النتائج، وأن ينسب الماضى للحال، ويتبصر فى عواقب المستقبل، ويتصور أسباب الظواهر الجوية والحوادث السماوية، ويميز الحسن من القبيح والضار من النافع، وبالإدراك والفهم يصلح الإنسان الأشياء ويشكلها على الوجه المطلوب**»..(٣)

ويعلق الطهطاوى على قول الشاعر:

هب «البعث» لم تأتنا نُذُره ... وأن لظى النار لم يضرم
أليس بكاف لذى فكرة ... حياء المسىء من المنعم؟!

---

(١) المصدر السابق. المقدمة. الباب الثالث.
(٢) المرشد الأمين. الباب الثالث. الفصل الخامس.
(٣) المصدر السابق. الباب الأول. الفصل الأول.

يعلق على هذا المعنى «العقلانى» بقوله: «أحسن ما قيل [(١)]»؟! كما يسخر من الذين يعلقون النتائج على «الحظ» ويقول: إن العقل هو الفيصل فى كل الأمور:

يقول أناس: طالع السعد حظه وما السعد إلا عقله وعقاله[(٢)]؟!

٢ - وامتدادا لهذا الموقف المؤمن بالعقل وقدرته على التحسين والتقبيح، وعلى إصلاح الأشياء و «تشكيلها على الوجه المطلوب» يمنح الطهطاوى ثقته، دون تحفظ، «للأسباب»، التى «توجب» عنده وجود «المسببات». . وهو يسمى هذه «الأسباب» «النواميس الطبيعية» التى وجدت قبل الشرائع والأنبياء، وهدت البشرية أزمانا بواسطة الحكماء، وقامت على أساسها حضارات قدماء مصر والعراق وفارس واليونان. . ثم جاءت الأنبياء والرسل والشرائع بما لا يخرج عن هذه النواميس الطبيعية. . يمتد الموقف المؤمن بالعقل وقدراته عند الطهطاوى إلى هذا الحقل فيقول: إن «هذه النواميس الطبيعية، التى خصت بها العالم القدرة الإلهية، عامة للإنسان وغيره. وتسميتها «طبيعية»، عند الحكماء، إنما هو نظر للظاهر. . **فينبغى للإنسان أن لا يتجارى على هذه الأسباب ويتعدى حدودها، حيث إن المسببات الناتجة عنها منتظمة محققة... فعلى الإنسان أن يطبق أعماله على هذه الأسباب، ويتمسك بها... وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حكم الأحكام الشرعية، فهى فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الإنسان، وجعلها ملازمة له فى الوجود، فكأنها قالب له، نسجت على منواله، وطبعت على مثاله.. جاءت بعدها شرائع الأنبياء بالواسطة والكتب... فهى سابقة على تشريع الشرائع عند الأمم والملل، وعليها، فى أزمان الفترة، تأسست قوانين الحكماء وقدماء الدول، وحصل منها الإرشاد إلى طريق المعاش فى الأزمنة الخالية، كما ظهر منها نوع من انتظام الجمعيات التأنسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشرى، حيث**

---

(١) (تخليص الإبريز). المقالة الثالثة. الفصل الثانى.

(٢) (مناهج الألباب). الباب الرابع. الفصل الأول.

هداهم لمعاشهم بظهور حكماء فيهم يفنّنون القوانين المدنية، لا سيما الضرورية، كحفظ المال، والنفس، والنسل[1]»...

وتحدث الطهطاوى عن «صراع الإنسان ضد الطبيعة»، وقدرته على الانتصار عليها، وضرورة هذا الانتصار، وذلك عندما تحدث عن تجربة الإصلاحات الزراعية فى أرض مصر على عهده وضرورة أن تتزامل قوى الإنسان مع قوى الطبيعة الملائمة فى هذا الصراع، فقال: إنه «إذا تأمل أهل الزراعة إلى أسباب تكثير المحصولات وتعددها، وما تستدعيه من القوى غير المعتادة، والأعمال المدبرة، فإن هذه القوى تساوى القوى الطبيعية فى تنمية المحصولات، فقد لاحظ محمد على باشا أنه ينبغى قبل كل شىء إبطال الأسباب الطبيعية الموجبة، فى أكثر الأوقات، لتنقيص أراضى **الزراعة على التدريج، وأنه لا يدرك مرامه فى الثروة والغنى إلا بالانتصار عليها وهزمها، إذ هى أعدى عدو البلاد، كما انتصر فى وقائعه الحربية[2]!..».**

فلا بد من أن يعى الإنسان «النواميس الطبيعية» كى يطبق أعماله على هدى قوانينها.. ولا بد من وعى الإنسان بهذه الأسباب الطبيعية إذا هو أراد صراعها والسيطرة عليها وتوجيهها لفائدته وخيره..

ولا نعتقد أن هناك ثقة فى «العقل» وفى الانسان «العاقل» أكثر من هذه الثقة.. ومن يطلب من الطهطاوى - فى عصره - أكثر من ذلك فهو لا شك غير عارف بالعصر الذى نشأ فيه ذلك المفكر الكبير..

ولعل هذا الموقف العقلانى هو الذى دفع المستشرق «كارا دى فو» (Garra de Vaux) إلى أن يقول عن الطهطاوى: إنه «برغم تدين هذا الكاتب العبقرى وعقيدته، فإنه فهم فلسفة فرنسا فى القرن الثامن عشر، وتأثر بآراء العقليين تأثرا ربما كان أكثر مما ينبغى[3]؟!».

* * *

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الرابع. الفصل السابع.

(٢) مناهج الألباب. الباب الرابع. الفصل الثانى.

(٣) (لمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات رفاعة الطهطاوى) المقدمة.

ولكن هذا الموقف العقلانى الذى تحدثنا عنه عند الطهطاوى لم يكن إلا جانبا واحدا من جانبى الصورة التى تمثلت فى فكر هذا الرجل العظيم . . فرغم التأثر - الأكثر مما ينبغى - بآراء العقليين - كما يقول «كارادى فو» - نجد الطهطاوى يقف مترددا أمام الفكر الفلسفى عامة، وأمام ما قرأه من هذا الفكر فى اللغة الفرنسية بالذات، فيقول، بعد حديثه عن علوم الفرنسيين وأدابهم : «**غير أن لهم فى العلوم الحكْمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها؟!... إن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع!!..**».(1)

ونحن نقول : إن موقف الرجل هنا كان موقف **المتردد** وليس موقف **الرافض**، لأنه قد وصف الأدلة المقدمة على صحة هذه «البدع والحشوات الضلالية» بأنها «يعسر على الإنسان ردها»، ولأن هذا **التردد** كان ظاهرة من ظواهر فكره فى هذه القضية بالذات، **فإلى جانب مواقفه الفكرية التى آمن فيها بالعقل، وقدرات الإنسان العاقل، والعلاقات الضرورية بين الأسباب والمسببات - وهى المواقف التى أشرنا إليها - نجد لدى الرجل مجموعة من النصوص والمواقف الفكرية تعبر عن ضعف إيمانه بالعقل، وقلة ثقته فى صنع الأسباب لما ينتج عنها من مسببات..**

١ - فالطهطاوى الذى ذكرنا له منذ قليل نصوصه التى تتحدث عن قدرة الإنسان على إصلاح الأشياء وتشكيلها فى الصور المطلوبة . . نراه يتحدث عن الفعل الصادر من الإنسان فيرى الإنسان غير فاعل له ويحكم «بأن الفعل لله، حقيقة، ولغيره مجاز!(2)»، بل ويحكم بأن «قسمة الحظوظ» قد تمت «فى سابق الأزل» وأنه «لا تبديل ولا تغيير فى ذلك(3)» . . وهو الذى سقنا له منذ قليل شعرا يقول فيه إن الحظوظ هى : العقل؟! . .

---

(1) (تخليص الإبريز) المقالة الثالثة . الفصل الثالث عشر .

(2) (مناهج الالباب) الباب الأول . الفصل الثالث .

(3) المصدر السابق . الباب الثالث . الفصل الثالث .

كما ينكر على الأمراء والولاة الاجتهاد في «التحريم والتحليل» لأن «دين الإسلام كامل لا يقبل الزيادة والنقصان بالآراء العقلية[1]» . .

وفي مقابل النصوص التي قدمناها له عن قدرة العقل على التحسين والتقبيح، نجد قوله مثلا: **إنه «ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه» فالعدل، مثلا، قد «حسنه الشرع والطبع، وإن كان تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع[2]».. وأنه «لا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم، بما اكتسبوا من الخواطر التي ركنوا إليها، تحسينا وتقبيحا[3]!..»**

٢ ـ وهو يتراجع عن موقفه الذي رأى فيه الاعتماد على الأسباب والثقة بإنتاجها المسببات، يتراجع عن هذا الموقف إلى موقف يحسبه موقفا وسطا، عندما يدعو إلى «مباشرة الأسباب» ولكن «دون الاعتماد عليها» . . فهو يدافع عن التوكل ـ وليس في ذلك عيب ـ ولكنه يرى «أن حق التوكل هو مباشرة الأسباب، مع الاعتماد عليها[4]» . . وذلك «لأن التوكل هو إسقاط الأسباب عن حيز الاعتداد بها والاعتماد عليها، والاستظهار بادخار الذخائر، لا إسقاطها عن حيز الإمداد على الوجه المعتاد[5]» . . وبعد أن قرأنا له أن مباشرة الأسباب مؤدية قطعا إلى المسببات، نراه يتراجع إلى القول بأن «مباشرة الأسباب **مظنة الإنجاب؟!**[6]» .

فنحن إذاً أمام تناقض حقيقي في فكر الرجل حيال الموقف من العقل، ودور الأسباب في إنتاج المسببات، وإزاء ازدواجية فكرية تعايشت في عقل الرجل حيال هذه القضايا والمشكلات . .

---

(١) (القول السديد في الاجتهاد والتجديد) .
(٢) (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل السادس .
(٣) المصدر السابق . الباب الثالث . الفصل الأول .
(٤) المصدر السابق . الباب السادس . الفصل الثاني .
(٥) المصدر السابق . الباب الأول . الفصل السادس .
(٦) (مناهج الألباب) الباب الخامس . الفصل الرابع .

ونحن لا نستطيع أن نعلل هذه الازدواجية، ونفسرها على ضوء من تطور فكرى مر به فكر الطهطاوى حيال هذه القضايا، كأن يكون الموقف العقلانى قد ساد فكره مثلا فى شبابه، ثم تحول إلى السلفية المحافظة، فى هذه القضية، فى كهولته، أو العكس، وذلك لأن نظرة على مصادر النصوص التى قدمناها فى هذه الصفحات تظهر بجلاء أن هذه الازدواجية قائمة فى الكتاب الواحد، يستوى فى ذلك (تخليص الإبريز) الذى كان أول مؤلفاته الفكرية، مع (مناهج الألباب) و (المرشد الأمين) وهما من أهم ما ختم به حياته الفكرية . . فما هو التفسير لهذا التناقض وهذه الازدواجية؟! . .

حتى يتضح لنا التفسير لابد لنا من أن نعى الحقيقة التى جعلت من الصدام الفكرى والعملى بين أى من المفكرين العرب فى القرن الماضى(*) وبين السلطة العثمانية ونمط تفكيرها اللاعقلانى، السبيل إلى حسم موقف المفكر من قضية العقلانية، وانحيازه الكامل إلى الايمان بالعقل وقدراته فى ميدان البحث والنظر، ومدى الثقة الممنوحة له فى تقرير الحقائق واستكشاف المجهول . . فالمفكرون الذين دخلوا فى صراع حاد وسافر مع نمط التفكير العثمانى والسلطة التى ترعى نمط التفكير هذا ـ مثل الأفغانى ومحمد عبده، والكواكبى ـ قد اتضحت عقلانيتهم فى صورة أكثر جلاء، وبعدا عن الازدواجية، على حين رأينا هذه الازدواجية عند الطهطاوى، الذى تناقض مع العثمانيين، ولكنه لم يدخل معركة فكرية ضد نمط تفكيرهم اللاعقلانى . . ولو حدث ذلك للرجل لحسمت عنده وفى فكره هذه الأمور . .

فبينما أدى صدام الأفغانى ومحمد عبده مع العثمانيين إلى خروجهما، الى حد كبير، من نطاق «المحافظة» الفكرية، نجد أن بقاء الطهطاوى فى هذا الإطار هو مصدر الجانب «المحافظ» عنده فى النظر إلى العقل وتقليل الثقة فى الاعتماد على الأسباب . .

فالموقف العقلانى يتجلى عند الرجل عندما يكون حديثه عن أمور «التمدن والحضارة، وشئون الدنيا بوجه عام» أما عندما يقترب الرجل من ميدان الفكر الدينى

فإنه يتجلى «أشعريا محافظا»، ويظهر لنا عندئذ التناقض بينه وبين الموقف العقلانى فى التفكير.. فهذه الازدواجية، إذًا، هى أثر من آثار الجانب المحافظ فى التراث الإسلامى، وهو الجانب الذى مال إليه الطهطاوى، والذى ساعد على التزامه به ولزومه له أن الرجل، وإن تناقض مع العثمانيين وأيديولوجيتهم ونمطهم الفكرى، إلا أنه لم يدخل ضدهم صراعا فكريا كما حدث للأفغانى ومحمد عبده والكواكبى، فالصراع الفكرى الذى خاضه هؤلاء ضد العثمانيين قد حسم انحيازهم الفكرى إلى العقلانية، بينما بقى تردد الطهطاوى، وخاصة عندما يفكر فى المسائل الاعتقادية الدينية، أو فى القضايا المتصلة بهذه المسائل بسبب وثيق..

فلم يقف الطهطاوى على مقربة من تيار «المعتزلة» العقلانى فى الفكر الإسلامى، كما صنع الآخرون، بل لقد اعتبر آراء المعتزلة مجرد «شبه» يجب الابتعاد عنها. . وعندما أراد مدح علماء الدين بمصر مدحهم باعتبارهم الذين «طرحوا وراءهم ظهريا ما كان منها مشوبا بالضلال، وتباعدوا عن شبه أهل الاعتزال[1]!!».

ولقد أدى ذلك إلى وقوف الطهطاوى من العقل، ومن قدرته على التحسين والتقبيح للأشياء ذلك الموقف الذى أشرنا إلى ازدواجيته، لأنه كان «أشعريا»، يرفض فكر «المعتزلة»، وهم الذين قالوا، فى التراث العربى الإسلامى، بالتحسين والتقبيح بواسطة العقل، وأن العقل هو الذى يحكم بحسن الأشياء أو قبحها، بصرف النظر عن النصوص والروايات المأثورة فى هذه الأشياء. . كما وقف فى قضية الأسباب وعلاقتها بالمسببات موقفا مترددا. .

فالطهطاوى، إذًا، لا يتنكر للعقل جملة، كما أنه لا ينتصر له بشكل مطلق.. فهو ينتصر له فى ميدان العلوم العملية والإنسانية، ويتحفظ على قدراته عندما يكون الحديث متعلقا بالعلوم الإلهية والقضايا الدينية وما هو متصل بها بسبب وثيق.. ومن هنا شابت عقلانيته شوائب نعتقد ـ كما قدمنا ـ أن مصدرها هو فهمه «المحافظ»

---

(١) (أنوار توفيق الجليل) التمهيد. الفقرة الخاصة بكيفية تقدم الفنون والمعارف.

لبعض صفحات التراث العربى الإسلامى، ذلك الفهم المحافظ الذى ساعد على بقائه فى فكر الرجل وملازمته له حتى آخر حياته أنه لم يدخل معركة «فكرية» ضد النمط الفكرى اللاعقلانى الذى كان سائدا فى الدولة العثمانية.. وساعد عليه كذلك قرب عهده بعصر المماليك والأتراك العثمانيين ـ ، وأيضا كون الرجل، فى هذا الحقل، يمثل مرحلة انتقال، وهى أمور وعوامل أثقلت من خطاه على هذا الدرب، ولم تثقل من خطا الذين جاءوا من بعده، فكانوا امتدادا متطورا لكثير من الأفكار التى قدمها هذا الرائد العملاق للإنسان العربى في مطلع عهد هذا الإنسان بحركة البعث والنهضة والإحياء..

* * *

على أن المؤكد، إذا أردنا أن نوجز الموقف الثابت والواضح للطهطاوى من هذه القضية هو :

١ ـ أن الرجل، وإن استراح إلى تسامح بعض الفرنسيين مع الديانات الأخرى، بسبب حيادهم العلمانى إزاء الدين، فإن عينه الفاحصة لم تغفل عن تعصب قطاعات منهم إزاء الإسلام، ذلك الذى تحدث عنه عندما نقل مشاعرهم نحوه عندما احتلوا الجزائر سنة ١٨٣٠م . . وكيف ذهب ملكهم إلى الكنيسة ليشكر ربه على هذا الاحتلال! . . وكيف هنأه «المطران» قائلا : «إنه يحمد الله على كون الملة المسيحية قد انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية»!

٢ ـ كذلك انتقد الطهطاوى لادينية العلمانية الفرنسية، ونبه على ضرورة التمييز بين رفض هذه اللادينية وبين الإشادة والاستفادة بما لدى فرنسا من «علوم حكمية . . مدنية» . .

ولقد عبر عن هذه المعادلة التى رآها عند أهل باريس ـ شعرا ـ فقال :

«أيوجد مثل باريس ديار — شموس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح — أما هذا، وحقكم، عجيب!

فهذه المدينة : كباقى مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة ، مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات ، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية»!

٣ - إن الموقف الفكرى - الإسلامى - للطهطاوى إزاء السببية وعلاقة الأسباب بالمسببات ، هو امتداد لموقف قطاع من المتكلمين - الأشاعرة - الذين دفعهم رفض «الحتمية» التى تنكر قدرة مسبب الأسباب - سبحانه وتعالى - على تغيير عمل الأسباب فى المسببات ، إلى القول بسببية تتحفظ على علاقة «الضرورة» بين الأسباب وبين المسببات . . فقالوا إن المسببات لا تحدث إلا عند وجود أسبابها ، لكن الفاعل الحقيقى للمسببات هو الله . . وأن العلاقة بين الأسباب والمسببات هى علاقة «الاقتران» المعتاد ، وليست علاقة «الضرورة» . وطالما أن كل المسلمين مجموعون على قدرة خالق الأسباب على وقف عملها وإحلال أسباب أخرى غير معتادة محل الأسباب المعتادة ، عندما يريد - سبحانه - إيجاد الخوارق والمعجزات .

٤ - إن الطهطاوى - بتكوينه الإسلامى الأصولى - ونضجه الفكرى لم «ينبهر» بالنموذج الفرنسى . . والذين تصوروه كذلك قد ظلموه . . فهو قد أدان الفلسفة الوضعية اللادينية - التى تأسست عليها النهضة الأوربية الحديثة - وذلك عندما قال : «ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية!»

كما رفض أن تكون العلمانية والقوانين الوضعية بديلا عن المرجعية الإسلامية لنهضتنا ومدنيتنا ، وتصدى للدفاع عن فقه الشريعة الإسلامية وقوانينها عندما رأى بواكير تسلل هذه القوانين الوضعية إلى القضاء التجارى فى الموانى المصرية - فى التجارة مع الأجانب - فكتب مزكيا البديل القانونى الإسلامى ، وقال : «إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت والحالة . . ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية . . إن بحر الشريعة الغراء ، على تفرع

مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية . . لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع»[1] .

ذلك هو جوهر موقف الطهطاوى من النموذج الحضارى الغربى . . الذى يجب أن يعيه الذين ظلموه ـ سواء من العلمانيين أو من الإسلاميين ـ .

لقد كان داعية «للتفاعل» الحضارى، وليس «للتبعية والمحاكاة والتقليد» . . وكان العقل المسلم الأصولى، الذى أراد لأمته أن تنهض ـ فى عصرها الحديث ـ بالانفتاح على أهل التمدن والتحضر، كما صنع ذلك أسلافنا إبان ازدهارنا الحضارى . . دونما تبعية» أو «انغلاق» . . فهو امتداد للكندى [٢٦٠ هـ ٨٧٣م] القائل : «خليق بنا أن لا نخجل من الاعتراف بالحقيقة واستيعابها مهما كان مصدرها» .

وامتداد لابن رشد [٥٢٠ ـ ٥٩٥هـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨م] الذى قال : «إنه يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك، سواء أكان مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك طالما كان صوابا» . .

وجميعهم مقتدون بقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن» ـ رواه الترمذى وابن ماجة .

(١) مناهج الألباب . الخاتمة . الفصل الثانى . والباب الثانى . الفصل الرابع .

طلائع الفكر الوطنى

[ما أسعد الإنسان الذى يميل، بطبعه، لإبعاد الشر عن وطنه، ولو بإضرار نفسه . . . فصفة الوطنية لا تستدعى فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن، بل يجب عليه، أيضا، أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه . . . فإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التى يستحقها على وطنه . . .

فالتقدم لا يتم بدون انجذاب قلوب الأهالى صوب مركز التمدن والتنظيم، وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم! . . .]

الطهطاوى

قبل عصر الطهطاوى، وقبل قيام نظام الحكم المدنى الذى شهدته مصر منذ سنة ١٨٠٥م، والذى امتد إلى أغلب أجزاء المشرق العربى لسنوات عشر (١٨٣١ - ١٨٤١م) لم يعرف الشرق العربى رابطة يتحدث عنها الناس، وجامعة بين أهله سوى رابطة «الملة»، التى كانت تعنى يومئذ رابطة الدين. . ولم تكن الرابطة «الوطنية» أو «القومية» - الجنسية - قد برزت بعد، بل إن اللغة المتداولة يومئذ لم تكن تستخدم هذه المصطلحات. .

وكان التنظيم الحرفى والطائفى، الذى ساد طوال العصر المملوكى - العثمانى هو الشكل المعبر بدقة عن التفكك بين أبناء البلد الواحد والمدينة الواحدة، فضلا عن الإقليم. . كما كان نظام «الالتزام» فى الأرض الزراعية، وهو الذى ظل سائدا لقرون عدة حتى ألغاه محمد على بعد سنوات من حكمه، كان هذا النظام يكرس التفكك ويحول دون قيام رابطة «وطنية» حقيقية بين أبناء البلاد. . فعلى الرغم من «النيل» الذى تطلّب أن تحكم مصر حكما مركزيا فى أغلب فترات تاريخها الطويل «فإن حكومة المماليك «الاختلالية» تجردت عن القوة المركزية، ووحدة الحكومة. . فكانت مؤلفة من عدة «سناجق»، تتوزع بينهم أقاليم مصر، وكل «سنجق» يُقطع «لكشافه» القرى والنواحى، **وكان كل «سنجق» منفصلا عن غيره بإدارته وسياسته.**. فلذلك فى مدة حكمهم صارت مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدريج بانحلال الانتظام، فكانت مصر محتاجة إلى نظْمها فى وحدة حكومة مركزية[1]».

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الرابع. الفصل الثالث.

كان نظام «الالتزام» تكريسا لانحلال الرابطة الوطنية فى الريف . . أما فى المدينة فكان تكريس هذا الانحلال بواسطة نظام طوائف الحرف «فالمشتغلون بالصناعة فى المدن منتظمون فى طوائف الحرف، وأهل العلم من العلماء والمجاورين يكونون طائفة لها اعتبارها وكيانها، والمتصوفة وأرباب الأشاير لهم طرقهم، والأجناد منتظمون فى أوجاقاتهم أو تابعون لأمرائهم وسادتهم، والأعراب والبدو منتمون إلى عشائر معروفة. والحكومة لا تتصل بأحد من هؤلاء إلا عن طريق طائفته، فهى لا تعرف الفرد إلا مندرجا فى طائفته، والفرد لا يستطيع أن يمارس نشاطه كله ويضطرب فى الحياة آمنا إلا إذا كان منتميا لطائفة يخضع لنظمها ويحتمى بظلها . . . ولم يكن من اليسير أن يتحول فرد من طائفته إلى طائفة أخرى، فقد جرت العادة أن ينشأ ابن الفلاح فلاحا، وابن الصانع صانعا، وابن العالم عالما . . . والفلاح المصرى أو ابن المدينة لا يستطيع أن يستحيل جنديا أو مملوكا أو أعرابيا؟! . . [1]» .

كانت الروابط الوطنية والمشاعر القومية حبيسة نظام «الالتزام» فى الريف وتنظيمات «طوائف الحرف» فى المدينة . .

ولقد استثمر العثمانيون غياب المشاعر الوطنية إلى أبعد الحدود، بل كرسوا جهودهم للحيلولة دون ظهوها، لأن البديل لها كان رابطة «الملة الإسلامية»، وعن طريقها، وتحت ستارها، كانوا يحكمون قبضتهم الاستبدادية على عنق الوطن العربى وثرواته ومقدراته . .

وحتى الثورة التى قادها علماء مصر وأعيانها فى مايو سنة ١٨٠٥م (صفر سنة ١٢٢٠هـ) ضد الوالى التركى «خورشيد باشا»، والتى انتهت بعزله وإعلان إرادة الشعب وحقه فى ممارسة هذه السلطات . . حتى هذه الثورة أسلم العلماء والأعيان ثمرتها إلى محمد على باشا، لأن الرابطة العثمانية كانت تحكم منطقهم

---

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم (دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة) ص ٥٢٩ (والنقل عن: د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ١٦، ١٧). .

وتفكيرهم وتحركاتهم، ولم يفكروا فى أن يتولى حكم مصر واحد من أبنائها الأصليين.

وبعد سنوات من قيام النظام المدنى للحكم الذى عرفته مصر على عهد محمد على، زال نظام «الالتزام»، وتحلل نظام «طوائف الحرف»، وحدثت بمصر تطورات كثيرة أحلت فيها المناخ الذى أطلق المشاعر الوطنية والروابط القومية من عقالها، ووصلت البلاد - كما يقول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] - إلى حالة «**تعارفت فيها أهاليها، وائتلف الجنوبى بالشمالى، والشرقى بالغربى، وقوى فيهم معنى الأخوة الوطنية، بعد أن كانوا، لبعد الشقة بين بلدانهم، كأنهم أبناء أقطار مختلفة، وتواصلوا فى المعاملات، وتشابكوا فى المنافع، واعتدلت المشارب المذهبية، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر، وارتفعت بذلك أصواتهم بعدما جالت فيه أفكارهم**[١]»..

أما المفكر الذى تجسدت فى فكره هذه الظاهرة الجديدة، وانعكست فى كتاباته المشاعر الوطنية، فعرف بها، ودعا إليها، وفلسفها، وابتكر لها المصطلحات والصياغات.. فكان رفاعة الطهطاوى.. **فهو أبو الفكر الوطنى فى الوطن العربى على الإطلاق**..

وليس صحيحا ما يقوله «فيليب حتى» من أن عبارة «حب الوطن من الإيمان»، عندما جعلها «بطرس البستانى» (١٨١٩ - ١٨٨٣م) شعارا لمجلته (الجنان) سنة ١٨٤٣م، كانت «فكرة جديدة فى اللغة العربية[٢]»، لأن هذه الفكرة، بل ونفس العبارة، قد ذكرها الطهطاوى مرارا فى كتابه (تخليص الإبريز) الذى كتبه بباريس قبل سنة ١٨٣٠م..

وأهم من هذا فإننا واجدون فى فكر الطهطاوى صياغات نظرية تتحدث فى

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) دراسة وتحقيق محمد عمارة ص ٤٦٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٢) (تاريخ العرب) (مطول) ص ٨٨١.

القومية والوطنية حديثا غير مسبوق فى مناخنا الفكرى قبل ذلك التاريخ . . فمن قبله - كما أسلفنا - كان مصطلح «الملة» يعنى رابطة الدين ، ولكن الرجل أخذ يستخدم هذا المصطلح كمرادف للقومية والجنسية والوطنية ، فهو يقول فى تعريف القومية : **إن «الملة، فى عرف السياسة، كالجنس: جماعة الناس الساكنة فى بلدة واحدة، تتكلم بلسان واحد، وأخلاقها واحدة، وعوائدها متحدة، ومنقادة، غالبا، لأحكام واحدة ودولة واحدة. وتسمى بالأهالى، والرعية، والجنس، وأبناء الوطن**[1]».. «فالملة» تعنى هناك وترادف «الجنسية» و «القومية» . . وليس ذلك فحسب ، بل إننا أمام تعريف للقومية لا يجعل الدين عنصرا من عناصرها ، لأن صاحبه يفرق بين الأخوة الوطنية التى تجمع أبناء الوطن الواحد ، على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم ، وبين الرابطة الدينية التى تجمع من يدين وبدين واحد من أبناء هذا الوطن ، **فيرى رابطة الوطنية رابطة عامة، ورابطة الدين رابطة خاصة، ويعتبر أن رابطة الدين داخلة تحت رابطة الوطنية ومتضمنه فيها،** يقول الطهطاوى فى تحديد العلاقة بين هاتين الرابطتين : «إن أخوة العبودية ، التى هى التساوى فى الإنسانية ، عامة فى حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض ، التى هى حقوق العباد . . فيجب ، أدبا ، لمن يجمعهم وطن واحد : التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يختص شرف الوطن وإعظامه وغناءه وثروته ، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية ، وهى تكون بين أهل الوطن على السوية ، لاقتناعهم بمزية النخوة الوطنية . . » .

أما الرابطة الخاصة بمن يعتقدون دينا واحدا من أبناء هذا الوطن ، فإن الطهطاوى يتحدث عنها فيقول : ««وهناك حقوق العبودية الخاصة ، التى هى الأخوة الإسلامية ، وهى اكتساب ما يصير به المسلمون إخوانا على الإطلاق ، من أداء حقوق بعضهم على بعض ، **كرد السلام وابتدائه، وتعليم الأحكام الشرعية، ونحو ذلك من شُعب الإيمان»**.

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل الثالث .

وعن العلاقة بين الرابطة الخاصة ـ ذات النطاق المحدود، وإن يكن هاما ـ وبين الرابطة الوطنية العامة ـ التي تدخل في إطارها كل أمور الوطن ـ عن العلاقة بينهما وتضمن الثانية للأولى يقول الطهطاوى: «فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض، لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الأخوة الدينية»[1].

ولقد سجل الطهطاوى فى كتاباته ذلك التطور الهام الذى حدث بمصر فى حكم محمد على، عندما حل «حق المواطنة» الذى يشمل أبناء الوطن جميعا محل العلاقات الطائفية، وعندما تعدى هذا التطور نطاق السماح بحرية العقيدة والممارسة للشعائر الدينية إلى نطاق «المراتب المدنية»، فلم يعد الأمر، فقط، أمر السماح لأهل الملل «بالتمسك بعقائدهم وعوائدهم» بل إن محمد على كان «**أول من أعطى للعيسوية ـ (المسيحيين) ـ الداخلين فى الخدمات الميرية.. مزايا المراتب المدنية**»[2].

ويسوق الطهطاوى من كتب التراث الإسلامى ما يؤيد هذا التطور الجديد الذى نظرت به مصر إلى كل بنيها «كمواطنين»، بصرف النظر عن المعتقدات والأديان، فيقول: «إن الإمام «النووى» (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٢٧٧م) قال فى (التحفة) ما نصه: للإمام أو نائبه الاستعانة بأهل الذمة، والاستئمان على العدو، بشرط أن تؤمن خيانتهم، بأن يعرف حسن رأيهم فينا». . . وكانت مصر قد كونت من بنيها جيشا وطنيا، حمل فيه السلاح أبناؤها من مختلف الأديان، وذلك للمرة الأولى فى تاريخ عنصرها الوطنى، إذ لم يسبق لأبنائها المسيحيين أو المسلمين أن كونوا جيشها، وعهدها بهذا الأمر كان قد انقضى منذ الفراعنة، أى قبل المسيحية وقبل الإسلام؟! . . ويورد الطهطاوى كلام الإمام «النووى» فى جواز ذلك شرعا، وللحاكم «أن يفعل الأصلح من إفرادهم أو تفريقهم فى الجيش» يذكر رفاعة ذلك وينبه إلى ضرورة التفرقة بين هذا العلاقات الوطنية ـ وهي جائزة وضرورية ـ وبين

---

(١) (مناهج الالباب) الباب الأول. الفصل الثانى.

(٢) المصدر السابق. الباب الرابع. الفصل الأول.

«الموالاة فى الدين» . . كما يتحدث عن المخاطر والمضار التى يتعرض لها الوطن إذا ما تداخلت حكومته فى عقائد رعاياها وتعصب الحكام لدين ضد دين ، فإن «**الملوك إذا تعصبوا لدينهم، وتداخلوا فى قضايا الأديان، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم، فإنما يحملون رعاياهم على النفاق، ويستعبدون من يكرهونهم على تبديل عقيدته، وينزعون الحرية منه، فلا يوافق الباطن الظاهر، فمحض تعصب الإنسان لدينه لإضرار غيره لا يعد إلا مجرد حمية، وأما التشبث بحماية الدين لتكون كلمة الله هى العليا فهو المحبوب المرغوب**»(١) .

ولا ينسى الطهطاوى أن يرتب على هذه المساواة بين المسلمين والأقباط حقوقا للوطن على مختلف طوائف أبنائه يجب أن يرعاها الجميع ، خصوصا فى اليقظة لأساليب الاعداء ودسائس الطامعين ، فيشير ، من طرف خفى ، وبأسلوب الرمز ، إلى ما كان بين الحبشة ومصر من جفوة ومنازعات . . ويطلب أن لا تتمكن الحبشة - وهى تتبع الكنيسة القبطية و «بطريقها» - من استغلال هذه الصلات الدينية توصلا لما يضر مصالح مصر الوطنية ، **فيطلب من «بطريق الأقباط» أن «لا يكتم عن الحكومة مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب، وليتجنب فيما يخص المذاهب من طرف الأجانب ما ينوب، وليتوقّ ما يأتيه من تلقاء الحبشة، حتى إذا قدر فلا يشم أنفاس الجنوب؟!..**»(٢).

فهى إذا حقوق متساوية لقاء واجبات متساوية ، على أساسها يتمتع جميع أبناء الوطن - بصرف النظر عن المذاهب والمعتقدات - بمزايا «المراتب المدنية» والحقوق العامة للمواطنين الأعضاء فى «وطن» واحد و «قومية» واحدة . .

وهذه «الحقوق» التى للمواطن على وطنه ، و «الواجبات» التى للوطن على أبنائه يتحدث عنها الطهطاوى كطور جديد من أطوار الرقى البشرى والتحرر الإنسانى ، فيقول : إن «أعظم هذه الحقوق : الحرية التامة فى الجمعية التأنسية ، ولا يتصف

---

(١) المصدر السابق . الخاتمة . الفصل الثانى .

(٢) المصدر السابق . الخاتمة . الفصل الثانى .

الوطنى بوصف الحرية إلا اذا كان منقادا لقانون الوطن، ومعينا على إجرائه، فانقياده لأصول بلده يستلزم، ضمنا، ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية والتمزى بالمزايا البلدية، فبهذا المعنى هو وطنى وبلدى، . . . وهذه أعظم المزايا عند الأمم المتمدنة. وقد كان أهالى غالب الأمم محرومين من تلك المزية، التى هى من أعظم المناقب، وكان ذلك فى الأزمان التى كانت فيها أوامر ولاة الأمور جارية على هوى أنفسهم، يفعلون ما شاءوه، وقد كانت الأهالى، لا مدخل لها فى معارضة حكامهم، ولا محاماة لهم عن أحكام الشريعة. . فكانوا كالأجانب فى أمور الحكومة . . . والآن تغيرت الأفكار، وزالت عن أبناء الوطن هذه الأخطار، فالآن ساغ للوطنى الحقيقى أن يملأ قلبه بحب وطنه، لأنه صار عضوا من أعضائه. . فصفة الوطنية لا تستدعى فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن، بل يجب عليه أيضا أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه، فإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التى يستحقها على وطنه. . . »[١].

* * *

وهذا الفكر الذى قدمه الطهطاوى عن «الوطنية» و «القومية» لم يكن فكر باحث أو دارس يدرس لمجرد الدراسة، بل كان ثمرة لتجربة وطنية عريضة وعميقة شهدتها مصر وعاشها الطهطاوى مشاركا بفكره وجهده، وأيضا بمشاعره الوطنية التى أحبت مصر وقدمت لها كل ما لدى صاحبها من عطاء. . وهذه المحبة التى خص الطهطاوى بها وطنه قد جعلته يتحدث عنه فى آثاره الفكرية بما يمكن أن نسميه عناصر دراسة دارت حول «شخصية مصر» ودورها فى المحيط العربى والإفريقى الذى تعيش فيه. .

١ ـ فمصر كانت عند الطهطاوى ـ كما كانت عند جميع الذين أحبوها ـ «كنانة الله فى أرضه». . ولكن الطهطاوى يبصر فلسفة موقعها وثمراته، ذلك الموقع الذى جعل لها صلات دائمة وعميقة ومتشعبة، طوال تاريخها، مع كل الحضارات،

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل الثانى .

ومن هنا رأى الطهطاوى أن كتابة تاريخ كل الحضارات يمكن أن تتم من خلال كتابة تاريخ مصر . . وفى المشروع الذى بدأه لكتابة تاريخها ، والذى أنجز منه مجلدين ، تحدث عن إمكانية تحقيق هذه الفكرة المبتكرة : أن يؤرخ «للعام» من خلال «الخاص» ويتحدث عن «الكل» من خلال «الجزء» ، ويتخذ من علاقات مصر بالحضارات سبيلا للتأريخ للعالم من خلال التأريخ لها ، ذلك أن مصر «لها العلائق الأكيدة مع سائر العالم فى طوله وعرضه . . وتاريخها جامع لسائر الممالك والملوك ، فلذلك سلكت فى تعميمه أحسن السلوك ، فقد اشتمل على ذكر الحنفاء والخلفاء والعلماء والحكماء والسلاطين والأمراء والوزراء ، وجميع ما اقتضاه فن الاستطراد»[1] .

٢ ـ وميزة هذا الوطن هى فى علاقته الأبدية بصناعة الحضارة والتمدن منذ أقدم عصور التاريخ ، وقدرات أهله على استثمار موقعهم الذى جلب لهم تأثيرات حضارية متعددة تمثلوها وأحالوها إلى ذات المزاج الذى تميزوا به عبر تاريخهم الطويل «فما اختصت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تنطفىء ، وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى ، . . . **وأما مصر فأغرب شىء فى بقاء شمس سعدها، وارتقاء كوكب مجدها، أنها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا، لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا**... فكانت إهابتها بالقوة المعنية بقدر إهابتها أيام الفراعنة بالقوة الحسية . . . وكذلك فى القرون الوسطى . . . بعد فتوح الإسلام . . . تجدد في مصر ما لا مزيد عليه من التقدمات والأهمية ، مما لايكاد يوجد في غيرها من البلاد الإسلامية وغير الإسلامية ، فقد انتصر سلاطينها على ملوك الإفرنج . . . وظهروا عليهم فى جهاد أهل الصليب ، وخلصوا بلاد القدس وغيرها من أيديهم . . . ولما ظهر ملك فرانسا بجهة «دمياط» و «المنصورة» ، ظهر عليه جند مصر فرجعت جيوشه مهزومة مقهورة[2]» .

---

(١) (أنوار توفيق الجليل) الخطبة .

(٢) المصدر السابق . تمهيد . .

٣ ـ والطهطاوى عندما يعرض للسر فى تمدن مصر ودورها الحضارى عبر التاريخ، وتعليل أسباب التمدن والعمران، فيجعل من الزراعة والنيل واحتياجات السكان المرتبطة بالبيئة والموقع، العوامل الحاسمة والرئيسية فى نمو مدنيتهم وقيام حضارتهم، «فالسر فى هذا التقدم العجيب، وحسن التمدن الغريب، فى أزمان بعيدة عن ظهور النواميس والشرائع، وتلاوة الكتب السماوية... هو أن دماء القبائل والعشائر الأوائل إما أن تكون طبيعة بلادهم تلائم في المعيشية القنص والصيد، أو رعى الماشية والتنقل من جهة إلى أخرى... فالقبيلة الصيادة أو الراعية يبطىء تقدمها فى التمدن، ولا تصل إلى درجة عالية، لأن مورد كسبها ضعيف، ومصدر احتياجها لطيف ـ (خفيف) ـ ... فلا تصل إلى التمدن بسرعة... وأما الأمة التى طبيعة إقليمها تلائم الفلاحة والزراعة، وتصريف نتائج هذه البضاعة، فإنها تركض فى ميدان التقديم، وتسعى في مضمار الترتيب والتنظيم، فبقدر حاجتها إلى تحصيل أدوات الفلاحة والزراعة تنبعث عزيمتها إلى البحث عن اختراع الفنون واقتراح الصناعة.

فهكذا كانت ضرورة الديار المصرية، حيث أوجبت خصوبة أرضها أن تكون صنائعها قسرية، إذ الفلاحة تستدعى انتخاب الفصول والأزمان، ومعرفة سير النجوم ومساحة البلدان، وهندسة الآلات والعمارات، وحفظ المحصولات فى المبانى والعمارات، ووقاية الأموال والنفوس فى المدينة الحصينة والبندر المحروس.. ونقل ما زاد عن احتياجاتها إلى البلاد الأجنبية، وجلب ما ليس عندها من الجهات الخارجية، فاتسعت دائرتها بهذه المثابة [١]..»

٤ ـ ودور النيل فى قيام حكومة قوية بمصر منذ أقدم العصور، قسمة من قسمات شخصيتها يلمسها الطهطاوى فى كتاباته حول هذا الموضوع، فعنده أن «ليس فى ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقى على الزراعة والفلاحة إلا صاحب مصر.. وبقدر نفوذه على إدارة الزراعة يكون له النفوذ على الأهالى. وأما غير

---

(١) المصدر السابق. تمهيد. الفقرة الخاصة بأقدمية مصر فى التقدم والتمدن.

مصر من البلاد التى ريها بالمطر فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهلها كبير تسلط[1] . . .»

٥ ـ وبلد له هذا الدور المتميز والمستمر عبر التاريخ، لابد أن يكون له دور متميز فى العلاقة التى تربطه بجيرانه الأقربين . . وهذا الدور الذى نسميه الآن «دور القاعدة والقيادة» ينبه الطهطاوى إلى أن مصر قد مارسته بعد الفتح العربى الإسلامى، وينوه بانتقال الخلافة إلى مصر فى العهد الفاطمى وكيف «انسحب أثره على جميع البلاد[2]» . . كما مارسته فى العصور الوسطى بتصديها لدحر غزوات التتار والصليبيين، وكذلك الفرنسيين والإنجليز فى مطلع العصر الحديث . . كما أخذت تمارس هذا الدور القيادى تحت حكم محمد على، حتى كتب مفكر مثل جمال الدين الأفغانى أن جيران مصر لا يختلفون على أن هذا هو دورها الطبيعى . . فقال: «إن المتأمل فى سيرها هذا يحكم حكما ربما لم يكن بعيدا من الواقع، أن عاصمتها لابد أن تصير، فى وقت قريب أو بعيد، كرسى مدنية لأعظم الممالك الشرقية، بل كأن ذلك أمر مقرر فى أنفس جيرانها من سكان البلدان المتاخمة لها، وهو أملهم الفرد، كلما ألم خطب أو عرض خطر[3]» .

ومن جوانب هذا الدور المتميز لمصر العربية يكشف لنا الطهطاوى موقفها، وموقف محمد على من الاحتلال الفرنسى للجزائر سنة ١٨٣٠ م . . فحاكم الجزائر يومئذ ـ الداى ـ «حسين باشا» قد أوقف مقاوته للغزو، وأعطاه الغزاة أمانا خرج بموجبه مع أسرته وأتباعه وخزينته الخصوصية ـ وبها نحو تسعمائة فرنك ـ وجميع ما يملكه، وجاء هذا الحاكم ـ الذى فرط فى الاستمرار فى الدفاع عن وطنه ـ إلى مصر، «وتلاقى بمحمد على، **فلم يحسن الترحيب به، حيث ضيع مملكة من ممالك الإسلام،**

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الرابع. الفصل الثالث.

(٢) المصدر السابق. الباب الثالث. الفصل الرابع.

(٣) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٤٦٧ .

ولم يقبل النصيحة... وكان من جملة نواب الجزائر وأمراء عربها عدة اجتهدوا اجتهادا كثيرا لأجل حماية إقليمهم، بعد أخذ المدينة - (اى بعد احتلال العاصمة) -، وفضْل «الأمير عبد القادر» [١٢٢٢ - ١٣٠٠هـ ١٨٠٧ - ١٨٨٣م] فى ذلك لا ينكر، ومن أجلهم أيضا «أحمد بك»، حاكم «ططرى»، فإنه لازال يحارب الفرنساوية، ويحامى عن الأقاليم، واجتهد فى ذلك اجتهادا عظيما، حتى جعل نفسه صاحب تلك البلاد، وضرب «السِّكة» - (النقود) - كما كان يضربها (حسين باشا)، وجاهد كل الجهاد حتى وقع أسيرا فى قبضة الفرنساوية . . . **فجاء إلى مصر، فأكرمه المرحوم محمد على باشا كل الإكرام، ورتب له المرتب اللازم لمقامه، لحمايته عن الإسلام بقدر إمكانه.. وتوفى بمصر**[١]..».

فالذين جاهدوا دفاعا عن عروبة الجزائر واستقلالها كانت لهم مكانة بمصر وتقدير من حاكمها، على عكس الذين فرطوا أو قصروا، ولم يسمعوا النصيحة بمواصلة النضال ضد الفرنسيين. . ومصر والسودان يراهما الطهطاوى «كالتوأمين» و «الصنوين» فيقول: إنه «متى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة، ودخلت أهاليها، بحسن الإدارة، فى دائرة الاستقامة، صارت هى والديار المصرية، فى العمار، كالتوأمين، وفى ايناع الإثمار صنوين[٢] . . » .

أما علاقة مصر بباقى أجزاء القارة الإفريقية فلقد تخيلها الطهطاوى فى صورة اتحاد يضم كل أقاليم هذه القارة الكبيرة، على غرار «الولايات المتحدة الأمريكية»، فلو تيسرت «حركة عجيبة من الحكومة المصرية» وتيسرت المسالك والطرق للتجارة فى قلب القارة، وتمت حركة واسعة للاستكشافات العصرية الجليلة، وأدخلت الإصلاحات اللازمة . . الخ . . لصارت الأقاليم الجنوبية من هذه القارة، بالنسبة لمصر، «كالأقاليم الجنوبية بقسم - (قارة) - أمريقة[٣]» بالنسبة لشمالها!! . »

---

(١) (روضة المدارس) مقال للطهطاوى بعنوان (مملكة الجزائر) العدد ١٥ فى ١٥ من شعبان سنة ١٢٧٩ هـ (سنة ١٨٧٢م).

(٢) (مناهج الألباب) الباب الرابع . الفصل الرابع .

(٣) المصدر السابق . الباب الخامس . الفصل الثالث .

ولكن هذه الملامح والقسمات التى أوردها الطهطاوى فى شخصية مصر ودورها ومكانتها كانت تبدو أكبر من حجم مصر وحجم دورها فى ذلك التاريخ، فلقد كانت تخطو، رويدا رويدا، متجاوزة ظلام العصور الوسطى، وتبنى بنيانها المعاصر والعصرى وسط مؤامرات الغرب الاستعمارى وأطماعه ودسائس العثمانيين ومكائدهم.. ومن أجل ذلك ساق الطهطاوى فى العديد من مواطن حديثه عن مصر كلاما يدعو فيه إلى الثقة بالمستقبل، والسعى الدءوب لتغيير الواقع المتخلف، حتى تستعيد البلاد صورتها المشرقة التى بدت بها فى عصورها الذهبية عبر فترات طويلة من التاريخ..

فعنده أن «مصابيح العلوم أشبه بالكواكب ذوات الأذناب، تنتشر فى الأفق انتشارا مؤقتا، وهى سريعة الزوال، ولا تعود إلى محلها إلا بعد قرون وأجيال، **فلا يأس إذا ضعف نور التمدن فى مملكة من أن تعود إلى رتبتها الأولى!**[١]».

وعلى أبناء مصر الحديثة أن يثقوا بإمكانية بنائهم الحضارة الجديدة بأن تكون الامتداد المتطور لحضارة أسلافهم القدماء. تلك الحضارة التى عرفت جذور كل الفنون والإبداعات التى شهدتها الحضارات التى جاءت بعدها «فجميع ما كان فى الدول المتأخرة المتمدنة من حسن الأخلاق والعوائد كان موجودا نظيره عند دولة مصر القديمة، فى أيام زهوها، فليس التمدن من خصوصيات الأزمان الأخيرة، وإنما ذوقيات التمدن مختلفة بما يلائم طباع الوقت ويطابق مقتضى الحال، **فلا يبعد على مصر فى هذا العصر أن تستجلب السعادة... لأن بنية أجسام أهل هذه الأزمان هى عين بنية أهل الزمان الذى مضى وفات، والقرائح واحدة، ووسائل هذا العصر الأخير متسعة ومتنوعة..**[٢].

وليست نظرة الطهطاوى هذه خاصة بمصر وحدها، فهو يسوى فيها بينها وبين البلاد الإسلامية عموما، فيتحدث عن الفتور الذى أصاب تمدنها، والظروف

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الثالث. الفصل التاسع.

(٢) (مناهج الألباب) الباب الثالث. الفصل الثانى.

الجديدة - التى ربما كان بعضها قسريا وقهريا - التى ستدفع بها إلى تجديد حضارتها ومواصلة السير فى ذلك الطريق - فبالرغم من «ميل طباع عامةالناس إلى التكاسل والفتور، فقد تجبر الأحوال والأوقات العصرية على حركة العمل، حتى تصير طبيعية، وينتج عنها تقدم الجمعيات - (المجتمعات) - فمن هذا **لا تيأس ملة من الملل ولا دولة من الدول من أن تأخذ حظها من براعة العمل، لا سيما إذا كان لها فيه سابقة نصيب وافر، كديار مصر التى سبقت جميع الأمم بالمآثر الغريبة، وكباقى الدول الإسلامية التى جددت فيما سلف أنواع المعارف البشرية، والمنافع العمومية، والتقدمات المدنية، ومن آثارها استنارت جميع ممالك الدنيا، ثم انتقلت مزاياها إلى غيرها، وتكاملت المزايا فى ذلك الغير**[1]».

ولقد ارتبط ظهور المشاعر الوطنية المصرية فى العصر الحديث ببروز دور العنصر الوطنى المصرى فى البناء الذى شهدته البلاد تحت قيادة محمد على وابنه إبراهيم . . فالبعثات العلمية شملت أبناء مصر الوطنيين. والجيش الوطنى الذى تكون فيها لأول مرة منذ انحلال الدولة الفرعونية . . والمصانع والمعامل والمدارس والصحف والمطابع وسائر وجوه النهضة والتقدم والإصلاح، كل ذلك لعب فيه العنصر الوطنى الدور البارز والكبير . . ولقد كانت عين رفاعة الوطنى على العامل تسجله وترعاه، وهو الذى ارتبط صعوده بصعود نجم العنصر الوطنى فى التجربة المصرية، كما أفل نجمه بأفول نجم هذا العنصر وتراجعه تحت ضغط الأتراك والجراكسة والمتمصرين . . . فتحدث عن إنجازات محمد على : مدرسة الطب، والمجلس الاستشارى الصحى الذى يدير «عموم الصحة الأهلية» . . والمستشفيات فى العاصمة والأقاليم . . ومدرسة الولادة . . ومصلحة تلقيح . . (تطعيم) - الجدرى . . . التى «وَقَت النفوس من الأخطار، وترتب عليها الصون من التشويه، وتنمية الأهالى وتكثير العمار . . » . . . والجيش الوطنى، بقواته البرية والبحرية . . . وترسانة الإسكندرية البحرية «التى لم تكن دون ترسانة

---

(١) المصدر السابق . الباب الأول . الفصل الرابع .

«طولون» ببلاد الفرنساوية»، ومعاملها ومصانعها وملحقاتها، وما تم صنعه فيها من السفن «ذوات المائة مدفع»؟! . . تحدث الطهطاوى عن كل ذلك، واهتم أن يبرز دور العنصر الوطنى الذى قام بكل هذه الإنجازات، فقال: **إن محمد على «استخدم فيها الأهالى، وكذلك كان الشغالون وأرباب الصنائع فيها من الأهالى المصرية**[1]».

وهذا الجيش الوطنى الذى قام بمصر على «صورة جميلة، وهيئة جليلة، عجز عنها، على هذا الوجه، قبل محمد على ملوك الإسلام[2]!! . . والانتصارات التى أحدثها ضد الأتراك فى بلاد الشرق العربى، تلك الانتصارات التى رآها الطهطاوى من صميم **حركة اليقظة والبعث للأمة العربية كى تنهض وتنفض عن كاهلها غبار العصر التركى وظلامته، والتى « لم تكن من محض العبث، ولا من ذميم تعدى الحدود، إذ كان جل مقصوده ـ (محمد على) ـ تنبيه أعضاء ملة ـ (أمة) ـ عظيمة، تحسبهم أيقاظا وهم رقود**[3]!!..»... هذا الجيش الذى كان مدرسة وطنية تعلم فيها العنصر الوطنى وتفتحت فيها عينه على العصر الحديث، قد خصه الطهطاوى بالكثير من شعره، بل ووضع له أول الأناشيد الوطنية فى تاريخنا العربى الحديث. . . وهى أناشيد جاء فيها الطهطاوى بالمضامين الجديدة، ونظمها كذلك فى شكل شعرى جديد. . ومنها، على سبيل المثال، ذلك النشيد الذى يخاطب به الجند، ويقول فيه:

يا أيها الجنود	**والقادة الأسود**
أن أمّكُم حسود	**يعود هامى المدمع**
فكم لكم حروب	**بنصرها نئوب**
لم تثنكم خطوب	**ولا اقتحام معمع**

---

(١) المصدر السابق. الباب الربع. الفصل الثالث.

(٢) المصدر السابق. الباب الرابع. الفصل الثالث.

(٣) المصدر السابق. الباب الرابع. الفصل الأول.

وكم شـــــهـــــدتم من وغى ـ وكـم هـزمـــــــتم مـن بـغـى

فــــمـن تـعـــــدى وطـغـى ـ على حــــمـــاكم يصـــرع

فهل نغالى إذا قلنا: إن رفاعة كان أبا الفكر الوطنى فى اللغة العربية فى عصرنا الحديث؟؟. . وأنه أول رائد صاغ لهذا الفكر مصطلحاته، فحدثنا عن أن «ابن **الوطن**، المتأصل به، أو المنتجع إليه: الذى **توطن** به واتخذه **وطنا**، ينسب إليه، تارة إلى اسمه، فيقال: مصرى، مثلا، أو إلى الأهل، فيقال: أهلى، أو إلى **الوطن**، فيقال: وطنى. ومعنى ذلك أنه يتمتع بحقوق بلده. .[1].

ورصد نمو تلك المشاعر الجديدة فيه. . وتحدث عن الشخصية الوطنية لمصر. . ودورها فى المحيط العربى، والقارة الإفريقية. . وبسط أمام بنيها ـ وبنى الشرق عموما ـ الآمال العريضة فى المستقبل المشرق بالحضارة والتمدن. . كما نبه إلى مكائد الاستعمار وأطماعه التى يغلفها تحت ستار السعى لإصلاح مصر وتطورها، فوصف الطهطاوى هذه الدعاوى والمزاعم بأنها «من التشهيات الفاسدة، وإنما يقتل النفوس التشهى!» وحدد أن القوة هى السبيل لردع الاستعمار عن عزمه على الزحف على هذه البلاد، وإسكات تهديداته لها. . .

جـاء شـقـيق عـارضـا رمـحــه ـ صــوب بنى عم يروم الكفـــاح

قـيـل: أمـا تخـشى انكســار القنا ـ إن بنى عـمك فـيـهم رمـاح؟!؟[2]

نحن لا نغالى إذا قلنا إن رفاعة كان أبا الفكر الوطنى العربى فى عصرنا الحديث. . وأن هذا العصر الحديث لم يشهد من قبله من تحدث عن أن «حب الوطن من الإيمان» وأن الإنسان مهما تغرب وساح فى الأرض، وأخذ «فى أسباب طلب الرزق» فلن يفارق نفسَه أبدا تعلقها «بوطنه ومسقط رأسه، فإن هذا أمر

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الرابع. الفصل الثانى.

(٢) (مناهج الألباب) الباب الخامس. الفصل الثانى.

جبلّى[1] . . » . . . ويكفيه أنه قد تحدث عن مصر ، فقال : إننا «إذا أبدينا بعض محَاسن، أم الدنيا والنعمة، التى هى كنانة الله فى أرضه، ظهر لنا أنها تُعد أول وطن من أوطان الدنيا يستحق أن تميل إليه قلوب بنيه، وأنه أحق أن تحن إليه نفوس مفارقيه من ذويه؟ ![2]».

---

(١) (تخليص الإبريز) المقدمة . الباب الثالث .

(٢) (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل الأول .

تمدن العرب القديم
ويقظتهم الحديثة

[إن العرب هم خيار الناس . . وقبائلهم أفضل القبائل . . . ولسانهم أفصح الألسن . . . ولقد اشتهرت أمة العرب، جاهلية وإسلاما، بالفضائل . . .

ولم تكن حرب مصر ضد العثمانيين بالشام - حديثا - من محض العبث، ولا من ذميم تعدى الحدود، وإنما كان جل القصد منها : تنبيه أعضاء ملة وجنسية عظيمة، تحسبهم أيقاظا وهم رقود؟! . . .]

الطهطاوى

وإلى جانب الفكر الذى قدمه الطهطاوى فى الوطنية، وتطبيقه له على النموذج المصرى، الذى كان أول نموذج عربى نهض إلى رحاب هذا الطور من أطوار التقدم فى المجتمعات العربية . . نجد لدى الطهطاوى فكرا فى «العرب والعروبة» يكون صفحة غنية ورائعة فى فكر هذا الرجل، لم يسبق لدارس أن تناولها بالبحث والتقديم والتحليل . .

فالرجل الذى قدم تعريفا للأمة والقومية حدد فيه عناصرها ومقوماتها بـ:

١ ـ وحدة الأرض . .

٢ ـ ووحدة اللغة (اللسان) . .

٣ ـ ووحدة الأخلاق (والتكوين النفسى) . .

٤ ـ ووحدة العادات والتقاليد . .

٥ ـ والاتحاد فى «الدستور» و «الدولة» فى غالب الأحيان، (إذا لم تكن هناك ظروف قهرية قد جزأت وحدتها القومية) . .

الرجل الذى قدم تعريفا للقومية حدد فيه مقوماتها هذه قد تحدث عن اللغة العربية، فركز تركيزا شديدا على ضرورة العناية بها وتعلمها، وفقه علومها . . بل لقد تعدى الطهطاوى بهذه الضرورة نطاق الشعب العربى إلى نطاق الأمم الإسلامية غير العربية، وتحدث عن الرباط الوثيق بين هذه اللغة وبين الشريعة الإسلامية التى تدين بها هذه الأمم . . فهذه اللغة، بالنسبة إلى هذه الممالك «معرفتها ضرورية، لا سيما لأهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهى لغة العرب، والناقلون للشريعة هم الصحابة والتابعون، وهم عرب، وشرح مشكلات

الشريعة من لغاتهم، فالمحافظة على اللغة العربية من أوجب الواجبات . . فى سائر الممالك الإسلامية . . . فاللسان العربى هو الجامع لجمعيات الممالك المتفرقة والدول المتباعدة فى الدين والشريعة، المتباينة فى اللغات العامية[1] . . . فعلى كل دولة من الدول الإسلامية أن يعرف متميزوها اللغة العربية . .[2]»

فإذا علمنا أن الأتراك العثمانيين كانوا قد رفضوا «التعرب»، وظلوا يرفضونه طوال مدة دولتهم[3].. بل سعوا إلى «تتريك» الأقاليم العربية التى سقطت فى قبضتهم، حتى كان استخدام اللغة العربية بولايات المشرق العربى مطلبا قوميا عربيا تسعى الحركة الوطنية بالمشرق العربى للحصول عليه حتى سنة ١٩١٣م.[4]!.. إذا علمنا ذلك أدركنا علاقة حديث الطهطاوى هذا، عن اللغة العربية، بالفكر القومى العربى فى القرن التاسع عشر، وظهرت لنا العلاقة الوثيقة بين هذا الحديث وموقف العرب القومى من الأتراك العثمانيين؟!..

❊ ❊ ❊

ولقد تنبه الطهطاوى إلى أن المفهوم السليم والمتقدم «للعروبة» هو مفهوم

---

(١) كان للطهطاوى موقف من اللغة العامية جدير بالتأمل والدراسة، فلقد كان الرجل يستخدم مصطلحاتها عند الترجمة إذا أعوزه المصطلح الفصيح، ويقدم المصطلح العامى على المصطلح المعرب، كما استخدم الكثير من ألفاظها فى تآليفه . . وهو قد تحدث عن أهميه تقعيد قواعدها والاستفادة منها فى تعليم الصناعات لأبناء الشعب، فقال: «إن اللغة المتداولة فى بلدة من البلاد، المسماة باللغة الدارجة، التى يقع بها التفاهم فى المعاملات السائرة، لا مانع أن يكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها، وأصول على حسب الإمكان تربطها، ليتعارفها أهل الإقليم، حيث نفعها بالنسبة إليهم عميم، وتصنّف فيها كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية» . . (أنوار توفيق الجليل)، المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل السادس.

(٢) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل السادس.

(٣) انظر حديث جمال الدين الأفغانى حول هذا الموضوع فى (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٢٣ وما بعدها. وانظر كذلك (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى) دراسة وتحقيق محمد عمارة ص ٢٥٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(٤) انظر وثائق (المؤتمر العربى الأول) المنعقد بباريس ١٩١٣ م ص ١١٥ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣م.

حضارى، وليس مفهوما «عرقيا» ولا «نسبيا»، فناقش الذين يزعمون أن بناة الفكر العربى، المنحدرين من أصلاب غير عربية، ليسوا بعرب، ولا يدخل فكرهم فى التراث العربى، ناقش الطهطاوى هذه الدعوى، ورد عليها بأن مفهوم «العروبة» هو مفهوم حضارى، وهؤلاء المفكرون هم أبناء الحضارة العربية، فهم «عرب» بالحضارة، وإن لم تكن أصولهم «العرقية والنسبية» من عدنان» أو «قحطان». . فتحدث الرجل عن «عروبة سيبوية» (١٥٢هـ ٧٦٩م)، وأبى على الفارسى (٢٢٨ـ ٣٧٧هـ ٨٤٣ـ ٩٨٧ م)، والزمخشرى (٤٤٩ـ ٥٣٨هـ ١٠٥٧ـ ١١٤٤م) فقال: «وأما كون سيبويه، والفارسى، والزمخشرى، وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما، مع حصول هذه الملكة لهم ـ (أى ملكة البلاغة العربية) ـ فإنهم كانوا عجما فى نسبهم فقط، فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراءها، **فهم وإن كانوا عجما فى النسب فليسوا بأعجام فى اللغة والكلام، لأنهم أدركوا الملة الإسلامية فى عنفوانها، واللغة فى شبابها**[1] ..».

ولقد تحدث الطهطاوى كثيرا، وفى كل آثاره الفكرية تقريبا، عن فضل العرب على غيرهم، والخصائص التى فضلهم الله بها على غيرهم من الشعوب. . وقد يجد القارىء أو الباحث فى بعض صفات التفضيل هذه «تزيدا» من الرجل أو «مبالغة»، ولكن الأمر الذى نريد أن ننبه إليه هو **أن الطهطاوى قد كتب كل ذلك فى ظل أوضاع داخلية ـ فى مصر ـ وخارجية ـ تتعلق بالدولة العثمانية ـ تجعل حتى من هذا «التزيد» وتلك «المبالغة»، إذا ما نظر إليهما فى ضوء الظروف والملابسات، جهدا ثوريا ـ نعم ثوريا ـ فى المعركة التى كان يشنها الأتراك العثمانيون ضد العرب والعروبة فى ذلك الحين..**

ففى مصر كانت حاشية محمد على تناضل ضد كل ما هو عربى، وتجتهد لتجعل العنصر الوطنى فى قبضة الأتراك والجراكسة والأخلاط العثمانيين والمتمصرين. . وقد مر بنا كيف كان وضع العربية مكان التركية فى صفحات صحيفة (الوقائع

---

(١) (أنوار توفيق الجليل) المقالة الرابعة. الباب الثالث. الفصل الثانى.

المصرية) حدثا هاما قد يقلل من شأنه، الآن، الذين لا يضعون مثل هذه الأحداث فى إطارها العام الذى حكم حركتها وحدد لها قيمتها . .

وعلى نطاق الشرق العربى كله كان الأتراك العثمانيون يقفون من كل ما هو عربى موقف العداء، بل والاحتقار؟! . . ولذلك فإن على الباحث والقارىء أن يعى هذا «الجو النفسى» الذى عاشه الطهطاوى وكتب فيه الشذرات التى أضفى فيها الصفات الحميدة على العرب والعروبة، عندما تتبع صفاتهم وأمجادهم منذ جاهليتهم حتى العصر الذى عاش فيه . .

فقبائلهم عنده «أفضل القبائل على الإطلاق[1] . . . وهم خيار الناس. الذين جرت عادتهم بأن الآباء والأمهات يصطفون لأبنائهم الأزواج والزوجات[2] . . ولغتهم هى أفصح اللغات وأعظمها وأوسعها وأغلاها على السمع . . . ولسانهم كالذهب الصرف، هيهات أن يحاكيه البهرج؟![3] . . وحتى السمرة، ما أشرفها! فإنها لون العرب، ولونهم أشرف الألوان وأحسنها؟![4] . . . ولا ينكر أحد أن السماحة والإيثار من خواص العرب[5] . . . ولقد ثبت بالعقل تواترا أن العرب أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة، ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعانى. جمعا وفرقا، يجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل، إذا شاء المتكلم الجمع، والتمييز بين كل لفظتين مشتبهتين بلفظ آخر مختصر، إلى غير ذلك، وهذا من خصائص اللسان العربى. فالعقل قاض بفضل العرب. ولو أنهم كانوا قبل الإسلام لا يشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة . . . وإنما كان علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم من التواريخ، وما احتاجوا إليه فى دنياهم ومعاشهم من الأنواء والنجوم أو الحروب، فلما جاء الإسلام ونقلهم من

---

(١) (تخليص الإبريز) المقدمة. الباب الثاث.

(٢) (المرشد الأمين) الباب السادس. الفصل الثالث.

(٣) (تخليص الإبريز) المقالة الثالثة. الفصل الثانى.

(٤) (المرشد الأمين) الباب الخامس. الفصل الثالث.

(٥) المصدر السابق. الباب الثانى. الفصل الأول.

حالة الجاهلية . . اجتمع لهم الكمال التام، والخير العام . . . فلذلك كان بقاؤهم نورا فى الإسلام وفناؤهم فسادا فيه ! . . [1]».

فالصلة بين الإسلام والعرب أساسا، وليست بين الإسلام والاتراك، وإذا كان الأتراك يحكمون العرب باسم الإسلام وتحت راية الرابطة الدينية، فإن الطهطاوى يورد كلام الإمام الشافعى الذى يقول فيه: إن «أمة العرب أولى الأمم، لأنهم المخاطون أولا، **ولأن الشريعة عربية، والدين عربى!** [2]».

وإذا كان الأتراك العثمانيون يبغضون العرب والعروبة، فإن الطهطاوى يورد قول الرسول، عليه السلام: «من أبغض العرب أبغضه الله!! [3]» . .

ثم . . . ألسنا أمام الكوارث التى تحل بنا فى صراعاتنا الراهنة مع أعدائنا نلجأ، ضمن ما نلجأ، إلى ترسانة تراثنا وعصور نهضتنا نستلهم الطاقات التى نستعين بها على النهوض من الكبوة لمواصلة الصراع، مؤملين فى الانتصار؟! . . وألسنا في استخدامنا هذا السلاح اليوم نصنع أشياء ونقول عبارات مما قال الطهطاوى فى القرن الماضى [*]، عندما كتب وألف وجمع، وفى وعيه الظاهر والباطن تلك العملية البشعة من عمليات السحق القومى التى مارسها الأتراك العثمانيون ضد الأمة العربية عندما سعوا إلى تتريكها؟! .

إننا نعتقد بضرورة النظر إلى هذه الصفحة من صفحات فكر الطهطاوى فى ارتباط بالظرف والإطار الذى أبدعت فيه . . كما نعتقد بأهمية دراستها كقسمة من قسمات فكره القومى العربى الأصيل . . ورؤيته للعلاقه الخاصة بين العرب والعربية وبين الإسلام .

* * *

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الثانى . الفصل الثالث .

(٢) (أنوار توفيق الجليل) المقالة الرابعة . الباب الأول . الفصل الخامس عشر .

(٣) المصدر السابق . المقالة الرابعة . الباب الثالث . الفصل الأول .

(*) المراد القرن التاسع عشر، حيث ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، فى عام ١٩٧٣م .

ولقد كانت اللغة العربية هى المعيار الذى حدد به الطهطاوى النطاق الجغرافى للأوطان والأقاليم العربية، وهو النطاق الذى نطلق عليه اليوم «من الخليج إلى المحيط». . وهو قد تحدث عن مصر وعروبتها كثيرا، كما سبق أن ذكرنا، وتحدث عن بلاد المغرب العربى «التى أهلها أهل صلاح وتقى وعلم وعمل. . . وعن بغداد التى كانت، أيام الخلفاء، كما قيل، بالنسبة للبلاد كالأستاذ فى العباد؟!»[1] وتحدث عن السودان العربية، التى كانت يومها - كما قال الطهطاوى - «**أقرب المتمدن من أقاليم أمريقة بكثير؟!**»..

وحديث الطهطاوى عن السودان وأهله، وعن عروبتهم يستحق بعض الإيضاح، ذلك أن الرجل، أثناء وجوده منفيا فى الخرطوم، كان قد ضاق كثيرا بجوها الحار، وبالأمراض التى أهلكت نصف العلماء الأصدقاء الذين نفوا معه، فجاء حديثه عن السودان فى القصيدة الشهيرة التى كتبها هناك حديثا متشائما، ركز فيه نقده وهجومه بالدرجة الأولى على القبائل الزنجية البدائية التى كانت تعيش عيشة «الوحوش»، ووصف عرب السودان بالتخلف والجمود. . فقال فى وصفهم:

ونصف القوم أكثرهم وحوش	**وبعض القوم أشبه بالجماد**
وضبط القول فالأخيار نذر	**وشر الناس منتشر الجراد**
ولولا البيض من عرب لكانوا	**سوادا فى سواد فى سواد؟!**

ولكن هذه الصورة السوداوية المتشائمة، قد كانت، كما قلنا، أثرا من آثر آلام المنفى فى الخرطوم، بدليل أن الرجل عندما تعرض للسودان فى كتابه (مناهج الألباب) قال عنها: «**إنها أقرب للتمدن من أقاليم «أمريقة» بكثير!، وجميع أهلها - ما عدا بعض الجبال - لسانهم عربى فصيح، حيث إن جلهم من نسل قبائل العرب المنتجعة قديما، يحفظون أحسابهم وأنسابهم، وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة، وإنما يحتاجون فى حصول المطلوب إلى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام**

---

(١) (تخليص الإبريز) المقدمة. الباب الثالث.

أرباب صداقة وعفاف، وعدل وإنصاف، لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات إلى الأمور الدنية. بل توجد القابلية أيضا فى الأهالى المتأصلين..[1]» أى الزنوج..

هذا هو النطاق الجغرافى للوطن العربى، كما حددته اللغة العربية فى فكر الطهطاوى..

* * *

ولم يكن «الفكر العربى»، والانحياز إلى العرب، والإيمان بالعروبة، الذى يطالعنا فى آثار الطهطاوى، أثرا من آثار العصر الذى عاش فيه رفاعة فقط، كما لم يكن «رد فعل» لعداء الأتراك للعروبة بعد حكمهم لأقاليم الوطن العربى وإماراته منذ سنة ١٥١٧م.. ذلك أن إيمان الرجل بهذه المواقف الفكرية يضرب بجذوره فى أعمق أعماق تاريخ العرب القديم.. ونحن إذا شئنا أن نلقى الضوء على الأسس «الفكرية - التاريخية» التى انبنى عليها فكر رفاعة المؤمن بالعرب والعروبة، فإننا نستطيع أن نقدم، فى هذا الصدد، مجموعة من الأسس والركائز، فى مقدمتها:

١ - أن الطهطاوى كان يؤمن بأن العرب قد قامت لهم «مدنية»، وعرفوا «التمدن»، حتى فى تاريخهم الجاهلى القديم.. فعنده أن إقامة اسماعيل بن إبراهيم بمكة، حول البيت العتيق، والتجمع السكانى الذى نشأ فى تلك البقعة هو «أول تمهيد لجمعية - (مجتمع) - العرب[2]».. وأن لسان هذه «الجمعية» ولغتها «قد دل على تهذيب أخلاقهم وعوائدهم[3]».. وأن مرور الوقت قد عمم الوحدة فى هذه الأخلاق والعوائد بين قبائل العرب، فأصبحت «كل من قحطان وعدنان، كما هم متحدون فى النسب، متحدون فى الطبائع والعوائد، على اختلاف طبقاتهم

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الرابع. الفصل الرابع.

(٢) (أنوار توفيق الجليل) المقالة الرابعة. الباب الثالث. الفصل الثانى.

(٣) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل الثانى.

الست التى هى: الشعوب، والقبائل، والعمائر، والبطون، والأفخاذ، والفصائل. . [1]».

٢ - ويؤمن الطهطاوى أن فى مقدمة العوامل التى أخرت وحدة العرب فى جاهليتهم عامل التفرق اللغوى، وعامل التفرق فى الهوية الدينية، التى كانت الأصنام المتعددة تعكس فيها ذلك التشتت القومى لدى هذه القبائل. . فلقد «كان لكل قبيلة لغة خاصة بها، وعبادة كذلك» ولو كانت «القبائل العربية فى تلك الأزمان الأولية يجمعها لسان واحد يحصل به التفاهم، مع التمسك بدين واحد، لما ساواها غيرها من الأمم فى السطوة والبأس. . [2]».

أما اتحاد لغتها، قبل الإسلام، فإن الطهطاوى يحدثنا عنه، وعن وصولهم إلى إيجاد لغة أدبية مشتركة بين كل قبائلهم إلى جانب اللهجات واللغات القبلية المحلية التى تميزت عن اللغة المشتركة بالأسماء الخاصة للمسميات الخاصة، واختلاف طرق النطق. . إلخ. . . إلخ. . يحدثنا الطهطاوى عن هذه العملية الحضارية التى شهدها مجتمع العرب فى شبه الجزيرة قبل الإسلام فيقول: إن العرب كانت قد «اتحدت ألسنتهم - (لغاتهم) - وأفكارهم وحماستهم وبلاغة مقالهم، وإنما اختلفت فيهم لغات الأحياء والقبائل ومخاطبات البطون والعشائر، يعنى اتحد اللسان الذى به الفهم والتفهم واختلف متعلقه وأحوال التلفظ به فى التأدية وأسماء المسميات وكيفيات الحركات والسكنات، ومع ذلك فاللسان واحد وعلى قاعدة واحدة تكاد أن تكون عمومية لا يعتريها تغيير وإلا كان لحنا وغلطا. . ولما كانت لغات العرب لابد من تداولها فى المحاورات والمخاطبات والمحاضرات، وكان أهل نجد والحجاز، مثلا، لا يفهمون لغة اليمن وحمير، بل ربما كانت قبائل إقليم واحد لا تكاد تتكلم بلغة واحدة، أى لا تستعمل كلمات واحدة فى تأدية المعنى، وكانوا جميعا مولعين بقول الشعر ونشره بينهم. . . اجتمع الشعراء وأجمعوا رأيهم على

---

(١) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل الأول.

(٢) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل الأول.

تحسين اللسان العام الذى يكون به التفاهم عند جميعهم، وأنجزوا ذلك، فكانوا ـ فى أواخر أمرهم ـ إذا نظموا قصائدهم حاولوا أن تكون ألفاظها مألوفة للجميع متعارفة، بحيث تفهم معانيها المقصودة منها لجميع أحياء العرب وقبائلهم، فكان شاعر العشيرة إذا أراد أن ينثر أو ينظم وتواردت على لسانه عبارات متعددة تؤدى معنى واحدا أو ألفاظا مترادفة على معنى واحد آثر تأدية ذلك باللفظ المألوف لجميع العشائر، فتكون من ذلك لسان عربى مشترك بين العرب على اختلاف أحيائهم . .[1]» .

ولغة العرب لم تكن منطوقة فقط، بل يقول الطهطاوى إنها كانت مكتوبة ومقروءة منذ عهد إسماعيل بن إبراهيم[2] . . وبعد أن تحققت للعرب، فى الجاهلية، وحدة اللغة «لم يبق لها فى الحصول على مقصودها ـ وهو كمال تمدنها، وإنقاذ مهجتها مما يورث السقامة والوخامة ـ إلا وحدة الدين الصحيح[3] . . وهو الأمر الذى تحقق لها بظهور الإسلام . .

٣ ـ ويؤمن الطهطاوى أن العرب، منذ العصر الجاهلى، قد خطوا خطوات هامة على طريق «التمدن»، فيما يتعلق بقيام المؤسسات السياسية وجهاز الدولة ـ (الحكومة) ـ فى شبة جزيرتهم . .

ففى البداية كانت حقوق الجوار، والنجدة «**والنصرة تقوم عندهم مقام الحقوق المدنية** فيما يترتب عليها من المزايا البلدية، **أو هى عين حقوق الحرب والصلح** عند الأمم المتمدنة. وإنما يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته، لأن أفراد العرب جميعهم كملوك يسوسون أنفسهم بأنفسهم . .[4]» .

ثم انتقل العرب خطوة ثانية على هذا الدرب بمكة، فى عهد «قصى بن كلاب»،

---

(١) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل الثانى.
(٢) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل الخامس.
(٣) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثالث. الفصل الأول.
(٤) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل الأول.

ذلك الذى جمع قبائل قريش المتفرقة ـ وكانت تسمى «النضر بن كنانة» ـ فحشدها بمكة ـ «فسموا قريشا، من التقريش وهو التجميع» . . وبنى لهم «دار الندوة» التى تشبه مقر مجلس الشورى، كى يجتمعوا فيها ويتشاوروا فى إبرام الأمور . . كما فرض «قصى» الضرائب على من يدخل مكة من غير أهلها . . .

ثم نمت هذه الأشكال الأولية «للدولة» بعد «قصى بن كلاب» وقامت فى مكة «دولة قرشية» أقامت الروابط التجارية والاقتصادية مع فارس فى الشرق، والروم فى الشمال، واليمن فى الجنوب . . وكان حق التعامل التجارى مع الشام «لهاشم»، ومع الحبشة «لعبد شمس»، ومع اليمن «للمطلب»، ومع فارس «لنوفل» . . وكان بيد كل أمير من هؤلاء الأمراء «حبل» من ملك تلك الناحية، تذهب به القوافل التجارية فتدخل فى أمن إلى أرض هذا الملك . . فكأنه «جواز السفر» فى عصرنا الحديث . . . وبذلك «اجتمع لقريش فى ذلك الوقت الرياسة على قومهم، وأطاعتهم العرب» وتوزعت مناصب الرئاسة فى حكومة مكة قبيل الإسلام فى بطون قريش العشرة :

« فكان من هاشم : العباس بن عبد المطلب، يسقى الحجيج . . وبقى ذلك له فى الإسلام .

ومن بنى أمية : أبو سفيان بن حرب، كانت عنده «العقاب»، راية قريش .

ومن بنى نوفل : الحارث بن عامر، وكانت إليه الرفادة .

ومن بنى عبد الدار : عثمان بن طلحة، وكانت إليه خدمة الكعبة، مع الحجابة .

ومن بنى أسد : يزيد بن زمعة بن الأسود، وكانت إليه المشورة . .

ومن بنى تيم : أبو بكر الصديق، وكانت إليه الديات والمغارم .

ومن بنى مخزوم : خالد بن الوليد، وكان إليه تجهيز الجيش، وقيادة الخيل فى الحرب .

ومن بنى عدى : عمر بن الخطاب، وكانت إليه السفارة .

ومن بنى جمح: صفوان بن أمية، وكانت إليه الأزلام.

ومن بنى سهم: الحارث بن قيس، وكان إليه التحكيم..

فهذه الوظائف عند العرب فى دولتهم المعنوية تشبه وظائف الدولة الملكية - (السياسية) - الحقيقية..[1]».

كما عرف العرب فى تطورهم على درب «التمدن السياسى» «الأحلاف» والمعاهدات.. فقديما تحالف قوم من «جرهم» على «أن لا يروا ظلما ببطن مكة إلا غيروه!» وبعد «أن باد أهل ذلك «الحلف»، وتنوسى أمره، وصار يقع الظلم فى الحرم بدون مدافع» تأسس - قبيل الإسلام - «حلف الفضول» الذى دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، عم الرسول عليه السلام، فشارك فيه «بنو هاشم» و «زهرة» و «بنو أسد بن عبد العزى» وتم تأسيسه فى دار «عبد الله بن جدعان» وشهد الرسول، عليه السلام، اجتماع تأسيسه، وكان لم يبعث بعد.. وكان الغرض الأساسى لهؤلاء المتحالفين أن «يكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه، شريفا أو وضيعا.. وكان هذا الحلف، لشرف موضوعه، ونبل الغرض المقصود منه، **يكاد أن يكون أساسا لسياسة وطنية، وتمهيدا للمواد التمدنية.. ومن تأمله حق التأمل وجده أساس ما يسمى عند الملل المتمدنة بالحقوق المدنية والحقوق الدولية..**[2]»..

٤ - ويدرك الطهطاوى فى عمق دور التحديات الخارجية التى أحاطت بشبه الجزيرة العربية، فى الجاهلية، دور هذه التحديات فى دفع العرب على طريق وحدتهم السياسية، والتعجيل بإنضاج مسعاهم على درب «التمدن»... فالتهديدات، والتعديات التى كانت تتعرض لها شبه الجزيرة من الروم الشماليين، والأحباش الجنوبيين، والفرس الشرقيين، قد جعلت العرب يستشعرون «قبل الإسلام، بأنهم لا ملجأ لهم من هذه الأقوام إلا اجتماعهم

---

(١) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثالث. الفصل الأول.

(٢) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثانى. الفصل الرابع.

واتحادهم وانتظامهم فى سلك **الجنسية الواحدة**... ولما أغار فى أيام عبد المطلب، أبرهة الأشرم. . على مكة. . ترتب على ذلك **مزية وطنية لقريش عادت عليها بالمنفعة العمومية**... فجعل عبد المطلب مكة مركزا عاما يجمع أشتات القبائل. . لتقوى شوكة العرب **بالوحدة الجنسية**، وتتجهز أهل جزيرة العرب لإدراك فضيلة **الوطنية العمومية**..».

وعندما انتصر «سيف بن ذى يزن» على الحبشة، باليمن، وحررها، ذهب عبد المطلب على رأس وفد من قريش إلى اليمن، تحت ستار التهنئة. . «أما المقصد الأعظم من هذه الزيارة، والغرض الحقيقى الحامل عليها فهو عقد التوادد والتحابب وربط العلاقات بين الحجاز واليمن. . . فهذه كلها إرهاصات داخلية وتأسيسات **لدولة عربية**..[1]».

ولقد كانت هذه الخطوات جميعها. . . وتلك الإنجازات التى تحصلت للعرب على هذا الدرب. . . مضافا إليها الضعف والوهن اللذان أصابا دولتى فارس والروم بفعل حروبهما الطويلة، فرصة ذهبية تهيأت لقيام «استقلال جمعية القبائل العربية، وانتظام أحياء العرب فى سلك **هيئة اجتماعية تمدنية يتكون منها دولة قوية**»[2]... تلك الدولة التى قامت، بالفعل، فى المدينة، بعد الإسلام، وبعد هجرة الرسول عليه السلام من مكة إلى «يثرب». . وهى الدولة التى أتاح لها الدين الجديد مضمونا جديدا تميزت به عن «المقدمات» التى أنجزها العرب، فى جاهليتهم، على هذا الطريق وفى ذلك الاتجاه. .

* * *

ونأتى الآن إلى قسمة واضحة وحاسمة فى فكر الطهطاوى عن «العرب والعروبة»، تلك التى تحكى لنا رأيه الصريح والمباشر فى الدولة العثمانية والأتراك العثمانيين، وبالذات فى سيطرتهم على مقدرات العالم العربى. .

---

(١) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثالث. الفصل الثالث.

(٢) المصدر السابق. المقالة الرابعة. الباب الثالث. الفصل الرابع.

ونحن نقول: إن هذه القسمة حاسمة ومباشرة، **لأن كل المفكرين والمصلحين والثوار العرب، الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر، ووقفوا بشكل أو بآخر ضد السيطرة العثمانية على العالم العربى، إنما كانوا جنودا بواسل فى الموكب العربى الذى ناضل بنوه فى سبيل قيام الأمة العربية الواحدة والقومية العربية التى صارعها وأراد أن يصرعها الأتراك العثمانيون..**

وموقف الطهطاوى من هذه القضية هام، خصوصا وأن دارسيه لم يقفوا عنده، ومن أشار إليه منهم وقع فى الخطأ عندما قال إن رفاعة «كان اتجاهه القوى مشوبا بالولاء للخلافة وللرابطة الإسلامية العامة. .[1]».

فعلاوة على القسمات التى قدمناها من فكر الطهطاوى عن «العرب والعروبة»، والتى نعتقد أنها كانت طلقات فكرية مؤثرة ضد «أعجمية» الدولة العثمانية، ومحاولاتها «تتريك العرب» والحط من شأنهم. . . كما كانت زادا فى ترسانة أنصار العروبة والاستقلال القومى العربى. . . علاوة على ما قدمناه، فإن للطهطاوى موقفا واضحا ـ لأنه مباشر ـ من الأتراك العثمانيين. .

فالرجل كان معاديا عداء شديدا لنظام حكم المماليك. . . وأرخ بعصرهم لانحطاط مصر وتأخرها عندما قال: «فإن يكن التمدن قد قصر فى مصر، وانحط قدره الأصيل، فإنما كان ذلك فى أيام المماليك، الذين أساءوا تدبيرها، وسعوا فى خرابها وتدميرها، بما جبلوا عليه من العسف والتعدى، وعدلهم عن الجادة بسلوك ما ليس يجدى!». .

وبالرغم من أن الفتح العثمانى قد ألغى دولة المماليك، فإن مصر ـ كما يقول الطهطاوى ـ «قد صارت مترددة متحيرة، لتداول أيدى الولاة العثمانيين، المختلفين فى درجات العدل المعتبرة، مع بقاء نفوذ «أوجاقات» الشراكسة، أهل الحمية والعصبية، **ولم يكن لأكثرهم أدنى حظ فى قصد التمدنية**.. فانحل

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) ص ١٦١.

نظامهم . . . ولكن بقيت لهم قوة نفوذ غالبة، وأظفار أسود ناشبة، تفتك بالرعية![1]» . .

٢ ـ وإسلام الأتراك العثمانيين، الذى كان الستار الذى غلفوا به حكمهم للعالم العربى . . هذا الستار لم تنطل خدعته على مفكرنا الطهطاوى فنراه يعرض مرة لاختيار سلاطينهم لمذهب الإمام أبى حنيفة، فيعلل هذا الاختيار برغبتهم الاستفادة من الآراء التى تبرر لهم اغتصاب الملك الإسلامى والتسلط على المسلمين . . فهذا المذهب قد «اختص بكثير من الفروع التى تلائم ولاة الأمور، وأعظمها عدم اشتراط أمور كثيرة فى المراسم السلطانية، والفسحة فى اشتراط العدالة . . . فيجوز تقليد الإمام غير القرشى المناصب والأعمال . . . **فبهذا كان مذهب أبى حنيفة أوفق للملوك وأصلح!**» ولهذا انتهى الأمر إلى أن حصر العثمانيون القضاء فيمن تفقه على هذا المذهب دون غيره من المذاهب الفقهية الأخرى[2]؟! . .

٣ ـ وعندما حقق الجيش المصرى انتصاراته الشهيرة ضد الجيش العثمانى فى الشام ووصل إلى قلب الأجزاء التركية من الإمبراطورية العثمانية، وقف الطهطاوى كمفكر، فى صف هذا المد الوطنى العربى ضد الأتراك العثمانيين . .

فتحدث عن فتح «عكا» الذى تم فى سنة ١٨٣٣م، وكانت لم تفتح من قبل، حتى «لبونابرت» . . وقال: إن محمد على قد «فض ختامها . . فهو شديد قوى على فض الختام **لجميع مدن الشام وغير الشام..**» بل لقد قال فى ذلك شعرا تحدث فيه عن فتوحات الجيش المصرى بالسودان، وضد الأتراك ـ (الأروام) ـ قائلا:

وسعت إلى «زنج» طلائع جيشه ... فأطاعت العاتى من السودان

وتقلب «الأروام» عدل شاهد ... كم منه قد نالوا شديد طعان

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الثالث. الفصل الرابع.

(٢) المصدر السابق. الخاتمة. الفصل الثانى.

حـتى لقـد باؤوا بـوافـر خـزيهم وتقـاسـمـوا حظا من الخـسـران

لم تخط قـامـة رمـحـه أغراضـهـا وإصـابة الأغـراض نيل أمـانى[1]!

وفى هذا البيت الاخـير يتحـدث الطهطاوى عن أن رماح هذا الجيش قـد أصابت أغراضـها ونالت وحقـقت الأمانى المبتـغاة.. وهذا يقودنا إلـى التقيـيم الفكرى الهام الذى قـيم به الطهطاوى هذه الفتـوحـات، فلقد اعـتبـرها الطهطاوى ـ كمـا سبـقت إشارتنا ـ جزءا من حركة «التنبيه» والإيقـاظ للأمة العربية، فهى «حسنة» وإن اتخذت «صورة الجنيـة»، وتمت بواسطة الجيش والقـتال.. فهـو يرى فى هذا الفتح عامـلا قد «وسع دائرة المنافع العمومية» وأن الحروب التى تمت «فى الشام وغير الشام...لم تكن من محض العبث، ولا من ذميم تعدى الحدود، إذ كـان جل مقصوده ـ (محمد على) ـ تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود..[2].

والطهطاوى يقيم حروب الشام هذا التقييم فى ستينات القرن التاسع عشر، أى بعد أن تدخلت الدول الكبرى وخاصة إنجلترا، التى تحالفت مع السلطان العثمانى، وأجبرت محمد على على سحب الجيش من الشام، وحصرت نشاطه فى حدود مصر، بل وكبلت تجربته الجديدة فى الاقتصاد بمعاهدة «باليتمان» «الإنجليزية ـ العثمانية» المعقودة سنة ١٨٣٨، [3] وبعد أن عادت مصر، **رسميا وقانونيا**، إلى إطار التبعية للدولة العثمانية، يكتب هذا التقييم فى ظل هذه الظروف غير المواتية للإفاضة فى الحديث الصريح عن هذه الأشياء، ومع ذلك فهو لا يتردد فى أن يعتبر العلاقة «المائعة» وغير المحددة التى ربطت مصر ثانية بالدولة العثمانية بعد سنة ١٨٤١م هى المسئولة عن وقف الفتوحات التى كانت «ستحسن التمدن وتنشر العمران». . فيقول عن محمد على: **إنه «لولا بقـاؤه تحت ولاية الدولة العليـة، ومراعاة حـفظ الحالة الراهنة على ما هى عليه من الراجـحية والمرجوحـية؟! لجال فى**

---

(١) (تخليص الإبريز) المقالة الثالثة. الفصل الأول.

(٢) (مناهج الألباب) الباب الرابع. الفصل الاول.

(٣) انظر كتابنا (العروبة فى العصر الحديث) ص ٢٠٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

الفتوحات الخارجية مجال إسكندر الأكبر، وحسن حالة التمدن، وجد فى جادة العمران!..[1]».

فهو هنا يقدم فكرا محددا، يرى فى العمل العسكرى الذى مارسه الجيش المصرى ضد العثمانيين، وحرر به أغلب أجزاء المشرق العربى، عملا لا يدخل فى إطار «العبث» أو «التعدى» وإنما هو تنبيه الأمة العربية وإيقاظها من نومها ورقودها فى الكهف . . . وهو فكر قومى عربى لا نطلب من الطهطاوى أكثر منه فى ذلك التاريخ وتلك الظروف . .

٤ ـ ونفس الموقف العربى الذى انحاز به الطهطاوى إلى صف العرب ضد العثمانيين، على صعيد المسألة الشرقية، نراه يتخذه من الصراع الذى كانت تشهده مصر بين بقايا الأتراك والمماليك الشراكسة والمتمصرين وبين أبنائها العرب وأخوتهم السودانيين . . ويحدثنا الطهطاوى عن صعود نجم العنصر الوطنى بمصر، وعن دور إبراهيم باشا فى تذليل العقبات أمام هذا العنصر الوطنى ـ على عكس والده محمد على ذى الميول والحاشية التركية ـ فيقول: إن «عدد تلامذة مدرسة «الطوبجية» (المدفعية) «بطرة» كان أربعمائة تلميذ، وعدد تلامذة «مكتب الرجال» ـ (مدرسة أركان الحرب) ـ فى «الخانقاة» نحو مائتى تلميذ. **وكان لا يقبل فى «مكتب الرجال» ـ أى أركان حربية ـ إلا الترك والمماليك، ثم انضم إليهم أبناء العرب، وكانوا لا يحرزون عند الامتحان رتب الضباط، فالمرحوم إبراهيم باشا أبطل هذه الطريقة فى حق أولاد العرب وفى حق أبناء السودان وسواهم بغيرهم..[2]».**

فهو موقف واحد، ومتسق، انحاز فيه الطهطاوى إلى جانب «العرب والعروبة»، فأصبح موقفه هذا امتدادا طبيعيا يكمل الصورة التى بدأت بموقفه الرائد فى حقل الفكر الوطنى العربى الحديث . .

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الرابع . الفصل الأول .

(٢) المصدر السابق . الباب الرابع . الفصل الثالث .

الفكر السياسى

[إن الحرية هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى وإسعادهم فى بلادهم، وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم. . .

ولقد تأسست الممالك: لحفظ حقوق الرعايا، والحرية، وصيانة النفس والمال والعرض، على موجب أحكام شرعية، وأصول مضبوطة مرعية، فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين. . .]

الطهطاوى

شهدت مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر تجربة سياسية كانت جديدة على كل شعوب الشرق، حملت إلى هذه الشعوب تغييرات «كيفية» فى مكونات السلطة السياسية لم تعهدها هذه البلاد منذ قرون وقرون . .

فللمرة الأولى، منذ انحلال الدولة الفرعونية، يتكون جيش البلاد من عنصرها الوطنى الأصلى . . ويحرز هذا الجيش العديد من الانتصارات فى مختلف الميادين والساحات . .

وللمرة الأولى تتكون فيها أجهزة سياسية وإدارية يبرز فيها دور عنصرها الوطنى الأصلى . . فى المجالس البلدية المحلية . . و «مجلس الشورى»، و «المجلس الخصوصى»، و «المجلس العمومى»، والمجالس التى قادت العمل فى مجالات التعليم، والصحة، والأشغال العمومية . . الخ . . الخ . . وقانون «السياستنامه» الذى وضع لينظم هذه الأجهزة فى سنة ١٨٣٧م . . [(١)]

وللمرة الأولى يتم التمييز - وليس الفصل - بين السلطة السياسية وبين الدين - مع الاستفادة من تراث الحضارة الإسلامية التشريعى فى وضع القوانين الجديدة - وهذا التمييز هو الذى أدى إلى تطور هام جدا شهدته هذه التجربة، تمثل فى اشتراك سائر أبناء هذا الوطن، بصرف النظر عن أديانهم ومعتقداتهم، فى تولى المراكز واحتلال المواقع فى هذه التجربة الجديدة وأجهزتها المختلفة، مما أبرز للوجود أن هناك تجربة تبنى على أساس **«وطنى»** لا على أساس **«دينى أو طائفى»**. فدخل الشرق بهذا التطور الهام والحاسم إلى عصر النهضة، وغادر بذلك عصور التراجع، . . وكان

---

(١) د. محمد عمارة (العروبة فى العصر الحديث) ص ١٠٩ .

يجسد بذلك حقيقة هامة مؤداها أن الفكر البورجوازى والتجربة البورجوازية قد عرفت طريقها إلى ربوع الشرق الذى يناضل كى ينفلت من قيود عصر الإقطاع..[1].

ولكن هذه التجربة المتقدمة التى شهدتها مصر قد شابتها وقللت من فعاليتها وثمارها مواقف محمد على - كحاكم شرقى تقليدى فى أساليب ممارسة السلطة - المتسمة بالفردية والمغرمة بتجميع كل سلطات الأمر والنهى والحسم فى يده، وهى الأساليب التى ضخم من آثارها تلك الفجوة التى كانت بين محمد على - ذى الميول التركية - وبين العنصر الوطنى، على عكس ابنه إبراهيم وأعوانه، حتى المتمصرين منهم، الذين جاؤوا مصر صغارا وتكونوا فى أحضانها - الذى كان أكثر اعتمادا على العنصر الوطنى، وأكثر اهتماما به، وثقة فيه. .[2].

ومن هنا كان دور الفكر السياسى البورجوازى، ودور الفكر الديمقراطى الليبرالى بالذات، عظيم الأهمية وبالغ الخطورة فى دفع عجلة هذه التجربة نحو استكمال مقوماتها، والتخلص من شوائبها هذه، شوائب الحكم الفردى التى تعوق هذه التجربة عن بلوغ الأبعاد الطبيعية التى تحققت لمثيلاتها فى بلاد أخرى، وفى البلاد الأوربية بالذات . .

ولقد كان الطهطاوى هو المبشر بهذا الفكر الديمقراطى الليبرالى فى ربوع لشرق التى ألفت طويلا نمط الحكم الفردى.. بل لقد استطاع أن يضع كل أسس هذا النمط من أنماط التفكير والسلوك والممارسة السياسية بين يدى قومه، على الرغم من عدم انسجام هذا الفكر مع طابع محمد على وميوله - كحاكم شرقى فرد — وعلى الرغم من الصلات التى كانت تربط الطهطاوى بنظام حكم محمد على، كواحد من أبرز البناة فى جهاز الدولة الفكرى والتعليمى فى ذلك الحين..

قام الطهطاوى بهذا الدور الرائد فى بلاد الشرق عامة، دون أن يضطر إلى تقديم

---

(١) عن هذه الحقيقة انظر المرجع السابق ص ١٣ - ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق. ص ١٨٢، ١٨٣ .

تنازلات تشوه جوهر الفكر الديمقراطى الليبرالى، وإن يكن قد استعان على ذلك ببعض العبارات التى أرضى بها، أحيانا، ميول هؤلاء الحكام . .

وحتى ندرك أهمية هذا الفكر، والدور الذى كان ينتظره الطهطاوى له فى تغيير حياة الشرق وإطلاق طاقات الشرقيين، لا بد لنا من تخيل وضع مصر يومئذ بالنسبة لوضع بلاد أجنبية كثيرة لعب الفكر الديمقراطى ونمط حكمه الدور الحاسم فى تقدمها وتطورها، على حين ساهم انتكاس هذا الفكر عندنا فى بقائنا لصيقى عصور التخلف والجمود . .

فلقد كانت مصر علي درجة من التقدم الاقتصادى، فى العصر الذى شهد تبشير الطهطاوى بهذا الفكر الديمقراطى، لا تقل عن كثير من الدول الأوروبية، بل تفوق العديد منها . . ولكن نكسة هذا الفكر فيها، وحرمانها من التطبيق الخلاق لأسسه وأركانه، قد أبطأ بتطورها العلمى والفكرى والثقافى حينا، وجمده أو ألغاه حينا آخر، فأعان ذلك الوضع المتخلف على ارتباط البلاد بالعجلة العثمانية ونظامها المهترىء، وعلى سيادة الإقطاع كنظام اقتصادى، وتدعيم نفوذ الإقطاعيين السياسى، ففتح ذلك كله الطريق الممهد للزحف الاستعمارى، وهو العامل الذى حسم الموقف فى الشرق لصالح التخلف والجمود، حتى أصبحنا ننظر اليوم بعد قرابة قرنين من تبشير الطهطاوى بفكره الديمقراطى فى بلادنا فنجد البون شاسعا بين مستوانا الحضارى وبين مستوى شعوب وأمم كانت أدنى منا حضارة، وأقل منا تقدما فى ذلك التاريخ . .

* ففى مطلع القرن التاسع عشر كانت مصر موحدة سياسيا . . ولم تكن ألمانيا قد حققت بعد وحدتها السياسية . . ولقد أقام محمد على نحوا من أربعين مصنعا للغزل والنسج بمختلف أنحاء مصر، على حين لم يكن فى «بروسيا» - أهم مقاطعات ألمانيا - سوى مصنع واحد للنسيج قوته مكنتان فقط؟![1] .

* وفى منتصف القرن التاسع عشر كان عدد سكان فرنسا **سبعة أضعاف** سكان

---

(١) المرجع السابق. ص ٣٥، ٤٣ .

مصر، ولكن **الأسطول التجارى الفرنسى لم يزد حجم حمولته عن حجم حمولة** الأسطول التجارى المصرى، **إلا بثلاثة أضعاف!**. بل لقد كان متوسط حمولة الباخرة فى أسطول فرنسا ٣٥٠ طنا، على حين كان ذلك المتوسط فى الأسطول المصرى ١٠٠٠ طن! . . وكانت السفن البخارية فى الأسطول الفرنسى تكون ١٥٪ مقابل ٨٥٪ سفنا شراعية . . وعند إنجلترا كانت السفن البخارية فى أسطولها تكون ٢٥٪ مقابل ٧٥٪ سفنا شراعية، أما الأسطول المصرى فإن أكثر من ٦٠٪ من سفنه كانت سفنا بخارية، مقابل أقل من ٤٠٪ سفنا شراعية!! . .[1].

* ورقعة الأرض المنزرعة فى مصر زادت من ٢,٠٠٠,٠٠٠ فدانا سنة ١٨٢١م إلى ٤,١٦٠,١٦٩ فدانا فى سنة ١٨٥٢ م ثم إلى ٥,٤٢٥,٠٠٠ فدانا فى سنة ١٨٧٩م!![2].

وبعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ - سنة ١٨٨٢م - احتل الإنجليز مصر، وعندما غادروها سنة ١٩٥٦م كانت مساحة الأرض المنزرعة فيها عند نفس الرقم الذى بلغته سنة ١٨٧٩م؟! بل لقد استخدم المحراث البخارى فى مصر قبل أن يستخدم فى أوربا!! . .[3].

نعم . . شهدت مصر، فى ظل هذه التجربة، تطورا اقتصاديا مذهلا . .[4] **وشهدت كذلك تقدما تعليميا وفكريا أشرنا إلى أبرز معالمه فى (بطاقة حياة) الطهطاوى التى قدمناها.. ولكن الثغرة الأساسية والسلبية الرئيسية التى أبطأت بالتطور الفكرى والعلمى والثقافى، فأثر هذا البطء على التطور الاقتصادى، مما أفضى إلى الضعف الذى مكن الاستعمار من الإجهاز على هذا العملاق الشرقى**

---

(١) (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٩٣.

(٢) (العروبة فى العصر الحديث) ص ٤٥ و (تاريخ المسألة المصرية) ص ٣٥.

(٣) (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٩٥.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول أرقام هذا التطوير يراجع (تاريخ المسألة المصرية) ص ٣٤، ٣٥ و (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ٥٧ - ٧٥، ١٨٣ - ٢٠٠.

الذى كان قد بدأ عـصر يقظته.. إن هذه الثغـرة والسلبية قد تمثلت يومـئذ فى تخلف الفكر السياسى الديمقـراطى عن مستوى التطور المادى والاقتـصادى، ووقوف الحكم الفردى حائلا دون اكتـمال عناصر التجربة البورجـوازية المتقدمة بقسمـاتها المتعددة: الاقتصـادية، والاجتماعية، والفكرية.. فـمصر التى دخلت عصر التنوير، اقـتصاديا ـ وفكريا إلى حـد مـا ـ بقى نظام الحكم فـيـهـا أقـرب إلى نظم العـصـور الوسطى الإقطاعية.. وهذه السلبية هى التى عبر عنها «الجبرتى» عندما تحدث عن محمد على فقال: إنه «كانت له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان، **ولو وفقه الله إلى شيء من « العـدالة»، على ما فيـه من العزم والرياسـة والشهـامة والتدبيـر والمطاولة، لكان أعجوبة زمانه وفريد أقرانه!!»**[1].

وهذه «العـدالة» التى افـتقـدهـا « الجبـرتى» فى محـمـد على، ليسـت «العـدالة الاجتماعية» كما نفهم فى لغة عصرنا، بل كانت تعنى فى ذلك العصر «الحرية».. ويوضح ذلك الطهطاوى فى حديثه عن الفكر السياسى الأوربى، فيقـول: «.. **وما نسميه بالعدل.. يعبرون عنه بالحرية!..**[2]».

فهو مهم، إذا، فكر الطهطاوى فى السياسة.. وهى خطيرة إلى هذا الحد دعوته إلى نمط الديمقراطية الليبرالية سبيلا لتنظيم المجتمع المصرى خاصة، والشرق بوجه عام.. **ففى يقيننا أن الشرق لو انتصرت فـيه هذه الدعوة، فى ذلك الوقت واكتملت به عناصر التـجربة البـورجوازية، فاسـتطاع صد الغزو الاسـتعمـارى، والإفلات من التخـلف الحضارى، لـما سبقـته الأمم التى كـانت أقل منه حـضارة وتقدمـا فى ذلك الحين.. ألم يقل الطهطاوى عن «الـسودان» يومـئذ: «إنهـا أقرب للتـمدن من أقـاليم أمـريكة بكثـيـر؟!» وأن الذى تحتـاجـه كى «تتـمدن» هو «اطمـئنان النفـوس وتأليف القلوب من حكام أرباب صداقة وعفاف وعدل وإنصاف[3]»؟!**

---

(١) (العروبة فى العصر الحديث) ص ٩٩.

(٢) (المرشد الأمين) الباب الرابع. الفصل الخامس.

(٣) (مناهج الألباب) الباب الرابع. الفصل الرابع.

والآن . . ما هى القسمات الرئيسية فى الفكر السياسى الذى بشر به الطهطاوى قومه منذ أكثر من مائة عام؟؟

* * *

يتحدث الطهطاوى عن أهمية الفكر السياسى وضرورته فى بناء المجتمعات . . ويحدد أن السياسة - (البوليتيقة) - التى يريد للناس أن يتعلموها ويمارسوها ليست السياسة بمعناها الرجعى، معنى «الحيلة، والخداع، والتدبير - (التآمر) . . مما لا يليق إلا بالمملكة الجائرة[1] . . » وإنما السياسة التى يريدها هى التى عليها «مدار انتظام العالم»، وهى التى يكون الهدف منها «فهم أسرار المنافع العمومية التى تعود على الجمعية - (المجتمع) - وعلى سائر الرعية، من حسن الإدارة والسياسة والرعاية فى مقابلة ما تعطيه الرعية من الأموال والرجال للحكومة . . » - هذا فى الداخل - وأيضا «كل ما يتعلق بالدولة وأحكامه وعلائقها وروابطها» مما يدخل فى السياسة الخارجية . .

ويهاجم الطهطاوى مذهب الذين يريدون أن يكون الفكر السياسى وممارسته حكرا لطبقة أو فئة من الناس دون أبناء الشعب، ذلك المذهب الذى يرى دعاته « أن السياسة من أسرار الحكومة الملكية، لا ينبغى علمها إلا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين»[2] ويدعو إلى تعليم مبادىء السياسة لكل أبناء الشعب، فى المدن والقرى، فيقول: إنه «قد جرت العادة، فى البلاد المتمدنة، بتعليم الصبيان: القرآن «الشريف» - فى البلاد الإسلامية - وكتب الأديان - فى غيرها - قبل تعليم الصنائع . وهذا لا بأس به فى حد ذاته . **ومع ذلك فمبادىء العلوم الملكية السياسية - التى هى قوة حاكمية عمومية - وفروعها، مهملة فى الممالك والقرى بالنسبة لأبناء الأهالى، مع أن تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية، فما المانع من أن يكون فى كل «دائرة بلدية» معلم يقرأ للصبيان - بعد تمام تعليم القرآن**

---

(١) المصدر السابق . الفصل الأول .

(٢) المصدر السابق . الباب الخامس . الفصل الرابع .

الشريف، والعقائد، ومبادىء العربية ـ مبادىء الأمور السياسية والإدارية، ويوقفهم على نتائجها[1]».

فهو يدعو إلى نشر الفكر السياسى، وتعميم تعلم مبادئه فى دور التعليم التى تنتشر فى ربوع البلاد، بما فى ذلك أماكن تحفيظ القرآن فى البلديات ـ المجالس البلدية فى المدن الإقليمية ـ والقرى. . وهوما يمكن أن نسميه ديمقراطية تعليم الفكر السياسى للمواطنين. . وذلك إدراكا منه لأهميتها وضرورتها للشعب. . تلك الأهمية التى يعكسها قوله: «. . . وفى الحقيقة:

لولا السياسة ما قامت لنا دول وكان أضعفنا نهبا لأقوانا[2]!»

فمن وظائف السياسة، عند الطهطاوى، أن لا يصبح «أضعفنا نهبا لأقوانا»؟!

* * *

أما أقسام السياسة عند رفاعة فإنها خمسة:

« **الأول:** السياسة النبوية» وهى خاصة بالأنبياء والرسل «يختص الله بها من يشاء من عباده». . وتدخل فى إطار ما ندرسه تاريخيا، إذ لسنا فى المستوى الذى يجعلنا نتقمص أشخاص هؤلاء الأنبياء لنصنع الذى اختصهم به الله. .

« **الثانى** : السياسة الملوكية، وهى: حفظ الشريعة ـ (القانون) ـ على الأمة، وإحياء السنة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. . » أى السياسة العليا للدولة. .

«**الثالث:** السياسة العامة، وهى: الرياسة على الجماعات، كرياسة الأمراء على البلدان، أو على الجيوش، وترتيب أحوالهم» أى التطبيق للسياسة العليا على المصالح المختلفة والأقاليم المتعددة للدولة. .

« **الرابع:** السياسة الخاصة، وتسمى السياسة المنزلية» وهى: الصورة المصغرة

---

(١) المصدر السابق. الخاتمة. الفصل الأول.

(٢) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الرابع.

لكل من «السياسة الملوكية والسياسة العامة» عندما يكون « المنزل والأسرة» ميدان تطبيقها . .

« **الخامس**: السياسة الذاتية ، وهى : تفقد الإنسان أفعاله وأحواله وأقواله وأخلاقه وشهوته ، وزمها - (تقييدها) - بزمام عقله . . » . . .

ولقد انصبت جهود الطهطاوى التى بذلها فى حقل الفكر السياسى ، بالطبع ، على التبشير بالمفاهيم الديمقراطية الليبرالية فيا يتعلق «بالسياسة الملوكية»، أى السياسة العليا للدولة والمجتمع ، لأنها هى التى تحدد طبيعة التطبيقات التى تتم فى أنشطة الحكم وأقسامه ، ومختلف الأقاليم وأنحاء لبلاد . .

* * *

ومن القسمات البارزة للفكر السياسى الذى قدمه الطهطاوى ، وشارك وضعه موضع التطبيق ، نظرية «الفصل بين السلطات» فى الدولة ، والتمييز بين : السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية . . وهذا التمييز لم يحسم الحسم النهائى والتام إلا فى الفكر السياسى الحديث . . فقديما كان «الخليفة» أو «الوالى» - وهو حاكم «أعلى» أو حاكم «تنفيذى» - يشرّع ، ويجلس للقضاء ، وينفذ الأحكام . .

أما الطهطاوى فقد تحدث عن وجود قوتين فى المجتمع :

القوة المحكومة: أى الشعب والرعية . . وعنده أن هذه القوة لابد أن تكون «محرزة لكمال الحرية ، متمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ووجوه كسبه وتحصيل سعادته . . » .

والقوة الحاكمة: وهى التى «تسمى ، أيضا ، بالحكومة وبالملكية» وهى تشمل مصدر الحكم «المركزى» وما يتفرع عنه . وهذه القوة تنقسم إلى السلطات الثلاث ، وبتعبير الطهطاوى فإن هذا الأمر المركزى «تنبعث منه ثلاث أشعة قوية تسمى أركان الحكومة وقواها :

فالقوة الأولى: قوة تقنين القوانين وتنظيمها . .

والثانية: قوة القضاء وفصل الحكم . .

والثالثة: قوة التنفيذ للأحكام بعد حكم القضاء بها . » .

وعند الطهطاوى أن هذه القوى الثلاثة، التى «ترجع إلى قوة واحدة، هى القوة الملوكية» لا بد وأن تكون «**مشروطة بالقوانين**[1]».. أى مقيدة بالدستور وبالقانون، كما هى طبيعة النظام الديمقراطى الحديث . .

ويبدو أن تصور الطهطاوى للقوة التشريعية - «قوة تقنين القوانين وتنظيمها» - لم يكن هو تصورنا الآن للمجالس النيابية، أو على الأقل لم تكن هذه المجالس تكون وحدها عند الطهطاوى هذه القوة التشريعية . . فلقد قال الرجل عن هذه المجالس : « . . . وأما وظائف المجالس الخصوصية، ومجالس النواب، فليس من خصائصها إلا المذاكرات، والمداولات، وعمل القرارات، على ما تستقر عليه الآراء الأغلبية، وتقديم ذلك لولى الأمر[2]» . . وهو ما يشعر بأن الطهطاوى قد تصور هذه المجالس ذات «**سلطات استشارية» فقط**؟!.. والرجل قال ذلك فى (مناهج الألباب) الذى نشره سنة ١٨٦٩ م فى ظل نظام حكم الخديو إسماعيل الذى كان قد أقام فى سنة ١٨٦٦م مجلسا «يشبه البرلمان والمجلس النيابى، وهو معروف فى الأدب باسم (مجلس شورى النواب)، ويتألف من ٧٥ مندوبا، يتم اختيارهم، لمدة ٣ سنوات من قبل شيوخ القرى وأعيان القاهرة والإسكندرية ودمياط، وكان للمجلس وظائف استشارية! . . » .[3] .

فى ظل قيام هذا المجلس، ذي الطبيعة الاستشارية، كتب الطهطاوي عن الطبيعة الاستشارية « للمجالس المخصوصة ومجالس النواب» فتراجع عن إعجابه السابق بالسلطات التشريعية الحقيقية التى كان يتمتع بها مجلس النواب الفرنسى -

---

(١) المصدر السابق . الخاتمة . الفصل الأول .

(٢) المصدر السابق . الخاتمة . الفصل الأول .

(٣) (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٩٨، ١٩٩ .

(ديوان رسل العمالات) ـ وهو الإعجاب الذى تحدث عنه فى **(تخليص الإبريز)**. فكان هذا التراجع محاولة لتفادى الصدام بموقف الخديو إسماعيل!! . .

* * *

ومن قسمات الفكر السياسى عند الطهطاوى تلك القسمة التى تجلت فى جهوده الكبرى والرائدة فى إصلاح القضاء، لا على عهد الخديو إسماعيل فقط، كما قد يحسب البعض، وإنما منذ عصر محمد على . . فلقد أنشأ الرجل قسما ـ (كلية) ـ بمدرسة الألسن لدراسة الفقه الإسلامى والقوانين الأجنبية، وكان القضاة يتخرجون من هذا القسم، فأحدث بذلك تطورا هاما فى عملية تنظيم القضاء وإصلاحه وتطويره، وقبل ذلك ترجم دستور الفرنسيين وبعض قوانينهم، عندما كان بباريس، ونشرها فى (تخليص الإبريز) كما ترجم فى القانون والتشريع آثارا هامة ـ وإن تكن لم تطبع ـ مثل (روح الشرائع) لمونتسكيو، و(أصول الحقوق الطبيعية) لبرلماكى . . أما فى عصر إسماعيل فلقد أنجز، متفردا أو مع تلامذه، ترجمة القانون الفرنسى، المدنى والتجارى . . الخ . . الخ . . فوضع بذلك ثروة الفكر الأوربى فى التشريع إلى جانب تراث الحضارة الإسلامية فى هذا الميدان . . وموقف الطهطاوى ومدرسته من العلاقة بين تراثنا القومى فى التشريع وثروة أوربا فى هذا الميدان، وأيضا جهود هذه المدرسة فى هذا الحقل، من الملامح الهامة فى تراثنا الفكرى الحديث التى لا زالت بانتظار المتخصص الذى يجلوها ويوضح أبعادها ومنهجها وقيمتها لعصرنا الراهن وجهودنا الحالية فى هذا الميدان . .

فالرجل قد دعا إلى تجديد فكرنا التشريعى، لأن «الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الأقضية والأحكام على وفق معاملات العصر، بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة المتنوعة بتنوع الأخذ والإعطاء من أمم الأنام»[1] .

ودعا إلى الاستفادة من ثروة أوربا فى التشريع والتقنين، وأن لا يصدنا عن هذه الاستفادة وَهْم الذين يتوهمون تعارض هذه الثروة التشريعية مع أصول شريعتنا

---

(١) (مناهج الألباب) الخاتمة . الفصل الثانى .

الإسلامية، فعند الطهطاوى أن أوربا قد أخذت الكثير عن الشرق الإسلامى، ومما أخذته ما هو داخل فى هذا الباب، ذلك «أن الذى جاء به الإسلام من **الأصول والأحكام** هو الذى مدن بلاد الدنيا على الإطلاق. . » ومن ثم فإن العلاقة وثيقة بين ثروة أوربا التشريعية وبين **الأصول والأحكام** التى استقرت فى شريعتنا الإسلامية، وأن «من زاول علم أصول الفقه، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، **جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بأصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهى عبارة عن قواعد عقلية، تحسينا وتقبيحا، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية، وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية.. الخ.**[1]».

فالطهطاوى يحبذ الاستفادة إلى أبعد الحدود من ثروة أوربا التشريعية، وينفى وَهْم الذين يتوهمون أن الالتزام بالشريعة الإسلامية، وتراثها التشريعى، يحول دون استفادتنا من تراث الآخرين فى التشريع والتقنين. . ولكنه فى ذات الوقت يدعو إلى أن نكون نحن الذين نستفيد من هذه الثروة التشريعية الأوروبية، حتى نميز بين ما هو مفيد وضرورى وما هو غير ملائم لنا. . ففرق بين أن يترجم الطهطاوى القانون المدنى الفرنسى، ليستفيد به القضاء المصرى، وبين أن تفرض علينا القوانين الأجنبية وتطبّق «بالمحاكم القنصلية» أو «المحاكم المختلطة» مثلا. . فلقد استحسن الطهطاوى السبيل الأول، ونهض بالكثير من الجهود فى ميدانه، وعارض الثانى واستنكره عندما قال تعليقا على «المجالس التجارية المختلطة» التى قامت فى «المدن الإسلامية» «لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالى والأجانب، بقوانين فى الغالب ـ أوربية. . » علق الطهطاوى على هذا الوضع بقوله. . « .. **مع أن**

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الرابع. الفصل الخامس.

المعامـلات الفقهيـة لو انتظمت، وجرى عليهـا العمل، لما أخلت بالحقـوق، بتوفيقـها على الوقت والحـال، مما هو سهل العـمل على من وفـقه الله لذلك من ولاة الأمـور المستيقظين..» ذلك أن «من أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مسـتوعبة للأحكام التـجارية، كالشـركة، والمضاربة، والقرض، والمخـابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك[1]».

أى أن الطهطاوى قـد دعـا إلى تجـديد التـشـريع العـربى اسـتنادا إلى ركيـزتين أساسيتين:

الأولى: تراث الحضارة الإسلامية فى التشريع، بعد تطويره حتى يتفق مع العصر والظروف والملابسات.. وبتعبيره هو: «**بتوفيقه على الوقت والحال**»..

والثانية: ثروة أوربا فى التشريع، وخاصة منها تلك التى لا تخرج عن «الأصول والأحكام» التى قررتها شريعة الإسلام..

وكمـا قلنا فلقد كانت إنجازات الطهطاوى وجهود مـدرسـته فى هـذا الحـقل تطبيقـا خلاقـا وعـملاقـا لهـذا المنهج الذى حـدده هذا المفكر الكبيـر - فإلى جـانب جهودهم فى ترجمة القوانين الأوربية، وخاصة الفرنسية، نجد إبداعهم وتأليفهم الذى بعثوا به جوانب هامة من تراث الحضارة الإسلامية فى التشريع.. ويكفى أن نعلم أن من تلاميـذ الطهطاوى مـحـمـد قـدرى بك (المتـوفى سنة ١٣٠٦هـ سنة ١٨٨٨م) وهـو الـذى ألـف فى القـانـون، على الشـريعة الإسـلامـيـة، مـؤلفـات هامة، منها:

١ - (الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية).. على مذهب أبى حنيفة. وطبع سنة ١٨٨١م.

٢ - (قانون الجنايات).. وطبع سنة ١٨٦٥م.

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الثانى. الفصل الرابع.

٣ ـ (قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف) ـ فى المذهب الحنفى . . وطبع سنة ١٨٩٣م .

٤ ـ (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) . . فى المعاملات الشرعية على مذهب أبى حنيفة . . وطبع سنة ١٨٩٠م .

وهى جهود لعلها لو روجعت وقيمت التقييم الموضوعى لألقت الكثير من الأضواء على تلك القسمة من قسمات الفكر السياسى لرفاعة الطهطاوى والأثر التطبيقى لها فى ميدان التشريع والتقنين . .

* * *

حتى نفهم تصور الطهطاوى للحاكم الأعلى فى الدولة ـ وهو بالطبع يتحدث عن حاكم شرقى فى دولة شرقية ـ لابد أن نعى كيف أن مفكرين كثيرين، فى عصر الطهطاوى وقبل عصره، قد استخدموا أساليب شتى، بعضها مغلف فى شكل حكم ومواعظ، وبعضها مسوق فى صورة حكايات وأساطير، وبعضها يتخذ أساليب الحديث غير المباشر عن الموضوع . . كل ذلك لنشر الفكرة التى أرادوها، وتمهيد الجو أمامها كى تصل إلى قلب الحاكم وعقله . .

والطهطاوى نفسه عندما ترجم (مغامرات تلماك) التى ألفها القسيس «فنلون» [١٦٥١ ـ ١٧١٥م]، وكان يعمل مربيا لحفيد لويس الرابع عشر «دوق دى بورجونى»، ألفها ليربى أميره تربية سلوكية وسياسية طيبة . . إن الطهطاوى عندما ترجم هذه الرواية الأسطورية كان يمارس هذا الأسلوب فى توصيل آرائه السياسية إلى قلب الحاكم الشرقى وعقله، سالكا سبيل «فنلون» إلى قلب الأمير الفرنسى وعقله . .

وبعد هذه الملاحظة التى ستعيننا كثيرا على فهم مرامى الطهطاوى ونحن نقرأ له العديد من النصوص ـ ما هو تصوره للحاكم الأعلى فى الدولة، من حيث سلطاته، وعلاقته وعلاقة سلطاته بحكومته وجهاز دولته، وكذلك علاقته وعلاقة سلطاته بالرعية والمواطنين؟

إننا نعتقد أن تصور الطهطاوى لهذا الحاكم هو مزيج من التصور الإسلامى السنى المحافظ والتصور الذى شاع فى «الممالك الدستورية» عن هذا الحاكم، والذى تلخصه النظرية الشهيرة عن أن «الملك يملك ولا يحكم» بمعنى أنه غير مسؤول أمام الغير عن النتائج التى تفضى إليها ممارسته للسلطات العليا التى يتمتع بها..

وهذا التصور الذى نراه مزيجا من هذين المصدرين يقدمه لنا الطهطاوى فى نصوصه الكثيرة التى يقول فيها، مثلا: إن «ولى الأمر هو رئيس أمته، وصاحب النفوذ الأول فى دولته.. إنه خليفة الله فى أرضه، وإن حسابه على ربه، فليس عليه فى فعله مسئولية لأحد من رعاياه».

والطهطاوى من أنصار أن تتركز السلطة العليا فى الدولة فى يد فرد واحد - ملك مثلا - ولا يحبذ أن تكون فى يد جماعة - مجلس مثلا - ويرى فى ذلك ضمانا لسرعة البت والحسم فى الأمور، مما يسرع بإنجاز الإصلاحات، ويعتبر ذلك مزية عظمى «تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة، حيث إن إجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهى بالسرعة، لكونه منوطا بإرادة واحدة، بخلاف ما إذا نيط بإرادات متعددة، بيد كثيرين، فإنه يكون بطيئا».

وهنا يتحفظ الطهطاوى، حتى لا يفهم من كلامه أنه نصير للحكم الفردى الذى عرفته بلاد الشرق وممالكه لقرون عديدة، فيفرق بين الحاكم الأعلى الذى له اتخاذ القرار - وهو الذى يرى الصلاح فى «توحده وتفرده» - وبين الحكومة - التى يرى الصلاح فى عدم انفراد فرد بسلطاتها وسلطانها - . . . ويوضح مراده بهذا التحفظ فى قوله: «إن النفوذ الملوكى القضائى - (أى سلطة اتخاذ القرار، بلغتنا المعاصرة) - غير النفوذ الإجرائى، الذى هو مباشرة العمل، وهو من خصائص الوزراء ونظار الدواوين وغيرهم، فالنفوذ الملوكى هو الترتيب والأمر بالنفوذ الإجرائى لمن يجريه، فهو حق محترم، لا مسئولية فيه على الملك، ولا يكون لغيره، لأنه هو رئيس المملكة، وأمير الجيوش البرية والبحرية وقائدهم الأول وعليه الأمور الملكية والعسكرية، الداخلية والخارجية، وهو الذى يقلد المناصب العمومية لمن يستحق بإصدار أوامره فيها، ويرتب الوظائف، وينظم اللوائح المبينة لطرق إجراء الأصول

والقوانين، ويأمر بتنفيذ الأحكام الصادرة من ديوانه ومحاكمه ومجالسه، وله الرياسة على أمناء دين مملكته، وله الحق فى أن يمنح المناصب والألقاب العالية، وأن يعطى عنوان الشرف ونيشانه . . ».

وعلى الرغم من قول الطهطاوى: « إن حساب هذا الحاكم على ربه، فليس عليه فى فعله مسئولية لأحد من رعاياه . . » فإن الرجل لا يتصور إرادة هذا الحاكم مطلقة من أية ضوابط أو قيود، وذلك لأن تصوره له كان تصور «**الملكيات الدستورية المقيدة بالقانون**» للملك الذى يتوج عليها، فهو يقول عنه إنه «حاكم متصرف بالأصول المرعية فى مملكته» وإن «الملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين» وذلك لأن «الممالك قد تأسست لحفظ حقوق الرعايا، بالتسوية فى الأحكام، والحرية، وصيانة النفس والمال والعرض، **على موجب أحكام شرعية ـ (قانونية) ـ وأصول مضبوطة مرعية..**».

وبعد أن قرر الطهطاوى أن الحساب لهذا الحاكم الأعلى ـ حتى لو أخطأ ـ من قبل رعيته غير جائز «لأن حسابه على ربه»، عاد ليقدم نوعا من التحفظ يفهم منه أن مراده هنا هو «الحساب المادى»، من نحو «المحاكمة» أو «العزل» مثلا . . . أما «الحساب المعنوى» فإن الطهطاوى يرى قيامه، ويشير إلى أنواعه ووسائله، ويحبذ قيام مؤسساته فى الدولة . . ومن ألوان هذا «الحساب المعنوى» **تذكير** الحاكم الأعلى با لخطأ الذى وقع منه أو فيه، إذ من الواجب أن « **يذكر** للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسات، **برفق ولين**. . » وذلك حتى تتنبه «ذمته» التى يرى الطهطاوى أنها «تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر . فالذمة حكم عدل . . تحمل الملوك على العدل . . .).

ومن السبل الهامة التى يراها الطهطاوى فعالة فى «المحاسبة المعنوية» للحاكم الأعلى وجود «**رأى عام**» مستنير ويقظ ومتحرك فى المجتمع، يمارس «**اللوم العمومى**» ضد أخطاء الحاكم الأعلى وتجاوزاته، ذلك أن مما يحمل الملوك «على العدل، ويحاسبهم محاسبة معنوية: الرأى العمومى، أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك، فإن الملوك يستحيون من اللوم

العمومى، **فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والأكابر، لا يتساهل فى حكمه، ولا يهـزل فى قضائه، فـويل لمن نفرت منه القلوب، واشـتهر بين العـموم بما يفضحه من العيوب!..**».

وهناك أيضا «التاريخ» وأحكامه التى لا ترحم ولا تجامل . . يراه الطهطاوى قوة من قوى «الحساب المعنوى» للملوك والحكام . . فعنده أن «مما يحاسب الملوك أيضا على العدل والإحسان: التاريخ، أى حكاية وقائعهم لمن بعدهم[1]» . . ولذلك نبه الطهطاوى على ضرورة تعليم التاريخ «لأبناء الأمراء والسلاطين» حتى تكون عبره وعظاته قوة معنوية تجذبهم إلى جادة الصواب والالتزام بالشريعة والقانون . . فقال: «إن تعلم التاريخ أليق بأبناء الأمراء والسلاطين، إذ هو معرفة أحوال الأمم والدول والملوك الماضين، فتقف الملوك به على أحوال من مضى من الأنبياء والأصفياء وغيرهم من أرباب الرياسات والسياسات، ممن مر زمانهم وانقضى، فيعتبر القارىء لسيرتهم من تلك الأحوال، ويتحصل على ملكة التجارب من معرفة تقلبات الزمان والانتقال، فيحترز عن تجرع غصص ما نقل من المضار، وينتهز التمتع بفرص ما قيل من المنافع والمبار، **فالتاريخ عمر ثان للناظرين. فمن تعلمه فكأنما زاد فى عمره، وأحسن عاقبة أمره![2]**».

أما الصفات التى يطلبها الطهطاوى فى الحاكم الأعلى فإنها كثيرة، والآداب التى يرى وجوب تحليه بها فإنها متنوعة . . نلمس بعضها فى سياق أحاديثه التى يقول فيها، مثلا: إن «دأب الملك العاقل أن يتبصر فى العواقب، وأن يستحضر فى دائم أوقاته وفى حركاته وسكناته أن الله، سبحانه وتعالى، اختاره **لرعاية الرعية، وجعله ملكا عليهم لا مالكا لهم، وراعيا لهم يعنى ضامنا لحسن غذائهم، حسا ومعنى، لا آكلا لهم؟![3]**».

---

(١) المصدر السابق. الخاتمة. الفصل الأول.

(٢) (أنوار توفيق الجليل) الإهداء.

(٣) (مناهج الألباب) الخاتمة. الفصل الأول.

ومن مثل قوله : إن «الملك العاقل من يستطيب المتاعب فى استحصال المعونة ، ويستجلب المكاسب ليقوم أود وطنه ويتعهد شئونه ، ويجتهد فى تنمية الإيراد والمصرف إلى حد التعديل - (أى التوازن) - بسلوك أرشد طريق وأعدل سبيل ، حتى يبلغ المسعى فى التنمية درجة الموازنة والتسوية . فإذا امتلأ الحوض وسقى الروض لطف السعى ، وذاقت الرعية حلاوة الرعى ، وظهرت ضخامة مصر التجارية وفخامتها السياسية بغرس أصول المنافع الأساسية . . . [1]» .

ومن مثل قوله : إن «على ولى الأمر العادل أن يرشد بأفعاله السنية رعيته إلى سبل الرشاد السنية ، **وأن يعينهم على ذلك بالحصول على كمال الحرية...**».

وينصح الطهطاوى ولى الأمر «بحسن سياسة جميع رعاياه» . . وبأن يعامل «أحرار الناس بمحض المودة» بينما يعامل «العامة بالرغبة والرهبة . . وأن يسوس السفلة بالمخافة الصريحة!! . . [2]» . . . وأن يكون من «الذين يمزجون اللين بالخشونة للإهابة؟! [3]» .

كما ينتهز الطهطاوى فرص الحديث عن الإصلاحات السياسية التى شهدها عصره ليضع نصائحه وأفكاره إلى جانب عبارات الاستحسان ، فهو يمتدح قيام مجلس شورى النواب على عهد الخديو إسماعيل ، «حيث صار - (بهذا العمل الديمقراطى) - مستوليا **على أمة حرة الرأى، باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها**..[4]».. وعندما قام الخديو إسماعيل بإلغاء نظام المتعهدين للقرى والبلاد ، أى «الملتزمين» ، وأسس «الدوائر البلدية» كشكل من أشكال الإدارة المحلية البسيط ، فحرر بذلك - كما يقول الطهطاوى - «رقاب أهالى النواحى من شبه الاستعباد» . . عند ذكر الطهطاوى لهذا الإصلاح ينتهز الفرصة

---

(١) المصدر السابق . الباب الخامس . الفصل الأول .

(٢) المصدر السابق . الخاتمة . الفصل الرابع .

(٣) (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل السادس .

(٤) (مناهج الألباب) الباب الخامس . الفصل الرابع .

فيستطرد قائلا: «.. **فإن من ملك أحرارا طائعين كان خيرا ممن ملك عبيدا مروعين؟!..**[1]».

وهناك قضية هامة عرض لها الطهطاوى وهى موضوع «الملكية» و «الجمهورية» فى نظام الحكم، وموقفه منها، وأيهما يفضل . . . وبالطبع فإن الرجل الذى كتب ما كتب، ونشر ما نشر فى ظل نظام حكم ملكى وراثى ما كنا ننتظر منه أن يفضل أو يحبذ النظام «الجمهورى»، خصوصا وأن إقامة «الجمهورية» بمصر لم تكن مسألة واردة فى عصره ولا قضية مثارة بل لم تكن مثارة فى عديد من المجتمعات الأخرى، وإنما كانت القضية المثارة هى استبدال « الملكيات الدستورية» المقيدة بالدستور والقانون «بالملكيات المطلقة». .

وسبب آخر نعتقد أنه قد انضم إلى هذا السبب فى جعل الطهطاوى يفضل «الملكية الدستورية» على «الجمهورية»، ويرى أفضلية وراثة العرش وولاية العهد على انتخاب الحاكم الأعلى للدولة، هو الموقف المحافظ الذى وقفه والتزمه فى وعيه وفهمه وتفسيره للتراث الإسلامى. . إذ بتبرير قيام «النظام الملكى» يسلم موقف معاوية بن أبى سفيان ـ وهو صحابى! ـ من التجريح. وهو ما التزمه «أهل السنة» الذين يقف الطهطاوى مدافعا عن مذهبهم. . . أما عبارته التى حدد بها موقفه هذا فهى التى قال فيها: إنه «قد كان المنصب الملوكى فى أول الأمر فى أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الأعظم وإجماع الأمة، ولكن لما ترتب على أصل الانتخاب ما لا يحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات ـ (ولعل الإشارة هنا لحروب على ومعاوية) ـ اقتضت قاعدة: كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح، اختيار التوارث فى الأبناء وولاية العهد، على حسب أحوال كل مملكة بما تقرر عندها، فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنا لحسن انتظام الملك. .[2]».

* * *

---

(١) المصدر السابق. الخاتمة. الفصل الرابع.

(٢) المصدر السابق. الخاتمة. الفصل الأول.

والطهطاوى لا يغفل توجيه النقد الهادىء للحاكم، حتى ولو كان هذا الحاكم هو محمد على، الذى أضفى عليه الطهطاوى الكثير من نعوت التفخيم والتعظيم. . فهو ينتقد انشغاله فى مبدأ حكمه عن «العمليات النافعة. . . التى هى أهم من غيرها فى حد ذاتها، وبالنسبة للأهالى. . . لأن غيرها كان فى ذلك الوقت أهم منها - (على الأقل من وجهة نظر محمد على) - وهو إيجاد العساكر وتكثيرهم، والاحتياج إليهم لتصميم ملكه، والأمن على نفسه، وحماية الوطن، فكانت بالنسبة للباشا جميع المنافع العمومية الملكية عرضية، وتابعة للعسكرية. . . فلم يلتفت لرواج الزراعة البلدية إلا التفاتا ثانويا، ولم يصرف عليها فى أوائل حكمه إلا مقادير غير جسيمة بالنسبة إلى ما صرفه على تأسيس العسكرية. . فلهذا لم تكن تحسينات الترع والجسور فى مبادئ أحكامه متسعة، بل كان يقتصر فيها على الضرورى منها. .».

بل وينتقد الطهطاوى غياب «التخطيط الشامل» عند التفكير فى الإصلاحات الجزئية، فى فترة من فترات حكم محمد على، وفى ميدان الزراعة بالتحديد. . فلقد حدث أن «فتح - (محمد على) - كثيرا من الترع والخلجان، إلا أنها متفرقة فى جهات عديدة، ونافعة فى مواقعها، **ولم يعمل صورة رى واحدة عمومية، بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة!**».. ثم يذكر أن محمد على قد عاد بعد فترة من الحكم إلى إدخال هذا التصور الشامل والتخطيط المتكامل كعنصر أساسى فى إصلاحاته، فلقد حدث «بعد مدة طويلة» أن «اتسعت آراؤه فى العمليات، وعرف الأسباب والمسببات، واكتسب التجارب وتفرغ للعمليات النافعة![1]».

كما انتقد الطهطاوى إهمال محمد على لأمر الزراعة المصرية، واهتمامه الزائد بالبحث عن مناجم الذهب فى السودان - لفترة من الزمن - فلقد «اعتقد. . . بأنه إذا صار استخراج المعادن، على هذه الكيفية، يصير أغنى الملوك، **وانتقلت الرغبة فى**

---

(١) المصدر السابق. الباب الرابع. الفصل الثانى.

الزراعـة، التى بها غـذاء أهل مصـر، والتى هى كاللبن لرضـاعتـهم، إلى الرغبـة فى المعـادن، فصار مـطمح النظر فى «النيل» أنه وسيـلة المسيـر فيه لا سـتخـراج الذهب وجلبه، وكأنما هذا الغرض هو المقصد منه بالأصالة؟!!!».

تلك، إذًا، هى مـلامح الحـاكم الأعلى للدولة، فى الفكر السيـاسى لرفـاعـة الطهطاوى . . . حاكم فـرد، مقيـد بالقـانون، لا سبـيل إلى محـاسبـته محـاسبـة «مادية»، وإنما هناك سبل ووسائل لتقويمه تقويما معنويا . . وعليه أن يعطى الحرية لرعيته، ويسوى بينهم أمام القانون، وعليه كذلك أن يتعاطى العدل ليكسب قلوب رعيته ويحقق التقدم والتمدن لوطنه فيحوز رضاء الرأى العام، ويضمن الحكم بالثناء من محكمة التاريخ[1] . .

* * *

وقسمة أخرى من قسمات فكر الطهطاوى السياسى، تلك التى تتمثل فى حديثه عن «التمدن» . . وهو الحديث الذى نطالعه فى كثير من آثاره الفكرية، وخاصة فى (المرشد الأمين) و (مناهج الألباب) . . . وعلاقة «التمدن» بالفكر السياسى ـ كما يراها الطهطاوى ـ علاقة وثيقة، ذلك أن من «أسباب التمدن، فى الدنيا : التمسك بالشرع ـ (القانون) ـ وأيضا حرية الفكر والبحث العلمى، وحرية إبداء الرأى بالنشر والتمثيل! ، دون إضرار بالآخرين، و «بشرط عدم ما يوجب الاختلال فى **الحكومة بسلوك سبيل الوسط، بغـير تفريط ولا شطط**» وكذلك «حرية الملاحة والسياحة فى البر والبحر» . . . فعلاقة «التمدن» بالفكر السياسى، إذًا، وثيقة، لأنه ثمرة من ثمرات الحرية فى كثير من جوانبه وكثير من جوانبها . . . وذلك إلى جانب «ممارسة العلوم والمعارف، وتقديم الفلاحة والتجارة والصناعة، واستكشاف البلاد التى تعين على ذلك، واختراع الآلات والأدوات، من كل ما يسهل أو يقرب الطرق التمدنية بإيجاد الوسـائط والوسائل . . » وهى كلها أسباب وثيقة الصلة بالحرية، التى هى ركن هام من أركان السياسة والفكر السياسى . . بل إن عبارة الطهطاوى تقول : **إن «التمدن... مبناه على العدل والحرية العمومية..»**.

---

(٢) المصدر السابق . الباب الرابع . الفصل الرابع .

أما تعريف «التمدن» وأبعاده فى فكر الطهطاوى فإننا نطالعه، مركزا، فى قوله، إن «**تمدن الوطن عبارة عن تحصيل ما يلزم لأهل العمران من الأدوات اللازمة لتحسين أحوالهم، حسا ومعنى، وهو فوقانهم فى تحسين الأخلاق والعوائد، وكمال التربية، وحملهم على الميل إلى الصفات الحميدة، واستجماع الكمالات المدنية، والترقى فى الرفاهية...**».

كما يشير الطهطاوى - فى حديثه عن فوائد «التمدن» - إلى العلاقة بين انتشاره وتقدمه وبين تخلص البشرية من كثير من الآلام التى تعانى منها الآن، ورغم أن فى حديثه هذا - على ضوء واقعنا الراهن - الكثير من «المثالية»، إلا أنه دليل على ثقة مفكرنا الكبير فى الإنسان، والآمال الكبار التى علقها على تقدمه فى هذا الميدان. . . فعنده أن «فوائد التمدن كثيرة، وعليها مدار جميع العلوم المعاشية والمعادية ولذلك قال بعضهم: كلما اتسع نطاق تمدن ممالك الدنيا خفت الحروب، وقلت العداوة، وتلطفت الفتوحات، وندرت التقلبات والتغلبات، حتى تنقطع بالكلية، وينمحى الاستعباد والاسترقاق بغير حق، ويزول الفقر والمسكنة![1]» . .

وفى الحقيقة فإن ذلك حادث لا محالة فى مستقبل الإنسان، قرب هذا المستقبل أو بعد، ولكن شريطة أن تمتلك ناصية «التمدن» وثماره القوى الإنسانية صاحبة المصلحة الحقيقية فى سيادة هذه القيم الخيرة والنبيلة التى أشار إليها الطهطاوى فى هذه السطور، وأن تنتزع ثمار التقدم والتمدن من أيدى القوى المعادية لسيادة هذه القيم فى حياة الإنسان.

* * *

ونأتى الآن إلى حديث الطهطاوى عن «الحرية» . . وهو الحديث الذى يعد أنصع الأدلة وأقواها على إيمان الرجل بالفكر الديمقراطى الليبرالى، الذى كان فى عصره

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل الخامس .

أكثر أنماط الفكر السياسى عن «الحرية» تقدما، وملاءمة للقوى الصاعدة التقدمية فى المجتمع الذى عاش فيه . . .

وتعريف «الحرية» عند الطهطاوى يقول: « . . . الحرية، من حيث هى: رخصة - (أى إباحة) - العمل المباح، من دون مانع غير مباح، ولا معارض محظور».

ويزيد الرجل هذا التعريف المكثف إيضاحا وبسطا فيقول: « . . . وبالجملة، فحرية أهالى كل مملكة منحصرة فى كونهم لهم الحق فى أن يفعلوا المأذون شرعا، وأن لا يُكرهوا على فعل المحظور فى مملكتهم، فكل عضو من أعضاء جمعية المملكة يرخص له أن يتمتع بجميع مباحات المملكة، فالتضييق عليه فيما يجوز له فعله، بدون وجه مرعى، يعد حرمانا له من حقه، فمن منعه من ذلك، بدون وجه، سلب منه حق تمتعه المباح، وبهذا كان متعديا على حقوقه، ومخالفا لأحكام وطنه . . **فحقوق جميع أهالى المملكة المتمدنة ترجع إلى الحرية**، فتتصف المملكة، بالنسبة للهيئة الاجتماعية، بأنها مملكة متحصلة على حريتها، ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر، **يباح له أن ينتقل من دار إلى دار ومن جهة إلى جهة، بدون مضايقة ولا إكراه مكره، وأن يتصرف كما يشاء فى نفسه ووقته وشغله، فلا يمنعه من ذلك إلا المنع المحدود بالشرع - (القانون) - أو السياسة، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة... ومن حقوق الحرية الأهلية أن لا يجبر الإنسان أن ينفى من بلده، أو يعاقب فيها إلا بحكم شرعى أو سياسى، مطابق لأصول مملكته، وأن لا يضيق عليه فى التصرف فى ماله كما يشاء، ولا يحجر عليه إلا بأحكام بلده، وأن لا يكتم رأيه فى شىء، بشرط أن لا يخل بما يقوله أو يكتبه بقوانين بلده**»..

وغير هذا التعريف المبسوط للحرية، والذى جمعنا لبسطه وإيضاحه هذه الصياغات النظرية التى أبدعها الطهطاوى . . نجد لدى الرجل تقسيما لنواحى الحرية، وحديثا عن فروعها، يستحق أن يقف أمامه الباحث فى تأمل وإمعان . . فهو يقسمها إلى خمسة أقسام:

الأول: «**الحرية الطبيعية**: وهى التى خلقت مع الإنسان، وانطبع عليها . . كالأكل والشرب والمشى . . . مما لا ضرر فيه على الإنسان نفسه ولا على إخوانه» . .

والثانى: «**الحرية السلوكية**: التى هى حسن السلوك ومكارم الأخلاق. . . وهى الوصف اللازم لكل فرد من أفراد الجمعية ـ (المجتمع) ـ المستنتج من حكم العقل بما تقتضيه ذمة الإنسان وتطمئن إليه نفسه فى سلوكه فى نفسه وحسن أخلاقه فى معاملة غيره. . » . .

وحديث الطهطاوى عن أن «حسن السلوك ومكارم الأخلاق» أمر «مستنتج من حكم العقل»، حديث هام، كما أنه تقييم لمصدر هذه القيم يضع «الحرية السلوكية» قريبا من «الحرية الطبيعية» . . وهو تقييم يعكس تأثره بالمصادر الفكرية الأوربية . .

والثالث: «**الحرية الدينية**: وهى حرية العقيدة والرأى والمذهب، بشرط أن لا تخرج عن أصل الدين، كآراء «الأشاعرة» و «الماتريدية» فى العقائد، وآراء أرباب المذاهب المجتهدين فى الفروع . . .

ومثل ذلك حرية المذاهب السياسية، وآراء أرباب الإدارات الملكية فى إجراء أصولهم وقوانينهم وأحكامهم على مقتضى شرائع بلادهم، فإن ملوك الممالك ووزراءهم مرخصون ـ (أى أحرار) ـ فى طرق الإجراءات السياسية بأوجه مختلفة ترجع إلى مرجع واحد وهو حسن السياسة والعدل. . » .

وهذا الحديث الذى قدمه الطهطاوى عن (الحرية الدينية) يثير عندنا ملاحظتين:

(أ) فهو يشهد لما سبق أن قدمناه عن الموقف «المحافظ» الذى التزمه الطهطاوى فى فهم التراث الإسلامى العقائدى . . إذ نراه هنا يحدد نطاق (الحرية الدينية)، فى العقائد، بحدود تيارى «الأشاعرة» و «الماتريدية» وفى الفروع، أى الفقه، بحدود المذاهب الفقهية للمجتهدين، وهم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعى، وابن حنبل، ومن تبعهم أو شابههم . . وهو يعتبر ما خرج عن هذا الإطار خارجا عن «أصل الدين» . . فلا «المعتزلة» ولا «الخوارج»، ولا المذاهب الفقهية غير السنية بداخلة فى إطار الفكر الاعتقادى والفقهى الذى يبيح الطهطاوى للناس الاعتقاد به والتمذهب بمذاهبه . . . لأنه، كما سبق أن أشرنا، كان يرى فى آراء هذه التيارات «شبها وضلالات»! . .

(ب) وهو يبيح لأصحاب المذاهب السياسية الاختلاف فى «الوسائل والطرق» التى يراها كل منهم أجدر ببلوغ الوطن غاياته، وفى نفس الوقت يشترط لإباحة الحرية فى ذلك أن يتفق الجميع على الهدف والغاية، وأن يكون للجميع «مرجع واحد، وهو حسن السياسة والعدل!» . .

والرابع: «**الحرية المدنية**: وهى حقوق العباد والأهالى الموجودين فى مدينة، بعضهم على بعض. فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من أهالى المملكة تضامنت وتواطأت على أداء حقوق بعضهم لبعض، وأن كل فرد من أفرادهم ضمن للباقين أن يساعدهم على فعلهم كل شيء لا يخالف شريعة البلاد، وأن لا يعارضوه، وأن ينكروا جميعا على من يعارضه فى إجراء حريته، بشرط أن لا يتعدى حدود الأحكام. . .».

والخامس: «**الحرية السياسية**: أى الدولية ـ (نسبة إلى الدولة) ـ وهى تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية، وإجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى شيء منها، فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية».

ونحن نستطيع أن نسمى هذا القسم الخامس من أقسام الحرية، عند الطهطاوى، بالحرية الاقتصادية، كما فهمتها الديمقراطية الليبرالية فى عصر ظهورها ونموها وازدهارها. . ولقد تكون هذه الإباحة وتلك الحرية غير ملائمة لنا الآن، ونحن نسعى نحو تنظيم حياتنا الاقتصادية على أسس أكثر عدلا، ولكن الطهطاوى قد كتب كلامه هذا فى ظرف تاريخى كانت فيه الحرية الاقتصادية، بمفهوم الديمقراطية الليبرالية لها، تلعب دورا تقدميا، بل وثوريا، وخاصة بالنسبة لمجتمع كالمجتمع المصرى الذى عاش فيه الطهطاوى، عندما كانت بقايا الإقطاع، وعلاقات الإنتاج الإقطاعية الاستغلالية هى العقبة أمام انطلاق هذا المجتمع على درب التقدم الاقتصادى والاجتماعى، ومن ثم السياسى. . وعندما كان «المشروع الفردى» و«الاقتصاد الحر» ضروريا لتطوير هذا المجتمع، واستكمال دخوله فى عصر التنوير. .

ويتصل بهذا المفهوم عن « الحرية الاقتصادية» ما قاله الطهطاوى عن «الحرية» للمشروعات الفردية فى الزراعة والتجارة والصناعة، من أن **«أعظم حرية فى المملكة المتمدنة: حرية الفلاحة، والتجارة، والصناعة، فالترخيص فيها ـ (أى الإباحة والإطلاق) ـ من أصول فن الإدارة الملكية، فقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية، وأن النفوس مائلة إليها من القرون السالفة التى تقدم فيها التمدن إلى هذا العصر..»**.

وكما أشرنا من قبل فإن الطهطاوى يحرص دائما على أن تكون «السلطة» مقيدة «بالقانون» . . . وهو هنا كذلك، فى الحديث عن الحرية، يحرص على أن تكون محكومة بمراعاة مصالح الآخرين، تلك المصالح التى تنظمها القوانين وترعاها . . فالحكومة عندما تحافظ على ممارسة أقسام الحرية الخمسة هذه تكون قد «ضمنت للإنسان أن يسعد فيها، **ما دام مجتنبا لأضرار إخوانه»**..

كما يحرص الطهطاوى على أن تكون هذه القوانين التى تحكم الحرية وتنظمها «عادلة»، إذ بهذه المعانى تصبح «الحرية . . . هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك. **فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى وإسعادهم فى بلادهم، وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم..»**.

ومن الأفكار الجديرة بالاهتمام فى فكر الطهطاوى عن «الحرية» تلك التى قدمها عن تصوره لبعض جوانب العلاقة بين «الحرية» وما يمكن أن نسميه «بالالتزام» . . فحرية الإنسان تعنى ضمن ما تعني «الالتزام» إزاء وطنه ومصالحه واستقلاله، بحيث تصبح «الالتزامات» المترتبة على صون الوطن و «حريته» جزءا من حرية «الفرد»، وشرطا لها، لا قيدا عليها ولا انتقاصا منها، وكذلك الحال بالنسبة «لالتزامات» الإنسان الحر بالنسبة لحرية الأوطان الأخرى واستقلالها؟! . .

يقول الطهطاوى فى هذا المعنى المتقدم: « . . . وحيث أن الحرية منطبعة فى قلب الإنسان من أصل الفطرة، واقتضت الحكمة الإلهية عدم تحقيره وذله، وكرمته على جميع من عداه، فينبغى أن يصرف حريته فى إكرام وطنه وإخوانه ورئيس دولته . .

فإذا كـان الإنسان يكـلف بنفع وطنه فلا يعـد تكليف الحكومـة له بجهـاد الأعداء أو إعانة الحكومة على مـصارفها من التعـدى على حقوقه، فإن هـذا من واجباته لوطنه، حـيث إن العدو الذى يتـعدى بالإغـارة على بلد من البـلاد يجب على أهلهـا قتـاله وصده عنها، وما ذاك، فى الحقيقة، إلا لحمـاية الحرية... فمن محاسن حرية الأمة أنها تفرح أيضا بـحرية غيرها من الأمم، وتتـأذى من استعباد أمم الممـالك الذين لا حرية لهم...[1]».

والطهطاوى بهذه المفاهيم الشديدة النضج عن العلاقة بين حرية الفرد وحرية وطنه، وتحرر الأمة وتحرر غيرها من الأمم، لا يوفق بين «الحرية» وبين « الالتزام» فقط . . بل ويرسى قاعدة متقدمة فى العلاقات الاجتماعية والدولية أيضا . . .

* * *

أما حديث الطهطاوى عن المساواة، فإنه، كمثل حديثه عن الحرية، دليل على عمق وعيه والتزامه بالديمقراطية الليبرالية . . فالرجل لم يخطر بباله أن تكون هذه المساواة «مساواة اجتماعية واقتصادية»، كما نتحدث نحن الآن عن المضمون الحقيقى الذى يجب أن يتحقق لشعارات «المساواة»، بل لقد نفى الرجل، صراحة، أن تكون المساواة الاقتصادية والاجتماعية واردة عند الحديث، عن المساواة السياسية، وحدد بوضوح أن المراد هو التسوية بين المواطنين أمام القانون وفى إجراء الأحكام . . وهذا النوع من أنواع المساواة قد اهتمت به الثورة البورجوازية، منذ انتصرت فى فرنسا سنة ١٧٨٩م، ودخل فى إعلان حقوق الإنسان الذى صدر عن هذه الثورة فى ٢٦ من أغسطس سنة ١٧٨٩م عندما تحددت فيه حقوق الفرد التى لا تمس وهى: الحرية، والملكية، والأمن . . كما احتضنت هذا المفهوم للمساواة كل الدساتير البورجوازية التى صدرت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين . .

وإذا كانت المساواة، بمفهومها المفرغ من المحتوى الاجتماعى، لا تشبع حاجات

---

(١) المصدر السابق. الباب الرابع. الفصل السادس.

مجتمع اليوم الطامحة قواه الاجتماعية المتقدمة لبناء مجتمع ترفرف عليه أعلام العدل الاجتماعى، فإن هذا المفهوم للمساواة، كما قررته الديمقراطية الليبرالية، وكما عرضه الطهطاوى، كان يلعب دورا تقدميا فى عصره، وفى المجتمع الذى صيغت له هذه الأفكار. . بل إن من الممكن - وهذا واقع - أن نجد اليوم مجتمعات عربية عديدة لا زال فكر المساواة، بمفهومه الليبرالى، صالحا كى يؤدى فيها دورا تقدميا، على الأقل فى بعض جوانب حياة هذه المجتمعات؟! . .

والطهطاوي يجعل هذه المساواة - (التسوية) - قرينة الحرية، «وكلاهما ملازم للعدل والإحسان» . . ويتحدث عن هذه «التسوية» فيقول: «.. **وأما التسوية بين أهالي الجمعية - (المجتمع) - فهي صفة طبيعية في الإنسان، تجعله في جميع الحقوق البلدية كإخوانه**، وهى جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية، وذلك لأن جميع الناس مشتركون فى ذواتهم وصفاتهم، فكل منهم ذو عينين وأذنين ويدين وشم وذوق ولمس، وكل منهم محتاج إلى المعاش، فبهذا كانوا جميعا فى مادة الحياة الدنيا على حد سواء، ولهم حق واحد فى استعمال المواد التى تصون حياتهم، فهم مستوون فى ذلك، لا رجحان لبعضهم على بعض فى ميزان المعيشة.

ولكن هذا التساوى بينهم، إن أمعنا النظر فيه، وجدناه أمرا نسبيا، لا حقيقيا، لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم على بعض أزلا، حيث منحت البعض أوصافا جليلة لم تمنحها للبعض الآخر، فبهذا تباينوا فى الصفات المعنوية، بل وفى الصفات الطبيعية، كقوة البدن وضعفه.

ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض فى الرزق فقد جعلهم فى الأحكام مستوين، لا فرق بين الشريف والمشروف، والرئيس والمرءوس، كما أمرت به ودلت عليه سائر الكتب المنزلة على أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، فليس للتسوية معنى آخر إلا اشتراكهم فى الأحكام، بأن يكونوا فيها على حد سواء، فحيث اشتركوا واستووا فى الصفات الطبيعية فلا يمكن أن ترفع هذه التسوية من بينهم فى الأحكام الوضعية..

وكما أقام الطهطاوى علاقة وثيقة بين «**الحرية**» وبين «**الالتزام**» تجاه قضايا الوطن والأوطان الأخرى، كذلك أقام «**التزامات**» وطنية على الجماعة الصادقة حقا فى التمتع «بالمساواة» فقال: **إنه «من حيث ثبت أنهم مستوون فى الحقوق، أنتج ذلك أنهم إذا وقعوا جميعا فى خطر عام وجب على سائرهم أن يتعاونوا فى إزالة هذا الخطر، لما فى إزالته من منفعتهم العمومية، فإذا وقع لوطنهم حادث وجب عليهم أن يصرفوا النظر عن امتيازاتهم المعنوية، كأنهم مجردون عنها بالكلية، ويرجعوا إلى صفة التسوية، وينسوا كل مزية، فبهذا تكون التسوية ملازمة للحرية عند انطواء راية الحرب ولوائه..»**.

ونحن يجب أن نلحظ فى حديث الطهطاوى هذا أنه عندما تحدث عن المساواة بين الناس إزاء الخطر الذى يلم بوطنهم، فإنه قد حدد أن الامتيازات التى عليهم أن يصرفوا النظر عنها هى: «**امتيازاتهم المعنوية**».. وهذا التحديد الدقيق لا يدع مجالا لمن يُحمِّل فكر الرجل عن المساواة أكثر مما يحتمله هذا الشعار فى الفكر الديمقراطى الليبرالى عندما نأخذه على إطلاقه..

ثم يؤكد الطهطاوى، مرة أخرى، على الارتباط بين «الحقوق» وبين «الواجبات» فى ظل هذا المعنى من معانى المساواة، فيقول: إن «من البديهى أن استواء الإنسان فى حقوقه مع غيره يستلزم استواءه مع ذلك الغير فى الواجبات التى تجب للناس بعضهم على بعض، لأن التسوية فى الحقوق ملازمة للتسوية فى الواجبات.. فالواجبات دائما ملازمة للحقوق لا تنفك عنها..[1]».

وإذا كنا قد نفينا أى وهم قد يتوهمه البعض عن تضمن «الحرية» عند الطهطاوى مضامين «للحرية الاجتماعية»، فإننا ننفى كذلك - معتمدين على نصوصه القاطعة الواضحة - أن يكون الرجل نصيرا «للعنف الثورى» كوسيلة لإحداث التغيير الجذرى والشامل فى المجتمع، والانتقال به إلى مرحلة تطويرية جديدة على درب التقدم..

---

(١) المصدر السابق. الباب الرابع. الفصل السادس.

فالرجل بعد أن حدثنا عن ارتباط «التسوية بالحرية»، حدثنا عن موقفه من «الثورة» فقال: «وينضم إلى ذلك - (أي إلى الحرية، والمساواة) - صفة ثالثة: وهى محافظتهم - (أى الناس الأحرار والمتساوون) - على بقاء الهدوء والراحة العامة فى وطنهم، ومنع الاختلال الداخلى، وحسم عرق الفتنة - (الثورة) . .[1]» .

فلقد كان الرجل نصيرا للتقدم، ولكنه لم يكن نصيرا «للعنف الثورى»، وإن تكن الأفكار التى وضعها وتحدث عنها وبشر بها إنما كانت تمثل «ثورة» حقيقية بالنسبة لواقع المجتمع المصرى فى ذلك الحين . . بل إن أعمال الرجل التى نهض بها فى بناء التجربة المصرية، والفكر العربى فى القرن التاسع عشر لهى جديرة بوصف «الثورة» و «الأعمال الثورية» دون أن تكون هناك مبالغة فى هذه الأوصاف . . فهو «ثورى» إذا قصدنا أنه كان رائدا وضع لمجتمعه أهدافا وحدد لقواه الاجتماعية التقدمية يومئذ - البورجوازية الوطنية - مهاما «ثورية»، يؤدى إنجازها إلى تحقيق تغييرات جذرية فى القاعدة المادية والبناء الفوقى لهذا المجتمع . . أما إذا عنينا «العنف الثورى» فإن مفكرنا الكبير لا يدخل فى هذا الإطار . . وذلك على الرغم من حديثه المتعاطف مع الثورة الفرنسية والثوار الفرنسيين سنة ١٨٣٠م . .

* * *

تلك هى أبرز قسمات الفكر السياسى عند رفاعة الطهطاوى، صاغها نظرية متكاملة فى الفكر الديمقراطى، فعكست إيمانه العميق بالنمط الليبرالى فى الديمقراطية، وهو النمط الذى كان يلعب يومئذ - وخاصة فى مجتمع كالمجتمع المصرى - دورا تقدميا وثوريا لا تخطئه عين باحث من الباحثين .

---

(١) المصدر السابق . الباب الرابع . الفصل السادس .

الفكر الاجتماعى

[إن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد . . وإن أعظم حرية فى المملكة المتمدنة هى حرية الفلاحة والتجارة والصناعة . . . والعدل أساس الجمعية التأنسية ـ (المجتمع الإنسانى) ـ والعمران والتمدن، فهو أصل عمارة الممالك التى لا يتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع عنه، وكالصفة من صفاته . . .

وحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشرى، إلا إذا صحبها حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان . . .].

الطهطاوى

نادرة تلك الدراسات التى عرضت بجدية للفكر الاجتماعى عند رفاعة الطهطاوى . . . ولقد تراوحت أحكام الذين حاموا هذه القسمة من قسمات فكره الموسوعى بين القول بأنه كان صاحب «اتجاهات إنسانية مما تجمع عليه الأديان والمذاهب الاجتماعية لتحقيق الخير والعدل والكرامة للإنسان» على الرغم من أن فكره الاجتماعى «ينم عن اتجاه واضح نحو الاشتراكية» وذلك لأن الاشتراكية «لم تعد فى ذلك الوقت أن تكون جنينا ينمو فى الفكر الأوروبى، لم يسفر بعد عن نظرية محددة شائعة . . بل لعل رفاعه لم يسمع بهذه الكلمة»[١] .

وبين القول بأن الرجل قد عرف الاشتراكية منذ رحلته إلى باريس (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م)، وأنه عاش «سنوات يختزن أفكاره الاشتراكية فى قلبه، لكنه يمهد لها الطريق فى صبر، ويخلق التربة الصالحة لغرسها(٢)» حتى جهر بدعوة الاشتراكية فى كتابه (مناهج الألباب) سنة ١٨٦٩م .

وبين القول بأن الرجل كان «راديكاليا» يريد الإصلاح لشؤون المجتمع الاقتصادية والاجتماعية، وأنه ربما ذهب مذهب الاشتراكيين المعتدلين[٣] .

* * *

---

(١) د. حسين فوزى النجار (رفاعة الطهطاوى) سلسلة أعلام العرب (٥٣) ص ١٦٢، ١٦٣ . منشورات الدار المصرية للتأليف والترجمة . القاهرة .

(٢) د. رفعت السعيد (تاريخ الفكر الاشتراكي فى مصر) ص ٢٧ . طبعة دار الثقافة الجديدة القاهرة سنة ١٩٦٩م .

(٣) د. لويس عوض (الأهرام) ١٥/ ٣/ ١٩٦٨م . مقال عن الطهطاوى بعنوان (من الليبرالية إلى الراديكالية) .

وهذه الدراسة التى نقدمها عن الفكر الاجتماعى عند الطهطاوى لن تعنى بتقديم هذه الأحكام، ولا بالمقارنة بينها، وترجيح أحدها على الآخر، وإنما الذى يعنينا هو النظر فى مجموع النصوص التى حوت الفكر الاجتماعى للرجل، أو التى أشار فيها إلى هذا الفكر، وتقديم رؤيته هو للمسألة الاجتماعية، لا رؤية الآخرين ومواقفهم التى ربما اجتهدوا واجهدوا الحقيقة معهم حتى نسبوها إلى ذلك المفكر العملاق.

ورؤية الطهطاوى للمسألة الاجتماعية، وموقفه منها، سنجدهما ـ بعد استقراء نصوصه واجتماع أعماله الفكرية الكاملة ـ من الوضوح والحسم بحيث لا يجد الباحث ولا القارىء المهتدى بالمنهج العلمى فى البحث والنظر كبير مجال للاختلاف حول هذه الرؤية وذلك الموقف من جانب الطهطاوى حيال هذا الموضوع.

(مقاييس جديدة «للشرف»)

فى عصر الطهطاوى، وفى القرون العديدة التى سبقت عصره، كانت مقاييس الرفعة والشرف والتقدم فى المجتمع المصرى، والشرقى بوجه عام، لا تخرج عن «الحسب» المتمثل فى المال الكثير الموروث، أو المناصب المقصورة توليها على أفراد الأسرة، أو «النسب» الذى يربط «وجهاء» المجتمع بالعائلات الكبرى ذات التاريخ السياسى أو الإدارى، أو الانتساب إلى آل بيت الرسول، عليه السلام.

ولكن الطهطاوى ـ وهو صاحب «نسب شريف» ـ يرفض هذه المقايس ويعاف هذه المعايير ـ رغم اعتزازه بنسبه «الشريف» ـ ويقدم لنا العديد من الأحاديث والنصوص التى تجسد نظرته المتطورة والتقدمية لهذا الموضوع . . فهو يرى أن «الشريعة المحمدية» قد جعلت «المواهب الحميدة والفضائل المفيدة» أساسا «للشرف» علي حين كانت «العرب قبل ذلك تزعم أن الرجل الشريف الماجد هو الذى يكون كثير الآل عظيم الجاه»، وعلى ضوء هذه المعايير الجديدة يفسر الطهطاوى اعتراض

أغنياء قريش على أن يكون الرسول، الذى اصطفاه الله، هو محمد بن عبد الله، الذى لم يكن مقدما فيهم من حيث كثرة المال وعظم الجاه، فيقول: «ولذلك لما نزل القرآن على سيدنا محمد، تعجبوا فى بادية الأمر، واعترضوا نزوله عليه بما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (٣١) ﴾ (الزخرف: ٣١). . فكلامهم يتضمن قياسا منطقيا، وهو أن صاحب رسالة الله تعالى منصب شريف، والمنصب الشريف لا يليق إلا برجل شريف، والشريف من كان كثير المال والجاه، ومحمد ليس كذلك، فلا تليق رسالة الله به، فالقياس، فى حد ذاته، صادق، **إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة بتفسير «الشريف»، فكانت شبهة، حيث اشتبه عليهم منصب الدين والنبوة بمنصب الدنيا**[١]».

ولا يقصر الطهطاوى معيار «المواهب الحميدة والفضائل المفيدة» على «شرف» مناصب الدين والنبوة، بل يعتمده أيضا عندما يكون حديثه عن مناصب الدنيا وشئونها العامة، فيحدثنا كيف أن «بعض الفضلاء يزدرى أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة التى يشتريها أهلها ليصلوا بها إلى درجات العظمة والكبرياء، ليستروا بها كسلهم حتى لا يتبين للناس أنهم أرباب بطالة، والأفاضل يعدون ذلك من النذالة والسفالة، فإن فضل الكسلان يدفن معه دون أن تعود منه على نفسه أو غيره أدنى منفعة»[٢]. فيوجه بهذا الحكم إدانة شديدة وحاسمة لفئة اجتماعية كانت ذات وزن كبير فى المجتمع الذى عاش فيه.

ثم يخطو الرجل خطوة أخرى تبلغ به درجة أعلى من الحسم والوضوح، عندما يحدثنا كيف أن الفقراء هم أقرب إلى الفضائل من الأغنياء وأصحاب الأموال المترفين، وكيف أن الطبقة الوسطى هى أيضا فى مكان وسط من حيث التحلى بالفضائل والمحامد «... **فمن كان ممولا مترفا كانت (الفضائل) أصعب عليه، لكثرة**

---

(١) الطهطاوى (أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) طبعة سنة ١٢٨٥هـ. المقالة الرابعة، الباب الثانى، الفصل السابع.

(٢) الطهطاوى (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) طبعة سنة ١٢٨٦هـ. الباب الأول، الفصل الرابع.

من تحتف به وتغويه، ... فأما الفقراء فالأمر عليهم أسهل، بل هم قريبون إلى الفضائل، قادرون عليها، متمكنون من نيلها والإصابة منها، وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين»(١) فهو هنا يربط ـ ربطا مطردا ـ بين الترف وتركز الثروة وبين الانحلال والبعد عن الفضائل، ويحكم ـ ربما للمرة الأولى فى عصره ـ بأن الجماهير الغفيرة هى الموطن الحقيقى لمن يطلب الفضائل أو يبحث عن مكارم الأخلاق؟!.

ولكن هذه النزعة المتقدمة التى امتاز بها الطهطاوى فى قياسه لما يشرف به الإنسان ويمتاز لا تدل صراحة على الموقع الحقيقى لفكر الرجل من «المسألة الاجتماعية» ولا تقوم بأكثر من دور «المؤشر» الذى يشير إلى أن الرجل قد اهتم اهتماما ملحوظا «بالعمل» وقيمته، فرفع من شأنه وشأن أصحابه بالقياس إلى غيره من العوامل التى تثمر الثروة فى المجتمع.. وهو ما سيأتى عنه الحديث المفصل بعد حين.. ولكن، بعد حديثنا هذا عن ذلك «المؤشر»، لابد من نظره ـ سريعة ومركزة ـ على المجتمع الذى عاشه الرجل، والتجربة الاجتماعية التى سيطرت عليه وهو يبلور فكرة الاجتماعى، حتى نستطيع أن نعى جيدا أين يقف الرجل، وفكره الاجتماعى، من المذاهب والنظريات والتيارات التى تتقاسم الأفكار والمجتمعات فى هذا الميدان.

أبرز قسمات التجربة

أنتج الطهطاوى مؤلفاته التى حوت فكره الاجتماعى ـ وخاصة (مناهج الألباب) ـ فى أخريات حياته، أى بعد عودته من منفاه فى السودان سنة ١٨٥٤م، وفى هذه الفترة كانت التطورات الاقتصادية والسياسية، الداخلية منها والخارجية، قد أجهزت على أهم المميزات التى امتازت بها تجربة محمد على فى التنظيم الاقتصادى للمجتمع المصرى..

---

(١) المصدر السابق. الباب الأول، الفصل الأول.

١ - فبعد نجاح التحالف العثمانى الإنجليزى ضد امتداد دولة محمد على إلى أغلب بلاد المشرق العربى، ذلك النجاح الذى بدأ بإجبار الجيش المصرى على التراجع إلى داخل الحدود الجغرافية لمصر، نجحت إنجلترا فى إجبار محمد على على أن يفتح الأسواق المصرية أمام بضائعها، ويدع لتجارها حرية شراء السلع الزراعية من المصريين، وفق المعاهدة «الإنجليزية - العثمانية» - معاهدة «بالتيمان» - المعقودة سنة ١٨١٣م، وبذلك بدأ تصدع نظام احتكار الدولة، الذى أقامه محمد على، فى الميدان الاقتصادى، وهو النظام الذى يشبه رأسمالية الدولة بتعبيرنا الحديث.. فأغلقت مشاريع الدولة الصناعية أبوابها.. ونمت إلى جانب التجار الأجانب طبقة من التجار الوطنيين.. واجتذبت المشاريع الصناعية الخاصة عددا من المصريين الأغنياء، الذى هم فى الأصل والأساس من كبار ملاك الأراضى.. ومع الأيام، وبازدياد وزن هؤلاء الملاك الزراعيين الكبار تطورت النظرة القانونية والفقهية لملكية الأرض، وللعلاقة بين الدولة وبين الأرض، ولمركز هؤلاء الملاك حيال ما فى حوزتهم من الأراضى..

فبعد أن كانت الملكية التى لهؤلاء «الملاك» لا تعدو «ملكية المنفعة» - على عهد محمد على - جعلت (اللائحة السعيدية) التى أصدرها سعيد باشا فى ٥ من أغسطس سنة ١٨٥٨م لورثة هؤلاء الملاك الحق فى أن يرثوا هذه الأرض «الخراجية الميرية»، بعد أن كانت تؤول من قبل إلى بيت المال بوفاة من «كلفوا» بزراعتها والانتفاع بها.. كما أجازت لهم هذه اللائحة رهنها.. وكذلك التنازل عنها.. كما أجازت «البيع» و «الهبة» لما يحدثه هؤلاء «الملاك» فى هذه الأرض من الأشجار والمبانى والإنشاءات[١] فتدعمت بذلك طبقة كبار ملاك الأراضى، وأخذوا الحرية الكاملة فى أن يعهدوا بزراعتها إلى مستأجرين، فبرزت سافرة أساليب وأشكال الاستغلال الإقطاعية فى هذا الميدان..

ولقد تدعمت «حقوق» كبار الملاك هؤلاء بصدور (قانون المقابلة) الذى أصدره

(١) انظر البند الأول والسابع والتاسع والحادى عشر من (اللائحة السعيدية) مجلة: (الطليعة)، باب الوثائق، عدد يناير سنة ١٩٦٥م.

الخديو إسماعيل فى أغسطس سنة ١٨٧١م، وهو القانون الذى كفل للملاك الذين يدفعون هذه الضريبة الاستثنائية حقوق «الهبة والتوارث والإسقاط والوصاية وإعطاء ثمن أو بدل ما يؤخذ منها ـ (الأرض) ـ للمنافع العمومية» وكذلك حق «وقف» هذه الأرض وقفا «خيريا أو أهليا»[١].

وكانت أغلبية طبقة كبار الملاك هؤلاء من غير المصريين، فهى قد بدأت بالحاشية التركية لمحمد على، ثم جاءت الردة الرجعية التى مثلها حكم عباس باشا (١٨٤٩ ـ ١٨٥٤م)، عندما أصبح السند الاجتماعى لحكمه «ملاك الأراضى من كبار الإقطاعيين الباشوات الألبانيين والجراكسة والأتراك. . »[٢].

أى أن طبقة من كبار الملاك، تتكون أغلبيتها من الألبانيين والجراكسة والأتراك، قد تبلورت، وحققت ثراء فاحشا عندما ارتفع ما صدرته من القطن فى سنة ١٨٦٥م إلى مليونى قنطار بعد أن كان ٥ , ٠ مليون قنطار سنة ١٨٦٠م، ثم وصل إلى نفس الرقم ـ ٢ مليون قنطار ـ سنة ١٨٧٠م ـ أى حتى بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية وعودة قطن الجنوب الأمريكى إلى أسواقه ـ بل وقفز هذا الصادر المصرى من القطن إلى ثلاثة ملايين قنطار سنة ١٨٧٦م[٣].

وهذا الثراء الذى حققته هذه الطبقة جعلها تدخل برؤوس أموالها إلى ميدان التجارة والصناعة، بعد أن أجهز عباس باشا على أهم أركان نظام الاحتكار الذى أقامه محمد على، ثم «قام سعيد بإلغاء ما بقى منه، وبتصفية الجمارك الداخلية، وبإعطاء حرية تامة للتجارة. . . دون أية رقابة من جانب الحكومة»[٤]. . فشاركت هذه الطبقة التجارية ـ مع التجار الأجانب ـ فى حركة تجارية نشطة زادت وارداتها فى المدة من سنة ١٨٦٣ حتى سنة ١٨٧٥ من ٠٠٠ , ٩٩١ , ١ جنيه إلى ٠٠٠ , ٤١٠ , ٥

---

(١) المصدر السابق. نفس العدد.

(٢) لوتسكى (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٨٤. طبعة موسكو سنة ١٩٧١م.

(٣) المصدر السابق. ص ١٩١.

(٤) المصدر السابق. ص ١٩٧.

جنيـه، كـمـا زادت صـادراتهـا فى نفس المدة من ٤,٤٥٤,٠٠٠ جنيـه إلى ١٣,٨١٠,٠٠٠ جنيه؟![1].

كما اقتحمت هذه الطبقة «الزراعية ـ التجارية . . .) المجال الصناعى، فأقيمت بالبلاد «كثرة من المشاريع الصناعية الخاصة التى كانت أغلبيتها معامل صغيرة للنسيج، وورش ترميم ومعامل صب الحديد، وحلج القطن، ومعامل الألبان والجلود، وورش لتشغيل الخشب، ومصانع الملح، والطواحين البخارية . . »[2].

٢ ـ وهذه التطورات الاقتصادية التى شهدتها مصر، والتى تبلورت فى عهدى سعيد باشا (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣م) وإسماعيل باشا (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) كانت تعنى، اجتماعيا:

* أن طبقة كبار الملاك الإقطاعيين ـ وأغلبيتها غريبة قوميا وحضاريا عن مصر ـ قد أخذت تلعب دورا كبيرا فى التجارة والصناعة، إلى جانب الزراعة . . فهى تمارس أبشع أنواع الاستغلال الإقطاعى ضد الفلاح المصرى، وتستأثر بمعظم نتاج الأرض لحساب «حق التملك» الذى «قننته» لها اللوائح والقوانين، ولا تدع للفلاح سوى النزر اليسير مقابل «العمل» الذى يبذله فى الزراعة والحصاد . . كما تهضم كذلك حق العمال الحرفيين الذين يصنعون أدوات الزراعة، والعمال الصناعيين الذين بدأت آلاتهم تظهر فى الحقول.

* وليس ذلك فحسب، بل إن علاقات الإنتاج الإقطاعية هذه، وأشكال الاستغلال الإقطاعى قد أصبحت تمثل عقبات فى طريق انخراط المجتمع انخراطا كاملا فى طريق التنمية والنمو الرأسمالى، وهو الطريق الذى كان يمثل يومئذ خطوات تقدمية على درب تطور المجتمع واجتيازه عصر الإقطاع إلى عصر الرأسمالية بما

---

(١) تيودور روتشتين (تاريخ المسألة المصرية) ص ٣٥. ترجمة: عبد الحميد العبادى ومحمد بدران. طبعة القاهرة، الثالثة، سنة ١٩٥٠م.

(٢) لوتسكى (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٩٤.

تعنيه وتمثله صناعيا وحضاريا . . فلقد «دخلت مصر طريق التطور الرأسمالى دون أن تقضى بأساليب ثورية على المخلفات الكثيرة القوية الباقية من القرون الوسطى . وكان الملاك الإقطاعيون الحاملين الأساسيين للعلاقات الرأسمالية فى الزراعة، الذين كانوا يقرنون الأساليب الحديثة للاقتصاد بالأساليب القديمة للاستغلال . . » كانوا أشباه إقطاعيين، وأشباه رأسماليين فى ذات الوقت، ولقد «عرقل شيوع بقايا النظام الإقطاعى فى القرية تطور الزراعة الحقيقى، وحال دون تطور الصناعة، وكانت القرية المصرية الجائعة المستغلة من قبل المالك شبه الإقطاعى سوقا رديئة لترويج البضائع الصناعية»[١] .

* وكانت هذه الطبقة «شبه الإقطاعية شبه الرأسمالية»، والغريبة - فى الأغلب الأعم - حضاريا عن مصر والمصريين «تسعى للاحتفاظ بصلاتها مع تركيا، وتسير فى ركاب إنجلترا» و «تحتقر الثقافة الغربية[٢]» وبالذات الثقافة الفرنسية التى استفاد منها محمد على وإبراهيم باشا كثيرا . . والتى كان الطهطاوى علما عليها فى ذلك الحين .

* ولكن سبعينيات القرن التاسع عشر قد دفعت إلى مسرح الأحداث «عناصر جديدة من البورجوازية الوطنية أكثر ديمقراطية وتطورا[٣]» . . . «وكانت تتألف هذه الفئة الثانية من التجار والملاك الأحرار الذين بدؤوا يتبعون الاقتصاد الرأسمالى، وساندوا المضى فى الإصلاحات، واقتفوا أثر فرنسا[٤]» . . فكانت هذه الفئة - وعلى رأسها «الكوادر» التى تتلمذت زمن محمد على وإبراهيم باشا على الثقافة الفرنسية، كافحت من أجل فتح طريق التطور المصرى أمام نمط التطور الرأسمالى، وناضلت فى سبيل تخليص المجتمع من بقايا العلاقات الإقطاعية فى الإنتاج كى يندفع المجتمع بكل قوته وجميع طاقاته فى طريق التطور

(١) المصدر السابق . ص ١٩٥، ١٩٦ .
(٢) المصدر السابق . ص ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥ .
(٣) المصدر السابق . ص ٢٠٠ .
(٤) المصدر السابق . ص ١٨٤ .

الرأسمالى، لأن فى ذلك الاستكمال لعناصر قوة التجربة المصرية التى أخذت مسارها الطبيعى بعد أن أنهارت الاحتكارات التى أقامها محمد على. . وهذا هو الذى يفسر لنا أعمال سعيد باشا «ذى التفكير الحر والميول الغربية» وإسماعيل باشا الذى «حصل تعليمه فى فرنسا»، ولماذا كان تعاطفنا مع «الكوادر» التى تربت فى البعثات إلى فرنسا، وعلى رأسها الطهطاوى، ولماذا نفى عباس باشا، عندما تولى الحكم، الطهطاوى إلى السودان، ولماذا استدعاه سعيد بعد توليه العرش مباشرة كى يمارس دوره فى القاهرة من جديد. . .

ولكن ذلك لا يعنى أن موقف الطهطاوى وأفكاره كانت هى ذات مواقف سعيد وإسماعيل وأفكارهما، ولا أن الرجل كانت مصالحه متطابقة مع مصالحهما. . . على العكس من ذلك، فنحن نرى أنه بينما كان سعيد وإسماعيل يجسدان الكثير من ملامح الطبقة «شبه الإقطاعية شبه الرأسمالية» - وخاصة إسماعيل - **فإن الطهطاوى، رغم أنه كان من كبار الملاك، إلا أنه كان أبرز المفكرين الاجتماعيين الذى أعلنوا الحرب على بقايا العلاقات الإقطاعية فى الإنتاج الزراعى، ورمى بثقله الفكرى إلى جانب سلوك الطريق الرأسمالى فى تطور البلاد.. لقد وقف إلى جانب الفلاح ضد بشاعة استغلال المالك الكبير له.. دون أن يمس فكره من قريب أو بعيد حق هذا المالك فى التملك للأرض أيا كانت مساحتها - وهذا فارق جوهرى بينه وبين الاشتراكيين - كما وقف إلى جانب الحرية التامة لصاحب المشروع التجارى والصناعى، وطالب بتكوين الشركات، تعاونية، وفردية، ومشتركة بين الأغنياء والحكومة... وقدم فى هذا الميدان أفضل صياغة نظرية لفكر البورجوازية الوطنية التى كانت تلعب يومئذ دورا ثوريا وتقدميا وطليعيا فى حياة البلاد وتطورها..**

فى طريق التطور الرأسمالى

لم تكن القضية المطروحة على تطور المجتمع المصرى يومئذ هى: اشتراكية؟ أم رأسمالية؟ وإنما كانت قضية: التقدم فى طريق التطور الرأسمالى، بما يتطلبه ذلك

من تحطيم بقايا العلاقات الإقطاعية فى الإنتاج الزراعى، وإزاحة الطبقة الإقطاعية، المكونة من الجراكسة والألبانيين والأتراك، من على كاهل الفلاح المصرى؟ أم الإبقاء على هذه القيود والأغلال تشد المجتمع . إلى الوراء؟؟ وكان طريق التطور الرأسمالى يعنى يومئذ : تنمية التعليم ونشر العلوم، والانعطاف إلى النمط الليبرالى فى الحرية، والسعى للحصول على الدستوروإقامة مجلس الشورى النواب، وأيضا التصدى للزحف التجارى الاستعمارى على السوق الوطنى لمصر، والسعى الحثيث لتدعيم استقلال مصر عن التبعية العثمانية التى ترعى وتدعم بقايا النظام الإقطاعى القديم، وتفتح ـ عمليا ـ بضعفها وتفسخها الباب أمام الاستعمار الأوروبى .

ولذلك فإننا نطالع عند رفاعه الطهطاوى، وربما للمرة الأولى فى تاريخ الفكر المصرى والعربى، الجذور والبشائر للفكر المتقدم والمناضل ضد قيم المجتمع الإقطاعى وأنماط سلوكه، والذى يجتهد لإرساء قيم جديدة لمجتمع جديد . .

* فالتنافس الذى يمتاز به المجتمع الليبرالى، والذى هو نقيض للتواكل ـ المسمى خطأ بالتوكل ـ فى المجتمع الإقطاعى، يحبذه الطهطاوى ويدافع عنه فيقول : « . . وربما ظهر ببادىء الرأى أن التنافس رفيق الطمع وشقيق الحسد، . . مع أنه ليس فيه شىء من هاتين المثلبتين، بل بينه وبينهما بون بعيد فى الأثر والعين، إذ ليس الغرض من التنافس حصر الفضائل فى صاحبه . . . بل مجرد التقدم فى المعارف، والدخول مع الأقران فى ميدان السباق، ليبادر كل منهم بالسعى واللحاق . . [1]» وهو يعتبر الميل إلى الراحة والدعة قسمة مشتركة تجمع سكان المجتمعات البدائية ـ التى يسميها «أعضاء الجمعية الخشنية» أى غير الراقية ـ والطبقات المترفة المتبطلة . . [2] ثم يوجه النقد إلى مأثورات الفكر الإسلامى التى نشأت فى ظل مجتمع الإقطاع، ثم كرستها قيمه، وحسبتها، ظلما، على التراث

(١) الطهطاوى (المرشد الأمين للبنات والبنين) الباب الثالث، الفصل السادس . طبعة سنة ١٢٩٢هـ .
(٢) (مناهج الألباب) الباب الأول، الفصل الثانى .

الدينى، وحاولت بها إشاعة «الزهد» و «العزوف عن الحياة الدنيا»، فينكر الطهطاوى هذه المأثورات، ويشجبها، ويمجد «الغنى» وتحصيل الثروة، فيقول: «وأما قول الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

فهو يقول من يقنع بالدون، ويرضى بصفقة المغبون، وما أحسن قول بعضهم:

إن الغنى لشهاب كلما اعتكرت ... دجى الكروب جلا عنها حنادسها

لا تنفع الخمسة الأسماء محدقة ... لديك إلا إذا قدكنت سادسها؟![1]

أى أن الأسماء الخمسة، المعروفة فى الدراسات النحوية، والتى منها: «أبوك» و«أخوك» و «حموك». . الخ. . الخ. . لن تنفعك إلا إذا كان الاسم السادس متحققا لك، وهو أن تكون غنيا «ذا مال» وصاحب ثروة؟!. .

* ثم يتقدم الطهطاوى ليطالعنا بفكره واضحا ومحددا وحاسما كأكثر مايكون مفكرو الليبرالية فى عصر ثوريتها وتقدميتها، وضوحا وحسما، وذلك عندما **يدافع بحرارة عن ضرورة إطلاق الحرية للمشروع الخاص فى الزراعة والتجارة والصناعة، بل ويعتبر هذا اللون من ألوان الحرية «أعظم حرية فى المملكة».. فيقول: إن «أعظم حرية فى المملكة المتمدنة: حرية الفلاحة والتجارة والصناعة، فالترخيص ـ (أى الإباحة والحرية) ـ فيها من أصول فن الإدارة الملكية ـ (أي السياسة) ـ فقد ثبت بالأدلة والبراهين أن هذه الحرية من أعظم المنافع العمومية، وأن النفوس مائلة إليها من القرون السالفة التى تقدم فيها التمدن إلى هذا العصر[2]».**

* وعندما يتحدث الطهطاوى عن «المساواة» بين المواطنين، لا يدع لباحث مجالا للشك فى أن موقف الرجل هو موقف المفكر الليبرالى فهو علاوة على تأكيده أن

---

(١) المصدر السابق. الباب الخامس، الفصل الرابع. و «الحنادس» هى الظلمة الشديدة.

(٢) (المرشد الأمين) الباب الرابع، الفصل السادس.

هذه المساواة نسبية، لا مطلقة، ينبه إلى أن مجال هذه «المساواة» هو الموقف إزاء القانون وحيال الدستور، لا «المساواة» فى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وهو نفس الموقف الذى أرست دعائمه الثورة البورجوازية الفرنسية فى إعلان حقوق الإنسان، والذى حرصت على تأكيده كل الدساتير البورجوازية، دون أن يعنى «المساواة» بالمعنى الوارد فى ذهن الاشتراكيين، على اختلاف مدارسهم ومنطلقاتهم الفكرية.. يقول الطهطاوى: ونحن «إذ أمعنا النظر فى هذا التساوى بين المواطنين وجدناه أمرا نسبيا، لا حقيقيا، لأن الحكمة الإلهية ميزت بعضهم عن بعض أزلا، حيث منحت بعضهم أوصافا جليلة لم تمنحها للبعض الآخر، فبهذا تباينوا فى الصفات المعنوية، بل وفى الصفات الطبيعية، كقوة البدن وضعفه، **ومع أن الله تعالى فضل بعضهم على بعض فى الرزق فقد جعلهم فى الأحكام مستوين، لا فرق بين الشريف والمشروف والرئيس والمرؤوس، كما أمرت به ودلت عليه الكتب المنزلة على أنبيائه، عليهم الصلاة والسلام، فليس للتسوية معنى آخر إلا اشتراكهم فى الأحكام، بأن يكونوا فيها على حد سواء، فحيث اشتركوا واستووا فى الصفات الطبيعية فلا يمكن أن ترفع هذه التسوية من بينهم فى الأحكام الوضعية[1]».**

* وعلى درب التطوير الرأسمالى لمصر، وفى ميدان التطبيق، دعا الطهطاوى الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال إلى إقامة الشركات التى تبيع احتياجات المشاريع الاقتصادية الخاصة بالأجل، وهى الشركات التى سماها (الشركات السَّلَمية) أى التى تبيع «بالسَّلم»، أى بالأجل، كما دعا إلى إقامة البنوك المصرفية التى تقرض أصحاب هذه المشروعات، وكان يسميها (جمعية الاقتراضات العمومية)، وأخذ ينبه الأغنياء إلى أن هذا الميدان هو أولى باستثماراتهم من وجوه الإنفاق التى ألفها المجتمع الإقطاعى، من نحو «الصدقة» وبناء «سبيل» لشرب المياه إلخ. . إلخ. . فكتب يقول: «. . ومع أن هذه الخيرات تعد نوعا من

(١) المصدر السابق. نفس الباب ونفس الفصل.

المنافع العمومية، **إلا أن هناك خيرات أعم منها نفعا، وأتم وقعا، كالشركات السَّلَمية الشرعية، وجمعية الاقتراضات العمومية، فإنها نافعة كل النفع لفك المضايقات عن أرباب الاحتياجات من أهل الصناعة والزراعة، لسد خلتهم، والقيام عند الاقتضاء بقضاء حاجتهم، فإن هذه الشركات السَّلمية والجمعيات الاقتراضية من أهم الأمور، ومفرجة على الجمهور، وبها تتقدم التجارة الزراعية، وترتقى الدولة والملة - «أى الأمة» - فى المالية واللوازم الأهلية إلى أوج الفخار، ودرج الاعتبار..**[1]».

* وعندما كانت الجاليات التجارية الأوروبية تزحف على السوق المصرى، كان الطهطاوى يتحدث إلى أغنياء مصر عن التجارة بما يشبه الحديث عن المهن الشريفة بل المقدسة، تلك المهنة التى تشغل الإنسان عن الشرور والفتن!!، والتى توجه الهمم إلى «**التشبث بالأرباح**»، مما يوسع الأفق الإنسانى ويدفع الناس إلى لون جديد من الفكر يحسبون فيه حساب الأسباب والمسببات التى يؤدى حسن مراعاتها واستخدامها إلى «**اتساع رؤوس الأموال**»، كما يؤدى إلى استخدام قوة العلم وثمراته فى «**تمكين القوة الصناعية**»، وكل ذلك يفضى إلى تقدم المنافع العمومية للوطن، أى تطوير قاعدته المادية والفكرية، فيتطور سياسيا تبعا لذلك؟! نعم، يقدم الطهطاوى هذا الفكر الليبرالى التقدمى لمصر فيقول: «وحيث كانت التجارة من منابع الثروة العظيمة، فلا شك أن صاحب الاشتغال بها، الباذل همته وسعيه فيها، ذهنه مصروف إليها بالكلية، ففكره عادة ملهى عن الأفكار الباطلة التى يتسبب عنها هدم بنيان الأمة بالفتن والشرور، **ومتى كانت التجارة متسعة فى مملكة، تتصرف الهمم إلى التشبث بالأرباح الحقيقية، وتشتد الرغبات فى الأسباب والمسببات المكونة لاتساع رؤوس الأموال، وفى تمكين القوة الصناعية بالقوة العلمية، من كل ما يسهل طرق المكاسب ويحولها إلى درجات كمالية، مما يهتم به الآن بالنظر لتقديم المنافع العمومية أصالة، والمنافع السياسية تبعا**[2]».

---

(١) (مناهج الألباب) الخاتمة، الفصل الرابع.

(٢) المصدر السابق. الباب الخامس، الفصل الرابع.

* ولقد كان الطهطاوى يدرك أن التصدى للزحف التجارى الاستعمارى، وإنقاذ الضحايا المصريين من براثن المرابين الأجانب، هو أمر يحتاج إلى تخطيط وتنظيم يسبق التنفيذ، ولم يكن الرجل راغبا فى طريق التصدى لذلك بواسطة «الدولة» وحدها، كما فعل محمد على، فأدى بذلك إلى إضعاف البورجوازية المصرية مما قدم المجتمع فريسة سهلة للغزو الاقتصادى الأوروبى بعد نجاح الاستعمار فى «تفكيك» تجربته بعد سنة ١٨٤٢م. ولم يكن الطهطاوى مؤمنا بقدرة المشاريع الفردية وحدها على التصدى لهذه التحديات الاقتصادية، ومن هنا كانت دعوته للتخطيط والتنظيم، واشتراك «الأغنياء» مع «الدولة» للنهوض بالبلاد فى هذا المجال.

وحتى لا نتهم بالمبالغة فى قولنا: إن الطهطاوى قد دعا إلى التخطيط والتنظيم للحقل الاقتصادى، يحسن أن نقدم هنا إشارة تقطع بأن الرجل كان واعيا حقا بضرورة التخطيط الشامل فى مختلف المجالات، ويكفينا أن ننبه إلى انتقاده لمحمد على، عندما أنشأ العديد من المشاريع فى مجال الرى، ولكن دون أن تكون هذه المشاريع صادرة عن تصور عام متبلور فى خطة مدروسة وموحدة، يقول الطهطاوى: إن محمد على «قد فتح كثيرا من الترع والخلجان، إلا أنها متفرقة فى جهات عديدة ونافعة فى مواقعها، **ولم يعمل صورة رى واحد عمومية، بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة!..**[1]».

أما حديثه الذى ينم عن دعوته للتخطيط والتنظيم فى الاقتصاد، ودعوته لاشتراك الأغنياء مع الدولة، واشتراكهم معا فى شكل «شركات تعاونية» - أى مساهمة - فإنه يقول فيه: «ومما ينبغى: إعانة ولى الأمر على مضاعفة المحال الخيرية من أرباب جمعيات الأغنياء وأهل الميسرة، لتكثير وسائل البر والتقوى، ولتكثير المارستانات - (المستشفيات) - التى ترصد على المرضى والزمنى - (المقعدين) -

(١) المصدر السابق. الباب الرابع، الفصل الثانى.

العاجزين عن المعالجة فى بيوتهم، وكترتيب مارستانات ترصد على الأطفال الذين يلتقطونهم من الطرق، والأيتام، وعلى الشيوخ المتقدمين فى السن، والعميان، والبله والمجانين، وأرباب العاهات العاجزين. وكالمحال الخيرية: **الشركات السَّلَمية، أى المتعلقة بالبيع والشراء على سبيل السَّلَم، لتسهيل الأخذ والعطاء، وقطع دابر الربا، ولإغاثة الملهوفين من القرض بربا الفضل - (أى الزيادة) - ولإعانة المعسرين والمفلسين من التجار، المتعطلين عن الأشغال لحصول حادثة جبرية أوجبت الكساد وسوء الحال. وبالجملة: فإرصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعا، وكل ما فيه مصلحة، هى مشروعات خيرية لا تستطيع أن تقوم بها الدولة وحدها، أو إنسان مخصوص وحده، ويد الله مع الجماعة، فلا بد فى إبراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ترصد عليها الإرصادات، وترتب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستغلال، فهذه صدقات جارية من جهة شركات تعاونية يقتسمون أجرها، ويحرزون شكرها. فجمعيات فعل الخير يرصدها الواحد فى الغالب، «كالسبيل»، و «الصهريج»، و «المكتب»، فإن هذا يتجدد بمصر كثيرا، ولا يتأسس له ما به يكون الدوام والاستمرار[1]».**

فالرجل إذا كان داعية ومنظرا لفكر البورجوازية الوطنية المصرية، بل لعله - كما قدمنا - أول مفكر عربى بشر بهذا الفكر فى ربوع الشرق، وهو بذلك كان رائدا لفكر هذه الطبقة التى كانت وليدة يومئذ، ومناضلة ضد الزحف الاقتصادى الأوروبى الاستعمارى، وضد مخلفات العصور الوسطى التى كرسها ورعاها نظام الحكم العثمانى فى الشرق العربى، وضد أساليب الحكم الفردى الاستبدادى. . ومناضلة كذلك فى سبيل العلم والتعليم والاستنارة والتنوير، وتحرير المرأة، وإعطاء العمل الإنسانى تقييمه الذى يستحقه، حتى يحله المجتمع الجديد محل «الجاه» الموروث، والثروة الموروثة مع البطالة والجهل والتعطل فى المجتمع القديم. . ومن هنا كان الطهطاوى تقدميا، ورائدا متقدما على هذا الدرب الحضارى الجديد. .

---

(١) المصدر السابق. الباب الأول، الفصل الأول.

[و.. ضد بشاعة الاستغلال الإقطاعى]

وكما سبق أن قلنا، فإن هذه الجبهة التى قاد النضال فيها رفاعة الطهطاوى، من أجل فتح الطريق على مصراعيه، أمام التطوير الرأسمالى للمجتمع المصرى، إن هذه الجبهة كان لا بد لانتصار المناضلين على خطوطها من توجيه نيرانهم إلى مخلفات النظام الإقطاعى، وقيوده التى تشد المجتمع إلى العصور الوسطى وقيمها، وإلى الطبقة شبه الإقطاعية المكونة أساسا من عناصر غريبة عن العنصر الوطنى المصرى، وبالدرجة الأولى إلى بشاعة الاستغلال الذى تمارسه هذه الطبقة ضد الفلاح المصرى، ذلك الاستغلال الذى يجعل الفلاح المصرى - أغلبية الشعب - عاجزا عن أن يصبح «مشتريا» للسلع الرأسمالية، مما يضر بالصناعة الوطنية والتجارة الوطنية، وعاجزا عن أن يصبح مواطنا صالحا فى مجتمع جديد تسود فيه قيم عصر التنوير.

وعلى هذه الجبهة الفكرية نلتقى بعديد من مواقف الطهطاوى الاجتماعية، تلك التى تجسد صراعه ضد الظلم الاجتماعى الذى كان واقعا يومئذ على كاهل الفلاح، ومن هذه المواقف على سبيل المثال:

(أ) التقييم العالى للعدل:

ذلك أن الحديث عن «العدل»، كفضيلة من الفضائل الإنسانية، قد احتل مكانا ملحوظا وعاليا من فكر الطهطاوى، فهو لم يره كمجرد فضيلة من الفضائل، بل رآه أصل جميع «الفضائل الأهلية المدنية» التى لابد من توافرها للمجتمع الإنسانى المتحضر، فتحدث عن أن «الفضائل الأهلية المدنية متكاثرة بتكاثر منافع الجمعية المدنية - (أى المجتمع المدنى) - وراجعه إلى أصل واحد وهو العدل العمومى والإنصاف المشترك بين أعضاء الجمعية المستلزم جميع فضائل الجمعية. .[1]» ولذلك، فإن «من أدى واجباته، واستوفى حقه من غيره، وكان

---

(١) المصدر السابق. الباب الثانى، الفصل الأول.

دأبه ذلك، اتصف بالعدل. والعدل صفة تبعث الإنسان على الاستقامة فى أقواله وأفعاله، وأن ينتصف لنفسه ولغيره، حتى **جعله بعض الحكماء فضيلة قاعدة لجميع الفضائل، وأنه أساس الجمعية التأنسية ـ (أى المجتمع الإنسانى) ـ والعمران والتمدن،فهو أصل عمارة الممالك التى لا يتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع عنه، وكالصفة من صفاته،** وإنما يسمى باسم خاص، كالشفقة، والمروءة، والتقوى، ومحبة الوطن، وخلوص القلب، وصفاء الباطن، والكرم، وتهذيب الأخلاق، والتواضع، وما ماثل ذلك، **فهذه كلها نتائج العدل**... فقد حسنه الشرع الطبع..»[1].

(ب) الوقوف ضد أنانية الفرد:

كما أبصر الطهطاوى، وهو يتحدث عن التربية، مخاطر «الأنانية» وتركيز الاهتمام على «الذات»، مخاطر ذلك على المجتمع، فعقد فصلا فى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) جعل عنوانه (**محو محبة النفس من الأطفال فى حال صغرهم، وإزالتها عن الكبار فى حال كبرهم؟!**) وفى هذا الفصل يتحدث عن مخاطر محبة الذات إذا بلغت حد الأنانية والفردية المفرطة، فيقول، ضمن ما يقول: إن «محبة الإنسان لنفسه هو إحساس فيه يبعثه على أن يجلب جميع ما يقدر عليه لرضاها وشفاء غليلها وقضاء شهوتها، فالمتصف بهذه الصفة يجعل نفسه محبوبته وبغيته من الدنيا، ومركز دائرة مرغوبه... **فلا رغبة له فى نفع الإخوان ولا الأوطان.. فحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشرى**... وكيف ينال السعادة من خص نفسه بالمحبة، ولم يجعل لأخيه منها قدر حبة؟!.. وأما إن كان حب النفس عبارة عن اعتبارها محبة للخير لها وللإخوان، واتصافها بالفضائل وتجردها عن النقائص والرذائل، مثل أهل العدل والإحسان، والميل إلى أن تكون فى ميزان الذميمة، حيث أضيف إليه **حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان..**»[2].

(١) (المرشد الأمين) الباب الرابع، الفصل السادس.
(٢) المصدر السابق. المقدمة، الفصل الثانى.

فهو هنا يعالج انحرافا ترتكز عليه الدعاوى التى تبرر الاستغلال والظلم الاجتماعى، بصرف النظر عن طبيعة النظم وأسماء الطبقات التى تمارس هذا الاستغلال وذلك الظلم ضد جماهير البسطاء من الناس.

(جـ) العمل المنتج والعمل غير المنتج:

على أن القمة التى بلغها الطهطاوى فى نضاله ضد الاستغلال والظلم الإقطاعى للفلاح المصرى، قد تمثلت فى ذلك الفكر الاجتماعى الأصيل والعميق والمحلّق الذى قدمه الرجل فى حديثه الطويل عن العلاقة بين «العمل» و«الملكية» فى الأرض الزراعية. وكان يمثل «العمل» يومئذ: الفلاح المصرى، ويمثل «الملكية» ـ أساسا ـ تلك الطبقة من أشباه الإقطاعيين الذين يثقلون كاهل الفلاح بالظلم، ويثقلون المجتمع بالقيود التى تبطىء بسعيه إلى طريق التطور الرأسمالى..

ولا بد لدراسة موقف الطهطاوى إزاء هذه القضية من التمهيد بالحديث عن موقف الرجل من مسألتين هامتين:

١ ـ تمييز الرجل بين «العمل المنتج» و«**العمل غير المنتج**»، وتسليطه الضوء على أهمية «العمل المنتج» فى إحداث **التطور الاقتصادى** للمجتمع.

٢ ـ تمييز الرجل بين «حق الملكية» وبين «**ظلم الملاك**» واستئثارهم «بمعظم» الثمرات الناتجة من الأرض.. حيث وقف مع «حق الملكية»، وناصر التدعيم «القانونى» لهذا الحق، وأبرز الدور التقدمى لملكية الأرض الزراعية فى عصره، **فيما يتعلق بالتنمية الزراعية**، فى نفس الوقت الذى حارب فيه الظلم الاجتماعى، وطالب أن يكون «للعمل» عائد أكبر من ثمرات الأرض، لأنه هو العنصر الأساسى والأهم فى الإنتاج.. **مع ضرورة التنبيه لحقيقة يجب أن لا تغيب عن أذهاننا، وهى أن الطهطاوى قد طرق هذا البحث فى مجال الأرض الزراعية، وفى العلاقة بين «العمل الزراعى» و«الملكية الزراعية»، لأنه كان يناضل ضد طبقة أشباه الإقطاعيين الذين يعرقلون تطور المجتمع المصرى ـ أما فى ميدان التجارة**

والصناعة، أى فى ميدان الاقتصاد البورجوازى ـ وهو ما سبق لنا الحديث عنه ـ فإن الطهطاوى لم يناقش فى أى من آثاره الفكرية العلاقة بين «العمل» وبين «الملكية» لأدوات الإنتاج، لأن هذه القضية لم تكن مثارة، بل لم تكن موجودة وجودا جديا وساخنا، فلقد كانت القضية والمطلب هو الدخول بالمجتمع إلى دائرة التطور الرأسمالى، ومن ثم فلم تكن قد برزت يومئذ فى المجتمع المصرى بشاعة الاستغلال الرأسمالى التى تفتح عيون الطبقة العاملة ومفكريها الاشتراكيين على سلبيات هذا النمط من أنماط الإنتاج، وتضع على بساط البحث مهام العمل الثورى من أجل استبدال الرأسمالية وعلاقاتها فى الإنتاج بالنظام الاشتراكى الذى يحرر الطاقات الإنسانية كى تبدع وتطلق وتسود.

ففيما يتعلق بالفرق بين «العمل المنتج» و «العمل غير المنتج»، يحدثنا الطهطاوى حديثا ممتعا عن الأعداد الغفيرة التى تمتلىء بها «البيوت» فى المجتمع الإقطاعى «كخدم»، والتى هى طاقات معطلة عن «الإنتاج» الحقيقى، وعالة على «المنتجين الحقيقيين» فى البلاد . . كما يحدثنا عن أن «الموظفين» العاملين فى الدولة، مهما سمت مراتبهم، والذين لا يزاولون عملا «منتجا» هم ـ اقتصاديا ـ مثل أولئك «الخدم» غير المنتجين الذين تعطل بيوت السادة قدراتهم على الإنتاج؟! فعنده أن «خدمة المقلدين للمناصب العالية والوظائف السامية فى أى دولة من الدول، وكذلك خدمة الخدم المعتادين لسادتهم فى أى بلد كان، لا تنتج ربحا ماليا ولا قيمةمثرية للمخدوم محسوسة، يعنى لا تنتج بنفسها استغلال الأموال لمن هى منسوبة له . . . فوظائف جميع الحكام الملكية، وضباط العسكرية ـ البرية والبحرية ـ وجميع الجنود كذلك، وإن كان عليها مدار حركة الإنتاج، بل هى القوة الباعثة له فى الواقع ونفس الأمر، إلا أنها لا تسمى فى عرف المنافع العمومية بالمنتجة للأموال بنفسها وبعملها، وإن كانت لهم مرتبات سنوية جسيمة فى نظير مأمورياتهم، **فهذه المرتبات عائدة إليهم من أموال غيرهم،** ولو أن خدمتهم للحكومات فى غاية الشرف والمنفعة، ومن أشد اللزوم للأهالى، فلا تنتج ربحا يروج منه مقدار للمستقبل يساوى الصرف على خدمتهم سنة، يعنى لا تربح خدمتهم للحكومة مالا ناضا ـ

(أى بارزا) - يعطى لهم فى السنة المقبلة، **فبهذا المعنى يقال: إنهم غير منتجين، يعنى هم جهة صرف لا جهة إيراد، أى ليسوا جهة أرباح.** ويلحق بالمناصب الميرية: المناصب القضائية والدينية والعمومية.. ومثل هؤلاء أهل الآداب.. وأرباب فنون الطب.. إلخ.. إلخ..»[1].

ونحن نعتقد أن الأهمية الكبرى لحديث الطهطاوى هذا إنما تكمن فى كونه «تبشيرا» بقيم مجتمع جديد، يضع «العمل المنتج» - وفى مقدمته العمل اليدوى - فى مكان هام جدا، بل ويقدمه على «العمل الميرى»، ويجعل أصحابه أشد نفعا من غيرهم، بل ويقرر أن أصحاب المناصب الميرية السامية وتابعيهم، وكذلك رجال القضاء والدين.. الخ.. الخ... إنما يعيشون من كد وكدح اولئك الذين يبذلون جهدهم فى مراكز الإنتاج!! إنها نظرة جديدة، تعكس فلسفة جديدة، هى ثمرة لمجتمع جديد.

* * *

أما موقف الطهطاوى من حق المالك فى «ملكية» الأرض الزراعية، فهو فى نظرنا صفحة من صفحات فكره الاجتماعى التى تميزه بكل تأكيد عن المفكرين الاشتراكيين.. صحيح أن الرجل يسوق لنا حديثا ناضجا عن الدور التاريخى الذى لعبته ملكية الأرض - كعنصر من عناصر الحياة المادية للمجتمع - فى البناء السياسى والفكرى للمجتمع، فيحدثنا، مثلا عن «أن الأرض الخصبة، فى مادة الزراعة، كانت رأس مال الزارع، يستثمرها ويستولى على فائدتها، فإن الحراثين والعملة فى القرى والبلاد كانوا ملكا لمالك الأرض بالتبعية لها - (أى أقنانا) - أو أرقاء بالشراء، وكذلك المواشى والسباخ وآلات الحراثة كانت أيضا ملكا لرب الأرض، فكان العبيد والفلاحون المستعبدون يحرثون الأرض ويسوونها ويبذرونها إلى أن يحصدوها وينقلوا محصولها إلى بيت سيدهم، وكانت نظارة الفلاحة ومباشرة الزراعة منوطة بأكبر عبيد السيد أو عتقائه، ممن يستنجبه منهم، وليس لهذا المباشر،

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الأول، الفصل الثالث.

ولو معتوقا، مرتب خاص فى نظير عمله، بل معيشته فى بيت سيده كالعبد، وعليه طعمه وملبسه فى نظير الانتفاع بخدمته، فإذا جسر المعتوق وخرج من بيت سيده المتربى فيه لا يجد من يقوم بشئونه، فكانت الحرية فى تلك الأوقات مشئومة على العتقى وأمثالهم . . . وأما الصناعة فكانت أيضا قاصرة على الأمور اللزومية، وموكولة لتشغيل الأرقات[1] . . » .

ونحن نعتقد أن الطهطاوي قد استفاد من حديثه هذا عن المجتمع العبودى وعن «القنانة» فى الإنتاج الزراعى بمصادر الفكر الاشتراكى الأوروبى فى عصره، لاظنا منا ولا تخمينا، وإنما بدليل أن الرجل يقدم لهذا الحديث بقوله : لقد «استبان من كلام المؤرخين والمخططين للبلاد . . . » ثم يسوق هذا الحديث الذى يصور المرحلة التى أصبحت فيها أشكال الملكية هذه ناضحة بكل هذا الظلم الاجتماعى[2] . .

وعندما يتحدث الطهطاوى عن تاريخ ملكية الأرض فى مصر، ودور هذه الملكية فى «البناء الفوقى» للمجتمع، يقول، ضمن ما يقول، عن النظام الطبقى فى مصر القديمة : لقد «كانت مصر منقسمة إلى عمالات - (ولايات) - على كل عمالة حاكم، وأراضيها مملوكة لثلاث طوائف، منقسمة بينهم : قسم للملك، وقسم لأمناء الدين، وقسم للعساكر المحاربين، وأما بواقى الطوائف فكانت معايشهم من أعمالهم وصنائعهم. **فهذا التقسيم قوى شوكة أمناء الدين، وجعلهم مختصين بممارسة العلوم، وبتقنين القوانين الملكية، وبنفوذ الكلمة فى الحكومة.. والظاهر أن إقطاع الأراضى للمحاربين كانت سببا فى كثرة أموالهم ورفاهيتهم، فترتب عليها**

---

(١) المصدر السابق . الباب الثانى . الفصل الثانى .

(٢) ونحن كذلك لا نستبعد وجود تأثيرات فكرية لأتباع «سان سيمون» الذين هاجروا لمصر فى عهد محمد على، تأثيرات فكرية لهم على الطهطاوى . . فلقد التقت البعثة التى جاءت منهم إلى مصر (١٨٣٣ - ١٨٣٦م) بالطهطاوى، الذى كان يجتمع بهم فى عدة لجان رسمية، والذى كان «المصرى الوحيد، فى ذلك الوقت، المتمكن من الثقافة الفرنسية» . انظر أخبار هذه البعثة، وأخبار اجتماع الطهطاوى بها فى [لمحة تاريخية عن حياة ومؤلفات الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى] ص ٩٣ و [أتباع سان سيمون - فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر] ص ١٠٠ وما بعدها .

فيما بعد فتور همتهم فى الحروب، وترتب على ذلك أيضا، بتداول الأزمان، عدم القدرة على مقاومة من كان يهجم على مصر من الأمم!![1]».

ولكن رفاعة الطهطاوى، الذى كان يملك شخصيا وهو يكتب هذا الكلام ١,٦٠٠ فدانا[2]، والذى لم يوجه أى انتقاد إلى مبدأ تملك الأرض الزراعية، ولا مساحة ما يتملك منها، قد اهتم بأن يحدثنا عن «الدور التقدمى» الذى تلعبه «الملكية للأرض» **فى عملية التنمية الزراعية،** وكيف تمثل حالة التملك للأرض، والتنافس فى ذلك «.. حالة تقدم للهيئة الاجتماعية، محتاج إليها جميع أعضاء الجمعية» وذلك لأن الرجل لم يكن يتحدث حديثا نظريا عاما ومجردا، بقدر ما كانت تجربة المجتمع المصرى أمام ناظريه وفى خلفيته الفكرية، وتجربة المجتمع المصرى يومئذ كانت تبرر دور «الملكية»، سواء أكانت ملكية «منفعة» أم ملكية «رقبة» فى حركة استصلاح الأراضى الواسعة التى شهدتها مصر يومئذ، والتى لم تشهد مثيلا لها فى كل تاريخها الحديث..

ففى سنة ١٨٢١م كانت مساحة الأرض المزروعة فى مصر ٢,٠٠٠,٠٠٠ فدانا، زادت فى سنة ١٨٤٠م إلى ٣,٨٥٦,٢٢٦ فدانا، زادت فى سنة ١٨٥٢م ٤,١٦٠,١٦٩ فدانا[3]، حتى إذا كانت سنة ١٨٧٩م نجد هذه المساحة قد بلغت ٥,٤٢٥,٠٠٠ فدانا[4]؟!!

ولقد تمت هذه التنمية ذات الأرقام القياسية للرقعة الزراعية المصرية بواسطة «تكليف» الدولة للأفراد باستصلاح الأراضى «البعيدة» عن العمران والتى سميت

---

(١) المصدر السابق. الباب الثالث، الفصل الأول.

(٢) يقول على مبارك فى (الخطط التوفيقية) ج١٣ ص ٥٦: إن محمد على أنعم على رفاعة بـ ٢٥٠ فدانا فى «طهطا»، وأنعم عليه سعيد بـ ٢٠٠ فدانا، وإسماعيل بـ ٢٥٠ فدانا واشترى هو ٩٠٠ فدانا «فبلغ جميع ما ملكه من الأطيان حين وفاته ١,٦٠٠ فدانا، غير ما اشتراه من العقارات العديدة فى بلده وفى القاهرة» الخطط الجديدة.

(٣) محمد عمارة (العروبة فى العصر الحديث) ص ٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٤) (تاريخ المسألة المصرية) ص ٣٥.

«أبعاديات» - إلخ . . إلخ . . ولم تتم بواسطة جهاز الدولة . . والأمر المؤكد أن هذه التجربة كانت فى ذهن الطهطاوى عندما تحدث عن الدور التقدمى الذى تلعبه «ملكية الأرض» **فيما يتعلق بالتنمية لمساحة الرقعة المزروعة**، وهو الحديث الذى يقول فيه : إنه «فى أثناء تقدم الأهالى بهذه المثابة **يتجدد عندهم حق من حقوق المدنية، وهو مبدأ حق التملك للأراضى وحوزها بوضع اليد عليها بإحياء مواتها، فمن هذا الوقت يصير للأرض قيمة فى حد ذاتها، زائدة عن قيمة العمل، فالشاغل للأرض يختص بها دون أن يستولى عليها بالعمل، بالتملك، وفى هذه الحالة يضطر الأهالى إلى الاستيلاء على جميع الأراضى القليلة المحصول، التى كانت قبل ذلك عديمة الرغبة فيها، فيصير صرف الهمة فى إصلاحها بالحراثة، ثم لا يكتفى الأهالى بذلك، بل ربما تدعو الضرورات إلى إصلاح الأراضى العقيمة المجدبة وتقويم أودها.. بل كل من استولى على أرض بهذه الحالة أجهد نفسه فى إصلاحها..**».

والطهطاوى لا يغفل الجانب السلبى لهذه العملية فيعترف بما يترتب على حيازة الأرض وتملكها ، فيقول : «فحينئذ : كل فرد من أفراد الجمعية محترف بحرفة الفلاحة والعمل فيها ، ومضطر لأن يؤجر نفسه للحرث والغرس ليتعيش بحرفته ، يدخل عند مالك الأرض بوصف «أجير عامل» ويكلف نفسه أن يصرف جميع أوقاته فى خدمة الأرض بدون راحة إلا بقدر المسافات الضرورية لأكله وشربه ونومه وعبادته ، ونحو ذلك!» .

ولكنه يعود ليقيم هذه العملية ذات الوجهين : وجهة التملك الذى يحرزه البعض ، والعمل المأجور المضنى للأغلبية ، فيبرز الحصيلة الإيجابية لكل هذه العملية قائلا : «فبهذا تزداد نتائج الزراعة . . . وذلك أن كلا من العملة (العمال) وأصحاب الأملاك يجتهد فى البحث عن الوسائل والوسائط المقربة للعمل ، المسهلة له ، المقللة لأوقاته . ويصير الاجتهاد فى ذلك بحيث ما يعمله العامل فى يوم يمكنه أن يعمل أضعافه فى اليوم الواحد ثلاث مرات أو أربعا . . . وكذلك يقف على خصائص ما يستعين به من الآلات العصرية المسهلة لصنعته ، كالهواء والماء

والبخار . . فبهذه الطرق والوسائل ينطبع فى مرآة عقول الأمة المتعيشة من الفلاحة، فلا تزال تتجدد المنافع العمومية بالتدريج، وتأخذ فى الزيادة بدون نهاية، وبهذه المنافع الأهلية تكثر أموال الرعية وسعادتها التعيشية[1]».

ونحن نعتقد أن «الحل الاشتراكى» للمسألة الزراعية لو كان واردا فى فكر الطهطاوى لما قيم «ملكية الأرض» هذا التقييم . . وهذا الحل لم يكن واردا فى فكر الرجل، لأنه لم يكن واردا فى مجتمعه، إذ كانت الآمال معلقة، فى تطوير هذا المجتمع، على تخليصه من قيود علاقات الإنتاج الإقطاعية، وفتح الباب على مصراعيه للمشروع الرأسمالى فى مختلف فروع الاقتصاد المصرى فى ذلك الحين . . ولقد تمثل موقف الطهطاوى الفكرى إزاء هذا الهدف، فيما يتعلق بالأرض وعلاقات الإنتاج السائدة فيها ـ كما سبق أن أشرنا ـ فى حملته على الظلم والاستغلال الذى يمارسه «الملاك» شبه الإقطاعيين ضد «الفلاح» العامل فى هذه الأرض، فكانت قمة فكره الاجتماعى عندما ناقش ثمرة الأرض الزراعية : من أين هى؟ من عنصر «الملكية»، فتكون للمالك؟ أم من عنصر «العمل»، فتكون للفلاح؟؟

ماذا للملكية؟ وماذا للعمل؟؟

فى حديث الطهطاوى عن علاقات الإنتاج فى مجال الزراعة، وعن مركز كل من «العمل»، «الملكية» للأرض و «رأس المال» الذى ينفق منه مالك الأرض على الزراعة . . فى حديثه عن هذه الأشياء نلمح **«آثار الفكر الاشتراكى»**، وإن كنا لا نجد **«الموقف الاشتراكى»**، خصوصا فيما يتعلق بالأمر الجوهرى، وهو الموقف من الملكية : هل هى للفرد المالك؟ أم لمجموع الفلاحين؟؟ . .

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الأول، الفصل الثانى. (وحديث الطهطاوى عن استخدام الآلات العصرية فى الزراعة ليس من آثار قراءاته عن المجتمعات الأوروبية، فلقد كانت مزارع كبار الملاك المصريين تستخدم الآلات الحديثة فى عصره، بل لقد سبق كبار الملاك فى مصر أقرانهم فى أوروبا باستخدام المحراث البخارى! . انظر (تاريخ الأقطار العربية الحديث ـ ص ١٩٥).

فعندما يتحدث الطهطاوى عن «قوى الإنتاج» فى مجال الزراعة، يقول: «قال بعضهم».. مما يؤكد أن له فى هذا المجال قراءات، وهو يسمى «قوى الإنتاج» هنا: «القوة المحصلة»، ويقول: إن «القوة المحصلة للثروة عبارة عن شيئين: سعى الإنسان، وموضوعة الأرض» وفى موضع آخر يضيف: أدوات الإنتاج، كالآلات اللازمة للفلاح و «التى تستدعيها حاجة الفلاحة، كالحدادة والنجارة وجميع صنائع أهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة[1]».

وفى كل المواطن التى عرض فيها الطهطاوى للحديث عن «العمل» و «الأرض» و«خصوبتها» و«تملكها» نجد انحيازه الصريح إلى صف «العمل» و«العاملين»، **لكن ليس بالمستوى الذى يتميز به المفكرون الاشتراكيون، عندما يرون أن «العمل» هو العنصر «الوحيد» الذى يجب أن تعود لأصحابه «كل» الثمرات، وإنما على أساس أن «العمل» هو العنصر «الأول والأساس» الذى يجب أن تعود لأصحابه «معظم» الثمرات.. فهو موقف تقدمى، بل وثورى، إذا ا قيس بعصره ومجتمعه، وإن لم يكن هو الموقف الاشتراكى، لبقاء صاحبه بعيدا عن مس حق التملك بالنسبة لكبار الملاك الذين لا يعملون فيما يملكون..**

يقول الطهطاوى فى صفحات كثيرة تمثل بالنسبة له ولنا تراثا مشرقا فى الفكر الاجتماعى التقدمى: إنه «إذا نظر فى الهيئة الاجتماعية وجد أن الأرض فى جميع الأزمان على طبيعتها، وإنما اختلفت الأطوار الحاصلة.. مما يخترعه الإنسان بواسطة توسيع دائرة العلوم والفنون، فيجعل الإنسان ما لا يمكن تحويله بطبيعته فى طرز آخر..[2]».

وفى مكان آخر يعرض للقضية، فيبسط حجج المختلفين حولها، ويسمى أصحاب الموقف التقدمى: (أهل الفلاحة)؟؟ وينتصر لرأيهم ويقف إلى جانبهم، فيقول: إن «للأمور المعاشية فى الظاهر جهتان: جهة فاعلة، وجهة انفعالية، أى

---

(١) المصدر السابق. الباب الخامس، الفصل الرابع، والباب الأول، الفصل الثانى.

(٢) المصدر السابق. الباب الخامس، الفصل الرابع.

محلية، والأول هو : الأشغال، والثانى هو : الأراضى الزراعية. ثم اختلف . . **هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الأرض؟ وإنما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له إلا بتطبيقه على الفلاحة؟؟ أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفادة، وأنه هو الأصل الأول للملة والأمة؟** يعنى أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون إليه لمنفعتهم من الأرض أو لراحة المعيشة **فالفضل للعمل، وأما فضل الأرض فهو ثانوى تبعى؟؟.. وهذا هو الذى يعتمده أهل الفلاحة، ويستدلون على ذلك بأنه لا يمكن إيجاد الخصب فى الأرض إلا بدوام الشغل** واستمرار العمل، وإلا لبقيت مجدبة إذا انقطع الشغل عنها، **فإن الشغل يعطى قيمة لجميع الأشياء التى ليست متقومة بدونه،** كالأشياء المباحة التى لا تباع ولا تشترى، مما لو خلّيت ونفسها لا تساوى شيئا .

مثلا: الماء والهواء، أصلا لمنافع حياة الإنسان، ولا يدخلان فى الثروة والسعادة، ولا فى الملكية المعدة، لأن هذين العنصرين اقتضت الحكمة الإلهية الإكثار.منها فى جميع المحال، وأتيح لكل إنسان التمتع بهما، **فهما، فى حد ذاتهما، على العموم، ليسا من الأملاك المتقومة، وإن عظمت فائدتهما، ولا يزيد فى منفعتهما النسبية إلا العمل والشغل، يعنى أن جلبهما إذا احتاج للعمل كان له قيمة بقدرالعمل فقط، لأن الظمآن إذا احتاج إلى من يجلب له الماء فى إناء كان الماء المجلوب لسد خلة العطش مقوما عند جلبه إليه، دون قيمته فى النهر... وإن كان الإنسان فى بيته واحتاج إلى استنشاق الهواء فالعمل الذى يكون به فتح المنافذ كالأبواب والطاقات والشبابيك يجعل له قيمة لم تكن له من قبل ذلك...** فما يصرفه الإنسان لتحصيل المباح من الماء والهواء إنما هو قيمة العامل وأجرة الخدمة . . . **فالمدار على العمل فى الرواج...»**.

وبعد أن يعرض الطهطاوى رأى الفريقين، باسطا، بشكل ملحوظ، رأى (أهل الفلاحة) يتخذ موقفا يعلى من قدر (العمل) وقيمته فوق قدر «الأرض» وقيمة «خصوبتها»، ولكن مع الاعتراف بقيمة «للأرض وخصوبتها» مضافة إلى قيمة «العمل». . فيقول: « . . وفى الحقيقة: جميع هذه الأعمال لا يتمكن الإنسان من

الانتفاع بها حق الانتفاع إلا بوجود الأرض الخصبة أو القابلة للخصوبة بالصناعة التى هى محل العمل.

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا إلا وجدت به آثار منتجع

فالأرض المخصبة فضلها: إنما هو وجود خاصية الخصب، الذى هو قبول الإنتاج والإثمار، وهذه الخاصية بالنسبة لذات الأرض غير محسوسة، بل هى عبارة عن الاستعداد والقبول لاستخراج المحصولات منها بالعمل، فهى فى أول أمرها، وقبل إصلاحها، تحتاج كغيرها من الأشياء الطبيعية إلى قوة إرادة واختيار صادرة عن عقل وتمييز ممن يريد أن يتعاهدها بالعمل ويصلحها... **فميسرة الزارع،** أى صاحب الزرع، واقتداره على البذر والأجرة ثروة له، **فهى منبع الإيراد، بعد الشغل،** والشغل، وهو **العمل، منبع الإيراد قبل تحصيل البذر وأجرة الحارث**.. وهذا ينتج: أن **منبع السعادة الأولى هو العمل** والكد ومزاولة الخدمة، ومع أن كد العمل مصدر السعادة الأصلى، فهو أيضا يعين صاحب الميسرة على تكثير ميسرته، بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة أزيد مما تساعده خصوبة الأرض عليه. **يعنى لو زرعنا أرضا خصبة، وميزنا ما يمكن أن ينسب من إيرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه، وفرزنا كلا على حدته، وجدنا العمل أقوى من محصول الخصوبة**(١)» «فالأعمال هى أسباب السعادة والثروة، ومنبع الأموال والغنى، **فالأرض الزراعية إنما هى مورد للأعمال مساعد،** وإن الأرض المخصبة بدون العمل **لا تنتج شيئا، والأرض المجدبة بكثرة العمل تخصب وتنتج النتائج الجمة**(٢)».

وبعد هذا العرض النظرى الذى قدم فيه الطهطاوى آراء الفريقين المتصارعين، وبعد أن اتخذ فيه موقفا، يميل بشكل ملحوظ، إلى جانب «العمل» و «العاملين».. بعد ذلك يتناول الطهطاوى تلك الأوضاع الجائرة التى كانت عليها حال الأرض والفلاح بمصر فى ذلك الحين.. يتناول الطهطاوى تلك الحال، فيدافع عن

---

(١) المصدر السابق. الباب الأول، الفصل الثانى.
(٢) المصدر السابق. الباب الأول، الفصل الرابع.

«الفلاح» ويطلب له نصيبا من محصول الأرض أكثر من ذلك الذى يسمح له به المالك، بل ويطلب أن يكون لهذا «الفلاح» أغلب ما تثمر الأرض من محصولات.. وهو يناقش فى هذا الصدد قضية «العمالة الزراعية»، وزيادة «العرض» فيها عن «الطلب»، وأثر ذلك فى تدهور الأجور التى ينالها أهل الفلاحة،.. يتناول الطهطاوى هذه الحال، ويتخذ هذا الموقف عندما يقول: «.. ثم **إن المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية، المجتنى لفوائد هذه الإصلاحات الفلاحية ـ الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوة الآلية ـ والمحتكر لمحصولاتها الإيرادية، إما هم طائفة الملاك،** فهم، من دون أهل الحرفة الزراعية، هم المتمتعون بأعظم مزية.. حتى لا يكاد يكون لغيرهم شىء من محصولاتها له وقع، فلا يعطون للأهالى إلا بقدر الخدمة والعمل، وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم، فى مقابل المشقة. **يعنى أن الملاك، فى العادة، تتمتع بالمتحصل من العمل،** فما يصل إلى العمال فى نظير عملهم فى المزارع، أو إلى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها، هو شىء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى الملاك، فإن المالك يستوفى لنفسه أكثر محصول الأرض، فإنه بعد تصفية حساب مصاريف الزراعة وجميع كُلفها، يأخذ محصولها بتمامه، بوصف إيراد للأرض وعلف للمواشى وأجرة للآلات، ولا يعطى لأرباب الأعمال والأشغال منها إلا قدرا يسيرا، ولا ينظر إلى كون بعض هؤلاء العمال هو الذى حسّن الزراعة بشغله، واخترع لها طرائق منتجة، واستكشف استكشافات عظيمة بتنمية الزراعة وتكثير أشغالها. **فإن حق التمليك ووضع اليد على المزارع سوغ للملاك ولواضعى اليد أن يتصرفوا فى عمليات أملاكهم التصرف التام، وأن يعطوا للعمال بقدر ما يظنون أنه من لياقتهم، ويعتقد المالكون أنهم أرباب استحقاق عظيم بسبب التملك، وأنهم هم الأولى بالسعادة والغنى مما يتحصل من عمليات الزراعة، وأن من عداهم من أهل المملكة لا يستحق من محصول الأرض شيئا إلا فى مقابلة خدمته ومنفعته المأمور بإجرائها فى حق أرضهم، فيترتب على هذا أن كل من يريد من الأهالى أن يتعيش من الخدمة، التى هل العمل، يصير مضطرا لأن يخدم بالقدر الذى يتيسر له أخذه من الملاك، بحسب رضائهم، ولو كان هذا القدر يسيرا جدا لا يساوى العمل، لا سيما إذا وجد**

بالجهة كثير من الشغالين، **فإنهم يتناقصون فى الأجرة، ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الأرض، مع أن الأرض إنما تتحسن محصولاتها بالعمل**، فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب إلا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الأجرية الذين تناقصت أجرتهم.

وكما أن أرباب الأملاك يحتكرون جميع الأعمال الزراعية من طائفة الفلاحة، كذلك يحتكرون ثمرات جميع الصنائع، لأن الصنائع كلها تسعى وتنهض فى الأشغال والعمليات التى تستدعيها حاجة الفلاحة، كالحدادة، والنجارة، وجميع صنائع أهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة.

فينتج من كل هذا: أن «زيدا» من الناس إذا لم تساعده المقادير على أن يصير مالكا لقطعة أرض لا يزال يقاسم مالك الأرض فيما يتحصل من الثروة الزراعية، ولكن تمتعه ناقص جدا، فإنه لا يأخذ من المحصول الزراعى إلا القدر الذى يسمح به المالك فى مقابلة خدمته وفنه وصناعته وثمن الأدوات والدواليب المهندمة للزراعة... **فقد جرت العادة أن الفلاح لا يكافأ على قد خدمته وحراثته، لقاعدة مشهورة: إن من يزرع يحصد، يعنى أن المحصول للمالك!! وقد قال صلى الله عليه وسلم: الزرع للزارع»، مع أن المعنى فيه: أن الزرع لمن بذر، والثمرة له، وعليه أجرة مثل الأرض، لا أن العامل يأخذ أجرة قليلة على عمله.. فحديث «الزرع للزارع» لا يدل على شىء من جواز استحواذ المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل.**

ولا يستند فى غبن الأخير إلى أن المالك دفع رأس ماله فى مصرف الزراعة والتزم الإنفاق عليها، **فهو الأحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة**، وأنه الأولى بربح أمواله العظيمة، فهو الأصل فى التربيح، **وأن عملية الفلاح إنما هى فرعية، أنتجها وحسنها رأس المال، فإن هذه التعليلات محض مغالطة، إذ فرض الكلام فى العامل جر لعمل منتج لولاه لما ربحت الأرض ربحا عظيما**، فمواكسة المالك له فى تقليل أجرته محض إجحاف به، ووصف استملاك الأراضى والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضى كونه يستوعب جل

المحصولات ويجحف بالأجير، نظرا إلى إزدحام أهل الفلاحة، وتنقيصهم للأجر، وسوقهم على بعضهم بالمزايدات التنقيصية، وهذا لا يثمر محبة الأجير للمالك (من يزرع **الشوك لا يحصد به عنبا**)، فإن هذا فيه إيذاء بعضهم لبعض، وهو ممنوع شرعا[1]».

* * *

هكذا تناول الطهطاوى «المسألة الاجتماعية» فى عصره . . أبصر حركة الاقتصاد المصرى، ولمس تبلور طبقات المجتمع، فوقف طليعة للبورجوازية الوطنية التى كانت تنمو وتتبلور، وتتحسس طريقهما كى تصنع دعائم الاستقلال الوطنى الذى يزيح بقايا الإقطاع ومعهم بقايا الحكم التركى المتحالف معهم، ولتصد الغزو الأوربى الزاحف على البلاد، ولتشيع فى مصر والشرق قيم عصر التنوير، وتقيم فى هذه البلاد المؤسسات الشورية الدستورية ولتستعيض عن خرافات المجتمع القديم بقدر غير يسير من العقلانية التى أبصرها الطهطاوى، وتياره الفكرى، فى تراث أمتنا، بعد أن فتحت عيونه على هذا التراث حضارة أوروبا البورجوازية، تلك التى عرفها فى باريس (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) والتى لعبت دورا بارزا فى تكوين هذا العقل المصرى والعربى العملاق.

---

(١) المصدر السابق. الباب الأول، الفصل الثانى.

عن المرأة

[إذا أمعن العاقل النظر الدقيق فى هيئة الرجل والمرأة، فى أى وجه كان من الوجوه، وفى أى نسبة من النّسب، لم يجد إلا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما، فالذكورة والأنوثة هى موضع التباين والتضاد. . .

وكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغى لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة البربرية!].

الطهطاوى

عندما ترجم الطهطاوى، وهو لا يزال مبعوثا بباريس، كتاب «دبينج» (Depping) (لمحة تاريخية عن أخلاق الأمم وعاداتها) وهو الذى جعل عنوانه (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) لم يقنع بدور المترجم فقط، بل أدخل فى الترجمة إضافات من عنده، علق بها على الآراء، وأضاف إضافات، وصحح أخطاء. . وكان من العبارات التى أضافها الطهطاوى، تعليقا على مواقف بعض الشعوب من المرأة قديما، العبارة التى تقول:

إنه «كلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما ينبغى لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة!..».

وهذه العبارة لها أهمية تتجاوز مضمونها المتقدم، فيما يتعلق بموقفه من المرأة، إلى تحديد تاريخ نشأة هذا الموقف المتقدم لديه. . . فهى تقطع بأن هذا الشيخ الأزهرى قد وقف من قضية المرأة، ونظرة الرجل والمجتمع إليها، موقفا متقدما منذ كان يدرس فى باريس، وقبل عودته إلى مصر، وقبل أن يصبح عضوا فى (لجنة تنظيم التعليم) التى اقترحت سنة ١٨٣٦م «العمل لتعليم البنات فى مصر». . وقبل أن يضع كتابه الشهير: (المرشد الأمين لتربية البنات والبنين)، وهو الكتاب الذى أفاض فيه فى شرح موقفه المتقدم هذا. .

ولقد يحسب البعض منا أن الحديث عن موقف الطهطاوى من قضية المرأة: مساواة فى النظرة، واحتراما، وعملا. . إلخ. . إلخ. . إنما ترجع أهميته إلى تاريخه لبدء تطور النظرة العربية الحديثة إلى هذه القضية، إذ أن موقف الطهطاوى فى هذا الميدان كان الإطلالة الأولى للعقل العربى الحديث، بنظرة حديثة وموقف متقدم، على هذا الميدان الذى ظل فكر القرون الوسطى سائدا فيه حتى كتابات مفكرنا الكبير فى هذا الموضوع. .

ونحن نعتقد بصحة ذلك . . ولكننا نعتقد أن دراسة موقف الطهطاوى هذا تتعدى أهميته هذا النطاق، ذلك أن عديدا من الدوائر الفكرية فى مختلف بلادنا العربية والإسلامية لا زالت تقف من هذه القضية موقف القرون الوسطى، أو قريبا منه، أو هى على الأقل تريد العودة، تدريجيا، بالمرأة ومركزها إلى ذلك الوضع المهين القديم . .

ونحن نعتقد أن الكثير من الحجج التى ناقشها الطهطاوى يومئذ، وعارضها وفندها، لا زالت تتردد على ألسنة العديد من الرجال فى هذه الدوائر الفكرية . . ومن ثم فإن دراسة موقف الطهطاوى هذا، وعرض آرائه، وإبراز حججه، هو أمر تتعدى أهميته نطاق التاريخ، وتدخل فى صميم الصراع الفكرى والاجتماعى الدائرين الآن حول قضية هامة من قضايا التقدم الاجتماعى لشعوب الشرق بأسرها . . . أى أن الموقف الذى وقفه الطهطاوى فى هذه القضية منذ نحو قرنين لا زال هو الموقف المتقدم، بل والثورى، إذا ما قيس بالآراء التى لا زالت حتى اليوم تقف موقف العصور الوسطى فى هذا الموضوع . .

ومن هذه الزاوية تبدو الإمكانيات والطاقات الثورية لإحياء صفحات تراثنا الثورى المشرق والمستنير . . فهذا الإحياء يتعدى نطاق التاريخ إلى الفعل الحى والمؤثر فى قضايا عصرنا نحن ومشاكل المجتمع الذى نعيش فيه . .

والآن ما هو موقف الشيخ رفاعة من قضية المرأة؟؟ وكيف عالجها ـ وهو الشيخ الأزهرى ـ على ضوء فهم مستنير لموقف الإسلام منها، فقدم فكره الثورى، الذى سنعرض له، قبل عصرنا هذا بنحو قرنين من الزمان!؟؟.

* * *

أول قضية يمكن أن نعرض لها فى فكر الرجل هذا هى قضية «المساواة بين الرجل والمرأة»، وجدارة المرأة وإمكانياتها فى إحراز مساواة حقيقية فى بعض الميادين الهامة والحيوية التى كانت حتى ذلك التاريخ حكرا للرجل لا تقربها النساء . .

وفى هذا النطاق تطالعنا نظرة المجتمع القديم ـ مجتمع العصور الوسطى ـ للمرأة

ودورها الذى خلقت له . . فلقد كان هذا المجتمع ، الذى كافح الطهطاوى كى يتجاوز الشرق عتباته المظلمة ، يرى المرأة قد خلقت فقط «لملاذّ الرجل» . . ولكن الطهطاوى جاء فرفض هذه النظرة ، لا لأنه يرفض دور المرأة فى تحقيق هذه «الملاذ» ، ولكن لأنه قد اعتبر هذه الناحية من متعلقات «الأنوثة» لدى المرأة و«الذكورة» لدى الرجل . . والمرأة **«فيما عدا هذه الملاذ مثله ـ (أى مثل الرجل) ـ سواء بسواء، أعضاؤها كأعضائه، وحاجتها كحاجته، وحواسها الظاهرة والباطنة كحواسه، وصفاته كصفاته، حتى كادت أن تنتظم الأنثى فى سلك الرجال!.. فإذا أمعن العاقل النظر الدقيق فى هيئة الرجل والمرأة، فى أى وجه كان من الوجوه، وفى أى نسبة من النسب، لم يجد إلا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والأنوثة وما يتعلق بهما، فالذكورة والأنوثة هما موضع التباين والتضاد**[1] ..» .

فليس هناك «نقص طبيعى فى التكوين وأصل الخلقة» هو الذى جعل المرأة ويجعلها هكذا دون الرجل فى تحمل أعباد الحياة فى عديد من الميادين . .

ويسلم الطهطاوى بأن الأنوثة ربما نشأ عنها ضعف فى بنية المرأة . . ولكنه يقدم لهذا الأمر نتائج هى على العكس تماما من تلك التى قدمها ويقدمها أعداء المساواة بين الرجال والنساء . . فهم يرون فى هذا الضعف «فى البنية» سببا يفضى إلى ضعف فى القدرات العقلية والإمكانيات اللازمة لتولى بعض الأعمال . . أما الرجل فإنه يرى العكس ، حيث إن هذا الضعف فى «البنية» يعوضه ، بل وينشأ عنه لدى المرأة قوة فى هذه القدرات والإمكانيات . . يقول الشيخ رفاعة **«ومما يوجد فى الأنثى: قوة الصفات العقلية، وحدة الإحساس والإدراك على وجه قوى قويم، وذلك ناشىء عن نسيج بنيتها الضعيفة، فترى قوة إحساس المرأة وزيادة إدراكها تظهر فى الأشياء التى يظهر، ببادىء الرأى، أنها أجنبية عنها، وأنها فوق طاقة فهمها... وليس ذكاؤهن مقصورا على أمور المحبة والوداد، بل يمتد إلى إدراك أقصى مراد**[2] **!!»** .

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الثانى . الفصل الأول .

(٢) المصدر السابق . الباب الثانى . الفصل الأول .

فليست هناك قوى ولا فضائل قد انفرد بها جنس من الجنسين وامتاز بها على الآخر، وإنما هناك «اختلاف في الوجوه» التي تظهر فيها هذه القوى والفضائل الموجودة لدى الجميع. واختلاف «الوجوه» هذا من الممكن، والحادث فعلا، أن يظهر بين أفراد الجنس الواحد.. أى بين الرجال.. أو بين النساء.. فعند الطهطاوى أن «**الفضائل، من حيث هى فضائل إنسانية، توجد فى الرجال والنساء، ولكن على وجه مختلف فى طباعهن.. وهذه الصفات ـ (مثل: الشجاعة، والسخاء، والعفة.. إلخ) ـ عامة فى جميع أمم الدنيا وقبائلها وأحيائها، وذكورها وإناثها..**»[1].

بل إن «ضعف البنية» لدى المرأة ـ والذى سبق أن عرضنا رأى الطهطاوى فى إفضائه إلى قوة قدراتها العقلية والحسية ـ إن هذا «الضعف» لا يراه الطهطاوى أمرا «طبيعيا» ملازما لجنس النساء فى كل زمان ومكان، بل يراه ثمرة لأوضاع بيئية واجتماعية وتربوية، من الممكن عند الاقتضاء، تغييرها، ومن ثم إحلال القوة والشجاعة البدنية محل هذا «الضعف البدنى».. ويضرب الطهطاوى على ذلك مثلا من التاريخ عندما «**انتظم النساء عند اليونان فى سلك التربية، فاكتسبن من التعليم فضائل الرجال وصحة الأبدان، فبهذا كان لهن السلطنة العليا على قلوب الرجال بحسن التربية والتعليم، فكان يجب عليهن معاناة الرياضات الشاقة واستمرار اللعب والمصارعة، فبذلك حصل فى تلك البلاد من النساء، مدة طويلة، من العجائب والغرائب ما يساوى شجاعة الرجال!..**»[2].

وليس معنى هذا أن الطهطاوى كان يحبذ تعليم المرأة الفنون والتدريبات التى تكون بها فى خشونة الرجل وشدة بأسة البدنى.. فالرجل كان يطلب ممن يعلم النساء أن يحافظ على ملكاتهن التى تجعل للمرأة دورها المتميز فى حياة الإنسان، مثل «الحياء»، «فاللائق بمن يربى البنات ويتعهد بشئونهن أن يتركهن على حيائهن الذى هو زينتهن، فلا تمسه التربية بمحو ولا تخفيف.. وكذلك ما اشتملن عليه

---

(١) المصدر السابق. الباب الثانى. الفصل الأول.

(٢) المصدر السابق. المقدمة. الفصل الرابع.

عـادة من الخـوف والوجل، مما ينبـغى محـوه فى الذكـور، فـلا بأس بإبقـائه فى النساء!..[1]».

فالطهطاوى لم يكن يريد «المرأة» «رجلا»، بل رأى ضرورة المحافظة على ميزاتها التى تجعل منها مكملة للرجل، كما نحافظ على ميزات الرجل حتى يصبح مكملا للمرأة فى هذه الحياة.. ونظرته هذه لا تتنافى مع موقفه المؤمن بالمساواة بينهما فى كثير من الشئون وعديد من الميادين.. فللرجل أحاديث كثيرة عن هذه المساواة، سنطالع بعضها فى دراستنا لفكره عن المرأة هنا.. من مثل حديثه عن المساواة بين الزوج وزوجته، وسخريته من الذين يرون «الحق» للرجل و«الواجب» على المرأة.. يقول رفاعة: «**وكثير من الرجال يرى أن له حقا على زوجته، وليس لها عليه حق، وأن جميع ما يفعله معها جميل، وقد وبخ مثل هذا بعضهم بقوله:**

له حق وليس عليـه حق ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقا عليه لغيره، وهو الرسول؟![2]»

ذلك شيء عن رأى رفاعة فى المساواة بين الرجل والمرأة، وإمكانيات المرأة فى تحقيق ما تكون به مساوية للرجل فى عدد من الميادين..

* * *

وتعليم المرأة.. قضية أخرى من القضايا الهامة التى اتجهت إليها جهود رفاعة.. فكان موقفه المناصر لتعليم المرأة التطبيق العملى لموقفه المؤمن بالمساواة..

ومن قبل رفاعة، وفى عصره كان الفكر السائد لأهل العصور الوسطى يرفض السماح للمرأة أن تدخل المدارس كالرجال، وأن تتعلم البنات فى دور العلم كما يتعلم الصبيان.. وكانت لهم حجج يقدمونها، ولعل هذه الحجج لم تدخل بعد جميعها متحف التاريخ؟!! ومن هنا تأتى أهمية عرضها من خلال نقد رفاعة لها.. فهذا العرض يتجاوز، إذًا، نطاق عملية التأريخ!..

(١) المصدر السابق. الباب الثانى. الفصل الثانى.
(٢) المصدر السابق. الباب السادس. الفصل الخامس.

يعرض رفاعة أقوال الخصوم، منأمثال «القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة، وأنها مكروهة فى حقهن، ارتكازا على النهى عن بعض ذلك فى بعض الآثار»، ومن مثل القول «بأن من طبعهن المكر والدهاء والمداهنة، ولا يعتمد على رأيهن لعدم كما عقولهن، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية، ككتابة رسالة إلى زيد، ورقعة إلى عمرو، وبيت شعر إلى خالد!، ونحو ذلك، **وأن الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الرأى وحب الفضائل لفعل، فكان الله خلقهن لحفظ متاع البيت، ووعاء لصون مادة النسل!..»**.

يعرض رفاعة آراء الخصوم هذه، التى ربما كان بعضها - مثل الاعتراض على تعلم المرأة القراءة والكتابة - قد دخل متحف التاريخ. . . ولكن بعضها لا يزال حيا فى متاحف عقول الكثيرين منا حتى هذه اللحظات. . من مثل نقص عقول النساء الموجب لعدم الاعتماد على رأيهن. . وأن الله لم يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الرأى وحب الفضائل. . وإنما لحفظ متاع البيت، ووعاء لصون مادة النسل. .

أما تعليقات رفاعة على هذه الآراء، فإنها تتخذ أحيانا شكل الاقتضاب وأحيانا شكل الإسهاب فى التفنيد. . فهو يعلق مثلا على الرأى الأول بقوله: إنه «ينبغى أن لا يكون ذلك على عمومه. .» وعلى الثانى بأنه: «لا نظر إلى قول» من قال ذلك. . ثم يشرع الرجل فى تفنيد كل هذه «الحجج» والأقوال فيقول: إن «مثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة، ولا تنطبق على جميع النساء». . ويقول الرجل: إنه حتى لو سلمنا جدلا بأن بعض الآثار - (الأحاديث) - قد نهت عن تعليم المرأة - وهو لا يسلم بذلك - فإن ذلك لا يؤخذ على إطلاقه «فكم من نهى وردت به الآثار، كحب الدنيا، ومقاربة السلاطين والملوك، والتحذير من الغنى، **فقد حمل على ما يعقبه شر وضرر محقق، وتعليم البنات لا يتحقق ضرره**» ثم يناقش رفاعة هذه «الآثار» - (الأحاديث) - المزعوم روايتها عن الرسول عليه السلام، فيتشكك فى صحتها، ويقول: «**كيف ذلك، وقد**

كـان فى أزواجه، صـلى الله عليـه وسلم، من تكتب وتقـرأ، كحـفـصة بـنت عمـر، وعائشة بنت أبى بكر، وغيرهما مـن نساء كل زمن من الأزمان؟! ولم يعهد أن عددا كبيـرا من النساء ابتذلن بسبب آدابهن ومـعارفهن، على أن كثيـرا من الرجال أضلهم التوغل فى المعارف»!!.

ثم يتحدث رفاعة عن الآفاق التى يفتحها العلم أمام المرأة، وكيف يفضل علمها جمالها ويدوم أكثر منه، وكيف يرفع قدرها فى نظر الزوج، ويثمر تربية صالحة ومتقدمة للأولاد، فيقول: «إن تعليمهن فى نفس الأمر عبارة عن تنوير عقولهن بمصباح المعارف المرشد لهن، فلا شك أن حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة، وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة، والإطلاع على المعارف المفيدة، هو أجمل صفات الكمال، وهو أشوق للرجال المتربين من الجمال، فالأدب للمرأة يغنى عن الجمال، لكن الجمال لا يغنى عن الأدب، لأنه عرض زائل. وأيضا آداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرا فى أخلاق أولادها، إذا البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت والاشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها، بخلاف ما إذا رأت أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج وإضاعة الوقت بهذر الكلام والزيارات الغير اللازمة... **وقد قضت التجربة، فى كثير من البلاد، أن نفع تعليم البنات أكثر من ضرره، بل إنه لا ضرر فيه أصلا**، فقد روى فى كتب الأحاديث روايات عن النساء كثيرة، وقد كان فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، من يعلم القراءة والكتابة من النساء للنساء، «كالشفّاء» أم سليمان، فقد ورد أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لها: «علمى حفصة رقية النملة، كما علمتها الكتابة..».. **وهذا الحديث دليل على أن تعلم النساء الكتابة جائز، وأن اشتراكهن مع الرجال لا بأس به، حيث اشتركن معهم فى أصل الطبائع والغرائز... فليتمسك كل من الفريقين: الذكور والإناث، بالأحاديث الواردة فى فضل التعلم والتعليم، ويتشبثوا جميعا بأذيال المدارسة والمطالعة ليقتطفا من أثمار العلم منافعه!..».**

وأكثر من كل ذلك، وأروع وأعمق، يصل الطهطاوى إلى لب المشكلة ومبعث

هذا الموقف المعارض لتعليم البنات، فيقول: إن «العقلية الجاهلية» التى لا زالت قائمة لدى هؤلاء الخصوم هى مبعث معارضته هذه وموقفهم هذا. . فالعادات البدائية الموروثة والتقاليد غير المتحضرة، هى السبب. . وأن الناس لو جربوا عادات غير تلك العادات لاعتادوا عليها كما هم معتادون اليوم على الموقف المناهض لتقدم المرأة وتعليمها. . يقول الطهطاوى: «**وليس مرجع التشديد فى حرمان البنات من الكتابة إلا التغالى فى «الغيرة» عليهن من إبراز محمود صفاتهن، أياما كانت، فى ميدان الرجال تبعا للعوائد المحلية المشوبة بجمعية جاهلية ـ (أى مجتمع جاهلى!) ـ ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة..!!**[1]».

وانطلاقا من هذا الموقف طالب الطهطاوى «بصرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا، لحسن معاشرة الأزواج. . . لأن هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا، ويجعلهن بالمعارف أهلا[2]. . ».

ولم يقف طموحه وسعيه عند المطالبة بتعليم المرأة القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك، بل تحدث عن تعليمها وتعلّمها «المعارف والآداب» عموما، «فليست المعارف والآداب فى النساء إلا محامد، كالرجال[3]» وإذا كان «تعلم الأدب حَسَنٌ فى الرجال» فإن رفاعة يرى أنه «يحسن الأدب فى النساء زيادة، لما فيهن من الرقة الطبيعية، والمحاسن المعنوية، فنسبه ذكاء المرأة الطبيعى إلى أخلاقها وعوائدها كنسبة لطافتها وظرافتها إلى أعضائها الظاهرة، فهى بالأدب جميلة حسا ومعنى[4]!. . ».

فنحن هنا أمام شيخ يفهم تراث الإسلام فهما مستنيرا. . أمام مصلح يناضل كى يحرر المرأة الشرقية من أغلال الجهل. . . وأكثر من ذلك أمام إنسان متحضر فى

---

(١) المصدر السابق. الباب الثالث. الفصل الثالث.
(٢) المصدر السابق. الباب الثالث. الفصل الثالث.
(٣) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل السادس.
(٤) المصدر السابق. الباب الثانى. الفصل الأول.

نظرته للمرأة . . قد امتزج فى عقله الفهم المستنير للتراث، بحرص المصلح على نهضة المرأة، بالذوق المتحضر للإنسان الحديث . .

تبقى بالنسبة لمكان الطهطاوى من الدعوة إلى تعليم المرأة نقطة تستحق الوقوف عندها لسطور . . . وهى تدور حول ما إذا كان الرجل هو بحق «الرائد» فى هذا الميدان ببلاد الشرق، أم أن غيره قد سبقه إلى هذا المجال؟؟ . .

إن بعض الذين يتجاهلون الطهطاوى يذكرون أن الإرسالية الأمريكية قد أنشأت بالقاهرة مدرسة ابتدائية للبنات سنة ١٨٦١م، وأن هذه المدرسة قد تطورت إلى «كلية البنات الأمريكية . . وهذه حقيقة . .

ويذكرون كذلك أن نواة الجامعة الأمريكية فى بيروت قد بدأت فى شكل مدرسة أمريكية للبنات سنة ١٨٣٠م . . وهذه حقيقة كذلك[1] .

وبعض الذين لا ينكرون ريادة رفاعة، بل يشيدون بجهوده يتحدثون عن أنه كان أول داعية فى الشرق لتعليم المرأة . . وهذه حقيقة . . ولكنهم - جميعا - يقولون إن أول مدرسة للبنات افتتحت بمصر كان تاريخ افتتاحها هو سنة ١٨٧٣م . .[2] وأنا أعتقد أن مصر لابد أن تكون قد شهدت افتتاح مدارس تعليم البنات قبل هذا التاريخ . . فالطهطاوى طبع كتابه (المرشد الأمين) سنة ١٨٧٣م . . وبديهى أن يستغرق تأليف كتاب ضخم كهذا الكتاب فترة زمنية ليست قصيرة . . فلنقل على أحسن الفروض أنه شرع فى تأليفه سنة ١٨٧٢م فكيف تكون المدارس الجديدة افتتحت فى سنة ١٨٧٣م والطهطاوى الذى كان يؤلف كتابه قبل هذا التاريخ يقول لنا فيه إن هذه المدارس قائمة بالفعل، وأن الأوامر قد صدرت إليه كى يؤلف هذا الكتاب ليدرس فيها؟! . .

يقول الطهطاوى فى هذا الكتاب : إنه قد أصبح، فى أيام الخديو إسماعيل، «لفرسان النبلاء حدائق فنون وبساتين، **يتسابق بأبكار الأفكار فى حومتها البنات**

---

(١) (تاريخ العرب) (مطول) ص ٨٧٨، ٨٨٠ .

(٢) د. جمال الدين الشيال (رفاعة الطهطاوى) ص ٥١ .

كالبنين، فقد سوى فى اكتساب المعارف بين الفريقين، ولم يجعل العلم كالإرث للذكر مثل حظ الأنثيين، فبهذا سوق المعارف المشتركة قد قامت، وطريق العوارف للجنسين استقامت.. وحضهن بمدارس كالبيان، يخرجن بها من حيز العدم إلى الوجدان، ومن الوهم إلى العيان.. فبهذه الوسائل النفيسة صدر لى الأمر الشفاهى، من ديوان المدارس، بعمل كتاب فى الآداب والتربية يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية[1]».

فإذا علمنا ذلك . . وأضفنا إليه أن قيام مدرسة ابتدائية أمريكية بالقاهرة أو بيروت . . لا يدخل فى نطاق **حركة التعليم الوطنى** فى بلاد الشرق كظاهرة لها دلالاتها . . . وأن رفاعة قد شارك فى دعوة، لم تنفذ، إلى تعليم المرأة سنة ١٨٣٦م، كما سبق أن أشرنا . . وأن الرجل قد أرسى قواعد فكره الجديد عن المرأة وإنهاضها وتعليمها منذ كان بباريس (١٨٢٦ ـ ١٨٣١م) أدركنا، دون مبالغة، أن مكان رفاعة من هذا الميدان هو مكان الرائد الذى رفع الصوت الوطنى بضرورة مساواة المرأة بالرجل فى التعليم . .

* * *

وقضية «العمل» بالنسبة للمرأة، وقف الطهطاوى منها موقفا متقدما، بل وثوريا، بالنسبة لعصره، فالرجل لم يحدد لتعليم المرأة آفاقا تحدد دائرة حياتها بالمنزل والأولاد والزوج فقط . . بل ربط «العلم» عندها «بالعمل» الذى يمكن أن تتعاطاه، وقال: «إن صرف الهمة فى تعليم البنات . . **يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال، أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقتها، فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء، فإن**

---

(١) (المرشد الأمين) التمهيد.

المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها، وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون، وفيما عندهم وعندها. وهكذا..[1]».

ويجتهد الطهطاوى ليؤصل، تاريخيا وشرعيا، إباحة العمل للمرأة، فلقد «ساغ لنبى الله «شعيب» أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية، بدون أن يقدح ذلك فى حقه بشىء، حيث لا مفسدة فى ذلك، لأن الدين لا يأباه فى البدو ولا فى الحضر، ومروءة أهل البدو لا تأباه. . .[2]» و«نساء النبىّ ونساء أصحابه كن يسعين على عيالهن، ويخدمن أزواجهن، ويمتهن أنفسهن» - (أى يتخذن لأنفسهن مهنة من المهن) - بل ويقمن بالغزو مع الجيش المقاتل. . «وفى الصحيح قال «أم الربيع»: كنا نغزو مع النبى، صلى الله عليه وسلم، فنسقى القوم، ونخدمهم، ونرد القتلى إلى المدينة، ونداوى الجرحى. .[3]».

فهو إذا موقف شديد التقدم وقفه الطهطاوى من هذه القضية الحيوية بالنسبة لتحرر المرأة وتحريرها. . . ولقد كان طبيعيا أن يفضى موقف رفاعة هذا به كى يبحث فى الجوانب المختلفة التى ستترب على «حق العمل» بالنسبة للمرأة. . . وعلى وجه التحديد:

١ - حجاب المرأة واحتجابها عن «الأجانب» عنها، أى غير «المحارم». . لأن عملها لابد وأن يستدعى «مخالطة» غير «المحارم». . .

٢ - توليها للمناصب السياسية العليا والمناصب العامة الهامة. . وبالتحديد منصب الملك أو الخليفة والإمام. . ومنصب القضاء. . وهل تمتد ميادين عملها ونطاقه إلى هذه الآفاق؟؟

وموقف الطهطاوى من هاتين القضيتين قد جاء، بالطبع، على ضوء القدر والحجم الذى كان مطروحا منهما على عصره ومجتمعه - هذا من جانب - وعلى

---

(١) المصدر السابق. الباب الثالث. الفصل الثالث.

(٢) (مناهج الألباب) الباب الثانى. الفصل الثالث.

(٣) (المرشد الأمين) الباب السادس. الفصل الرابع.

ضوء موقف الشريعة الإسلامية، وفهم الطهطاوى ـ كمسلم سنى ـ لتراثها . . .
فبدون أن نضع هذين العاملين فى اعتبارنا لن ندرك قيمة موقف الرجل من هاتين القضيتين اللتين ارتبطتا «بحق العمل» الذى كان الطهطاوى رائد الدعوة إليه فى عصرنا الحديث . . .

فبالنسبة «لحجاب المرأة»، نجد أن قضية «سفورها» لم تكن مطروحة أصلا على عصر الطهطاوى ومجتمعه، بل إن هذه القضية لم تكن مطروحة فى فكر قاسم أمين بعد وفاة الطهطاوى بأكثر من ربع قرن . . وكان مطلب قاسم أمين هو «الحجاب الشرعى»، أى أن تكشف المرأة وجهها ويديها فقط؟! . . إذ لا يحل لها، شرعا، كشف ما عدا ذلك إلا فى الضرورات . .

فالطهطاوى، بالطبع، مع «حجاب» المرأة، لا بمعنى «حجبها» فى المنزل، كما كان موقف أنصار العصور الوسطى، وإنما بمعنى ستر أعضائها التى لم تبح الشريعة كشفها للأجانب . . فالرجل الذى دعا إلى تعليم المرأة وعملها كان يطلب بديهة، أن تخرج المرأة من منزلها إلى هذه الميادين والساحات والمجالات . .

ونحن نلمح لدى الطهطاوى ما يمكن أن نسميه الفرق بين «الخلوة» وبين «الاختلاط لأسباب مشروعة» . . «فالخلوة» التى هى مظنة الشبهة، أو الداعية إلى الزلل والانحراف، يحرمها الشرع، ويقف الطهطاوى مع هذا التحريم، «فيحرم أن يخلو رجل بأجنبية» . . ولكن إذا زاد العدد، وكان هناك جمع من الرجال والنساء ـ كما هو الحال اليوم فى دواوين العمل ومجالاته، مثلا ـ فإن الطهطاوى يقرر إباحة ذلك منذ أكثر من قرن من الزمان . . يبيحها مع تسميتها «بالخلوة»!، فيقول: إنه «لا بأس أن يخلو رجل أو عدة رجال بنسوة ثقات، لا رجل أو عدة رجال بامرأة واحدة . . [1]» (مع مراعاة أن «الخلوة» هى التى تتم بمكان يحظر ويتعذر على الغير الدخول إليه أثناءها!! . .).

بل إننا نجد عند الطهطاوى ما يقطع بإباحة لقاء الشاب بالشابة، فى العمل، إذا

(١) المصدر السابق. الباب السادس. الفصل الخامس.

توافرت الثقة المؤسسة على حسن التربية فيهما . . والمثل الذى ضربه الرجل لذلك تاريخى وشـرعى فى نفس الوقت، وهو الذى يتحـدث عن لقـاء ابنة نبى الله «شعيب» «بموسى» عليه السلام: فلقد «قال شعيب لإحداهما - (إحدى ابنتيه) - : اذهبى فادعيه - (أى موسى) - لى، **فأرسلها شعيب إلى موسى، مع أنها شابة وهو شاب، لأنه، عليه السلام، قد علم، بالوحى أو من حسن التربية طهارتها وبراءتها، فكان يعتمد عليها! ..**[1]».

ونحن نعلم، وكذلك الطهطاوى قد كان يعلم، أن هذا اللقاء بين ابنة شعيب وبين موسى قد انتهى بالزواج، ولكن التربية الحسنة قد منعت مظنة الشكوك فى سلوكهما وقطعت بالبراءة لكليهما . . فأبيح لذلك الاختلاط للعمل . .

وكذلك فإن الطهطاوى يقف مع إباحة النظر للمرأة عند وجود سبب يدعو إلى ذلك، مثل:

(أ) العلاج والتطبب . . فيجوز للطبيب «النظر فيما لا يحل . . . للمداواة بقدر الحاجة».

(ب) فى شئون المعاملات التى تتطلب ذلك «كالشهادة، والتعرف، أو التعريف».

(جـ) فى التعليم «فالمعلم ينظر بقدر الحاجة والضرورة! . .».

أما بالنسبة لاشتغال المرأة بالمناصب السياسية العليا فإن الطهطاوى يقف الموقف الشرعى الذى يمنع من ذلك، ويقول: إنه «قد قضت الشريعة المحمدية وقوانين غالب الممالك بقصر السلطنة على الرجال دون النساء، وأن النساء لا يتقلدن بالرتب الملوكية، ولا يلبسن التاج الملوكى، بل تكون المملكة متوارثة فى سلسلة الذكور، إلا فيما ندر من الممالك المبيحة لذلك . . . وأما القضاء فليس لهن فيه حظ ولا نصيب! . .».

أما لماذا وقفت الشريعة المحمدية هذا الموقف من المرأة، فإن الطهطاوى يورد

---

(١) (مناهج الألباب) الباب الثانى. الفصل الثالث.

وجهتى النظر فى التعليل لذلك . . وإحداهما ترجعه إلى «أن النساء، **فى الغالب**، وصفهن النقص عن الرجال فى مهمات الأمور الحسية، فلا يستطعن، لما فيهن من الضعف، أن يتحملن أعباء المملكة الثقيلة . . » .

ونحن إذا تذكرنا ما عرضناه منذ قليل من آراء الطهطاوى التى يعلن فيها الثقة فى قدرات المرأة العقلية وملكاتها الحسية، ملنا إلى أنه ليس المدافع عن تعليل تحريم المناصب السياسية العليا عن المرأة بهذا التعليل . . خصوصا وأن الرجل يسهب فى عرض وجهة النظر التى تعلل ذلك بأنه موقف «تعبدى» وحكمة شرعية نسلم بها فقط، أو أنه موقف يستهدف صيانة المرأة عن متاعب هذه المناصب ومشاقها وعن ما تتطلبه من «الاختلاط» «بالموظفين من الأمراء الملكية والجهادية ومعاشرتهن لجميع أصحاب المناصب والمراتب من أرباب السيوف والقلم[1]» «فلا يبرئها أحد مما يقال فيها . .[2]» .

فالحكمة الإلهية التى قضت بقصر النبوة على الذكور دون النساء، هى التى قضت بقصر مناصب السلطنة والخلافة والإمامة على الرجال دون النساء، وإذا كان كل الأنبياء قد كانوا ذكورا، فإن «النساء لم تكن السلطنة فيهن إلا نادرا . . » . . فهى إذًا حكمة شرعية، لا عقلية، وذلك بدليل أن البلاد التى تنبع قوانينها من (التحسين والتقبيح العقليين) وتبيح الاختلاط، لا تمنع ذلك فالسلطة الرسمية للمرأة «على الرعية لا تكون إلا فى البلاد التى قوانينها محض سياسة وضعية بشرية، لأن قوانين هذه الممالك تنتج اختلاط الرجال بالنساء، بناء على قانون الحرية المؤسس عليه تمدن تلك البلاد، **وإلا فتمدن الممالك الإسلامية مؤسس على التحليل والتحريم الشرعيين، بدون مدخل للعقل، تحسينا وتقبيحا فى ذلك، حيث لا حسن ولا قبيح إلا بالشرع ولا عبرة بالاستكراه النفسانى والاستحسان الطبيعى والأخذ بالرأى من غير دليل شرعى**»..

---

(١) المرشد الأمين ـ الباب الرابع . الفصل الثالث .

(٢) المصدر السابق . الباب الثانى . الفصل الثانى .

فكأن الطهطاوى يقول لنا هنا: إن الذين يحكمون العقل فى التشريع والتقنين يبيحون الاختلاط وتولى المرأة للمناصب السياسية العليا، بما فيها الملك والسلطنة، أما الذين يرفضون تحكيم العقل فى التشريع حيث يوجد النص فهم ضد ذلك كله. .

ويشهد لتفسيرنا هذا - علاوة على ما تقدم من نصوص الرجل - أنه يقطع بأن منع المرأة من تولى أعلى منصب فى الدولة ليس مرجعه نقصان كفاءة فيها «فليس عدم استخلاف النساء لعدم وجود من تصلح لذلك، فقد قال «عروة بن الزبير» «لذكوان»: لو كان إمرة - «أى إمارة» - لامرأة بعد النبوة لاستحقت عائشة الخلافة! . .[1]» . .

كما يورد الطهطاوى قول «بعض أهل السياسة: إن التعليل بالضعف عن القيام بأعباء الملك أمر أغلبى، فقد عهد فى النساء بعض ملكات أحسنّ السياسة والرئاسة على ممالكهن واكتسبن قصب السبق فى ميادين الفخار. .».

ولا ينكر الطهطاوى أن فى استطاعة المرأة أن تحصّل أسباب القوة فتزاحم الرجل، ولكنه يتوقع أن لا يكون ذلك فى صالحها، ولا فى صالح صيانتها الواجبة على الرجال. . . «فلو أرادت المرأة أن تسلك مسلك الرجال. . واجتهدت فى ذلك حتى وصلت قريحتها فى القوة إلى قرائح فحول الرجال. . وساوت الرجل فى جميع أحواله. . فهل تكتسب من ذلك إلا المنافسة والمعاداة. . لا سيما من صويحباتها المحرومات، اللاتى يبغضن من يتفوق عليهن. . . ويتهمنهن بالخروج عن الحياء؟! . .[2]».

فهو إذا موقف «الشرع»، تضاف إليه «اعتبارات عملية» تحركها نوايا طيبة تريد «صيانة» المرأة عن معاناة مشاق هذه المناصب المرهقة. . هذه إذن أسباب موقف الطهطاوى هذا من تولى المرأة مناصب السياسة العليا. .

---

(١) المصدر السابق. الباب الرابع. الفصل الثالث.

(٢) المصدر السابق. الباب الثانى. الفصل الثانى.

ولكن . . . علينا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة التى تعيننا على أن يكون تقييمنا لفكر الطهطاوى حيال قضية المرأة عموما هو التقييم الدقيق، وألا يترك رأيه فى تولى المرأة للمناصب السياسية العليا انطباعا سلبيا يقلل من قيمة آراء الرجل فى هذا الباب . .

فمثلا : هل كانت قضية عصر الطهطاوى هى تولى المرأة لمنصب السلطان أو الخليفة أو أمير المؤمنين؟ أو حتى منصب القاضى فى المحاكم؟؟ .

بالقطع لا . . فلم تكن هذه هى قضية عصر الطهطاوى، لقد كان الرجل يجادل الذين يحرمون عليها تعلم الأبجدية حتى لا ترسل للعاشقين خطابات الغرام؟! . . بل إن قضية تولى المرأة، فى الشرق، لرئاسة الدولة ليست مطروحة فى عصرنا نحن، فضلا عن العصر الذى عاش فيه مفكرنا الكبير . .

وأيضا : هل كان اشتغال المرأة الشرقية بالعمل السياسى - على إطلاقه - قضية مثارة وحيوية فى عصر الطهطاوى، حتى يكون الرجل بموقفه هذا متخلفا وليس تقدميا؟؟

إن «لا» . . هى الإجابة بالقطع . . فلم تكن تلك قضية مثارة فى الشرق على وجه الإطلاق . . بل ولا فى الغرب، إذا نحن أمعنا النظر فى هذه الحقائق التى تقول :

* إن أول مؤتمر عقد للمطالبة بحقوق المرأة السياسية، عقد فى أمريكا سنة ١٨٤٨م . . وأول اتحاد عام تكون بأمريكا لهذا الغرض كان تاريخ تكوينه هو سنة ١٨٩٠م .

* وفى الوقت الذى كان الطهطاوى يكتب فيه آراءه تلك فى كتابه (المرشد الأمين) لم يكن الدستور الأمريكى الذى وضع سنة ١٨٧٠م يعترف بحقوق المرأة السياسية، وهو لم يعترف بها إلا فى التعديل الذى أدخل عليه سنة ١٩٢٠م . . وحتى سنة ١٩١٧م لم تكن فى أمريكا سوى ١٢ ولاية هى التى اعترفت بالحقوق السياسية للمرأة . .

* وفى إنجلترا بدأت المطالبة بحقوق المرأة السياسية سنة ١٨٥١م، ونشطت بعد صدور كتاب «ستيوارت مل» سنة ١٨٦٩م، ولكنها لم تثمر حصول المرأة على حق الانتخاب إلا فى سنة ١٩٢٨م . .

* وفى كل دول أوروبا لم تنل المرأة حقوقها السياسية إلا فى القرن العشرين . . فى فرنسا سنة ١٩٤٥م . . وفى بلجيكا سنة ١٩٤٦م إلخ . . إلخ . .

* أما الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية فلقد نالت المرأة فيها حقوقها السياسية مع قيام الثورات الاشتراكية فى هذه البلاد . . أى فى القرن العشرين . .

فلم تكن هذه القضية، إذا، مطروحة على عصر الطهطاوى، لا فى الشرق، ولا فى أغلب البلاد الأخرى الأكثر تقدما وتطورا من مجتمعاتنا التى كانت تحبو على أعتاب عصر التنوير . . وهذه الحقائق، إذا نحن وعيناها جيدا، احتفظت آراء الطهطاوى المناصرة لتحرير المرأة بأغلب ما لها من قوة وتقدميه ولمعان . .

* * *

تبقى من القضايا التى اخترناها هنا كى نقدم من خلال عرضها أبرز ملامح فكر الرجل عن المرأة . . قضية «الحب» . . وعلاقة الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل . . ومكان المرأة، عند الطهطاوى، فى هذه المملكة التى ظلت المرأة فيها أسيرة، أو سلعة أو شيئا من سقط المتاع، أو أداة متعة ووسيلة لذة . . لعدة قرون . . كيف نظر الطهطاوى «للحب» وكيف رأى علاقة المرأة بالرجل فى ضوئه . . وما هو رأيه المبتكر فى «وحدانية» الحب بالنسبة لكل من المرأة والرجل على السواء؟؟

لقد فتح الطهطاوى فتحا جديدا فى الحياة الاجتماعية العربية الحديثة عندما قرر شرعية «الحب» بالنسبة للبنت، وطالب الآباء والأمهات بمراعاة حبها وهواها عند تزويجها، فعنده أن «**من أحسن الإحسان إلى البنات تزويجهن إلى من هوينه وأحببنه؟!**[1]».

---

(١) المصدر السابق. الباب السابع. الفصل الثالث.

و«الحب» الذى عناه الطهطاوى، وتحـدث عنه ينم تصـور الرجل له عن ذوق عصرى ووعى حضارى وتقدم اجتماعى عجيب. . إنه تصور ووعى غريب على الكثيرين من معاصرينا، فضلا عن زمانه هو. . والقيم التى حدثنا عنها الرجل لا زالت شديدة الصلاحية للعطاء. . بل لا نعتقد أننا فى حاجة إلى أكثر مما قاله الرجل فى هذا الباب!.

فإذا كان قد دعا إلى قيام الزواج وتأسيس المنزل على أساس من «الحب»، فإن «الحب» عنده «فن» لا «شهوة»، وبينه وبين «الشهوة» من البعد بقدر ما بينه وبين «الصداقة» من علاقات!. . فهو يقول: إن **«معرفة إرضاء أحد الزوجين للآخر فن نفيس، وإن كان صعبا فى حد ذاته، لأنه يستدعى كمال التربية، والإنصاف بالعدل، وقوة العقل، وذكاء الفطنة، واعتياد كل من الزوج والزوجة على تحسين أحوال المنزل المشترك بينهما، وتنظيمه وترتيبه وتنظيفه بقدر ما يمكن، ومعرفة الاعتناء بالوسائل التى تستدعيها «الصداقة» بين الزوجين، لاشتراكهما فى المنفعة العمومية..**[1] **فينبغى: أن يكون «الحب» الموجود فى قلب المرأة والرجل، بعضهما لبعض، عبارة عن وداد خالص، وصفاء فؤاد خلى من تجربة الغرام، مشوب بحرارة الشبوبية فى غالب الأحوال، فمتى تمكن «الحب» فى قلب كل منهما فجميع وسائل اللذة توجد فيهما، «المحبة» هنا مشوبة «بالصداقة» الأكيدة.. «فالصداقة» هى التى ينتج عنها بين الرجل وأهله كمال الاتحاد والائتلاف فى جميع الحركات والسكنات، والأحوال والأطوار، مع ما ينشأ من ذلك من تقوية الجذب والمسامرة والمحادثة، والتبسم، وإظهار التلطف والتعطف، من كل ما يؤثر فى النفس تأكيد المحبة، فتستحيل إلى عشق الشمائل المعنوية التى تبقى فى المرأة دائما وأبدا، فتخلف الجمال الظاهرى الزائل، وإنما يستحضر فقط ما كان عليه المعشوق، حتى أن بعض الرجال يرى زوجته بالعين التى رآها بها يوم عرسها**[2]**.. إن الإنسان الصادق فى حب من يهواه**

---

(١) المصدر السابق. الباب السادس. الفصل الرابع.

(٢) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الثامن.

يستصحب الأصل، ويرى إبقاء ما كان على ما كان، فكل ما انمحى من خارج العيان فهو موجود فى الأذهان!..[1].

وكما أن الرجل الكامل يرى زوجته بعين الإجلال والاحترام، كذلك الزوجة الكاملة المتحببة إلى زوجها لا ترى أن فى الدنيا رجلا يساوى زوجها، وربما أحبته حبين: حبا لذاته، وحبا لحقوق الزوجة، فهذه هى المحبة الراشدة..

فمن ذلك يعلم أن الواسطة الوحيدة فى استدامة الود بين الزوجين: ولو فقدت المحاسن الظاهرية، هى وجود الاحترام والإجلال بين النساء والرجال».

ثم يقدم الطهطاوى للرجل والمرأة مجموعة من الوصايا والنصائح، ويحدثهما عن مجموعة من القواعد التى تؤكد الحب بينهما وتوطد أسبابه ودعائمه، فيكشف لنا من خلال وصاياه هذه عن مفكر مؤمن بالمساواة بين الرجل والمرأة فى هذا الميدان، فالواجبات عليهما معا، لأن الثمرة لهما جميعا.. **فعليهما «أن يجتهدا فى تحببهما لبعضهما حبا تاما. وأن لا يذم أحدهما الآخر فى غيبته. وأن لا يغضبا فى وقت واحد. وأن لا يكلم أحدهما الآخر بصوت عال. وأن يخضع كل منهما لإرادة الآخر، الرجل بالحب، والمرأة بالطاعة!!. وأن لا يلوم أحدهما الآخر على زلة لم يتأكد وجودها فيه. وأن لا يلوم أحدهما الآخر على خطأ ماض. وأن لا يحوج أحدهما الآخر إلى تكرار الطلب فى حاجة. وأن يتمسك أحدهما بالآخر ولو كلفه فوات من سواه!! وأن لا يبكت أحدهما الآخر. وأن لا يفارق أحدهما الآخر، ولو يوما واحدا، من دون أن يودعه بكلمة محبة، لكى يتفكره بها مدة الغياب!!. وأن لا يلتقيا من دون ترحيب. وأن لا يدعا الشمس تغرب على غضب أو زلة!! وأن لا يدعا زلة ارتكباها تمضى من دون إقرار بها، وطلب السماح عنها. وأن لا يتأوها على ما فات، بل يرضيان بما يوجد. وأن يجعلا الصدق دأبهما فى معاملة أحدهما الآخر..».**

والأمر الذى لا شك فيه أننا هنا أمام دستور للحياة الزوجية، ما أجدره أن يكون

---

(١) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الخامس.

مادة درس ومصدر وعى لنا فى دور العلم وفى المنازل . كما أننا أمام تألق ساحر لفكر ذلك الشيخ المعمم الذى كتب هذا الحديث عن الحب والصداقة بعد أن تجاوز سن السبعين؟! فجاء «مشوبا بحرارة الشبوبية» حسب تعبيره ـ كما جاء تجسيدا لإخلاص الرجل لأمته، وعمق فكره فى معالجة قضاياها الاجتماعية المزمنة، وفى مقدمتها العلاقات بين الرجال والنساء! . .

ومن الأمور التى تجعل إعجابنا بفكر الطهطاوى فى «الحب» يتجاوز الحد، تلك العلاقات التى أبصر الرجل قيامها بين «نوع الحب» فى المجتمع وبين «طبيعة هذا المجتمع»، ودرجة تمدنه، ونوع ثقافته، بل ونوع الحكومة التى تحكم هذا المجتمع، وموقفها من العدل والظلم فى رعايا هذا المجتمع!! **فللحب، إذا، كعاطفة، وسلوك، و«قيمة» علاقة وثيقة بالنمط الاجتماعى والاقتصادى والفكرى الذى يسود فى مجتمع المحبين؟!..**

ولقد كان الطهطاوى صاحب وعى اجتماعى وحضارى أدرك به أن البشرية تتقدم، وأن مستقبلها أكثر إشراقا من ماضيها . . ولذلك حكم، بنظرته «المستقبلية»، أن الغد سيتيح تحقيق ما لم يحققه الأمس من الشروط اللازمة لتوافر ونضج العلاقات الصحية بين المحبين . . ففى «الأزمان المتأخرة ـ (القريبة) ـ أفكار الأهالى، لا سيما فى البلاد المتمدنة، متجهة صوب الشجاعة والحماسة، ونظافة العرض وحفظ الناموس، مع ما هم عليه من التعلق بالجمال، مع صون الكمال، فيتوصلون إلى جلب القلوب بالتلطف والاستعطاف، وينالون من نسائهم كمال الميل والانعطاف، وإن اختلف ذلك باختلاف الأقطار والأقاليم، جنوبا وشمالا، شرقا وغربا، **بل ربما رأيناه يختلف أيضا باختلاف الحكومات العادلة والظالمة، وربما اختلف باختلاف مراتب الأمم والدول والملل والنحل فى درجات التمدن والعمران!..**[1]».

ولقد فتح الطهطاوى كذلك فتحا جديدا فى الفكر العربى الإسلامى، عندما

---

(١) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الثامن.

تحدث، لأول مرة، عن منزل الزوجية باعتباره أمرا لا يخص الرجل وحده، بل والمرأة كذلك، وبنفس المستوى، حقوقا وواجبات، بدءا من الجزئيات الصغيرة فيه وانتهاء بحبهما وصداقتهما بعضهما لبعض. . فعنده «أن الزوجين المجتمعين فى بيت واحد، المتحدين قلبا وقالبا بالمحبة والألفة، يتوطنان فيه ويحبانه، ولا يخرج أحدهما إلا لعذر، فبهذا **يتسارعان فى تحصيل ما يلزم لهذا المنزل من الأثاث والمتاع والأهبة، وجميع الخيرات، ويحسنان إدارته**... بخلاف ما إذا نقض أحدهما أو كلاهما عهد المحبة والوداد، وزالت الأمانة من بينهما، فإن البركة تذهب من البيت، ويكثر فيه التشاجر والشقاق، وتشويش الخواطر، والبغضاء والشحناء، حتى يسرى ذلك من الآباء للأبناء. .[1]».

ولقد تعرض الطهطاوى، فى معالجته لقضية «الحب» وعلاقة الأزواج بالزوجات، لتطبيقات عملية تندرج تحت القواعد العامة والنظرات الكلية التى أفاض فيها. . .

فتعرض مثلا لمشاعر «الغيرة» عند الزوج على زوجته أو العكس. . ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى تفرقة الرجل بين «العرض والشرف» وبين «الغيرة» عند الرجل الفرنسى، فى حديثه عن المرأة الباريسية. . وهنا، فى حديثه عن «الحب» والعلاقات الزوجية، يفرق الرجل بين «الغيرة» فى حالة ما إذا كانت هناك أسباب تدعو إلى «الريبة». . فهى هنا «محمودة، يحبها الله تعالى». . أما إذا لم تكن هناك أسباب موضوعية تدعو أحد الطرفين «للارتياب» فى الآخر، فإن «الغيرة» عندئذ تكون «مذمومة، ويبغضها الله تعالى!![2]».

وتعرض الطهطاوى لدرجة «العفة» عند المرأة، ومقدار «العصمة» التى تتمتع بها. . . فقلب مفهومات عصره والعصور السابقة عليه رأسا على عقب. . وذلك عندما قال: **إن «درجة الفضيلة فى النساء، كالعفة والعصمة، أشد منها فى**

---

(١) المصدر السابق. الباب السادس. الفصل الرابع.

(٢) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الأول.

الرجال، بحيث يبلغن فى درجة الحياء أوج الكمـال، فإن المرأة العفيفة الكريمة النفس تتحمل أثقال الحركات النفسانية عند الاحتياج إليها مما يعجز صناديد الرجال الصبر عليـه.. فمن تأمـل فى نوع البشـر ظهـر له أن الأنثى لم تقـتسم مع الرجل نـصيبهـا مناصـفـة من اللذات والآلام، فـهى دونه فى مـلاذ الدنيـا، وأكثـر منه فى التـعـرض للأغرض الخاصة بها، لا سيما مـا يعترى الرجال، حتى أن المرأة لا تتمتع بمطلوبها إلا إذا ذاقت فى مـقـابلتهـا شـديد الأوجـاع، فلذتهـا المباحـة لا تنالهـا إلا ببـذل للقـوة والصحـة، وربما فقدت الحيـاة بقضاء وطرها، كأن تنطلق «بالطلق» ـ (عند الولادة) ـ إلى دار الحق!..[1]».

وتعـرض الطهطاوى لموضـوع تعـدد الزوجـات، ونحن لا نقـول: إن الرجل قـد وقف من هذا الموضوع أكثر المواقف تقدما فى القرن التاسع عشر ـ فلقد جاء بعده الشيخ محمد عبده ليقف من هذه المعضلة أكثر المواقف تقدما واستنارة منذ عصره وحتى الآن[2]؟! ولكن محمد عبده قد فكر وكتب بعد وفاة الطهطاوى بسنوات. . أما عندما فكر الطهطاوى وكتب فى هذه القضية، فإنه كان ـ كالعهد به ـ رائدا فى تقدمه واستنارته فيها أيضا. .

ولقد سبق أن أشرنا إلى إيمان الرجل «بوحدانية» الحب والزوجة فى موقفه هو، وفى منزله، وحياته الخاصة، وسقنا فقرات من الوثيقة التى كتبها بخطه لزوجته، ووقعها بإمضائه وختمها بخاتمه، ومتعهدا أن لا يتزوج غيرها، وأن لا «يتسرى» بجارية من الجوارى ملك اليمين. .

أما فكره فى هذه القضية، كقضية عامة، فإنه يتلخص فى اعتباره التعدد «مكروها» والاقتصار على الزوجة الواحدة «مندوبا». . وفى ضرورة وجود «علة ظاهرة» تدعو للتعدد. . وفى اشتراطه «تحقق العدل» بين الزوجات. . فهو يقول:

---

(١) المصدر السابق. الباب الثانى. الفصل الثانى.

(٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ١ ص ١٦٧ وما بعدها.

«وندب أن لا يزيد على امرأة من غير حاجة ظاهرة» والتعدد عنده قد أباحه الله لطفا بالذين تتجاوز بهم الرغبة الجنسية الزوجة الواحدة، لكن بشرط العدل بين الزوجات، فقال (تعالى): ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: ٣)، وقد ورد عنه، صلى الله عليه وسلم: «من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»، وفى رواية «ساقط». . !

ثم يورد الطهطاوى قول الحكماء: إن «من الحزم أن لا يغتر الرجل بما تظهر له المرأة من عدم غيرتها، والرضى بأن يتزوج عليها. . » كما يحكى تجربة ذلك الشيخ الصوفى - «عبد العزيز الدرينى» - الذى تزوج بزوجة أخرى غير زوجته الأولى، فعاش نكدا، ثم صاغ تجربته المرة نثرا وشعرا. . فمما قال: «**إيّاك أن تتزوج على إمرأتك، أو تتسرى عليها، إلا إن وطنت نفسك على نكد الدهر!!**[1]».

وكما عرض الطهطاوى لأوصاف المرأة المعنوية، فأفاض فى الحديث عن خلقها المرغوب وشمائلها المطلوبة، كذلك عرض لأوصافها الحسية، وعناصر الجمال فيها، فنم فكره عن ذوق متحضر وحسن إنسان عاشق للجمال فى صورته الشرقية المتحضرة فعنده أن السمرة - وهى لون العرب - «أشرف الألوان وأحسنها!![2]». . . وعنده «أن أفضل النساء: المجدولة، التى ليست بالسمينة ولا الضامرة، فخيار الأمور أوساطها!![3]».

وهكذا نجد أنفسنا ونحن نطالع الصفحات التى أودعها الطهطاوى فكره عن المرأة، أننا حيال مفكر فذ تفرد فى عصره بالريادة فى كثير من المجالات. . ونحن لا نغالى إذا قلنا: إن حديث الطهطاوى عن «الحب» والعلاقة بين الزوجين يضع له فى فكرنا العربى الحديث مكانة «ابن احزم» (٩٩٤ - ١٠٦٤م) صاحب كتاب

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الخامس. الفصل الأول.
(٢) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الثالث.
(٣) المصدر السابق. الباب الخامس. الفصل الخامس.

(طوق الحمامة فى الإلف والإيلاف) فى تراثنا القديم. . فابن حزم كان أول من ألف فى الحب كتابا جعل منه «علما». . والطهطاوى، فى عصرنا الحديث، كان أول من تحدث عن «الحب» «كفن» مؤسس على العواطف الراقية والمعارف والآداب. . بل لقد امتاز الطهطاوى على ابن حزم بما يمتاز به «الفن» على «العلم» فى هذا الميدان؟!!

نظرة جديدة للعلم والعلماء

[إن دراسة العلم، فى حد ذاتها، أفضل ما يشتغل به الإنسان، وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته، وأفضل لذات الدنيا. .

وإن الفنون الأدبية، المسماة بعلوم العربية، كلها آلة للعلوم الحقيقية، عقلية أو نقلية، فالمعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضهما ببعض، لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات، ولأن كلا منهما متوقف على الآخر . .].

الطهطاوى

قبل عصر الطهطاوى كانت هناك «نغمة» عالية - وإن لم تكن وحيدة فى الميدان الفكرى - يرى أصحابها أن الاشتغال بالعلوم التى تصرف الإنسان عن إعطاء كل عمره للعبادة هو ضلال وعبث لن ينفع الإنسان فى حياته الأخرى، هذا إذا لم يضره؟! ولقد عبر أصحاب هذه «النغمة» عنها نثرا وشعرا. . ومن شعرهم الركيك الذى قالوه، قول بهاء الدين أبو حسين العاملى لمن يصرف عمره فى جمع كتب العلم ومطالعتها:

على كتب العلوم صرفت مالَك ... وفى تصحيحها أتعبت بالك

وأنفقت البياض على السواد ... إلى ما ليس ينفع فى المعاد؟!

وقول الآخر:

أيها القوم الذى فى المدرسة ... كل ما حصلتموه وسوسة!

فكركم إن كان فى غير الحبيب ... ما له فى النشأة الأخرى نصيب

فاغسلوا بالراح عن لوح الفؤاد ... كل علم ليس ينجى فى المعاد؟![1]

ولقد واجه الطهطاوى هذه «النغمة» العالية، شبه السائدة، عندما تحدث عن قيمة العلم فى الحياة الدنيا. . بل وعن أن تعلم العلم والاشتغال به هو «قيمة» فى حد ذاته، بل ونوع من التطيب للنفس البشرية تبرأ به من كثير من همومها ووساوسها، وأسقامها، فقال: إن «دراسة العلم، فى حد ذاتها، أفضل ما يشتغل به الإنسان، وأحلى ما يصرف فيه أوقات حياته، وأفضل لذات الدنيا. . . إن

---

(١) (تخليص الإبريز) المقدمة. الباب الأول.

مطالعة الكتب لا يضيق منها صدر الإنسان فى مدة عمره، وفى مبادئ وأواخر أمره، لأنها تصلح حال الشبان، وتنفع فى حال الكهولة، وتخفف الآلام وتفيد الصبر على نوائب الأيام. . وهى لأهل المدن فكاهة ورفاهة، ولأهل الريف مشغلة ونباهة، وفى الأسفار تخفف وعثاء السفر، كما تلطف أحوال أهل الحضر، وهى وقاية تحفظ من القلق والوساوس، وينتصر بها الإنسان القلق والأرق، فهى خير واق وحارس!![1]».

وقبل عصر الطهطاوى أيضا كان الشعر العربى والأدب العربى قد تحدث كثيرا عن «السيف» و«القلم» وأيهما «أرفع» وأيهما «أنفع». . ولكن العصر المملوكى الذى ساد فيه فرسان الإقطاع المماليك، «بالسيف» لا «بالقلم»، أعلى من قدر «السيف» على «القلم»، ولقد عكس ذلك وجسد امتهان العلم والخط من قدر العلوم والعلماء. .

ولقد واجه الطهطاوى هذا التقييم الخاطىء لكل من القوتين: «السيف»، الذى يرمز للقوة، و«القلم»، الذى يرمز للعقل. . فقال، بعد أن أشار إلى ما فى تراثنا الشعرى والنثرى من مناظرات حول هذا الموضوع، إنه «ولو أن بكل من السيف والقلم قوام الممالك، إلا أن تقديم الثانى على الأول أقرب، لأن بالأقلام تساس الأقاليم، فالقلم أنفع من السيف، وإن كان مركز السيف فى المجتمع أرفع منه[2]» لأنه هو أداة الحاكمين وسبيلهم إلى الوصول للسلطة والاحتفاظ بها!!

وقبل عصر الطهطاوى كانت «النغمة» السائدة تقول: إن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئا، أو شيئا يذكر وذا قيمة على أقل تقدير. . وأن الخير، كل الخير، فى «التقليد» و«الاتباع» والشر، كل الشر، فى محاولات «التجديد» و«الابتداع». .

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الثالث. الفصل الرابع.

(٢) (مناهج الألباب) الخاتمة. الفصل الثالث. و(تخليص الإبريز) المقالة السادسة. الفصل الثالث.

ولقد واجه الطهطاوى أصحاب هذه «النغمة»، بحسم المعارض القوى فيما يتعلق بالعلوم الحديثة المستجدة، وبالذات العلوم العملية، التى كان يسميها علوم «الحكمة العملية والطرائق المعاشية» . . وعاب على من يقرأ ويحفظ فى كتاب (جوهرة التوحيد) قول الناظم:

وكل خير فى اتباع من سلف   وكل شر فى ابتداع من خلف

أخْذَه (هذا القول) على ظاهره، فى أمر الدين والدنيا، والمعاد والمعاش، والترقى فى الرفاهية والزينة».

عاب الطهطاوى هذا التعميم . . ومن موقعه السلفى السنى المحافظ فى الإلهيات والمعتقدات، سلم بصواب «التقليد» و«الاتباع» فى «الأمور الدينية، واتباع الأحكام الشرعية من الحلال والحرام، دون المباح» . . ولكنه من موقع الرائد لعصر التنوير العربى، الفاتح عقل أمته على علوم الحضارة الحديثة ومعارفها أنكر الوقوف عند إنجازات السلف، وقال: إن «مخترعات هذه الأعصر، المتلقاة عند الرعايا والملوك بالقبول، كلها من أشرف ثمرات العقول، يرثها، على التعاقب، الآخر عن الأول، ويبرزها فى قالب أكمل من السابق وأفضل[1]» . . بل لقد دعا الرجل إلى الاجتهاد، وإعادة النظر فى تفسيرات السلف للنصوص المأثورة، «**فلقد يستنبط من كلام النبوة ما لا يخطر ببال الصحابى،** كما يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «**من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين، فرب مبلغ أوعى من سامع**[2]» . . وكما يشهد لذلك قول الإمام مالك: إنه «إذا كانت العلوم منحا إلهية، ومواهب اختصاصية، **فليس بمستبعد أن يدخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين**..[3]».

ومن هذا المنطلق العصرى الذى انطلق منه الطهطاوى نبعت نظرته الجديدة

---

(١) (مناهج الألباب) الخاتمة . الفصل الرابع .

(٢) (القول السديد فى الاجتهاد والتجديد) تعريف التقليد وتحرى الاجتهاد .

(٣) (المرشد الأمين) الباب السابع . الفصل الثانى .

لمضمون «العلم» ومضمون مصطلح «العلوم» . . فقبل عصره ـ وعلى الأقل طوال عصورنا المملوكية العثمانية ـ كان مصطلح «العلم النافع» خاصا بعلوم الدين، وأغلب الذين عرضوا بالتفسير لحديث الرسول، عليه السلام، الذى يقول فيه: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» قد فسروا «العلم النافع» بعلوم الدين . . . ولكن الطهطاوى ـ وهو الذى أسهب فى شرح هذا الحديث شرحا عصريا ـ قد قرر أن سائر أنواع العلوم، بما فيها علوم الحرف والصنائع، داخلة فى هذا الباب ولها هذا الشرف العظيم . . «فالعلم النافع، سواء كان اجتهادا، كاجتهاد المجتهدين وعلومهم المخلدة عنهم، أو تدوين المدونين الواضعين للعلوم الشرعية والآلية والفنون، **وكل علم نافع للملة، ولو صنعة، فإنها ذات قواعد وموضوعات، فإنها تدخل فى العلم، فيدخل فيه كتب الزراعة والتجارة ونحوها، اختراعا أو تكميلا، فكل هذه الأشياء اختراعها وتدوينها والتأليف فيها، وتكثير كتبها، بكتابة وطباعة، مما يحتمله فحوى العلم النافع..**[1]» .. ذلك «أن الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الملك، وتحسين الحالة المعاشية للأمم والآحاد . . . فالفنون التى هى وسائل ذلك ليس عنها مندوحة، وهى فى الشرع ممدوحة، فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله عليه وسلم: «أو علم ينتفع به، **شامل لتعليم المعارف النافعة، سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعات أو آلات، فإنها لا تخلو عن مدارك علمية..**[2]».

وتبعا لهذا الموقف الجديد من معنى «العلم» اتخذ الطهطاوى موقفا جديدا من معنى مصطلح «العلماء» . . . فقبل عصره كان المراد «بالعلماء» هم علماء الشريعة فقط . . أو كان ذلك على الأقل فى عصورنا الوسطى . . . ولكن الطهطاوى، وربما لأول مرة أيضا، يفرق بين «العلماء» وبين «أمناء الدين»؟! عندما يتحدث عن العلماء، والقضاة، وأمناء الدين[3] . . الذين هم علماء الشريعة . . ولقد سبق أن

(١) المصدر السابق. الباب السابع. الفصل الأول.

(٢) (مناهج الألباب). الباب الأول. الفصل الأول.

(٣)المصدر السابق. الخاتمة.

أشرنا إلى حديثه عن علماء فرنسا، وكيف أنهم غير «القسوس!!». يصنع الطهطاوى ذلك حينا.. وحينا آخر يوضح أن مصطلح «العلماء» ليس مقصورا على «علماء الشريعة» بل يشمل سواهم من علماء الفنون والصناعات.. إذ «المراد بعلماء الشريعة: العارفون بالأحكام الشرعية والعقائد الدينية، أصولا وفروعا، يعنى الأحكام المتعلقة بالعمل، عبادات ومعاملات، **ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التى يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية، لأن الوسائل تشرف بشرف المقاصد.. وكذلك يحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج إليها فى الدولة والوطن، كعلم الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلكيات، والطبيعيات، والجغرافيا، والتاريخ، وعلوم الإدارة والاقتصاد فى المصاريف، والفنون العسكرية، وكل ما كان له مدخل فى فن أو صناعة فإن أهله يجب إكرامهم من أهل الدولة والوطن. وكذلك يجب إسداء المعروف واصطناعه لأرباب المعارف الأدبية والفصاحة العربية..**»[1].

بل لقد خطا الطهطاوى خطوة أبعد من ذلك.. عندما حدّث معاصريه عن أن ما شاع بينهم من قصر مصطلح «العلوم» على العلوم النظرية هو خطأ محض، فهذه العلوم، فى جملتها، هى «أدوات» للوصول إلى «العلوم الحقيقية» وآلات لها.. ثم ثنى على شيوخ عصره فقال لهم إنه حتى ما فى أيديهم ليست هى العلوم النظرية والآلات والأدوات!.. فالذى عندهم هو «النحو» وعلوم العربية، لا الفصاحة والبلاغة والبراعة فى الإنشاء، «ولا يستفتى فى حسن الكلام - (مثلا) - إلا الكتاب البلغاء أو الشعراء المفلقون، لا علماء العربية!!».

يقول الطهطاوى: إن «الفنون الأدبية، المسماة بعلوم العربية، وهى: النحو، والصرف، والبيان والمعانى، والبديع، والخط، والعروض والقوافى، وقرض الشعراء، والإنشاء والمحاضرات، ولا سيما اللغة، **وكل ما يعين على تحسين العبارات العلمية، كلها آلة للعلوم الحقيقية، عقلية أو نقلية**، فبالتمكن من الفنون

---

(١) المصدر السابق. الخاتمة. الفصل الثانى.

الأدبية يقتدر الإنسان على التعبير عما فى الضمير بأحسن عبارة وأوضح إشارة، ويحصل على ملكة تأدية العبارات العلمية بما يقتضيه الحال من اختصار أو بسط . . ».

ثم يتحدث الطهطاوى عن العلاقة «الجدلية» بين هذه العلوم والأدوات والآلات وبين العلوم الحقيقية، فيقول «**إن المعارف الأدبية والعلوم الحقيقية متعلق بعضها ببعض، لكمال ما بينهما من الروابط والمناسبات، وإن كلا منهما متوقف على الآخر.. فالعلوم الأدبية تكسو العلوم الحقيقية طلاوة جلية.. فنهاية الآداب تحسين العبارات وتزيينها بالتلطيف والانسجام، لتكون بهذا المعنى مفتاحا لأبواب العلوم الحقيقية، كما أن العلوم الحقيقية تعين بالكلية والجزئية على كمال توسيع دائرة الآداب فى كل لسان، لا سيما لسان العرب**[1]..».

وهكذا قدم لنا الطهطاوى، ضمن ما قدم، نظرة جديدة، عصرية ومستنيرة، على ميدان العلم والعلماء. . فكان رائد عصرنا الحديث فى هذا المجال أيضا . .

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الثالث. الفصل الثامن.

نظرات فى التربية والتعليم

[إن التربية العمومية هى الحصول على تحسين عوائد الجمعية التأنسية ومعرفة آدابها، علما وعملا، والتأدب بآداب البلاد . . . وذلك بتنمية الصغير جسدا وروحا وأخلاقا، بقدر قابليته واستعداده . . .

وإن الأمة التى تتقدم فيها التربية، بحسب مقتضيات أحوالها، يتقدم فيها، أيضا، التقدم والتمدن، على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية، فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها، فالتربية هى أساس الانتفاع بأبناء الوطن . . .

والتعليم الأولى ضرورى لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء . . . وينبغى للحكومة المنتظمة ترغيب الأهالى وتشويقهم لما فوقه من مراحل التعلي فهو ما به تمدين جمهور الأمة وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران . .].

الطهطاوى

فى (بطاقة حياة) الطهطاوى، التى قدمناها فى صدر هذه الدراسة، عقب (التمهيد)، أظهرت وقائع حياة الرجل ومواقفه وإنجازاته الدور الأعظم الذى لعبه فى حياة أمته، فى ميدان التربية والتعليم، وخاصة فى عهد محمد على وابنه إبراهيم. .

ولقد صاحب تولى الخديو عباس الأول الحكم ردة رجعية عصفت بهذه الجهود التربوية التى صنعها رفاعة وتلاميذه، وأغلقت المؤسسات التربوية التى كانت قد فتحت لأبناء الشعب كى يتعلموا فيها. . وعندما ذهب عباس وجاء سعيد عادت الروح جزئيا إلى هذه المؤسسات، وعاد لذلك الطهطاوى من منفاه بالسودان، ولكن جهود عهد سعيد لم تتسع لتستوعب كل طاقات الطهطاوى فى التربية والتعليم، وانتظرت هذه الجهود، مقيدة حينا، عاطلة عن العمل بالكلية أحيانا، حتى ولى الحكم فى مصر الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٣م. .

وكان إسماعيل «شخصية مثقفة ونشيطة. . حصل على تعليمه فى فرنسا، وكان شديد الميل إلى الغرب، يبتغى جعل مصر جزءًا من أوروبا. . .[1]» فاستفادت الحركة التربوية التعليمية من هذه الميول لديه، وعاد الطهطاوى يعمل فى هذا الحقل بكامل طاقته التى لم تعرف الحدود. .

فلقد أعيد «ديوان المدارس» ـ أى وزارة التربية والتعليم ـ وكان رفاعة العضو الوحيد الدائم فى «قومسيون» ذلك الديوان «للنظر فيما يجب نحو افتتاح المدارس الجديدة» وضمت إلى مهامه ومناصبه عملية الإشراف والرئاسة «لمجلس المكاتب

(١) (تاريخ الأقطار العربية الحديث) ص ١٨٩، ٢٠٠.

الأهلية» . . وكذلك الإشراف على تدريس اللغة العربية بالبلاد . . وتأليف بعض الكتب الدراسية . . فضلا عن الترجمة . . إلخ . . إلخ . .

وحتى تتضح لنا أبعاد النشاط الذى شهدته البلاد فى ذلك الحين فى ميدان التربية والتعليم يكفى أن نعلم :

* أن اللغة العربية قد أصبحت اللغة الرسمية الوحيدة فى مصر - فى عهد سعيد - بعد أن اختفت التركية نهائيا من هذا الميدان(١) .

* وأن ميزانية التعليم زادت من ٦,٠٠٠ جنيه فى عهد سعيد إلى ٨٠,٠٠٠ جنيه فى عهد إسماعيل ، ثم أضيف إلى هذا المبلغ دخل الأرض التى استردها إسماعيل من شركة قناة السويس .

* وأن التعليم قد أصبح مجانيا . . وقامت «مدارس للبنات كانت الأولى من نوعها ، لا فى مصر وحدها ، بل فى الدولة العثمانية كلها . . . وأنشىء متحف «بولاق» الشهير ، وزيد فى مكتبة القاهرة - (الكتب خانة الخديوية) - ما جعلها من أعجب مكاتب الدنيا» .

* وأن عدد المدارس الأولية - وتشبه الإعدادية الآن - قد كان فى سنة ١٨٦٣م ١٨٥ مدرسة بلغت فى سنة ١٨٧٥م ٤,٦٨٥ مدرسة يتعلم بها ١١,٨٠٣ طفلا . . وذلك عدا المدارس الخاصة ، والثانوية ، والعالية المتخصصة التى كانت تتبع الحكومة أو «البلديات» فى الأقاليم .

* وأن الجيش المصرى قد تحول إلى مدرسة لتعليم أبنائه ومحو أميتهم ، حتى لينقل «تيودور رتستين» عن تقرير للقنصل البريطانى بالقاهرة يومئذ ، أنه قد أقيمت فى كل فرقة من فرق هذا الجيش مدرسة ، وأن لجنة التعليم الحربى لم تجد فى الجيش سنة ١٨٧٢م سوى ٤٢ أميا فقط؟!!(٢) .

وأمام هذا النشاط «التربوى - التعليمى» الكبير ، نجد الحاجة ماسة لإلقاء الضوء

---

(١) المرجع السابق . ص ١٩٩ .

(٢) (تاريخ المسألة المصرية) ص ٣٦، ٣٧ .

على «نظرية رفاعة التربوية» ومنهجه فى التعليم، حتى تكتمل لنا أبعاد الصورة، فلا نكون قد رأينا منها جانب «الكم» دون «الكيف» . . فما هى المعالم الرئيسية لما يمكن أن نسميها «نظرية رفاعة التربوية»، من واقع فكره الذى أودعه آثاره الفكرية التى خلفها لنا؟؟ . .

أولا: يؤمن الطهطاوى - بالطبع - بأهمية تقسيم المعارف تقسيما يتناسب مع سن المتلقى لها، من ناحية، ومع استعداده وميوله، من ناحية أخرى . . . فهناك معارف عامة وأساسية، يسميها الطهطاوى «المعارف الابتدائية»، ولابد لكل إنسان من تحصيلها فى بدء عهده بالتعليم . . وهى «المعارف الابتدائية التى يشترك فيها كل فرد من أفراد الجمعية التأنسية، وهى: الكتابة والقراءة، وما يحتاج إليه فى دينه من العقائد، وغيرها، وأصول الحساب، ونحو ذلك من السباحة والعوم، والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمى واللعب بالرمح والسيف وأشباه تلك من آلات الحرب ليتمرن على وسائل الدفع(*) عن وطنه والمحاماة عنه . فإن هذه الأشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الأطفال فى زمن الشبوبية عليها . . ».

ثانيا: وبعد مرحلة «المعارف الابتدائية» يطلب الطهطاوى من أولى الأمر دراسة ميول الصبيان واستعداداتهم، حتى يوجهوهم إلى ما يناسب ويلائم ما لديهم من استعداد «فيجب على الولى أن يتأمل فى حال الصبى، وما هو مستعد له من الأعمال ومتهىء له منها، فيعلم أنه مخلوق له، لحديث، «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»، فلا يحمله على غيره، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه عادة، فيفوته ما هو متهىء له . فإذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيا، فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون، وتهيئه لها، فلينقشها فى لوح قلبه . . وإن رأى عينيه طامحة إلى صنعة من الصنائع، مستعدا لها، قابلا عليها، وهى صناعة مباحة، نافعة لأهل وطنه، فليمكنه منها . . [1]».

(١) (مناهج الألباب) الباب الأول . الفصل الأول . وانظر كذلك (المرشد الأمين) الباب الرابع . الفصل الثالث .

(*) المقصود: الدفاع . (الشروق) .

ثالثا: وترتبط عند الطهطاوى بمراعاة ميول الصبية واستعداداتهم، واتخاذ هذه الميول والاستعدادات معايير لتحديد نوع العلوم ونوع الحرف والصناعات التى يوجهون إلى تحصيها وإتقانها . . ترتبط هذه الفكرة لدى الطهطاوى بموقف يرفض ما يمكن أن نسميه «**طبقية التعليم**» التى كانت تعنى أن ينحصر الأبناء فى حدود صناعات الآباء وحرفهم، وهى الفكرة والنظام التعليمى الذى ارتبط بالعصر الإقطاعى، ونظام «طوائف الحرف»، حيث كان ابن الفلاح ينشأ فلاحا فقط، وابن الحداد حدادا، وابن النجار نجارا، وابن رجل الدين شيخا . . إلخ . . إلخ . .

يرفض الطهطاوى هذا الموقف الإقطاعى فى التربية، ويناقش أصوله وتاريخه ودعاته عندما شرح مواد الدستور الفرنسى فى (تخليص الإبريز) . . فالمادة الثالثة تتيح لكل إنسان مواصلة التعليم، بلا عوائق أو قيود «حتى يقرب من منصب أعلى من منصبه . . وبهذا كثرت معارفهم ولم يقف تمدنهم على حالة واحدة، مثل أهل الصين والهند ممن يعتبر توارث الصنائع والحرف ويبقى للشخص دائما حرفة أبيه» .

ويمضى الطهطاوى ليقول : «وقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر فى سالف الزمان كانت على هذا المنوال، فإن شريعة قدماء القبطة ـ (القبط) ـ كانت تعين لكل إنسان صنعته، ثم يجعلونها متوارثة عنه لأولاده . . قيل : سبب ذلك أن جميع الصنائع والحرف كانت عندهم شريفة، فكانت هذه العادة من مقتضيات الأحوال، لأنها تعين كثيرا على بلوغ درجة الكمال فى الصنائع» .

وبعد أن عرض الطهطاوى وجهة نظر دعاة «طبقية التعليم» عارضهم وفند رأيهم هذا بقوله : « . . . ويرد عليه : أنه ليس فى كل إنسان قابلية لتعلم صنعة أبيه، فقصره عليها ربما جعل الصغير خائبا فى هذه الصنعة، والحال أنه لو اشتغل بغيرها لنجح حاله وبلغ آماله[1]» . . ويزداد إدراكنا لمدى تقدم موقف الطهطاوى هذا إذا علمنا أن أصحاب الدعوة إلى «طبقية التعليم» قد كانت لهم سيادة فى فترات كثيرة

---

(١) (تلخيص الإبريز) المقالة الثالثة . الفصل الثالث .

من تاريخ البلاد، لا قبل عصر الطهطاوى فقط، بل وبعد عصره، وأن هذا الموقف قد حبذه محمد عبده بعد الطهطاوى بسنوات[1]!!

رابعا: يقسم الطهطاوى مراحل التعليم العام و «التربية العمومية» إلى ثلاثة أقسام.. مرحلة التعليم الأولى، وتشبه عندنا الآن «مرحلة التعليم الإعدادى».. ثم مرحلة التعليم الثانوى، وتشبه تعليمنا الثانوى المعاصر وبعضا من المواد والمناهج فى بعض الكليات الجامعية والمعاهد العليا... ثم مرحلة «درجة العلوم العالية»، وهى تشبه «الدراسات العليا» عندنا هذه الأيام..

وينبه الطهطاوى على ضرورة شيوع «التعليم الأولى» لكل أبناء الشعب، بصرف النظر عن أوضاعهم الاجتماعية والطبقية.. فهم محتاجون إليه احتياجهم إلى «**الخبز والماء**» - حسب تعبيره؟!.

كما ينبه على ضرورة التوسع فى «التعليم الثانوى» حتى يشيع بين سائر المواطنين أيضا... أما درجة «العلوم العالية» - التى قلنا إنها تساوى «الدراسات العليا» فى الجامعات عندنا اليوم - فإن الطهطاوى يطلب قصرها على أبناء الأغنياء الموسرين الذين لا تعطلهم هذه الدراسات المتخصصة عن الحرف والصناعات التى يقدمون بها للشعب احتياجاته؟! ولا شك أن هذا الموقف من الطهطاوى - فى هذه الجزئية من فكره التربوى - هو أثر من آثار عصره، بآفاقه الاجتماعية المتخلفة عن آفاق عصرنا، كما هو أثر من آثار الفكر البورجوازى الوطنى الذى كان الطهطاوى أبرز رواده عندنا فى القرن التاسع عشر..

يقسم الطهطاوى مراحل التعليم هذا التقسيم، ويتحدث عنه فى قوله: «.. أما التربية العمومية.. فهى ما يتعلمه الذكور والإناث فى المكاتب والمدارس وفى سائر مجامع المعارف التى يجتمع فيها للتعليم عدد مخصوص من المتعلمين.. وهذا القسم ينقسم إلى ثلاثة أقسام: تعليم أولى ابتدائى.. وتعليم ثانوى تجهيزى.. وتعليم كامل انتهائى..

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) ج ١ ص ١٦١ - ١٦٤.

فالتعليم الأولى: ما يكون فيه أهل المملكة على حد سواء، فهو عام لجميع الناس، يشترك بالاشتغال فيه والانتفاع به أبناء الأغنياء والفقراء، ذكورهم وإناثهم، وهو عبارة عن: تعلم القراءة والكتابة - فى ضمن تعليم القرآن الشريف - وأصول الحساب، والنحو.. **فالتعليم الأولى.. ضرورى لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء!!**

وأما التعليم الثانوى: الذى درجته أعلى من درجة ما قبله، فهو فى الغالب لا يلتفت إلى البراعة فيه غالب الأهالى، لصعوبته، **فينبغى للحكومة المنتظمة** ترغيب الأهالى وتشويقهم فيما يخص هذا النوع، فهو ما به تمدين جمهور الأمة، وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران.

وأنواع هذا القسم التعليمى كثيرة، فمما ينبغى أن يشتغل به أبناء الأهالى منها الأهم فالمهم، كالعلوم الرياضية بأنواعها، والجغرافية، والتاريخ، والمنطق، وعلم المواليد الثلاثة - (الحيوان، والنبات، والمعادن) - والطبيعة، والكيمياء، والإدارة الملكية - (السياسية) - وفنون الزراعة، والإنشاء والمحاضرات، وبعض الألسنة الأجنبية التى يعود نفعها على الوطن.

وأما درجة العلوم العالية: فهى اشتغال الإنسان بعلم مخصوص يتبحر فيه، بعد تحصيله علوم المبادئ والتجهيزات، كعلم الفقيه، والطبيب، والفلكى، والجغرافى، والمؤرخ، من كل علم يجب تعلمه وجوب كفاية، ويريد صاحبه أن يجول فى أصوله وفروعه غاية الجولان، حتى يكون كالمجتهد فيه، فهو عبارة عن بعض أفراد فى مملكة من الممالك يكون لهم استعداد وقابلية لبلوغ أقصى نهاية المعارف التى بها نظام المملكة، ليكونوا كالمجتهدين فيها..

وكما أن التعليمات الأولية والمعارف العمومية يجب أن تعم جميع أولاد الأهالى، فقيرهم وغنيهم، يجب أيضا أن يكون التعليم الثانوى منتشرا فى أبناء الأهالى، القابلين له، الراغبين فيه، فيباح لهم التعليم والتعلم ليكونوا من الدرجة الوسطى، بخلاف درجة العلوم العالية، المعدة لأرباب السياسات والرئاسات وأهل

الحل والعقد فى الممالك والحكومات، فإنه ينبغى أن يقتصد فى تعليمها، والتضييق فى نطاقها، بحيث يكون عدد تلامذتها محصورا، وعلى أناس قلائل مقصورا، بمعنى أن كل من طلب الاشتغال بالعلوم العالية لا بد من أن يكون صاحب ثروة ويسار، ويكون يساره مقيدا بقيود خاصة فى الغنى والاعتبار، بحيث لا يضر تفرغه للعلوم العالية بالمملكة، فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها، وينتفع به الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل فى دائرة معالى المعارف التى لا تصلح أن تكون له بضاعة، فلا ينبغى أن يرخص للتلامذة المتعلمين العلوم الأولية والثانوية أن ينتظموا فى سلك أرباب المعارف القصوى إذا كانت فى حقهم قليلة الجدوى!..[1]»

وإذا كنا قد قلنا: إن موقف الطهطاوى من علوم الدراسات العليا، و «المعارف القصوى» - بتعبيره - ومن ضرورة قصرها على أبناء الأغنياء، قد كان ثمرة لفكر عصره الاجتماعى، ولفكره البورجوازى الوطنى، فإننا يجب أن ننصف الرجل فنقول: إننا بعد قرابة قرنين من ريادة الطهطاوى وقيادته لحركة البعث والإحياء العربية لا نزال دون تحقيق الآمال والأهداف التى حددها الرجل فى مجال التربية والتعليم.. فلا زلنا بعيدين عن أن يكون التعليم الابتدائى - ويقابله الإعدادى اليوم - شائعا وعاما شيوع «الخبز والماء».. ولا زلنا بعيدين عن انتشار التعليم الثانوى الانتشار الذى أراده له الطهطاوى كى يكون وسيلة «تمدين لجمهور الأمة وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران..؟!».

خامسا: لقد حدد الطهطاوى دور كل من «المنزل» و «الدولة» فى عملية التربية والتعليم، فالتربية تنشأ أول ما تنشأ بالمنزل.. و «تربية الولد ينبغى أن تكون فى بيت أمه وأبيه، **وهى التربية اللائقة للبيت**[2]... ففى أوائل حداثة الأولاد، ذكورا وإناثا، ينبغى إناطة تربيتهم بالنساء، مع ملاحظة الأمهات..[3]».

---

(١) (المرشد الأمين) الباب الثالث. الفصل الأول.

(٢) المصدر السابق. المقدمة. الفصل الرابع.

(٣) المصدر السابق. المقدمة. الفصل الأول.

ويفـضل الطهطاوى أن تشـتـرك الأمـهـات فى تربيـة أولادهن فى هذه المرحلة المبكرة، لما لهذه التربية من أثر يرسخ فى الملكة عند الصغار يلازمهم عندما يواجهون فى مستقبلهم بنفس المهام. . فعنده أن «**كل امرأة لم تربها أمها فى صغرها لم ترغب فى تربية أولادها فى كبرها..**[1]»

أما «الدولة» فإن دورها فى نشر المعارف والعلوم والتربية والتعليم لا غنى عنه أبدا، ذلك « أن العلوم لا تنشر فى عـصـر إلا بإعـانة صـاحب الدولة لأهله، وفى الأمثال الحكمية: الناس على دين ملوكهم؟![2]».

سادسا: يعيب الطهطاوى اللجوء إلى «العقوبات البدنية» كوسيلة من وسائل التربية والتعليم. . ويهاجم الذين يستخدمونها. . كما ينبه إلى أهمية « الألعاب» المنظمة، و «الترفيه» عن الصبية فى تفتيح مداركهم وتجديد أنشطتهم وترغيبهم فى الدرس والتحصيل، فيتحدث عن ذلك قائلا: « . . . أما ما يفعله معلمو القرآن الشريف، وشدة تعنتهم وضربهم للأولاد الصغار المبتدئين فى التعليم، فهو خروج عن حد الشرع، **ويترتب على ذلك أن الأولاد يمتنعون من الكتابة والقراءة لما يرونه من ذلك، فلو عـاملوهم بالرفق والحيلة فى التـعليم لما امتنعـوا عن ذلك، خصـوصا، وأنهم مفارقون اللعب إلى الحبس والضـيق... وكذلك ينبغى للمعلمين أن يأذنوا فى بعض الأوقات للمتعلمين باللعب، ويكون لعـبا جميلا، غير متـعب، ليستريحوا من كلفـة الأدب؟!.. وهذه الرياضـة تروح الـنفس، وتحـرك الحـرارة الغـريزية، وتحـفظ الصحـة، وتنفى الكسل، وتطرد البلادة، وتبـعث النشاط، وتزكى النفـس، فإن النفس تمل من الدؤوب فى الجد، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو!!...**[3]»

هكذا يلخص الطهطاوى طرفا من تجربته الغنية فى التربية والتعليم فى نظرات عميقة ونظريات لا زالت حديثة ومتألقة حتى الآن. .

---

(١) المصدر السابق. المقدمة. الفصل الرابع.

(٢) (تخليص الإبريز) المقدمة. الباب الأول.

(٣) (المرشد الأمين) الباب السابع. الفصل الثانى.

سابعا: عندما يتحدث الطهطاوى عن دور التربية والغرض منها يقول: إنها «لا تفيد الصبى الذكاء ولا الألمعية، فإن هذه الصفات هى فى الأطفال غريزية طبيعية» بمعنى أن لكل البشر حظا ونصيبا. . «وإنما بالتربية تنمو العقول وتحسن الإدراكات. . فالغرض من التربية تنمية الصغير جسدا وروحا وأخلاقا فى آن واحد، يعنى تنمية حسياته ومعنوياته بقدر قابليته واستعداده. . ».

وفى عملية التنمية هذه، تلك التى تنهض بها العملية التربوية يلمس الطهطاوى ناحية هامة جدا بتنبيهه **إلى ضرورة الربط بين محتوى العملية التربوية وبين الأهداف الأساسية المطروحة أمام الوطن فى المرحلة التاريخية التى يعيشها هذا الوطن.. فعنده أنه لابد أن «تكون تربية الأولاد بحسب موافقة أحوال الأمة وطريقة إدارتها وأحكامها**، لينتقش فى أفئدة الصبيان الأساسيات والأصول الحسنة الجارية فى أوطانهم. . مثلا، إذا كانت طبيعة البلد المولود فيها الإنسان عسكرية مائلة للحرب والضرب تكون تربية الأولاد الذكور تابعة لها، أصولا وفروعا، وتكون تربية البنات أيضا مائلة لمحبة الشجعان والأبطال وفحول الرجال، ليشجعن الأبناء، ويعتبرون النفع للوطن، وإذا كانت المملكة زراعية أو تجارية، وما أشبه ذاك، كان مدار التربية الصحيحة للأولاد مبنيا على ذلك، **وفى هذه الخصوصيات جميعها... تلاحظ المعارف العمومية التى يشترك فيها جميع الأمم والملل..»**

وفى كلمات مركزة يلخص الطهطاوى مهام العملية التربوية ودورها فيقول: **إن «الأمة التى تتقدم فيها التربية، بحسب مقتضيات أحوالها، يتقدم فيها أيضا التقدم والتمدن، على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها، بخلاف الأمة القاصرة التربية، فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها، فإن التربية العمومية هى الحصول على تحسين عوائد الجمعية التأنسية، ومعرفة آدابها علما وعملا، والتأدب بآداب البلاد، فالتربية هى أساس الانتفاع ببناء الوطن!..»**

وهكذا اكتملت للطهطاوى نظرة شاملة ونظرية عامة فى التربية والتعليم، قدمها وتحدث عنها وصاغ عناصرها فى آثاره الفكرية. . . وكانت هذه الملامح السبعة التى

عرضنا لها هى أبرز قسمات هذه النظرية التربوية التى صاغها عقل هذا المفكر الكبير . .

***

وبعد . . . فلعل الوقت قد حان الآن لندع االقارئ وجها لوجه مع نصوص الأعمال الفكرية الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى، وذلك بعد أن قدمنا بين يديها بهذه الدراسة المستفيضة التى عرضنا فيها ـ بعد التمهيد ـ لحياته وسيرته فكثفناها فى (بطاقة حياة) ـ ثم ألقينا الأضواء على المعالم البارزة والأساسية فى فكر الرجل الذى أبدعه فى « التمدن الإنسانى»، وكيف عالج تحت هذا العنوان العام والأساسى قضايا: الرؤية الجديدة للحضارة الحديثة . . . والوطنية والقومية . . . والعروبة . . والفكر السياسى . . . والاجتماعى، الذى اتخذ به موقفا رائدا ومتقدما . . . وكيف عالج قضايا: المرأة . . . ونظر نظرة جديدة على حقل العلوم . . . وميدان التربية والتعليم . . .

فبعد هذه الدراسة التى قدمناها عن فكر الطهطاوى . . ندع القارئ مع نصوصه الفكرية وأعماله الإبداعية الكاملة، بعد أن جمعناها وحققناها وعلقنا عليها . . . ونحن على ثقة من أن الباحثين والمفكرين والقراء سيجدون عند هذا الرائد العملاق من الفكر الخالد والنظرات العصرية واللمحات التى لا تزال صالحة للفعل والتأثير ما يجعلهم يؤمنون معنا بأن هذا العمل الذى نقدمه إنما يستحق الجهد والعناء والمثابرة التى بذلناها فيه . . . فسنوات من الجهد المكثف والعمل الدؤوب، تهون مشاقها وصعابها أمام الهدف الكبير: أن يعود هذا المفكر العربى العملاق إلى مكتبة المثقف العربى، كاملة أعماله، محققة نصوصها . . حتى يعود إلى ميدان الفكر العربى مرة أخرى فارسا وفاعلا ومؤثرا كما كان طوال حياته التى ضمن لها البقاء والخلود بهذه الأعمال.

والله ولى التوفيق،،،

القاهرة ـ فبراير سنة ١٩٧٣م

محمد عمارة

كتاب مناهج الألباب المصرية
فى مباهج الآداب العصرية

تمهيد

حديث الخير وخير الحديث حمد الله القديم ، وأتم صلاته وأعم سلامه على نبيه الكريم ، ذى الخلق العظيم ، المرسل بدينه القويم ، والهادى إلى صراطه المستقيم ، وعلى آله منابع الحكم ، ومنافع الأمم ، وأصحابه الهادين ، وخلفائه الراشدين ، ثم الدعاء ببلوغ أشرف الدرجات العلمية ، للحضرة العزيزة الإسماعيلية[1] ، أدام الله لتجديد هذا العصر علاها ، وخلد على جيد مصر حلاها . (أما بعد) . . فكل عاشق لجمال العمران ، وناشق لشذا عبير هذا الزمان ، يتهلل سرورا ، ويمتلىء قلبه حبورا ، حيث يرى بعين المحبة أنه قد عاد لمصر عزها القديم ، وبهوها الفخيم ، ومجدها المؤثل ، وسعدها الأول ، وأنها لا زالت مجدة السير على غاية من السرعة ، لتحظى بالحظ الوافر من نمو المجادة وسمو المنعة ، وتستحوذ على ضخامة الشأن وفخامة الرفعة ، وتصير أبهى قطر من أقطار المعمورة وأزهى بقعة ، وليس هذا التقدم العجيب ، والسبق فى ميدانه الرحيب ، إلا من عهد المرحوم محمد على[2] وورثائه من بعده ، فكل منهم أبدى فى مصر من المحسنات بقدر طاقته وجهده ، وعلى حسن نيته وخلوص قصده ، وفى هذه الحالة الراهنة ظهرت بمادة العمران ظهورا جليا ، وصار فى معلاها مسعى إسماعيل بصفا النية عليا ، وحظيت بما تحب وتشتهى ، وفازت من ثغر التمدن ونية الصفاء بلثم مقبله الشهى .

---

(١) نسبة إلى خديو مصر إسماعيل باشا (١٨٣٠ ـ ١٨٩٥م) الذى حكم مصر من سنة ١٨٦٣ حتى عزل عن عرشها سنة ١٨٧٩ .

(٢) محمد على باشا (١٧٦٩ ـ ١٨٤٩م) تولى حكم مصر من سنة ١٨٠٥م حتى وفاته ، وفى عهده تمت التجربة التى تعد بداية تكوين الدولة المصرية الحديثة .

ومن يكن أصله قد طاب منبته فما له غير إحراز العلا ثمرة

فقد تعزز الوطن المحروس والبلد المأنوس بالعلوم والمعارف، والمنافع واللطائف، جملة وتفصيلا، وتأسيسا وتأصيلا، وصارت فيه قواعد التمدين على أساس مكين، وتمكن وجودها من وصف البقاء أتم تمكين، فلله من أحيا بها آثار المكرمات، وبنى بها أسوار العهود وبين أسرار المبهمات، بالهمة العلية، والنخوة العلوية، حتى ائتلفت معالم العلوم وآداب البراعة، بعوامل الفنون وعمليات الصناعة، واكتسبت براءة التجارة كمال البراعة، وبتحرى العدل استقامت الأمور، واعتدلت مصالح الجمهور، ونمت بركة المنافع العمومية بالأمنية، وسمت حركة المعاملة وبلغت درجة الأهمية، وأحرزت مصر بين الممالك المتمدنة أسنى الرتب، وصارت فى البلاد المشرقية أهنى الأقطار والمنزهة عن شوائب الريب، فعاد إلى بحرها العذب دره وجواهره، وترنم من روضها فوق الأيك طائره، ووفد عليها من جميع المسالك كل سالك، ومن رفيع الممالك كل أمير ومالك، وورد إليها كل صاحب صناعة يؤديها، وبضاعة يبديها، وقصدها كل سياح متفرج، ومتنزه متبرج، ومشرقى ومغربى، وأعجمى وعربى، وامتزج أهلها بهم امتزاج الماء بالراح، والأجساد بالأرواح، وقوى جأش الجميع حسن سياسة الحكومة المصرية، وشمولها بعين العدل الحقيقى المسوى بين الرعية وغير الرعية، مع ما فى طباع أهل مصر من الوفاء للأقارب، وخلوص النية والصفاء للأجانب، والتوادد والتحبب مع أهل المشارق والمغارب، كما قيل:

لا تعجبوا من أهل مصر ان وفوا بوعودهم ما فى الوفا منهم جفا

وافى لهم فى كل عام نيلهم فتعلموا من نيلهم ذاك الوفا

وحسن سياسة حكومتها فى هذه الأزمان الأخيرة، قد قوت استعدادها فيما يكون لزيادة العمارية عدة وذخيرة، فقد اختلطت معاشرة الأغراب فى الأطراف والأكناف بكل عشيرة، واقتبس الأهالى لوطنهم من مستحسن الصنائع والفنون ما لا يحصى كثرة فى مدة يسيرة، وهذا أدل دليل وأجل برهان، على أنها قد

عاد لها الزمان، وعدلها بقسطاس تعديل الأمانى والأمان، وصح ما قيل فيها من موافيها:

ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتفضيل

يا من يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل

فمن ذا الذى يجحد الآن تقدمها فى التمدنية، ولا يشهد بترقيها في القيام بحقوق الوطنية، ومراعاتها لما تقتضيه علائق المودة مع أهالى الممالك الأجنبية، فإنها وسيلة عظمى لانقياد المنافع العمومية الأبية، **وكما حسنت أخلاق أهل الوطن مع الأجانب، وجذبوهم بمغناطيس الألفة من كل جانب، يحسن أيضا من الاغراب أن يحسنوا أخلاقهم، ويحفظوا لرفاقهم وفاقهم.**

لا تعاد الناس فى أوطانهم قلما يرعى غريب الوطن

وإذا ما شئت عيشا بينهم خالق الناس بخلق حسن

ولما كان من الواجب على كل عضو من أعضاء الوطن أن يعين الجمعية[1] بقدر الاستطاعة، ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة لمنفعة وطنه العمومية، وينصح لبلاده ببث ما فى وسعهم من المعلومية، بذلت جهدى، وجدت بما عندى، وحلت فى مضمار المحسنات، وقلت: إنما الأعمال بالنيات، علما بأن من خدم وطنه برهة من الزمن، عطف عليه بتنسيق أحواله الوطن، ومن المعلوم أن طرائق خدمه عديدة، وكلها سديدة مفيدة، وأدناها يرجع إلى تحريض من يعى..

إذا لم تحارب يا جبان فشجع.

إنى سمعت مع الصباح مناديا يا من يعين على الغنى المعوانا

ولا شك أن الوطن كالجسد، يصلحه إزالة العضو الغير النافع، إن الشجرة تثمر بتقليم الغصن اليابس، وإبقاء الثمر النافع، فلهذا بذلت المجهود، لبيان الغرض

---

(١) أى مجموع الأمة.

والمقصود، بتصنيف نخبة جليلة، وترصيف تحفة جميلة، فى المنافع العمومية، التى بها للوطن توسيع دائرة التمدنية. اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة، واجتنبتها من مؤلفات الفرانساوية النافعة، مع ما سنح بالبال، وأقبل على الخاطر أحسن إقبال، وعززتها بالآيات البينات، والأحاديث الصحيحة والدلائل المبيّنات، وضمنتها الجم الغفير من أمثال الحكماء، وآداب البلغاء، وكلام الشعراء، من كل ما ترتاح إليه الأفهام، وتنزاح به عن الذهن الأوهام، وتتأيد به السعادة، وتتأيد به السيادة. وبالجملة: فقد أودعتها ما يكون لأهل الوطن ذخرا، ويعقبه النجاح دنيا وأخرى، وسميتها (مناهج الألباب **المصرية فى مباهج الآداب العصرية) متحفا بها حضرة ولى عهد** هذا الوطن الشريف، وحامى حمى مصر المنيف، الوزير الأعظم، والمشير الأفخم، الجامع لأسباب الفضائل والحكم، والرافع لجمعية المعارف تحت لواء أبيه أعلى علم، من هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق، حضرة محمد باشا توفيق[1]، لا زال فى ظل والده، ممتعا بطريف العز وتالده.

وإذا الصنيعة صادفت أهلا لها ... دلت على توفيق مصطنع اليد

فقد بدت من جنابه العالى دلائل حب الأوطان، باصطناع التطول لجمعية العرفان، حيث حلى جيدها بعقود المنة، وجعل حصين حماه لها وقاية وجنة، فلذلك شكر حسن صنيعه الوطن، وأطلق حسان مدحه على محمد الفضائل لسانه بالثناء الحسن.

أطلق لسانك بالثناء على الذى ... أولاك حسن رغائب وغرائب

واشكره شكر الروض حياه الحيا ... كيما تقوم له ببعض الواجب

وكم له حفظه الله على الوطن من صلات موصولات، وعوائد متواصلات، تقول بلسان حالها، معربة عما أسدته اليد البيضاء من جزيل نوالها.

---

(١) توفيق باشا (١٨٥٢ ـ ١٨٩٢م) تولى خديوية مصر بعد عزل أبيه اسماعيل باشا فى يولية سنة ١٨٧٩م، وفى عهده قامت الثورة العرابية، وتآمر مع المستعمرين الإنجليز فاستدعى جيشهم لاحتلال البلاد سنة ١٨٨٢م.

كم من يد بيـــضـاء قـد أسـديتـهـا　　تـثـنـى إلـيـك عـنـان كـل وداد

شكر الإلـه صنائعـا أولـيــتــهــا　　سلكت مع الأرواح فـى الاجـسـاد

ورتبت هذا الكتاب على مقدمة، وخمسة أبواب، وخاتمة حسنى بحسنها الدعاء مستجاب، وعلى الله القبول، وهو لبلوغ الأمل مسؤول.

مقدمة
فى ذكر هذا الوطن
وما قاله فى شأنه أصحاب الفطن

قد تحقق فى مصر اسمها، بالمعنى المتعارف أكثر من غيرها، لمصير الناس إليها، واجتماعهم فيها، لمنافعهم ومكاسبهم، وما ذاك إلا لحسن موقعها العجيب، الذى أسرع فى اتساع دائرة تقدمها فى التأنس الإنسانى والعمران، وإحرازها أعلى درجة التمدن من قديم الزمان، وعلى مر العصور وكر الدهور انصقلت فى مرآة جوهرها صور وأخلاق الخلائق، وتهذيب طباعهم على التدريج، وتشبثوا بثمرات العلوم والمعارف، ووقفوا على الحقائق، وبمخالطة غيرهم من الأمم ذاقوا حلاوة الأخذ والعطاء، وكثرة العلائق، وكما تمدنوا بصنائع العمران، تدينوا بما اتخذوه من الأديان، وكان يعترف خواصهم وحكماؤهم فى الباطن بوحدة الملك الديان.

ورق الرياض إذا نظرت دفاتر مشحونة بأدلة التوحيد

فتحقق فيهم من الاحقاب القديمة الواسطتان المقومتان إذ ذاك لكمال التمدن والعمران: **(إحداهما)**: تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية، والفضائل الإنسانية، التى هى لسلوك الإنسان فى نفسه ومع غيره مادة تخفيظية، تصونه عن الأدناس، وتطهره من الأرجاس، لأن الدين يصرف النفوس عن شهواتها، ويعطف القلوب على إرادتها، حتى يصير قاهرا للسرائر، زاجرا للضمائر، رقيبا على النفوس فى خلواتها، نصوحا لها فى جلواتها. فبهذا المعنى كان الدين أقوى قاعدة فى صلاح الدنيا واستقامتها، وهو زمام للإنسان، لأنه ملاك العدل والإحسان، فالدين

الصحيح، هو الذى عليه مدار العمل فى التعديل والتجريح، فحقيق على العاقل أن يكون به متمسكا، ومحافظا عليه ومتنسكا، **فأدب الشريعة ما أدى الفرض، وأدب السياسة ما عمر الأرض، وكلاهما يرجع إلى العدل الذى به سلامة السلطان، وعمارة البلدان، لأن من ترك الفرض فقد ظلم نفسه، ومن خرب الأرض فقد ظلم غيره وأظلم بالإساءة أمسه.**

[المنافع العمومية]

(والواسطة الثانية): هى المنافع العمومية، التى تعود بالثروة والغنى، وتحسين الحال، وتنعيم البال، على عموم الجمعية، وتبعدها عن الحالة الأولية الطبيعية، فإن نور التمدن الجامع لهاتين الوسيلتين، تذوق به العباد طعم السعادة، ويعد تمدنا عموميا. وأما إذا كان فى البلد تقدمات جزئية، فى أشياء خصوصية، كالبراعة فى الفلاحة، فلا يعد هذا التمدن إلا حليا، ولذلك نرى كثيرا من الممالك والأمصار امتاز أهلها بمزايا خصوصية، وبرعوا فيها، بحيث لا تصل إلى اصطناعها الممالك المتمدنة، ومع ذلك فلا تعد فى باب التمدن مثل غيرها متمكنة. وأيضا الفنون الموجبة لتقدم التمدن مختلفة قوة وضعفا فيه، ففن الملاحة مثلا أقوى فى إنتاج التمدن من الفلاحة، ونفعه أعم منها فى توسيع دائرة العمران عند عارفيه. وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا فى أرض، بل فرقها وأحوج بعضها إلى بعض، فلا تكتسب إلا بالأسفار، وجوب مفاوز البرارى والبحار، فالمسافر يجمع العجائب، ويكسب التجارب، ويجلب المكاسب، فالمملكة التى سخر الله لها الجمع بين صنعتى الملاحة والفلاحة - كالديار المصرية - لقابلية انتظامها، محرزة لوسائط التمدن على وجه أكمل، بشرط زوال الموانع والعوائق التى لا تخلو منها مملكة فى إدراك مرامها، كما أشار إلى ذلك نابليون الأول ملك فرانسا بقوله: «إن فرانسا تسارع دائما فى أسباب التمدن، وتحصل منه على الكثير، إلا أن دولة الإنكليز تعوقها عن تتميم بعض أغراضها، ولولا ذلك

لتقدمت كل التقدم فى حيازة جواهر المنافع وأعراضها» انتهى. فقد لا يسوفى كيفه، الجوهر القائم بنفسه، ولكل شىء آفة من جنسه.

ويفهم مما قلناه أن للتمدن أصلين: **(معنوى)** وهو التمدن فى الأخلاق والعوائد والآداب، يعنى التمدن فى الدين والشريعة. وبهذا القسم قوام الملة المتمدنة، التى تسمى باسم دينها وجنسها، لتتميز عن غيرها، فمن أراد أن يقطع عن ملة تدينها بدينها، أو يعارضها فى حفظ ملتها، المخفورة الذمة شرعا، فهو فى الحقيقة معترض على مولاه، فيما قضاه لها وأولاه، حيث قضت حكمته الالهية لها بالتصاف بهذا الدين، فمن ذا الذى يجترىء أن يعانده ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (هود: ١١٨) وحسبنا فى هذا المعنى قول الكرار، **أما وقد اتسع نطاق الإسلام فكل امرىء وما يختار، فبهذا كانت رخصة التمسك بالأديان المختلفة جارية عند كافة الملل، ولو خالف دين المملكة المقيمة بها، بشرط أن لا يعود منها على نظام المملكة أدنى خلل، كما هو مقرر فى حقوق الدول والملل**، وما أحسن قول بعض الظرفاء:

يقولون نصرانية أم خالد ... فقلت ذروها كل نفس ودينها

فإن تك نصرانية أم خالد ... فإن لها وجها جميلا يزينها

ولا عيب فيها غير زرقة عينها ... كذاك عتاق الطير زرق عيونها[1]

ـ وعلى ذكر زرق العيون يحسن ذكر قول الشاعر مع ما فيه من التورية:

لك يا أزرق اللواحظ مرأى ... قمرى أضحى على الوجه يزهى

يالها من سوالف وخدود ... ليس تحت الزرقاء أحسن منها

(والقسم الثانى) تمدن مادى، وهو التقدم فى المنافع العمومية، كالزراعة والتجارة والصناعة ويختلف قوة وضعفا باختلاف البلاد، **ومداره على ممارسة**

---

(١) العتاق مفردها عتيق، وهى الخيار من كل شىء.

العمل وصناعة اليد، وهو لازم لتقدم العمران، ومع لزومه فإن أرباب الأخلاق والآداب يخشون صولة تقدم أهل الفنون والصنائع، ويخافون ارتفاع مراتبهم بقوة مكاسبهم فى المنافع، وأهل الفلسفة والعلوم الحكمية النفيسة، يعتقدون أن الصنائع من المهن والأمور الخسيسة، وأرباب الاقتصاد فى الأموال والإدارة، يبالغون فى توسيع دائرة المنافع ووسائل العمارة، ويتغالون بتكثيرها فى دوائرهم، لجباية فوائدهم منها وتيسيرها، ويباشرون جمع متفرقها، ونظم منثورها، ويبحثون عن نشيد كل شارد، وتقييد كل آبدة، لأن مصلحتهم تقتضيها، وحاكم أغراضهم يرتضيها.

[حب الوطن]

وإرادة التمدن للوطن، لا تنشأ إلا عن حبه من أهل الفطن، كما رغب فيه الشارع، ففى الحديث: «حب الوطن من الإيمان». قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: «عمّر الله البلاد بحب الأوطان». وقال على، كرم الله وجهه: «سعادة المرء أن يكون رزقه فى بلده». وقال بعض الحكماء: «لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة». وقال الأصمعى[1]: «دخلت البادية، فنزلت على بعض الأعراب، فقلت له: أفدنى، فقال: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، ومكارم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه لأوطانه، وشوقه إلى إخوانه». قال الشاعر:

وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكرت أوطانهم ذكرت لهم ... عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

ولى موطن آليت أنى أعزه ... وأن لا أرى غيرى له الدهر مالكا

---

(١) عبد الملك الباهلى، الشهير بالأصمعى (٧٤٠ ـ ٨٣١م) أحد مشاهير اللغويين فى التراث العربى، وهو من الرواة المشهورين بالتوثيق.

(وقال آخر)

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العيش وهو جديد

فإذا تمثل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

(وقال آخر)

إذا أنا لا أشتاق أرض عشيرتى ... فليس مكانى فى النهى بمكين

من العقل أن أشتاق أول منزل ... غنيت بخفض فى ذراه ولين

وروض رعاه بالأصائل ناظرى ... وغصن ثناه بالغداة يمينى

وإنى لا أنسى العهود إذا أتت ... بنات الهوى دون الخليط ودونى

إذا أنا لم أرع العهود على النوى ... فلست بمأمون ولا بأمين

ـ والمراد ببنات الهوى، بنات الدهر، أى حوادثه ـ فالوطن محبوب، والمنشأ مألوف حتى لغير المتمدن، بل يقال: إن البادى الجبلى يتعلق بحبال جبال أوطانه، ويعلق بأذيال باديته ولا تعلق الحاضر بمدينته وحاضرته، بحيث لا ينتقل الجلف من باديته إلا للانتجاع فى الفلوات، ويستسهل خرط القتاد، ويرى عزه فى الصحارى التى ألف طبعه سكنى خيامها، وتريض عقله عليها واعتاد، كما يدل لذلك ما حكى عن «ميسون بنت بحدل» أنها لما اتصلت بمعاوية، رضى الله عنه، ونقلها من البدو إلى الشام، كانت تكثر الحنين على ناسها، والتذكر بمسقط رأسها، فسمعها ذات يوم وهى تنشد:

لبيت تخفق الأرواح[1] فيه ... أحب إلى من قصر منيف

وأكل كسيرة من كسر بيتى ... أحب إلى من أكل الرغيف

وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلى من نقر الدفوف

---

(١) أى الرياح.

ولبس عباءة وتقر عينى أحب إلى من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى أحب إلى من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب أحب إلى من بغل زفوف[1]
وخرق[2] من بنى عمى نحيف أحب إلى من علج[3] عنيف

فلما سمع معاوية الأبيات قال: «ما رضيت ابنة بجدل حتى جعلتنى علجا من علوج العجم». فالعربى كثير التعلق بباديته، فلا يتمدح إلا بها، كما قال بعضهم:

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه من نسل شيبان بين الضال والسلم

ـ والضال والسلم من أشجار البوادى ذوات الشوك ـ فأشار الشاعر بذلك إلى ما يتمدح به العرب من سكنى البادية، لأن العز عندهم مفقود فى الحضر، فكان العظيم منهم بين الضال والسلم، أشهر من نار على علم. أو أنه من البعد عن الهضم والضيم، شمس أو قمر بلا غيم، بخلاف المتمدن، فإنه يكثر التنقل، ولكن فى الحقيقة تنقله ثمرة من ثمرات التمدن مرتفعة، تعود على الوطن بالمنفعة، ولا نظر إلى من حصل له ذل وهوان، فرغب بذلك عن الأوطان، كما قال الشريف الرضى[4]:

ما لى لا أرغب عن بلدة يكثر فيها الدهر حسادى
ما الرزق فى الكرخ[5] مقيما ولا طوق العلا فى جيد بغداد

---

(١) أى مسرع.

(٢) من معانيه: ضعيف الرأى، والبليد، والكسول، والأحمق.. الخ.

(٣) معناه المراد هنا الضخم القوى من الأعاجم.

(٤) محمد بن الحسين (٩٧٠ ـ ١٠١٦م) من أبرز أدباء بغداد في عصره، وزعيم الشيعة الإمامية، تولى رئاسة نقابة الطالبيين قبل أخيه الشريف المرتضى، وهو جامع كلام الإمام على بن أبى طالب فى (نهج البلاغة) إلى جانب مؤلفاته فى التفسير والفقه والتاريخ، وله كذلك مختارات من شعر غيره من الشعراء الذين سبقوه.

(٥) اسم يطلق على عدة مواضع بالبصرة، وبغداد، وخوزتان، وسامرا، وعبرتا، وميسان، «فيقال كرخ بغداد، وكرخ البصرة».. وهكذا.

وقال بعض أمراء الحرمين:

قوض خيامك عن أرض تهان بها … وجانب الذل إن الذل مجتلب

وارحل اذا كانت الأوطان منقصة … فالمندل[1] الرطب فى أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد ويمدح من آخر بحسب حال المتوطن، فقد مدح الشريف المرتضى[2] «بابل» وتشوق إليها بقوله:

ألا يا نسيم الريح من أرض بابل … تحمل إلى أهل الخيام سلامى

وإنى لأهوى أن أكون بأرضهم … على أننى منها استفدت مقامى

وقد كنت كالعقد المنظم منهم … فها أنا ذا سلكا بغير نظام

أبات أرجى أن يلم خيالهم … وكيف يزور الطيف دون منامى

فلا برق إلا خلب بعد بينهم … ولا عارض الأبياض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقى[3] حيث قال:

أبابل لا واديك بالبر مفعم … لدى ولا ناديك بالرحب آهل

لئن ضقت عنى فالبلاد فسيحة … وحسبك عارا أننى عنك راحل

وإن كنت بالسحر الحرام مدلة … فعندى من السحر الحلال دلائل

قواف تعير الأعين النجل حسنها … فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر يخاطب أحد الملوك:

---

(١) العود الطيب الرائحة.

(٢) على بن الحسين (٩٦٦ - ١٠٤٤) من علماء الكلام الشيعة الذين انتصروا لفكر المعتزلة فى العدل والتوحيد، ولا يميزه عن أئمة المعتزلة إلا بوقفه من قضية الإمامة التى التزم فيها موقف الشيعة الإمامية. ومؤلفاته العديدة تعكس سعة علمه فى الكلام والتفسير واللغة والادب والتاريخ.

(٣) أحمد بن على (١٠٧٧ - ١١٥٠م) من مشاهير اللغويين العرب، عاش ومات زاهدا ومعتكفا فى أحد مساجد بلدة «نيسابور».

إن تكرموني فإني غرس دولتكم فما بقيت فطواع ومذعان

وإن أهنتم فأرض الله واسعة لا الناس أنتم ولا الدنيا «خراسان»

وقال آخر في حق مصر :

لم لا أدين كبارهم وصغارهم تيها وكبرا

ما النيل من ماء حياة ولا جميع الأرض مصرا

فهذا قول المغلوب، وكلام مهجور الوطن لا المحبوب، وأحسن من ذلك قول من تغرب، وأصيب في الغربة بداء حب وطنه وتجرب :

وبلدة قد رمتني بكل داء عنادا

ولو رجعت لأهلي كانت بلادي بلادا

ويكفي في حب الوطن أن كراهة الإجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الإنسان نفسه، في قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ** ﴾ (النساء : ٦٦).

مما يحكى : أن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، مر ليلا في المدينة فسمع امرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

- أي إلى وصله - لأنه كان حسن الصورة، وهو من بني سليم، فدعاه عمر فرآه أحسن الناس وجها، وله شعر حسن، فحلق شعره، فكان أحسن الناس بلا شعر، فقال له أمير المؤمنين : «لاتساكني في بلدي». فتشفع نصر إليه أن لا يخرجه من المدينة، فلم يقبل عمر، رضي الله عنه. فلما ودعه نصر قال له : «يا أمير المؤمنين، سمتني قتل نفسي». فقال عمر : كيف ذلك؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ** ﴾ (النساء : ٦٦) فقرن هذا بهذا. فقال : «ما أبعدت يا نصر. لكن أقول ما قال شعيب ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا**

اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ (هود: ٨٨) وقد أضعفت لك يا نصر عطاءك ليكون ذلك عوضا لك». ومن أحسن ما قيل فى حب الأوطان قول الصقلى:

ذكــرت صــقليــه والأسى   بهـــيج للـنفس تذكـــارها

فـــإن كنت أخــرجت من جنة   فـــإنى أحــدث أخـــبـــارها

ولولا مـلوحـــة مـــاء الـبكـا   ء حـــسبت دمـوعى أنهـــارها

وصقلية جزيرة بايطاليا، المسماة الآن سيسيليا، كانت فى يد الإسلام زمنا طويلا ـ ويناسب هذا قول من قال:

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى   مـا الحب إلا للحبـــيب الأول

كم منزل فى الأرض يـألفـه الفتى   وحـــنـــينـه أبـدا لأول مـنـزل

وما أحسن قول بعضهم:

علـى لربع العـــامـــرية وقـفـــة   ليـملى على الشوق والدمع كـاتب

ولى مـذهب: حب الـديار لأهلهـا   وللناس فـيـما يعـشـقون مـذاهب

(وقال آخر)

وقـــائلـة مـــاذا وقـــوفك ههـنا   ببـرية يـعـوى من العـصـر ذيبـهـا

فـقلت لهـا قلـى الملامـة وانصـفى   هوى كل نفس حيث حل حـبيبـها

وحسب المؤمن بحب الوطن أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين خرج من مكة، علا مطيته، واستقبل الكعبة، وقال: «والله لأعلم أنك أحب بلد الله إلىّ، وأنك أحب أرض الله إلى الله تعالى عز وجل، وأنك خير بقعة على وجه الأرض وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لما خرجت». وبالجملة فحب الأوطان على عظم الحسب وكرم الأدب أبهى عنوان، وهو فضيلة جليلة، لا يؤدى حق الوفاء بها إلا من حاز الشمايل النبيلة، ولا تعين عليها إلا

الهمـم العلية، والعزائم الملوكية، التى تقلد أعناق الأمة حلى الـمنة والنعـمة، فتبعثهم على التشبث بالأوطان، والتعلق بأذيال الإخوان والخلان، لا سيما إذا كان الموطن منبت العز والسعادة، والفخار والمجادة، كديار مصر، فهى أعز الأوطان لبنيها، ومستحقة لبرها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها، بتحسين الأخلاق والآداب من جهتين عظيمتين: **(الأولى)** أنها أم لساكنيها، وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل إنسان **(الثانية)** إنها ودود بارة بهم، مثمرة للخيرات، منتجة للمبرات، فبرها يعود على أبنائها ثمرته، وترجع إليهم فائدته، ويحسن الصنيع بتضاعف الفوائد العوائد أضعافا مضاعفة، وكلما تحسنت جهات البر من أهاليها حسنت أيضا الثمرات لطالبيها. فإذا كانت لا تحرم من ثمرات مصر الأجانب، فبالاحرى أن تتمتع بها الأقارب، ففى الأثر: من أعيته المكاسب فعليه بمصر، وعليه بالجانب الغربى منها. (ويروى) أيضا: قسمت البركة عشرة أجزاء، تسعة فى مصر وجزء فى الأمصار كلها، ولا يزال فى مصر بركة ما فى الأرضين كلها. وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا** ﴾ أن المراد بمشارق الأرض ومغاربها أرض مصر. وقال عليه الصلاة والسلام: «مصر خزائن الأرض، والجيزة غيضة من غياض الجنة» ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام[١].

قال بعض من انتصب لتفضيل دمشق لكونها وطنه على مصر: عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها، ولكن نحن لا نجفو الوطن، حيث حبه من الإيمان، ومع هذا فلا ننكر أن مصر إقليم عظيم الشأن، وأن مغلها كثير، وأن ماءها نمير، وأن ساكنها ملك أو أمير، وأن الذهب فيها لا يوزن بالمثاقيل ولكن بالقناطير، وأن دمشق تصلح أ ن تكون بستانا لمصر، ولا شك أن أحسن ما فى البلاد البستان، وهل دمشق إلا لمصر مثل الجنان.

---

(١) إن نسبة هذا الحديث وأمثاله إلى الرسول عليه السلام، هى دعاوى لا تثبت أمام النقد ولا يثبتها التمحيص والتدقيق.

وقال عبد الله بن عمر[1] أهل مصر أكرم الأعاجم، وأسمحهم يدا، وأفضلهم عنصرا، وأقربهم رحما بالعرب عامة، وبقريش خاصة. يشير بهذا إلى «هاجر» أم إسماعيل، عليه السلام، فإنها من قرية «أم دينار» أو قرية «أم دنين» وكلاهما بمصر، أو يقال إنها من بلدة بقرب «الفرما»، وإلى «مارية» أم إبراهيم فإنها من قرية بصعيدها من إقليم الجيزة.

وقد روى عن أبى ذر إنه قال سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذما وحرما، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فأخرجوا منها» قال فمر بربيعة وعبد الرحمن ابنى شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها.

ويروى عن عمر أمير المؤمنين، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله، صلى الله عليه، يقول: «إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بقبضها خيرا فإن لهم منكم صهرا وذمة». (وقال) عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، دعا نوح عليه الصلاة والسلام لولده وولد ولده مصريم، الذى به سميت مصر مصرا، فقال: اللهم أنه قد أجاب دعوتى فبارك فيه وفى ذريته واسكنه الأرض الطيبة المباركة التى هى أم الدنيا. وما أحسن قول الشاعر:

جميع الأرض فيها طيب عيش ولذات وروضات أنيقة

وهذا كله فى غير مصر مجازى وفى مصر حقيقة

فلهذا يقال إن مصر هى اختيار نوح عليه السلام لولده، وكذلك صارت اختيار الحكماء لأنفسهم، واختيار عمرو بن العاص لنفسه واختيار مروان بن الحكم[2] لابنه عبد العزيز وهكذا، فكيف لا وهى بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه،

---

(١) (٦١٢ - ٦٩٢م) أكبر أبناء الخليفة عمر بن الخطاب، واحد الزهاد الذين اعتزلوا النزاع السياسى والعسكرى الذى نشب بين على ومعاوية.

(٢) (٦٢٣ - ٦٧٥م) أحد خلفاء بنى أمية، وبعد عام ٦٨٤م الذى تولى فيه الخلافة بداية تأسيس حكم الفرع المروانى للدولة الأموية.

ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمروا ممالك الدنيا بتدبيرهم وحكمتهم وفنونهم وصنائعه، ولم تزل إلى الآن يسير إليها طلبة العلم وأصحاب الفهم من سائر الأقطار لتحصيل درجة الكمال، وكفاها فخرا أنها تسمى خزائن الأرض، كما حكاه الله تعالى عن يوسف، عليه السلام، فى قوله لملك مصر ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ (يوسف: ٥٥) ولذلك قال بعضهم: مصر خزائن الأرض كلها وسلطانها سلطان الأرض كلها، يعنى أن يوسف لما تمكن من أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء كان بسلطانه فيها سلطان جميع الأرض كلها، لحاجتهم إليه وإلى ما تحت يديه، حتى فى أيام الخلفاء كانت مثرية بالمآثر والمكارم، تغنى الوافد عليها والقادم، كما قال بعض الشعراء:

قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل

قوم عرفت بهم كسب الألوف ومن ... تمامها أنها جاءت ولم أسل

ومما يدل أيضا على أنها كانت بمكانة من التمدن فى قديم الأزمان قوله تعالى مخبرا عن موسى، عليه السلام، أنه قال ﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (يونس: ٨٨) وكذا قوله تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ (الزخرف: ٥١) قال بعض المفسرين: «ولم يكن فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر، وكان جميع الأرضين يحتاجون إلى مصر، وأما الأنهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير حتى أن الماء يجرى من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤوا» انتهى. وهذا عين التمدن، إذ لا يكون ذلك إلا بتقديم الصنائع والفنون، ويؤيده بقايا الآثار المشاهدة التى لا كان مثلها فى غير مصر ولا يكون، مع ما انمحى منها، بشهادة قوله تعالى: ﴿**وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾ (الأعراف: ١٣٧) وقد قنع المأمون بهذه الآية حين استصغر مصر فى عينه وذهل عن حقيقة الدراية والرواية فأدرك بها من الحكمة الغاية.

وبالجملة فهى فرضة الدنيا يحمل خيرها إلى ما سواها فيحمل منها من طريق

بحر القلزم[1] إلى الحرمين واليمن والهند والصين والسند وبلاد إفريقية، ومن جهة بحر الروم[2] إلى بلاد الروم القسطنطينية والإفرنج وسواحل الشام والثغور إلى حدود العراق وإلى صقلية وكريد وبلاد المغرب، ومن جهة الصعيد إلى بلاد الغرب والنوبة والسودان والحبشة والحجاز واليمن، ولا سيما الآن بوصل البحرين الأبيض والأحمر، واتصال إفريقية بآسيا على وجه أظهر، فبهذا يقرب النقل منها وإليها من سائر الأقطار المعمورة، والمنظور أنها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا مغمورة، وتكثر مخالطتها مع جميع الأمم، فلا غرو أن يأتى لها زمان يصير فيه تمدنها راسخ القدم، فإن لطالع التمدن دورا مخصوصا من أدوار الجمعيات التأنسية عند حضور الأوان، تسطع أنواره على سائر الآفاق والبلدان . .

وما البدر إلا واحد غير أنه ... يغيب ويأتى بالضياء المجدد

فلا تحسب الأقمار خلقا كثيرة ... فجملتها من نير متردد

فكل مملكة تأخذ الأوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان، بحمية أهلها ومغالاتهم فى حب الأوطان، فقد شبه بعضهم حب الأوطان الحقيقى والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية متمكنة من الأبدان الأهلية، متى حلت ببدن الإنسان غلبت على الحرارة العزيزية، فلذلك إذا ظهرت الحمية الوطنية في أبناء الديار المصرية، وولعت بمنافع التمدنية، فلا جرم أن تذكو نارها وتغلب على القوة الأولية، فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقى، المعنوى والمادى، كمال الأمنية، فبقدح زناد الكد والكدح، والنهض بالحركة والنقلة، والإقدام على ركوب الأخطار، تنال الأوطان بلوغ الأوطار . .

دع الهوينا وانتصب وانتشب ... واكدح فنفس المرء كداحة

وكن عن الراحة فى معزل ... فالصفع موجود مع الراحة

---

(١) البحر الأحمر.

(٢) البحر الأبيض المتوسط.

وقال آخر :

تنـقل فلذات الـهـــوى فى التنـقل ... ورد كل صـاف لا تقف عـند منهل

فما دامت المنافع متفرقة فى الجهات، فلتكن الهمم فى تحصيلها من جهاتها قضايا موجهات، فلا بد لكل إنسان وكل مملكة من الحصول على المادة الكافية لبلوغ الوطر، لا سيما التى لا يعرى منها بشر، قال تعالى : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** ﴾ (الأنبياء : ٨) فإذا انعدمت المادة، التى هى قوام النفس، لم تدم الحياة، ولم تستقم الدنيا لأهلها، فإذا تعذر على الإنسان شىء من معايش الدنيا لحقه الوهن والاختلال فى دنياه، بقدر ما تعذر من المادة عليه، لأن الشىء القائم بغيره يكمل بكماله، ويختل باختلاله، ولما كانت المواد مطلوبة لحاجة الكافة إليها وحب الحصول عليها من جهاتها، ثم إن أسباب المواد مختلفة، وجهات المكاسب متشعبة، وإنما كانت كذلك ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها، وتشعب جهاتها توسعة لطلابها، كى لا يجتمعون على سبب واحد فلا يلتئمون، أو يشتركوا فى جهة واحدة فلا يكتفون، وقد هداهم الله سبحانه وتعالى بعقولهم، وأرشدهم إليها بطباعهم، حتى لا يتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا، ولا يعانوا تقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا، حكمة من الله سبحانه اطلع بها على عواقب الأمور، قال تعالى ربنا : ﴿ **الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ (طه : ٥٠) قيل فى تفسيره : أعطى كل شىء ما يصلحه، ثم هداه له. وقيل : أعطى كل شىء صورته ثم هداه لمعيشته. وقال تعالى : ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ (الروم : ٧) أى معايشهم، متى يزرعون، ومتى يغرسون. وقال تعالى : ﴿ **وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ (فصلت : ١٠) أى قدر فى كل بلدة منها ما لم يقدره فى الأخرى، ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد إلى بلد. ثم إن الله تعالى جعل للناس مع ما هداهم إليه من مكاسبهم، وأرشدهم إليه من معايشهم، دينا يكون لهم حكما، وجعل لهم شرعا يكون عليهم قيما، ليصلوا إلى مرادهم بتقديره، ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره، حتى لا ينفردوا

بإرادتهم فيتغالبوا، ولا تستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون: ٧١) ثم إنه، جلت عظمته، جعل توصلهم إلى منافعهم من وجهين: مادة، وكسب. أما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها، وهى شيآن: نبت نام، وحيوان متناسل. قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ (النجم: ٤٨) أى أغنى خلقه بالمال، وجعل لهم قنية، وهى أصول الأموال، وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى الكفاية، والتصرف المؤدى إلى الحاجة من وجهين: **أحدهما**: تقلب فى تجارة. **والثانى**: تصرف فى صناعة، وهذان الوجهان هما فرع لوجهى المادة السابقين، فصارت أسباب المواد المألوفة، وجهات المكاسب المعروفة، أربعة أوجه: نماء زراعة، ونتاج حيوان، وربح تجارة، وكسب صناعة. وكذلك حكى الحسن بن رجاء عن الخليفة المأمون أنه كان يقول: معايش الناس على أربعة أقسام، زراعة، وصناعة، وتجارة، وإمارة، فمن خرج عنها كان كلا علينا». ولكن سيأتى لنا أن الإمارة هى قطب رحى المنافع العمومية. .

ثم إن أحوال المنافع العمومية تختلف بتنقل الأحوال، وتغير العادات، ولا يمكن استيعاب طرق تحسينها، وأدوات تمكنها، وإنما يجتهد كل إنسان فى الحصول على ما بلغه من الوسع فى صنائع زمانه، وما استحسن عرفا من محسنات عصره وأوانه، ولولا تغير الأحوال والعادات لكان المتقدم كفى المتأخر تكلفها، وإنما حظ المتأخر أن يعانى نشد الشارد، مع حفظه، وجمع المتفرق بلحظه، ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه، وعادات وقته وأوانه، فيثبت ما كان موافقا، وينفى ما كان مشاقا، ثم يستمد خاطره فى استنباط الزوائد، واستخراج الفوائد، واختراع ما به السهولة، وابتداع ما يبلغ رب البصائر مأموله.

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها — إذا لم يكن للمبصرين بصائر
وهل ينفع الخطى غير مثقف — وتظهر إلا بالصقال الجواهر

فمتى أسعف الإنسان بشىء اخترعه، حظى بفضله، بشرط أن يكون مألوفا

للوقت وعـرف أهله، فـإن لأهل كل وقت عـادة تؤلف، ومنافع تعـرف، تقع من النفوس لموقع المحبة والرغبة، لوضوح مسلكها، وسهولة مأخذها، وإلا كان ضائعا مستهجنا، والإتيان به تعسف، والإلزام به تكلف، فإن العادة حقيقة بقول القائل:

شىء به فتن الورى غيـر الذى يدعى الجمال ولست أدرى ما هو

فإن مستحسن العرف والعادة لا يوجبه عقل أو شرع، بدليل اختلاف ذلك باختلاف البلاد، التجمل والزينة، فإن لأهل المشرق زيا مألوفا، ولأهل المغرب زيا معروفا غيره، وكذلك يختلف العرف باختلاف أجناس الطوائف، فإن للأجناد زيا مألوفا يخالف مألوف العلماء والتجار، وأصله أن يكون للناس على اختلافهم سمة يتميزون بها، فإن عدل واحد عن عرف بلده وجنسه، بدون مندوحة، عد ذلك منه حمقا، فكل يتبع القيافة الخاصة به، ولزوم العرف المعهود، واعتبار الحد المحدود، أدل على الحق، وأمنع من الذم، وربما توهم البعض أن التزيى بزى البلاد الأجنبية، المشهورة بالتمدن، هو من المروءة الكاملة، والسيرة الفاضلة، فبادر بالامتياز بها عن الأكثرين، بدون موجب، مع أن قيافة بلده لا تنقص عنها شيئا، وإنما قصد بذلك الخروج من قيافة وطنه التى استرد لها الأجانب، وخفى عليهم تعدى طورهم، وتجاوز قدرهم، وقبح بين أهل الوطن ذكرهم.

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

فالتمدن ليس فى زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه، لا سيما إذا كان لا يمكن لمن تزيا به إحسانه.

وما الحلى إلا زينة لنقيصة يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفرا كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

فحاجة الوطن إلى المنفعة الحقيقية أشد من حاجته إلى تقليد العرف، الذى هو منفعة ظاهرية، ولما كانت الديار المصرية فائقة فى المآثر، جاهلية وإسلاما، ولها أسبقية التمدن قديما وحديثا، والآن تنافس الممالك الأخرى فى الفنون والصنائع،

وسائر أنواع المنافع، لها الآن أن تزاحم فى ميادين صحيح الفخار، وتصون درجة السلف التامة الاعتبار، حتى يصح أن تقول:

نشيد كما شادوا ونبنى كما بنوا   لنا شرف ماض وآخر غابر

فلهذا وجب علينا أن نسرد فى صحائف هذا الكتاب ما يبدو لنا من أحوال المنافع الملائمة لمزاج الوقت والحال، مما عساه أن يستفيد منه الأهالى الفوائد الجمة، من أسباب الرفاهية والنعمة. كما قال النابلسى[1]:

لم أزل فى الحب يا أملى   أمزج التوحيد بالغزل

وتكفى الأدلة الإقناعية فى رفادة أهمية المنافع العمومية، وليكون للجميع فى وسائلها أو مقاصدها كمال المعلومية:

كل له غرض يسعى ليدركه   والحر يجعل إدراك العلا غرضه

فالآن تعطر ملك مصر بشذا نسائم منافع الممالك الأجنبية، فصار كما قيل:

كأن تجارا تحمل الطيب عرسوا   به ثم فضوا ثم كل ختام

- أى فضوا ختام المسك فتعطرت الأرجاء - فهو لرجاء بلوغ الدرجة الكمالية أقرب حصولا وأرجى.

---

(١) عبد الغنى النابلسى (المتوفى سنة ١٧٣١م) رحالة متصوف، من نابلس بفلسطين، خلف آثارا فكرية كثيرة، أهمها أخبار الرحلات العديدة التى قام بها، ومن آثاره المطبوعة فى القاهرة المجلدات الأربعة لكتابه (ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضيع الأحاديث).

الباب الأول

[فى بيـان المنافع العـمـومـيـة، من حـيث هى، وفى موادها، ومتفرعاتها، وما يتعلق بها. وفيه فصول.]

الفصل الأول

(فيما تطلق عليه المنافع، وبيان موادها الأصلية وأنها دالة على التمدن والعمران)

المنافع، جمع منفعة، وهى فى اللغة: ضد المضرة، ومنه قوله:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجى الفتى كيما يضر وينفع

وقد تطلق على الدواء، كقوله:

هم الناس فالزم إن عرفت طريقهم ففيهم لضر العالمين منافع

وتطلق على المنفعة الشرعية، فتكون عبارة عن جميع ما شرع من أنواع البر للتعاون عليه، كالقرض، والعارية، والهبة، والصدقة، والوقف، وما أشبه ذلك مما يقتضى الألفة وإنفاق الآراء فى تدبير المعاش والمعاد. وتطلق فى عرف تدبير المنزل على ما يفعل لمصلحة تخص بلدة أو مدينة أو مملكة، لراحة أهلها وتنظيم أحوالها، من كل ما يعود عليهم بفائدة لها وقع فى المملكة، وبها يترقى الوطن، وتشترك فى ثمرتها أربابه، فلهذا تقيد بالعمومية، **فهى بالمعنى العرفى تخص السياسة حيث إنه قد لا تقتضى الأوضاع الشرعية المتأدب بها فى المملكة عين المنفعة السياسية إلا بتأويلات للتطبيق على الشريعة، ومع ذلك فمبنى المنفعة فى السياسة الشرعية على طريق اكتساب المال من غير مهانة ولا عسف، وإنفاقه فى المصارف الحميدة العاقبة، الجميلة الذكر، ومبنى المنفعة أيضا على صرف الهمة الى ازالة المكروه عن الناس بقدر ما تسعه القدرة البشرية، من إسعافهم وإعانتهم.** وسيأتى فى الفصل الأول من الباب الثانى تعريفها فى اصطلاح الادارة الاوروبية، وأنها مجمع الفضائل. وقد ذكرنا فى المقدمة انقسام أسباب المعايش إلى أربعة أقسام وهى: زراعة، وصناعة، وتجارة، ونتاج الحيوانات. ونقول هنا إن هذه المنافع إذا وجدت

فى مملكة دامت، متى روعى فيها العدل والإنصاف، فتكون مقابلة للاستثمار، والتمول، وتحصيل النقود والمتاع والعقارات، وجميع الأملاك الاحتياطية، فبواسطة اكتساب الأهالى هذه المكاسب يصح لهم الإنفاق المنزلى مع السعة والثروة، وبفضول أموالهم يؤدون حقوق المملكة، القائمة بحفظهم وصيانتهم، مما يوجب ثروتها واقتدارها، وينفقون فى سبيل الله ما شاء أن ينفقوا، رحمة بذوى الحاجات، فبهذا يتم النظام المنزلى والنظام المدنى، وقوام كل من النظامين على الاقتصاد فى الإنفاق، وترك الحرص والطمع، والإسراف والتبذير، عملا بقوله تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) أى لا تمسك عن الإنفاق بحيث تضيق على نفسك واهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات، أى لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط، ثم قال: ﴿ **وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾ أى ولا توسع فى الإنفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى فى يدك شىء، ثم قال تعالى: ﴿ **فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا** ﴾ (الإسراء: ٢٩) أى تلوم نفسك، وأصحابك يلومونك، على تضييع المال بالكلية، ومعنى محسورا مقطوعا عن الإنفاق، يعنى عاجزا متحيرا.

وقد ذكر الحكماء أن لكل خلق طرفين: **أحدهما**: الإفراط، **وثانيهما**: التفريط، وهما مذمومان، فالبخل، مثلا، إفراط فى الإمساك، وهو مذموم، والتبذير تفريط فى الإنفاق وهو مذموم أيضا والوسط ممدوح، وهو العدل فى الإنفاق، وهكذا كل فضيلة لها طرفان ووسط، والوسط عبارة عن الإنصاف فى الفضيلة، وهو الممدوح منها. ولكن ربما يقع فى الوهم فضيلة أحد الطرفين، لعدم الوقوف على الحقيقة، بترك معاشرة أرباب الفضائل، فلهذا ينبغى تعيين محال تعلم الفضائل حتى لا تشتبه بأضدادها. وبيان ذلك أن الإنسان من بين جميع الحيوان لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته، ولابد له من معاونة قوم كثيرى العدد حتى تتم حياته طيبة، ويجرى أمره على السداد، ولهذا قال الحكماء: إن الإنسان مدنى بالطبع، أى هو محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الإنسانية، فكل إنسان بالطبع وبالضرورة محتاج إلى غيره، فهو لذلك مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة، ويحبهم

المحبة الصادقة، لأنهم يكملون ذاته، ويتممون إنسانيته، وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك، فإذا كان ذلك كذلك، بالطبع وبالضرورة، فكيف يؤثر العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلى وتعاطى ما يرى الفضيلة فى غيره؟ **فإذن القوم الذين رأوا الفضيلة فى الزهد، وترك مخالطة الناس، وتفردوا عنهم، إما بملازمة المغارات فى الجبال، وإما ببناء الصوامع فى المفاوز، وإما بالسياحة فى البلدان للدروشة، لا يحصل لهم شىء من الفضائل الإنسانية المدنية المعهودة التى عددناها،** وذلك أن من لم يخالط الناس ويساكنهم فى المدن لا تظهر فيه هذه الفضائل، من العفة، والنجدة، والسخاء، والعدالة، بل تصير قواهم وملكاتهم التى ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة، لأنها لا تتوجه إلى خير ولا الى شر، بالنسبة للعموم، فاذا تعطلت، ولم تظهر أفعالها الخاصة بها، صاروا بالنسبة لقصور صفاتهم عليهم، وعدم عودها بالمنفعة على غيرهم، بمنزلة الجمادات، أو الموتى من الناس، ولذلك يظنون ويظن بهم أنهم أعفاء، وليسوا بأعفاء، فهم كما قال الشاعر :

يقول أبو سعيد مذ رآنى عفيفا منذ عام ما شربت

على يد أى شيخ تبت قل لى فقلت على يد الإفلاس تبت؟!

وتقول العامة : من العفة أن لا تجدو كذلك فى سائر الفضائل، أعنى أنه إذا لم يظهر منهم أضداد هذه التى هى شرور ظن بهم الناس أنهم أفاضل، وليست الفضائل اعداما، بل هى أفعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم، وفى المعاملات، وضروب الاجتماعات، ونحن إنما نعلم ونتعلم الفضائل الإنسانية التى نساكن بها الناس ونخالطهم لنصل منها وبها إلى سعادات أخر إذا صرنا الى حال أخرى، وتلك الحال غير موجودة لنا الأن، فالسخاء مفرع عن وجود مال بيد الإنسان استفاد بالمخالطة حسن صرفه فى الخير، فإذا أحسن صرفه بالوجه الأوسط كان حائزا لفضيلة السخاء، وعلى كل حال فمن جوامع الكلم قول بعض الحكماء : «لا خير فى السرف، كما لا سرف فى الخير»، فمن يطلب زيادة المال، ويلتمس الكثرة فى أسباب الكسب، ليصرف مكسبه فى وجوه الخير، ويتقرب بها فى جهات البر، ويصنع بها المعروف، جدير بالحمد إذا توقى مطالب التبعات، ومكاسب

الشبهات، لأن المال آلة المكارم، وعون على الدين، ومؤلف للإخوان، ومن فقده من أبناء الدنيا قلت الرغبة فيه، وكثرت الرهبة منه، ومن لم يكن منهم بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به، وما أحسن ما قاله - مع التورية - الإمام العارف، بقية السلف الطاهر، أبو الفضل بن وفى:

وخل سمته صفعا بمال ... فقال توازعوه يا صحابى

إذا الحمل الثقيل توازعته ... أكف القوم هان على الرقاب

ومثله، فى التورية، ما كتبه ابن أبى حجلة[1] إلى الخواجة شهاب الدين الذهبى[2] وقد مطله بحوالة ذهب من قوله:

قد منعتم صرف الدنانير عنى ... ولكم فى الورى هبات كثيرة

وأنا شاعر وفى شرع نظمى ... صرفها واجب لأجل الضرورة

قال مجاهد[3]: الخير فى القرآن كله المال، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨) يعنى المال او ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ (ص: ٣٢) يعنى المال وقوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ (النور: ٣٣) يعنى مالا، وقال تعالى: عن شعيب: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي﴾ (هود: ٨٤) أى بمال وغنى، وإنما سمى الله المال فى القرآن خير إذا كان فى الخير مصروفا، لأن ما أدى إلى الخير فهو فى نفسه خير. وقد روى عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن أحساب أهل الدنيا هذا المال». وقال عبد الرحمن بن عوف: يا حبذا المال أصون به عرضى وأرضى به ربى. وقال ابن عباس: الدراهم والدنانير خواتم الله فى الأرض، لا تؤكل ولا تشرب، وحيث قصدت بها

---

(١) أحمد بن يحيى (١٣٢٥ - ١٣٧٥م) شاعر وكاتب ومتصوف، تنقل ما بين الجزائر وسورية ومصر حيث مات.

(٢) محمد بن يحيى (١٢٧٤ - ١٣٤٨م) المؤرخ الشهير، وهو تركمانى الأصل، رحل كثيرا، وتوفى بدمشق.

(٣) من أوائل أعلام المدرسة التى اشتغلت بتفسير القرآن، وهو من ثقاة أصحاب عبد الله بن عباس.

قضيت حاجتك. قيل لبعضهم لم تحب الدنانير وهى تدنى من النار؟ قال: هى، وان أدنت منها، فقد صانت عنها. وقال بعض الحكماء: من الملوك من أصلح ماله فقد صان الأكرمين: الدين، والعرض. ومر رجل من أرباب الأموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه وأدناه، فقيل له بعد ذلك: أكانت لك إليه حاجة؟ فقال: لا، ولكن رأيت ذا المال مهيبا فهبته. ويقال: الدراهم مراهم، لأنها تداوى كل جرح، ويطيب بها كل صلح. وقال أحيحة بن الجلاح:

رزقت لبا ولم أرزق مروءته ... وما المروءة إلا كثرة المال

إذا أردت مواساة تقاعد بى ... عما ينوه باسمى رقة الحال

وقال بعضهم:

ومن يطلب المال الممنع بالقنا ... يعش ماجدا أو تخترمه الخوارم

وقال آخر:

كفى حزنا أنى أروح وأغتدى ... وما لى من مال أصون به عرضى

وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا ... وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وأما ذم جمع المال فهو محمول على من يقتنى الأموال ليدخرها، ويكف عن صرفها فى وجوه الخيرات، حيث إن ذلك يستدعى سوء ظنه بخالقه، مع أن فى حسن الظن بالله راحة القلوب، مصداق ذلك ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (التوبة: ٣٤).

ثم إن مشروعية التعاون على المنافع العمومية يدل عليها كثير من الآيات والاحاديث النبوية، فمن قوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ (المائدة: ٢) وقوله تعالى: ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ (آل عمران: ٩٢) أى أن من أنفق كان من جملة الأبرار الذين قال تعالى فيهم: ﴿ **إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ** ﴾ (المطففين: ٢٢، ٢٣) الآية. والبر

أيضا أكثر أعمال الخير، فهو صفة جامعة، ومعنى الآية عليه: لن تتصفوا بهذه الصفة، وهى استجماع أعمال الخير، حتى تنفقوا مما تحبون، فتفوزوا بفضيلة البر، فأفضل طاعات الإنسان إنفاق ما يحبه، فكان السلف إذا أحبوا شيئا جعلوه لله تعالى. روى أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة: يا رسول الله، لى حائط - أى بستان - بالمدينة وهو أحب أموالى الى، أفأتصدق به؟ فقال عليه السلام: «بخ بخ[1]، ذاك مال رابح، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين». فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها فى أقاربه. ويروى أنه جعلها بين حسان بن ثابت وأبى بن كعب، رضى الله عنهما. وروى أن زيد بن حارثة، رضى الله عنه، جاء عند نزول هذه الآية بفرس له كان يحبه، وجعله فى سبيل الله، فحمل عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أسامة، فوجد زيد فى نفسه، فقال عليه السلام: «إن الله قد قبلها». واشترى ابن عمر جارية أعجبته، فأعتقها، فقيل له: اعتقتها ولم تصب منها؟! فقال: لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون. والإنفاق هنا يشمل الزكاة وغيرها من كل شىء أنفقه الإنسان من ماله، يبتغى به وجه الله تعالى، حتى التمرة، وقوله (مما تحبون) فيه إشارة إلى أن إنفاق الكل لا يجوز، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٧) فهذا أدب الله تعالى. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب الرفق فى الأمر كله». وقال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها   نجاة، ولا تركب ذلولا ولا صعبا

ويقال: ثلاثة من حقائق الإيمان: الاقتصاد فى الإنفاق، والإنصاف من نفسك، والابتداء بالسلام. وضابط الاقتصاد فى الإنفاق إن ما دبره وناله الفضل فهو الاقتصاد الجميل الحسن، فالعقل السليم لا يميل إلى الفرط ولا إلى الشطط، بل يتبع الوسط الذى هو خير الأمور.

---

(١) اسم فعل للمدح وإظهار الرضى.

[المروءة]

ومن شواهد فضيلة البر ودلائل الكرم والإنفاق المروءة، التى هى حلية النفوس، وزينة الهمم، وهى مجاراة النفس على أفضل أحوالها. روى عن النبى صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت اخوَّته، وحرمت غيبته وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين تكلفها الا من سهلت عليه المشاق، رغبة فى المحمدة، وهانت عليه الملاذ، حذرا من المذمة. ولذلك قيل: سيد القوم أشقاهم، أى اكثرهم مشقة، قال المتنبى[1]:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتال

وقال:

وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت فى مرادها الأجسام

والداعى إلى استسهال الصعب فى التمسك بالمروءة شيئان: علو الهمة، وشرف النفس، فأما علو الهمة فإنه باعث على التقدم، وداع إلى التخصيص، أنفة من خمول الضعة، واستكبارا لمهانة النقص، وفى الحديث الشريف: «إن الله تعالى يحب معالى الأمور ويكره سفاسفها.» وأما شرف النفس فبه يكون قبول التأديب، وتقويم التهذيب فإذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة، وفى الفضائل راغبة. فإذا تجرد شرف النفس عن علو الهمة كان الفضل به عاطلا، حتى قال: إن شرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس، لأن من غلبت عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا إلى طلب ما لا يستحقه، ومتخطيا إلى التماس ما لا يستوجبه، ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحقه ومقصر عما يجب

---

(١) أبو الطيب أحمد بن الحسين (٩١٥ـ٩٦٥م) شاعر وفيلسوف، غلبت عليه شهرة الشعر، حيث يعد فى مقدمة فحول الشعراء العرب فى عصر ازدهار حضارتهم وأدبهم.

له، والفرق بين الأمرين ظاهر، وإن كان لكل واحد منها من الذم نصيب، قال الشاعر:

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن أب فأضاعها

أمرته نفس بالدناءة والخنا ونهته عن سبل العلا فأطاعها

فإذا أصاب من المكارم خلة يبنى الكريم بها المكارم باعها

قال أنوشروان[1]: الكامل المروءة: من حصن دينه، ووصل رحمه، وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكماء: كامل المروءة: من أحب المكارم، واجتنب المحارم. فالبر الحقيق المذكور فى قوله تعالى ﴿ **لن تنال البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ حليف للمروءة الكاملة، ويطابق هذه الآية الشريفة قوله، صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» - رواه الإمام مسلم، رضى الله عنه، بلفظ: «إذا مات المسلم» بدل «ابن آدم» - فقد حث الحديث النبوى على ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين، فى حق صاحب العمل تديم عمله، وتجعله باقيا، كأن صاحب العمل حى بعمله، مأجور دائما، فهذه الفضائل مخلدة للذكر مؤبدة للأجر، وبضدها تتميز الأشياء، فإن من لا صدقة له فى حياته، ولا علم، ولا ذرية، فعمله مقطوع من أصله، فهو ميت الأحياء، حيث عدم الفضائل الثلاثة.

فالفضيلة الأولى: الصدقة الجارية، خصها بعض العلماء بالوقف، وجعلها من أدلة تشريعه، وقال بعدم الوصية فى معنى الصدقة، وبعدم دخول صدقة التطوع، والقرينة دالة على العموم، لا سيما إذا كان الحديث فى معرض فضائل الأعمال، فالعبرة بعموم لفظه، فالمدار على أن تكون الصدقة جارية مستمرة باقية مخلدة، لا ينقطع نفعها، ولا يمتنع من الدر ضرعها، كحفر الآبار فى أى محل من المحال، حيث يصير النفع بها، رصدت على جهة أم لم ترصد، وغرس الأشجار التى يتظلل

---

(١) هو كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨م) ويلقبه العرب - تبعا لأحد الأحاديث النبوية - بالملك العادل لقول الرسول عليه السلام: «ولدت فى زمن الملك العادل، كسرى».

بها، وإجراء الأنهار، وتسليك الطرق، وجميع الأفعال الخيرية الدائمة، فالصدقة الجارية بهذا المعنى جامعة لأكثر أركان المنافع العمومية، والأوقاف داخلة فيها، مما يرصد للمساجد والمارستانات، ونحو ذلك مما يبتغى به الواقف وجه الله تعالى، حتى يكون من المنافع العمومية، والباقيات الصالحات، والأعمال الحسنات، فإن كثيرا من أرباب اليسار يحرصون على بناء المساجد والمدارس، ويحبسون عليها الدور والخانات والحوانيت وغيرها، ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويذكر فى الصحف أهل الخير خيرهم، فإذا كان هذا البناء وما يرصد عليه من وجه حلال طيب، كان من مصداق الحديث، يعنى من الصدقات الجارية النفع والثواب، وإلاّ بأن كان بوجه الاغتصاب أو كان لمجرد الفخر، كان راصده مجردا عن الأجر، مجازى بالعقاب، فلو كان صاحبه رد المال على أربابه لكان أولى. وكذلك من تظاهر بصرف ماله على الفقراء، كمن يرسل إلى نظار الجوامع والمساجد أشياء جسيمة لا تصل إلى أربابها المحتاجين إليها، بل أخذها من لا يستحقها، ويظن مرسلها أن صدقته صادفت محلا، فقد تساهل فى صدقته، إذ قد تعدت مصارفها الحقيقية، فأولى من هذه الصدقات الظاهرية صرف الأموال فى منفعة عمومية حقيقية يكون فيها الغبطة والمنفعة للفقراء والمساكين، بحيث تعود عليهم مستمرة لا منقطعة.

ومن جملة الصدقات ما يكون للنفس فيه خبيئة، وهى حب المدح والإعطاء والرياء والسمعة، ليقال: فلان يعطى كصدقة المتصدقين فى المحافل، لقصد الشكر وإفشاء المعروف، ومن الناس من يكثر من الملاهى والأفراح بدون لزوم، وينفق فى ذلك النفقات الجسيمة، وهو يعلم كثرة الفقراء فى قريته، والجياع من جيرته وأهل بلدته، بل ومن أرحامه، فلو أنفق عليهم ما صرفه فى محض اللهو واللعب لفاز، ولو استفتى العقل فى ذلك لافتاه بالنجاز[1]، ولكن قد فاته كمال السباق إلى الفضائل فى ميدان السابقين، وما درى أن أداء الواجب، خصوصا فى إطعام الفقراء المستحقين، خير من نوافل النوافل بيقين، ودون من لا يعرف وجوه

(١) أى الإنجاز.

المصارف الحقيقية، وأبواب المنافع العمومية، من يجمع المال ويبخل بإخراجه، ولا يتصدق به ولا يقرضه لمحتاجه، فيجهد النفس فى البخل المهلك، ويرى أن الإمساك خير من الإنفاق وأولى، فلا ينتفع بثواب الآخرة ولا بمنفعة الأولى، فهذا قابض بيده على أسباب الحرص والأمل، ولا شك أن الحرص من سبل المتالف، وآفة من آفات الحرمان، وإطالة الأمل من إساءة العمل، وذلك لما فيه من التسويف، وقيل: الأمل مذموم إلا من العلماء، فلولا أملهم لما صنفوا. وأيضا لا يخلو الأمل من سر لطيف، لأنه لولا الأمل ما تهنأ أحد بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع فى عمل من أعمال الدنيا، فالمذموم منه الاسترسال فيه وعليه يحمل حديث أنس بن رافع[1]: أربعة من الشقاوة جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا. أخرجه البزار. قال بعض الحكماء: الرزق مقسوم، والحريص محروم، والحسود مغموم، والبخيل مذموم. وقال الشاعر:

لا تحسدن أخا حرص على سعة … وانظر إليه بعين الماقت القالى

إن الحريص لمشغول بشقوته … عن السرور بما يحوى من المال

وكان المأمون يعجبه قول أبى العتاهية[2]:

تعالى الله يا سلم بن عمرو … أذل الحرص أعناق الرجال

وقبله:

نعى نفسى إلى من الليالى … تصرفهن حالا بعد حال

---

(١) هو أنس بن رافع بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل، أبوالحيسر. قدم فى وفد من قومه إلى مكة، قبل الهجرة، فدعاهم الرسول إلى الإسلام، والطهطاوى يذكر الاسم هكذا «أنس رفعة» وليس فى رواة الحديث من يحمل هذا الاسم، فلعله تصحيف. والذين يحملون - من الصحابة - اسم «أنس» عددهم أربعة وعشرون صحابيا، راجع تراجمهم فى «أسد الغابة» لابن الأثير ج ١ ص ١٤٤ - ١٥٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(١) إسماعيل بن القاسم (٧٤٨ - ٨٢٦م) شاعر شهير، ولد بالأنبار، ونشأ بالكوفة، وتوفى ببغداد. وكانت له نظرات فلسفية ظهر أثرها فى شعره.

فما لى لست مشغولا بنفسى ... وما لى لا أخاف الموت ما لى

لقد أيقنت أنى غير باق ... ولكنى أرانى لا أبالى

تعالى الله يا سلم بن عمر الخ . .

وبعده

هب الدنيا تساق إليك عفوا ... أليس مصير ذاك إلى الزوال

فما ترجو بشىء ليس يبقى ... وتنسى ما تغيره الليالى

قال فلما بلغ سلم الخاسر قول أبى العتاهية قال :

ما أقبح التزهيد من واعظ ... يزهد الناس ولا يزهد

لو كان فى تزهيده صادقا ... أضحى وأمسى بيته المسجد

إن رفض الدنيا فما باله ... يكثر المال ويسترفد

يخاف أن تنفد أرزاقه ... والرزق عند الله لا ينفد

الرزق مقسوم على من ترى ... يسعى له الأبيض والأسود

فقد بين ذلك البيت ـ وهو تعالى الله يا سلم بن عمرو الخ ـ نتيجة الحرص، وعاقبة البخل، فشطره الأول من التهويل المبكت، وشطره الأخير من جوامع الكلم المسكت.

[نوادر البخلاء]

وقد تفنن الأدباء وأرباب النوادر فى حكاية وقائع للبخلاء، إما واقعية أو اختراعية، فلنذكر جملة منها لترويح النفوس، فنقول: مما يحكى أنه قيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ فقال أن يحلف على الضيف فيعتذر بالصوم! قيل إن رجلا من البخلاء حضر بخصم إلى حاكم، فقال: يا حاكم المسلمين، اشتريت

البارحة رأسا فأكلت لحمه، وتركت عظمه على بابى لاتجمل به، فجاء جارى هذا فنقله إلى بابه. وتخاصما، فسمعه الحاكم وهو يقول له: ويحك! أنت تقعد يوما على باب دارى، ويوما تقعد فى ظل جدارى، ويوما تقول كيف راح فلان فهل بلغك أننى على مطلب. قيل وكان العماد الحلى[1] يقول: ليس الشجاع عندى عمرو بن معدى كرب ولا عنترة العبسى ولا خالد بن الوليد، إنما الشجاع الذى يرى طعامه يؤكل بحضرته وهو صابر! ويقال إن العماد الحلى، المذكور، اشترى مملوكا تركيا فحضر إليه يوم سبت بدمشق، المحروسة، فقال له: أريد أن أتفرج مع المماليك فاعطنى شيئا، فأعطاه فلسا، فرماه، فغضب العماد، وقال: ويحك! ترمى الفلس، وهو النقطة التى فى وسط الدينار، فقال له المملوك: وكيف ذلك؟ فقال لا ترى فى يدك فلسا حتى تصرف درهما، ولا ترى فى يدك درهما حتى تصرف دينارا، وهذا الفلس الذى رميت به يقضى حاجة ساعة وحاجة يوم وحاجة أسبوع وحاجة شهر وحاجة عام وحاجة الدهر كله، فقال له مملوكه: وكيف ذلك؟ فقال: أما حاجة ساعة فقصعة عقيد، أو كوز فقاع، وأما حاجة يوم فباقة بقل، أو زيت للسراج، وأما حاجة أسبوع فقطن للقناديل، وأما حاجة شهر فكبريت، وأما حاجة عام فملح، وأما حاجة الدهر فوتد يدق فى الحائط ليعلق عليه الثياب. قال عبد العظيم بن أبى الإصبع نزلت من قلعة الرها[2] يوما، وصحبنى اثنان من أصحاب الملك المظفر شهاب الدين لقصد السلام على العماد الحلى بالمدرسة، وكان وكيل بيت المال بالرها من قبل الملك العادل[3]، قال: فلما اجتمعنا به طلبنا الغداء منه، فقال: نحن بصريون نتخارج على جارى عادتنا، ولكن ما أحيف عليكم لأنى صاحب البيت، أنا وحدى من عندى ثلاثة أشياء، وأنتم الثلاثة من عندكم شىء واحد، أنا من عندى الغلام الذى يشترى الحاجة، والبيت للجلوس، والسفرة التى

---

(١) محمد بن أحمد، عماد الدين الأصفهانى (١١٢٥ـ١٢٠١م) كاتب ومؤرخ وأديب، لمع اسمه فى زمن حكم الدولتين الزنكية والأيوبية.

(٢) مدينة بالجزيرة فوق حران، شمالى العراق، وبينها وبين حران ما يقرب من خمسين كيلو مترا.

(٣) محمد بن أيوب (١١٤٥ـ١٢١٨م) من سلاطين الدولة الأيوبية، وهو أخو صلاح الدين الأيوبى، وكان توليه لملك مصر سنة ١٢٠٠م.

يؤكل عليها، وأنتم الثلاثة من عندكم الفضة التى يشترى بها الحاجة. فقلت له: يا عماد، ما أشبه هذه المخارجة بمخارجة بعض الخلفاء مع نديم له اجتمع به فى «يوم نوروز»[1] وعزما على الشرب فقال له نديمه: من عندك شيء ومن عندى شيء وقد تم المقام، وقال اسمع منى شعرا أذكر فيه ما يكون من عندى وما يكون من عندك، وأنشد:

منى ومنك غدا يوم نسر به	**فى صبحة اليوم إن اليوم نوروز**
البيت منك ومنى الكنس أكنسه	**والرش منى ومنك الماء والكوز**
واللحم منك ومنى النار تطبخه	**والأكل منى ومنك الخبز مخبوز**
والراح منك وريحان وفاكهة	**والشرب منى إذا دارت قواقيز**
هذى مخارجة ما سن سنتها	**فى مثل ذا اليوم بهرام وفيروز**

وأما قوله نحن بصريون نتخارج على جارى عادتنا فإشارة إلى بخل أهل البصرة، كما تفيده واقعة النضر بن شميل النحوى، فإنه لما ضاقت معيشته بالبصرة خرج يريد خراسان، فشيَّعه من أهلها نحو من ثلاثة آلا ف رجل، ما فيهم إلامحدث أو نحوى أو عروضى أو أخبارى أو لغوى، فلما صار بالمربد[2] قال: ياأهل البصرة يعز على فراقكم والله لو وجدت كل يوم كيلجة[*] باقلى[**] ما فارقتكم، فلم يكن فيهم من يتكلف له بذلك. وهذه الواقعة تشبه واقعة القاضى عبد الوهاب البغدادى المالكى[3] فإنه لما نبت به بغداد خرج منها طالبا مصر فشيعه

(١) عيد شعبى، إيرانى الأصل، كان تاريخه عندهم من ١ حتى ٦ شهر «مزوردين» وهو يقابل عندنا ٢١ - ٢٥ من مارس. ولقد ظلت لهذا العيد احتفالاته وتقاليده بعد الفتح لفارس، بل لقد انتقل الاحتفال به إلى غير فارس من البلاد التى فتحها العرب والمسلمون.

(٢) المربد، فى الأصل: كل موضع حبست فيه الإبل، ومربد البصرة موضع من أشهر أحيائها.

(٣) لعل المراد هو عبد القادر بن عمر، البغدادى (١٦٢٠ - ١٦٨٢م)، وهو لغوى، ولد ببغداد، ومات بالقاهرة.

(*) كيلجة: مكيال عراقى، كان يكال به، وهو يساوى من الأرطال البغدادية أوبعة أرطال الاّ قليلا.

(**) الباقلىً: الباقلاء: نبات عشبى حولى يؤكل مطبوخا. (الشروق).

من أكابرها وفضلائها جماعة موفورة، فقال لهم لما ودعهم: لو وجدت بين ظهرانيكم كل غداة وعشية رغيفين ما فارقت بغداد، ومن شعره فيها:

بغداد دار لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق

أقمت فيها مضاعا بين ساكنها ... كأننى مصحف فى بيت زنديق

وقيل: حلف بعض البخلاء على صديق له فأحضر له خبزا وجبنا، وقال: لا تستقل هذا الجبن فإن رطله بثلاث دراهم، فقال ضيفه: أنا أجعل الرطل بدرهم ونصف، قال: كيف ذلك؟ قال: آكل لقمة بجبن ولقمة بغير جبن! وقيل شوى لبعض البخلاء دجاجة، وقدمت إليه، فوجد فخذها قد عدم، فنادى فى داره: من ذا الذى تعاطى فعقر؟ والله لا خبزت فى هذا التنوير خبزا مدة شهر، فقال له غلامه - وكان ذكيا -: يا سيدى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ فقال: ويحك! أما قرأت قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً**﴾ (الأنفال: ٢٥). وقيل سمع بعض البخلاء قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ**﴾ (النساء: ٣٧). فقال: هنأهم الله. وقيل كان أبو دلف سخيا بالمال، بخيلا بالطعام، سئل رجل كان يأكل معه كيف كان طعامه؟ فقال: كان على مائدته رغيفان، قيل: كيف كانت صحانه؟ قال: كأنها خرطت من الخردل، قيل: فكم بين اللون واللون؟ قال فترة نبى، قيل: فمن كان يأكل معه؟ فقال: الكرام الكاتبون، وأنشد فيه:

أبو دلف يضيع ألف ألف ... ويضرب بالحسام على الرغيف

أبو دلف لمطبخه قتار ... ولكن دونه ضرب السيوف

- والقتار رائحة القدر - ومما قيل من الأشعار فى البخلاء:

ثقلت على الرئيس أبى على ... وكنت على قرينته خفيفا

ومـا لى عنده والله ذنب ... سوى أنى كسرت له رغيفا

غيره:

رأيت الشيخ أعرض حين جذت وكاد يموت لما أن دخلت

فقلت علام تجزع من لقائي؟ لك البشرى فإني قد أكلت

غيره:

ويعجن للضيف في مسعط دقيق الشعير ولا ينخل

ويستقبل الضيف من فرسخ أيا ضيف قل لي متى ترحل

وقال آخر:

أتيت عمرا سحرا فقال إني صائم

فقلت إني قاعد فقال إني قائم

فقلت آتيك غدا فقال صومي دائم

وقال الشيخ شمس الدين المزين:

مسلماني أضافنا لبنا ما له ثمن

بيض الله وجهه كلما جاء باللبن

وقال الحمدوني:

رأيت أبا زرارة قال يوما لحاجبه وقد حضر الطعام

حلال الله من أهل ومال علي وكل ما يجري حرام

لئن فارقت باب الدار شبرا وعندي منه عرق أو عظام

لا نتصفن منك بكل حقي وأملأ منك سيفي والسلام

فقال له الغلام فإن أتاني أبوك وليس لي فيه مرام

فقال لئن أتى في البيت هر على خبزي أضارب أو أضام

إذا حضر الطعام فلا حقوق | على لوالدى ولا ذمام
فما فى الأرض أقبح من خوان | عليه الخبز يحضره زحام

وقال ابن بسام[1]:

أما الرغيف على الخوا | ن فى حمامات الحرم
ما أن يحس ولا يمس | ولا يذاق ولا يشم

وقال الحمدونى:

أبو نوح دخلت عليه يوما | فغدانى برائحة الطعام
وجاء بلحم لا شيد سمين | وقدمه على طبق الكلام
فكان كمن سقى الظمآن آلا | وكنت كمن تغدى فى المنام

فالممسك عن الانفاق، حرصا على الدنيا وخشية من الإملاق، ضعيف الإيمان، قليل الوثوق بالرزق الذى ضمنه لعباده الملك الرزاق، حيث قال ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الزخرف: ٣٢) مع أن الرزق يتيسر بالصدقات، وفعل الخيرات، فهى من جملة أسبابه، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «استنزلوا الرزق بالصدقة». وقال جعفر بن محمد[2] إنى لاملق فأناجز الله بالصدقة فأربح. وقيل لعلى، رضى الله عنه: كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم؟ قال: كما قسم فيهم أرزاقهم. وقال الإمام مالك[3] سمعت أهل مكة يقولون: ما من أهل بيت فيهم اسم محمدا إلا رزقوا ورزق خيرا. وقال بعض الحكماء: ليس كل طالب للدنيا

---

(١) على الشنتمرى (توفى سنة ١١٤٧م)، أندلسى، اشتهر بالكتابة والأدب، وتولى الوزارة، وهو صاحب كتاب التراجم المسمى (الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة).

(٢) هو أبو عبد الله جعفر الصادق (٦٩٩ ـ ٧٦٥م) الإمام السادس من أئمة الشيعة الإمامية، وإليه تنسب الكثير من الحكم والمؤلفات والتعاليم، وبعده انقسمت الشيعة الإمامية إلى: إسماعيلية، جعلت الإمامة بعده لابنه إسماعيل، وإلى: اثنى عشرية، جعلت الإمامة بعده لابنه موسى.

(٣) هو مالك بن أنس (المتوفى سنة ٧٩٥) صاحب المذهب الفقهى المشهور.

مذموما، بل المذموم من طلبها لنفسه، فمن طلب الدنيا للدنيا كان مذموما، ومن طلب الدنيا لإصلاح معاشه ومعاده كان ممدوحا.

وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة، رضى الله عنهم، كل ما دخلوا فيه من أسباب الدنيا فهم بذلك إلى الله متقربون، وفى رضاه متسببون، لا يقصدون بذلك زخرف الدنيا وزينتها، ولا ذوق حلاوتها ولذتها، ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾ (الفتح: ٢٩). وما ظنك بقوم اختارهم الله تعالى لصحبة رسوله، صلى الله عليه وسلم، ولمواجهة خطابه فى تنزيله، فما أحد من المؤمنين إلى يوم القيامة إلاوللصحابة فى عنقه منن لا تحصى، وأياد لا تستقصى، لأنهم هم الذين حملوا إلينا عنه، صلى الله عليه وسلم، الحكم والأحكام، بينوا الحلال والحرام، وفهموا الخاص والعام، وفتحوا الأقاليم والبلاد، وقهروا أهل الشرك والعناد، وقال، صلى الله عليه وسلم، فيهم: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف إلى أن قال: ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا**﴾ فدل ذلك على أن ما ابتغوا من الدنيا لم يقصدوا به إلا وجه الله الكريم، وقال سبحانه وتعالى، فى آية أخرى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** (٣٦) **رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ (النور: ٣٦، ٣٧) فلم ينف عنهم الأسباب، ولا التجارة، ولا البيع ولا الشراء، فلا يخرجهم عن المدحة غناهم، إذا قاموا بحقوق مولاهم.

قال عبد الله بن عتبة[1] كان لعثمان رضى الله عنه يوم قتل مائة ألف وخمسون ألف دينار، وألف ألف درهم، وترك ألف فرس، وألف مملوك، وخلف من ضياعه بئر أريس وخيبر ووادى القرى ما قيمته مائتا ألف دينار. وبلغ مال الزبير بن العوام

---

(١) هو عبد الله بن عتبة بن مسعود، وعمه عبد الله بن مسعود، وهناك خلاف هل هو صحابى أم تابعى، وترجمته فى (أسد الغابة) ج٣ ص ٢٠٥، ٢٠٦.

خمسين ألف دينار، وترك ألف فرس، وألف مملوك. وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر، وكانت الدنيا فى أكفهم، لا فى قلوبهم، صبروا عنها حين فقدت، وشكروا الله تعالى حين وجدت، وإنما ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالفاقة فى أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم، وتطهرت أسرارهم، فبذلها لهم حينئذ لأنهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم، فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ فى اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الأمين، وامتثلوا فيها قول رب العالمين: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ ﴾ (الحديد: ٧) فيه فكانت الدنيا فى أيدى الصحابة لا فى قلوبهم.

ويكفيك فى ذلك خروج عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن نصف ماله، وخروج أبى بكر عن ماله كله، وخروج عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن سبعمائة بعير موفورة الأحمال، وتجهيز عثمان بن عفان، رضى الله عنه، جيش العسرة، إلى غير ذلك من أفعالهم، فتضمنت الآية التزكية لظواهرهم وسرائرهم، ولا شك أن الصحابة الأكرمين، والسلف الصالح صاروا قدوة لغيرهم، فبهذا المعنى سنوا سننا، فكان لهم أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ولا شك أنها من الصدقات الجارية، وداخلة أيضا فى العلم الذى ينتفع به الآتى فى الفضيلة الثانية وأما ما صنعه الخلفاء من الصدقات فهو أكثر من أن يحصر، ولو لم يكن إلا ما فعلته أم جعفر زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد من الخيرات لكان كافيا فى الدلالة على همة الخلفاء فى فعل المعروف، فقصتها فى حجّها، وما اعتمدته فى طريقها، مشهورة، أو ليس أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار؟ وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجمال ونحت الصخر، حتى غلغلته من الحل إلى الحرم، وعملت عقبة البستان، فقال لها وكيلها يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: اعملها ولو كانت ضربة فاس بدينار.

ثم إن فعل الصدقة يكون فى البلاد المتمدنة للمحتاج إليها من الفقراء العاجزين والمتقاعدين، والأرامل، وأهل الضرورات، من أهل الدين أو من غريب الأقطار، ومن المعلوم أن دين الإسلام، الذى شرع لسعادة الأمة، هو وسيلة التمدن

العظمى، فأول ما فتح الله سبحانه وتعالى مصر فى عهد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كان أول من رتب وأرصد من بيت مال المسلمين على الخيرات والعلماء والمجاهدين، وأولادهم وعيالهم، وأهل الضرورات، ما لزم من الإرصادات، وما زالت هذه الإرصادات الشرعية مستمرة فى جميع الدول والقرون، ولله فى شريعته أسرار لا يعقلها إلا العالمون، وتبع أمير المؤمنين، رضى الله تعالى عنه، على زيادة هذه الإرصادات، وإجراء حقوقها، من جاء بعده من الخلفاء والسلاطين، فكانت سنة حسنة متبعة إلى وقت تولية السلطان نور الدين الشهيد[1]، فأحدث هذا السلطان مرتبات وعلوفات، وانشأ أوقافا كثيرة من بيت المال على جهات خير من مساجد ومارستانات أعانت المستحقين على وصول حقهم إليهم من بيت المال بسهولة، فقيل للسلطان نور الدين الشهيد: إن فى بيت المال مرتبات كثيرة مصروفة للفقراء والضعفاء والقراء، فلو استعنت بها فى الجهاد، ومنعتها عن هؤلاء وصرفتها للاجناد لكان أمثل، فغضب، رحمه الله تعالى، وقال: إنى لأرجو النصر بأولئك القوم، قال صلى الله عليه وسلم: «وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» كيف أقطع خيرات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى، وأصرفها إلى قوم لا يقاتلون عنى إلا إذا رأونى، بسهام قد تخطىء وتصيب، وهؤلاء لهم نصيب فى بيت المال، كيف أقطعه عنهم ولا أصرفه لهم؟ ثم تبعه على ذلك السلطان صلاح الدين يوسف[2] فأرصد كثيرا من بيت المال للمستحقين والأرامل وأرباب الأنساب من البكرية والعمرية وغيرهم، وتبعه الملك الكامل[3] من بنى أيوب فإنه لما ملك مصر أرسل وزيره ليكشف له على أموال مصر

---

(١) هو أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى (١١١٨ ـ ١١٧٤م) أبرز من حارب الصليبيين قبل صلاح الدين الأيوبى، وهو صاحب الانتصار الأول ضدهم عندما انتزع منهم «الرها» سنة ١١٤٤م.

(٢) صلاح الدين الأيوبى (١١٣٧ ـ ١١٩٣م) أبرز الأبطال المسلمين فى صراع العرب ضد الصليبيين فى العصور الوسطى، وهو مؤسس الدولة الأيوبية التى حكمت من القاهرة بعد غروب شمس الدولة الفاطمية.

(٣) ناصر الدين (١١٨٠ ـ ١٢٣٨م) أحد سلاطين الدولة الأيوبية، وهو ابن السلطان الأيوبى «العادل» وفى عهده شهد انتصار مصر ضد غزو الصليبيين لها عن طريق «دمياط».

وخراجها، فأرسل الوزير يخبره فى رقعة: إن المرتبات من بيت المال للعلماء والفقراء فى كل سنة مائتان وسبعون ألف دينار، وأنه يحصل بذلك خلل فى الخزائن السلطانية، ونقص من الأموال، فكتب الملك الكامل تحت ذلك بخطه: الفاقة مُرَّة المذاق، والمال مال الله الرحيم الرزاق، والخلق عيال الله، وهو الواحد الخلاق، ما عندكم ينفد وما عند الله باق، أجروا الناس على عوائدهم فى الاستحقاق، فإنا لا نحب أن ينسب إلينا المنع وإلى غيرنا الإطلاق، والآثار الحسنة من مكارم الأخلاق، وإليكم هذا الحديث يساق، وقال صلى الله عليه وسلم: «من تسبب فى قطع رزق أخيه المسلم قطع الله رزقه».

فلما تولى السلطان الظاهر برقوق[1] الديار المصرية أراد أن يبطل المرتبات والعلوفات التى أحدثها ملوك الأكراد قبله من بيت المال، وعقد لذلك مجلسا حافلا، وقال: إن أصول هذه المرتبات قد أخذت من بيت المال بالحيلة، وقد استغرقت نصف أموال بيت المال وأراد إبطال ذلك، فأقنعه علماء عصره ومنهم شيخ الشيوخ، أكمل الدين، شارح الهداية مفتى السادة الحنفية، وعلامة عصره الشيخ البلقينى[2] شيخ السادة الشافعية، وغيرهما من العلماء، وقالوا: جميع ما أرصد وقرر على مستحقى بيت المال ومصارفه فلا سبيل لولى الأمر على نقضه. وانقضى المجلس على ذلك. وقد أفتى بذلك أيضا سلطان العلماء العز بن عبد السلام[3]، وغيره من العلماء الأعلام، ولم تزل الملوك العادلون يقتفون أثر من قبلهم فى ذلك ويسلكون فى ترتيب الخيرات وإجراء الصدقات الجارية أقوم المسالك إلى أن تولى الملك المظفر السلطان سليم خان[4]، ونظم مصر فى سلك دولة بنى

---

(١) سيف الدين، تولى سلطنة مصر سنة ١٣٨٢م ضمن سلسلة سلاطين المماليك الشراكسة، وأحرز انتصارا هاما على جيش تيمورلنك فى «سيواس».

(٢) سراج الدين عمر العسقلانى (١٣٢٤ـ١٤٠٣م) عمل بالقضاء، والتدريس والتأليف.

(٣) أبو محمد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام (١١٨١ ـ ١٢٦١م) عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، وكان أبرز علماء عصره، ولذلك لقب بسلطان العلماء.

(٤) هو السلطان العثمانى سليم الأول (١٤٦٧ ـ ١٥٢٠م) وفى عهده فتحت جيوشه سورية ومصر فدخلتا تحت الحكم العثمانى.

عثمان، فأبقى جميع ما بمصر من العلوفات والمرتبات على ما كان عليه، ولما وشى إليه بعض أمرائه بأن تلك العلوفات قد استغرقت كثيرا من الأموال، وطلب منه رفعها لاقتضاء الأحوال، قابله بالمنع والطرد، ورد عليه أشنع الرد، وقال: تلك صدقات من قبلنا، فلا نحب أن يكون قطعها من قبلنا. ولما تولى بعده ولده. السلطان سليمان خان[1]، تغمده الله بالرحمة والرضوان، سعى إليه بعض أهل الحدثان، وذكروا له أن هذه المرتبات الآيلة للأولاد والعيال والحريمات، لم تصادف من الشرع محلا، وأنها باطلة فرعا وأصلا، فأرسل خطا شريفا بإبطال ذلك، فراجعه علماء عصره وزمانه، وترجوا عظيم عطفه وإحسانه، وذكروا له أن ما رتب وأرصد على تلك الخيرات وعلى الأرامل وعيال المقاتلة وأولادهم والعلماء، لا سبيل إلى نقضه شرعا، لصدوره عن نواب السلطنة، مع موافقته المصالح الشرعية، وذكروا له إحسان والده على الأقطار المصرية، فأبقى ما كان على ما كان، وزاد من لطفه فوق ذلك الإحسان، وأصدر فرمانه الشريف وخطه الهمايونى المنيف، بإبقاء المرتبات على ما هى عليه، اغتناما للثواب، وإحراز الدعوات الصالحات التى ليس دونها حجاب.

ولم تزل هذه الأرزاق على مستحقيها دارة، وبها عيون العواجز والأرامل وأهل العلم والقرآن قارة، إلى أن حصلت التقلّبات والفتن، وتصاريف الدهر بالمحن، وتغلب الفرانساوية على الديار المصرية، بعد عسف وجور دولة المماليك، وسوء تدبيرهم فى الرعية، ثم أزيحت أشكال هذه البلية، وأنتج الإنتاج الصحيح نظم مقدمات القضية، باستيلاء المرحوم محمد على على المملكة اليوسفية، فكان من أعظم الأعوان والأنصار لمصر فى رفع التكاليف الشاقة، ودفع متاعب الآصار، فقصد إعادة فضيلة مصر على سائر الأمصار، مما لم يسبق لها أمثلة فى سائر الأعصار، وقد جد فى أرصاد هذه المرتبات شذوذا فى أساليب التراتيب، فرد ترتيبها إلى نظام جيد عجيب، وزاد فى هذه الخيرات أضعافا مضاعفة، وأجرى ما

---

(١) هو المعروف بسليمان الأول، أو: القانونى (١٤٩٤ - ١٥٦٦م) واشتهر بالفتوحات العثمانية فى القارة الأوروبية.

درج عليه ملوك الإسلام من الطرائق الشرعية والمتعارفة، وما أسسه من صنائع الخير والمبرات يكاد أن يكون خصوصية جعلها الله له من أعظم الكرامات، واقتدى به فى ذلك خلفه الصالح فجددوا لفعل الخير فى مصر صالح المصالح، وفى مشهور الحكم: أسعد الملوك ملك له وزير إذا نسى ذكره، وإذا ذكر أعانه، ونسأل الله تعالى أن يديم العز والنصر، لمن يريد الخير العميم لمصر.

[إقامة المرافق العامة]

ومما ينبغى: إعانة ولى الأمر على مضاعفة المحال الخيرة، من أرباب جمعيات الأغنياء وأهل المسرة، لتكثير وسائل البر والتقوى، كتكثير المارستانات التى ترصد على المرضى والزمنى العاجزين عن المعالجة فى بيوتهم، وكترتيب مارستانات ترصد على الأطفال الذين يلتقطونهم من الطرق، والأيتام، وعلى الشيوخ المتقدمين فى السن، والعميان، والبله والمجانين، وأرباب العاهات العاجزين. وكمحال الخيرية، والشركات السلمية، أى المتعلقة بالبيع والشراء على سبيل السلم[1]، لتسهيل الأخذ والعطاء، وقطع دابر الربا، ولإغاثة الملهوفين من القرض بربا الفضل[2]، ولإعانة المعسرين والمفلسين من التجار، المتعطلين عن الأشغال، لحصول حادثة جبرية أوجبت الكساد وسوء الحال. وبالجملة فأرصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعا، وكل ما فيه مصلحة، هى مشروعات خيرية لا تستطيع أن تقوم بها الدولة وحدها، أو إنسان مخصوص وحده، ويد الله مع الجماعة، فلا بد فى إبراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء

---

(١) أى على سبيل الإقراض والتسليف. وفى كتب الفقه يعرفون «السلم» بأنه بيع شىء موصوف مؤجل فى الذمة بغير جنسه. وفى (لسان العرب): « . . . فى حديث خزيمة: «من تسلم فى شىء فلا يصرفه إلى غيره». يقال: أسلم وتسلم إذا أسلف، وهو أن تعطى ذهبا وفضة فى سلعة معلومة إلى أمد معلوم، فكأنك قد أسلمت الثمن إلى صاحب السلعة وسلمته إليه».

(٢) أى ربا الزيادة.

ترصد عليها الإرصادات، وترتب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستغلال، **فهذه صدقات جارية من جهة شركات تعاونية يقتسمون أجرها، ويحرزون شكرها، فجمعيات فعل الخير بالاشتراك قليلة فى بلادنا، بخلاف التصدقات الشخصية، والإرصادات الأهلية، يرصدها الواحد فى الغالب، كالسبيل والصهريج والمكتب، فإن هذا يتجدد بمصر كثيرا، ولا يتأسس له ما به يكون الدوام والاستمرار**، ومن العجيب أنه يسهل على النفوس إحداث الجديد، ويصعب عليها إصلاح القديم المحتاج للإصلاح والتعمير، ومع ذلك فالمصرى لا يستغنى عن الخيرات العمومية التى تقتضيها الأوقات والأحوال، كأرصاد مكاتب لتعليم البنات، لا سيما مكتب لتعليم فاقدات البصر منهن، ويتمنى أن من يفوز بإرصاد هذه المكاتب للنساء يكون من الخواتين[١] الغنيات اللاتى يوقفن فى العادة أوقافا عظيمة دون ما ذكر فى الأهمية، ومن الثابت أن زبيدة زوجة الرشيد فعلت كثيرا من الخيرات، وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن، ولكل واحدة ورد عشر القرآن، وكان يسمع فى قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن، مع ما أحدثته من الخيرات العديدة، وحسبها العين الجارية بالحجاز المسماة عين زبيدة، فليت جميع الخواتين والهوانم يقتدين بها فى أحياء المآثر واسداء المكارم.

وكذلك عظماء الأمراء، فإنهم أولى بالإرصادات العظيمة التى تليق بمقامهم، فيا ليتهم يقتدون فى ذلك بحضرة الأمير راتب باشا، الشهير، ناظر عموم الأوقاف سابقا، حيث بنى رواقا واسعاد متصلا بالجامع الأزهر، موقوفا على طلبة العلم من الحنفية، وعلى مدرسى هذا المذهب، وأجزل فيه من الخيرات الوفية، لتكثير أهل المذهب، فرواقه الآن بالأزهر على منيف، وطراز مذهب، بل عمت خيرات الباشا، المشار إليه المتواصلة، حتى اقتضت إحياء مذهب السادة الحنابلة، فقد رتب لرواقهم «جرايات»[٢] للشيخ والطلبة، وحضروا من الشام لإحياء هذا المذهب، وكان المشار إليه للخير العظيم سببه، فهذا هو فعل الخير المبنى على الإخلاص فى

---

(١) الأميرات.

(١) أى حصصا من الغذاء تجرى عليهم.

البر والإحسان، من أمير خطير، هو خلاصة إشراف معد وعدنان، فما أحسن هذا الصنيع، من الأمير صاحب المقام الرفيع، الذى وضع الندى فى موضعه، وما أوضع الحريص المضيع لماله لشرهه وطمعه.

ومما ينظم فى سلك التعاون على البر والتقوى، ومراعاة وجه الله الكريم فى التمسك بالسبب الأقوى، ما صنعه حضرة خليل أغا، باش أغاوات حضرة ذات الدولة والعصمة، والدة الجناب الخديو ولى النعمة، حيث أنشأ بجانب المشهد الحسينى مدرسة لعدد كثير من الأيتام المنقطعين، وأوقف عليها بإجراء عوائدها، وتبرع لها بما لم يسبقه به أحد من المتبرعين، فخصص رأس مال جسيم لدوام هذه المدرسة ونشر علومها، وأسس أصولا مستحسنة لحسن إدارتها وتنظيمها، وأنشأ أيضا تكية للأغوات العديمى الاكتساب، ولم يسبق فى ذلك، وخصه الله بإلهام هذا الصواب، وهذا مما يخلد ذكره، ويضاعف ثوابه وأجره، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لا يزيد فى العمر إلا البر ولا يرد القدر إلا الدعاء».

وهذا كله إنفاق ممدوح، وعلامة القبول عليه تلوح، بخلاف إنفاق من يحمل نفسه، ولو فى الصدقات، فوق ما تطيق، فيعلوه الدين الذى لا يعرف له جهة وفاء. فيدخل نفسه فى رقبة الضيق، ويعدم الحميم والصديق، فتسوء أخلاقه ولا ينفعه تصدقه وإنفاقه، قال رجل لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: أرأيت أن قتلت فى سبيل الله مقبلا غير مدبر أيكفر الله عن خطاياى؟ قال: «نعم، إلا الدين، بذلك أخبرنى جبريل». وعنه عليه الصلاة والسلام، أنه قال: «صاحب الدين محبوس عن الجنة بدينه». طلب رجل حكيم من رجل أن يدينه دينا فلم يفعل، فقال: الحمد لله، لم يكن من منعك إلا أن وجهى أحمر من الحياء مرة واحدة، ولو اعطيتنى لم يصفر وجهى من مطالبتك مرة، بل ألف مرة، قال تعالى: ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ (البقرة: ٢١٦). وعلى لسان العامة: لا هم إلا هم الدين، ولا وجع إلا وجع العين. وهذا كله محمول على الدين الذى ينفق فى غير الرشد، أو يترتب عليه المطل وعدم الوفاء، وإلا لما كان القرض مشروعا. وقال جعفر بن محمد: المستدين تاجر الله فى أرضه.

وقال عمر بن عبد العزيز : الدين وقر طالما حمله الكرام . وقال عمرو بن العاص : من كثر صديقه كثر دينه . وقال بعضهم : الدين رق ، فلينظر أحدكم اين يضع رقه . وكان ابن الزبير[1] ، رضى الله عنه ، ينشد :

ألا ليت النهار يعود ليلا فإن الصبح يأتى بالهموم

حوائج ما تطيق لها قضاء ولا دفعا وروعات الغريم

وذلك لأن الدين هم بالليل وذل بالنهار ، فالعجب كل العجب ممن يتطوع بالخير ، ويتصدق بأموال الناس ، ويخلط العمل الصالح بالسيىء ، ويظن أنه من الفعل الحسن ، مع أنه بمعزل عن الحزم والاستقامة ، معتمدا على قضاء دينه الذى استدانه بدون باعث شرعى ولا مقتضى سياسى ، ومعولا على «سوف» «وعسى» «ولعل» ، فهذا هو المديان الذى يتراكم عليه الدين ودين الدين لا إلى نهاية ولا إلى أجل ، بل ربما لا ينقضى وإن انقضى الأجل ، فصدقة من هو بهذه المثابة قل أن تقع موقع الإصابة ، فليست موضوع الصدقة الجارية المذكورة فى حديث «إذا مات ابن آدم أنقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية» لحديث . وإنما موضوعها أرباب الغنى واليسار ، إنفرادا واجتماعا ، انفصالا واشتراكا ، ومن المعلوم أن مكارم الأخلاق ممدوحة عند جميع الدول ، والمال لإعانة المحتاجين لا لأهل البطالة والكسل .

ولهذا لما تغلبت الفرانساوية على الديار المصرية ، لمحوا أن بها كثيرا من الكسالى القادرين على الأشغال ، الذين يؤثرون السؤال على الأعمال ، ويلحون فى الطلب ، فحنق حاكمهم من ذلك ، ونشر قانونا مشتملا على خمسة بنود :

البند الأول: جميع الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم ، وحضورهم أمام ضابط مصر ، ثم يتوجهون إلى سجن القلعة ، ما لم يكونوا من أصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الأشغال .

---

(١) عبد الله بن الزبير (٦٢٣ - ٦٦٢م) ثارعلى الدولة الأموية بعد مقتل الحسين ، وبايع له البعض بالخلافة ، ثم قتل بواسطة جيش الحجاج بن يوسف بمكة فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان .

البند الثانى: كل ملة من الإسلام، والنصارى، من أروام وقبط وشوام، ومن اليهود أيضا، تعمل من الآن فصاعدا حانوتا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدا لهم.

البند الثالث: كل رئيس ملة يلزم بلوازم حانوته وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الأكل والشرب وخلافه تتقرر على أهالى الملة المذكورة.

البند الرابع: فى مدة تدبير الحوانيت وترتيبها يأمر كل كبير ملة بجمع كافة فقراء ملته ويرضيهم، ويعطيهم لوازم الأكل والشرب والسكنى إلى حد انتهاء تدبير الحوانيت المذكورة واستكمالها.

البند الخامس: يجب على كبير كل ملة أن يتبصر فى أمر تدبير الحانوت لملته، ويأخذ الأمر اللازم لذلك من شيخ البلد، ويسعى فى إتمامه.

فهذه التدابير فى حد ذاتها خيرية، ولكن الحكومة المصرية الحالية قد كفت أهل الحاجة والمسكنة مؤونة السؤال، ورتبت للجميع فى جامع طيلون[1] استبالية جسيمة منقسمة إلى بلوكات، للفقراء والمساكين وأرباب العاهات، من نساء ورجال، وكبار وأطفال، يتحقق بها جارى الصدقات الوطنية، حيث نافست قديم المرتبات القلاوونية[2]. فمثل هذه من الصدقات الجارية المذكورة فى حديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث». الحديث.

[العلم النافع]

والفضيلة الثانية: تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم «أو علم ينتفع به» أى علم علمه الإنسان لغيره فصار نافعا. والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به،

(١) أى جامع أحمد بن طولون.

(٢) نسبة إلى السلطان الملك المنصور قلاوون (١٢٢٣ - ١٢٩٠م) مؤسس أسرة قلاوون، إحدى أسر المماليك البحرية.

فهو ما يوصل إلى الصفات العلية، والمناقب السنية، ويثمر الثمرات الدنيوية والأخروية، ويدعو إلى المكرمة، وينهى عن القبيح، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة: ٢٦٩) حيث فسر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة ترجع إلى العلم النافع والأفعال الحسنة الصائبة، فالعلم بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعملية، يعنى معرفة الحقائق والإقدام عليها بالعمل، فجميع العلوم النافعة عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله صلى الله عليه وسلم «أو علم ينتفع به».

ثم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلبه وجد فيه الطالب، وانفع ما إكتسبه واقتناه الكاسب.

إذا رمت تسمو لنيل العلا وقدرك بالله عال وغالى

فبالعلم فاسم لها محرزا فما مثله لطلاب المعالى

لأن شرفه ينم على صاحبه، وفضله يفى عند طالبه، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩) فمنع من المساواة بين العالم والجاهل، لما خص به العالم من فضيلة العلم. وأنشد الرشيد عن المهدى:

يانفس خوضى بحار العلم أو غوصى فالناس ما بين معموم ومخصوص

لا شيء فى هذه الدنيا يحاط به إلا أحاطه منقوص بمنقوص

وقال على، كرم الله وجهه: قيمة كل امرىء ما يحسن. فقيل فى هذا المعنى:

لا يكون العلى مثل الدنى لا وذو الذكاء مثل الغبى

قيمة المرء قدر ما يحسن المر ء قضاء من الإمام على

واعلم أن كل العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة، والإحاطة بجميعها أمر محال. قيل لبعض الحكماء: من يعرف كل العلوم؟. فقال: كل الناس. وحسبك قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: ٨٥) قال بعض الحكماء:

المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر، ليس يرى أرضا، ولا يعرف طولا ولا عرضا.

قل للذين قضوا فى العلم عمرهم ... ثم اطمأنوا وظنوا أنهم فرغوا

العلم أعظم مما تزعمون فكم ... قد بالغ الناس فى هذا وما بلغوا

وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل، وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها، والعناية بأولاها وأفضلها، فأولى العلوم وأفضلها العلوم الشرعية، التى بمعرفتها جميع الناس يرشدون وبجهلها بضلون ولا يهتدون، فهى كما قال، صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وقال، صلى الله عليه وسلم: «خيار أمتى علماؤها، وخير علمائها فقهاؤها» وروى عن أنس أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: «التفقه فى الدين حق على كل مسلم، ألا فتعلموا وعلموا، وتفقهوا ولا تموتوا جهالا». انتهى.

وربما مال بعض المتهاونين بالدين إلى العلوم العقلية، ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة، استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف، واستصعابا لما جاء به الشرع الشريف، من التعبد والتوقيف، ولكن قل أن ترى ذلك فيمن سلمت فطنته، وصحت رويته، لأن العقل يمنع من أن يكون الناس هملا أو سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة، وينقادون لأهوائهم المتشعبة، لما تؤل إليه أمورهم من الاختلاف والتنازع، وتفضى إليه أحوالهم من التباين والتقاطع، فلم يستغنوا عن شريعة يأتلفون إليها ويتفقون عليها. ونقل القطب الشعرانى[1] عن شيخه سيدى على الخواص إنه قال: أحب لأخواننا من طلبة العلم أن لا يتحكموا على علم الله القديم بظاهر أدلتهم وأقاويلهم، وأن لا يعطلوا أنفسهم من العمل ويقولون: حتى نفرغ من التعلم ثم نعمل، وأن لا يستغرقوا عمرهم فى زوائد العلوم التى لا يحتاج إليها إلا فى النادر وأن لا يتركوا عمل الحرفة التى يكون بها قوام معاشهم خوفا عليهم أن

---

(١) عبد الوهاب الشعرانى (١٤٩١ - ١٥٦٥م) صوفى شهير، ومؤلف فى فنون شتى، ومن كتبه الشهيرة كتاب (طبقات الصوفية).

يأكلوا بدينهم وعلمهم، أو يتعرضوا لصدقات الناس وأوساخهم، فإن الأكل بذلك يطمس أفهامهم، بخلاف أكل الحلال فإن له مدخلا فى فهم دقائق العلوم. ولذلك فاق النووى[1] أقرانه مع قصر عمره، وصار ترجيح المذهب راجعا إليه، لأنه كان لا يأكل إلا من الحلال. انتهى. وقال بعضهم: أرزاق الفقهاء من صدقة أموال الظلمة مكدرة بشروط الواقفين منغصة بمن النظار، من باشرها أكلها صدقة، ومن لم يباشرها أكلها حراما. وبالجملة فإن الأكل من صدقات الناس وولائمهم يقسى القلب، ويسد الفهم، وهو ضد الورع، فالعلماء للشريعة هم الزمام، وبانتظار أحوالهم يكمل الانتظام فإذا تكسبوا من الحلال بصنعة استغنوا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال، واكتفوا شر السؤال، كما قيل:

إن حزت علما فاتخذ حرفة ... تصون ماء الوجه لا يبذل

ولا نهنه أن يرى سائلا ... فشأن أهل العلم أن يسئلوا

ويتعلق بالشريعة الغراء عدة علومَ بيَّن الشافعى، رضى الله تعالى عنه، فضيلة كل علم منها فقال: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم العربية رق طبعه. أنتهى. فقد جمع فى ذلك العلوم الشرعية النقلية وأدواتها، وهى علوم العربية والرياضية التى عبر عنها بالحساب. قال بعضهم: وأما العلوم العقلية فترجع إلى أربعة علوم: فعلم له أصل وفرع، وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل ولا فرع، فأما الذى له أصل وفرع فهو الحساب والعلوم الرياضية، ليس بين أحد من الخلق فيها اختلاف.

فالحساب مستنبط من حروف المعجم، وهو فى حد ذاته أصل من أصول العلوم النافعة، لأنه كما قال ابن حجاج[2]، به يعلم عدد الصلوات والزكوات

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن شرف (١٢٣٣ - ١٢٧٧م) ومن أشهر أعماله شرحه لصحيح مسلم.

(٢) أبو عبد الله بن أحمد (المتوفى سنة ١٠٠١م) شاعر بويهى، عاش ببغداد، واشتغل بأعمال الحسبة وصناعة الكتابة.

والصيام، والشهور والسنين، وتحدث السنون من الشهور، والشهور من الجمعات، والجمعات من الأيام، والأيام من الساعات، والساعات من الدرج، والدرج من الدقائق، والدقائق من الشعائر، والشعائر من الأنفاس، وتنتهى قسمة الانفاس إلى أجزاء لا يعلمها إلا الله تعالى. ومنشأ هذه الأزمنة من دوران الفلك، ويستدل على ذلك بسير الكواكب والشمس والقمر، فتنشأ بين ذلك كله الأزمنة والأوقات التى يستدل بها على معالم الدين، من أوقات الصلوات والصيام والحج، وحين الزكاة، ومدد عدد النساء، ومحل الآجال. ويقيد ذلك كله بالحساب والعدد، حتى لا يشذ شىء بما يحتاج عمله بالتاريخ المصطلح عليه. وقد عدد الله تعالى نعمه علينا بذلك فى قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ (يونس: ٥) وقد أخذت العرب حسابهم من أبجد فوجدوه ينتهى من واحد إلى ألف، لا زيادة ولا نقصان، أولها الألف الذى هو واحد، وآخرها الغين الذى هو ألف، ولكن تعبدت الأمة المحمدية برؤية الهلال عند الصوم وعند الإفطار، لا بالحساب الذى يقوله الحساب والمنجمون من أن الهلال لم يظهر لأنه كان فى حجاب الشمس أو فى السرار مما لم نتعبد به، بل أحالنا الشرع على الرؤية التى يستوى فيها الناس، فقال صلى الله عليه وسلم: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فاقدروا له». أى أكملوا عدة شعبان، فهذه منافع الحساب فى العبادات والعادات، ومنافعه فى المعاملات والعقليات، وفى كل شىء، لا تحصى ولا تحصر، فهو أصل له فروع كثيرة.

والعلم الذى له أصل ولا فرع له فهو علم النجوم، فالنجوم لها حقيقة وأثر ظاهرى فى العالم، كالفصول والأوقات ونحو ذلك، ولا يتفرع عنها شىء.

وأما العلم الذى له فرع ولا أصل له كالطب، فإنه مبنى على التجارب إلى يوم القيامة، يعنى أن أصله من نفسه، فهو يتجدد بفروعه التجريبية، وهذا لا يمنع من كونه ينقسم إلى عدة أقسام اتسعت أيضا فروعها بالتجارب حتى صارت علوما،

وتعددت موضوعاتها بالنسبة لأجزاء بدن الإنسان على تعددها، فالموضوع الكلى للطب المبحوث عنه فيه هو بدن الإنسان، صحة واعتلالا، ثم تعدد الموضوع كطب العين والأذن والأنف، وهكذا، وكالتشريح، وتشخيص الأمراض، وكل هذا هو عين التجربة التى هى دائما آخذة فى التجدد إلى ما شاء الله.

وأما العلم الذى لا أصل له ولا فرع فهو العلوم السوفسطائية، والمغالطات. والجدليات، التى هى عبارة عن الفلسفة الفاسدة الهادمة لأصول الأديان، لا الفلسفة الصحيحة المرادفة للحكمة.

وأما العلوم الشرعية فهى وآلاتها أول العلم النافع.

وقد اعتنى العلماد بالتآليف فيها، لا سيما العلوم الثمانية، وهى علم التفسير، ويلحق به علم القراءات والتجويد، ثم علم الحديث، دراية ورواية، ثم علم الفقه، ثم علم أصول الفقه، ثم علم أصول الدين. ثم علم النحو ومنه الصرف ثم علم المعانى والبيان ويلحق بهما البديع والعروض ثم علم التصوف وكل هذه علوم نافعة. ثم يليها الفنون والصناعات، وهى أيضا علوم وعمليات من درجات أخرى متفاوته، لا تتم العلوم الشرعية إلا بها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، **فإن الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الممالك، وتحسين الحالة المعاشية للأمم والآحاد، فهى من فروض الكفايات**. أو ليس أن من الفنون صناعة الخط الذى له فضل وشرف ومنفعة لا يجهلها من عرف، وبه تقيّد العلوم وتثبت، وتزرع فى الصدور فتنبت، وقد قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه المحكم ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** ﴾ (العلق: ٣، ٤) وقال عليه الصلاة والسلام: «قيدوا العلم بالكتابة».

ولما لم يكن عند أكثر العرب كتابة فى الجاهلية، وكانت إذ ذاك أمة أمية، جعل لها الشعر عوضا، فأدركت به مرما وغرضا، أقيم عن الكتابة مقاما، فأبدت بمحفوظ الشعر كلامها، وعرفت به أنسابها وأيامها، فكان أول من أدخل فى بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا إسماعيل فاختص بهذه الفضيلة الأولية وأول من

أدخل الكتاب العربى أرض الحجاز هو حرب بن أمية، أو سفيان بن أمية، فتشبثوا بالحقيقة، وساعدتهم على المجاز، يعنى فازوا بالصناعتين، واتسعت تجارتهم بالبضاعتين، وقس على منفعة الخط فى البلاد المنظمة غيره من الفنون والصناعات التى أكسبت جميع البلاد المجد والعظمة، مما يفيد المال الصالح، فإنه لا تصلح الفعال إلا بالأموال من الحلال، والأموال لا تكون إلا بالكسب من وجه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المعادية، فلا أحسن ممن يكسب المال من حله، ويصرفه فى محله، ويكف به وجهه عن الناس. . فالفنون التى هى وسائل ذلك ليس عنها مندوحة، وهى فى الشرع ممدوحة، فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله عليه وسلم: «أو علم ينتفع به»، شامل لتعليم المعارف النافعة، سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعات أو آلات، فإنها لا تخلو عن مدارك علمية. وشامل أيضا لاجتهاد المجتهدين، ووضع الواضعين، وتدوين المدونين، وللتصنيف والتدريس، وغير ذلك. فالعمدة على العمل الذى ينشأ عنه معلومات نافعة لأهل الملة والوطن وللناس أجمعين، ويدل على ذلك ما ورد فى رواية أخرى «إذا مات ابن آدم ختم على عمله إلا عشرة، فذكر هذه الثلاثة وزاد: غرس النخل، ووراثة المصحف، والرباط فى الثغر، وحفر البئر، وإجراء النهر، وبناء بيت للغريب، وبناء مسجد لله تعالى، وتعلم القرآن». فهذا يفيد أن الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ما ذكر، كما بيناه أولا، وتعليم القرآن ووراثة المصحف يدخلان فى العلم المنتفع به، وأن الثلاثة المذكورة ليست حاصرة، فلا مانع أن يقاس على التعليم كتابة الكتب وطبعها ممن يأمر بذلك، أو يباشره، أو يعين عليه، أو من يدل عليه، حيث كان الدال على الخير كفاعله.

فكل من سن سنة حسنة دائمة النفع فهى داخلة فى العلم النافع، يدل على ذلك ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام فى قوله: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة». فالمؤمن الغارس غرسا حسيا أو معنويا يحصد ثمره ثمرا حلوا حسيا أو معنويا، فغرسه لا يثمر شوكا ما دام ملازم الإخلاص، فقاصد النفع

العمومي يثاب ثواب الخواص، فحصر الإمام السيوطى[1] للمستثنيات من انقطاع العمل فيها هو مذكور فى النظم الآتى وهو :

إذا مات ابن آدم جاء يجرى ... عليه الأجر عد ثلاث عشر
علوم بثها ودعاء نجل ... وغرس النخل والصدقات تجرى
وبيت للغريب بناه يأوى ... إليه أو بناء محل ذكر
وراثة مصحف ورباط ثغر ... وحفر البئر أو إجراء نهر
وتعليم لقرآن كريم ... شهيد فى القتال لأجل بر
كذا من سن صالحة ليقضى ... فخذها من أحاديث بشعر

والكل فى الحقيقة ترجع إلى الثلاث، وتزيد بالنظر لفروعها التى لا تنحصر فالعدد لا مفهوم له.

وما أحسن قول الزمخشرى[2] وقول من خمس أبياته :

قطع الجهول زمانه بتغزل ... إن الجهول عن الكمال بمعزل
أنا لا أميل إلى كلام العذل ... سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى
من وصل غانية وطيب عناق

إن كنت جئت لدى العدا بنقيصة ... فهى الكمال وذلك عن خصيصة
طلبى لغالية يبذل رخيصة ... وتمايلى طربا لحل عويصه
فى الذهن أبلغ من مدامة ساقى

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن (١٤٤٥ ـ ١٥٠٥م) من العلماء العرب الموسوعيين، تميز نشاطه فى التأليف بالتجميع والتبويب والتدوين، وكان له تلاميذ يعملون له فى التلخيص والجمع، ثم تنسب له نتائج الأعمال، ولقد بلغ عدد الآثار الفكرية التى خلفها ٦٠٠ (ستمائة) ما بين كبير وصغير؟!.

(٢) محمود بن عمر (١٠٧٥ ـ ١١٤٤م) من علماء المعتزلة الذين اشتهروا بآثارهم فى اللغة وعلم الكلام وتفسير القرآن.

سم الجهالة زال من ترياقها   وهى العلوم بمقتضى أشراقها
حررتها بالطرس باستحقاقها   وصرير أقلامى على أوراقها
أشهى من الدوكاء[1] والعشاق

فانهض لتحصيل العلوم ووفها   حقا بأشرف حالة وأعفها
أنى كففت عن السوى بأكفها   وألذمن نقر القيان لدفها
نقرى لألقى الرمل عن أوراقى

تعلو على أوج المعالى همتى   فى نيل مقصودى وقرب أحبتى
وأنا الذى عزمى كسيف مصلت   يا من يبالغ بالأمانى رتبتى
كم بين مستعل وآخر راقى

أصبحت موصوف العلا منعوته   لا أخشى من جانب تفويته
يا قاصرا فينا يحاول صيته   أأبيت سهران الدجى وتبيته
نوما وتبغى بعد ذلك لحاقى؟!

فمن هذا ينتج أن صاحب العلم أو الفن أو الصناعة ينبغى دائما أن يجتهد فى تكميل قواعد علمه أو فنه أو صناعته، أصولا وفروعا، اجتهادا واستنباطا، ويرغب إلى الله تعالى فى العون على ذلك، فإذا تمت فضيلته، وكملت أهليته، فعليه أيضا أن يشتغل بالتصنيف والجمع والتأليف، ليطلع جميع الناس على حقائق الفنون، ورقائق العلوم، ودقائق الصنائع، وعليه أن يجيد البيان، حسب الإمكان، وكل ما يعم نفعه وتكون الحاجة إليه أولى يقدمه على غيره، ويعتنى بما لم يسبق إليه.

---

(١) المعنى المراد هنا: الجماع، وفى (لسان العرب): «داك الرجل المرأة يدوكها دوكا. . . إذا جامعها. . فداكها دوكا على الصراط: ليس كدوك زوجها الوطواط».

ويقدم المبادىء على المقاصد، لأن للعلوم أوائل تؤدى إلى أواخرها، ومداخل تفضى إلى حقائقها، فلا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، لأن البناء على غير أساس لا يثبت، والثمر فى غير غرس لا يجنى ولا ينبت، فلا تحمل طالب المنفعة الأسباب الفاسدة والدواعى الواهية على أن يتبع أغراض نفسه المختصة بنوع من العلم فيدعوه الغرض إلى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته، كرجل يؤثر القضاء، أو يتصدى للحكم، فيقصد من علم الفقه أدب القاضى وما يتعلق به من الدعاوى والبينات، أو يحب أن يختص بوظيفة الشهود فيتعلم كتاب الشهادات، لئلا يصير موسوما بجهل ما يعانى، فإذا أدرك ذلك ظن أنه قد حاز من العلم جمهوره، وأدرك منه مطويه ومنشوره، ولم ير ما بقى إلا غامضا طلبه، وعويصا استخراجه، فلو نصح نفسه لعلم أن ما ترك أهم مما أدرك، لأن بعض العلوم مرتبط ببعض، ولكل باب منها تعلق بما قبله، فلا تقوم الأواخر إلا بأوائلها وقد يصح قيام الأوائل بأنفسها، فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركا للأواخر والأوائل جميعا، ومثل ذلك الفنون والصنائع.

وقد يقصد الإنسان بطلب العلم التكسب أو التجمل، فينهض من العلم بتعلم ما يشتهر به من مسائل الجدل وطريق النظر، ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه، ليناظر على الخلاف وهو لايعرف الوفاق، ويجادل الخصوم وهو بجهل مذهبه مخصوم، فكثيرا ما تجد من هذه الطبقة عددا، وقد تحققوا بالعلم تحقق المتكلفين، واشتهروا به اشتهار المتحزبين، فإذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم، وإذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم، حتى أنهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء، فلا يظهر لهم صواب، ولا يتقرر لهم جواب، ثم لا يرون ذلك نقصا حيث نمقوا فى المجالس كلاما موصوفا، ولفقوا فى المحافل احتجاجا مألوفا، وقد جهلوا من المذهب ما يعرفه المبتدى، فهذه طرائق من يقول: اعرفونى، وهو غير عروف ولا معروف، وقد قال زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وبالجملة فالمتواضع من طلبة العلم أكثرهم علما، كما أن المكان المنخفض أثر

البقاع ماء، وينبغى لطالب العلم أن يخرج دائما فى عباراته من الرمز الخفى إلى اللفظ الجلى، فإن الرمز لا يليق بالعلم المعنوى ولا الكلام اللغوى، وإنما يختص غالبا بأحد شيئين: إما بمذهب شنيع يخفيه معتقده، ويجعل الرمز به سببا لتطلع النفوس إليه، واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه، كالتنجيم والطلاسم، وإما بما يدعى أربابه أنه علم معوز، وأن إدراكه بعيد معجز، كالصنعة التى وضعها أربابها أسماء لعلم الكيمياء، ورمزا بأوصافه، ليوهموا الشح به والأسف عليه، خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة، وقد قال الشاعر:

منعت شيئا فأكثرت الولوع به   أحب شىء إلى الإنسان ما منعا

فالمتشبثون بمثل هذه الأمور لا ينتفع بعلمهم، فلا يدخل فى هذه الفضيلة المذكورة فى قوله: ﴿**أو علم ينتفع به**﴾.

[تربية الأولاد]

الفضيلة الثالثة: المذكورة فى قوله صلى الله عليه وسلم: «أو ولد صالح يدعو له»، إشارة منه، صلى صلى الله عليه وسلم، إلى أن الإنسان مخلوق لحكمة إلهية، وهى تعمير الدنيا وتمام انتظامها، وهذه الحكمة إنما تتم بتكثير النوع البشرى واستمرار نسله، وهذا إنما يكون بالتوالد والتناسل، وأن كل إنسان اجتهد فى تحصيل مال أو علم أو جاه يحب طبعا امتيازه به فى حياته دون غيره، وأن لا يتوارثه عنه إلا نسله بعده، يكون حيا حياة معنوية، دائم النسل، باقى الذكر، وإلا لكان الإنسان لا يجتهد إلا بقدر عيشته الضرورية، فأمل انتقال الوراثة إلى النسل والولد أكد فى النوع البشرى تكثير العمل، فقد يكون مدار الأعمال المعاشية والمعادية على الآمال التولدية، فأشار الحديث الشريف إلى معنى لطيف، وهو الحث على التناسل والتوالد، وتأهيل النسل درجة الرشد وبلوغ غرض الوراثة النافعة، وينبغى تعلمه، حفظا فى حال صغره لينكشف له معناه فى حال كبره فابتداؤه الحفظ، ثم الفهم، ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق، وذلك مما

يحصل في الصبي من غير برهان، فقد مَنَّ الله عز وجل على قلب الإنسان بالحفظ وشرح له صدره في أول نشأة الإيمان من غير حجة وبرهان، وإنما تحصل التقوية والإثبات في الصبي والعامي بعد ذلك حتى يرسخ الإيمان ولا يتزلزل، وليست التقوية والإثبات في الصبي أن يعلمه وليه صنعة الجدل والكلام، بل يشغله بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل مع ذلك بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الحديث وفوائده، وبما يسطع عليه من أنوار العبادة ووظائفها، وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم، وسيماهم وهيئاتهم في الخضوع لله تعالى، وهذه هي التربية الحسنى، حتى ينمو في الصبي بذر الإيمان، ويقوى فيه شجرة راسخة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، فيظهر اعتقاده في الثبات كالطود الشامخ، ثم ينوطه بالصناعة التي تميل إليها نفسه، ويستحسنها ظنه وحدسه، ومع ذلك فلا يتأخر مع أداء صنعته عن تلاوة القرآن. قال صلى الله عليه وسلم: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل يا رسول الله: وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن». وقال صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله». وعن مالك بن أنس رضي الله عنه، أنه كان إذا دخل رمضان نفر من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على القراءة في المصحف. وكان أبو حنيفة والشعبي[1] يختتمان في رمضان ستين ختمة. وقال صلى الله عليه وسلم: «القرآن فيه خبر من قبلكم، ونبأ من بعدكم، وحكم ما بينكم» قال علي، رضي الله عنه: من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزؤا.

وتقييد الولد بالصالح مع زيادة قوله: «يدعو له»، إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى حق الوالد على الولد، وهي الدعاء لوالده، لأن فرض الكلام بقاء الولد

(١) أبو عامر بن شرحبيل (٦٤٠ ـ ٧٣٨م) تابعي من قبيلة همدان، كان محدثا ومؤرخا، واشترك في ثورة ابن الزشعب ضد الأمويين، ثم عادت علاقته الطيبة بهم.

بعد موت والده المفهوم من قوله: «إذا مات ابن آدم» إلخ، المراد بالولد ما يعم الذكر والأنثى، كما أن المراد بالدعاء له عموم أعمال ولده الصالحة، فإن الوالد ينتفع بأعمال ولده الصالحة، لأنه السبب فى وجوده وصلاحه وإرشاده إلى الهدى، ومن جملة الأعمال التى تصدر عن الولد الصالح وينتفع بها والده دعاؤه له، فقد ورد أن الإنسان ينعم فى الآخرة بنعيم عظيم فيقول من أين هذا النعيم فإنى لم أعمل فى الدنيا عملا يوجب لى ذلك/ فيقال: هذا من دعاء ولدك الصالح لك. وبالجملة فالولد الصالح من الباقيات الصالحات، لأن أعماله الصالحة ينتفع بها، والمراد أيضا بالولد ما يعم ولد الولد، ذكورا وإناثا، أسباطا وحفدة، فإنهم لأصولهم كالأجنحة، وهم أصول، يصول بهم الأكبر، ويده بهم تطول، وهم العدة عند الشدة.

قيل لمحمد بن الحنفية[1] كيف كان على رضى الله عنه يقحمك فى المآزق - أى المتالف - ويولجك فى المضايق، دون الحسن والحسين؟ فقال لأنهما كانا عينيه وكنت يديه، فكان يقى بيديه عينيه! ورأى على رضى الله عنه الحسن يتسرع إلى الحرب فقال: أملكوا عنى هذا الغلام، لا يهدنى، فإنى أنفس بهذين على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله: فإنى أنفس بهذين أى بالحسن والحسين، أى أخشى أن ينقطع بموتهما النسل النبوى. وكان يقال لعمر بن الوليد بن عبد الملك: فحل بنى مروان، وقد كان يركب معه ستون رجلا لصلبه. وقد كان لمعاوية امرأة لؤى بن غالب أولاد منه، فقالت له يوما: أى بنيك أحب إليك؟ قال: الذى لا يرد بسط يده بخل، ولا يلوى لسانه عجر - بالراء المهملة، أى لُكْنَة - ولا يلون طبيعته سفه، وهو أحد ولدك، بارك الله لى ولك فيه - يعنى كعب ابن لؤى، أحد أجداده صلى الله عليه وسلم - .

ودخل عبد الملك بن مروان على معاوية، ومعه بنوه، فلما جلسوا على الكراسى

---

(١) (٦٣٧ - ٧٠٠) أحد أبناء على بن أبى طالب، وكانت أمه من بنى حنيفة، وتعتقد فرقة الكيسانية، من فرق الشيعة، أنه الإمام بعد أبيه، ومنهم من يرى أنه حى لم يمت، وأنه بجبل رضوى، وأنه لابد قادم. فهو المهدى المنتظر عند هذا الفريق من الكيسانية.

وأخذوا مجالسهم أغتاظ معاوية ثم قال: كأنك أردت مكاثرتى ببنيك يا ابن مروان، وما وجدت مثلى ومثلك إلا كما قال الشاعر:

تفاخرنى بكثرتها قريظ وقبلى والد الحجل الصقور

فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، إنما هم ولدك ويدك وعضدك وقد علمت إنما خفت عليهم من العين وليسوا عائدين.

قال بعضهم للمهلب: ما النبل؟ أى الشرف، قال: أن يخرج الرجل من منزله وحده ويعود فى جماعة. وكان المهلب كثير البنين، ومن الشجاعة والسخاء بمكانة، فقيل له: إنك لتلقى نفسك فى المهالك، قال: إن لم آت الموت مسترسلا أتانى مستعجلا، ثم أنشد:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ومر بقوم من ربيعة فى مجلس لهم فقال رجل من القوم: هذا سيد الأزد، قيمته خمسمائة درهم. فسمعه المهلب فأرسل إليه بخمسمائة درهم، وقال: دونك يا ابن أخى قيمة عمك، ولو كنت زدت فيها لزدتك. وقال بعضهم فى المهلب وبنيه يمدحه:

براك الله حيث براك بحرا وفجر منك أنهارا غزارا

بنوك السابقون إلى المعالى إذا ما أعظم الناس الخطارا

ـ والخطار فعال من خاطر يعنى سابق وراهن، وبمعنى الخطر وهو المراد ـ وهذان البيتان لكعب بن معدان الأشقرى الأزدى، يقال إن الخليفة المنصور حسد آل المهلب على المدح بهما، وكذلك بعده المأمون قال للشعراء: ألا قلتم فىّ كما قال كعب فى المهلب وولده؟ وأنشدهم هذين البيتين السابقين.

وقد ينتج من العنصر الطيب فروع تزيده طيبا على طيبه، ومن غير الطيب فروع تكون سببا فى ذكره وتوصيل الثواب له، فكان يقال: بنو أمية دن خل أخرج الله منه زق عسل، يعنى عمر بن عبد العزيز، فهو الولد الصالح المستوفى للفرد

الأكمل النسبى من الحديث. ويحكى أن الخليفة المنصور قال له رجل من الهاشميين: اعتقل أبى، رحمه الله، ومات فى وقت كذا، رحمه الله. فقال الربيع، وزير المنصور: كم تترحم على أبيك بين يدى أمير المؤمنين، وكيف ذلك؟ فقال له الهاشمى: لا ألومك، فإنك لم تعرف حلاوة الآباء! فضحك المنصور، وخجل الربيع، لأنه لم يكن له أب يعرف، على ما قيل، والذى فى التواريخ أنه ابن يونس بن أبى فروة مولى الحارث الحفار مولى عثمان بن عفان، رضى الله عنه، كان حاجبا للمنصور ثم صار وزيره وكان يميل إليه ويعتمد عليه، فقال له يوما: يا ربيع، سل حاجتك؟ فقال: حاجتى أن تحب الفضل ابنى، فقال له ويحك! إن المحبة تقع بأسباب، فقال له: قد أمكنك الله من إيقاع سببها، قال: وما ذاك؟ قال تفضل عليه، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك، وإذا أحبك أحببته، قال: قد والله حببته إلىَّ قبل إيقاع السبب، ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شىء؟ قال: لأنك إذا أحببته كبر عندك صغير إحسانه، وصغر عندك كبير إساءته، وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان، وحاجته إليك حاجة الشفيع العريان. يشير بذلك إلى قول الفرزدق:

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا

فقد سعى الربيع فى تقديم ولده الفضل عند الخليفة، وأدى ما يجب للولد على الوالد. وبالجملة فقد قال صلى الله عليه وسلم: «الولد ريحانة من الجنة». وقال بعضهم: الولد ريحانة إلى سبع، ووزير إلى سبع أخرى، وبعد ذلك إما صديق حميم وإما عدو مبين. وبشر الإمام عمر الفاروق، رضى الله عنه، بولد فقال: ريحانة أشمها برهة من الزمان، وعما قليل إما ولد بار، وإما عدو ضار، وأنشد بعضهم:

هذا الزمان الذى كنا نحاذره فى قول كعب وفى قول ابن مسعود
أن دام هذا ولم يحدث له غير لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

وقال الفضيل: ريح الولد من الجنّة، ومزايا الأولاد دنيا وأخرى لا تعد ولا

تحصى، فإنه قد يعود من الولد على رحمة، ولو كان الرحم خاملا، أنواع الرعاية فقد روى كعب بن مالك[1] رضى الله عنه عن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما». يعنى أن هاجر أم إسماعيل كانت قبطية، ومارية أم سيدنا إبراهيم كانت كذلك، وقال صلى الله عليه وسلم: «لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى». ولحرمة الولد والوالد وارتباط العلاقة المتينة بينهما بما تقتضيه الحقوق أقسم الله بهما فى قوله تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾ (البلد: ١ ـ ٤) المراد بالبلد مكة المشرفة التى جعلها الله حرما آمنا، وجعل مسجدها قبلة لأهل المشرق والمغرب، والمراد بالوالد إبراهيم وإسماعيل، وما ولد محمد، صلى الله عليه وسلم، لأن إبراهيم بانى مكة وإسماعيل ومحمدا عليهما السلام سكانها، وقيل: المراد بالوالد فى الآية: إبراهيم، وما ولد: جميع ولد إبراهيم من العرب والعجم، فإنهم سكان البقاع الفاضلة من أرض الشام وبيت المقدس وأرض العرب، ومنهم الروم، لأنهم ولد «عيص» من «إسحق»، فقد عمرت البقاع الفاضلة من نسل إبراهيم عليه السلام، وآخر الأنبياء وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أولاده، فلذلك قرن اسمه باسمه فى الصلوات بالصيغة الإبراهيمية التى هى أيضا عظيمة الفضيلة فى جميع الأوقات، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى بها فيذكر بها جده، فقد دخل صلى الله عليه وسلم فى ضمن حديثه الشريف من قوله: «أو ولد صالح يدعو له».

ثم إن توصيل الولد إلى الرتبة المطلوبة، والدرجة المرغوبة، تتوقف على حسن التربية والتهذيب والتعليم والتأديب، ولا يخفى أن الله سبحانه وتعالى شرف الإنسان بمضغتين صغيرتين، وهما قلبه ولسانه، وخصه بصفتين عظيمتين، وهما

---

(١) كعب بن مالك الخزرجى، ولد حوالى سنة ٥٩٦م وتوفى سنة ٦٧٣م، صحابى من أهل المدينة، أسلم قبل الهجرة، وشهد بيعة العقبة الثانية، وكان من شعراء الرسول الذين دافعوا عنه وهجوا قريشا، وفى الصراعات السياسية وقف مع عثمان بن عفان، ولم يقاتل الأمويين مع على بن أبى طالب.

همته وإحسانه، وما عدا ذلك من محض المال أو الجمال فإنما هو حظ الأدنياء من النساء والرجال، فلا يرتفع المرء حتى يرفعه أكبراه وأصغراه، فالجنان قابل واللسان قائل، والهمة حاملة والإحسان فضيلة عاملة، والجنان عارف مستقر واللسان معترف مقر، والهمة حركة منتشرة والإحسان بركة مباشرة، فإن الجنان ينشيء واللسان يفشى، وكلاهما يساعد الهمة والإحسان، والعزم والإتقان، ولذلك كان المرء بأصغريه. ومعلوم أن الولد الصغير مستعد بأصغريه إلى استكمال أكبريه، فيحتاج إلى التربية، التى هى صفة المربى الذى يقيمه الولى لتأديب الصبى فيما يقصد منه، فيجب على الولى أن يتأمل فى حال الصبى، وما هو مستعد له من الأعمال ومتهييء له منها، فيعلم أنه مخلوق له، لحديث: «إعملوا فكل ميسر لما خلق له»، فلا يحمله على غيره، فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه عادة، فيفوته ما هو متهييء له، فإذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيا، فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون وتهيئة لها، فلينقشها فى لوح قلبه ما دام خاليا، فإنها تتمكن من القلب وتستقر فيه وتزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، علم أنه لم يخلق لذلك، فإن رأى عينه طامحة إلى صنعة من الصنائع مستعدا لها، قابلا عليها، وهى صناعة مباحة نافعة لأهل وطنه، فليمكنه منها، وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التى يشترك فيها كل فرد من أفراد الجمعية التأنسية، وهى الكتابة والقراءة، وما يحتاج إليه فى دينه من العقائد وغيرها، وأصول الحساب، ونحو ذلك من السباحة والعوم، والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمى واللعب بالرمح والسيف وأشباه ذلك من آلات الحرب، ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه، فإن هذه الأشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الأطفال فى زمن الشبوبية عليها. هذا بالنسبة للذكور، وأما بالنسبة للبنات فإن ولى البنت يعلمها ما يليق بها من القراءة وأمور الدين وكل ما يليق بالنساء من خياطة وتطريز وإن اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادىء المعارف النافعة فى إدارة المنازل فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبهه لهن ويشترك الصبيان والبنات فى تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك.

فبهذا كله يتيسر للجميع كسب الفوائد الجسمية المنتجة للاستقامة التامة، وغنى النفس بما اكتسبه العقل من العلوم والمعارف، وممارسته الأيدى من الصنائع واللطائف التى هى أمن من الفقر الذى استعاذ منه صلى الله عليه وسلم فى قوله: «اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال». وفى رواية أخرى «من الفقر والعيلة». وقال صلى الله عليه وسلم: «كسب اليد أمان من الفقر». وقال أيضا: «إن الله يحب العبد المحترف ويكره الصحيح الفارغ».

وفى عوارف المعارف روى عن جابر بن عبد الله[١]، رضى الله عنه: «أن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات[٢] حوله، ولا يزالون فى حفظ الله ما دام فيهم». أنتهى. وفى ذلك قيل:

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ... ويعديهم عند الفساد إذا فسد

يعظم فى الدنيا لفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد

فهذا هو الصلاح الموروث المسلسل المقصود من قوله فى الحديث، أيضا: «أو ولد صالح يدعو له». فالرجل إذا علم ولده ما فيه صلاحه واستقامته اجتنى ثواب ثمرة عمله، دنيا وأخرى، أما ثواب الآخرة فأمره ظاهر، وأما ثمرة عمله فى الدنيا فهى البر والطاعة، وهما حق كبير على الولد لوالده، قال الخليفة المأمون: لم أر أحدًا أبر من الفضل بن يحيى[٣] وهو فى سجن الرشيد لأبيه، بلغ من بره أنه كان أبوه لا يتوضأ إلا بماء مسخن، فمنعهم السجا من الوقود فى ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه قام الفضل إلى قمقم فأدناه إلى المصبا، فلم يزل

(١) فى (أسد الغابة) نجد ثلاثة من الصحابة بهذا الاسم، هم: جابر بن عبد الله الراسبى، وجابر بن عبد الله بن رئاب، وجابر بن عبد الله بن حرام.

(٢) الدويرة: المحلة للسكن.

(٣) كان أول من أدخل صناعة الورق إلى بغداد، وهو الذى تولى مع أخيه جعفر وأبيهما يحيى شئون الدولة العباسية ما بين سنتى ٧٨٦ و ٨٠٣م.

قائما وهو فى يده حتى أصبح، فشعر السجان بذلك، فغيب المصباح، فتأبطه إلى الصباح. قال على، رضى الله عنه: لو علم الله شيئا من العقوق أدنى من أف لحرمه، فليعمل العاق ماشاء أن يعمل، فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء فلن يدخل النار.

ومن البر أن لا ينتمى الولد إلى غير أبيه، قال صلى الله عليه وسلم: «ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه، أو ادعى غير مواليه». ومن البر أيضا أن لا يكون سببا لسبّ أبيه، لحديث أبى هريرة»[1]، رضى الله عنه: لا تمشين أمام أبيك، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تستسب له. أى لا تعرضه للسب وتجره إليه، بأن تسب أبا غيرك فيسب أباك مجازاة لك، وقد جاء مفسرا فى الحديث الآخر: «إن من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه، قيل وكيف يسب والديه؟ قال: يسب الرجل فيسب أباه وأمه». وقال ابن عمر، رضى الله عنه: «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن والدى يأخذ مالى وأنا كاره، فقال أما علمت أنك ومالك لأبيك؟». ومن الأولاد إعظام الأصغر للأكبر وحنو الأكبر على الأصغر، قال صلى الله عليه وسلم: «حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده».

وقد ذكر فى (كتاب الحسبة) فى الكلام على مؤدبى الأطفال أنه لا يجوز لهم تعليم الأطفال فى المساجد، لنهى النبى، صلى الله عليه وسلم، عن ذلك، وأمره بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين، لأنهم لا يتحرزون من تسويد حيطان المساجد، بل يتخذون للتعليم حوانيت فى الدروب وأطراف الأسواق. قال: وينبغى للمؤدب أن لا يعلم الصبى القصار من سور القرآن إلا بعد حذقه بمعرفة الحروف، وضبطها بالشكل، وتأليف طبعه إليها، ثم يؤلف طبعه على القرآن وحفظه، ثم يعرفه عقائد الدين، ثم أصول الحساب، وما يستحسنه من المراسلات والأشعار، ثم يأمر الصبيان بتجويد الخط على المثال والمشق، ويكلفهم بالحفظ على

---

(١) عبد الرحمن بن صخر (المتوفى سنة ٦٧٦م) تنسب إليه رواية أحاديث كثيرة، يصل بها البعض إلى ٣٥٠٠ حديث، حتى عد فى الصحابة من أكبر رواة الحديث.

ظهر الغيب، ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة، وفى الجماعة، وهذا لا ينافى قوله صلى الله عليه وسلم: «جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها فى الجمع». لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع وأضربوهم عليها لعشر». فالمنع محمول على ما دون السبع التى هى سن التمييز.

قال صاحب (الأخلاق)[1] عند ذكر تأديب الأحداث والصبيان خاصة، إن أول قوة تظهر فى الإنسان، أول ما يكون، هى القوة التى يشتاق بها إلى الغذاء الذى هو السبب فى[*] كونه حيا، فيتحرك بالطبع إلى اللبن، ويلتمسه من الثدى الذى هو معدنه، من غير تعليم ولا توقيف، وتحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذى هو مادته ودليله الذى يدل به على اللذة والأذى، ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوف بها أبدا إلى الازدياد والتصرف بها فى أنواع الشهوات، ثم تحدث له قوة على التحرك نحوها بالآلات التى تخلق له، ثم يحدث له الشوق إلى الأفعال التى تحصل له هذه، ثم تحدث له من الحواس قوة على تخيل الأمور، ويرسم فى قوته الخيالية مثالات فيتشوق إليها، ثم تظهر فيه قوة الغضب التى يشتاق بها إلى دفع ما يؤذيه، ومقاومة ما يمنعه من منافعه، فإن أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذياته انتقم منها، وإلاّ التمس معونة غيره، وانتظر بوالديه بالتصويت والبكاء، ثم يحدث له الشوق إلى تمييز الأفعال الإنسانية خاصة أولا أولا، حتى يصير إلى كماله فى هذا التمييز، فيسمى حينئذ عاقلا، وهذه القوى كثيرة، وبعضها ضرورى فى وجود الأخرى، إلى أن ينتهى إلى الغاية الأخيرة، وهى التى لا تراد لعله أخرى، وهى الخير المطلق الذى يتشوقه الإنسان من حيث هو إنسان.

وأول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء، وهو الخوف من ظهور شىء قبيح منه،

---

(١) أى أرسطو صاحب (كتاب الأخلاق)، ونقل هذا الكتاب إلى العربية ينسبه البعض إلى إسحق بن حنين، والبعض إلى أبيه حنين.

(*) يقتضيها السياق. (الشروق).

ولذلك قلنا : إن أول ما ينبغى أن يتفرس فى الصبى ويستدل به على عقله الحياء، فإنه يدل على أنه قد أحس بالقبيح، ومع إحساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف أن يظهر فيه أو منه، فإذا نظرت إلى الصبى فوجدته مستحييا، مطرقا بطرفه إلى الأرض، غير وقاح الوجه ولا محدقا إليك، فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه، وهذا ليس شيئا أكثر من إيثار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل.

وهذه النفس مستعدة للتأديب، صالحة للعناية، لا تحب أن تهمل ولا تترك ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقاربة والمداخلة من كان بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة، فإن نفس الصبى ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ولا لها رأى وعزيمة تميلها من شىء إلى شىء، فإذا نقش بصورة وقبلها نشأ عليها واعتادها، فالأولى بمثل هذه النفس أن تنبه أبدا على حب الكرامة، ولا سيما ما يحصل له منها بالدين، دون المال، من سننه ووظائفه، ثم يمدح الأخبار عنه، ويمدح هو فى نفسه إذا ظهر شىء حسن منه، ويخوف بالمذمة على أدنى قبيح يظهر منه، ويؤاخذ بالاستهانة بالمآكل والمشارب والملابس الفاخرة، ويزين عنده صلف النفس والترفع عن الحرص فى المطاعم خاصة، وفى اللذات عامة، ويحبب إليه إيثار غيره على نفسه بالغذاء، والاقتصار على الشىء المعتدل، والاقتصاد فى التماسها، وأن أولى الناس بالملابس الملونة النساء اللواتى تتزين للرجال، ثم العبيد والخول، وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه، حتى إذا تربى على ذلك وسمعه قلما يقرب منه، ويكر عليه ذلك، ولا يترك ومخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته، لا سيما من أترابه ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه، وذلك أن الصبى فى ابتداء نشئه كثيرا ما يكون قبيح الأفعال جدا، فإنه يكون كذوبا يخبر ويحكى بما لم يسمعه ولم يره، ويكون حسودا سروقا نموما لحوحا ذا فضول ومحك وكياد، أضر شىء بنفسه وبكل أمر يلابسه، ثم لا يزال به التأديب والسن والتجارب حتى ينتقل فى أحوال بعد أحوال، فلذلك ينبغى أن يؤاخذ، ما دام طفلا، بما ذكرناه

ونذكره، ثم يطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التى تجرى مجرى ما تعوده بالأدب، حتى يتأكد عنده برواياتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمناه ذكره، ويحذر من النظر فى الأشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق وأهله، وما يوهمه أصحابها أنه ضرب من الظروف ورقة الطبع، فإن هذا الباب مفسدة للأحداث جدا، ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن، ويكره عليه، فإن خالف فى بعض الأوقات ما ذكرته فالأولى أن لا يوبخ عليه، ولا يكاشف بأنه أقدم عليه، بل يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ولا هم به، لا سيما إن ستره الصبى واجتهد فى أن يخفى ما فعله على الناس، فإن عاد فليوبخ عليه سرا، وليعظم عنده ما أتاه، ويحذر منه معاودته، فإنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة، وحرضته على معاودة ما كان استقبحه، وهان عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح من اللذات التى تدعو إليها نفسه وهذه اللذات كثيرة جدا.

والذى ينبغى أن نبدأ به فى تقويمها أدب المطاعم، فيفهم أولا إنها أنما تراد للصحة لا للذة، فإن الأغذية كلها إنما خلقت وأعدت لنا لتصح بها أبداننا، وتصير مادة لحياتنا، فهى تجرى مجرى الأدوية يداوى بها الجوع والألم الحادث منه، فكما أن الدواء لا يراد للذة، ولا يستكثر منه للشهوة، كذلك الأطعمة لا ينبغى أن يتناول منها إلا ما يحفظ صحة البدن، ويدفع ألم الجوع، ويمنع من المرض، فيحقر عنده قدر الطعام الذى يستعظمه أهل الشره، ويقبح عنده صورة من شره إليه ونال منه فوق حاجة بدنه، أو ما لا يوافقه، حتى يقتصر على لون واحد ولا يرغب فى الألوان الكثيرة، وإذا جلس مع غيره لا يبادر إلى الطعام ولا يمد يده قبل غيره، ولا يديم النظر إلى ألوانه ولا يحدق إليه شديدا، ويقتصر على ما يليه، ولا يسرع فى الأكل، ولا يوالى بين اللقم بسرعة، ولا يعظم اللقمة، ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها، ولا يتتبع نظره مواقع الأيدى من الطعام، ويعود أن يؤثر غيره بما يليه إن كان أفضل ما عنده، ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وأدونه، وليأكل الخبز القفار الذى لا أدم معه فى بعض الأوقات، وهذه

الآداب وإن كانت جميلة بالفقراء فهى بالأغنياء أجمل، وينبغى أن يستوفى غذاءه بالعشى، فإنه إن استوفاه بالنهار كسل واحتاج إلى النوم وتبلد فهمه مع ذلك، وأن منع اللحم فى أكثر أوقاته كان نافعا له فى الحركة والتيقظ وقلة البلادة وبعثه على النشاط والخفة.

فأما الحلو أو الفواكه فينبغى أن يمنع منها ألبتة، إن أمكن، وألا فليتناول أقل ما يمكن، فإنها تستحيل فى بدنه فيكثر انحلالها، وتعوده أيضا الشره ومحبة الاستكثار من المآكل، ويعود أن لا يشرب فى خلال طعامه الماء، فأما النبيذ وأصناف الأشربة المنكرة فإياه وإياها، فإنها تضره فى بدنه وفى نفسه، وتحمله على سرعة الغضب والتهور والإقدام على القبائح وعلى القحة فيها وسائر الخلال المذمومة، ولا ينبغى أن يحضر مجلس أهل النبيذ، بل مجلس الأدباء والفضلاء، فأما مجلس غيرهم فلا، لئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التى تجرى فيه، وينبغى أن لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الأدب التى يتعلمها، ويتعب تعبا كافيا، وينبغى أن يمنع من كل فعل يستره ويخفيه، فإنه ليس يخفى شيئا إلا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح.

ويمنع من النوم الكثير، فإنه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خواطره، وهذا بالليل، فأما النهار فلا ينبغى أن يتعوده، ويمنع أيضا من الفراش الوطىء، أى اللين، وجميع أنواع الترفع والرخاوة، حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة، ولا يعود الملابس الرقيقة والمداراة فى الصيف، ولا الفراء والنيران فى الشتاء، ويعود المشى والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعود أضدادها، ويعود أن لا يكشف أطرافه، ولا يسرع فى مشيه، ولا يرخى يديه بل يضمهما إلى صدره، ولا يربى شعره، ولا يزين بملابس النساء، ولا يلبس خاتما إلا وقت حاجته إليه، ولا يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه، ولا بشىء من مأكله وملابسه وما يجرى مجراه، بل يتواضع لكل أحد، ويكرم كل من يعاشره، ولا يتواصل بشرف، إن كان له، أو سلطان من أهله، إن اتفق، إلى غضب من هو دونه أو استهداء من لا يمكنه أن يرده من هواه أو تطاول عليه، كمن اتفق له أن كان خاله وزيرا أو عمه سلطانا

فيطرق به إلى هضيمة(*) أقرانه وثلم إخوانه واستباحة أموال جيرانه ومعارفه، وينبغي أن يعود أن لا يتبزق في مجلسه، ولا يتمخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلا على رجل، ولا يضرب تحت ذقنه بساعده، ولا يعمد رأسه بيده، فإن هذا دليل الكل(**) وأنه قد بلغ به التنعم أن لا يحمل رأسه حتى يستعين بيده، ويعود أن لا يكذب ولا يحلف ألبتة، لا صادقا ولا كاذبا، فإن هذا قبيح بالرجال، مع الحاجة إليه في بعض الأوقات، فأما الصبي فلا حاجة به إلى اليمين.

ويعود أيضا الصمت، وقلة الكلام، ولا يتكلم إلا جوابا، فإذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه والصمت له، ويمنع من خبيث الكلام وهجينه، ومن السب واللعن واللغو من الكلام، ويعود حسن الكلام وظريفه، وجميل اللقاء وكريمه، ولا يرخص له أن يستمع لأضدادها من غيره، ويعود خدمة نفسه ومعلمه، وكل من كان أكبر منه.

وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب أولاد الأغنياء والمترفين، وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يصرخ ولا يستشفع بأحد، فإن هذا فعل المماليك ومن هو خوار ضعيف، ولا يعير أحدا لا بالقبيح ولا بالسيء من الأدب، ويعود أن لا يوحش الصبيان، بل يبرهم ويكافئهم على الجميل بأكثر منه، لئلا يتعود الربح على الصبيان وعلى الصديق، ويبغض إليه الفضة والذهب، ويحذر منهما أكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والأفاعي، فإن حب الفضة والذهب للصبي آفة أكثر من آفة السموم.

وينبغي أن يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح إليه من تعب الأدب، ولا يكون في لعبه ألم ولاتعب شديد، ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم.

وهذه الآداب النافعة للصبيان هي للكبار من الناس أيضا نافعة، ولكنها

(*) الهَضِيمَةُ: الظلم والغضب. (الشروق).

(**) الكَلُّ: المقصود الضعيف أو المتعب. (الشروق).

للأحداث أنفع، لأنها تعودهم محبة الفضائل، وينشئون عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة، ويعتادون عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك فى شيء منها والفكر الكثير فيها، وتسوقهم إلى مرتبة الفلسفة العالية، أى الحكمة النافعة، وترقيهم إلى معالى الأمور، من التقرب إلى الله عز وجل، ومشابهة الملائكة فى التنزه عن الشهوات، مع حسن الحالة فى الدنيا، وطيب العيش، وجميل الأحدوثة، وقلة الأعداء، وكثرة المداح والراغبين فى مودته من الفضلاء خاصة، فإذا تجاوز هذه الرتبة، وبلغ أيامه إلى أن يفهم أغراض الناس وعواقب الأمور، وفهم أن الغرض الأخير من هذه الأشياء التى يقصدها الناس ويحرصون عليها، من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش وأشباه ذلك، إنما هو ترقية البدن، وحفظ صحته، وأن يبقى على اعتداله مدة ما، وأن لا يقع فى الأمراض، وأن لا تفجأه المنية، وأن يتهنى بنعمة الله عليه، ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية، وأن اللذات كلها بالحقيقة هى خلاص من آلام النصب وراحات من التعب، فإذا عرف ذلك وتحققه ثم تعود بالسيرة الدائمة عود الرياضيات التى تحرك الحرارة الغريزية، وتحفظ الصحة، وتنفى الكسل، وتطرد البلادة، وتبعث النشاط، وتزكى النفس.

فمن كان ممولا مترفا كانت هذه الأشياء التى رسمناها أصعب عليه، لكثرة من تحتف به وتغويه، ولموافقة طبيعة الإنسان فى أول ما ينشأ هذه اللذات، وإجماع جمهور الناس على ما أمكنهم منها، وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم. فأما الفقراء فالأمر عليهم أسهل، بل هم قريبون إلى الفضائل، قادرون عليها، متمكنون من نيلها والإصابة منها، وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين.

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لا يربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفا عليهم من الأحوال التى ذكرناها، وكانوا ينفذونهم - مع ثقافتهم - إلى النواحى البعيدة منهم، ومن سماع ما حذرنا منه، وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة

العيش ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه، وأخبارهم فى ذلك مشهورة، وكثير من رؤساء الديلم ينقلون أولادهم عندما ينشئون إلى غير بلادهم، ليتعودوا بها هذه الأخلاق، ويبعدوا عن الترفه وعادات أهل البلدان الرديئة.

وإذا قد عرفت هذه الطريق المحمودة فى تأديب الأحداث، فقد عرفت أضدادها، أعنى أن من أنشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرج فلاحه، ولا ينبغى أن يشتغل بصلاحه وتقويمه، فإنه قد صار بمنزلة الوحش الذى لا يطمع فى رياضته، فإن نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية، فهى منهمكة فى مطالبها من النزوات، وكما أنه لا سبيل إلى رياضة سباع البهائم الوحشية التى لا تقبل التأديب، كذلك لا سبيل إلى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها، وأمعن قليلا فى السن، اللهم إلا أن يكون فى جميع أحواله عالما بقبح سيرته ذاما لها، عائبا على نفسه، عازما على الإقلاع والإنابة، فإن مثل هذا الإنسان من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج، والرجوع إلى الطريقة المثلى بالتوبة، وبمصاحبة الأخيار وأهل الحكمة، وبالإكباب على التفلسف والعلوم النافعة.

وقد كنت نظمت فى كتاب تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال منظومة لطيفة تحسن بمنوال التعريب نسجها، فيحسن هنا بمناسبة المقام إدراجها.

الحمد لله وصل رب	على النبى وآله والصحب
وبعد فالتأديب للأبناء	آكد واجب على الآباء
من أجل ذا نظمت للتنبيه	خمسا وأربعين بيتا فيه
فى نحو ساعتين والمولى على	قصدى أعان جل ربى وعلا
فى بر والديك بالغ تغنم	لا سيما فى العيد أو فى الموسم
وإن ترم سرور أم أو أب	يوما فكسب العلم خير مكسب
من رام عند الناس طرا أن يحب	فليلتزم حسن السلوك والأدب

وأن يكون طيب السريرة مهذب الأخلاق زاكى السيرة
من رام بين العالم ارتفاعه فليلزم العفة والقناعة
هل ذل عند الناس عبد يقنع أو عز سيد لديهم يطمع
إن رمت أن تشوق الأولادا وأن ترى من نجلك اجتهادا
فعده بالإتحاف يوم العيد وقدم الوعد على الوعيد
يعاقب الجانى بما جناه وذاك فى دنياه أو عقباه
والظلم لا يتركه المولى سدى مآل كل ظالم إلى الردى
من رام أن يكتسب اللطافة عليه طول الدهر بالنظافة
فإنها من شعب الإيمان تطلب فى الثياب والأبدان
وشر أوصاف الفتى هو الغضب يفضى إلى إرتكاب ما لا يرتكب
فيا له من خصلة ذميمة فى تركها مصلحة جسيمة
وقسوة الرأس مع العناد من أقبح الخصال فى الأولاد
والامتثال صفة جليلة للود ليس مثلها وسيلة
مما يعد من صفات الذم كتم الصغير عن أب أو أم
سرا حقيرا أو جليلا بل يجب ابداؤه وعنهما لا يحتجب
يطلع المولى على تعمله بعلمه لكنه قد يمهله
ففز بفعل صالح الأعمال تحز صلاح الحال والمآل
من يعص والديه ضل وندم وساء حاله وللرشد عدم
وضاع سعيه وخاب أمله ما لم يتب فلا يضيع عمله
وعفة الشريف عند الفقر وصبره لعسره مع شكر

خير فضيلة عليها يحمد	يعقبها اليسر ويبقى السودد
والولد الصالح عند الأهل	يحب بل يكرم عند الكل
يمتاز عن أقرانه فى المكتب	تشمله بركة المؤدب
فضل البنات الشغل والتطريز	ومن حوت علما به تفوز
فى سائر الأحوال الاحتشام	من جنسهن والحيا يرام
الرفق بالفقير والضعيف	من حسن أخلاق الفتى الشريف
وخوف رب العرش والمراقبة	آمن من الشر وسوء العاقبة
من رام نظمه بسلك السعدا	فليسعد الناس ليبقى مسعدا
يحب مثل ماله لغيره	يعطى أخاه جانبا من خيره
بحسن حفظ اللوح للصغير	على مدار بل وللكبير
يرسخ فى الذهن وليس يمحى	جر به بالتقسيم وأقبل نصحا
الكبر ناشىء عن الحماقة	وما لعاقل عليه طاقة
يبغض كل الناس رب الكبير	وبالرفيع والوضيع يزرى
تستحسن الطباع وصف الأدب	وأحسن الآداب آداب النبى
وما سوى أخلاقه فباطل	ومن تحلى بسواها عاطل
ولا يليق من غلام الطاعة	خروج رأيه عن الجماعة
ففى اجتماع الكلمة السلامة	بها يتمم الفتى مرامه
والحمد لله وصلى الله	على النبى وكل من والاه

وينبغى أن يعلم أن كل إنسان معد نحو فضيلة ما، فهو إليها أقرب وبالوصول إليها أحرى، ولأجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل إنسان نحو سعادته

التى تخصه، ثم يقسم عنايته بالناس ونظره إليهم إلى قسمين: أحدهما: فى تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية، والآخر: فى تسديدهم نحو الصناعات والأعمال الحسية، فكل من هاتين الفضيلتين عليه مدار العمل، وخلاصته العمل الذى لا ينقطع ثوابه المشار إليه بحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمل إلا من ثلاث» . . الحديث.

فتلخص من هذا الحديث النبوى: أن الإنسان يخلد عمله، بعد انقضاء حياته، بالعلم النافع للأمة، والصدقة الجارية التى تؤيد شرفه ونبله، والولد الصالح الذى يؤيد نسله. فإذا كثر أفراد هؤلاء الناس الجامعين لهذه الفضائل، المستكملين للمآثر الجميلة والشمائل، انتظم بهم التمدن والعمران، وحسنت أحوال الأهالى والبلدان، لا سيما وأن ابن آدم فى الحديث هو الإنسان، فهو يعم أشخاص الملوك والسوقة، وأكثر الملوك جامع للأنصاف باستجماع هذه المزايا، ثم يليهم الوزراء والأمراء والكبراء والقضاة ووجوه التجار ووجوه أهل الفلاحة والصناعة، فكل على قدر مرتبته وبحسب ميسرته يسارع فى تقويم أود مملكته، وتقديم منافع بلدته، لكسب القوة الملية، وإحراز الرتبة العلية، وهذا كله إنما يتم بتمام السعى بالنفس والمال. وقد قيل فى الحكم والأمثال: إن من العجائب عبد بطال، ويطلب منازل الأبطال. فخير الناس من صنع الخير وانتفع بمعروفه، قال الشاعر:

لا تقطعن يد المعروف عن أحد ... ما دمت تقدر فالأيام تارات

وأشكر فضيلة صنع الله إذ جعلت ... إليك، لا لك، عند الناس حاجات

وقال امرؤ القيس:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وقال أيضا:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما　　نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومن الكلام الهاشمى قول عبد المطلب :

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة　　ولو تسلت أسلناها على الأسل

لا ينزل المجد إلا فى منازلنا　　كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

وقال آخر :

يغوص البحر من طلب اللآلى　　ومن طلب العلا سهر الليالى

تروم العز ثم تنام ليلا　　لقد أتعبت نفسك فى الوبال

ومن رام العلا من غير كد　　أضاع العمر فى طلب المحال

فمدار تأسيس قوة الملة والدولة ، ونفع الأوطان وعمار البلدان ، على العمل الآتى فى الفصل الآتى :

الفصل الثانى

«فى العمل الذى هو القوة الأولية فى إبراز المنافع الأهلية، وفى تطبيقه على الأرض الزراعية»

قد سبق أن منابع الثروة ترجع إلى أربعة أشياء وهى الزراعة، والصناعة، والتجارة، وتنمية الحيوانات. وأما المارة فهى القوة المدبرة لهذه المنابع، ويمكن إدخال تنمية الحيوانات فى الزراعة، فتكون أصول المكاسب ثلاثة، وأفضل هذه الأشياء الزراعة لأنها أطيب الجميع، حيث هى إلى التوكل أقرب، والله يحب المتوكلين. قال النووى: إنما كانت الزراعة أفضل من غيرها لأن نفعها يتعدى إلى غير الزراع من الطيور والبهائم وكثير من الحيوانات، وما كان متعديا فهو أفضل من اللازم فى غالب الأوقات. وقد قال، صلى الله عليه وسلم: «لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعا فيأكل منه إنسان أو دابة أو طير إلا كانت له صدقة يوم القيامة».

فمن فضائل الزرع أن الله سبحانه وتعالى كرر فى كثير من الآيات ما أنعم به فى إخراج الزرع والنبات، ووصف نفسه بأنه هو الذى أخرجه للحاجات، فقال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ** ﴾ أى بالماء ﴿ **نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ** ﴾ يعنى من الماء (خضرا) يعنى أخضر ﴿ **نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا** ﴾ (الأنعام: ٩٩). يعنى سنابل البر والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب، يركب بعضه بعضا. وقال تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ** ﴾ وهو ما انبسط على الأرض وانتشر، كالعنب والقرع، وهو شجرة الدباء والبطيخ وغيرها ﴿ **وَغَيْرَ**

﴿ **مَعْرُوشَاتٍ** ﴾ (الأنعام: ١٤١). ما قام على ساق وبسق كالنخل والزرع وسائر الأشجار ثم قال ﴿ **وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ** ﴾ أى ثمره وطعمه الحامض والمر والحلو، متدانيات يقرب بعضها من بعض فى الجوار، وتختلف بالتفاضل، ﴿ **وَجَنَّاتٌ** ﴾ أى بساتين ﴿ **مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ** ﴾ (الرعد: ٤). الآية، والصنوان النخلات يجمعهن أصل واحد ويتشعب منه الرؤوس فيكون نخلا، وقال سبحانه ﴿ **يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (النحل: ١١). وقال تعالى ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ** ﴾ وهى التى لا نبات فيها ﴿ **فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا** ﴾ (السجدة: ٢٧). الآية وقال عز وجل: ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا** ﴾ (يس: ٣٣). الأية وقال تعالى: ﴿ **وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ** ﴾ (الرحمن: ١٠، ١١). إلى قوله (والحب) يعنى جميع الحبوب من حنطة وشعير وغيرهما (ذو العصف) يعنى البذر أول ما يبدو وقال تعالى: ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ** ﴾ (الفتح: ٢٩). الآية فقوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُهُمْ** ﴾ يعنى محمدا، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، رضى الله عنهم، وقوله: ﴿ **فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ** ﴾ يعنى فراخه، يقال: أشطأ الزرع إذا أفرخ ﴿ **فَآزَرَهُ** ﴾ أى قواه، من المؤازرة بمعنى المعاونة، أو من الإيزار وهى الإعانة، ﴿ **فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ** ﴾ فاستقام على قصبه، جمع ساق، يعجب الزراع بكثافته وقوته وغلظه وحسن منظره، وهو مثل ضربه الله للصحابة، قلوا فى بدء الإسلام ثم كثروا واستكملوا فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس. وقال تعالى ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** ﴾ (الواقعة: ٦٣، ٦٤). فحسب أرباب الزراعة فخرا أن الله تعالى وصف نفسه بهذا الوصف فى قوله أم نحن الزارعون، وهو مثل قوله تعالى خطابا للنبى، صلى الله عليه وسلم ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ (الأنفال: ١٧). ومعنى الزارعون المنبتون، وسيأتى

بعض الكلام على هذه الآية. فالأفعال فى الحقيقة كلها لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٨). فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده ببناء السماء أى خلقها، وبتمهيد الأرض، وخلقه زوجين من كل شىء، لأن السماء يأتى من جهتها المطر النازل من السحاب، ولأن فيها تقدير الأرزاق كلها، ولولاه لما حصل فى الأرض حبة قوت، وجمع بين السماء والأرض فى الامتنان، لأن السماء مسكن الأرواح والأرض موضع الأعمال، والمراد بالأيد القوة، ولكون المخلوقات المتعيشة بالارض هى التى تعمرها قال (ومن كل شىء خلقنا زوجين) والمراد بالزوجين ما يشمل الزوجين الحقيقيْين والمتشاكلين والضدين، ونحو ذلك، وقوله تعالى فى جانب السماء (وانا لموسعون) أى أوسعناه بحيث صارت الأرض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة إلى السماء وسعتها كحلقة فى فلاة، والبناء الواسع الفضاء العجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤون لأنهم يحتاجون إلى أقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك أجزائها إلى أن يتصل بعضها إلى بعض، فقوله (وإنا لموسعون) يرجع إلى تمام القدرة بالنسبة إليه تعالى ومنه ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦). أى ما تقدر عليه، وقوله تعالى (فنعم الماهدون) يعنى الفارشون لها بعد خلق السماء، ومع ذكر الامتنان على عباده ففيه إفادة الوحدانية فى الذات والصفات والأفعال الحقيقية، وفيه تعليم لعباده أن يتشبثوا باستثمار ما خلق لأجلهم، واكتساب فوائده، كما أرشد موسى عليه السلام حين استسقى لقومه بقوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ (البقرة: ٦٠). فبضربه عليه السلام الحجر بعصاه استخرج الماء الذى به حياة النفوس من الصخرة الصماء، فالرزق إنما يكون عادة بالعمل فى الأرض، لكن بفعل الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾؟ فأشار بذلك إلى خلق الرزق الذى به بقاء المخلوقات ثم ذكر الماء الذى به الإنبات ومنه المشروب، ثم ذكر ما به إصلاح المأكول وهو النار، فقال تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي

تُورُونَ ﴾ (الواقعة: ٧١) أى تقدحونها ﴿ **أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ** ﴾ (الواقعة: ٧٢) فامتن سبحانه وتعالى بثلاثة أمور وهى المأكول، والمشروب، والمصلح للمأكول، فذكر من المأكول الحب، لانه الأصل، ومن المشروب الماء، لأنه الأصل، ومن المصلحات النار، لأن بها إصلاح أكثر الأغذية وأعمها، ودخل فى كل واحد منها ما هو دونه.

ثم إن الحرث هو أوائل الزرع ومقدماته من «برش»[1] الأرض وردها وتخديدها وخدمتها، وإلقاء البذر فيها، وسقى المبذور، وأما الزرع فهو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق، فهو بهذا المعنى ليس فعلا للحارث، الذى لا ينسب إليه المبادئ، فإن إيجاد الحب فى السنبلة ليس بفعل الناس، وإنما فعلهم هو إلقاء البذر والسقى، ولكن لما كان الحرث متصلا بالزرع، وكان الحرث أوائل الزرع، والزرع أواخر الحرث، جاز إطلاق أحدهما على الآخر، ولهذا قال تعالى (أعجب الكفار) أى الزراع (نباته) أى الحراث وقال تعالى ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾ بمعنى المنبتون، وقوله صلى الله عليه وسلم: «الزرع للزارع» وبمعنى آخر وفيه فائدة أخرى وهى أن الزرع لا يكون إلا لمن أتى بالأمر المتأخر وهو إلقاء البذر، أى من له البذر، على مذهب أبى حنيفة، رحمه الله، فقوله للزارع أظهر، لأنه بمجرد الإلقاء فى الأرض يجعل الزرع للملقى، سواء كان مالكا أو غاصبا، وهذا يفيده لفظ الزارع، لأنه لو قال الزرع للحارث لأفاد أنه لابد من الابتداء بعامل الزرع وتقليب الأرض وتسويتها وإلقاء البذرة بها، مع أن المقصود الأخير، أى من له البذر.

فعلم من هذا أن الله سبحانه وتعالى قد مَنَّ على عباده بالأرض الزراعية والسقى وخلق بقية العناصر النافعة لإنباتها، وانما يحتاجون إلى الأعمال الحراثية وغيرها، فجعل سبحانه وتعالى فيهم القدرة على ذلك، وخلق أفعالهم المستعدة لذلك، فأعدهم للأشغال، وبعث همتهم صوب الأفعال، **فللأمور المعاشية فى الظاهر**

---

(١) يعني في عرف الفلاحين المصريين: حرث الأرض ثم ريها قبل إعادة حرثها مرة ثانية.

جهتان جهة فاعلية وجهة انفعالية أى محلية والأول هو الأشغال والثانى هو الأراضى الزراعية.

ثم اختلف هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الأرض، وإنما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له إلا بتطبيقه على الفلاحة، أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الاموال المستفادة، وأنه هو الأصل الأولى للملة والأمة، يعنى أن الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج ما يحتاجون إليه لمنفعتهم من الأرض أو لراحة المعيشة، فالفضل للعمل، وأما فضل الأرض فهو ثانوى تبعى؟ وهذا هو الذى يعتمده أهل الفلاحة، ويستدلون على ذلك بأنه لا يمكن إيجاد الخصب فى الأرض إلا بدوام الشغل واستمرار العمل، وإلا لبقيت مجدبة إذا انقطع الشغل عنها، فإن الشغل يعطى قيمة لجميع الأشياء التى ليست متقومة بدونه، كالأشياء المباحة التى لا تباع ولا تشترى مما لو خليت ونفسها لا تساوى شيئًا، مثلا الماء والهواء أصلان لمنافع حياة الإنسان، ولا يدخلان فى الثروة والسعادة، ولا فى الملكية المعدة، لأن هذين العنصرين اقتضت الحكمة الإلهية الإكثار منهما فى جميع المحال، وأبيح لكل إنسان التمتع بهما، فهما فى حد ذاتهما، على العموم، ليسا من الأملاك المتقومة، وإن عظمت فائدتهما، ولا يزيد فى منفعتهما النسبية إلا الظمآن إذا احتاج إلى من يجلب له الماء فى إناء كان الماء المجلوب لسد خلة العطش مقوما عند جلبه إليه دون قيمته فى النهر، فإن «كوز»[1] الماء قد يعطى لمن يطلبه مجانًا بدون مقابل، وقد يعطى بثمن على قدر العمل، وقد يبلغ عند الضرورة والاحتياج ثمنا جسيما كما وقع فى غزوة الفرنساوية بمصر أن أحد رؤساء العسكر الفرنساوية دفع فى «كوز» الماء مائة فرنك، يعنى أربعمائة قرش! وإذا كان الإنسان فى بيته واحتاج إلى استنشاق الهواء فالعمل الذى يكون به فتح المنافذ كالأبواب والطاقات والشبابيك تجعل له قيمة لم تكن له قبل ذلك، وكذلك عند الضرورة، كالهواء للمسجون، فإنه يتغالى فى تحصيله بدفعه للسجان قدرا جسيما. فما يصرفه الإنسان لتحصيل المباح من الماء والهواء إنما هو

---

(١) كوب الماء، ويصنع عادة من الصفيح.

قيمة العامل وأجرة الخدمة، وفى مقابلة الأمر والنهى والسلب والإيجاب بحسب منافع هذه الأشياء ومضارها، فهذا هو الذى يعد ملكا للإنسان وثروة له باستحواذه على الماء والهواء، وفيه ترويج للعقارات المشتملة على منافع هذين العنصرين، ومثلهما النار والكلأ المباح، لقوله عليه الصلاة والسلام: «الناس شركاء فى ثلاثة: الماء والكلأ، والنار» فلا يجوز لأحد تحجرها ولا للإمام إقطاعها.

فالمدار على العمل فى الرواج، اذ به يستحوذ الإنسان على منافع الحيوانات وصناعتها الإلهامية، فيؤلفها لهذه المنافع لينتفع بها أهل وطنه، ويؤنس المتوحش منها لذلك، فيتملك الإنسان صناعة النحل وصناعة دود القز بتربيتهما، وبجودة العمل يتوصل الإنسان إلى اغتنام العون بحركة الهواء والماء، وبصلابة الأجسام ولينها، وبتصعد الابخرة، وبالسيارات، وبكل ما فيه قوة معنوية وأسرار منتشرة فى أجزائه الكونية وخواص تجريبية ليست من دائرة تصرف القوة البشرية، وإنما حدثت للإنسان من جودة الصناعة وتقدم المهارة والبراعة ومعرفة الانتفاع بتلك القوى الطبيعية التى بثتها فى الكون الحكمة الإلهية، فالمولى سبحانه وتعالى خلق لنا هذه الأسرار والخواص، وخلق فينا العقل لنقدر على الاستعانة بها لتكميل ضعفنا، والاستفادة منها فيما نحتاج إليه، فإن الآلات والدواليب البخارية، مثلا، والسفن المنشورة الشراع فى البحار العظيمة، نستفيد منها الفوائد الجمة لقوة العمل الذى يعسر أن يكون مثله بالأيدى منتجا مقدار إنتاجه بالآلات.

وفى الحقيقة جميع هذه الأعمال لا يتمكن الإنسان من الانتفاع بها حق الانتفاع إلا بوجود الأرض المخصبة أو القابلة للخصوبة بالصناعة التى هى محل العمل.

ولن تصادف مرعى ممرعا أبدا　　إلاّ وجدت به آثار منتجع

فالأرض المخصبة فضلها إنما هو وجود خاصية الخصب، الذى هو قبول الإنتاج والإثمار، وهذه الخاصية بالنسبة لذات الأرض غير محسوسة، بل هى عبارة عن الاستعداد والقبول لاستخراج المحصولات منها بالعمل، فهى أول أمرها، وقبل

إصلاحها، تحتاج كغيرها من الأشياء الطبيعية إلى قوة إرادة واختيار صادرة عن عقل وتمييز ممن يريد أن يتعاهدها بالعمل ويصلحها.

فالمملكة المتسعة الأراضى، القابلة للزراعة، اتساعا بليغا يزيد عن حاجتها، ليس فيها حق الملكية مشروعا ولا منتظما، وليس لها إيراد ولا محصول ينتج من القدر الزائد عن حاجة أهاليها لقلتهم، فالقدر الزائد من الأراضى ضائع بالنسبة إلى المملكة هباء منثورا، ولكون طريقها وعرا بقى إقليمها قفرا. .

كم من رياض لا أنيس بهـا — تركت لأن طريقهـا وعـر

ومع ذلك لو استيقظ أهلها من الغفلة لأدوا لوطنهم مفروض العمران ونقله.

لاتكونن للأمـور هيـوبا — فإلى خيبة يصير الهيوب

فلنفرض أن إقليما مشتملا على قوم يعمرونه كبلاد «الشلوك» و «الدنكة» من الأقطار السودانية، التابعة لهذه الحكومة المصرية، به أرض زراعية، يعنى قابلة للزراعة لخصوبتها، وأن مقدار أهله مليون من الأنفس، وأن أراضيه الواسعة المخصبة تكفى لتعيش عشرة ملايين من الأهالى، ففى هذه الحالة كل واحد من سكانه يشتغل بحراثة مقدار من الأرض بقدر غذائه لا غير، وليس له من الأشغال غير ذلك، فآحاد الأهالى بهذا الإقليم مقتصرون على منافعهم الشخصية الغذائية، فلا يتفكر بعضهم، وهو القوة الحاكمية، أن يطلب من البعض الآخر، وهو القوة المحكومية، شيئا فى مقابلة المحصولات الغذائية، بوصف الخراج، ولا يرضى أحد منهم، على فرض أن يطلب منه ذلك، أن يدفع شيئا بهذا الرسم، ولا برسم آخر، كاستعاضات تجارية، أو تبرعات ثوابية، وإذا دفع شيئا لآخر فإنما يكون فى مقابلة الأعمال فقط، إذا كان الحارث يشتغل على ذمة آخر بأجرة عمله، فلم يكن الحارث مكلفا إلا بالشغل على ذمة الزارع الذى وفر من زراعة عدة سنوات ماضية شيئا من المحصولات يعطيه للحارث، بقدر تقاوى أرضه وقدر ما يتعيش به إلى أوان المحصول الجديد.

فميسرة الزارع أى صاحب الزرع واقتداره على البذر والأجرة ثروة له، فهى منبع

الإيراد، بعـد الشغل، والشـغل، وهو العمل، منبع الإيراد قـبل تحصـيل البـذر وأجرة الحارث، وهذا ينتج إن منبع السـعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولـة الخدمة، ومع إن كد العـمل مصدر السـعادة الأصلى فهـو أيضا يعين صـاحب الميسرة على تكثـير ميسـرته، بقوة العمل ومضاعفـة الهمة حسب الطاقة، أزيد مما تسـاعد إيرادها للعمل وما ينسب للخـصوبة منه، وفرزنا كلا على حـدته وجدنا محصول الـعمل أقوى من محصول الخصوبة.

ودليل ذلك أن الأمـة المتـقـدمـة فى ممارسـة الأعـمـال والحـركـات الكدية، ذات الكمـالات فى العـملية المستكملة للأدوات الكاملة والآلات الفـاضلة والحـركـة الدائمة، قد ارتفعت إلى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضى الخصبة الواسعة، الفاترة الحركة، فإن أهاليـها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج، فإذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وإفريقية ظهر لك حقيقة ذلك.

فمن هذا يظهر أن أساس الغنى مبنى على كثرة الأشغال والأعمال، فهى مصادر وموارد للأموال، ومنابع للسعـد والإقبـال، ومع ذلك فليس تعـويد النفس على النشـاط سـهـلا، فإن الإنسـان من أصل الفطرة مـركـوز فى طبـعـه كـراهة التكـليف بالعـمل، والتباعد منه حسب الإمكان، مع احتياجه إليه لحفظ نفسه وبقاء جنسه بالتناسل الذى من لوازمه كثرة العمل، وذلك إنما يكون بالتشويق للزواج الذى به يَنْمُو النوع البشرى فى البلاد الخصبة، فتبعث الوجدانيات صاحب العيلة على أن يستعمل حركة قواه لحاجته وتحصيل لوازمه، فيغلب التطبع على الطبع ويتحمل الإنسان على الشغل رغما عن أنفه، فهذا التطبع، الذى هو طبع ثان للإنسان طارئ وعارض عليه، يزول بانتهاء قضاء الأوطار، فيعود للإنسان طبعه الأول من الدعة والراحة والانهماك على البطالة، ولا يخرج من ذلك إلا إذا تولد عنده احتـياج جديد. فيعمل بقدر قضاء الوطر ثم يعود إلى الدعة والبطالة، وهلم جرا، وهذه الحالة فى البلاد الخشنية[1] هى حالة طبيعية قريبة من الحالة الفطرية التى هى حالة النوع البشرى فى أول أمره.

---

(١) أي التي تعيش عيشة البداوة بعيدا عن التحضر.

فالإنسان فى هذه الحالة، من حيث إنه فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية، لم يكن قوى الميل لتمدن الهيئة الاجتماعية، يعنى أن كل فرد من أفرادها يكون بهذه المثابة، لا انتفاع للجمعية بعمله، **فجميع أعضاء الجمعية الخشنية تلتذ نفوسهم بالراحة والدعة، لا سيما أهل الأقاليم التى لا تستدعى احتياجاتهم بها كبير عمل ولا عظيم شغل، فبطالة أعضائها كأنها رأس مالهم وراحتهم، يعدونها من أعظم أحوالهم، وكذلك بعض أهالى المدن الغنية المثرية ذات الإيراد، المتلذذة بحسن المطعم والمسكن والزينة والرفاهية،** فإنهم يصرفون النظر عن التلذذ بالشغل، ويميلون للراحة والتلذذ بالبطالة والاستراحة، ويهربون بالسرعة من التمتع بالرفاهية إذا اضطروا أن يشتغلوا بأنفسهم لا بخدمهم، فلا يعملون الأعمال الشاقة فى أراضيهم التى لا تقوم بهم إلا بكثرة العمل، فيتركون، ملاذهم إذا اقتضى الحال أن يكدوا أنفسهم بعمل هين، ولو كان جزءا من ألف جزء من المتاعب التى يتعبها العملة، فيفوتون هذه اللذات الجسيمة إيثارا للدعة والراحة عليها، لما قلناه من أن محبة الراحة فطرية مألوفة للنفوس على الإطلاق، متمدنة أو غير متمدنة، يعنى أن أهل الممالك المتمدنة لو كلف مترفوهم وأهالى رفاهيتهم العمل اليسير، وكان لولاه لفاتهم التمتع بها، فإنهم يؤثرون الراحة على الشغل، ولذلك تقول العامة: الراحة والكسل أحلى مذاقا من العسل! وقد نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال:

إن البطالة والكسل … أحلى مذاقا من عسل

أن لم تجربها فسل … من كان مثلى فى الكسل

فمن هنا ينتج أن كل أمة مجموع شغلها المنجز يساوى مجموع احتياجاتها البشرية، فإذا فرضنا فى القضية المتقدمة أن إقليم «الشلوك» و «الدنكة» بالسودان إقليم فلاحة وأن مقدار أهله مليون ومساحة أرضه عشرة ملايين من الفدادين، وأن الشخص الواحد يكفيه فى غذائه فدان واحد، فتكون أرض هذا الإقليم كافية لغذاء عشرة ملايين من الأنفس، فهى زائدة تسعة ملايين عن حاجة أهلها الموجودين بها، فكل إنسان من الأهالى يشتغل بقدر ما يلزم لحاجته، فالعمل الزراعى لا يكون من الجميع إلا بقدر المؤنة اللازمة للجميع، دون الزيادة عليها، وفى هذه الحالة يكون

عمل كل إنسان بأقل من طاقته وجهده، ودون قواه الطبيعية، بحيث يكون له من البطالة نصيب عظيم، وأيضا لا يزرعون فى هذه الحالة من إقليمهم إلا المزارع الخصبة التى تكون سهلة الحراثة قريبة السقى، بدون أن يكون فيها كبير مشقة على الحارث، فتلك الأمة، التى فرضنا اتصافها بتلك الصفات، تقنع بالفلاحة اليسيرة، وتكتفى بقدر القوت الضرورى، لملازمة الكسل وحب الراحة للطبع البشرى، فكل فرد من أفراد هذا الإقليم مستعد لأن يصرف ثلاثة أرباع زمنه فى التمتع بلذة البطالة والراحة، بدون أن يعود عليه ضرر فى احتياجاته الأولية وأقواته المعاشية، فلا يضره ضياع الأوقات.

والغالب أيضا أن الأهالى، الذين هم بهذه المثابة، لا يكادون يخرجون عن هذه الحالة، ما لم تغلب على طباعهم وأحوالهم حالة أخرى تعادل قوة الاحتياجات الأولية، كالتناسل والتوالد، أو تشوقهم الحكومة إلى ذلك، أو تجبرهم عليه، فإن الكثرة تستجلب الحاجة، فبهذا يزيد عددهم وينمو فى قليل من السنين، ويصير ضعفين، فيتضاعف مقدار زراعتهم بذلك، فيكون للمليونين من الأنفس مليونان من الفدادين، وفى مدة مساوية لما ذكر يكون عدد الاهالى أربعة ملايين، وهكذا، إلى أن يبلغ مقدار الأهالى عشرة ملايين بقدر ما تكفيه من الغذاء، فتحس الأمة إحساسات قوية بصعوبة تحصيل غذائها لكثرة أهاليها، فلا تكاد تتحصل منه على الكفاية، فكل شخص من الأهالى نقص له شىء من غذائه اضطر على أن يصرف جميع زمنه وجميع قواه فى تحصيل الغذاء والمؤنة، ففى هذه الحالة يتجدد لأهالى هذا الإقليم صفة نشاط أخرى، فيكون مقدار الشغل عندهم والعمل الكافى لهم صرف ما يستطيعونه من الكد والاجتهاد والقوة والنشاط، ولا تزال تتزايد عندهم القوة النشاطية والانتفاع بالأراضى الزراعية أيا ما كانت خصوبتها:

ترق إلى صغير الأمر حتى ... يرقيك الصغير إلى الكبير

وهذه الحالة حالة تقدم للهيئة الاجتماعية، محتاج إليها جميع أعضاء الجمعية، ففى أثناء تقدم الأهالى بهذه المثابة يتجدد عندهم حق من الحقوق المدنية، وهو مبدأ

حق التملك للأراضى وحوزها، بوضع اليد عليها بإحياء مواتها، فمن هذا الوقت يصير للأرض قيمة فى حد ذاتها، وفى هذه الحالة تضطر الأهالى إلى الاستيلاء على جميع الأراضى القليلة المحصول، التى كانت قبل ذلك عديمة الرغبة فيها، فيصير صرف الهمة فى إصلاحها بالحراثة، ثم لا تكتفى الأهالى بذلك، بل ربما تدعو الضرورات إلى إصلاح الأراضى العقيمة المجدبة وتقويم أودها بالحرث والخدمة وإحياء مواتها، بل كل من استولى على أرض بهذه الحالة أجهد نفسه فى إصلاحها لاستحصاله منها على البذر والتقاوى وأجرة العمل والتسوية مدة إحيائها، وجبر الخسارة التى خسرها محييها.

فحينئذ كل فرد من أفراد الجمعية محترف بحرفة الفلاحة والعمل فيها، ومضطر لأن يؤجر نفسه للحرث والغرس ليتعيش بحرفته، يدخل عند مالك الأرض بوصف أجير عامل، ويكلف نفسه أن يصرف جميع أوقاته فى خدمة الأرض بدون راحة، إلا بقدر المسافات الضرورية لأكله وشربه ونومه وعبادته ونحو ذلك، فبهذا تزداد نتائج الزراعة وتنمو يوما فيوما بكثرة العمل، فالعامل الذى كان يعمل فى الزمن الأول مقدارا يسيرا، ويقضى أوقاته فى البطالة، يضطر إلى أن يعمل فى الزمن بعينه مقادير جسيمة، ويستحصل على كثير من المحصولات بقدر زيادة القوة البشرية، وذلك أن كلا من العملة وأصحاب الأملاك يجتهد فى البحث عن الوسائل والوسايط المقربة للعمل المسهلة له المقللة لأوقاته.

فكن باحثا عما عناك فإنما دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

ويصير الاجتهاد فى ذلك بحيث ما يعمله العامل فى يوم يمكنه أن يعمل أضعافه فى اليوم الواحد ثلاث مرات أو أربعا، لأن العامل قد تجرد فى هذه الحالة عن البطالة، وتفرغ للعمل وتمرن عليه بالمداومة، فكلما مارسه تجددت عنده معرفة تامة يجيد بها عمله، وبتزايد الدرجات فى الكمال تحسن الزراعة وتتكامل البراعة فيها، فيحسن العامل العمل ويتفنن فيه، ويقسمه إلى أقسام، ويعرف الأوقات والفصول والساعات وما يخص أنواع الزراعة وما يقويها من المصلحات، فتعلو قيمة العامل بالتجربة والجودة، وكذلك يقف على معرفة خصائص ما يستعين به من الآلات

العصرية المسهلة لصنعته كالهواء والماء والبخار، فتكون هذه الأشياء المسهلة عنده أدوات عمل كأنها عوامل بدون أجرة، وإنما يحسن استعمالها أرباب المهارة والصناعة، فإذا توفرت عند المزارعين هذه الوسايط المتكاملة النافعة حسنت بها نتائج الأعمال اليومية وعظمت بها ثمرات الأشغال.

فبهذه الطرق والوسائل ينطبع فى مرآة عقول الأمة المتعيشة من الفلاحة صورة حركات الأشغال التقدمية، ويتعودون على المبادرة بنشاط الأعمال الفلاحية، فلا تزال تتجدد المنافع العمومية بالتدريج، وتأخذ فى الزيادة بدون نهاية، وبهذه المنافع الأهلية تكثر أموال الرعية وسعادتها التعيشية.

ثم إن المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية، المجتنى لفوائد هذه الإصلاحات الفلاحية، الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية، والمحتكر لمحصولاتها الإيرادية، إنما هو طائفة الملاك، فهم من دون أهل الحرفة الزراعية هم متمتعون بأعظم مزية، فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية، والمتحصلون على فوائدها، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع، فلا يعطون للأهالى إلا بقدر الخدمة والعمل، وعلى حسب ما تسمح به نفوسهم، فى مقابلة المشقة، يعنى أن الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل، ولا تدفع فى نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل، فما يصل إلى العمال فى نظير عملهم فى المزارع، أو إلى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها، هو شئ قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى الملاك فإن الملاك،يستوفى لنفسه أكثر محصول الأرض، فإنه بعد تصفية حساب مصاريف الزراعة وجميع كلفها، يأخذ محصولها بتمامه، بوصف إيراد للأرض وعلف للمواشى وأجرة للآلات، ولا يعطى لأرباب الأعمال والأشغال منها إلا قدرا يسيرا، ولينظر إلى كون بعض هؤلاء العمال هو الذى حَسَّن الزراعة بشغله،واخترع لها طرائق منتجة، واستكشف استكشافات عظيمة، بتنمى الزراعة وتكثير أشغالها، فإن حق التمليك ووضع اليد على المزارع سوغ للملاك ولواضعى الأيدى أن يتصرفوا فى عمليات أملاكهم التصرف التام، وأن يعطوا للعمال بقدر ما يظنون أنه من لياقتهم، ويعتقد المالكون

أنهم أرباب استحقاق عظيم بسبب التملك، وأنهم هم الأولى بالسعادة والغنى مما يتحصل من عمليات الزراعة، وأن من عداهم من أهل المملكة لا يستحق من محصول الأرض شيئا إلا فى مقابلة خدمته ومنفعته المأمور بإجرائها فى حق أرضهم فيترتب على هذا أن كل من يريد من الأهالى أن يتعيش من الخدمة، التى هى العمل، يصير مضطرا لأن يخدم بالقدر الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم، ولو كان هذا القدر يسيرا جدا لا يساوى العمل، لا سيما إذا وجد بالجهة كثير من الشغالين، فإنهم يتناقصون فى الأجرة، ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الأرض، مع أن الأرض إنما تتحسن محصولاتها بالعمل، فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب إلا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الأجرية الذين تناقصت الفلاحة، أجرتهم، وكما أن أرباب الأملاك يحتكرون جميع الأعمال الزراعية من طائفة الفلاحة، كذلك يحتكرون ثمرات جميع الأعمال الزراعية وتنهض فى الأشغال والعمليات التى تستدعيها حاجة الفلاحة، كالحدادة والنجارة وجميع صنائع أهل الحرف المتعلقة بأمور الفلاحة.

فينتج من هذا كله أن زيدا من الناس إذا لم تساعده المقادير على أن يصير مالكا لقطعة أرض، لا يزال يقاسم مالك الأرض فيما يتحصل من الثروة الزراعية، ولكن تمتعه ناقص جدا، فإنه لا يأخذ من المحصول الزراعى إلا القدر الذى يسمح به المالك فى مقابلة خدمته وفنه وصناعته وثمن الأدوات والآلات والدواليب المهندمة للزراعة، فإذا كان مالك الأرض سخيا كريما مبسوط اليد كافأ المكافأة التامة، ووسع على من ينتفع بفنه، فقد جرت العادة أن الفلاح لا يكافأ على قدر خدمته وحراثته لقاعدة مشهورة: إن من يزرع يحصد، يعنى أن المحصود للمالك. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «الزرع للزارع» مع أن المعنى فيه أن الزرع لمن بذر والثمرة له، وعليه أجرة مثل الأرض، لا أن العامل يأخذ أجرة قليلة على عمله. ففى خبر الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمرة أو زرع، أى أعطاهم النصف فى نظير عملهم، وفى رواية دفع إلى يهود خيبر نخلها وأرضها والمواد بعملهم مساقاتهم ومزارعتهم فالواقع منه صلى الله عليه وسلم مزارعة تابعة

للمساقاة، والزرع المذكور فى الحديث كان شعيرا، كما استظهره بعضهم، ومثل الزرع المذكور غيره كملوخية وبامية وخوخ ومشمش، فتصح الزراعة على ذلك تبعا للمساقاة، والبذر فيها من المالك، بخلاف ما إذا كان البذر من العامل فهى مخابرة، وهى المسماة أيضا بالمشاطرة، التى تقع فى مثل العنب والخوخ، فيدفع المالك الأرض للعامل ويزرعها العامل ببذر من عنده، وكذا القمح، بل وقوع المخابرة الآن، مع أنها غير جائزة، موجودة بمصر أكثر من المزارعة، فحديث «الزرع للزارع» لا يدل على شىء من جواز استحواذ المالك على المحصولات، وعدم مكافأة العامل، ولا يستند فى غبن الأجير إلى أن المالك دفع رأس ماله فى مصرف الزراعة والتزم الانفاق عليها فهو الأحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة وأنه الأولى بربح أمواله العظيمة، فهو الأصل فى التربيح، وأن عملية الفلاح إنما هى فرعية، أنتجها وحسنها رأس المال، فإن هذه التعليلات محض مغالطة، إذ فرض الكلام فى العامل جر لعمل منتج لولاه لما ربحت الأرض ربحا عظيما، فمواكسه المالك له فى تقليل أجرته محض إجحاف به، ووصف استملاك الأراضى والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضى كونه يستوعب جل المحصولات ويجحف بالأجير، نظرا إلى ازدحام أهل الفلاحة، وتنقيصهم للأجر، وسومهم على بعضهم بالمزايدات التنقيصية، وهذا لا يثمر محبة الأجير للمالك (من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا) فإن فيه إيذاء بعضهم لبعض، وهو ممنوع شرعا، كما يدل عليه ما رواه أبو هريرة، رضى الله عنه، فقد قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره. التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات. بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه». رواه مسلم. وفى رواية: «ولا يسم على سومه، ولا يخطب على خطبته».

وحيث كان هذا الحديث كثير الفوائد عظيم العوائد، مشيرا إلى حل المبادئ والمقاصد، حاويا لكثير من الأحكام والآداب، إشارة وصراحة، لا سيما وأنه

ينطبق انطباقا كليا على أعمال الفلاحة بينا معناه بطريق الاختصار : فقوله صلى الله عليه وسلم«لا تحاسدوا» أي لا يحسد بعضكم بعضا ، أي لا يتمن زوال نعمة غيره ، لأن الحسد حرام ، لقبحه عند المشرعين وغيرهم ، قال الشاعر :

وأظلم أهل الأرض من كان حاسدا   لمن بـات فى نعـــمـائه يتـقـلب

وليس من الحسد تمنى الإنسان مثل ما للغير لنفسه ، فإن هذا هو الغبطة الممدوحة ، وقوله صلى الله عليه وسلم «ولا تناجشوا» أي لا ينجش بعضكم على بعض بأن يزيد في المبيع ، ليخدع غيره ، وهو أيضا محرم إجماعا ، لأنه غش وخداع وهما محرمان لحديث : «من غشنا فليس منا» ، وفى رواية «من نجش فليس منا» ، ومعناه لا يعامل أحدكم صاحبه بالغش والمكر والخديعة ، فيدخل فى قوله «ولا تناجشوا» جميع أنواع المعاملات بالغش ونحوه ، كتدليس العيوب وكتمها ، وخلط الجيد بالردئ ، قال الشاعر :

لـيس دنيــــا إلا بـديـن وليـس   الـدين إلا مـكـارم الأخــــلاق

إنما المكر والخـديعـة فى الـناس   همـا من خـصـال أهل النفـاق

ومن المعلوم أن الحسد والغش يتولد عنهما التباغض إذ يكونان من أسبابه ، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم «ولا تباغضوا» أي لا يبغض بعضكم بعضا ، أى لا يتعاطى أسباب البغض أيا ما كانت ، كالمواكسة السابقة المذكورة ، بل ينبغى للناس أن يسمعوا بما فيه ائتلاف القلوب بتعاطى أسبابه ، فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده إذ ألف بين قلوبهم فقال : ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ (آل عمران : ١٠٣) وقال تعالى : ﴿ **لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الأنفال : ٦٣) فالإنسان مكلف بتعاطى أسباب الألفة والمحبة ، واجتناب أسباب العداوة والبغضة ، ثم قال ، صلى الله عليه وسلم : «ولا تدابروا» ، أى لا يدبر بعضكم عن بعض ، أى لا يعرض بعضكم عما يجب للبعض الآخر عليه من الحقوق ، كالإعانة والنصر والتخاطب والتآلف وعدم الهجر فى الكلام إلا لعذر شرعى ، كنحو تهمة وقصد

تأديب، ثم قال صلى الله عليه وسلم «ولا يبيع بعضكم على بيع بعض» بأن يقول بائع لمشترى سلعة فى زمن الخيار: افسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثلها بأرخص من ثمنها، أو يقول: أنا أبيعك أجود منها بثمنها، ومثله الشراء على الشراء بأن يقول للبائع فى زمن الخيار: أفسخه وأنا اشتريه منك بأغلى، فإن هذا كله من باب الضرر، أمثله السوم على السوم، والخطبة فى الزواج على خطبة الغير، ومثل ذلك كل ما كان فى معناه مما ينفر القلوب ويورث البغضاء، وأغلب أهل الفلاحة والصناعة والتجارة لا يتحرزون عن ذلك، لا سيما بعد استقرار البيع والإيجار والتراضى عليه، ويتعللون فى جواز القدوم على ذلك بالغبن، وبعض العلماء لا يجوز القدوم عليه ولو كان مغبونا، وبالجملة لا تجوز الزيادة قبل الاستقرار.

[الأخوة الوطنية]

ثم حث صلى الله عليه وسلم على حسن المعاشرة والملاطفة والتعاون فى الخير بقوله: «وكونوا عباد الله إخوانا»، يعنى يا عباد الله كلكم خلق الله، فقد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالم وتكثير منافعه، فاكتسبوا ما تصيرون به إخوانا فى المودة، وقد أمركم بما تقدم ذكره وأنتم عبيده، فحقكم أن تطيعوه وتتعاطوا أسباب ما تصيرون به إخوانا للتعاضد على إقامة دينه وإظهار شعائره وانتظام ملكه، وهذا إنما يكون بائتلاف القلوب وتواطئ الكلمة، كما يفيده قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ**﴾ (الأنفال: ٦٢، ٦٣) **الآية ثم إن أخوة العبودية التى هى التساوى فى الإنسانية، عامة فى حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض، التى هى حقوق العباد، وهناك حقوق العبودية الخاصة التى هى الأخوة الإسلامية، وهى اكتساب ما يصير به المسلمون إخوانا على الإطلاق من أداء حقوق بعضهم على بعض كرد السلام وابتدائه، وتعليم الأحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الإيمان، فهذه هى التى أشار لها صلى الله عليه وسلم بقوله: «المسلم أخو المسلم» يعنى أخوة دينية لأنهما يجمعهما دين واحد، وهى أعظم من الأخوة**

الحقيقية، وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠) وفى الصحيحين: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». وروى أبو داود: «المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيقته ويحوطه من ورائه». ورواية الترمذى: «إن أحدكم مرآة أخيه، فإن رأى به أذى فليمطه عنه»، أى يبعده عنه، ولا مانع أن يعمم فى مكارم الأخلاق، **فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الأخوة الدينية، فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد: التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه، فيما يخص شرف الوطن وإعظامه وغناءه وثروته، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية، وهى تكون بين أهل الوطن على السوية، لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية، فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل، وكذب بعضهم على بعض، والاحتقار، ثبتت لهم المكارم والمآثر، ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شعائرها ومآثرها،** فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله «المسلم أخو المسلم» **بقوله «لا يظلمه» أى لا يدخل عليه ضررا فى نحو نفسه** أو دينه أو عرضه أو ماله، لأن ذلك قطيعة محرمة تنافى الأخوة.

قال الإمام ابن حجر[1] فى شرحه على الأربعين النووية: «بل الظلم حرام حتى للذمى، فالمسلم أولى» انتهى. وهذا يؤيده ما قلنا من أن أخوة الوطن لها حقوق، لا سيما وأنها يمكن أن تؤخذ من حقوق الجوار مما للجار على جاره، خصوصا من يقول أهل الحلة الواحدة كلهم جيران وقوله صلى الله عليه وسلم: «ولا يخذله»، أى لا يترك نصرته المشروعة، لا سيما مع الاحتياج والاضطرار إليها، وقوله: «ولا يكذبه»، أى لا يخبره بأمر على خلاف الواقع، لأنه غش وخيانة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩). وقد أجمع جميع

---

(١) أحمد بن علي حجر العسقلاني (١٣٧٣-١٤٤٩م) من أبرز المحدثين في عصره، تدرج في مناصب القضاء حتى أصبح قاضي قضاة مصر، وله مؤلفات عديدة منها: (فتح الباري على شرح البخاري) و(الإصابة في تمييز الصحابة).. إلخ.. إلخ..

الملل على قبحه وتحريمه إلا لمصلحة قوية ضرورية، «ولا يحقره»، أى لا يستصغر شأنه ويضع قدره، ولا يغدر عهده ولا يتنقص أمانته باستخانته.

وبالجملة فيعامل أخاه بمضمون حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». فالاحتقار ناشئ من الكبر، وهو مذموم لأن المتكبر ينظر لنفسه بعين الكمال ولغيره بعين النقص، فيحتقره ولا يراه أهلا لأن يقوم بحقوقه. قال ابن حجر: وتخصيص ذلك بالمسلم لمزيد حرمته، لا للاختصاص به من كل وجه، لأن الذمى يشاركه فى حرمة ظلمه وخذلانه بدفع نحو عدوه عنه والكذب عليه واحتقاره إلا من حيث مغايرة الدين. ثم قال صلى الله عليه وسلم: «التقوى ههنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات، يعنى أن التقوى هى اجتناب عذاب الله تعالى بفعل المأمورات وترك المحظورات فى القلب الذى فى الصدر، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ (الحج: ٣٢). وفى هذا إشارة إلى أن العبرة بالقلوب كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذافسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». فهو العارف بالشرائع والطرائق والحقائق، وإذا استقام القلب استقامت الجوارح، لا سيما اللسان، فإنه ينكف أذاه عن كل لسان، وهنالك يستقيم الإيمان، فعلى الإنسان أن يتمسك بالتقوى التى هى السبب الأقوى، ويقف عند حد كلام النبوة، ليتصف بالمروءة والفتوة، فلا يظلم أحدا ولا يحقره ولا يكذبه ولا يخذله، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «انزلوا الناس منازلهم»، وقال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا»، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «بحسب امرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، يعنى يكفى الإنسان فى أن تكون أخلاقه موصوفة بالشر وأن يكون سيئ المعاش والمعاد احتقار أخيه المسلم واحتقار من له حرمة من الناس، لأن الله عز وجل لم يحتقر الإنسان إذ أحسن تقويم خلقه، وسخر ما فى السموات والأرض كله لأجله، فاحتقاره احتقارا لما عظمه الله عز وجل وكرمه، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ (الإسراء: ٧٠) فازدراؤه من أعظم الذنوب والجرائم، ثم قال صلى الله عليه وسلم: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله

وعرضه»، يعنى أنه يحرم على المسلم سفك دم أخيه، وسلب ماله، وهتك عرضه، وأدلة تحريم هذه الثلاثة شهيرة من الكتاب والسنة وإجماع الأئمة، وهى أصول قوام صورة الإنسان، لأن الدم به حياة الإنسان، ومادة الحياة هى المال، وبالعرض الذى هو الحسب قوام الصورة المعنوية، وما سوى هذه الأصول الثلاثة متفرع عنها وراجع إليها. فهذا الحديث يحث جميع الناس على مكارم الأخلاق، وعلى التعاون فى التعيش والمعاملة، وأكثر الناس معاملة، هم أهل الزراعة ، فإن أرباب الأملاك والأراضى يحتاجون إلى التعاون فى زراعة أرضهم بأكثر الصنائع، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «استعينوا على كل صنعة بصالحى أهلها»، وكذلك أهالى الصناعات محتاجون لأرباب الأملاك الأرضية للتعيش من محصول أراضيهم، فيجب عليهم جميعا المناصحة لبعضهم، وتقوى الله فى صنعتهم، ثم إن العمل الذى عليه مدار الفلاحة عليها مدار غيرها من الصنائع ينقسم إلى قسمين منتج وغير منتج وهذا هو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب.

الفصل الثالث

(فى تقسيم الأعمال إلى منتجة للأموال وغير منتجه لها، أى أستغلالية وغير استغلالية)

من المعلوم أن العمل والشغل مترادفان على معنى واحد عند أهل الصناعة، والعامل والشغال كذلك، فما يقال فى العمل والشغل يتصف به العامل والشغال، ومن المحقق أن الأفعال كلها لله سبحانه وتعالى، وإنما أحوج عباده إلى تحصيل أسباب الحاجة المتكاثرة ليظهر للخلق أنه أراد استجلابها بوجه حلال، وجعل الإنسان أكثر أصناف الحيوانات احتياجا، وجعل دونه فى الاحتياج سائر أصناف الحيوانات، حيث اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون غنية بأصوافها وأوبارها وأشعارها عن اللباس والدثار، وغنية بالأرض والأوكار عن أن تتخذ بنيانا، وأشرك الجميع فى مادة الاحتياج إلى الغذاء لئلا يشتركوا مع الإلوهية، فإذا ادعى بعضهم الربوبية لنفسه، كفرعون، أو لغيره كان احتياجه إلى تكرار الغذاء شاهدا على كذبه، كما قال الله تعالى: ﴿ **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ أى مضوا فهو يمضى مثلهم، وليس بإله كما زعموا ﴿ **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ** ﴾ (المائدة: ٧٥). أى كغيرهما من الحيوانات المشتركة معهما فى ذلك، ومن كان كذلك لا يكون إلها لاحتياجه إلى الطعام وإلى خروج ما نشأ عنه من الفضلات، فالفعل والتدبير إنما هو لله سبحانه وتعالى فى تحصيل ما يحتاج إليه الآدمى وغيره من الغذاء والأدم والفواكه والأشربة، كما قال تعالى: ﴿ **أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا** ﴾ (عبس: ٢٥، ٢٦) أى بالنبات ﴿ **فَأَنْبَتْنَا فِيهَا**

حَبًّا﴾ (عبس: ٢٧) أى كالحنطة والشعير ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ (عبس: ٢٨) أى تبنا للعلف ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ﴾ (عبس: ٢٩، ٣٠) أى بساتين ﴿غُلْبًا﴾ أى عظاما لكثرة أشجارها ﴿وَفَاكِهَةً﴾ أى ثمارا طيبة غير ما تقدم ﴿وَأَبًّا﴾ أى مرعى للدواب أو يابس الفواكه ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: ٣٢) أى الإبل والبقر والغنم، فإن الأنواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف، وابتدأ تعالى بالمن بإنبات الحب لأنه أنفع المنبت، ولأن الإنسان إذا تأمل فى إنبات الحبة الصغيرة استدل بذلك على عظيم قدرة الله تعالى، لأن الحبة، ولو صغيرة جدا، إذا دفنت فى الأرض وحصل لها نداوة انتفخت، ثم لا تنشق مع عموم الانتفاخ لها إلا من أعلاها وأسفلها، فيخرج من الأعلاء الجزء الصاعد الممتد، وهو الساق، ثم يتشعب منها أغصان كثيرة إلى الجانبين، ثم يطلع الزهر غالبا، ثم منه تصلح الثمرة، وهى مشتملة على أجزاء غليظة كالقشر، ولطيفة كاللب، وفيه الدهن، وأما الجزء الفائض من أسفل الحبة فيتفرع منه عروق تغوص فى الأرض الشديدة الصلابة، مع غاية لطفها. ويوصل الله بها الأغذية من الطين إلى الجزء الصاعد والأغصان، ويوزعها الله فى كل جزء من أجزاء الأغصان، فإذا تفكر الإنسان فى هذا وأمثاله ذهبت غفلته، وحدث للقلب خشية، كما يحدث الله عند الماء النماء للزرع، وعلم أن الفعل لله حقيقة ولغيره مجاز.

[العمل: منتج وغير منتج]

وقد قسم أرباب الإدارات والتدابير العمل إلى قسمين، لا ثالث لهما: منتج للمال، وغير منتج له، لأن العمل لا يخلو إما أن تزيد قيمة مورده بالربح، فهو المنتج، وإما أن لا تنشأ عنه ثمرة تربيح مالى تنسب إليه، فهو غير المنتج، وهذا يرجع إلى الاستغلال وعدمه بالعمل، وكما يقال للعمل منتج أو غير منتج يقال للعامل كذلك، فالعمال صنفان: مكتسبة، ومرتزقة، ويقال للعمل أيضا خدمة،

سواء كان جليلا أو حقيرا، فبهذا المعنى يقال لمطلق العمل خدمة، وإنما العرف يخص الخادم بالمعنى المشهور المتعارف والقرينة بحسب المحال تدل على المعنى المراد، ثم إن العامل فى «أوسية»[1] أو دائرة العامل، صناعية أو زراعية، تزيد بعمله قيمة البضائع المصنوعة التى هى مورد عمله، فله مدخل عظيم فى تربيح صاحب الملك، فهذا العامل منتج للكسب والاستغلال، بخلاف عمل الخادم عند السيد فإنه ليس فيه، فى حد ذاته، للسيد ربح ولا مكسب مالى، من المعلوم أن كلا من العامل والخادم يتعيش من محل العمل أو محل الخدمة، لأنا إذا نظرنا للحقيقة ونفس الأمر نجد أن العامل المستأجر يأخذ من صاحب المصنع أجرته مقدمة على العمل، ومع ذلك لا يتكلف على صاحب المصنع شيئا، فإن أجرته فى الغالب تنص[2] من الربح الزائد المتسبب عن عمله، فهو يأخذ من ثمرة كده وعرق جبينه، بخلاف ما يأخذه الخادم من سيده من «الجامكية»[3] فى مقابلة خدمته فليس مأخوذا من مورد مالى صادر عن عمل الخادم، والدليل على ذلك أن آحاد الناس من أرباب الفلاحة أو الصناعة قد يربح من عمل عماله وآثار مهارتهم شيئا يصير به رئيس جماعة فلاحية أو عريف فرقة صناعية، فبتشغيله كثيرا من العملة والشغالين فى دائرة شغله ينمو ماله ويزيد غناه وتكمل سعادته، وكلما كثرت أتباعه فى هذا العصر فى هذا الخصوص كثرت ثروته، وإن السيد قد يكثر من الخدم والحشم فيكون ذلك سببا لتناقص ماله وانحطاط قدره، وما ذاك إلا أن الأول جميع من عنده من العمال يعملون عملا منتجا مربحا، بخلاف الثانى فإن عمل خدمه وحشمه غير منتج للمال، ومع ذلك فسيد الخدم «يجمكهم» بقدر استحقاقهم ونشاط خدمتهم وتأدية ما هو مطلوب منهم، فهم آخذون لا معطون، بخلاف عمال الأشغال الصناعية فأجرتهم تقدر على قدر مورد العمل والمتحصل منه من

---

(١) مساحة من الأرض، تدار كوحدة إنتاج زراعية، يقوم الإنتاج فيها على أساس من علاقات الأنتاج الإقطاعية، سواء أكان ذلك لحساب المالك أو الملتزم.

(٢) تنتج وتفرز.

(٣) مفرد جوامك، وهي المرتبات، وأصلها فارسي، من «جامكي»، وهي مركبة من «جامة» بمعنى «قيمة» و «كي» هي أداة النسب.

الأرباح والفوائد، هذا إذا كان بالمياومة، وإذا كان بالمقاولة والالتزام والتعهد فإن رئيس الصناعة يعطى المهمات الجسيمة المتراكمة الأجزاء والمواد بقدر معلوم للعمال فى نظير الأجرة، فإذا تخصصت على الزمن ربما تفرق عن المياومة بكثير، فيربح المالك ربحا عظيما ويخسر العامل لأنه معط نوعا لكثير وآخذ للقليل، وجميع هذه المصنوعات والمشغولات توضع فى مخازنها إلى وقت رواجها، فتباع ويتحصل منها مقادير جسيمة بحيث تكفى لتشغيل مشغولات قدر التشغيلات الأولية التى بيعت مشغولاتها عند رواجها، يعنى أن صاحب المال ربح جودة وسائل التشغيل وأدواته، فقد توفر رأس ماله وما اكتسبه من عمل العمال، وهلم جرا إلى غير نهاية، بخلاف خدمة الخادم لسيد فلا تثمر له باقية وليس لها مورد ولا محصول ولا بضاعة تباع ولا تشترى، بل خدامات الخادم أعراض تنقضى بالفراغ من عملها بدون بقاء أثر ولا قيمة، فلا تعطى بعد انقضائها ربحا يكفى صرفه لمدة أخرى بقدرها عند العود لمثلها ولو كانت لزومية وعليها مدار العمل فى الجمعية يعنى فى المملكة المتمدنة.

فخدمة المقلدين للمناصب العالية والوظائف السامية فى أى دولة من الدول، وكذلك خدمة الخدم المعتادين لسادتهم فى أى بلد كان، لا تنتج ربحا ماليا ولا قيمة مثرية للمخدوم محسوسة، يعنى لا تنتج بنفسها استغلال الأموال لمن هى منسوبة له، وهذا لا يقدح فى حقها شيئا، لأن خدمة أرباب المناصب فى الممالك عليها مدار العمل والإرشاد بالتدبير والسعى فى الإصلاح، فإنتاجها الحقيقى إنتاج بالواسطة، فهو إنتاج الإنتاج، لا إنتاج بالفعل والمباشرة، وكلامنا فى إنتاج رؤوس الاموال «والسرمايات»[1] دون الإنتاج الإرشادى، وإلا إذا نظرنا إلى إنتاج الإدارة ومعونة الحكومات وجدنا صحة ما سلف نقله عن الخليفة المأمون من قوله: إن أسباب المكاسب أربعة، وعد منها الإمارة، وقال: إن ما عدا ذلك فهو كل علينا - والكل بفتح الكاف الحمل - وقد قلنا إن مرجع استحصال الأموال لا يكون إلا من الزراعة والصناعة والتجارة فهى محل الأرباح والإيراد، وأما غيرها فهو محل للمصارف،

(١) مفردها «سرمية» بمعنى النقود المتجمعة.

لأننا بينا أن غير المنتج من الأعمال هو ما لا يبقى بعد انقضائه شيء من ثمرات العمل يروج ويكفى لعمل آخر ، فوظائف جميع الحكام الملكية وضباط العسكرية البرية والبحرية وجميع الجنود كذلك، وإن كان عليها مدار حركة الإنتاج، بل هى القوة الباعثة له فى الواقع ونفس الأمر ، إلا أنها لا تسمى فى عرف المنافع العمومية بالمنتجة للأموال بنفسها وبعملها، وإن كانت لهم مرتبات سنوية جسيمة فى نظير مأمورياتهم، فهذه المرتبات عائدة إليهم من أموال غيرهم، ولو أن خدمتهم للحكومات فى غاية الشرف والمنفعة . ومن أشد اللزوم للأهالى، فلا تنتج ربحا يروج منه مقدار للمستقبل يساوى الصرف على خدمتهم سنة، يعنى لا تربح خدمتهم للحكومة مالا ناضا يعطى لهم فى السنة المقبلة، فبهذا المعنى يقال : إنهم غير منتجين يعنى هم جهة مصرف لا جهة إيراد، إى ليسوا جهة أرباح، ويلحق بالمناصب الميرية المناصب القضائية والدينية والحكومية كعمال الأوقاف ونحوها، فإن الموظفين بهذه المناصب الفخمة غير منتجين بالمعنى السابق، يعنى مناصبهم لا تجلب أرباحا ولا مكاسب، ومثل هؤلاء أهل الآداب كالشعراء والمنشدين وما أشبه ذلك، فجميع هذه الأعمال ليس لها قيمة مالية وكسب وتربيح كالأشغال المنتجة لذلك، إذ لا تنتج شيئا يباع ويتحصل منه لسنة أخرى مصاريف العمل الذى يعطى ربحا وهلم جرا، فإن أشغالهم جميعا وأعمالهم أعراض تنتهى عقب فراغها لراغبها، فلعب اللاعب وإنشاد المنشد وأنغام المغنى وتوقيع الموسيقى ضروبه على حسب المقامات كلها أعراض تنتهى بانتهاء عملها لطلابها، وليست مربحة، وأما عمل آلاتها وكتبها وتأليفها فهو منتج أموالا، وأما هى فى حد ذاتها فملحقة بغير المنتج، فجميع أرباب الأعمال غير المنتجة، وأرباب البطالة الذين لا عمل لهم، كلهم على حد سواء فى كون مصارفهم صادرة عن محصولات الأرض السنوية، ومن عمليات الأهالى الصناعية، فنفقتهم على غيرهم، مع شرف البعض كشرف الولاة والقضاة وأمناء الأديان، والانتفاع بخدمة البعض الآخر كأرباب الطرب والملاهى وما أشبهم، ثم إن المحصول الزراعى أو الصناعى ولو بلغ فى العظم والكثرة فهو محدود ومتناه ومقدر بالحساب، فإذا أخذنا حساب السنة الماضية وعرفنا منه مقدار المنصرف فى استحقاقات ومرتبات غير المنتجين من الأشخاص،

قل عددهم أو كثر، وكذلك مرتبهم، وجعلنا الباقى على ذمة مصاريف الأشخاص المنتجين فهذا القدر الباقى، قليلا كان أو كثيرا، يكون هو محصول السنة المقبلة، لأنه هو الذى يباع ويصير دخوله فى التشغيل للتربيح، ومن هذا يتبين أن المتحصل من المزارع فى السنة هو نتيجة العمل المنتج، يعنى إيراد الزارع فى السنة بعد استنزال أجرة الأرض، أى ما عليها من المال وما يتبع ذلك من التقاوى وعلف المواشى وأجرة المهمات الآلية وغير ذلك، فالصافى بعد هذا هو الربح وهو الذى يحصل منه تشغيل السنة المقبلة، ومنه تدفع أجرة الأجير المنتج ويقاس على ذلك دائرة الصناعة «كالفبرقة» فإن أغلب محصولها فى العادة هو فى مقابلة رأس المال، والباقى يعد أرباحا بعد تنزيل المصارف، فمن هذه الأرباح التى هى ثمرة العمل المنتج تدفع أجرة ذلك العمل.

وهذه الأرباح أيضا معدة لتكوين الإيراد الذى يخرج منه أرزاق الأشخاص المنتجين وغير المنتجين، يعنى جميع أهالى البلدة مكتسبة ومرتزقة، فمدار مؤنة الأهالى جميعهم على الأعمال المنتجة، يعنى موارد الأموال، فكل إنسان أخرج من ماله شيئا وجعله رأس مال فى زراعة أو تجارة فلا يكون غرضه منه إلا تربيح هذا المال، فلا يصرف منه إلا للعمال المنتجين الذين ينض هذا المال بعملهم، فإذا صرف رأس المال على العمل أنتج مما صرفه جزءا بوصف الربح يعود على العمال فى نظير أجرتهم، فربح الشغالة إنما هو ناتج من عين عملهم لا من رأس مال المالك، فإذا أراد المالك أن يستخدم خدما لعمل غير منتج وجعل لهم مرتبا فصرف هذا المرتب خارج من أصل ماله فيدخل فى الحساب ضمن المال المبقى لنفقته، فليس ما ينفق على الخدم من ربح عملهم كأرباب العمل المنتجين، فأرباب الأعمال غير المنتجة وأرباب البطالة يتعيشون جميعا من إيراد واحد له موردان:
الأول: محصول الربح السنوى الوارد لصاحبه فى مقابلة مال أرضه أو ربح ماله، **والثانى**: المال الذى يخص العامل فى نظير عمله بقصد التعيش به الذى هو عبارة عن رأس مال العمل.

فإذا وصل هذا القدر من رئيس الدائرة الصناعية أو الزراعية إلى العامل فإنه

يتعيش منه لنفسه، فإذا زاد عن مؤنته فلا مانع أن يتعيش منه ناس أخر، منتجون أو غير منتجين، كما إذا كان العمال أرباب أهمية فى العمل ولهم أهمية وشرف ورياسة فى صنائعهم فإن مرتباتهم من دوائر العمل تكون جسيمة، فبمقتضى الأحوال المسعدة لهم يستخدمون من الخدم والحشم من يليق بهم تقليدا لكبار أرباب الأملاك وأغنياء التجار، فيتعيش فى جانبهم أناس كما تعيشوا فى جانب غيرهم، فقد عادت منهم المنفعة على غيرهم كما عادت عليهم من منفعة أعمالهم فى خدمة غيرهم، وهؤلاء الأشخاص أصحاب النعمة الجديدة قد تعود المنافع منهم على أناس أخر كأرباب حرف الأفراح والأتراح والمستحقين للإعانات، فيتعين منهم طوائف كثيرة من أرباب الأعمال غير المنتجة، وكذلك هؤلاء العملة المنتجون تنتفع منهم الحكومة بدفع العوائد التى هى فى الغالب يتحصل منها جزء عظيم يساعد على احتياجات الحكومة لصيانة البلاد والعباد، ومع أن أرباب الدولة متقلدون بأشرف الأعمال الملكية، وهم أصحاب الأمر والنهى والنفوذ، فعمليتهم - كما قلنا - ولو أنها مهمة وأولية غير مالية، لا يباع منفوعها ولا يشرى، وإنما هو قطب رحى عموم الإنتاج.

وقد أسلفنا أن العمال المنتجين يأخذون عملهم من جزء الأرباح المعتبر رأس مال لتعيشهم، وأن العمال غير المنتجين يأخذون مرتباتهم من الأرباح الزائدة عن العمليات التشغيلية، ونقول هنا إن هذه الأرباح التى يتعيش منها صاحب المال والعمال غير المنتجين لا يمسها أحد منهم إلا بعد جعلها فى حركة التدبيرات التامة لإنتاجها وتربيحها، يعنى أنها لا بد من ترويجها وتشغيلها على الطريقة السابقة فى السنين السابقة لتكون مضمونة، فبهذا ينبغى أن تكون أجرة العامل مستحصلا عليها بالتمام فى مقابلة عمله، وأن يكون استحقاقها بجميعها بعد العمل ولا يتصرف فى أدنى شىء منها بعمل غير منتج حتى لا تضيع هباء منثورا، فإذا صرف حينئذ منها شيئا لا يكون إلا يسيرا لمقتضيات الأحوال الضرورية، بل ينبغى أن لا يصرف إلا مما دبره ووفره من أزمنة سابقة، لا سيما إن كان ما دبره له إيراد وتربيح فإنه يكفيه لمصارفه، وطريقة الوفر عند أرباب الأعمال والصناعات المنتجة سهلة

جـدا لمواظبـتـهم غـالبـا على ذلك، ولذلك تجـد فى تعـاديل «فـردة»[1] الرؤوس والعـوائد أن عـوائد كل واحـد منهم بقـدر مـيسـرته وعلى حـسـب كـميـات وفـره واقتصاده.

ومن هذا كله يفـهم أن مـحـصـولات الأراضى وأرباح رؤوس الأمـوال مـوردان أصليـان يتعيش منهمـا أرباب الأعمـال غير المنتجة، وأن الوفر والتدبير يليق ويتأتى كل منهـما لأهل الفـلاحة والتجارة، وأن طائفة الزارعين والتجار يمكنهم على حد سواء تعييش العـمال المنتجين وغير المنتجين، بل تعييش غير المنتجين من ربح أهل الزراعة والصناعة أكثر لجسامة ما يعود على الحكومة منهم، وهو أيضا أحق وأولى لعموم منفعته وتنقله من أيادى أهل الحكومة إلى حاجة أناس كثيرين، فإن مرتبات الأمير مثلا يتعيش منها غالبا أناس كثيرون من العلماء والصلحاء والفقراء والخدم والحشم، وفاقـا لقوله صلى الله عليه وسلم: «ما عظمت نعمة الله على عبد إلا عظمت مـؤنة الناس عليـه فـمن لم يتـحـمل تلك المؤنة فـقـد عـرض تلك النعـمـة للزوال». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العباد، يقرهم فيها ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم وحولها إلى غيرهم». ومن الأمراء جم غفير يتعلق الناس بأذيالهم، ويتعيش من فضول أموالهم كثير من أرباب البطالة والفراغ أكثر ممن يتعيش من أرباب الفلاحة، لأن أرباب الفلاحة لا يتعيش منهم غالبا إلا العمال أرباب الصناعة المنتجة، ومع أن العادة تقضى بأن أغنياء التجار يستعملون رؤوس أموالهم ليتعيش منها أناس كثيرون من أرباب الأعمال الشاقة، كالأسفار ونحوها، فهم فى ذلك كأرباب الزراعة يبحثون عن الربح والفائدة، إلا أن أرباحهم يتعيش منها عادة كثير من الخدم والحشم وأرباب الحرف غير المنتجة، فهم من هذا الوجه كالأمراء يعيش فى جانبهم خلق كثير بدون تربيح للمصرف من أرباحهم، فقد حازوا فضيلتى الفلاحين والأمراء.

وهذا كله إذا اعتبرنا أن الأمراء وأصحاب المناصب الملكية وغيرها لا يتشبثون

---

(١) بمعنى ضريبة، ويغلب عليها أن تكون موضوعة ظلما بمعنى «الإتاوة».

بالزراعة والتجارة، وإلا فأكثرهم فى البلاد الزراعية أو التجارية بأسوة كبار الأهالى، فلهم الدوائر العظيمة الرابحة والأملاك الاستغلالية، فهم بهذا المعنى داخلون فى عصابة أهل الفلاحة والتجارة ومتعيش فى دوائرهم كثير من الناس، يعنى من العمال المنتجين وغير المنتجين، وأيضا ما يرد لهؤلاء من المرتبات المنصرفة من طرف الأعمال المنتجة يصرفون أكثر منه على الوظائف غير المنتجة، فى نظير عوائد أملاكهم، فيرد إليهم من الخزائن الملوكية مقادير مالية على قدر استعدادهم وأهمية مناصبهم، ويصدر منهم أيضا إلى تلك الخزائن مبالغ كثيرة أو قليلة على قدر أراضيهم وما عليها من العوائد.

وبالجملة فالكلام على الإنتاج وعدمه ومصادر الأموال ومواردها إنما هو بالنظر للحيثيات، فقد يجتمع فى الأمير مثلا أن يكون أيضا له زيادة عن مزية إمارته، مزية الزراعة والتجارة لرأس مال إيراده، فيكون جامعا للمنافع العمومية، ويكون منتجا من جهة وغير منتج من جهة أخرى. والله يرزق من يشاء بغير حساب.

ثم إن الأعمال بنوعيها: منتجة، وغير منتجة، ممدوحة مطلقا لما فيها من السعى، كما أن البطالة مذمومة عند جميع الأمم، شرعا وعقلا. فلنذكر ما قيل فى مدح العمل وذم البطالة فى الفصل الرابع من هذا الباب.

الفصل الرابع

(فى مدح السعى والعمل، وذم البطالة والكسل)

قد أسفلنا أن الأعمال هى أسباب السعادة والثروة ومنبع الأموال والغنى، فالأرض الزراعية إنما هى مورد للأعمال مساعد، وأن الأرض المخصبة بدون العمل لا تنتج شيئا، والأرض المجدبة بكثرة العمل تخصب وتنتج النتائج الجمَّة، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أفضل العمل أدومه وإن قل»، وفى (التوراة) حرك يدك أفتح لك باب الرزق. وقد كان الأنبياء والسلف الصالح يعيشون من كسب أيديهم، ويحترفون، فقد قال الله تعالى فى حق داود، عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ (الأنبياء: ٨٠) أى عمل الدروع من الحديد، فقد علمه الله تعالى صنعة الحديد فصار يحكم منها الدروع، فاستعان بها على أمره، واشتغل صلى الله عليه وسلم، قبل النبوة، بالتجارة بالشام للسيدة خديجة، رضى الله عنها، وبعد النبوة كانت حرفته، صلى الله عليه وسلم، الجهاد، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «جعل رزقى تحت ظل رمحى»، وقال: «إن الله يحب العبد المحترف، ويبغض الصحيح الفارغ»، وقال صلى الله عليه وسلم: «من بات كالا فى طلب الحلال أصبح مغفورا له»، والكال فى طلب الحلال الذى يتعب نفسه فى العمل لكسبه، وقال عمر، رضى الله عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وقال رضى الله عنه: إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عينى!.

وكان إبراهيم بن أدهم[1] على ورعه يسعى ويرعى، ويعمل بالكراء، ويحفظ البساتين والمزارع، ويحصد بالنهار ويؤدى الفرائض بالنهار ويصلى النوافل بالليل، وكان أغلب الملوك والسلاطين على قدم الأنبياء والأصفياء يتخذون لهم صنائع يتكسبون بها وينفقون منها، توخيا للإنفاق من الحلال، وتنزها عن الأخذ من بيت المال. وقال سعيد بن المسيب[2]، رحمه الله: لا خير فيمن لا يجمع المال من حله، يخرج منه حقه، ويصون به عرضه. قال الشاعر:

ولا تجمع الأموال إلا لبذلها ... كما لا يساق الدر إلا إلى النحر

وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه فى قوله عز وجل: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ (هود: ٥٢) أى مالا إلى مالكم، فلا مجد إلا بالمال، والآمال متعلقة بالأموال. قال الشاعر:

كل النداء إذا ناديت يخذلنى ... إلا ندائى إذا ناديت يا مالى

والمال أصل السؤدد والرياسة، إذ به تستجمع أسبابهما، وقد انقاد الناس قديما وحديثا للغنى، لأن القلوب لا تستمال إلا بالمال، قال ابن المعتز[3]:

إذا كنت ذا ثروة من غنى ... فأنت المسود فى العالم

وحسبك من نسب صورة ... تخبر أنك من آدم

ولما وصل المعز تميم بن سعد بن منصور العبيدى[4] إلى الديار المصرية، بعدما وصل غلامه القائد جوهر، وملك مصر واختط القاهرة، وكان العبيديون ينتسبون إلى فاطمة، رضى الله تعالى عنها، خرج الناس إلى لقائه، واجتمع به الأشراف،

---

(١) ابراهيم بن أدهم البلخي (المتوفى سنة ٧٧٧م) وهو من أوائل من أطلق عليهم لفظ «صوفي»، وهناك شبه بين الأسطورة التي تحكي تصوفه وبين قصة «بوذا».

(٢) أحد سبعة من التابعين انتهت إليهم الرياسة، بالمدينة، في الفقه والفتيا والقضاء. انظر ترجمته في [الطبقات الكبرى] لابن سعد، ج٢ قسم ٢ص ١٢٨ - ١٣٢ . طبعة القاهرة.

(٣) عبد الله بن محمد بن الخليفة المعتز بالله (٨٦١-٩٠٩م) اشتهر كشاعر وبلاغي، ولقد تولى الحكم يوما واحدا في انقلاب ضد الخليفة المقتدر، ثم فشل الانقلاب.

(٤) (٩٣١ - ٩٧٥ م) أول خليفة فاطمي يدخل مصر، وكان ذلك سنة ٩٦٩م.

فقال له من بينهم ميندم بن عبد الله بن طباطبا العلوى : إلى من ينتسب مولانا؟ فقال لهم : سنعقد لكم مجلسا ونسرد لكم نسبا ، فلما استقر فى قصره جمع الناس فى مجلس عام ونثر عليهم الدنانير والدراهم حتى عمهم ، وقال : هذا حسبى ، ثم سل نصف سيفه ، وقال : وهذا نسبى ، فقالوا جميعا : سمعنا وأطعنا .

إذا كنت فى حاجة مرسلا ... وأنت بها هائم مغرم

فارسل حكيما ولا توصه ... وذاك الحكيم هو الدرهم

وقال آخر

ذاكرته عهد الوصال فقال لى ... كم ذا تطيل من الكلام المؤلم

لما رأى الدينار أنشد قائلا ... أين المفر من القضاء المبرم

وقيل : درهمك وسيفك ، فازرع بهذا فيمن شكرك ، واحصد بهذا فيمن كفرك .

قال الشاعر :

لم أر شيئا صادقا نفعه ... للمرء كالدرهم والسيف

يقضى له الدرهم حاجاته ... والسيف يحميه من الحيف

وقال آخر

ذرينى للغنى أسعى فإنى ... رأيت الناس شرهم الفقير

وأهونهم وأحقرهم عليهم ... وإن أمسى له حسب وخير

يباعده الخليل وتزدريه ... حليلته وينهره الصغير

ومن بلغ الغنى وله جلال ... يكاد فؤاد صاحبه يطير

قليل ذنبه والذنب جم ... ولكن الغنى رب غفور

قيل لميمون بن مهران : إن فينا أقواما يقولون : نجلس فى بيوتنا وتأتينا أرزاقنا ، فقال : هؤلاء حمقى ، إن كان لهم يقين مثل يقين إبراهيم ، خليل الرحمن ، فليفعلوا .

لقد هاج الفراغ عليك شغلا ... وأسباب البلاء من الفراغ

وسئل الإمام أحمد بن حنبل[1]، رضى الله عنه: ما تقول فى رجل قعد فى بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئا حتى يأتينى رزق؟ قال: هذا رجل جهل العلم، أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم: «جعل رزقى تحت ظل رمحى»، يعنى الغنائم؟.

نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضى

وقيل: غبار العمل خير من زعفران البطالة، قال الشاعر:

قصر الناس بى ولو كنت ذا ما ... ل جلبت الجميع بالمال حولى

ولقالوا أنت الكريم علينا ... وتخطوا إلى هواى وميلى

ولكلت المعروف كيلا مليئا ... يعجز الناس أن يكيلو ككيلى

وقال غيره:

خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ... إن الجلوس مع العيال قبيح

فالمال فيه مجلة ومهابة ... والفقر فيه مذلة وفضوح

(غيره)

فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى ... ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

ولم أر زين المال إلا متهانه ... ومنفذه فى أوجه الحمد والأجر

وكان أبو بكر، رضى الله تعالى عنه، إذا خرج فى تجارته أخذ بضائع لضعفاء قريش فيبيعها لهم ويشترى ولا يكلفهم شيئا.

ليس التقى بمتق لإلهه ... حتى يطيب شرابه وطعامه

---

(١) (٧٨٠-٨٨٥م) صاحب المذهب الفقهي المشهور. وهو المقدم عند أصحاب الظاهر وأهل الحديث، لعزوفه عن التأويل واعتماده على النقل.

ويطيب ما يجنى ويكسب أهله ... ويطيب من لغط الحديث كلامه

وحسب ترك العمل ذما أن النبى صلى الله عليه وسلم استعاذ من الكسل. وقال على، رضى الله عنه: خلق التوانى والكسل فزوجوهما فنتج من بينهما الفاقة. وقال رضى الله عنه: الحركة ولود، والسكون عاقر، ولا ينشأ عن البطالة إلا المفسدة، فعلى المرء أن يشغل النفس التى هى عين فارغة بما يصلحه وإلا شغلته بما يفسده. ولذلك قيل: الحركة بركة، والتوانى هلكة، وكلب طائف خير من أسد رابض، ومن لم يحترف لم يعتلف، ومن شمر طالبا جاء إلى بيته جالبا، قال الشاعر:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل خافقة سكون

إذا درت نياقك فاحتلبها ... فما تدرى الفصيل لمن يكون

إذا ملكت يراك فلا تقصر ... فإن الدهر عادته يخون

والجملة فالأمل مغناطيس العمل، وخير الأمل انتظار الحمد والشكر، وحب الفخار ودوام الذّكر، ولولا ذلك لما كان اجتهاد ولا استنباط، ولا كسب ارتفاع غب انحطاط، ولا اختراع مخترع ولا ابتداع مبتدع، فهل يحسن بالعاقل أن يعمل فكره إلا فيما يخلد ذكره؟.

نفث على الخيرات أهل العلا ... فإنما الدنيا أحاديث

فقد تولع العقلاء، على اختلافهم، بإمعان الأنظار وإعمال الأفكار فى أمور يظهر للعامة أنها حقيرة، وهى عند أذكياء الخاصة خطيرة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا ... فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

فمن اخترع حكمة بذكائه وفكره، كانت سببا لبقاء ذكره، ومن هذا القبيل أردشير بن بابك[1]، وهو أول ملوك الفرس الأخيرة، فإنه أول من وضع النرد وضربها مثلا للقضاء والقدر، وأن الإنسان ليس له تصرف فى نفسه، لا يملك

---

(١) ويسمى أردشير الأول (أرتجزرسيس) (توفي سنة ٢٤٠م) ويعد مؤسس الدولة الساسانية في فارس.

لها ضرا ولا نفعا، بل هو مصرف على حكم القضاء والقدر، معرض للنفع والضرر، ووضعها على مثال الدنيا وأهلها، ورتب الرقعة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة، وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر، والدرج التى تكون لكل برج، وجعلها مثلا للحظ الذى يناله العاجز بما يجرى له الفلك، والحرمان الذى يبتلى به الحازم بما جرى به عليه الفلك، وتوصل إلى إيصال تلك العقول بفصين أنزلهما منزلة الليل والنهار، وجعل لكل فص ستة أوجه كجهات الإنسان: فوق، وأسفل، ووراء، وأمام، ويمين، وشمال، يشير إلى أن الإنسان لا يعلم من أين يأتيه الخير ولا الشر، وأشار فى تقلبها إلى تقلب القدر بالإنسان، فيكون مشروفا ثم يصير شريفا، ويكون فقيرا ثم يصير غنيا، وبالعكس إلى ما لا نهاية له من التقلبات.

الناس مثل زمانهم حذو المثال على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك فى تقلبه وحاله

ولما افتخر الفرس بوضع النرد، وكان ملك الهند يؤمئذ «بلهيث» وضع له الحكيم المسمى «صصة» الشطرنج، وجعلها مثلا على أن لا قدر وأن الإنسان قادر بسعيه واجتهاده أن يبلغ المراتب العلية، فإن هو أهملها أصاره الخمول إلى الحضيض، ومما جعله دليلا على ذلك أن «البيذق» ينال بحركته وسعيه منزلة «الفرزان» فى الرياسة، وجعلها مصورة تماثيل على صورة الناطق والصامت، وجعلها درجات ومراتب، ومثل الشاه بالمدبر الرئيس، وكذلك ما يليها من القطع، وبين لأهل فارس ما خفى عنهم من مكايد الحروب، وكيفية ظفر الغالب وخذلان المغلوب، فظهر للملك مكنون سرها، فقال له: اقترح ما تشتهى؟ فقال: أشتهى أن تضع حبة بر فى البيت الأول واثنتين فى البيت الثانى ولا تزال تضعفها إلى آخر البيوت، وما بلغ تعطينى إياه، فاستخف الملك عقله، واستقل طلبه، وقال: كنت أظن رجاحة عقله وأنك تطلب شيئا نفيسا، فقال: أيها الملك، إنك لما صرفتنى إلى التمنى لم يخطر ببالى غير ذلك، ولا سبيل إلى الرجوع عنه، فأنعم له الملك بما سأل، وأمر الحُسّاب أن يحسبوا ذلك فلم يجدوا ما يفى للحكيم

بمراده، وقد أحصى ما طلبه فوجدوه ألوف مكررا تكريرا جسيما لا تفى به أشوان(*) الملك، فاختراع الشطرنج حكمة جليلة تخلدت فى جميع البلدان، وأقامت على شدة ذكاء مبتدعها البرهان.

وأجلّ من هذا المستخرج للشطرنج من استخرج فن الطب ودوَّنه وهو الحكيم «اسقلبينوس»[1] - بباء موحدة تحتية بعد اللام، خلافا لمن جعله بالنون - وهو من أهل اليونان، وبعضهم يقول إن المستخرج للطب أهل مصر، وأن المستخرج له «هرمس»[2] المستخرج لسائر الصنائع، وقيل المستخرج له المصريون غير «هرمس» بإلهام من الله تعالى لجماعة، ثم ازداد الأمر فى ذلك بكثرة التجاريب وقوى، وصار علما واسعا، واحتج القائلون بذلك بأن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم، مبتلاة بالغيظ والنكد، ومع ذلك كانت ضعيفة المعدة، وصدرها مملوء أخلاطا رديئة، وكان حيضها محتبسا، فاتفق أنها أكلت عشبا مرارا كثيرة بشهوة منها له، فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت إلى صحتها، وجميع من كان به شيء مثل ما كان بها واستعمله برئ به، فاستعمل الناس التجربة على سائر الأشياء، فالذى جمع هذه التجربات(**) ودونها بمصر هو الواضع له سواء كان «هرمس» أو غيره، ولا مانع أن يكون هذا العلم مما تعدد واضعه ببلاد الدنيا، حيث إن التجربة قد تعددت فيه، وإن أقوى التجاريب(***) وأكثرها تجاريب «إسقلبينوس»، وتلقاها عنه الحكماء الذين جاءوا بعده فى الزمن فعدوا أيضا من الواضعين له.

---

(١) هو الطبيب الإغريقي الأسطوري «أسليبيوس»، جعلوه إلها للطب، وعبدوه، والذين اتبعوا تعاليمه، أو زعموا أنهم من نسله يسمو «الإسكليبيين». وهناك من أطباء الإغريق القدامى «أسكليبيادس البيثيني» (١٢٤ - ٤٠ ق.م) وهو المؤسس لمدرسة روما الطبية.

(٢) شخصية أسطورية، تعظمها الصابئة، ويقولون عنه إنه نبي مرسل، وإنه إدريس عليه السلام، ويقول أبو معشر البلخي: إنه أول من تكلم في المسائل العلوية. انظر ص ١٢٦ من [شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون] لابن نباته. طبعة القاهرة.

(*) المقصود (شوَن) جمع شونة، والشَّوْنَة: مخزن الغلة. (الشروق).

(**) أى تجارب. (الشروق).

(***) أى تجارب. (الشروق).

وقال بعضهم: إن الله سبحانه وتعالى خلق صناعة الطب وألهمها الناس، واحتج أهل هذا القول بأنه لا يمكن فى مثل هذا العلم الجليل أن يدركه عقل الإنسان، فالواضع الله الذى خلق الداء والدواء، وهذا القول أيضا يرجع إلى الوحى والإلهام، وينبغى أن يكون الطب النبوى من ذلك باتفاق، لمصداق آية ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (النجم: ٣). وبالجملة فوضع الطب عظيم، وتدوينه جسيم، وفضل التأليف فيه عميم، ولا يستكشف شيئا من منافعه إلا ذو لب سليم.

ومن فروعه الفرع الذى حفظ أطفال النوع البشرى من الآفات والمهالك، وهو فن تلقيح الجدرى بالمادة البقرية، حيث انتشر فى المسالك والممالك، وفضل استكشافه لحكماء الإفرنجة المتأخرين، وإن كان معلوما قبل ذلك لبعض قرى مصر وقرى السودان وعند الهنديين، ولهم فيه طريقة يعملونها بالخيط والإبرة بتلويث الخيط فى بثرات أثداء البقرة ويغرزونها بين الجلد واللحم من كتفى الطفل، ويبقى الخيط فى الأكتاف، وهى من أعظم الألطاف.

فالوضع الأولى فى سائر العلوم هو تصور قواعد أولية ابتكارية، لا تزال تأخذ فى الزيادة والاستكمال، ويتفرع منها فروع تتسع على مدى الأيام والليال، فيكون للعلم بهذا المعنى عدة من الواضعين، وجملة من الأفاضل الموسعين، كالإمام على، رضى الله تعالى عنه، فإنه قيد الألسنة بعلم النحو، حيث أملى على أبى الأسود الدئلى[1] إقسام الكلام، وقال له: تتبعه وزد فيه ما وقع لك مما يلائم المقام لتمحوا بذلك من اللحن ما خالط اللسان العربى، مما اللسان العربى، مما كاد يفسد من رطانة الأعجام. فوضع أبو الأسود الدئلى قواعد النحو التى فهمها له، ثم جاء بعد أبى الأسود سيبويه[2] فوضع كتابه الذى كل من جاء بعده منه يغترف، وبتقدمه عليه يعترف، وإذا أطلق فى عرف النحاة لفظ

---

(١) أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو (٦٠٥-٦٨٨م) لغوي وشاعر، كان علويا، حارب مع علي بن أبي طالب ضد الأمويين وضد الخوارج.

(٢) عمر بن عثمان (المتوفي سنة ٧٩٦م) إمام نحاة البصرة، وأشهر أئمة هذا الفن على الإطلاق.

('الكتاب) فإليه ينصرف، ووضع الخليل بن أحمد[1] علم العروض، وجعله ميزانا للشعر، وصاغ له من التفاعيل أجزاء ثمانية صيرها لوزنه كالمثاقيل، وها هى أنوار تلك العلوم النافعة على جميع آفاق الدنيا ساطعة، وهى ثمرات الأعمال الصادرة عن الإبدال.

ومن الحكم: من طلب جلب، ومكن جال نال، ومن جسر أيسر، ومن هاب خاب فقد فاز بالدرغائصه، وحاز للصيد قانصه، والجراءة من أسباب الظفر وغلبة الأقران، والشجاع يعرف بالإقدام ولو على الضرغام، وبضده الجبان والمتوانى الكسلان، ولا سيما الشاب القليل الحيلة، والملازم للحيلة، والمقتنع بالرذيلة، و'الراضى بالحشف وسوء الكيلة، فمن دام كسله خاب أمله، ويقال: الخيبة نتيجة مقدمتين: الكسل، والفشل، وثمرة شجرتين: الضجر، والملل، ويقال: إن الحرمان شعاره الكسل، ودثاره التسويف والعلل، قال بعضهم:

لا تصحب الكسلان فى حالاته　　　كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الجليد سريعة　　　والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

وقال بعضهم، فى الرد على من قال: الكسل أحلى من العسل:

ليس البطالة والكسل　　　بالجالبين لك العسل

فاعمل فإن الله قد　　　حث المطيع على العمل

وفى كتب الادارة: آخر طبقات الرعية طبقة البطلة[2] الغوغاء، وهم مما ينبغى أن لا يرحمهم الملك، لأنهم يغلون الطعام، ويضيقون الطرق، لا سيما إن كانوا من الفسقة، فهم أظلم الناس، يأكلون رزق الله ولا يعملون لله، فلا يصلحون للدنيا ولا للآخرة، وكل أحد سواهم يعمل لنفسه، وهم لا ينظرون لأنفسهم ولا يعملون

---

(١) (٧١٨ـ٧٩١م) لغوي وموسيقى، وهو أستاذ سيبويه، وصاحب أول معجم في اللغة العربية سماه (كتاب العين).

(٢) أي المتبطلين غير العاملين.

لدنياهم ولا عقابهم، فمثل هؤلاء يسوغ للملك أن يخرجهم من البلد إن رأى المصلحة فى ذلك أو يجعلهم مستعدين لنائبة أو حادثة يعملون فيه، بخلاف طبقة العمال المحترفين فعلى الملك أن يشوقهم بالعطايا وشمول النظر والمسامحة حتى يتسابقوا إلى الحرف البلدية، كما أنه ينبغى للملك أن يتلطف بأصحاب العاهات كالعميان والمجذومين، فإن منادى الشرع يقول: إذا رأيتم أهل البلايا فاسئلوا الله العافية. فيجرى عليهم قدر كفايتهم، ويعين لهم موضوعا على طرف البلدة لمصلحة الجميع.

[المصريون والعمل]

وقدماء المصريين من الأزمان الخالية والقرون البالية يعانون الأعمال العجيبة، ويجتهدون فى إنجاز الأشغال الغريبة، كالأهرام والمسلات العظيمة، والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمة، فبهذا كانوا ينفرون من الفتور والكسل كمال النفور، ويشخصون الكسل ويجعلونه على صورة بشعة توضع فى الميادين العامة لتكون عبرة لأهل المرور والعبور، فيصورون الكسلان بهيئة شخص مقع إقعاء الكلاب، عليه هيئة الحزن والاكتئاب، مطأطئا الرأس إلى الأرض، مجمع اليدين بعضهما مع بعض، وبجانبه قضبان مكسورة تفيد هجره للأشغال ونفوره، وتارة يصورنه على صورة امرأة مطلوقة الساعدين، شعثاء غبراء، ذات أطمار رثة، مسطوحة على الأرض، متوسدة أحد(*) ذراعيها، وبيد الذراع الآخر مناكب مملوء من الرمل ومقلوب تستدل به على ما مضى من النهار من الساعات والدقائق. ولها عند المصريين رسم آخر فيما غبر من الزمان، وهى رسم الكسل على هيئة امرأة عليها علامة البطء والتوان، كأنها تروم أن تتبختر فى سيرها الممقوت، وتجر ثوبا من نسج العنكبوت، متكئة على أريكة المجاعة والمخمصة، تمضى جميع أوقاتها فى الدعة والاستراحة المتقنصة، ففى عنفوان شبابها واخضرار وغض عود إهابها لا

(*) يقتضيها السياق. (الشروق).

تميل إلى حركة ولا تعطف على بركة، وفى زمن الكهولة والهرم ترقد على فراش العدم والندم، يشيرون بذلك إلى أن الكسلان، لعجزه دائما حزين إذا لم يفعل شيئا لمعاشه، ويزيد حزنه وأسفه إذا احتاج إلى تحصيل شيء لم يقدر على تحصيله. ويقال: مزرعة الكسلان كثيرة الشوك والسعدان، تزدحم عليها الحشائش الطفيلية والأعشاب الفضولية، فلا يتحصل له منها ما يفى بالقوت، فيسطو على جيرانه ليكون كلا عليهم أو يتصف بوصف لص ممقوت، قال بعضهم:

يا نفس ذوقى لذة العمل ... وواظبى العدل والإحسان فى مهل

فكل ذى عمل بالخير مغتبط ... وفى بلاء وشؤم كل ذى كسل

وقال آخر

دعى نفسى التكاسل والتوانى ... وإلا فالبسى ثوب الهوان

فلم أر للكسالى الحظ يجنى ... ثمارا غير حرمان الأمانى

وقيل:

وكم حياء وكم عجز وكم ندم ... جم تولد للإنسان من كسل

وما ألطف ما قيل فى الإثارة لمن يؤثر الغناء الممدود على الغنى المقصور:

قال لى اللاحى أما حان أن ... تترك لوما متعبا قلت حان

قال فهل قلبك حان على ... من بتّ مشغوفا به قلت حان

قال فمحبوبك فى قتل من يهواه حـ ... ـان قوسه قلت حان

قال فقل لى ما الذى تشتهى ... حان غناء أو غنى قلت حان

- مع ما فيه من محسنات الجناس التام والمراجعة - فصفة الكسل مثابة خبيثة، بل هى أم الخبائث، فهى تحمل صاحبها على عدم إعمال الفكر والبدن، وبعض الفضلاء يزدرى أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة التى يشتريها أهلها ليصلوا بها إلى درجات العظمة والكبرياء ليستروا بها كسلهم حتى لا يتبين للناس

أنهم أرباب بطالة، والأفاضل يعدون ذلك من النذالة والسفالة، فإن فضل الكسلان يدفن معه بدون أن تعود منه على نفسه أو غيره أدنى منفعة.

وقد أشار إلى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه الفرنساوى فى حكاية على لسان العجماوات جعلها مكالمة بين الصرصار والنملة وترجمها بعض الأفندية فقال:

حكاية موضوعها صرصار	أودى به الجوع والاضطرار
وكان قضى الصيف فى الغناء	وما سعى فى ذخرة الشتاء
وحين جاء زمن الثلوج	ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مؤونة	فراح يوما يطلب المعونة
وقال للنملة أنت جارتى	ما لى سواك فى قضاء حاجتى
هل تصنعين معى المعروفا	لا ذقت من دهر الردى صروفا
وتقرضينى صواعا غلة	وطبقا ومشردا وحلة
فإن أتى الصيف فقبل الصبح	أردها عليك غير الربح
قالت له النملة وهى تجرى	عذرك يا مسكين مثل عذرى
ماذا فعلت فى حصيد قد مضى	قال لها كان زمان وانقضى
قالت وما ادخرت فيه للشتا	قال لها مستهزئا منكتا
كنت أغنى للحمير القمص	قالت له يا صاحبى الآن ارقص
واعلم بأن السعى فى الذخيرة	يسعد كل خلة وحيرة
والدرهم الأبيض وهو فى يدى	ينفعنى لدى النهار الأسود

ومع ميل طباع عامة الناس إلى التكاسل والفتور، فقد تجبر الأحوال والأوقات العصرية على حركة العمل حتى تصير طبيعية، وينتج عنها تقدم الجمعيات، فمن

هذا لا تيأس ملة من الملل ولا دولة من الدول من أن تأخذ حظها من براعة العمل، لا سيما إذا كان لها فيه سابقة نصيب وافر، كديار مصر التى سبقت جميع الأمم بالمآثر الغريبة، وكباقى الدول الإسلامية التى جددت فيما سلف أنواع المعارف البشرية، والمنافع العمومية، والتقدمات المدنية، ومن آثارها استنارت أرجاء جميع ممالك الدنيا، ثم تنقلت مزاياها إلى غيرها، وتكاملت المزايا فى ذلك الغير، حتى أراد الله سبحانه وتعالى أن أنوار المعارف الفرعية انتشرت فى هذا العصر على آفاق أصولها باجتهاد المجتهدين، واهتداء المهتدين واقتداء المقتدين، والحصول على ما عجز عنه سائر السلف المتقدمين، كما يفصح عن ذلك ما سطره بعض أهل الإنشا، حيث بين أسباب ذلك فيما طرز ووشى، إذ قال: «إن عصرنا هذا نشاهد فيه للناس بالتدريج آثارا عجيبة، وهذا دليل على أن التأثيرات الطبيعية فى قبضة التصرفات الإنسانية، لأن الطبيعة هى الحاكمة للإنسان بل هى المذللة إليه، ومن هذا يظهر أن هذا العصر مبدأ للتقدمات التى تكون فى المستقبل، فاستعمال القوة البخارية برا وبحرا سهلت الأسفار والسياحات، وفوائد سرعة المخابرات التلغرافية غنية عن البيان، إذ بتلك القوة كان الإنسان قادرا على تنجيز أشغاله الخاصة به، والاستحصال على اجتماع الأفكار ومبادلة المحصولات، وذلك كرأس مال يترقى شيئا فشيئا ويعم أطراف الدنيا، حتى إنه فى مدة يسيرة تلتئم الجمعيات البشرية، وتزول الاختلافات الكلية، ويسلك بعض الناس مع بعض بكمال الوفاق على وفق ما يقتضيه الأخوة الموافق للعقل والحكمة، المرضى لرب العزة، وتأخذ فى العمران الأراضى الخالية، وتصير معادن للخيرات ومنابع للثروات، وقد بلغنا أن السياح الإنكليزى (سير ساموىل بيكر)[1] الشهير بالسياحة فى القطعة الإفريقية عين مأمور الكشف على أقطارها المجهولة، والوقوف على حالها، وبمعيته من يلزم، ليتوجهوا من طريق النيل ويرشدوا من فيها بالإرشادات اللازمة. ثم المقرب للمسافات فى هذا الأوان ثلاثة:

---

(١) سير صمويل هوايت، بيكر (١٨٢١-١٨٩٣م) رحالة بريطاني، عمل ضابطا بالجيش المصري برتبة فريق.

الأول: قنال السويس، المشرف على التمام، الفاصل بين قطعتى آسيا وإفريقية، فإنهما بذلك تتصلان وتسهل تجارتهما وتجارة أوربا بعد ما كان يتجشم فى ذلك الطواف من رأس العشم[1]، فبفتح القنال تنقص مسافة البحر الأبيض نحو الثلثين، ولقرب قطعة[2] آسيا منه عن غيرها من الممالك الأورباوية تزيد حصتها فى الفوائد عما سواها لا ريب، إذ أنها أحدثت طريقا جديدا إلى أوربا كان بابا عظيما للتجارة وثروة للخزينة، ووقع ذلك عند العالم الموقع، فيلزم المبادرة إلى إنشاء ذلك على الوجه المساعد لنا، فإن منفعة هذا تزيد عن العادة، ويجتمع منها رأس مال، وتتسارع الناس فى الاستحصال على الرخصة من الحكومة، فحينئذ لا ينبغى التأخر عن هذا، وإنما اللازم التأمينات الكافية لأجل منافع سكان المملكة والأسرع بمباشرة العمل.

الثانى: قنال «هوندوراس» وهو فتح برزخ «بناما»، المتوسط بين قطعتى أمريقا الجنوبية والشمالية، الذى أصله شق صغير شكلت لفتحه «قومبانية»[3] كبيرة، فإنه بواسطته تصير قطعتا أمريقا الجنوبية والشمالية جزيرتين عظيمتين، وتزول المشقة عن أصحاب السفن من بعد ما كانوا يسافرون من البحر المحيط الغربى المسمى بالأطلسى إلى الصين وليابونيا والجزائر الأقيانوسية، مع مكابدة أخطار الرياح العاصفة وطول المسافة، مارين من «رأس هورن» المشحون جميعه بالشعاب، وذلك لاضطرارهم، فإذن لا تلحقهم الآن تلك المشاق بواسطة ذلك القنال، وتكون مسافتهم على النصف فى بحر معتدل ساكن الهواء على خط الاستواء.

الثالث: سكة الحديد الجسيمة التى حان منها التمام بشمال قطعة أمريقا البالغة الآن مسافة امتدادها ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وعشرين ميلا، وهى فى أرض سهلة تامة المنفعة، مبتدأة من «نيورق» أكبر مدن أمريقا إلى المدينة «سان نسيسقو»

---

(١) أي رأس الرجاء.. والطهطاوي ترجم الرجاء بالعشم، أي الأمل؟!.

(٢) أي قارة.

(٣) شركة.

بولاية قاليفورنية[1] الشهيرة بمعادن الذهب، وكان قد رخص «لقومبانيتين» في إنشائها «لنقولن»[2] رئيس جمهورية أمريقا المتوفى حين محاربتها الداخلية سنة ١٨٦٢ ميلادية، وضرب لها ميعاد أربع عشرة سنة، فجدتا كل الجد فيها حتى أكملتاها قبل تمام نصف المدة، ومن بعد ذلك تقطع مسافة صحارى جهة أمريقا الشمالية فى ستة أيام، ولا يجهل محل فيها، ولا تعطل جهة من الزراعة وسائر الفوائد، وقد أنشأت هاتان «القومبانيتان» نحو ألفى عربية كالدور مشتملة على بيوت وأسرة من الحديد «ولو قندات» «وكتبخانات» وهى فى حال مرورها السريع يتدارك فيها من الطريق ظروف أوراق الحوادث التلغرافية المعلقة على الأعمدة الخشب وتطبع فى المطابع اللاتى فيها وتنشر على الركاب، وبهذا يكونون كأنهم فى مدن الممالك العظيمة فى الدنيا القديمة، وبما ذكر هانت أمور الأسفار، وتقاربت المسافات بين جميع الجهات، وتواصلت للجمعيات، وزالت الوحشات، واطلع الناس على ما لم يطلعوا عليه، ووصلوا إلى ما لم يصلوا من قبل إليه، فكان لا مانع من تواصل أمم البرية، ومن تسمية هذا العصر عصر المدنية». انتهى

ما قاله. فكل هذا أعان ويعين على تقدم وسائل المنافع العمومية الآتى تقسيمها فى الباب الثانى مع غاية البيان، وعلى ذكر الوابورات قلت هذه الأبيات:

العقل فى الوابور حار ... نبغى الجواب فلا يحير

فإذا أردت الاختيار ... علما به فاسأل خبير

فلك بأوج اللج دار ... ومن الحضيض له مدير

يجرى على عجل كبار ... فى رسم شكل مستدير

هو من عطارد لا يغار ... فكأنه الفلك الأسير

---

(١) خط حديد «نيويورك - سان فرانسيسكو» بولاية كاليفورنيا.

(٢) إبراهام لنكولن (١٨٠٩ - ١٨٦٥م) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، انتخب رئيسا للولايات المتحدة سنة ١٨٦٠م، ويعد رمزا للديمقراطية الأمريكية في عصره.

قد أورث الشمس اصفرار — لما علا منه الصفير

قمر منازله البحار — نجم السمالك له سمير

فى كفه الجوزا سوار — بهر الثريا إذ نشير

والمشترى حاز اليسار — فغدا بزهرته أسير

ملك له الوحى ائتمار — أبدا بأجنحة يطير

وبراق أسرى فى القفار — يطوى الفيافى إذ يسير

ملك على الأنهار سار — وعلى البحار له سرير

بالعز أكسبها الصغار — مع أنه جرم صغير

قد نال من كسرى اعتبار — لبخار عنبره عبير

خاقان هند خوف عار — ما هاله لهب السعير

بركان نار حيث ثار — فورا وصار له هدير

أو سائح يهوى السفار — لمصالح الدنيا سفير

أو عاشق سلب القرار — أو يحسد الطرف القرير

فى الحب قد خلع العذار — ودموع مقلته غدير

صب وفى الأحشاء نار — شوقا إلى القمر المنير

أو شاطر طلب الفرار — للأمن من أمر خطير

أو باز صيد قد أغار — مغرى على الظبى الغرير

أو ظبى قاع ذو نفار — يعدو إذا عم النفير

البرق سرعته استعار — والورق منه تستعير

ويرى الرياح بالاحتقار — فهبوبها معه حقير

طرف تسايره الدار ... ليلا فتخجل فى المسير

للليل يطوى والنهار ... وبه ازدهى الزمن الأخير

ما الفعل ينسب للبخار ... بل صنع خلاق قدير

بقنال مصر له منار ... يسمو بأنفاس الأمير

وبصيت إسماعيل طار ... فى الكون بالجود المطير

وبعد له لما أنار ... فى الأفق كالعلم الشهير

هذا عزيز ذو وقار ... ولمظهر العليا ظهير

وطويل باع فى العمار ... يمتاز بالعمل الكثير

للعدل قد شد الإزار ... توفيقه نعم الوزير

عش يا عزيز أخا انتصار ... ولمصر دم أقوى نصير

بالمجد كم شدت الجدار ... ولأنت بالعليا جدير

كاثر فكأس الأنس دار ... رب الخورتق والسدير

الباب الثانى

[فى تقسيم المنافع العمومية إلى ثلاث
مراتب أصلية، وهى :

حركات الزراعة،

والتجارة،

والصناعة .

وفيه فصول .]

الفصل الأول

فى تعريف المنافع العمومية
بالمعنى العرفى الصناعى
ومنه يفهم الانقسام إلى ما ذكر(١)

اعلم أن ما عبرنا عنه هنا بالمنافع العمومية يقال له فى اللغة الفرنساوية «أندوستريا»، يعنى التقدم فى البراعة والمهارة، ويعرف بأنه: فن به يستولى الإنسان على المادة الأولية التى خلقها الله تعالى لأجله، مما لا يمكن أن ينتفع بها على صورتها الأولية، فيجهزها بهيئات جديدة يستدعيها الانتفاع وتدعو إليها الحاجة، كتشغيل الصوف والقطن للباس الإنسان، وكبيعهما. فبهذا المعنى يقابل «الأوندستريا»، وتكون عبارة عن تقديم التجارة والصناعة، فيقال: الملك الفلانى يشوق الزراعة «والأوندستريا» أى التجارة والصناعة، يعنى يسعى فى تقديم المنافع العمومية. وتطلق بمعنى آخر أعلم من الأول، فتعرف بأنها: فن الأعمال والحركات المساعدة على تكثير الغنى والثروة، وتحصيل السعادة البشرية. فتعم التشغيلات الثلاثة الزراعية والتجارية والصناعية وتقديمها، فتكون مجمع فضائل المنافع العمومية، وكثرة التصرف والتوسيع فى دائرتها. ثم إن براعة المنافع العمومية بالمعنى العام متولدة من كون الإنسان له اختيار وميل إلى ما فيه نفعه، وإلى قضاء وطره، وإلى تحصيل حوائجه المعاشية، وأنه محل لهذه الفضائل.

---

(١) أي ما ذكر في تقسيم المنافع العمومية إلى: حركات الزراعة، والتجارة، والصناعة.

[الفضيلة]

وقد سبق فى (الفصل الأول) من (الباب الأول) بعض ما يتعلق بالفضيلة، ونقول هنا: إن الفضيلة صفة نفسية متمكنة فى نفس الإنسان، ينشأ عنها العمل الصالح، ويديمها ارتياح النفس إليها، فبها تصل النفس إلى أعلى درجات الكمال، وتستعد إلى الحصول على نيل المحمدة، فبهذا تكون أيضا مستعدة لفعل الخير العام للجميع، فحركة الفضيلة بهذا المعنى ليست حركة اختيار فليس صاحب الفضيلة من ينهمك بجميع حواسه على بذل كل همته فى المنفعة الأهلية، لأن وجود مثل هذا الإنسان فى الدنيا مستحيل، وإنما الفاضل هو من يكون هواه مائلا بحسب الإمكان إلى المنافع العمومية، واستحسانه لذلك، فبهذا يكون أقرب من درجة الكمال بقدر ما يلزم أن يتجنب بالفضيلة عن المثالب وارتكاب الدنايا.

ومن أركان الفضيلة الشجاعة، وقوة الجسم، والعقل، وهذه الصفات مهمة جدا فى الفضيلة، فهى الوسائل التى تلزم لحفظ الإنسان وتحسين حاله، لأن الشجاع يدفع الضيم عن نفسه، ويذب عن دمه وعرضه وحريته وملكه بقدر استطاعته، وبعمله وشغله يكتسب عيشته الهنية، ويتمتع باللذات المباحة، بالهدوء والطمأنينة، وتكون نفسه دائما متمتعة بالسلم والراحة، بعيدة عن الغضب والانتقام، فإذا أصيب بنكبة، ولم يمكن تداركها بحزمه وتبصره، تجلد عليها غاية التجلد والصبر، ولهذا عد أرباب الآداب القوة والشجاعة من أعظم الأركان.

ثم الفضيلة ثلاثة أقسام: شخصية، ومنزلية، وأهلية، فالفضائل الشخصية ما ينبغى أن يتصف بها كل إنسان لتكون وسيلة لحفظه، ومادة لصونه، ومنها ينتج حفظ العائلة والجمعية المركبة من أفراد الناس. والفضائل المنزلية هى سلوك الطريقة النافعة فى العمل لجمعية العائلة المعتبر إقامتها فى منزل واحد، كالاقتصاد فى المصارف، وبر الوالدين، وحسن العشرة مع الأزواج، وحسن تربية الأولاد، ومحبة الأخوة بعضهم لبعض، وأداء حقوق السيد لخادمه والخادم

لسيده، فجميع الفضائل الشخصية والمنزلية متلازمة ومتصادقة على حفظ النوع البشرى وتحسين حاله، وهى مخلوقة مع الإنسان من أصل الفطرة. والفضائل الأهلية المدنية متكاثرة بتكاثر منافع الجمعية المدنية، وراجعه إلى أصل واحد وهو العدل العمومى والإنصاف المشترك بين أعضاء الجمعية المستلزم جميع فضائل الجمعية.

ومن هذا يفهم أن الفضائل من حيث هى مقولة بالتواطؤ محدودة لا تقبل تغيرا ولا تبديلا، فالاقتصاد فضيلة محققة، إن حصل فيها الشطط قربت من البخل، والشجاعة إن تجاوزت حدها استحالت إلى المجازفة، والكرم أن تجاوز حده عاد إسرافا، والصبر إن زاد عن قانونه أضعف الشهامة، والحلم إذا اشتد صار جبنا، وإنما قد يعترى هذه الفضائل بعض تكيف على حسب مقتضيات الأحوال، فإن قول الصدق فى بعض الأوقات قد يكون مضرا، وتكون المداراة واجبة، وكذلك ينبغى مع فلان أن لا يصنع إلا العدل ومع إنسان آخر قد يكون العدل محض ضرر، وقد يكون الحلم فى هذا اليوم فضيلة ويكون فى غد مضرا، فمراعاة الأوقات والأحوال واجبة فى الجمعية التأنسية، ولله در القائل فى هذه المعانى:

العز ما خضعت لهيبته العدى	وأقام بالفكر الملوك وأقعدا
والمال ما وقاك ذما أو بنى	عاليك أو أبقى لقومك سؤددا
والجود ما وصلت به رحم وما	أوليت ذا أمل أعدك مقصدا
واللؤم إكرام اللئيم لأنه	كالذئب لم ير عدوة إلا عدا
فإذا ظفرت من العدو بفرصة	فافتك ففتك اليوم منجاة غدا
والحلم فى بعض المواطن ذلة	فاصفح وغالب واعجلن وتأبدا
ما كل حلم مصلح بل طالما	غر السفينة الحلم عنه فأفسدا
كل السيادة فى السخاء ولن ترى	ذا البخل يدعى فى العشيرة سيدا
لا تحسبن المجد رنة مطرب	وعناق غانية وبردا يرتدى

فالفضائل عليها مدار سلوك الجمعية التأنسية ونجاح أعمالها، وتنعيم أحوالها، وضدها يضر بتقدم الجمعية، فلا أضر على الجمعية من فساد الاخلاق، فأنه ينشأ عنه الكبر والدعوى وعدم الاستقامة، لأن الغنى المتكبر مثلا يذهل فى نشوة لذته عن أن المال خيال زائل، فيجسر ويجرأ بالتكبر على غيره، ويظن أنه بعيد عن صروف الدهر فيقع فيها، فالعاقل يقيد نعمته بقيد التواضع والانكسار، ويدبرها بقانون الفضيلة لتدوم، فبهذا يكون مستقيم الحال، حيث الاستقامة قوام الفضائل، وعليها مدارها، وهى معدل حركة النفس، وخلوص النية، التى تحسن بها الأعمال، فهى روابط جميع الفضائل المدنية، وعبارة عن حسن السلوك فى التعامل وأداء الحقوق للعباد بعضهم على بعض، فلا يشينها إلا هوى النفس، فالعقل يقمع الهوى ويصده، والخلق الحسن ينفر منه، والإنسان المتهاون بحقوق الجمعية المدنية لا يعتبر إلا عديم الاستقامة، وأنه لا يعرف ما يجب له وما يجب عليه فى حق الجمعية، فليست استقامة الإنسان إلا احترام حقوقه باحترام حقوق غيره، والحصول على منافعه بالوفاء بمنافع غيره، فإذا عرف هذا الحساب سهل عليه حسن المعاملة، فالاستقامة فى الإنسان علامة اتساع عقله واعتدال مزاجه، لأن المستقيم فى الغالب قد يفوت منفعة عاجلة بقصد أن لا يهدم منفعة آجله، وأما غير المستقيم فإنه قد تفوته المنفعة العظمى الآجلة بحرصه على منفعة هينة عاجلة.

فقد اتفقت الأخلاق والعوائد والشرائع والأحكام على أن مكارم الاخلاق منحصرة فى قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وأن هذا الحديث قاعدة عظيمة فى الدين، لأن الرجل الصالح المستقيم الحال لا يقتصر على الكف عن فعل الشر، بل يرى أن الحقوق الواجبة عليه فعل الخير والمعروف، فمن لم يصنع المعروف فى موضعه، مع التمكن منه، لا يعد صالحا، فالاستقامة تنهى عن الشر، والصلاح يأمر بالخير، والاستقامة تمدح والمعروف يعظم، والاستقامة عبارة عن عدم التعرض لفعل الشر، والمعروف العمد إلى فعل الخير، والمعروف يستحق الشكر عليه، وأما الاستقامة فقد لا يجب الشكر

عليها لكونها فضيلة قاصرة والمعروف فضيلة متعدية فهو من الأعمال التى عليها مدار الجمعية المدنية.

وكلما تقدمت براعة المنافع العمومية تقدمت الجمعية، واقتضى الحال ميل النفوس إلى التمتع بثمار المنافع الكاملة ودقائق المصنوعات الفاضلة، فالميل إلى التجمل والتزين ومواد الطنطنة والأبهة يتولد منه غنى جميع الأقاليم التشغيلية، لاتساع دوائر الأخذ والإعطاء، وكمال الحرية فى ذلك، فبهذا تتسع دوائر الزراعة والتجارة والصناعة باتساع الرخصة فى الأقاليم بالمعاونات والمساعدات من أرباب الحكومات المختلفة.

[منابع الثروة]

ولما كانت الدولة الإنكليزية قد أحست أن منبع ثروة أهاليها لا تنتج إلا من التجارة والصناعة، وأن كلا منهما يحتاج إلى الحرية التامة، وإلى الاستجلاب والتوزيع للبضائع المختلفة، واستحصال الأثمان، وتكثير أموال المملكة بتوزيعها بين الأهالى براحة جميعهم ليكونوا مشتركين فى السعادة المالية، فتحت هذه الدولة بلادا واسعة فى أقطار شاسعة فى الهند وبلاد أمريقا وجزائر البحر المحيط الأكبر، لتقديم صناعتهم وتجاراتهم بالأخذ والإعطاء، ليعود ذلك كله بالفوائد الجمة على أهالى مملكتهم بالأصالة وعلى غيرها بالتبعية، وكذلك غيرهم من ممالك أوربا كالإسبانيين والبرتغال والفرنساوية والفلمنك وغيرهم ويقال لهذه الحركة التقدمية «أندوستريا قولنية» يعنى تجارة خارجية.

ومن المعلوم أن فروع التجارة والصناعة والزراعة كثيرة متنوعة، بقدر ما فى الأقاليم والممالك من طبيعة أرضها وأهلها، فكل إقليم يوافقه بعض الفروع دون بعض، ويروج ما لا يروج فى غيره، فالمنافع العمومية على اختلافها مبنية على المعاوضات والمبادلات بما تقتضيه أصول حرية البلدان، ومدار حركتها على ثلاثة أشياء ضرورية:

الأول: هو المواد والأجزاء الواقع عليها التشغيل، كالقطن والصوف والحديد ونحوه من كل ما يصنع. **والثانى**: الآلات والأدوات التى يستعان بها على الصناعة، وهذان الشيئان تحصيلهما أصعب من **الثالث**: الذى هو عبارة عن أجرة الأعمال ومكافأة العمال، لأنه وإن كان فى العادة يدفع نقدا ويعطى عدا إلا أن المشغولات إذا كانت رائجة ناضة فأجرة العمل تعتبر صنفا، فلا مانع أن يعطى الأجير من عمله وشغله، لما قدمنا أن قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات لا سيما فى هذه الأوقات الأخيرة التى صارت فيها الزراعة والتجارة والصناعة مبنية على أصول ومحاسبات دقيقة، فشتان بينها وبين ما كان يعمل فى قديم الزمان من إجراء المنافع العمومية، فإنها كانت ساذجة بسيطة لا تستدعى رأس مال كما فى أيامنا هذه، فلم يتفكر المتقدمون فيما تفكر فيه المتأخرون من الدقائق اللطيفة وتنعيم حال التجارة وتطبيقها على أصول حسابية تكاد أن تكون منطقية، ولا تزال آخذة فى الدقة والرواج إلى غير نهاية بحسن ترتيب الحكومات العادلة، وإعطاء الحرية الفاضلة، وعمل الميزانيات اللازمة، وإبعاد الاحتكار.

الفصل الثانى

فى حالة المنافع العمومية فى الأزمان القديمة، وأنها كانت بسيطة سهلة لا تحتاج إلى كبير شىء

الذى يستبان من كلام المؤرخين والمخططين للبلاد أن الأرض الخصبة فى مادة الزراعة كانت رأس مال الزارع، يستثمرها ويستولى على فائدتها، فإن الحراثين والعملة فى القرى والبلاد كانوا ملكا لمالك الأرض بالتبعية لها، أو أرقاء بالشراء، وكذلك المواشى والسباخ وآلات الحراثة كانت أيضا ملكا لرب الأرض، فكان العبيد والفلاحون المستعبدون يحرثون الأرض ويسوونها ويبذرونها إلى أن يحصدوها وينقلوا محصولها إلى بيت سيدهم، وكانت نظارة الفلاحة ومباشرة الزراعة منوطة بأكبر عبيد السيد أوعتقائه ممن يستنجبه منهم، وليس لهذا المباشر، ولو معتوقا، مرتب خاص فى نظير عمله بل معيشته فى بيت سيده كالعبد، وعليه طعمه وملبسه فى نظير الانتفاع بخدمته، فإذا جسر المعتوق وخرج من بيت سيده المتربى فيه لا يجد من يقوم بشئونه، فكانت الحركة فى تلك الأوقات مشئومة على العتقى وأمثالهم. هذا ما يخص الزراعة من المنافع العمومية فى تلك الأزمان.

وأما الصناعات فكانت أيضا قاصرة على الأمور اللزومية، وموكولة لتشغيل الأرقاء، فكانوا يصطنعون ما تدعو الحاجة إليه للملبس والمطعم وما أشبه ذلك مما تستدعيه الحاجة فقط، وأما لوازم الزينة والتجمل فكانت تجلب من بعض ممالك أجنبية أكثر تمدنا من الممالك المجلوب إليها، فكانوا يشترون المنسوجات الصناعية الساذجة من مصانع ليست كثيرة الآلات المتفننة الأدوات، وكانت تشغيلات

الاقدمين قليلة وعملياتهم هينة فكانوا يستخرجون المعادن ويصطنعون الأسلحة وآلات الحرب المعروفة فى تلك الأزمان، وكانت هذه الأشغال أيضا وإدارتها من وظائف العبيد والمماليك، وكان التعامل بين الأهالى فى تلك الأزمان بالرقيق، فإذا اقتضى الحال للاقتراض لم يكن القدر المقترض دراهم ولا دنانير، إذ لم تكن النقود رؤوس أموالهم، بل يقترض بعضهم من بعض قدرا معينا من الأعيان والأصناف، ويستعيرونها ويدفعون لصاحبها فى نظير قرضه أو عاريته قدرا معينا، ولم يكن عندهم أخذ وإعطاء جسيم، ولا تجارة مهمة إلا مع الأجانب، فإذا توفرت عند إنسان منهم بضاعة أو فرع من الفروع اللازمة لجهة من الجهات البرانية، وأراد الربح، شارك عليها تاجرا أجنبيا، واشترط عليه شروطا ملائمة لعادة البلاد، وجعل الربح بينه وبين شريكه العامل بأن يعطيه جزءا من الربح قليلا أو كثيرا بحسب خطر السفر ومشاقه، فكانت التجارة أيضا عندهم بسيطة كالزراعة والصناعة فإذا كانت منافعهم العمومية على هذه الكيفية، فلا يتصور أن يعود على الحكومة منهم كبير إيراد.

وفى الحقيقة كانت حكوماتهم أيضا بسيطة، لا تحتاج إلى كثرة المصارف، لا سيما فى أوقات الصلح، فكانت مناصب الحكام القضائية والملكية والعسكرية ليس لها مرتب ولا ماهية، لا سيما عند الرومانيين واليونانيين، فكانت دولتهم لا تحتاج إلا إلى قليل من الخراج. نعم.. فى أوقات الحروب والأخطار إذا احتاجت الحكومة إلى أمور ضرورية لتجهيز جيوش لحرب الأعداء استعانوا بأهل الوطن، فكان يعينهم من الأهالى كل من يحترم أوطانه ويصدق فى معزته لبلاده ومحل ميلاده، فيهدون إلى الحكومة برسم تشريف الوطن ما يكفى للحاجة بدون إلحاح من أهل الحكومة ولا لجاجة.

[حرب رومة وقرطاجنة]

ومن المعلوم من التاريخ أن الدولة الرومانية كانت فى تلك الأزمان مقارنة ومعاصرة للدولة القرطاجنية، أى التونسية، التى كانت إذ ذاك لها السلطنة العظمى

فى الأقطار المغربية ، فكان كل من الدولتين منافسا للآخر ، وكانت العداوة الفاشية بينهما شديدة ، ولا تكاد الحروب تنقطع بينهما للمجاورة والمنافرة والمنافسة ، كما هو جار الآن بين بعض الدول المتأخرة ، وتسمى الحروب التى كانت بينهم بالحروب " البونيقية " أى المغربية ، المشهور منها ثلاثة : فالحرب البونيقى الأول كان قبل الميلاد بأربع وستين سنة ومائتين ، ومكث اثنين وعشرين سنة ، أخذ فيه الرومان من القرطاجنيين جزيرتى صقلية وسردينية ، وصارت قرطاجنة تدفع لرومية خراجا مقررا ، وقد تعلم الرومانيون من القرطاجنيين فى هذه الحرب صناعة السفن البحرية الحربية ذات المجاذيف .

وفى هذه الأوقات صدر أمر من مجلس «رومية» بأن يرتب للعساكر المشاة «جامكية» وكانوا قبل ذلك غير «مجمكين» ، فبادر أعيان الأهالى ووجوه الناس بإهدائهم لخزينة الجمهورية مقدارا جسيما من متاعهم للإعانة على مرتبات العساكر الوقتية ، فجمعوا ما عندهم من النحاس غير المشغول و «وسقوا»[1] العربات من ذلك وبعثوا به إلى الخزينة بوصف الإعانة الوطنية ، فكان يوم إرساله من أفخر الأيام الموسمية ، واحتفل أناس كثيرون للتفرج على موكب هذه الهدية الوطنية العجيبة ، فمن هذا يفهم أن احتياجات تلك الأيام كانت سهلة بسيطة ، كما أسفلناه ، ولم تكن كاللوازم فى أيامنا هذه . وكذلك فى الحرب الثانى البونيقى الذى ابتدأه الرومانيون مع القرطاجنيين سنة ٢١٩ قبل الميلاد ، ومكث ثمانى عشرة سنة .

وكان سر عسكر قرطاجنة «أنيبال»[2] ، وكان شجاعا باسلا ، هجم على رومة أشد هجوم ، وهزم جيوش الرومانيين فى الوقائع العظيمة ، وكاد يأخذ رومية ، ولكن دخل وقت الشتاء فانزوى «أنيبال» فى مدينة يقال لها «قبوة» ليقضى فيها فصل الشتاء مع جنده ، فتعود جنده على اللذات والشهوات ، وفترت همتهم

(١) وسق بمعنى ملأ وشحن .

(٢) هانيبال (٢٤٧ ـ ١٢٨ ق . م) يعتبر من أعظم قواد الحرب في مختلف العصور . ولقد مات منتحرا بعد أن فضل النفي على الأسر بعد هزيمة وطنه أمام الرومان .

بالانهماك على ذلك، وكان فى أثناء هذه المدة قد اغتنم الرومانيين الفرصة بتجميع عساكرهم المشتتة فهجموا على جند القرطاجنيين، ومع ذلك انهزم جندهم وفر أميرهم.

ففى أثناء هذه الحرب والاحتياج للإمدادات العسكرية والذخائر تضايق الرومانيون، واضطرت الحكومة أن تجمع عساكر جديدة وأن تجهز سفنا حربية لتقاوم قوة القرطاجنيين وتتمكن من منازلتهم، فاحتاجت رومة إلى الإعانات الضرورية، وتحيرت فى طريقة تحصيلها، وكانت حكومتهم إذ ذاك منوطة برؤساء يقال لهم «القناصل»، منقادين لمجلس الحكومة الذى بيده الحل والعقد والأمر والنهى، فالتمس هؤلاء الرؤساء من مجلس رومية أن يفعل كما جرت به العادة بأن يحمل الأهالى على أن يدفعوا بحسب اقتدارهم ما يكفى فى دفع مرتبات شهر للسفن البحرية من ماهيات وتعيينات، ومع أن هذا طلب هين ومقدار يسير فى حد ذاته، لما علم به الأهالى اغبرت خواطرهم وتكدروا وتوقفوا فيه، وقالوا: نحن نعين الوطن باللائق والمناسب، ونبذل ما عندنا من الأموال والرجال، ولكن قد أخذت الدولة عبيدنا وفلاحينا الذين يباشرون الزراعات، ومن وقت دخولهم فى العساكر البرية والبحرية تعطلت الزراعة والفلاحة، ولم يبق لنا إلا أنفسنا وأراضينا، فنحن قد تعطلنا بالكلية وتضعضع حالنا وضاعت أموالنا، ولو كان عندنا شىء ما بخلنا به على أوطاننا. فلما استشعر رؤساء الدولة وأمراؤها بأعذار أهل الفلاحة التمس أحد الرؤساء من مجلس رومية أن جميع أعضاء هذا المجلس يتطوعون لخزينة الحكومة بجميع ما عندهم من الذهب والفضة والنحاس، ولا يبقوا منه شيئا إلا ما فى أصابعهم من خواتم الذهب وما فى أصابع نسائهم وأولادهم من ذلك، وأنه لا مانع من أن لا يدعوا عندهم إلا النقود اليسيرة للمصارف الضرورية ليقتدى بهم جميع الأهالى ولتكون هذه المكارم الوطنية معدودة فى مآثرهم ومأثورة فى مناقبهم، فأجاب جميع الأعضاء إلى هذا الالتماس الممدوح عن طيب نفس وانشراح خاطر، ولم يتأخر منهم أحد عن ذلك، وتفرق المجلس بالتواطؤ على التنجيز.

فكل عضو من أعضاء المجلس شرع فى المسارع والمسابقة ليفتخر بتقييد اسمه وعطيته بالدفاتر قبل غيره، فتزاحموا جميعا على كتاب الخزينة أن يكتبوا ما تعهد كل منهم بدفعه على سبيل الإعانة، واقتدى بأرباب المجلس من عداهم من أهالى المملكة الرومية، فبهذه الإعانات تمكن الرومانيون من قهر أعدائهم وحماية مدنهم من جهة قرطاجنة، فبواسطة إعانات الرومانيين ومكارم أخلاق أهاليهم ومفاداتهم أوطانهم ببذل الأموال والأرواح شنوا الإغارة عليها بالجأش القوى والجيش الجرار فى الحرب الثالث الذى صار الشروع فيه من سنة مائة وتسع وأربعين قبل الميلاد، فحاصر الرومانيون قرطاجنة وهجموا عليها برا وبحرا مدة ثلاث سنين فأخذوها عنوة، وسلبوا أموالها، وقتلوا من فيها من السكان، وحرقوا المدينة، فمن ذلك الوقت زالت دولة القرطاجنيين بزوال قرطاجنة التى كانت دائما قرينة رومية ومعاصرة لها فى الفخر.

ولم يكن فى ذلك العهد ممالك قوية تعادل قوتى هاتين المملكتين حتى تعتبر الموازنة، فما أحسن إدارة الممالك فى هذه الأعصر الجديدة وما بين ملوكها من المعاهدات والمشارطات، واعتبار الميزان السياسى واعتماده لمحافظة الحقوق الملكية وحقوق الدول والملل بعضها على بعض، فإن هذا حصن حصين لحفظ ذات الممالك، بقطع النظر عن حفظ تيجان الملوك، فالمملكة الضعيفة فى هذا العهد مأمونة الدوام ما لم يلم بها أحوال بوليتيقية[1] أهلية بها تخرج عن حدود المشارطات، فمحض القوة فى إحدى ممالك هذا العصر لا يسوغ لها تغلبا على غيرها بدون وجه لمنع الآخرين ذلك بعقد المشارطات القوية، وهذا أيضا مما يعد من التقدمات العصرية فى النظامات الملكية، ولو تمدنت الممالك الإسلامية المنافرة سياستها لسياسة الدول المتمدنة، كممالك التتار، ودخلت فى النظام العمومى لصانت أوطانها من إغارة من جاورها، بالتعلل بخشونتها والاستيلاء عليها لقصد تمدينها وتحسين حالها، ففى الأزمان السابقة كانت الشهرة فى

(١) سياسية داخلية.

الدنيا لمدينة رومية ومدينة قرطاجنة لقوة الدولتين، ولم يساو هاتين المدينتين مدينة أخرى.

ويقال: لو لم تكن رومية موجودة لكانت قرطاجنة أول مدن الدنيا، ولولا وجود الإسكندرية بموقعها العجيب لكانت قرطاجنة مدينة من مدن الدنيا، فإنها كانت حسنة الوضع جيدة الموقع لوجودها بين بوغار جبل طارق بالأندلس وبوغاز القسطنطينية، وبهذا كانت إذ ذاك مركز التجارة، وكان أهلها سبعمائة ألف نفس، أرباب زراعة وصناعة وفنون كثيرة، وكان يغلب عليهم التقدم فى الزراعة والملاحة، لأن هذه الأمة القرطاجنية كانت محتاجة إلى الأسفار ونقل البضائع من بلادها، وجلب ما ليس عندها من الخارج إلى الداخل، وكانت مولعة بالفتوحات وتوسيع دائرة ملكها، فقد استولت على سائر مدن إفريقية، وسخرت من أوروبا جزيرة سردينية وجزيرتى مايورقه ومينورقه وغيرهما من بلاد الأندلس ومن فرانسا، وكان لها المحالفات والمعاهدات مع ملوك البلاد التى بينها وبينهم معاملات، فخربها الرومانيون لما أعيتهم وأتعبتهم، فكان تدميرها وخرابها مما يعاب به عليهم.

ثم بنى الرومانيون مدينة فى آثارها بعد مدة من تدميرها وسموها قرطاجنة، باسم الأولى، ولم تشتهر المدينة الثانية، إلاّ فى زمن القيصر أغسطوس[1] حتى صارت ثانى مدينة فى العظم بعد رومية، وبقيت إلى صدر الإسلام ثم هدمت حتى لم يبق لها الآن أثر، وإنما بنيت بالقرب من محلها مدينة تونس، فانظر إلى حال الأمم القديمة، فإن دولة الرومانيين مع تقدمها فى الفتوحات العظيمة لم يكن عندها تقدم فى المنافع العمومية، وإنما كانت إدارتها بسيطة، وكان عندها نوع من الرفق بالملة الرومانية واهل الوطن الحقيقى، يعنى من له مزية عنوان الرومانى، وكانت أقرب إلى الصدق فى تأدية الحقوق لرعاياها، لا سيما عقب الحروب.

---

(١) أول أباطرة الرومان (٦٣ ـ ١٤ ق.م). وهو ابن أخت يوليوس قيصر. و«أغسطس» لقب منحه إياه مجلس الشيوخ، ومعناه "المبجل" وكان اسمه الأصلي أوكتافيوس.

[حروب رومة ومقدونيا]

فقد ذكر المؤرخون أنه كان لرومية حرب مع مملكة مقدونيا فى بلاد «روم إيلى» فبعثت «بولص أمبلوس» أحد قوادها إلى مقدونيا لقتال «برشاوس» ملك هذه البلاد، فهزمه القائد الرومانى واغتنم امواله وعاد إلى رومية بالغنائم العظيمة، فلما تبين لحكومة رومية أن هذه الغنائم تقوم بمصاريف الدولة وتكفى فى مصالحها، رفعت جميع المطاليب المقررة على الأهالى إلى وقت الحاجة.

وبالجملة فقد كان القدماء من الممالك والدول لا يعرفون اقتراض الحكومة من الأهالى أو غيرهم بالفوائض والأرباح، كالجارى الآن، اعتمادا على ما يتحصل من الأموال والعوائد، بل هذه الطريقة الاختراعية من مستحدثات الدول المتأخرة الأروباوية، وإنما كانت طرق المتقدمين أنهم إذا اقتضت الضرورة للمال فإن رؤساء الحكومة كعمال الأقاليم يعقدون مع أغنياء الأهالى عقد القرض والسلفة فى حالة ما إذا خلت خزينة الدولة عن الدراهم بالكلية، ولم يكن عقد القرض باسم الحكومة بل هو اتفاق شخصى بين الحكام والمقرضين، لاعتماد الحكام وأمانتهم، وكانوا يعينون للدفع ميعادا، ويحددون له أجلا مسمى، فكانت أمانة الحكام المقترضين ومكارم أخلاق الأغنياء المقرضين هى المسهلة لقضاء حوائج الدولة بحيث لم تكن فى أوقات الأخطار عرضة لأن تقع فى الحيرة والمضايقة.

فقد احتاجت دولة الرومانيين بعد مضى سنوات من الإعانة التطوعية إلى الدراهم لتتميم فتوحهم لقرطاجنة، وكانوا فى خطب شديد يخشون من عساكر «أنبال» أمير القرطاجنيين، فإنه طالما أزعجهم وهددهم حتى كاد يفتح مدنهم ويسترعيهم، ففى تلك الأوقات الخطرة اضطر جميع حكامهم أن يقترضوا من بعض أغنياء الأهالى مقادير جسيمة من الأموال، فعاقدوهم على أن يدفعوهم لهم على ثلاثة أقساط متساوية فى ست سنين، فجعلوا لكل سنتين قسطا، والتزم الحكام بالأقساط، فوفوا منها فى قسطين فى أثناء الحرب، وتصادف أن القسط الثالث حل أجله ولم يكن فى الخزينة الرومانية ولا عند الحكام ما يفى به،

فحضر المقرضون وطلبوه من الحكام فعجزوا عن دفعه، فحضروا معهم لمجلس رومية وطلبوا دينهم، فاعترم المجلس بجميع الديون مع عجز الخزينة عن دفعها إذ ذاك، فحصل التراضى بين المجلس والدائنين على أن يأخذ أرباب الديون من أملاك الحكومة وأراضيها التى يمكن بيعها بقدر ما بقى بديونهم ينتفعون بغلتها ومحصولها، وقوموها لهم بقيمة المثل، واشترطت لهم الحكومة أنه عند يسار الخزينة كل من أراد أن يتنازل عن الأرض التى أعطيت له يرخص له أن يطلب دينه نقدا بقدر الثمن الذى أخذه، كبيع الوفاء، فاستلم أرباب الديون الأراضى وفرحوا بها وبادروا باستغلالها، وهذه معدلة من الحكومة ومكرمة من أرباب الديون من الأهالى الرومانية، ومع عدها فى المآثر الجميلة لا تساوى مكارم الأخلاق العربية التى كان يفعلها المياسير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف.

[تجهيز جيش تبوك]

ولنذكر هنا غزوة تبوك[1]، التى يقال لها غزوة العسرة، ليظهر بها كيفية الاعانات الإسلامية، وسبب غزوة تبوك - التى هى أرض بين الشام والمدينة المنورة - أن متنصرة العرب كتبت إلى هرقل ملك الروم بأن النبى صلى الله عليه وسلم، هلك وأصابت أصحابه سنون أهلكت أموالهم فبعث رجلا من عظمائهم وجهّز معه أربعين ألفا ليحارب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه، صلى الله عليه وسلم، أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى «البلقاء»[2] وكان صلى الله عليه وسلم قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها إلا ما كان من غزوة تبوك، لبعد المشقة وشدة الزمان بالحر وكثرة العدو، وليأخذ الناس أهبتهم، فأمر الناس بالجهاد وبعث إلى مكة وقبائل العرب

(١) قرية بين وادي القرى والشام.

(٢) كورة من أعمال دمشق، بين الشام ووادي القرى.

ليستنفرهم، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله، وأكد عليهم فى طلب ذلك.

وكانت آخر غزواته، صلى الله عليه وسلم، فأنفق عثمان بن عفان، رضى الله عنه، نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، حيث جهز عشرة آلاف مجاهد أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل، وهى تسعمائة بعير، وغير الخيل، وهى مائة فرس، وجهز الزاد وما يتعلق به حتى ما تربط به الأسقية، وجاء أيضا، رضى الله عنه، بألف دينار فصبها فى حجر النبى، صلى الله عليه وسلم، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها بيديه الشريفتين ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»، ويقول: «غفر لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت». وكان أول من جاء بالنفقة قبل عثمان أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، جاء بجميع ماله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: هل أبقيت لأهلك شيئا؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، بنصف ماله فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: هل أبقيت لأهلك شيئا؟ فقال: النصف الثانى، وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بمائة أوقية من الفضة، ولهذا قيل إن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهما، كانا خزانتين من خزائن الله فى الأرض ينفقان فى طاعة الله تعالى.

فقد كان عبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنه، تاجرا كثير الاموال بعد أن كان فقيرا، باع مرة أرضا له بأربعين ألف دينار وتصدق بها كلها، وتصدق مرة أخرى بتسعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام، وأعان فى سبيل الله بخمسمائة فرس عربية، وأوصى لكل رجل بقى من أهل بدر بأربعمائة دينار، وكانوا يؤمئذ مائة رجل وقسمت تركته بعد موته على ستة عشر سهما، وكان كل سهم ثمانمائة ألف دينار، وعينه عمر رضى الله عنه فى جملة ستة يصلحون للخلافة من بعده فقام هو بأمر البيعة لعثمان وزوى الأمر عن نفسه.

ومن هنا يعلم أن تجارة العرب فى الزمن القديم كانت رابحة عظيمة، ثم جاء

العباس، رضى الله عنه، بمال كثير، وكذا طلحة، رضى الله عنه، وبعثت النساء، رضى الله عنهن، بكل ما يقدرن عليه من حليهن، وتصدق عاصم بن عدى[1]، رضى الله عنه، بسبعين وسقا من تمر.

ولما ارتحل صلى الله عليه وسلم عن «ثنية الوداع»[2] التى بها المعسكر، وهم ثلاثون ألفا، متوجها إلى تبوك، عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم لابى بكر الصديق، رضى الله عنه، ورايته، صلى الله عليه وسلم، العظمى لأبى بكر الصديق، رضى الله عنه، ورايته، صلى الله عليه وسلم، العظمى للزبير، رضى الله عنه، وساروا حتى نزلوا إلى تبوك، فوجدوا عينها قليلة الماء، فاغترف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غرفة من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه ففارت عينها حتى امتلأت، وأقام، صلى الله عليه وسلم، أياما، وأتاه «يحنة بن رؤبة» صاحب «أيلة»[3]، فصالح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأعطى الجزية، وأتاه أهل «جربا» «وأذرح» - بالذال المعجمة والراء والحاء المهملة - بلدتان بالشام - فأعطوا الجزية أيضا، ولم يقع فى هذه الغزوة قتال، ولكن فتحوا فى هذا السفر «دومة الجندل»[4] حيث بعث، صلى الله عليه وسلم، خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارسا إلى ملكها «أكيدر»[5]، وكان نصرانيا، فخرج خالد من تبوك وانصرف صلى الله عليه وسلم منها إلى المدينة فصالحه «أكيدر» على ألفى بعير وثمانمائة فرس وأربعمائة درع، فرضى خالد بالصلح، ففتح له باب الحصن الذى كان على هذه القرية، وانطلق «بأكيدر» وأخيه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فلما قدم بهما صالحه صلى الله عليه وسلم على إعطاء الجزية،

---

(١) صحابي من الأنصار، مات سنة ٤٥ هجرية. انظر ترجمته في (أسد الغابة) ج ٣ ص ١١٤، ١١٥.

(٢) اسم موضع يشرف على المدينة، في طريق الذاهب منها إلى مكة.

(٣) ميناء على خليج العقبة، شمالي البحر الأحمر، ويسميه الإسرائيليون الآن: إيلات.

(٤) حصن على سبعة مراحل من دمشق، بينها وبين المدينة.

(٥) هو أكيدر بن عبد الملك، ظل على نصرانيته، وأجلى مع من أجلاهم عمر بن الخطاب في خلافته، فنزل بوادي القرى وبنى حصنا سماه باسم حصنه الأول.

وخلى سبيله وسبيل أخيه، فمن هذا يفهم أن عثمان بن عفان، رضى الله عنه، جهز ثلث الجيش فى هذه الغزوة.

وبالجملة فمآثر الصحابة، رضى الله عنهم، فى مكارم الأخلاق لا تحصى ولا تحصر، فبالنسبة إليهم، رضى الله عنهم، لا يقال إن سبب ذلك البساطة فى الاخلاق وعدم كثرة المعاملات والأخذ والعطاء، فإنا نقول: إن أهل آسيا فى تلك الأزمان كانت التجارة عندهم رابحة أيا ما كان نوعها، فكان للعرب كل سنة رحلتان رحلة الشتاء والصيف، ومن المعلوم أن الأسفار من وسائل التقدم ودليل عليه.

الفصل الثالث

فى أن الأسفار والسياحات مما يعين على تقدم المنافع العمومية

قد أسلفنا فى (الفصل الأول) من (الباب الثانى) أن دوائر الزراعة والتجارة والصناعة تتسع باتساع الرخصة فى الأقاليم، بالمعاونات والمساعدات من أرباب الحكومات، وأن دولة الإنكليز فتحت بلاد الهند وغيرها للتحيل على اتساع تجارتها، وكذلك تحيل غيرهم من الدول على ذلك، كما قيل:

ومن طلب النجوم أطال صبرا	على بعد المسافة والمنال
وتثمر حاجة المحتاج نجحا	إذا ما كان فيها ذا احتيال

فهمة هؤلاء الأمم تميل إلى الجد والكد والكدح والانتصاب لسائر الأهوال، فى تحصيل المعالى والأموال، والترقى إلى منازل العز وكسب المجد والإقبال، وتتوصل إلى ذلك بالحركة والنقلة، والسياحة والرحلة، والإقدام على ركوب الأخطار، لنيل الأمانى وبلوغ الأوطار، ومن الكلم النوابغ والحكم السوابغ: صعود الآكام، وهبوط الغيطان، خير من القعود بين الحيطان، ولبعضهم:

أما ترينى على بغى العلاء	لأعباء الأمور حمولا دائم النصب
فما استوى شرف إلا على كلف	ولا صفا ذهب إلا على لهب

فتجشم المشاق عند خاطب المعالى حلو المذاق.

[رحلتا الشتاء والصيف]

فالطريقة الموسعة لدوائر المعيشة قديمة عمومية، قضت بسلوك طريقها فى الأزل الحكمة الإلهية، فقد سخر الله سبحانه وتعالى لقريش بالحجاز من وسائط الكم والكيف ما يحملهم على إيلاف رحلة الشتاء والصيف فقال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ **لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)** ﴾ (قريش: ١ - ٤) وتفسير هذه الآية - والله أعلم بمراده - أن قوله تعالى (لإيلاف قريش) إعجبوا لإيلاف قريش، لأنهم يتمادون فى غيهم وجهلهم، والله يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم، وينظم أسباب معايشهم. أى إعجبوا من حلم الله وكرمه عليهم، ونظيره فى اللغة قولهم لزيد وما صنعناه به! أى إعجب لزيد وما صنعنا به من الإكرام، والإيلاف: الإلزام، يعنى إعجبوا لإلزام قريش، ومعموله عام يعنى إيلاف قريش كل مؤانسة وموافقة بينهم من مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم، ولفظ قريش مأخوذ من القرش وهو الكسب، لأنهم كانوا كاسبين بتجارتهم وضربهم فى البلاد، ومن التقرش وهو التجمع لجمعهم المال بالتجارة، أو للاجتماع، أو للاجتماع بعد التفرق فى البلاد، ثم بعد أن عمم تعالى الإيلاف الأول، الذى هو نعمة عامة، خص إيلاف الرحلتين بالذكر بسبب أنه قوام معاشهم.

فقد امتن سبحانه وتعالى عليهم بنعمتين وهما: الإيلاف العام، والإيلاف الخاص، الذى هو تعويدهم على رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام. قال المفسرون: كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن، لأن اليمن أدفأ، وبالصيف إلى الشام. وذكر عطاء عن ابن عباس: أن السبب فى ذلك هو أن قريشا كانوا إذا أصاب واحدا منهم مخصمة خرج هو وعياله إلى موضع، وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا، إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف، وكان سيد قومه، وكان له ابن يقال له أسد، وكان له ترب من بنى مخزوم يحبه ويلعب معه، فشكا إليه الضر والمجاعة، فدخل أسد على أمه يبكى، فأرسلت إلى أولئك العيال بدقيق

وشحم فعاشوا فيه أياما، ثم أتى ترب أسد إليه مرة أخرى وشكى إليه من الجوع، فقام هاشم خطيبا فى قريش، فقال: إنكم أجدبتم جدبا تقلون فيه وتذلون، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم، والناس لكم تبع ,قالوا: نحن تبع لك، فليس عليك منا خلاف، فجمع كل بنى أب على الرحلتين، فى الشتاء، إلى اليمن وفى الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغنى قسمه بينه وبين الفقير، حتى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الإسلام وهم على ذلك، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالا ولا أعز من قريش.

قال الشاعر فيهم:

الخالطين فقيرهم بغنيهم   حتى يكون فقيرهم كالكافى

فنعمة الله عليهم بإيلافهم وتأنيسهم بجمعهم قبيلة واحدة فى مكان واحد أمكن فى النعمة من أن يكون الاجتماع من قبائل شتى، ونبه تعالى بقوله: إيلاف على أن من شرط السفر المؤانسة والألفة، لان السفر أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة.

ثم لما كان هذا الإيلاف إنعاما من الله تعالى عليهم، وأنه يستحق أن يقابل بالشكر والعبودية، أتبعه سبحانه وتعالى بطلب العبودية، فقال: (فليعبدوا رب هذا البيت) ومعنى فليعبدوا: أى فليتذللوا ويخضعوا للمعبود على غاية ما يكون، ليشمل التوحيد والعبادات المتعلقة بالجوارح، والمعنى: ليتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان، ويعبدوا رب هذا البيت، أى الحرم، وهو الله سبحانه وتعالى، وقوله (الذى أطعمهم من جوع) أى رزقهم بالطعام فى السفر والمقام، وقوله (وآمنهم من خوف) أى حماهم حيث جعلهم أهل حرم آمن، فكانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ولا يغير عليهم أحد، لا فى سفرهم ولا فى حضرهم، كما يشير إليه قوله تعالى ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا** ﴾ (العنكبوت: ٦٧). وقد أطعم الله تعالى قريشا وآمنهم إنعاما منه تعالى وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام فى قوله ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ** ﴾ (البقرة: ١٢٦) فكانت رحلة الشتاء والصيف بها ميرتهم ومعيشتهم وثروتهم. هذا ما يتعلق بقريش.

[العرب والسياحة]

وأما العرب على الاطلاق فكانوا من الأزمان القديمة يسيحون فى الأرض، سوقة وملوكا، حتى بلغوا أرض المغرب، وبلغوا من حدود المشرق «سمر قند»، وبلغوا باب الأبواب، ودخلوا بلاد الهند، ولكن كانوا يغيرون على غير بلادهم، ولم يستقروا فيها حتى يصيروا ملوكها، بل فى الغالب كان يقتصر على ملك أبيه، وإذا غلبه غيره رحل إلى البلاد البعيدة ليستنجد على خصمه بملك أجنبى ذى قوة وبأس، كما وقع لامرئ القيس الكندى حين(*) ذهب إلى قيصر الروم ليستنجد به، ومر فى مسيره إليه على «حماة» «وشيزر» كما يشير إلى ذلك فى قصيدة مطلعها.

سما لك شوق بعدما كان أقصرا

يقول فيها:

تقطع أسباب اللبانة والهوى	**عشية جاوزنا حماة وشيزرا[1]**
بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه	**وأيقن أنا لا حقان بقيصرا**
فقلت له لا تبك عينك إنما	**نحاول ملكا أو نموت فنعذرا**

فكان كلامه فألا على نفسه حيث(**) مات بقرب «أنقرة» ودفن فى سفح جبل يقال له «عسيب»، وقد أنشد فيه حال مرضه يخاطب حمامة فقال:

أجارتنا إن الهموم تنوب	**وإنى مقيم ما أقام عسيب**
أجارتنا إنا مقيمان هھنا	**وكل غريب للغريب نسيب**

وقد ثبت بالعقل تواترا أن العرب أكثر الأمم شجاعة ومروءة وشهامة، ولسانهم

(١) شيزر: قلعة بالشام، قرب المعرة، بينها وبين حماة مسيرة يوم، بمقاييس العصور القديمة.

(*) يقتضيها السياق. (الشروق).

(**) يقتضيها السياق. (الشروق).

أتم الألسنة بيانا وتمييزا للمعانى، جمعا وفرقا، يجمع المعانى الكثيرة فى اللفظ القليل إذا شاء المتكلم الجمع، والتمييز بين كل لفظتين مشتبهتين بلفظ آخر مختصر، إلى غير ذلك، وهذا من خصائص اللسان العربى، فالعقل قاض بفضل العرب، ولو أنهم كانوا قبل الإسلام لا يشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب والمنطق، ونحوذلك، وإنما كان علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم من التواريخ، أو ما احتاجوا إليه فى دنياهم ومعاشهم من الأنواء أو النجوم أو الحروب، فلما جاء الإسلام ونقلهم من حالة الجاهلية التى أحاطت بهم زالت الريون عن قلوبهم، واستنار باطنهم بفطرة جديدة، وفطنة سعيدة، فاجتمع لهم الكمال التام، والخير العام، بالقوة المتجددة فيهم، ودرجة الفضل العظيم. فلذلك كان بقاؤهم فى الإسلام وفناؤهم فساد فيه. وقد روى عن النبى، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «إذا زلت العرب زل الإسلام». فكيف وهم الذين فتحوا بلاد الدنيا وأعزوها بالإسلام، ومدنوها بالعلوم، وإن اتسع فيها غيرهم، فلا بأس من كونهم بواسطة النظامات الملوكية العامة يقتبسون معارف الأعصر الجديدة ويزيدون عليها، فصيت تنعمات العرب قديما قد بقيت مخلدة الذكر فى جميع تواريخ أهل الدنيا، لا سيما أهل اليمن.

وقد أطنب المؤرخون فى عظم مدينة «سبأ» التى تسمى «مأرب»، وبينهما وبين «صنعاء» مسيرة ثلاثة أيام، فهى بين مملكة اليمن ومملكة المسكت، وبسطوا الكلام على ما كانت عليه من الثروة والغنى وكثرة الخيرات المعدنية والنباتية، وأن ملكها آل إلى بلقيس التى قال الله تعالى فى حقها ﴿ **وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ** ﴾ (النمل: ٢٣) قال تعالى فى حق أهل سبأ ﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ (سبأ: ١٥) قال المفسرون: المراد بالجنتين جماعتان من الجنان، ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة، وقوله تعالى ﴿ **كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ** ﴾ إشارة إلى غلى تكميل النعم عليهم، وقوله ﴿ **وَاشْكُرُوا لَهُ** ﴾ بيان أيضا لكمال النعمة، فان الشكر لا يطلب إلا على النعمة المعتبرة، ثم لما بين

تعالى حالهم فى مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة حيث بين أنه لا غائلة عليهم ولا تبعة فى الدنيا فقال ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ أى طاهرة عن المؤذيات، ثم قال ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ يعنى أن نعمتهم كاملة حيث كانت لذة خالية من العقوبات الأخروية، فلا يترتب على تعاطيها عقاب من جانبه تعالى.

وأما ما كان من جانبهم فقد بينه تعالى بقوله ﴿ **فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم** ﴾ الآية، فبين سبحانه وتعالى أنه انتقم منهم بظلمهم بالإعراض تصديقا لقوله تعالى ﴿ **إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** ﴾ (السجدة: ٢٢) فأرسل عليهم للانتقام منهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم، فهذا كله ظاهر الدلالة على غنى اليمن وثروة أهاليها ورفاهيتهم وتنعمهم فى زمن سيدنا سليمان عليه السلام، وتقدمهم فى الزراعة والتجارة والعمارة.

وفى سنة ستين ومائتين وألف من الهجرة[١] استكشف من أرسل من طرف الحكومة المصرية محل مدينة «سبأ» المسماة «مأرب»، ووجد رسومها وأطلالها بالحفر، فوجد ما يدل على عظمها. ثم قال تعالى ﴿ **وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة** ﴾ إلى أن قال تعالى ﴿ **فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق** ﴾ المراد بالقرى المبارك فيها قرى الشام، فإنها هى البقعة المباركة ومعنى (فجعلناهم أحاديث) أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا، يقال: تفرقوا أيدى سبأ. وعلى ذكر قرى الشام ناسب أن نذكر هنا أهل «سورية» وهم أهل الشام فى قديم الزمان حيث سبقوا كثيرا من الأمم فى المنافع العمومية، وفى الأسفار البحرية، والأمة التى اشتهرت منهم بذلك هى أهل «صور» و «صيدا» و «بيروت»، فكانوا يسمون بالفنيكيين، وسيأتى بيانهم فى (الفصل الرابع)، وممن اشتهر أيضا بالأسفار البحرية الهنود، وأما العرب فإنما كانوا يشتغلون بالتجارة فى البر، بالأخذ والعطاء مع أهل الشام أو مع أهل اليمن كانت تأتى به أهل سواحل الشام أو الهنود من بلادهم، فكانوا ينقلونه من البر إلى جميع مواطنهم، أو ينقلون بضائع مواطنهم إلى تلك

---

(١) سنة ١٨٤٤م.

البلاد للمعاوضات، إلى أن ظهر الإسلام واستولى على البحور والبرور فتغيرت أحوال الترقيات فى العلوم والمعارف.

وقد سافر إلى الشام النبى، صلى الله عليه وسلم، فى تجارة لخديجة، رضى الله عنها، بتجارة إلى مدينة «بصرى» بإقليم حوران، وسبب ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بلغ خمسا وعشرين سنة قال له عمه أبو طالب، ليرشده إلى التجارة والكسب: أنا رجل كثير العيال، قليل المال، وقد اشتد الزمان، وهذه عير قومك تخرج إلى الشام للتجارة، فلو ذهبت إليها وقلت لها فى ذلك لعلها تقبل، فبلغ خديجة ذلك فأرسلت إليه صلى الله عليه وسلم فى هذا الشأن، وقالت له: أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك، لأنك الحبيب القريب، فقال له أبو طالب: هذا رزق ساقه الله إليك، فخرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بتجارة خديجة، رضى الله تعالى عنها، وأرفقت معه غلامها «ميسرة» ليعينه، فساروا حتى دخلوا الشام فنزلوا ببصرى عند صومعة بحيرا الراهب التى بجانب المدينة.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد نزل تحت شجرة رعرعت بنزوله تحتها، فخرج من الصومعة نسطورا الراهب وبيده صحيفة ينظر فيها مرة وينظر فى وجه النبى، صلى الله عليه وسلم، مرة أخرى، فاجتمع عليه القوم، فقال لهم: يا قوم فو الذى رفع السماء بغير عمد، ما نزل بى ركب هو أحب إلى منكم، وإنى لأجد فى هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، من أطاعه نجا، ومن عصاه غوى، ثم أقبل على النبى، صلى الله عليه وسلم، وقال: إنى لأرى فيك شيئا ما رأيته فى أحد من الناس، إنى لأحسبك النبى الذى يخرج من تهامة. ثم باع النبى، صلى الله عليه وسلم، تجارته وربح ضعف ما كانوا يربحون.

ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى مكة، وخبر خديجة بربح التجارة، فسرت بذلك، وكان صلى الله عليه وسلم قد ظهرت منه خوارق عادات إرهاصا للنبوة، كتظليل الغمامة، فأخبرها «ميسرة» بهذه العجائب، وبما قال نسطورا الراهب،

فأضعفت له صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمت له، وكانت رضى الله عنها امرأة عاقلة شريفة فى قومها، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير، وكانت كثيرة المال، فكان رجال قومها يحرصون على زواجها، ولكن شرفها الله تعالى بزواج أشرف العالمين عقب التجارة الرابحة.

فما أحسن الأسفار التى أفادت المال، وعادت على العامل وصاحب رأس المال بتحسين الأحوال، ونتج عنها نتائج جليلة أعقبت أهل البيت الطاهرين أبناء فاطمة الزهراء بنت خديجة الكبرى سيدة نساء العالمين، وهى أول من آمن به على الإطلاق، ويقال إنه صلى الله عليه وسلم سافر لخديجة قبل هذه السفرة سفرتين إلى اليمن، وثبت أيضا أنه أجر نفسه قبل النبوة لرعى الغنم، وكذا ثبت فى حق غيره من الأنبياء كموسى، قيل إن حكمة ذلك أن راعى الغنم، التى هى أضعف البهائم، يسكن فى قلبه الرقة واللطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب قبل ذلك، وأما رعى موسى عليه السلام لشعيب فإنه حصل أيضا عقب السفر من مدينة «عين شمس» بمصر إلى «مدين»[1] حين قتل القبطى ونصر الإسرائيلى، وهَمَّ أهل مصر بقتله، فقال له مؤمن من[*] آل فرعون ﴿**إنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ (القصص: ٢٠) فخرج يطلب بلاد مدين بدون زاد ولا راحلة، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، ولم يكن له فى طريقه طعام إلا ورق الشجر، حتى ورد ماء مدين فكان ما قال الله تعالى فى كتابه ﴿**ولَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ**﴾ (القصص: ٢٣) أى تحبسان أغنامهما، لأن على الماء من كان أقوى منهما، فلا تتمكنان من السقى، مع كراهة المزاحمة على الماء، وخوف اختلاط أغنامهما بأغنام غيرهما، ومع التحفظ أيضا بالاختلاط بالرجال، (قال ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقى حتى يصدر الرعاء) أى ننتظر ما يبقى من القوم من الماء بعد صدورهم عنه

(١) يقال إنها على البحر الأحمر تجاه تبوك، وبينهما، بمقاييس العصر القديم، ست مراحل. وقيل إنها قرية «كفرمنده» من أعمال طبرية.

(*) يقتضيها السياق. (الشروق).

وانصرافهم، وقوله ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (القصص : ٢٣) كناية عن الضعف ودلالة على أنه لو كان قويا لحضر، ولو حضر لم يتأخر السقى، فعند ذلك سقى لهما موسى قبل صدور الرعاء، وعادتا إلى أبيهما قبل الوقت المعتاد وكان قد سأل عليه السلام القوم أن يسمحوا فسمحوا.

وقيل إن القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا إلقاء حجر عظيم، لا يقله ولا يرفعه إلا جماعة كثيرون، على رأس البئر، فرفعه بالقوة على ضعفه من الجوع، وسقى غنمهما، قال الله تعالى ﴿ **فسقى لهما ثم تولى إلى الظل** ﴾ لأنه سقى لهما فى الشمس والحر، وفيه دلالة على كمال قوة موسى عليه السلام، وعلى أن أحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر، يعنى أن ما يعد عيبا فى الحضر قد لا يعد عيبا فى البادية، فلهذا ساغ لنبى الله شعيب أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية بدون أن يقدح ذلك فى حقه بشيءحيث لا مفسدة فى ذلك، لأن الدين لا يأباه فى البدو ولا فى الحضر ومروءة أهل البدو لا تأباه، لا سيما إذا كانت الحالة حالة ضرورة، لأن الظاهر أنه لم يكن لشعيب عليه السلام معين سواهما.

ولما كان موسى عليه السلام قد مكث مدة الطريق لم يذق طعاما إلا بقل الأرض، قال ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص : ٢٤) أى إنى لأى شيء أنزلت إلى من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير، أى سائل وطالب، (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) أى مستحيية، قد استترت بكم قميصها، ماشية على بعد، مائلة عن الرجال، قالت ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ (القصص : ٢٥) وذلك أن البنتين لما رجعتا إلى أبيهما قبل الناس قال ما أعجلكما؟ قالتا : وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا، فقد فهمتا من حاله أنه سقى أغنامهما تقربا إلى الله تعالى فوصفتاه بالصلاح، فقال شعيب لإحداهما : إذهبى فادعيه لى، فأرسلها شعيب إلى موسى مع أنها شابة وهو شاب لأنه عليه السلام كان قد علم، بالوحى أو من حسن التربية، طهارتها وبراءتها، فكان يعتمد عليها، فذهب معها موسى عليه السلام، مع الاحتياط والتورع، وامتثل دعوة أبيها للتبرك

برؤية ذلك الشيخ، لا طلبا للأجرة، وروى أنها لما قالت (ليجزيك أجر ما سقيت لنا) كره ذلك.

ولما قدم إليه الطعام امتنع وقال: إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا، ولا نأخذ على المعروف ثمنا، حتى قال شعيب عليه السلام: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فجلس موسى عليه السلام فأكل، بعد أن قص عليه قصته، فذكر نسبه إلى يعقوب، وحكى جميع أمره من لدن ولادته، وأمر القبائل والمراضع، والقذف فى اليم، وقتل القبطى، وأنهم يطلبونه ليقتلوه، **فلذلك قال الله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢٥)** أى لا سلطان لفرعون بأرضنا، فلسنا فى مملكته، فقد أسكن روع موسى، عليه السلام، وإن كان فرعون، لقوته وبطشه وكثرة جنوده، يمكنه أن يتسلط على أرض «مدين» إذا قصد ذلك، إلا أن شعبيا يعلم أنه لا سبيل لفرعون على هذه الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى عماه عنها وحماها منه، **فقالت ابنته الصغيرة**، وكانت آنست منه القوة برفع الحجر عن رأس البئر واستسقائه **بالدلو العظيم**، وعهدت فيه الأمانة حيث فى السير معها أخرها إلى خلفه: (يا أبت استأجره إن خير من أستاجرت القوى الأمين) فرغب فيه شعيب، فكانت ابنته من أفرس الناس حين تفرست الأمانة فى سيدنا موسى عليه السلام قال شعيب (إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج) يعنى على أن تكون لى أجيرا ترعى لى ثمانى سنين **﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾** (القصص: ٢٧، ٢٨).

فتزوج موسى «صفرا»، وهى الصغرى منهما، وطلب عصا فقال له ادخل بيتى، أى الذى يأوى فيه، فخذ عصاك، وكان فيه عصى كثيرة، فدخل موسى البيت وأخذ من العصى عصا حمراء، فقال له شعيب: هذه عصا الأنبياء، انتقلت من آدم إلى شيث، ومنه إلى إدريس، وإلى نوح وهود، وصالح، وإبراهيم، واسماعيل، وإسحق ويعقوب، وكلهم توكأ عليها، فلا تخرجها من يديك، ثم أوصاه وحذره

من أهل «مدين»، وقال: إنهم قوم حسدة، وإذا رأوك قد كفيتني أمر غنمي حسدوني عليك فدلوك على وادي كذا وكذا، وهو كثير المرعى، وإنما فيه حية عظيمة تبتلع الغنم، فإن دلوك عليه فلا تمر به فإني أخاف عليك وعلى غنمي، فخرج موسى بالغنم، وكانت يومئذ أربعين رأسا، وقال في نفسه: إن من أعظم الجهاد قتل هذه الحية، وتوجه بالغنم إلى ذلك الوادي، فلما قاربه أقبلت الحية إلى الغنم فقتلها موسى ورعى غنمه إلى آخر النهار، وعاد إلى شعيب وأعلمه الخبر، ففرح بقتلها وفرح أهل «مدين»، وعظموا موسى وأجلّوه، وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها حتى انقضت المدة التي بينهما، وبلغت الغنم أربعمائة رأس، وعزم موسى على المسير.

وقد ورد أنه لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصاه، إنما كان يهش بها فقط، وكان لا يجيعها ولا يؤذيها بعطش، وجاء بها مرة إلى نهر ليسقيها فوجد فيها شاء عرجاء لا تقدر على الوصول إلى الماء فحملها ونزل بها فسقاها، فلما رأى الحق منه قوة شفقته على غنمه بعثه نبيا وكليما راعيا لبني إسرائيل، وناجاه بالتوراة وغيرها، كما يأتي، فمن رحم رعيته وشفق عليهم اصطفاه من بين الخلق، ومن لم يكن عنده شفقة ورحمة على خلق الله لا يرقى المراقي العلية المسعدة.

ولما أراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال: يا موسى إني قد كبرت وضعفت فلا تضيعني مع كبر سني وكثرة حسادي، أتترك غنمي شاردة لا راعي لها؟ قال موسى: إنها لا تحتاج إلى راع، وقد طالت غيبتي عن أهلي، فقال شعيب أني أكره أن أمنعك، وأوصاه على ابنته، وأوصاها أن لا تخالفه، وسار موسى عليه السلام بأهله يريد مصر حتى بلغ جانب «وادي طوى» في عشية شديدة البرد، فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على حافة الوادي، وأدخل أهله فيها، وهطلت السماء بالمطر، وكانت امرأته حاملا فجاءها الطلق، فجمع حطبا وقدح الزناد فلم يور فرماه وخرج من الخيمة فرأى نارا (فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، فلما آتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في

البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى أني الله رب العالمين) وأمره بخلع نعليه بقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه: ١١ ـ ١٤) الآية، فاكتسب موسى عليه السلام النبوة فى العود إلى مصر، كما اكتسب الزوجة الصالحة فى الورود منها إلى «مدين»، فمن الله سبحانه وتعالى عليه فى الأسفار بمراتب الأخيار والأبرار، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم. فيا لها اسفارا إلهامية أسفرت عن أسفار التوراة التى بينت للناس جميع التواريخ من أيام الخليقة إلى زمن موسى، كما بينت لأمته الأحكام والشرائع، وبشرت برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا شك أنه قد ترتب عليها ما لا يحصى ولا يحصر من المنافع مما كانت البلاد الشامية له من أعظم المنابع.

الفصل الرابع

فى أن الصوريين، وهم أهل سواحل بر الشام، قدموا فى سالف الأزمان التجارة والعلوم البحرية على وجه نافع

أهل سواحل الشام، فى القديم والحديث، هم أغنى أهل بلاد سورية، وكانوا يسمون فى قديم الزمان الفنيكيين(١)، وكانوا على سواحل البحر الأبيض الشامى، وكانت أعظم مدنهم مدينة «صور» التى كانت تسمى فى سالف الأزمان ملكة البحار، ويليها مدينة «صيدا» فى شماليها ثم مدينة «بيروت»، ولكون أرض السواحل كانت عقيمة لا يخرج منها ما يكفى لمعيشة سكانها اضطروا إلى تعليم الصنائع النافعة، لأن الضرورة هى الأصل الأصيل لاستفادة المعارف، فقد استفادوا بلمعان أفكارهم، وتكرار تجاريبهم، ووقوع أمور اتفاقية بالمصادفة، معرفة كثير من المنافع، انضمت إلى الصنائع.

وقد عرفوا من الأزمنة الخالية أن ركوب البحر يوصلهم إلى التجارات، وأعانهم على ذلك كونهم سواحلية، وبمجاورة جبل لبنان الكثير الغابات والأخشاب، فاستسهلوا ركوب البحر المالح مع ما يعهدون فيه من الأخطار ببلوغ الأوطار، مع أن السفر - كما فى الحديث النبوى - «قطعةمن العذاب»، إلا أن البركات مع الحركات..

وفى (التوراة) مكتوب: ابن آدم أحدث سفرا، أحدث لك رزقا. قال الشاعر:

---

(١) الفينيقيين.

بلاد الله واسعة الفضاء ورزق الله فى الدنيا فسيح

فقل للقاعدين على هوان إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

قال الإمام الشافعى، رضى الله عنه:

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

ولم يكن لهم دليل فى البحر إلا نجمة القطب، لأن «البصلة»(*) التى هى «بيت الإبرة» لم تكن تعرف عند الأقدمين، وإنما صار استكشافها فى الأعصر الجديدة، يعنى فى آخر القرن السابع من الهجرة، استكشف صناعتها وخاصيتها العرب، فهى من اختراعاتها المفيدة لعموم الناس، وليست من اختراعات الإفرنج، ولا اطلع عليها العرب عند أهل الصين، إذ كانت عندهم معلومة من أزمان قديمة، وهى «حق» مشتمل على ابرة مسقية بالمعناطيس، تتجه دائما صوب الشمال، يهتدى بها الملاحون صوب مقصودهم، كما يهتدون بالنجم الذى أنعم الله به على عباده، قال تعالى ﴿ **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ (النحل: ١٦) بعد قوله (وهو الذى سخر البحر) إلى آخره، والاهتداء بالنجم، الذى هو الثريا والفرقدان وبنات نعش، عام فى البر والبحر، ولو أنه ذكر بمعرض البحر، وكما يهتدى المسافر بالنجم فى البحر والبر فى الأسفار يهتدى به أيضا فى تحرى القبلة إذا عميت عليه، وكذلك «بيت الإبرة» مما تحرر به القبلة.

[مخترعات عربية]

فاختراع العرب «للبصلة» من المنافع العمومية المتأخرة التى كان لا يعرفها المتقدمون، ومع ذلك فاهتدوا، كغيرهم، بالنجم، ووصلوا إلى الأقطار القاصية،

(*) أى «البوصلة». (الشروق).

كالصوريين الذين نحن بصددهم، وذلك أنه لما ظهر الإسلام واستولى العرب بالفتوحات على ممالك الدنيا برا وبحرا تأهلوا لقبول التمدن الذى كانت آثاره لم تزل موجودة فى الدنيا عقب انقراض دولة الروم، فتصدوا للأسفار البحرية، وأظهروا الحروب، وفازوا بظفر الفتوح، وكانوا كالرومانيين فى مبدأ أمرهم، فركبوا السفن، وجندوا الجنود، وشنوا الغارات، واستداموا فى الأزمان والأماكن على تجشم الأخطار واقتحام البحار للتمتع بالتجارة، واخترعوا «بيت الإبرة» التى أعانت على الأسفار، فكانت تجارتهم فى القرن الثالث فى الأقطار المشرقية تنمو وتزيد فى البحر المتوسط، وقد لاحت أعلام الخلفاء على بحر الهند، فتصدى تجار العرب للتجارة فى جميع البلاد، فامتدت تجاراتهم إلى «جبل الطارق»، ومثلهم تجار الفرس، وجسمت معاملتهم التجارية فى الهند والصين، وصار لهم مراكز تجارية فى تلك الأقاليم، حتى أن من العرب من أقام فى جزيرة «سيلان» وفى المدن الهندية والصينية وانتشروا فى أماكن عديدة. وفى عهد الدولة العباسية تهذبت العلوم، وحسن التمدن، وأسست القصبات الجديدة على نهر الدجلة، وانتظم أمر التجارة، وصارت المراكب العربية الخفيفة تجول فى البلدان وتسير إلى جزائر الهند وبوغاز «ملقة»، فكانت تجارتهم فى كل جهة وكل مكان، وكانت المراكب الكبيرة تتوجه إلى جهة «سيراف» فى بحر العجم، وكثرت السياحات العربية فى سائر البلاد العربية، فارتفع شأن التجارة عند العرب حتى كانت أعظم شىء يشتغل به فى إصلاح المعاش، وتأسيس فى أمور التجارة فى أيام الخلافة المشرقية والمغربية، وعقدت المعاهدات مع الدول الأجنبية الاورباوية فى شأن الملاحة ببلادهم، لحسن استقامة أهل الإسلام فى المدن الأجنبية لا سيما مع الممالك التى على البحر، واستمر الأمر على ذلك حتى حصل حرب أهل الصليب فأضعف ذلك، فلما انتهت الحروب الجسيمة بين الإسلام والإفرنج عادت التجارة بين الطرفين على حالها، وصار جلب المصنوعات العربية من مصانعها إلى اطراف الدنيا جميعها.

ومن المصنوعات النفيسة التى سبق بها العرب غيرهم صناعات الساعات،

كالساعة التى أهداها الرشيد إلى كرلوس الأكبر ملك الإفرنج، فكانت إذ ذاك من نوادر العصر، وأما المصنوعات النفيسة المكملة الصنعة المخترعة للعرب فقد بقيت شهرتها إلى الآن كالأقمشة الموصلية والسيوف الدمشقية، وهذا غير اختراع ما لا يحصى من العلوم والفنون، ثم كبا بهم جواد الاختراعات وخبا منهم زناد الابتداعات، وصاروا كما قيل:

رب قـــوم رتعـــوا فى نعـــمـــة زمنـا والعـــيش ريان غـــدق

سـكت الـدهر زمـــانا عـنهـم ثم أبـكاهـم دمـــا حـــين نـطق

ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة، والمضاربة، والقرض، والمخابرة، والعارية، والصلح، وغير ذلك. ولا شك أن قوانين المعاملات الأورباوية استنبطت منها كالسفتجة[1] التى عليها مبنى معاملات أوربا، ولم تزل كتب الأحكام الشرعية إلى الآن تتلى وتطبق على الحوادث والنوازل، علما لا عملا كما ينبغى، وإنما مخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع أهل الشرق أنعشت نوعا همم هؤلاء المشارقة وجددت فيهم وازع الحركة التجارية، وترتب على ذلك نوع انتظام، حيث ترتب الآن فى المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الأهالى والأجانب بقوانين فى الغالب أروبية مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين، ولكل مجتهد نصيب، لا سيما فى هذه الأزمان التى تكاملت فيها الأسباب وتطبقت على المسببات، فشتان بين هذا العهد وعهد الصوريين الذين زاولوا فى التجارة الأخطار وركوب البحار، فاقتحموا المشاق فى تلك الأزمان، فاتسعت تجارتهم على وجه عجيب حتى عمرت

(١) السفتجة: «الكمبيالة». وفي [غرائب اللغة العربية] للأب رفائيل نخلة اليسوعي ص ٢٣٤ من طبعة بيروت سنة ١٩٥٩م نجد: لاسفته: ربما كانت هذه من سفت: متين، محكم. هذا أصل يدل على أن السفتجة محكم».

بلادهم بالمنافع العمومية، بل خرج منها قبائل عمرت جزيرتى قبرص ورودس وجزيرتى صقلية وسردانيا، ووصلوا أيضا إلى بلاد الأندلس، بل دخلوا البحر المحيط الغربى فصارت مدينة «قادس»[1] مركز تجارتهم، وكانوا يستخرجون من مملكة أسبانيا المكاسب العظيمة والمغانم الجسيمة لكثرة معادنها، فنالوا أغراضهم بمنافع بحرى العرب والعجم، حتى انفردوا فى تلك الأعصر بفوائد التجارات، وكانوا مختصين بمنافع البحرين المذكورين، يمنعون من سواهم من إجراء التجارة فيهما، كما انفرد أهل الهند زمنا طويلا بالانتفاع بهما، وبجلب منافع الهند النفيسة إلى سواحل بلاد العرب، ولما كثرت عند الصوريين الفضة، واستثقلوا حملها فى بعض الأسفار، اتخذوا منها هلوبا لسفنهم بدلا من الرصاص، ليكون حملها فى السفن لمنفعتين.

وبالجملة فبكثرة الأسفار والتجارات انتفعوا بمنافع غيرهم ونفائسهم، وكانوا يبالغون فى كتم أسفارهم البحرية وعدم تعريف الطرق والمسالك مخافة أن يزاحمهم غيرهم فى اكتساب هذه المنافع، فكانوا دائما يجتهدون فى أن وطنهم بالتجارة والملاحة، ويجعلون ذلك من الحقوق الخصوصية والمزايا الاحتكارية التى لا رخصة فيها للأغراب، وليس هذا التحكير كان خاصا بدولة الصوريين، بل كان أصلا لجميع الدول السالفة كل فيما يخصه، ويظن أن له الحق فى أولوية الانتفاع به، وإنما دولة الصوريين كانت فى تلك الأزمان ملكة البحار، خبيرة بالمسالك والممالك، فكانت مستحوذة بالفعل على التجارات، وكان غيرها من الأمم اذ ذاك معرفتهم بمسالك البحر قليلة جدا، فكانوا يحرصون على أن لا يدلوا أحدا عليها.

فقد حكى بعض المؤرخين أن الصوريين كانوا يسافرون إلى جزائر بحر الإنكليز المسماة جزائر القزدير، لا ستخراج معادن القزدير[2] والرصاص منها، وأن أحد الصوريين ذهب فى سفرة إلى تلك الجزائر القزديرية التى لم تكن معلومة إلا

---

(١) جزيرة بينها وبين الشاطئ الإسباني خليج صغير، وهذا الاسم أيضا لقرية من قرى «مرو».

(٢) القصدير.

للصوريين دون غيرهم، فلمح أن وراء سفينته سفينة أخرى رومانية ترود هذه السكة وتتعرفها، فاختار الصورى أن يقذف سفينته على رصيف هناك لتغرق ويهلك أهلها وتغرق السفينة الأخرى بجانبها، ففعل ذلك حتى لا تقفو السفينة الأجنبية أثره، فأتلف سفينة نفسه وغيره، واجتهد فى أن ينجو بنفسه، فنجا وذهب إلى أهل صور فى نحو قطيرة[1] فكافؤه على ذلك مكافأة عظيمة وجبروا خسارته وأغدقوا عليه بالإنعام وأكرموه غاية الإكرام، جزاء لما صنعه لمصلحة الوطن الصورى، فبعد أن كان لسان حاله ينشد بحسرة:

إذا نحن أُبنا سالمين بأنفس	كرام رجت أمرا فخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنائم أنها	تؤوب وفيها ماؤها وحياؤها

عاد ينشد بمسرة:

كم فرجة مطوية	لك بين أبناء النوائب
ومسرة قد أقبلت	من حيث تنتظر المصائب

فكان أهالى السواحل الشامية لهم فى الوطن محبة مستولية على الطباع، مستدعية لشدة الحرص على ثروته وشفاء الأطماع.

ومن أخبار حب الوطن وأبنائه من أهل الشام، لا سيما للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أن يوسف، عليه السلام، وصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه، ومما يؤثر عن الصوريين ما ذكر المؤرخون أن الملك «نخوس بن ابسميتكوس» أمر جماعة من الصوريين البحريين أن يكشفوا له حدود أفريقة بأسرها، فساروا من بحر القلزم[2] ثلاث سنين حتى طافوا حول أفريقة، واستكشفوا أطرافها وعادوا فى آخر السنة الثالثة من البحر الابيض الشامى، ودخلوا مصر من مصب النيل، وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بنحو ثمانية قرون، وهو من أعجب ما وقع من الصوريين حيث

---

(١) القطيرة: الشيء التافه.

(٢) البحر الاحمر.

استكشفوا سواحل أفريقة، ولا بد أنهم مروا برأس عشم الخير[1] خصوصا فى زمان كان سير السفن فيه وسط تلك البحار يكاد أن يكون مستحيلا، مع أنه لم يستكشفه البورتغاليون إلا فى آخر القرن التاسع من الهجرة، وسموه رأس عشم الخير تفاؤلا، وإلا فهو رأس التلاقيح، ومع استكشافهم له فلم يمروا عليه فى سياحاتهم البحرية إلا بعد خمس عشرة سنة.

ولما أرسل البورتغاليون أناسا من أهاليهم فى هذا الإقليم للإقامة به، ولإدخاله فى أملاكهم الخارجية، أخذه منهم الإنكليز واستولوا عليه، فمن ذلك الوقت صار هذا الإقليم نافعا للإنكليز فى سلوك طريق الهند، ذهابا وإيابا، وأهله ما بين سود وبيض على التناصف فى قبضة الانكليز، فقد أسسوا على هذا الرأس مدينة إنكليزية تسمى مدينة «الكاب»، وهى أبعد مدينة إفريقية جهة الجنوب، ترسى عليها جميع السفن الذاهبة إلى الهند والحاضرة منه.

[سبق الصوريين]

ومن سياحة الصوريين فى أفريقة بأمر ملك مصر يستنتج نتيجتان عظيمتان، يستدل منهما على تقدم دولتين عظيمتين وهما دولة مصر الآمرة بهذه السياحة العظيمة، وهى مشروع جسيم فى الإعانة على المنافع العمومية لا يخطر إلا بخاطر دولة متمدنة محبة للتقدم العجيب، ودولة مأمورة ذات ملاحة وسياحة بحرية ذات سفن عظيمة تقتحم أخطار البحار، وتبحث عن المنافع العامة فى شاسع الأقطار، وكل يدل على أن هاتين الدولتين كان عندهما فى تقديم المنافع أعمال الأفكار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

ثم أن الصوريين هم أول من استكشف الصباغة باللون الأحمر الأرجوانى الذى كانت تتخذ الأمراء من مصنوعاته الحلل والثياب والمضارب والقباب، وكان استخراجهم لهذا اللون المجهول عندهم من الصدفة والاتفاق، وذلك أن بعض

---

(١) رأس الرجاء الصالح. ولقد ذكر «هيرودوت» أخبار رحلة الفينيقين هذه حول أفريقيا.

رعاتهم رأى كلبا جائعا كسر محارة من صدف البحر فأكلها، فتلون حنكه باللون الأحمر الارجوانى، فأعجبهم ذلك اللون البهيج، فاستخرجوا من المحار هذه الصبغة وصبغوا بها الاقمشة حتى أتقنوا صبغتها، فصار هذا اللون بعد مدة زينة للملوك فى ذلك العهد، لا سيما ملوك مصر، وكثيرا ما تكون الاتفاقيات سببا فى اختراع الصنائع وتكثير المنافع، ومن جملة ما اخترعه الصوريون، مما أورثهم الشهرة، فن الكتابة حيث اخترعوا حروف الهجاء المستخرج منها الحروف الافرنكية.

وأول من نقل حروف الهجاء من الصوريين اليونان، ومن كتابة اليونان القديمة استخرج اللاطينيون حروفهم الهجائية، ومنهم استخرج جميع أهالى أوربا حروفهم، فهذه الحروف القليلة وصلت الامم إلى معرفة العلوم، فكانت آلات لجميعها، فهى فى الحقيقة تعد من مآثر الصوريين، وهذا أما الهام ربانى لبعض أنبيائهم، على أن الواضع هو الله سبحانه وتعالى، فإن كانت هذه الحروف الصورية من وضع البشر فالافعال كلها لله ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦) وعلى كل حال فهى آثار نافعة. .

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

(وقال آخر)

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الارض آثار

وهذا القول ينبغى أن يكون بالنسبة لحروف الهجاء التى تأسس عليها خط أمم أوروبا، وإلا فالكتابة قديمة بدليل صحف شيث ونحوها، بل هى داخلة فى تعليم آدم الأسماء، ومما يدل على ذلك الحروف الأبجدية التى لها خواص وأسرار إلهية، فلا شك فى قدمها، وأنها ليست من محض وضع البشر، فإن هذا لا يسلمه العقل السليم، وعلى كل حال فإن كانت الكتابة المخصوصة من اختراع الصوريين، وأنهم أول من كتب بالقلم فى بلادهم وبين أممهم، وانتقل منهم إلى اليونان، فلهم فضل لا ينكر، فإن الكتابة فى حد ذاتها من الفضائل الأولية، وفضل الكتاب دائما

متداول على ألسنة ذوى الألباب، قالوا: الكتاب سياسة الملك وعماده، وأركان السلطان وأطواده، بأقلامهم تبسط الأرزاق وتبيض الآمال، وبها تصان المعاقل إذا عجزت عن صونها الرجال. وقالوا: الكاتب مالك الملك يصرفه بقلم الإنشاء كيف يشاء. وقالوا: لو أن فى الصناعات صنعه مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صناعة. وقالوا: الكتاب قطب الأدب، وفلك الحكمة، ولسان ناطق بالفضل، وميزان يدل على رجاجة العقل، وبالكتابة والكتاب قامت الرياسة والسياسة، وإليهم ألقى تدبير الأعنة والأزمة، وعليهم يعتمد فى حصر الأموال وانتظام شتات الأحوال، وما مدحوا بأحسن من قول القائل:

قوم إذا أخذوا الأقلام من قصب ... ثم استمدوا بها ماء المنيات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ... ما لا ينال بحد المشرفيات

ومن قول الآخر:

قوم إذا خافوا عداوة بينهم ... سفكوا الدما بأسنة الأقلام

ولضربة من كاتب بلسانه ... أمضى وأنفذ من رقيق حسام

* (مفرد فى المعنى) *

له يراع سعيد فى تقلبه ... إن خط خطا أطاعته المقادير

وقال ابن المقفع[1]: الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك. ومن فضل الكتابة أن صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه، ورسالة المفاخرة بين السيف والقلم مشهورة منها لابن الرومى[2] فى تفضيل القلم على السيف:

---

(١) عبد الله (روزبة) بن داذويه (٧٢٤-٧٥٩م) أديب، أجاد صنعة الكتابة، واشتغل بالترجمة من الفارسية للعربية، أمر المنصور العباسي بقتله لأسباب سياسية.

(٢) علي بن العباس بن جريج (جورجيس) (٨٢٦-٨٩٦م) شاعر أجاد وصف الطبيعة وتجسيدها في شعره، وكان صاحب نظرة متشائمة.

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت له الرقاب ودانت خوفه الأمم

فالموت، والموت لا شيء يعادله ما زال يتبع ما يجرى به القلم

ومن موجز البلاغات فى المكاتبات ما كتبه يزيد بن عبد الملك[1] إلى مروان بن محمد[2]، وقد بلغه تلكؤه عليه فى بيعته: أما بعد - فإني أراك تقدم رجْلا وتؤخر أخرى، فما تدرى أيهما أحرى، فإذا أتاك كتابى فاعتمد على أيهما شئت. ويقرب منه ما كتبه بعض الملوك إلى «قرا أرسلان» وقد بغى عليه: الذى تعلم به قرا أرسلان أنا نحن نزلنا بغداد صباحا فساء صباح المنذرين، فأمرنا أهلها بالدخول تحت طاعتنا والخروج عن معصيتنا فأبوا فحق عليها القول فدمرناها تدميرا، فإن كنت ممن يدخل تحت طاعتنا ويخرج عن معصيتنا فروح وريحان وجنة نعيم، وإن كنت إلا كالحافر لقتله بظلفه والجادع لمارن أنفه بكفه فسوف نلحقك بالأخسرين عمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. فرجع لوقته.

ومع كثرة معارف الصوريين، واتساع تجاراتهم برا وبحرا، فكانوا عبدة أوثان وأهل بدع وأوهام، فمن بدعهم الفاسدة أنهم كانوا يقربون الآدميين قربانا لآلهتنهم، وهذه العادة، وإن كانت بشعة فى حد ذاتها وواقعة فى كثير من أقاليم الأرض عند الأمم المتبربرة، ألا أنها أقبح عند الصوريين لتمدنهم.

ويقال إن مملكة «صيدا» كانت دار ملك الفنيكيين، يعنى أهل السواحل الشامية، ثم نشأت مدينة «صور» المذكورة، وصارت عامرة جدا، وهى التى كانت منبعا للمنافع العمومية، وقد ذهب منها جماعة إلى بلاد المغرب فأسسوا مدينة قرطاجنة وعمروها وجعلوها مملكة عظيمة قبل الميلاد بثمانمائة وتسعين سنة.

وسبب مهاجرة الصوريين إلى بلاد المغرب أنه كان فى سواحل الشام على بلاد الصوريين ملك ظلموم غشوم يسمى «بغماليون»، كان من الجبارين، وكان له أخت

---

(١) خليفة أموي، حكم من سنة ٧٢٠ حتى سنة ٧٢٤م.

(٢) آخر خلفاء بني أمية، حكم من سنة ٧٤٤ حتى سنة ٧٥٠م.

تسمى «ديدون» متزوجة بأمير يقال له «سيشه»، فقتله ذلك الملك لقصد سلب أمواله، فجمعت «ديدون» ما عند زوجها من الأموال وجميع ما فى خزائنه وفرت إلى أفريقة بالمغرب، وأسست هناك مدينة قرطاجنة، فعمرت هذه المدينة حتى فاقت فى الغنى والثروة والبطش والقوة مملكة الصوريين، وصارت فيما بعد مقارنة لرومية دار سلطنة الرومانيين، وفيما بعد اشتدت العداوة بين المملكتين كما تقدم ذكره فى (الفصل الثانى) من (الباب الثانى) من هذا الكتاب. ثم انتهى أمر الصوريين بعد العز والطنطنة أن صاروا رعايا للعجم واليونان والرومانيين، إلى أن صار فتح العرب بلادهم بالإسلام بفتوح الشام، وقد أسلفنا فى أثناء الكلام على الصوريين بعض شىء فى تقدم العرب بما ناسب المقام.

الباب الثالث

[فى تطبيق المنافع العمومية فى الأوزمان الأولية على مصر المحمية، وأنها كانت من التمدن والتقدم بمكانة عليَّة.

وفيه فصول].

الفصل الأول

فى تقدم مصر وغناها فى عدة أزمان سابقة
وأدوار متناسقة، وحيازتها
للمنافع العمومية بوجه إجمالى

المتباد لآراء أرباب العقول الذكية أن أعظم البلاد الساحلية قابلية للتقدم فى المنافع العمومية هو الديار المصرية، وأنه لم يتقدم على ساحل البحر الأبيض مثل بلاد مصر، فيما يخص الزراعة والصناعة، وأنها كانت أشغالها وعملياتها متقدمة تقدما عظيما، وأن حركة المنافع العمومية فيها كانت على غاية ما يمكن من النشاط والإتقان، فإن صعيدها الأعلى، الذى هو الوجه القبلى، مع اتساع أراضيه لا يبعد من النيل إلا مسافة أميال، وأقاليمها بالوجه البحرى يقسمها النيل إلى عدة فروع، ففى كلا الوجهين يمكن، بمساعدة اليد الصناعية والعملية، توصيل متاعها ومحصولها من بعض المدن الكبيرة إلى بعض، كما يمكن نقلها إلى القرى والكفور من قرية إلى أخرى ومن ضيعة إلى أخرى أو إلى مدينة وهكذا، وهذا بأقل المصارف ويسير الكلفة برا وبحرا.

ومن المعلوم أن نيل مصر واسع جدا، يسهل فيه سير السفن فى داخل البلاد بعضها مع بعض، فالظاهر أنه أقوى سبب فى كون الديار المصرية اكتسبت قبل غيرها من الممالك فى الأزمان الخالية صفة الثروة والغنى، وتقدمت فى المنافع العمومية، وتمكنت فى منقبة التمدنية، كما دلت عليه التواريخ، فكان تمدنها تمدنا رفيعا، متسع الدائرة فيما يخص الصنائع، مستوفيا للغنى، مستوعبا للمتانة وعلو المكانة، كما يشهد لذلك ما يوجد فى صعيد مصر من المبانى التى لم تزل قائمة على

ساقها إلى الآن، فليس أعدل من شهادة مدينة «طيوة»[1] ذات المائة باب، فإن رسومها القديمة وآثارها الجسيمة مما يعجب منه أولو الألباب، وقد توصل السواحون إلى الوقوف على ما فيها تحت الأرض من المدافن والقبور، وقرؤوا تاريخ بنائها الأزلى فوجدوها قد مر عليها خمسة وعشرون قرنا قبل الميلاد، ولم تغيرها العصور والدهور، وقد استخرج فى هذه الأيام بالنبش فى معبد قديم بمملكة «نابولى»، إحدى ممالك إيطاليا، ستة أعمدة من المصنوعات المصرية المنحوتة من الصوان الأحمر، منها أربعة كبار طول العمود أربعة أمتار وثلث متر، وقطر محيطه اثنا عشر سنتيمترا، ويعلم من ارتفاعها وتناسب سمكها وبريق لونها أن صنعها بهذه المثابة كان فى عصر موجود به فن نحت الأحجار بمصر، وأن مصر إذ ذاك كان لها التقدم فى هذه الصناعة من أحقاب خالية، وأما العمودان الآخران فصغيران، ولكل منهما قاعدة من نوع الطبخ المذهب، وإكليل غريب الشكل، وقد بيعت هذه الأعمدة فى باريس بأربعين ألف فرنك فى المزاد، ولاشك أن استخراج هذه الأعمدة كان من محاجر مصر، ونقلها إلى بلاد الرومان، ووضعها فى معابدها القديمة، ثم استخراجها الآن بعد مرورنحو الألف سنة، وهى على حالة حسنة، ومبيعها بهذاالمبلغ يدل على كمال صناعتها وقوة مادتها، فمثل هذه الأعمدة الغريبة والمبانى العجيبة، الحسنة النقش، المختلفة الألوان البهجة، المكتوبة بالأقلام القديمة المصرية، تنطق بلسان حالها بتقدم مملكة مصر فى درجة التمدن، ولكن لا يفصح لسان مقالها عن حقيقة الحوادث الداخلية التى أوجبت هذه الرموز التصويرية، نهاية الحال أن ما هو منقوش عليها من التاريخ لبنائها يفيد قوة ملك مصر الذى حصلت هذه المبانى فى أيام سلطنته، وأن فى أيامه كانت المعارف بالآلات والأدوات عجيبة، وهذا كله يدل على شوكة هذه الدولة وتقدمها فى الصناعة والمهارة، ويستفاد أيضا من هذه الكتابات القديمة أن هذا الملك العظيم سار بجيش جرار عدة مرات إلى أقاصى الممالك، وانتصر فيها النصرات العظيمة، وفتح الفتوحات الجسيمة، وبلغ مناه وشفى غليله من عداه، وزاد فخارا على فخاره، واتسعت دائرة

---

(١) طيبة.

علو قدره واعتباره، وهذه الحروب كانت - كما يفهم من النقوش والرسوم - مع سلطان عظيم، صاحب شوكة قوية وارتفاع شأن معلوم، وهو سلطان «بابل» العراق، الذى لا يوازيه فى القوة والشوكة من ملوك ذلك العصر إلا ملك مصر الذى كان بينه وبين ذلك الملك الشقاق والوفاق، فإن فى ذلك الزمن المعهود كان أشهر مدن الدنيا مدينتين متسابقتين فى ميدان الفخار، ومتنافستين فى كسب الاعتبار، وهما مصر وبابل.

[الحضارة البابلية]

وقد دل أقدم التواريخ على أنهما كانتا، دون غيرهما، سلطنتين عظيمتين، ودولتين بالحدود متجاورتين، تميزهما الحدود الطبيعية كالبحر المالح والنيل، وأن غيرهما من الممالك ليس من هذا القبيل، فكان لمصر مملكة الغرب مخلدة، ولبابل مملكة الشرق مؤبدة، وبين مملكتى الشرق والغرب تارة الصلح وتارة الحرب، وجميع من كان من الأمراء والملوك له عنوان الملوكية والحكومة فإنما كان بالنيابة والفرعية عن هذه الجرثومة، وكانتا من أجلِّ الممالك المعتبرة، بما اشتهرتا به من عجائب السحر وغرائب السحرة، وناهيك بمن تعلم السحر من «هاروت» و«ماروت»، وحسبك ما جمعه فرعون لموسى من المدائن من كل سحار عليم لنصرة الطاغوت، وبهذا كان لهم الولاء التام على من جاورهما من الملوك والحكام، وكان بين المملكتين كمال الالتئام ووثوق العهد الذى لا يعتريه نقض ولا إبرام، وبقى هذا الوصف الجليل إلى أيام حرب «تروادة» كما ذكره «أميروس» الشاعر، فقد نص على أنه كان فى أيامه بينهما الصلح الكامل، ثم استبان مما ذكره المؤرخون أنه عرض لهما فى آخر القرن الثامن قبل الميلاد ما يطرأ على الممالك من التمزيق، فضعفت مملكة مصر وتمزقت مملكة العراق. فسبحان مقسم الأرزاق ومالك الآفاق.

ومن المعلوم أن الذى أسس بابل هو «النمروذ» الذى هو ابن حفيد سيدنا نوح،

عليه السلام، كما هو نص (التوراة)، وأما مؤرخو اليونان والرومان فقد نسبوا تأسيس مدينة بابل إلى «سميراميس»، زوجة مينون أحد عساكر ملك بابل المسماة هذه الملكة «سمير» فى التواريخ المشرقية، وبيان ذلك أن مملكة بابل كان يجاورها فى قديم الزمان مملكة «أثور»[1]، يعنى بلاد الكردستان، وكان دار مملكة الكردستان مدينة «نينوى» يعنى مدينة سيدنا يونس، عليه السلام، بناها الملك أثور، ثم حسنها الملك نينوس، فكانت مدينة عظيمة فى طول ثمانية فراسخ ونصف، لا يطوف السائر حولها بمحيطها إلا فى نحو ثلاثين ساعة، وكان ارتفاع سورها الخارج عنها مائة قدم، واتساع جدار الأسوار عريض بحيث يسير فوقه ثلاث عجلات بعضها فى جانب بعض ولو مع غاية السرعة، وكانت مدينة حصينة، وفى داخلها خمسة عشر برجا، ارتفاع البرج مائتا قدم، ولما تزوجت سميراميس نينوس ملك مدينة نينوى، التى كانت إذ ذاك تحت كل من مملكة العراق ومملكة الكردستان، اللتين صارتا كالمملكة الواحدة، ألبسها التاج وسلمها البلاد، حيث كانت وهى فى عصمة زوجها الأول قد اشتهرت بأفعال الشجعان فى واقعة من الوقعات العظيمة، وكانت قوتها العسكرية نحو مليون من النفوس، فصاروا فى تصرفها، فلما مات نينوس أعقب منها ولدا قاصرا يقال له نناس، فتقلد المملكة، وكانت أمه سميراميس وصية عليه، فصار بيدها زمام الملك، وأرادت إحراز الشهرة والصيت وكسب الفخار المخلد، فبنت مدينة بابل، وزينتها بأنواع الزينة على مثال مدينة نينوى، وبقدر اتساعها، وبنت أسوارها بالآجر والقراميد، وجعلت مؤنة البناء بمادة قارية صلبة قفرية، وجعلتها عريضة الأسوار بحيث يمر بها ست عجلات متلاصقة تسير متوازية مع بعضها على حذاء واحد مع غاية السرعة، ويقال إنها حفرت حولها خنادق عميقة، وجعلت فوق الخنادق مائة قنطرة من النحاس كل قنطرة توصل إلى بابل، وعملت فوق بيوت المدينة بساتين معلقة جميلة الشكل تجرى بها المياه فى الغدران والجداول، وتصل إليها من برامج عجيبة بتدبير عجيب، وجعلت فى المدينة الميادين الوسيعة والرحبات الفسيحة المغروسة بالأشجار من جميع الأقطار

---

(١) أشور.

والجهات، بحيث يمكن السير فى المدينة من باب إلى آخر من أبواب القناطر بدون أن يكون للشمس سلطنة على أحد، ولا عظيم سلاطة للمطر، لالتفاف الأشجار بعضها ببعض وتعريشها. وكانت بابل على نهر الفرات، على قول أغلب المؤرخين، ونينوى على نهر الدجلة.

فيفهم من هذا أن بانى بابل هى الملكة سميراميس، وهو مخالف لكلام (التوراة) من أن البانى لها هو «النمروذ» مع ما بين زمانيهما من القرون العديدة والدهور المديدة، ولعل هذه الملكة بنت مدينة على أطلال بابل، وكانت قد خُرِّجت بمر الدهور وكر العصور، أو بنت أخرى فى غير محلها وسمتها بهذا الاسم محاكاة للنمروذ، وكان تحت يد هذه الملكة فى مملكة العراق من سواحل الشام وفلسطين إلى نهر السند ببلاد الهند، حتى إن عساكرها طردت عساكر مصر من تلك الجهات المشرقية التى كانت متغلبة عليها إذ ذاك، وكانت كلما انتصرت بقوة شجاعتها زادت مطامعها فى الفتوحات، ولشجاعتها وخفة حركتها سميت سميراميس، يعنى الحمامة، لأنها تتردد لفتوح البلاد، بل صار اسمها كأسماء الأجناس على كل ملكة اشتهرت بالشجاعة واقتحام الأخطار فى البلاد البعيدة لقصد الفتوح، ولذلك يقال «لكاترينة» الثانية ملكة الموسقو سميراميس الشمال أيضا، لأنها جمعت الممالك الثلاثة، وهى مملكة أسوج ومملكة نروج ومملكة دانيمرقه. وقد قلنا فيما سبق إن تلك الملكة كانت تحكم العراق والكردستان وما يتبعهما من الممالك الواسعة بالوصاية على ولدها نيناس لكونه قاصرا.

وفى مدة وصايتها بنت أيضا فى بابل هيكل الشمس الذى داخله متخذ من الذهب، وبنت أيضا عدة مدائن أخر، وأرادت أن تتوغل فى بلاد الهند، فسارت بجيش كبير، فانتصر عليها ملك الهند، وفرت مدبرة إلى بلادها، وكان ولدها قد بلغ رشده، وتأهل لأن يحكم ممالكه بنفسه، فتقلد زمام المملكة، واستبد برأيه، فأحبت أن تجذبه إليها، وتدنو منه باستمالته إليها لجمالها وتشويقه إلى وصالها، فراودته عن نفسه حتى يصير الحكم فى يدها إذا استولت على قلبه، فاستعاذ من الفجور، وأبى إلا النفور، لا سيما وأنه استشعر بأنها قتلت والده بالسم، فسلك

سبيل الانتقام، وأذاق حمامته كأس الحمام، وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بثلاثة عشر وألف ومائتين.

وكان الملك نيناس قليل الطمع فى الفتوح، فقنع بما تحت يده عن الطريف بالتلاد، وانزوى فى قصره متنعما بأهل بيته بعيدا عن العباد، ولم تعلم وقائع غريبة حصلت فى مملكة العراق وكردستان فى خلال ثمانمائة سنة، حتى تسلطن عليها الملك سردنيال سنة سبعمائة وسبعة وستين قبل الميلاد، فانهمك هذا الملك على اللذات والشهوات، وأغار عليه أهل أذربيجان وحاصروه أشد المحاصرة، فمن شدة المضايقة أحرق نفسه ونساءه، فاستبد أهل أذربيجان بالحكم، وخلعوا طاعة بابل، ثم دخل أهل أذربيجان وبابل تحت مملكة العجم، وكان حكماء البابليين يتقنون رصد الكواكب لكثرة الصحو وقلة الغيوم بهذه البلاد، فصار لهم كمال الوقوف على العلوم الفلكية، وهم الذين اخترعوا المزاول وتشبثوا بعلم التنجيم، وزعموا معرفة حوادث الأزمنة المستقبلة من أنواء النجوم، وتولع الناس بتقليدهم وتصديق أوهامهم الفاسدة التى يبطلها الشرع ويكذبها العقل، فهل هذه الأشياء تعد من كبوات الأجياد، وهفوات الأمجاد، أو من بدع الجاهلية الأولى الظاهرة الفساد، وضلالات أهل الكساد، والظاهر أن هذه الأمة أضلتها الكواكب ضلالا مبينا حتى عبدوا الشمس، وكانوا يعرفون الإله الحق يقينا، فالتنجيم فن مذموم ولكن لا بأس بعلم النجوم، فقد كانت العرب أشد عناية بمعرفة النجوم، وقد قيل لأعرابى: ما علمك بالنجوم؟ قال: من ذا الذى لا يعلم أخداع بيته، وقيل لأعرابية: أتعرفين النجوم؟ فقالت سبحان الله! أما نعرف أشباحا وقوفا علينا كل ليلة؟!

وبالجملة فكانت الفنون والعلوم والصنائع ببلاد العراق فى غاية التقدم، وكان فيهم سوق التمدن نافقا، فكانوا يتنافسون ويتفاخرون فى المطاعم والمشارب والزينة والزخرفة، واشتد انهماكهم على اللذات والشهوات، خصوصا لما تولى عليهم كيروش ملك العجم، ففسدت أخلاقهم وانحل نظامهم، وأما مصر المقارنة لبابل فقد تنزهت ملوكها عن مثل هذه الرذائل.

[حضارة مصر القديمة]

فقد أجمع المؤرخون على أن مصر، دون غيرها من الممالك، عظم تمدنها، وبلغ أهلها درجة عليا فى الفنون والمنافع العمومية، فكيف لا وإن آثار التمدن وأماراته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة وأربعين قرنا يشاهدها الوارد والمتردد، ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج، مع تنوعها كل التنوع، فجميع المبانى التى تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هى من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها، فانظر إلى آثار «منف» وأبنيتها وعجائبها وأصنامها ودفائنها، مما يحكيه المؤرخون عنها، وأنها كانت ثلاثين ميلا بيوتا متصلة، وفيها بيت فرعون، وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الأخضر، وكان لها سبعون بابا، وهى مدينة المملكة المصرية، وكانت منزل الملوك من القبط الأولى والعماليق ومسكن الفراعنة، وما زال الملك بها إلى أن ملك الروم اليونان ديار مصر، فانتقل كرسى المملكة منها إلى الإسكندرية، ومع ذلك لم نزل عامرة إلى أن جاء الإسلام، ثم خرجت، وفيها كامن الأنهار تجرى من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار.

ويقال إن ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقوا على أن يصنعوا مثلها لما أمكنهم ذلك وكان فرعون إذا أراد الركوب من منف إلى عين شمس صنع صاحب المرقب علامة، فإذا رأى صاحب عين شمس تلك الإشارة تأهب لاستقباله، وكذا يصنع إذا أراد الركوب من عين شمس إلى منف، لأن كلا من المدينتين كان تخت المملكة، ويقال إنه كان بمنف قبة فيها صور ملوك الدنيا.

ولما دخل المأمون مصر فى سبع عشرة ومائتين، وقد رأى مدينة منف، أنشد الأبيات الآتية:

سألت أطلال مصر	عن عين شمس ومنف
فما أحارت جوابا	ولا أجابت بحرف

وفى السكوت جواب لذى الفطانة يكفى

وهل علامات التمدن ودلائل العظم إلاّ ثلاثة أشياء، وهى: حسن الإدارة الملكية، والسياسة العسكرية، ومعرفة الإلوهية، فهذه الثلاثة أساس تمدن الممالك العدلية على العموم، والمصريون من قديم الزمان كانوا منقادين للحكم الملوكى، فكانوا مطيعين لملكهم، وكان الملك منقادا أيضا لقوانين المملكة وأصولها، فكانت حركاته وسكناته على طبْق القوانين، وكانت حكماء مصر تذكر الملوك دائما بالحقوق والواجبات، وتحثهم على التمسك بالفضائل الملوكية، وتلعن من يصرفهم عنها من بطانة السوء وأهل النفاق، وكانت الملوك فى تلك الأوقات يشتغلون بمطالعة الحكم والآداب، والمواعظ والتواريخ، وكل ما يرشد إلى العدل والاستقامة، وكانت مصر منقسمة إلى عمالات، على كل عمالة حاكم، وأراضيها مملوكة لثلاث طوائف منقسمة بينهم، قسم للملك، وقسم لأمناء الدين، وقسم للعساكر المحاربين، وأما بواقى الطوائف فكانت معايشهم من أعمالهم وصنائعهم، فهذا التقسيم قوى شوكة أمناء الدين وجعلهم مختصين بممارسة العلوم وبتقنين القوانين الملكية وبنفوذ الكلمة فى الحكومة.

وكانت مصر كثيرة الجنود والعساكر، ولهم أصول تحملهم على الشجاعة، فكان العسكرى الذى يظهر الجلادة فى الحرب يعطى علامة الشرف والافتخار، والذى يجبن عن الحرب أو يفر من الزحف يعاقب بوسمه بعلامة العيب والعار والافتضاح، بحيث تكون السمة ظاهرة على بدنه تلوثه وتدنسه بين أهل وطنه، والظاهر أن إقطاع الأراضى للمحاربين كانت سببا فى كثرة أموالهم ورفاهيتهم، فترتب عليها فيما بعد فتور همتهم فى الحروب، وترتب على ذلك أيضا، بتداول الأزمان عدم القدرة على مقاومة كل من كان يهجم على مصر من الأمم، إلا أن هذا لا يمنع من أن الإدارة العسكرية كانت متقدمة عندهم، بدليل أن الملك «سيزستريس» جَيَّش جيشا عظيما لقصد سلب بلاد العراق والعجم والهند وفتوحها، فسار إليها من طريق الشام، فاستولى على بلاد فلسطين، وفتح العراق

والعجم والهند، وبنى ببلاد العجم مدينة شلمينار، التى سميت فيما بعد مدينة اصطخر، وما ذاك إلا بقوة عساكره وضبطهم وربطهم.

وأما الديانة عند المصريين فكانت أيضا مرتبة، إذ كان أمناء دينهم يعتقدون الوهية الذات العلية، وكان لهم أسرار عجيبة، فكانوا لا يظهرونها إلا لقليل من الناس، وكانت العامة يعبدون الأوثان، ومنشأ عبادتها عندهم أنهم كانوا يُؤَلِّهُون كل من اخترع أمرا غريبا من قانون أو علم أو فن، فكانوا متقدمين فى الهندسة والمساحة والآلات الهندسية، كعلم الجغرفيا والنجوم، وكانت كتابتهم بالقلم القديم البربائى، الذى كان يعرفه حكماؤهم وأمناء أديانهم، فكان كالرموز بينهم، فكانت علومهم سرية مخفية عن العوام، حتى لما ظهرت الحروف الهجائية وانتشرت عندهم كما انتشرت فى الممالك لم تزل صحف العلوم المصرية ترسم بالقلم القديم البربائى.

ومن اختراعاتهم العجيبة آلة الحراثة التى انتفع بها جنس البشر عموما، حيث تقدمت الفلاحة، وبه تولد التمدن بين جميع الناس، مع اختراع السواقى والنواعير إلهاما لهم من اللطيف والخبير، فإنها أساس لآلات السقى بأحسن تدبير، وكانت الدولة المصرية تعرف قيمة العدل والإنصاف، وإنه الأصل فى سعادة الممالك، فانتخبت من مدنها الثلاثة التى هى عين شمس ومنف وطيوة قضاة لتدبير أحوال المملكة، وجعلتهم أرباب المشورة القضائية، وكانوا ثلاثين قاضيا، فكانت محكمتهم نافذة الحكم على غاية من الاحترام، وكانت مصارفها على طرف الحكومة الملوكية، وكان الملك يأخذ عليهم العهد أن لا يطاوعوه إذا أمرهم بشىء خارج عن الحد، وكانت مذاكرة المجلس فى المصالح والقضايا والآراء تكتب بالقلم، والمناقشات والمحاورات والمرافعات كذلك، لئلا يخفى الحق بالفصاحة واللسن، لما فى البيان من السحر، وكان للحق صورة مجسمة، فإذا ظهر الحق لأحد الخصمين رفع الرئيس الصورة بيده وأذن للمحق أن يضع يده عليها إشارة إلى أن القاضى فى الحقيقة ونفس الأمر إنما هو الحق، فهو الحاكم الحقيقى.

وكان فى أحكام المصريين عقاب الزنا شديدا جدا، لكونه من الكبائر المضرة للأمة، فكانوا يجلدون الرجل ألف جلدة، ويجدعون أنف المرأة، وأن من قدر على تخليص المقتول من القاتل بدون حق ولم يخلصه فجزاؤه القتل، وأنه لا تسلط للدائن على ذات المدين، بل وفاء الدين محله أموال المدين لا شخصه، وكانت قوانينهم تميل إلى الحث على العمل وقطع عرق البطالة والغش والتدليس، وغير ذلك من الموبقات، وذلك أنه يجب فى آخر كل سنة التفحص عن أحوال الأهالى فردا فردا، فيسأل كل إنسان عن مواد تعيشه ومن أين اكتسبها، وكل من ظهر أنه تعيش من وجه حرام فجزاؤه القتل، وهذا القانون من وضع الملك «أمسيس». فمن هذا يفهم تقدمهم فى التمدن، وأن مملكتهم فى الأزمان السالفة كانت عادلة محترسة، مستنيرة بالمعارف.

وقد دلت التواريخ أن ديوان حكومتها كان فى غاية اللطف والتهذيب، واستقامة الأخلاق والآداب، وحفظ ناموس العرض والأدب والحياء، وكان على غاية من حفظ الرسوم الملوكية المعتبرة، والعوائد السلطانية المقررة، وقد قامت البراهين والدلائل على استمرار أبهة التمدن على تعاقب القرون الكثيرة فى أيام الملوك الأوائل، ومما يعضد ما قاله المؤرخون واستكشفه الحكماء الراسخون قصة يوسف، عليه السلام، فإن مضمونها لفصل القول أحدّ من الحسام كما سنبينه فى (الفصل الثانى) من (الباب الثالث) من ذكر هذه القصة الصديقية التى يستنتج منها فى هذا المعنى معارف تصورية وتصديقية.

الفصل الثانى

فى تأييد تقدم مصر وامتيازها بالمعارف فى الزمن القديم، أخذا من قصة القائل: (إجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم)

كان يعقوب، عليه السلام، قد ولد فى زمن جده إبراهيم، ونبئ فى زمانه أيضا، وتزوج زوجتين أختين، إحداهما بعد الأخرى، فولدت له الثانية يوسف، عليه السلام، وبنيامين، وماتت فى نفاس بنيامين، وكانت الأولى ولدت منه ستة أولاد، ثم تزوج بعد الثانية التى ماتت زوجة أخرى، ورزق منها أربعة، فكان أولاد يعقوب اثنى عشر، وهم الأسباط، وكان أحب أولاده إليه يوسف، فحسده أخوته، فاحتالوا عليه، قالوا: يا يوسف، أما تشتاق أن تخرج معنا فنلعب ونتصيد؟ فقال: بلى، قالوا: فسل أباك أن يرسلك معنا، فاستأذنه، فأذن له، فلما خرجوا إلى الصحراء أظهروا له ما فى أنفسهم من العداوة، ففطن لما عزموا عليه، فأخذه أخوه روبيل، الذى هو ابن خالته أيضا، فضرب به الأرض وجلس على صدره ليقتله، وقال ليوسف: قل لرؤياك تخلصك - وكان قد رأى، وهو ابن سبع سنين، الشمس والقمر والنجوم ساجدين له - فصاح على أخيه الآخر يهوذا وقال: حل بينى وبين من يريد قتلى، فقال يهوذا: إلقوه فى غياهب الجب، فنزعوا قميصه لإلقائه، فقال: ردوه على استر به عورتى، ويكون كفنا لى فى مماتى، فلما ألقوه استقرت قدماه على حجر مرتفع من الماء. وذبح أخوته جديا فلطخوا به القميص، وقالوا أكله الذئب. ومكث فى الجب ثلاثة أيام، وأخوته يرعون حوله، ويهوذا يأتيه بالقوت، فلما جاءت السيارة الذين حضروا من مدين

إلى مصر بالتجارة، وكانت بضائعهم من الصمغ لتصبير الأموات، فجعلت تسقى من الجب بدون التفات، تعلق يوسف بالحبل فأخرجوه، فجاء أخوة يوسف، فقالوا: هذا عبد ابق منا، فباعوه منهم بعشرين درهم وحلة ونعلين، فحملوه على مصر، وجاءوا به إلى مدينة «منف»، فوقفوه للبيع، فتزايد الناس فى ثمنه فاشتراه «قطفير» وكان أمين ملكهم وخازنه، وقال لامرأته زليخا أكرمى مثواه. وكان يوسف، عليه السلام، حسن الخلق، كامل الفطنة، عظيم القيافة، يتوسم فيه الخير، من رآه أحبه، حتى ظهرت منه أمارات الأمانة والصدق فامتاز فى بيت «العزيز» بكمال التمييز، فراودته امرأة العزيز عن نفسه فعصم منها. فترتب على ذلك سجنه، وأحبه أيضا من كان معه فى السجن، كصاحب طعام الملك وصاحب شرابه، وعبر لهما رؤياهما، وبقى مسجونا إلى حين نام الملك، فعفا عنه بعد سجنه بضع سنين، فلما أخرجه من السجن فوض إليه أمر مصر، وجعله أمينا حفيظا على خزائن ملكه.

ولما تقلد يوسف، عليه السلام، منصبه، وأراد أن يذهب إلى ديوانه حلق رأسه وتجمل بالثياب النفيسة وأخذ طراز الرتبة وعنوانها، وعقد له موكب جليل، وحين تمكنه من منصبه مر على أقاليم المملكة المتعلقة بإمارته، وزوجه فرعون مصر بزوج من أعظم العائلات، وهى ابنة ملك عين شمس، فامتلأت الخزائن من الأقوات فى زمن الرخاء لتنتفع فى زمن القحط، وصار تدبيرها وإدارتها على أحسن حال وأتم منوال.

ومن أعجب ما صنعه طريقة حفظ البر فى سنبله، فقد دام وبقى بهذه الوسيلة محفوظا من آفات الانفساد، حتى إن بعض الفراعنة أمر بحفظ القمح بذلك بعد عهد يوسف بمائتى سنة، ولما حفظ يوسف الأقوات فى أيامه وباعها فى زمن القحط كان بيعها بأغلى ما يكون من القيم، فكان يبيع مكيال البر بمكيال من الدر، فاشترى أهل مصر بأموالهم وحليهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم ثم بأولادهم ثم برقابهم، وكان يوسف عليه السلام لا يشبع فى تلك الأيام، ويقول: أخاف أن أنسى الجائع، وبلغ القحط إلى «كنعان»، فأرسل يعقوب ولده للمسيرة، وقال:

يا بنى قد بلغنى أن بمصر ملكا صالحا، فانطلقوا إليه، فاقرئوه منى السلام ,فمضوا فدخلوا على يوسف فعرفهم، وأنكروه، فقال: من أين أنتم؟ فقالوا: من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له يعقوب، وهو يقرئك السلام، فبكى، وعصر عينيه، وقال: لعلكم جواسيس، فقالوا: لا والله، قال: فكم أنتم؟ قالوا: أحد عشر، وكنا اثنى عشر، فأكل أحدنا الذئب، فقال: ائتونى بأخيكم من أبيكم، ثم درج بضاعتهم فى رحالهم، فعادوا إلى أبيهم، فقالوا: إنا (منع منا الكيل، فأرسل معنا أخانا نكتل) فقال يعقوب (هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل؟) ثم حمله احتياجه إلى الطعام على أن أرسله معهم، فلما دخلوا على يوسف اجلس كل اثنين على مائدة، فبقى بنيامين شقيق يوسف وحيدا يبكى، وقال: لو كان أخى حيا لأجلسنى معه، فاعتنقه يوسف، وقال: أنا أخوك، ثم احتال عليه فوضع الصاع فى رحله، فلما لم يقدروا على خلاصه أقام، ورجعوا إلى يعقوب يقولون (إن ابنك سرق) فتلقاهم بصبر الجميل، ثم قال لبنيه: اذهبوا فتجسسوا من يوسف وأخيه، فلما عادوا إليه ببضاعة مزجاة وقفوا موقف الذل، وقالوا (تصدق علينا) فقال (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه)؟ وكشف الحجاب عن نفسه، فعرفوه، فقالوا (ائنك لأنت يوسف)؟ فقال (أنا يوسف، وهذا أخى) فقالوا (تا الله لقد آثرك الله علينا)، أى اختارك وفضلك، وكان قد فضل عليهم بالحسن والعقل والحلم والصبر وغير ذلك (وإن كنا لخاطئين) أى لمذنبين آثمين فى أمرك (قال: لا تثريب عليكم اليوم) أى لا أعيّركم بما صنعتم، ثم سألهم عن أبيه فقالوا: ذهبت عيناه، فأعطاهم قميصه، وقال: (اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأتى بصيرا) فلما خرجوا من مصر حمل القميص يهوذا، وقال: أنا حملت قميص الدم وها أنا أحمل قميص البشارة، فخرج حافيا حاسرا يعدو، فقال يعقوب لمن حضر من أهله وولد ولده (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى لولا أن تنكروا على لأخبرتكم أنه حى (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) ثم خرج يريد مصر فى نحو سبعين من أهله، وخرج يوسف لتلقيه، فلما التقيا قال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان، فقال يوسف: بكيت يا أبتى حتى ذهب بصرك، أما علمت ان القيامة تجمعنى وإياك؟ فقال: يا بنى خشيت أن يسلب دينك فلا نجتمع، وأقام

يعقوب عند يوسف أربعا وعشرين سنة فى أهنا عيش، فلما حضرته الوفاة أوصى غلى يوسف أن يحمله غلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحق، ففعل، ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن أمره قد تم فقال: توفنى مسلما والحقنى بالصالحين، وأوصى إلى يهوذا. فهذا مآل القصة التى قصها الله سبحانه وتعالى فى سورة يوسف بفصيح العبارت البالغة حد الإعجاز، وبليغ المعانى المفيدة لبديع النكات، مع مراعاة الحال لما يقتضيه مقام البسط أو الإيجاز، ولذلك قال سبحانه وتعالى لنبيه، عليه الصلاة السلام: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ** ﴾ (يوسف: ٣) وذلك لما فيه من العبر والنكت والعجائب، فإن من الفوائد التى فى هذه القصة أنه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدره تعالى، وأنه إذا قضى للإنسان بخير ومكرمة فلو اجتمع عليه العالم لم يقدروا على دفعه. وقد روى أن سبب نزول ذلك أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمدا، لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن كيفية قصة يوسف؟ فأنزل الله تعالى: (الر تلك آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) الآيات، وذكر فيها أنه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها، ويقدروا على تحصيل المعرفة بها. والتقدير إنا أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه قرآنا عربيا، فسمى بعض القرآن قرآنا، لأن القرآن يقع على البعض والكل. ومن قصته هذه يفهم علو درجة مصر التى قضى سبحانه وتعالى بانتقاله إليها لعلو مرتبته فيها، حتى أنه عليه السلام لما قدم أبوه وسأله عما صنع به أخوته قال سلنى عما فعل بى ربى، وأخذ بيده وطاف به فى خزائنه فأدخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلىّ وخزائن الثياب وخزائن السلاح وخزائن القراطيس، وكان يوسف يركب فى كل شهر ركبة يمر بها على عمله ويدور فيه، فينصف المظلوم من الظالم، ولا يركب إلا فى عدد كثير من الجند والألوية ومعه ألف سياف، ولم يكن معه حكم مصر كله بل بعضه، لأنه، على ما يقال، أن «طيوة» بصعيد مصر كانت مملكة مستبدة عليها ملك آخر، يدل على ذلك آية (رب قد آتيتنى من الملك) أى بعض ملك مصر، كما أشار له بعض المفسرين، فالبلدة التى خزائنها وعساكرها بهذه المثابة لا تكون إلا عظيمة الشوكة والثروة والتنظيم والتعظيم وهو عين التمدن، وإن تأملت حق التأمل فى مبدأ أمر يوسف

عليه السلام من اقتصار العزيز على سجنه وصبره عليه فى السجن وعدم المبادرة عليه بالانتقام، مع أنه مملوك للعزيز خازن فرعون مصر، علمت أن الدولة المصرية لم تكن أمة خشنية تستعجل بالقتل لغلام مستقيم فطن، بل كانت أمورها تجرى على منهج الاستقامة.

ويستدل بهذا أيضا على أن قوانين معاملة الخدم والرقيق كانت عادلة، لا يسوغ فيها للسيد الذى أساءه عبده كل الإساءة أن ينتصف منه لنفسه كما يحب ويختار، فهذا يفيد أن الملة كانت متمدنة، وأما سجن يوسف عليه السلام مع صاحب طعام الملك وصاحب شرابه فيدل على أن فرعون كان له كبراء، أصحاب مناصب لقصره، كما فى الدول المتمدنة، وأنهما اتهما بالخيانة الملوكية، يعنى بارادة سم الملك، وأن فرعون غضب عليهما حين أتهمهما، وأمر بسجنهما لحين تحقيق دعواهما، فلما تبين له أن أحدهما مذنب بما يوجب القتل قتله، وأن الآخر برئ فرج عنه فعاد إلى منصبه، كما أن يوسف أيضا لما علمت براءته ارتقى إلى ما ارتقى إليه من العزازة.

فمنه يعلم أنه كان بمصر إذ ذاك أحكام عادلة، وقوانين مرتبة، وحدود مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات، وهى نتيجة التمدن التام، وقد دلت التواريخ الأثرية على أنه كان لفرعون يوسف كل سنة عيد عظيم لمولده، وأن هذا العيد كان يعمل فى ميعاده فى القصر الملوكى بأكمل ما يكون من الاحتفال الكامل والرسوم الجليلة، فهذا يدل أيضا على جودة التمدن وطول مدته فى مصر قديما، حتى إن رسول المملكة كان يحافظ عليها ويتمسك بها بدون تسامح ولا تساهل، فإن يوسف عليه السلام لما مات يعقوب وحزن عليه حزن بنى إسرائيل اجتنب أن يتمثل بين يدى فرعون، واحترس كل الاحتراس أن يدخل فى ديوانه بزى الحزن، ولم يستطع أن يخالف الرسوم المعهودة، فكانت رسوم ديوان فرعون وآدابه وأخلاقه معلومة على يقين دل عليه (التوراة)، فهى مبنية على المتواتر والسماع المستفيض فلا يشك فيها، ومن المعلوم أنه لا يتصف بهذه الآداب الرسمية إلا الجمعية المتقدمة فى المعارف، فلا شك أن جميع ما كان فى الدول المتأخرة المتمدنة من حسن الأخلاق والعوائد كان

مـوجـودا نظيـره عند دولة مـصـر القـديمـة فى أيام زهوها، فليس التـمـدن من خصوصيات الأزمان الأخيرة، وانما ذوقيات التمدن مختلفة بما يلائم طباع الوقت ويطابق مقتضى الحال، فلا يبعد على مصر فى هذا العصر أن تستجلب السعادة، وتكتسب من القوى الملية الحسنى وزيادة، وتتحصل من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة، لأن بنية أجسام أهل هذه الأزمان هى عين بنية أهل الزمان الذى مضى وفات، والقرائح واحدة، ووسائل هذا العصر الأخير متسعة ومتنوعة، فلا شك أنها مساعدة على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها، وأعظم وسائلها رخصة الأخذ والإعطاء داخلا وخارجا، وكمال الاتحاد مع الممالك الأجنبية فى المعاهدات التجارية العائدة بالمنافع العامة على الوطنية، كما فعل ملك مصر أبسميتكوس الأول ابن نخوس ملك مصر من جلب الأجانب فى مملكته، كما سيأتى فى (الفصل الثالث) من (الباب الثالث).

الفصل الثالث

فى أن أعظم وسائل تقدم الوطن فى المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهالى الممالك الأجنبية، واعتبارهم فى الوطن كالأهلية

من المعلوم أن ممن أسس فى مصر القصور الشامخة، والهياكل السامية المنافسة للأطواد الراسخة، واتخذ ما يلزم للوطن من الجسور والقناطر والخلجان، ورفع الأراضى المنخفضة المعرضة للغرق عند زيادة النيل، واستبدال المدن المنخفضة من محالها ببنائها على الربى العالية لسلامة البلاد والعباد، ولم يفارق الدنيا حتى ترك مصر على غاية من الثروة والغنى، والسعادة والهنا، وكل إنسان شاكر لفعله، وعلى تداول الأزمان لا زال التاريخ يثنى على شمائله وجميل خصاله، الا أنه هو ومن قبله وأكثر من بعده من الملوك لم يحصل منهم كما حصل من الملك «ا.ساميطيقوس» الأول[1] من مساعدة التجارة داخلا وخارجا، فإن سعادة الأهالى إنما هى بالأخذ والإعطاء والتنقلات الملكية.

فكان هذا الملك فى الحقيقة فخر الدولة المصرية فى الأزمان الجاهلية، ومصباح تاريخها، اعتنى بتاريخه مؤرخو اليونان، لأنه أول ملك مصرى قربهم إلى بلاده، واستمال قلوبهم بتوظيفهم برياسة أجناده، وخالف عوائد أسلافه، وعامل يونان

(١) هو أبسماتيك الأول، مؤسس الأسرة السادسة والعشرين من الأسرات التي حكمت مصر القديمة (الفرعونية)، ويعد عصرها عصر نهضة بدأته بتخليص البلاد من نفوذ الأشوريين، ولقد دام حكم أبسماتيك الأول أربعا وخمسين سنة بدأت في سنة ٦٤٥ ق.م، أما حكم هذه الأسرة فقد امتد إلى سنة ٥٢٥ ق.م.

آسيا وأوربا بأخص استعطافه، وأقطعهم الإقطاعات من الأراضى المصرية، وسوى فى الحقوق بينهم وبين الجنود الوطنية، وجعلهم من المقربين فى المعية، وأعطاهم جملة من الغلمان المصريين لتعلم اللغة الإغريقية ليكونوا مترجمين بينهم وبين المصريين، ففى أيامه انتشرت معرفة اللغة اليونانية، وبواسطتها كثرت التجارات والمعاملات والمخالطات، وتأسس بالقطر المصرى العمائر التجارية، فكانت هذه أول مرة تكلم فيها اليونان بلسانهم فى غير بلادهم، ولما رأى ما رأى من صداقتهم ومساعدتهم وسع لهم فى المعاش، وأغدق عليهم غاية الإغداق، وسواهم بجنده فكانت منفعتهم جسيمة.

وممن فتح لليونان ثغور مصر وأبوابها من ملوكها الملك «أمسوس» ويقال له «أماسيس»، فإنه كان قوى الفطنة جيد القريحة حسن التدبير لم تسعد مصر فى أيام غيره كسعادتها فى أيامه الهنية، ولم تخصب بالنيل كخصبها فى أيام دولته العدلية، حتى قيل - ولو أنه من المبالغات التاريخية - إن مدن مصر وقراها بلغت فى عهده عشرين ألف مدينة وقرية، ووكلها غنية مثرية، وجل أسباب ثروتها التجارات العظيمة، لا سيما مع اليونانيين، فإنهم إذ ذاك كانوا أرباب التجارة والصناعة، واتسعت دائرتهم فى ذلك من مخالطة المصريين، فقد شملتهم أنظار هذا الملك الخصوصية حيث أحسن مثواهم ورخص لهم الاستيطان بالديار المصرية بمدينة «نقراطيس»[1] التى يقال أن محلها الآن «فوة» وقيل غيرها.

وكانت هذه المدينة دون غيرها مخصوصة بأن يرسى عليها سفن الدول الاجنبية، وقد أباح هذا الملك للغرباء أن يتمسكوا فى مصر بأصول ديانتهم، وأنعم عليهم بأراض مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم ومحاريبهم على اختلاف مللهم وأديانهم ومذاهبهم، وعقد مع دولة أثينا، أى مدينة حكماء اليونان، معاهدات، وعقدت أيضا معاهدات أخرى مع دول أخرى كدولة القيروان

---

(١) ومدينة نقراطيس (naucratis) هذه يعنى اسمها «ملكة البحر» وكان موقعها قرب الفرع الغربي للنيل. ومدينة «فوة» التي يشير إليها الطهطاوي هى إحدى مراكز محافظة كفر الشيخ على فرع رشيد بالدلتا.

بالمغرب، وكان له مخاطبات ومراسلات متواترة مع الملوك الأجانب كملك جزيرة صيصام إحدى جزائر الروم الكبيرة، فإن التاريخ قد حفظ نصيحته لملك الجزيرة المذكورة، ومضمونها لا تأمن صروف الزمان، وتفكر فى نوائب الحدثان، واعص النفس فى اتباع هواها، وخالفها ولا تبلغها مناها. فلما قرأ ملك صيصام البطاقة غرم أن يزهد فى الدنيا حسب الطاقة، وكان بأصبعه خاتم جوهر نفيس عظيم القيمة، لا يُؤْثر عليه من زينة الدنيا شيئا، ولكن وقعت بقلبه موعظة الملك أماسيس أعظم موقع، فنزعه من أصبعه وألقاه فى اليم، وعزم على ترك الزينة وصمم، ولكن لما كان جد(*) هذا الملك قائما، والسعد له خادما، رد الله عليه هذا الخاتم، فى بطن حوت سعى به إليه صياد من البحر قادم، ففهم من ذلك أن الأشياء بخوت وسعود، وأن خاتم الملك وإن زهد فيه فهو إليه مردود، وتاج السعادة على مفرقه معقود. قال الشاعر:

البخت أفضل ما يؤتى الفتى فإذا ... ما فاته البخت لا ينفك يتضع

يكفيك فى البخت تيسير الأمور وإن ... ديكون ما ليس ترضى عنك يندفع

والحظ أجدى لصاحبه من الحجى، وأهدى فى طرق مأربه من نجوم الدجى، ومن لطائف المطبوع فى هذا الباب قول محمد بن شرف القيروانى:

إذا صحب الفتى جد وسعد ... تحامته المكاره والخطوب

ووافاه الحبيب بغير وعد ... طفيليا وقاد له الرقيب

ويقال: إذا أقبل سعد المرء فالأقدار تسعده، والأوطار تساعده، وإذا أدبر فالايام تعاديه، والنحوس تراوحه وتغاديه، قال عبد العزيز بن نباته[1]:

ألا فاخش ما ترجو وجدك هابط ... ولا تخش ما تخش وجدك رافع

---

(١) عبد العزيز بن عمر التميمي، ابن بناته السعدي (٩٣٨ ـ ١٠١٥م) شاعر بغدادي، دخل بلاط سيف الدولة الحمداني، واتصل بابن العميد، وكان ولوعا بالمحسنات البديعية في شعره.

(*) أى الحظ أو الرزق. (الشروق).

فلا نافع إلا مع النحس ضائر   ولا ضائر إلا مع السعد نافع

واعلم أن كمال العقل وسوء الحظ كالعلة والمعلول لا ينفعك أحدهما عن الآخر، كما أن قلة العقل وكمال الحظ متلازمان، ويصحبهما الجهل والحمق، قال ابن المعتز:

وحلاوة الدنيا لجاهلها   ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقال القاضي الفاضل[1]:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقال القاضي الفاضل:

ما ضر جهل الجاهلين ولا أنتفعت أنا بحذقي

وزيادتي في الحذق فهي زيادة في نقص رزقي

وقال شمس الدين الحكيم ابن دانيال[2]:

قد عقلنا والعقل أي وثاق   وصبرنا والصبر مر المذاق

كل من كان فاضلا كان مثلي   فاضلا عند قسمة الارزاق

وقال أبو تمام[3]:

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد   ولا المجد في كف امرئ والدراهم

---

(١) عبد الرحيم بن علي (١١٣٥ - ١٢٠٠م) أبرز كتاب عصره، تولى بمصر ديوان الإنشاء، ثم تقلد الوزارة، وعاصر الدولتين الفاطمية والأيوبية.

(٢) محمد بن دنيال (١٢٤٨ - ١٣١١م) طبيب مصري، إليه تنسب فن خيال الظل، إذ بقيت ثلاث مسرحيات شعرية كتبها له، وفيها يعبر عن روح العصر الذي عاش فيه ويقدم نقدا أجتماعيا للانحرافات التي عاصرها.

(٣) أبو تمام الطائي، حبيب بن أوس (٧٨٨ - ٨٤٦م) أحد فحول الشعراء العرب في العصور الوسطى وله مختارات شعرية جمعها إلى جانب إبداعه الشعري.

ومن عدم تعليل الحظ قول أبى الطيب :

هو الحظ حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

وعلى هذا فيجب على العاقل التسليم فى جميع الأمور ، وتلقى المقادير بالرضا والقبول ، كما قال :

تبارك من أجرى الأمور بحكمة كما شاء لا ظلما أراد ولا هضما

فما لك شى غير ما الله شاءه فإن شئت طب نفسا وإن شئت مت غما

فإذا علمت أن قسمة الحظوظ فى سابق الأزل ، لحكمة يعلمها ، لا تبديل ولا تغيير فى ذلك ، وسلمت الأمر لمولاك الفاعل المختار المتصرف فى ملكه كيف يشاء بالاختيار ، فلا عتاب ولا ملامة ، قال من عرف الله أزال التهمة ، وقال كل فعلة لحكمة ، وأن أرزاق العباد قسمة ، تحصل بالتقدير لا بالهمة ، كما قيل :

مثل الرزق الذى تطلبه مثل الظل الذى يمشى معك

أنت لا تدركه متبعا فإذا وليت عنه تبعك

وقال آخر :

هون عليك وكن بربك واثقا فأخو التوكل شأنه التهوين

طرح الأذى عن نفسه فى رزقه لما تيقن أنه مضمون

ومما يناسب ذلك ما يحكى عن عروة بن أذينة أنه وفد على هشام بن عبد الملك فشكى إليه حاجته ، فقال له : ألست القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقى إن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسعى إليه فيعيينى تطلبه ولو قعدت أتانى ليس يعيينى؟!

وقد جئت من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق؟ فقال يا أمير المؤمنين : لقد وعظت فأبلغت . وخرج فركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعا ، فلما كان من

الليل نام هشام على فراشه، فذكر عروة، فقال فى نفسه: رجل من قريش قال حكمة، ووفد على فجبهته ورددته خائبا! فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة، وأعطاه المال، فقال أبلغ أمير المؤمنين منى السلام، وقل له كيف رأيت قولى؟ سعيت فأكديت، فرجعت فأتانى رزقى فى منزلى. ولا يتعجب من بليغ نصيحة «أماسيس» ووعظه فإنه كان بينه وبين «سولون»[1] حكيم أثينا مراسلات لاقتباس الحكمة اليونانية، والمعارف التى تكسب الفضائل، فاقتبس من حكمه وفضائله وقوانينه ما تميز به عن غيره من الملوك السابقين.

وكان «سولون» المذكور فى مملكة أثينا من ذوى البيوت، اكتسب من السياحة فى البلاد ما صيَّره فريد زمانه فى الحكمة والتدبير والسياسة، وكان ممن دخل مصر من الفلاسفة، فعاد إلى مملكة أثينا فوجدها مختلة النظام منحلة الأحكام، فالتمسوا أن يجعلوه ملكا عليهم، وكانوا جمهورية، فلم يرض أن يلبس التاج الملوكى ويتسلطن على بلاده، وإنما اقتصر على تنظيم الجمهورية، وأنشأ «سولون» قوانين داخلية، منها أن من ثبت عليه من الأهالى أنه لم يشتغل بحرفة ولا صنعة، بعد المرافعة معه ثلاث مرات، وهو مصر على البطالة، فإنه يفضح على رؤوس الأشهاد، وكذلك كل ولد اشتغل بصنعة وسلك مسلك التبذير فى أمواله فإنه يفضح على رؤوس الأشهاد أيضا، وأن الولد الذى لا يقوم بمؤونة أبويه العاجزين عن الكسب فإنه يعاقب بذلك العقاب، ولا يعاقب بهذه العقوبة الوالد إذا بخل بالإنفاق على ولده.

ومن قوانينه أنه لا يجب على المرأة عند الزواج أن تتجهز لزوجها بأكثر من ثلاثة أثواب وبمتاع قليل الثمن، لأن تكليفها أكثر من ذلك ربما عاد بالفاقة على أهل

---

(١) (حوالي ٦٤٠ / ٦٣٥ ـ حوالي ٥٥٩ ق.م) مصلح أثيني، يعد أعظم المشرعين في عصره، ولقد أدت تشريعاته وإصلاحاته القانونية إلى إنقاذ المدينين من العبودية التي كانت تلحق بهم نتيجة عجزهم عن سداد الديون، كما أعاد توزيع الحقوق والواجبات الديمقراطية تبعا لثروة المواطنين. ولقد ظلت تشريعاته الأساس الذي تقوم عليه الدولة حتى بعد قيام الديكتاتورية على يد «بيسيستراتوس».

الزوجة، وأن من اجتمع من الرجال بالنساء المتبرجات وعاشرهن لا يسوغ أن يكون من أعضاء مشورة الجمهورية أبدا، لأنه لا يؤتمن على مصلحة الأهالى، وأن من ثبت عليه من أرباب المشورة السكر فإنه يعاقب بالقتل، وأن المدين لا يجوز حبسه، وأن من لم يكن له ذرية فله أن يوصى بجميع أمواله قبيل وفاته، وأن من مات فى الحرب وله ذرية فإن الوصى على ذريته الحكومة، فهى الكافلة، والمسئولة عن أفعالهم، والمطالبة بتربيتهم وإصلاح أحوالهم وشئونهم، وأنه يجب الاقتصاد فى المصارف التى تنفق فى الجنائز والاحتفالات الدينية بقدر الإمكان، وأن تدخل الغرباء البلاد اليونانية، ولكن لا يسوغ تداخلهم فى مناصب الحكومة.

فلما كان «سولون» معدودا من المشرعين والمقنين اقتبس منه «أماسيس» بعض قوانين، وقد تقدم فى (الفصل الأول) من هذا (الباب الثالث) أن «أماسيس» أوجب التفحص عن معيشة الإنسان وكسبه من الحلال، وأنه كان يحكم بالقتل على من يكتسب من الحرام، فلا شك أنه التمس ذلك من مخالطة اليونان، فالمخالطة مغناطيس المنافع، فهى تساوى حركة العمل فى ذلك، وكلاهما لا يستغنى عن الحرية والرخصة، ومنبع الجميع كسب المعارف العمومية والمحبة الوطنية التى يترتب عليها اجتماع القلوب، والتعاون فى إبلاغ الوطن المطلوب، فمخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانوا من أولى الالباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب، ولو كانت مترتبة عن ظواهر التغلب والاغتصاب، فربما صحت الأجسام بالعلل، ولنضرب المثل فى فتوح إسكندر لمصر فى الأيام الأول فقد ترتب على فتوحه فى تلك الأيام إعادة قديم بهجة مصر بعد أن دمرها حكم الأعاجم، حيث واسى أهلها، وراعى عوائدهم، وأباح عقائدهم، وساسهم بأحسن ما يمكن من السياسة والعدل فى الأحكام.

الفصل الرابع

فيما ترتب على فتوح إسكندر الرومى للديار المصرية من اتساع دائرة المنافع العمومية الناتجة عن مقدمات الحزم والكياسة وشرطيات أشكال العدل فى التدبير والسياسة

من المقرر عند أرباب العقول أن أقوى شىء فى حفظ البلاد، وراحة العباد، وتوسيع دائرة المنافع العمومية، وتأسيس قواعد تمدن الوطنية، إنما هو مراعاة الأهالى، وإباحة تمسكهم بعقائدهم، وعدم منعهم حسب الإمكان مما لا يستطيعون مفارقته من مألوفاتهم المأذونة، والمحافظة على إرضاء خواطرهم، ولو للفاتح المتغلب، والمغير المغتصب، فإن إسكندر الرومى بحسن سياسته وكمال كياسته تغلب على بلاد العجم التى أسسها «كيروش» وسلفه بعد ثلاث حروب عظيمة، ففتح هذه البلاد الواسعة الأطراف والأكناف باستقامة تدبيره وحُسن سلوكه مع أهاليها وتطييب خواطرهم وحفظ عوائدهم وشرائعهم، حتى صار فتوحه للبلاد المشرقية زمنا تؤرخ به الوقائع والحوادث، فلم يكن فتوحه كفتوح سلفه من اليونان، ولا غيرهم من أهل العراق والكردستان، ولا كفتوح العجم، إذ كانوا جميعا يدمرون البلاد، ويهلكون الأمم، وأما إسكندر فكان كلما فتح مملكة أسس فيها وجدد، وبنى وشيد، ووطأ ومهد، ومدن المدائن، وأكثر الأموال فى الخزائن، وأوجد وسائل العمران، وأحيا قلوب أهالى البلدان، وكان من تقدمه من أصحاب الخروج والفتوحات إذا فتح مدينة أو مملكة عرض أهالها المخالفين له فى الأحكام والعقائد للمهلكة، فأغضب جميع الأهالى بسوء مسلوكه، فسلك إسكندر مسلكا

غير ما سلكه الفاتحون قبله من سلاطين ذلك العصر وملوكه، فكان يرخص فى كل إقليم فتحه إبقاء الأهالى على عوائدهم القديمة، وربما وافقهم على التمسك باتباعها فى عمل خاصة نفسه، ولو لم تكن بحسب راية مستقيمة، وذلك لمجرد إيناس نفوسهم، وتوطينهم على حب حكومته وتأنيسهم، فكان مشايخ قواده وأمرائه يشيرون عليه بنسخ دين ما يفتحه من البلاد وعدم إبقائه، فلا يسمع مقالهم، حتى إن تماديه على ذلك أغضب أبطالهم ، فلم يبطل شيئا فيما فتحه من البلدان من أحكام الشرائع والأديان، وقصد بذلك تنجيز أغراضه الصلحية، وإيجاد الوحدة لسلطنته الفتوحية، فجعل أجناس الأمم فى جميع الأقطار المفتوحة ممتزجة كأمة واحدة أو كجسد واحد، وجعل حرية التمسك بالشرائع روحه، وصمم على أن تكون أمم سلطنته كعشيرة واحدة، ودائرة ملكة وطنا مركزيا، وجميع الأهالى خطوطا شعاعية منبعثة من المركز إلى المحيط، ولم تساعده المقادير، حيث الأمل طويل والعمر قصير.

ولنذكر نبذة موجزة من تاريخه فنقول هو إسكندر بن فليبش المقدونى، تولى أبوه على مقدونيا جهة إقليم «روم إيلى»، فرتب المملكة ونظمها، ثم عزم على تحصيل مقاصد مهمة من أعظمها ترتيب العساكر والقوانين، واخترع كيفية فى صف العساكر يقال لها «الكردوس» على هيئة المثلث، فكانت مرهبة فى ذلك الوقت كإرهاب شكل القلعة المربع الذى عليه العمل فى الحروب فى هذا العهد، وجعل «الكردوس» نحو سبعة آلاف نفر، وقسمها إلى ستة عشر صفا بعضها وراء بعض، وأسلحهم بحراب طوال جدا، حتى إن حراب الصف الأخير كانت تصل إلى الصف الأول، فصاروا بهذه الهيئة مهيبين لا يستطيع العدو أن يظفر بهم.

وكان يعامل العساكر بالرفق واللين، ويدعوهم بالأصحاب، ويعلمهم قواعد الحرب والقتال، وكان حسن سياسته بقدر كمال شجاعته، وقوة ذكائه وفطنته، فتوصل بذلك كله للاستيلاء على جميع اليونان، فأحبه الجميع وأطاعوه، فأداه طمعه فى الفخار وحب الاشتهار إلى أمر عظيم لا يمكن لغيره الإقدام عليه، وهو

أنه قصد محاربة العجم، ظنا منه أنه يظفر بمملكتهم، وطلب من جميع أمم اليونان أن يكونوا معه فى ذلك، فتلقوا ذلك بالقبول، وحمدوه على هذا المقصد الحسن، وقلد نفسه رياسة الجيوش الحربية، وكان قد استشار الكهنة فى ذلك على حسب عادة اليونان فأجابوه بكلام متشابه، وأقوال مبهمة، محتملة لمعان متعددة، حيث قالوا: لبس الثور التاج والإكليل، ودنا أجله فهو ذبيح عما قليل. فحمل ذلك على ملك العجم، فبينما هو يضع عرسا لزواج بنته، إذ قتله بعض الأمراء فمات لوقته، وكان قد رزق ابنه إسكندر الذى شب فى حياته، وأينع نضير غصنه فى حدائق العز وروضاته، فعزم على أن يعلمه العلوم والمعارف، فرأى أنه لا ينجب إلا إذا أعطاه لأعظم حكماء زمانه، فلم يجد أفضل من «أرسطاليس»، فكتب له جوابا مضمونه: قد رزقنى الله بولد، فحمدته وأثنيت عليه، لا سيما أنه أعطانى إياه فى زمنك، فالمرجو أن تجتهد فى تعليمه وحسن تربيته، ليكون أهلا لأن يخلفنى على مقدونيا. فامتثل الحكيم أمره، فهذب أخلاق إسكندر وجعله أهلا للامرة. فكان إسكندر فى أيام شبوبيته تلوح على وجهه بشائر الخير العميم، مع ما تعلمه من أبيه ومن أستاذه من أنواع التعليم، فقد أخذ عن معلمه ما له دخل فى رياضة ذهنه وتنوير عقله بأنوار معرفة الأخلاق والآداب، ومآثر التواريخ، التى هى مرآة أفعال الملوك الماضين، ينظر فيها المتأخر حسنات أو سيئات السابقين.

قال بعض المؤرخين لو فرضنا أن التاريخ غير نافع للآحاد، فلا يستغنى عنه أحد من ملوك الدنيا الذين ولاهم الله رقاب العباد، فإنهم يطلعون فيه على ما سولته الأنفس والشهوات، واقتضته المنافع بحسب الأحوال والأوقات، وينظرون فيه وقائع الأزمنة والأمكنة، والأحوال الظنية والمتيقنة، والآراء الصائبة، والأهواء الكاذبة، وهل التاريخ إلاّ أفعالهم السياسية، وأشغالهم الرياسية، فمرجع أمورهم إليه، ومدار عملهم عليه، فإنه مشتمل على التجارب، وهى لازمة لهم فى حزمهم وإجراء أحكامهم على وجه مصيب، فإذا رأوا فى التاريخ ما يمدح تبعوه، أو ما يذم هجروه واجتنبوه، فبذلك أضافوا إليه تجاريبهم المستفادة، وانتفعوا بالأصل والزيادة، فينبغى لهم أن يتشبثوا بذلك، ويتركوا ما

اعتادوا عليه من سلوك أقرب المسالك، من الاقتصار على الأمور الوقتية، التى تستنتج من أحوال الرعية، أو تستدعيها مفاخرهم الذاتية الهوائية، فيقعون فى الحيرة، لعدم استنارة البصيرة، فإذا استعانوا بالتاريخ أصلحوا عقولهم بالتجاريب، ولم يقعوا فى مضار الحوادث الماضية ولم يأخذوا منها بنصيب، وإذا اطلعوا فى الوقائع التاريخية على ما وقع لغيرهم من العيوب الخفية، التى يمدح عليها الملوك فى حال حياتهم من أهل النفاق، وتبقى ملوثة لصحفهم التاريخية التى تسير بها الركبان فى جميع الآفاق، اتعظوا بذلك واعتبروا كل الاعتبار فإذا تملق إليهم المتملقون، وتذكروا ما اغتر به فى مثل ذلك السابقون، خجلوا من فرحهم بباطل المديح، ورجعوا فى العمل للرأى الرجيح، وأيقنوا أن الفخر الحقيقى لا تستحقه الملوك إلاّ بالفضائل المأثورة للخلف، وأن عاقبة الفعل السىء الندم والأسف، فقد تنزهت نفس إسكندر عن ذلك، وقد كان مولعا بمطالعة تاريخ نصرة «تروادة» اليونانية التى جمع حربها جميع أمراء الممالك، فكان جل رغبته وميله للمفاخر العسكرية، لما شاهده من هذا التاريخ من الثناء على فحول الرجال من الأمة اليونانية، وطالما شوهد تنفسه الصعداء غير مرة حين أخبر أن أباه «فليبش» انتصر فى الوقائع قائلا لبعض أخصائه: ها هو أبى قد تغلب على جميع البلدان بسيفه وما أبقى لسيفى شيئا ما! وبينما كان يتحدث ذات يوم مع سفراء ملك العجم، فما سألهم عن زينة بلادهم ولا زخارفها وتنعماتها، بل سألهم عن المسافات بين البلاد، وقوة الدولة، وكيفية سياستها وتدبيرها، وسلوك ملكها، فتعجبوا غاية العجب، وقال بعضهم لبعض: إن هذا الأمير لعظيم، وأما ملكنا فهو أمير غنى فقط! وكان يتراءى فى طبيعة إسكندر فى حال صغره الشجاعة وحب الرياسة والتدبير، وشدة الميل للتلذذ بذوق اقتحام العظائم حتى أنه امتاز واشتهر غير مرة فى الحرب تحت لواء أبيه فى حداثة سنة.

ولما مات أبوه كان ابن عشرين سنة، فخلفه على المملكة، وكان جديرا بإلقائه الرعب والهيبة فى قلوب الأمم، وكان يظن بعض ممالك اليونان الذين كانوا تحت طاعة أبيه أنهم يغتنمون الفرصة بالخروج على إسكندر، فأشهروا السلاح، فانتصر

عليهم جميعا فى غزواته، التى كان رئيسها بنفسه، فلما رجع إلى مقدونيا استعد لفتح بلاد آسيا، وأبى أن يتزوج خوفا من ضياع الزمن فى وليمة العرس، ومن ضياع الأموال فى الأفراح، بل أغدق بما عنده من الأموال على كبار عسكره برسم الإنعام، فقال له بعض الأمراء: ما أعددت للإنفاق على نفسك وعسكرك؟ قال أعددت لذلك كله قوة الرجاء! فأبقى فى مملكته ثلاثة عشر ألف رجل للمحافظة، واستصحب معه خمسة وثلاثين ألف مقاتل، لكنهم أبطال تحت طاعة شيوخ مجربين، ثم توجه إلى آسيا، وليس معه من المال إلا نحو سبعين مثقالا من الذهب، ومن الذخيرة أهبة شهر واحد، وثوقا بقوته وطالع سعده وضعف أعدائه وطالع نحسهم، وكانت بلاد آسيا تحت طاعة العجم يحكمون على جميع ممالكها، وكانت قد أشرفت على الخراب لاتساع سلطنتها، وسوء تدبيرها، واستعبادها للأمم وظلم ملوكها، حتى إن أولات[1] أقاليمها كادوا يكونون ملوكا مستقلين لبعدهم عن مركز السلطنة، الذى كان إذ ذاك منبعا للفتن والاختلال، وكان «دارا»[2] هو ملك الملوك يحكم بلاد آسيا الشرقية ويحكم من بلاد أفريقة مملكة مصر، ففتح إسكندر البلاد التى كانت تحت ملوك العجم جميعها، حتى وصل إلى الشام وفتحها، وعقب فتوح بلاد الشام انطلق إلى مصر، وكانت دولة العجم مبغوضة للمصريين لازدراء العجم بدين أهل مصر، وتشديدهم عليهم فى تركه، فتلقى المصريون إسكندر بالترحيب، ورغبوا فى حكومته لينقذهم من أعداء دينهم، ثم قصد استمالة قلوبهم إليه، واستعطافهم لمحبته، وإقبالهم بالقلب والقالب عليه، فاغتفر لهم أن يتمسكوا بشرائعهم وعوائدهم، وأسس بمصر مدينة إسكندرية التى صارت من أعمر مدائن الدنيا وأزهاها، وأينعها بالعلوم النافعة والتجارات الساطعة، لأن الأبنية الجسيمة من المنافع العمومية العظيمة، التى تمنح بانيها من العز والفخار، بقدر ما تكسبه الغزوات المخربة من الكراهة والنفار.

---

(١) أي: ولاة أقاليمها .

(٢) دارا: الذي هزمه الإسكندر هو دارا الثالث «كودومانوس» توفي سنة ٣٣٠ق. م وكان اعتلاؤه للعرش سنة ٣٣٦ق. م، وهزيمته أمام الإسكندر حدثت في موقعتي «أسوس» سنة ٣٣٣ق. م. و «جوجاميلا» سنة ٣٣١ق. م، ولقد أعقب هذه الهزائم قتل دارا بواسطة المزربان «بسيوس».

ثم كانت وفاة إسكندر بعد أفعاله العجيبة بمدينة «بابل» قبل الميلاد بثلثمائة وثلاث وعشرين سنة، وعمره ثلاث وثلاثون سنة، ولم يرض أن يعين وارثا بعده، بل قال، أبقيت وراثة السلطنة للأحق بها، وأخبر أنه سيسفك الدم فى جنازته، فكانت الحروب الداخلية، وانفصال الممالك عن اتصالها عاقبة فتوحاته، بعد انقضاء حياته، فكل واحد من أمراء جيوشه أخذ مملكة جسيمة، فلما تقاسم أمراؤه سلطنته سموا بملوك الطوائف، ولم تعد فتوحاته من النوافل، بل ترتب عليها مزايا جسيمة للتمدن والمنافع العمومية، حيث بقيت الاجتماعات والعلاقات السياسية مدة عشرة قرون بين أهالى المشرق والمغرب، وذلك لأن قطعة آسيا قبل فتوح إسكندر كانت مغلوقة الأبواب عن قطعة أوربا لما بينهما من العداوة.

فمن عهد هذا الفاتح فتحت أبوابها للتجارات، فبواسطة ذلك انتشرت العلوم والمعارف فى المدن، لاستفادة بعضها من بعض، وكذلك ترتب على فتوحاته تجدد عائلات الملوكية فى البلاد اليونانية، شيدت ممالكها فى البلاد فكانت من الدول القوية، وحسب إسكندر أنه خلفه على مصر الملوك البطالسة، فهم الذين أعلوا درجتها، وأعادوا بهجتها، حتى صارت مصر فى عهدهم على هيئة جليلة، وصورة استعداد جميلة، وعاد إليها فخرها القديم فى تلك الحال الراهنة، وكان قد انعدم باستيلاء الأعاجم وتغلبهم على ملك الفراعنة، فتحققت ثمرة فتوح إسكندر وبدا صلاحها، فى مصر ومضافاتها، وظهرت نتائج عقل ذلك الفاتح المقدوانى فى عهد البطالسة بالأصالة، وبعدهم بالتبعية، وكان أولهم بطليموس اللاغوسى[1]، وكان يعرف أهمية مصر ورفعة قدرها وامتيازها بين الممالك، فأول ما تقلد ملكها أحسن التدبير والسياسة، واهتم بالمدافعة عنها ممن يريد الهجوم عليها، فكان لا يغلبه غالب، وسبب ذلك منعة ميناتها التى يصعب الدنو منها، وميل المصريين إليه لعدله، وتحببه إليهم، لأن ميل الرعايا لملوكهم هو الحرز الحريز والحصن الحقيقى لحفظ الملوك والممالك.

---

(١) كان أحد القواد السبعة حول الإسكندر المقدوني، وتولى حكم مصر من سنة ٣٢٣ق.م. حتى عام تنازله لابنه عن العرش سنة ٢٨٥ق.م، وكان يسمى «بطليموس الأول» ثم لقب في سنة ٣٠٥ق.م بلقب «ملك مصر».

وقد تفرغ هذا الملك بعد النصرة على أعدائه فى الخارج إلى تنظيم المملكة، فشرع فى تتميم مبانى إسكندرية لتصير من أعظم مدائن الدنيا، فبنى ضريح إسكندر الأكبر، وكان قد أحضر معه جثته من بابل إلى الإسكندرية، فبنى له هيكلا عظيما، ويغلب على ظن أرباب المعارف أن قبر إسكندر بقرب المحل المسمى بنبى الله دانيال، أو هو هو، وكذلك انشأ منارة الإسكندرية الشهيرة بجوار المينا البحرية، لمنافع التجارات والأسفار البحرية، وفوائد المعاملات الأهلية والأجنبية، التى هى إحدى عجائب الدنيا. قال فيها بعض الشعراء:

وسامية الأرجاء تهدى أخا السرى	**ضياء إذا ما حندس الليل أظلما**
لبست بها بردا من الأنس صافيا	**فكان بتذكار الأحبة معلما**
وقد ظللتنى من ذراها بقية	**ألاحظ فيها من صحابى أنجما**
فخيل أن البحر تحتى غمامة	**وانى قد خيمت فى كبد السما**

ومن أنفع ما أنشأه بطليموس فى الإسكندرية المدرسة العظيمة المتصلة بقصره، فقد جمع فيها جميع العلوم المألوفة فى ذلك الزمان، من فلسفة ورياضيات وطبيعيات وإلهيات وعلوم طبية، وجلب إليها علماء اليونان وغيرهم، فصارت إسكندرية فى قليل من الزمان مركزا للمعارف جميعها، وأنشأ فى هذه المدرسة الوسيعة «كتبخانة» ملوكية جمع فيها نفائس الكتب القديمة وجلب إليها النساخين والمصححين والمجلدين والمذهبين.

وكان يستعير الكتب الجليلة من محالها فينسخها ويرسل المنسوخ لأربابه ويبقى الأصل فى خزائنه، فكثرت الكتب النافعة من جميع الفنون والعلوم فى هذه الكتبخانة، وكان له العناية الكاملة بالفنون البحرية وبناء السفن لتكثير الأسفار، والترغيب فى ركوب البحار، فكأنه أراد محاكاة الصوريين حيث صاروا أصحاب تجارة الدنيا بأجمعها، بحسن موقع مدينتهم للتجارة، وابتداع سفنهم البحرية، حيث أطاعتهم الأمواج، وخضع لسفنهم البحر العجاج، ولم يكترثوا بالعواصف والقواصف، وجربوا البحار و وأعماقها، وجسسوا قرارها، وعرفوا مخاضها

وأغراقها، ورصدوا النجوم بالبعد عن البر، وفى بحبوحة البحر، وجمعوا الأمم الاجنبية التى فصلت بينهم البرور والبحور، ونظموهم فى سلك نضيد كأنهم عقود فى نحور، فكانوا فى الصنائع والفنون عطاردية، وأرباب صبر وتجلد على الحركات العملية، وحازوا النظافة فى المسكن والملبس والمطعم، وكانوا مع ذلك أرباب قناعة واقتصاد فيها خولهم به المولى المنعم، وكانت حكومتهم ذات ضبط وربط وتدقيق، وحسن ملاحظة وتفتيش وتحقيق، لا يدخلون بين الأهالى الشحناء والشقاق، ولا يحيدون عن سبيل الوفاق، بل هم صداقة وأمانة وكمال، عندهم الراحة للأمم الأجنبية، بل يعتبرونهم كأهالى الوطنية، فبهذا أينعت عندهم أزهار التجارة النافعة، والمعاملة مع سائر أمم البرية، وقد تنزهوا عن العداوة والحسد، وتمسكوا بالاقتصاد والكد، وأكرموا أرباب الفنون، وحافظوا على الأمانة فى سر التجارة المصون، ولم يحتكروا التجارة ولا الصناعة، ولا تركوا البشاشة والترحيب لأرباب البراعة، فلهذا كانت شوكتهم قوية، ومملكتهم مثرية غنية، فبسير ملك مصر السالف الذكر على سنن الصوريين عاد فن الملاحة على مصر بالثروة، لكثرة المعاملات التجارية مع البلاد الدانية والقاصية والأمم الأجنبية، كأهل «بلخ» و«همدان» و«الهند» و«السودان» و«الحبشة» و«القيروان»، وبثروة الأهالى أثرت الحكومة المصرية، وقويت شوكتها، وعظم سلطانها، وارتفع شأنها، وانتشرت الأعلام الملوكية على هذه السفن، فكانت محترمة الناموس عند جميع الملل والدول، وعظمت قوة البرية والبحرية، فكانت فى أيامه يمكنها الاستحضار على مائتى ألف من العساكر المشاة، وأربعين ألفا من الفرسان، وعلى ثلثمائة من الأفيال الحربية، وعلى ألفى عربة مسلحة بالمناشير والمناجل، وكان فى خزينة المهمات المصرية ثلثمائة ألف طقم مجهزة من الزرد، وكان بالترسانات نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة، ما بين كبيرة وصغيرة، وكان ما يبقى من الخزينة موفرا فى كل سنة من الإيراد، بعد الصرف الوافى، نحو مائة ألف كيس، فكان الوفر يتراكم على ممر السنين وتداول الأيام، فكانت المملكة غنية، وعلى حالة فى ثروة تلك الأزمان مرضية، وكانت التجارة الأهلية والقادمة إلى الإسكندرية تحت حماية السفن الملوكية، فصارت الإسكندرية بذلك عامرة بالسكان المحبين لملكهم،

بترخيصه لهم فى التجارة والأرباح، وحسن معاملته مع الأجانب، فكانت التجارة تكسب كل يوم النمو والزيادة.

وكان هذا الملك يجلب دائما الأهالى من أوطانهم للاستيطان فى الإسكندرية، حتى إنه رَغَّب طوائف اليهود بالدخول إليها حتى تكاثروا فيها، وعمروا فيها خطة كبيرة تسمى حارة اليهود، ومع ذلك لم يهجر مدينة «منف»، بل جعلها دار المملكة الرسمية، فلما تولى بعده بطليموس الثانى محب أخيه، قبل الهجرة بسبع وتسعمائة[1] كانت مدته أيضا خيرا من مدة أبيه، فصرف همته فى تقديم العلوم والمعارف والتجارات، فكانت مصر فى أيامه أعمر بلاد الدنيا، لأن أباه كان قد أضاف إلى مصر بلادا كثيرة كمملكة «القيروان» وسواحل الشام، وبلاد العرب المجاورة لمصر، وجزيرة قبرص، وجزائر بحر الروم، وأغلب مينات أناطلى الجنوبية ومينات سواحل روم إيلى فقنع الملك بهذا الميراث العظيم، والتفت إلى العمليات الجسيمة، التى تعود على مصر وعلى ممالك الدنيا بالمنافع العظيمة، فاعتنى باستكشاف طرق البحار بالأسفار لمعرفة المسالك والممالك، فاستكشف بلاد أفريقية، وثغور بحر عمان وفارس، وأرسل من يستكشف منبع النيل، فوصل قبطانه إلى جزيرة «مروة» بقرب «شندى» وهى جزيرة «أتبرة» وأرسل قائدا آخر إلى تلك الجهات، فوصل فوق ما هنالك، وانعطف إلى جهة المغرب، فبهاتين السياحتين اتسعت دائرة المعاملات التجارية، وكثرت المخالطة بين الديار المصرية والسودانية، وتقدمت المعارف الجغرافية وعلمت فى مصر أحوال البلاد والعباد واجتهد هذا الملك فى تأييد المعاملات التجارية بين مصر والممالك الهندية والشرقية، وأرسل سفنه أيضا لاستكشاف سواحل الحبشة، وأمر رؤساءها أن تبقى فيما تستكشفه محطات عسكرية ومراكز تجارية، وكان مسيرها من مينا «القصير» فكان «بندر» القصير موردا ومصدرا للتجارات السودانية والعربية والعجمية والهندية، وكانت إسكندرية مركز العموم، ومحط رحال التجار كما هو معلوم،

---

(١) حكم البلاد ثمانية وثلاثين عاما (٢٨٥ ـ ٢٤٧ق. م) ويلقب بـ «فيلادلف» وبأمر منه ترجمت التوراة من العبرية إلى الإغريقية، وكتب "مانيتون" كتابه الشهير في تاريخ مصر القديم.

ولم تنتقل عنها فضيلتها الأولية فى أيام حكومة البطالسة فكانت قطب دائرة الدنيا بدون أن يسوغ لمدينة أخرى أن تكون لها منافسة.

ثم بتداول الأزمان ضاقت دائرة تجارتها، ومحيط صناعتها فى الأعصر الأخيرة، ومع ذلك فلم تزل منابع للمنافع النسبية غزيرة، لا سيما بعد فتوح الاسلام، فقد عوض الله تعالى مصر دون غيرها فى صدر الإسلام وبعده تجارة لن تبور، واكتسبت تمدنا آخر أعلى من الأول، وبقى القرون العديدة، وأخذت منه مدن الدنيا بحظ موفور، وناهيك بتقدم التمدن أيام خلفاء بغداد، ونقل الخلافة بمصر فى أيام الفاطميين، فإنه انسحب أثره على جميع البلاد، فإن يكن التمدن قد قصر فى مصر وانحط عن قدره الأصيل، فإنما كان ذلك فى أيام المماليك الذين أساؤوا فى تدبيرها، وسعوا فى خرابها وتدميرها، بما جبلوا عليه من العسف والتعدى، وعدلهم عن الجادة بسلوك ما ليس يجدى، حتى أنقذتهم منها شوكة آل عثمان، وغارت دولة الغورى بمصر، واطمأنت قلوب أهلها بسلامة السلطان سليم خان، وقتله للسلطان طومان، ومع ذلك فصارت مصر مترددة متحيرة لتداول أيدى الولاة العثمانيين، المختلفين فى درجات العدل المعتبرة، مع بقاء نفوذ أوجاقات الشراكسة أهل الحمية والعصبية، ولم يكن لأكثرهم أدنى حظ فى قصد التمدنية، فاستبدلوا الربح بالخسران(*)، وآثروا التدمير على العمران، وحل الخوف فى أيامهم محل الأمان، فانحل نظامهم، واختلت أحكامهم، فطمعت دولة الفرنساوية فى أن تجعل حكومة مصر ملحقة مضافة إلى مملكتهم بالجر على وجه الإضافة، وتغلبت عليها وأرادت بها ما أرادت، وأراد الله خلافه، فأعيدت كما كانت إلى دار الخلافة، ولكن كان لحكم المماليك قوة نفوذ غالبة، وأظفار أسود ناشبة، تفتك بالرعية، ولا ترعى حقوق الدولة العلية، ولا واجب الإنسانية، حتى آن الأوان وسخر الله سبحانه وتعالى لخلاصها من أيديهم بفتكهم أول أمير عجيب خرج من «قولة» وثانى فحول أمراء مقدونيا، محمد الاسم على الشأن، كما أشار لذلك بعض شعراء الفرنساوية بما معناه:

(*) كانت الأولى فى هذا السياق أن يقال: (... فاستبدلوا بالربح الخسران) وهو المعنى المراد من العبارة لأن الباء تدخل على المتروك. (الشروق).

فـعلك الخـيـر بـعـده حـسن ذكـر مـسـتـمـر على مـدى كل دهر

فـاغتنـم حوز مـشـتهى نـيل مصـر فلقـد شـابه دمـا سـيف نصـر

وغـدا فى حـمـاك يـنفق رفـدا فـائقـا عم نفـعـه كل قـطر

فإنه بقريحته العجيبة، أوصل مصر إلى درجة مهيبة، ثم لما آلت المملكة المصرية إلى الحكومة الإسماعيلية، بعد فترة تضعضع فيها الأساس، اجتهد فى أن يكسوها من المجد والفخار أعظم لباس، وأن يصونها داخلا وخارجا من الشدة والبأس، حتى تكون هى المصر وناسها هم الناس، ولا يتم مثل هذا التقديم بدون انجذاب قلوب الأهالى صوب مركز التمدن والتنظيم، وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم، بمعنى أنه إذا تشبثت الحكومة المصرية بكليات المصالح الوطنية، ساعدها الأهالى كل على قدر حاله بإيجاد المصالح الخيرية الجزئية، بحسب ما يقتضيه الوقت والحال، فبهذه الوسائل يتحصل على المنافع العمومية فى أطراف مصر وأكنافها بجميع المحال، فالقوة الوطنية والنخوة الأهلية مما ينتج إظهار شعائر الإسلام، ويبتهج به دين خير الأنام، والفضل فى ذلك للمؤسس الأول الجليل، ولمن يقفو أثره من كل وارث نبيل. وسيأتى أن ما فعله المؤسس الأول هو ما بنى عليه من بعده، لا سيما ما حصل من التجديدات فى هذه الأيام، مما يكاد أن يعجز عنه البشر، فالأعمال الأخيرة شواهد، وها هى نصب عين كل مناظر ومشاهد.

الباب الرابع

[فى التشبث بعود المنافع العمومية إلى مصر، حسب الإمكان، فى عهد محى مصر جنتمكان.

وفيه فصول].

الفصل الأول

فى مناقب جنتمكان، محمد الاسم على الشان، وأنه نادرة عصره، ومحى مآثر مصره، والمقابلة بينه وبين عدة من مشاهير ملوك الأعصر القريبة

كان المرحوم محمد على سليم القلب صادق اللهجة، أمينا فى تصرفه، حكيما فى أعماله، كريما إلى الغاية، حريصا على عمار البلاد، وفيا فى معاشرته، محرصا على ود عشيرته وجنوده ورعيته، متحببا إليهم، وإن كان فى بعض المواطن سريع الغضب، فقد كان قريب الرضا، حليف الحلم، صفوحا عن الجانى، مقداما على اقتحام الأهوال، صبورا على الشدائد وتنقل الأحوال شديد الحرص على شرف نفسه وصون ناموسه، قوى الفطنة، سريع الإدراك، يجول فكره فى الأمور البعيدة، بصيرا فى الحساب الهوائى العقلى، عجيب البداهة، غريب الروية. تعلم القراءة والكتابة فى أقرب وقت، وعمره خمس وأربعون سنة إذ ذاك، جبرا لما فاته فى زمن الصغر، وتداركا لما يزيد فى مجده فى زمن الكبر، فرغب فى مطالعة التواريخ، ولا سيما تواريخ الفاتحين، كتاريخ إسكندر الأكبر المقدونى، وتاريخ بطرس الأكبر إمبراطور الروس، أى الموسكو، وتاريخ نابليون الأكبر، وغير ذلك من التواريخ المترجمة إلى التركية، مع المواظبة على الاطلاع على ما فى الكازيتات[1] الإفرنجية التى كانت تترجم له، وكان صاحب فراسة، إذا تكلم أمامه أحد بلغة أجنبية فهم من النظر إلى حركاته وإشارته مقصده، يستشير العقلاء

(١) الصحف.

والعلماء فى جل أموره، وكان نشيطا يحب الحركة ويكره الكسل والبطالة، قليل النوم سريع اليقظة، يستيقظ غالبا عند الفجر، يسمع بنفسه العرضحلات التى تعرض له يوما عند الصباح، ويعطى عنها جوابا، ثم يذهب لمناظرة العمارات الميرية التى كان مغرما بها، وكان متدينا إلى حد الاعتدال بدون حمية عصبية ولا تشديد، فكان يغتفر لأهل الملل والدول فى بلاده التمسك بعقائدهم وعوائدهم مما أباحته فى حقهم الشريعة المطهرة، وهو أول من أعطى للعيسوية الداخلين فى الخدامات الميرية لمنافعهم الاقتضائية مزايا المراتب المدنية، وكان يؤثر الفعل على القول، بمعنى أنه إذا أراد ترتيب لائحة مهمة فيها منفعة للأمة شرع فيها بقصد التجريب، وأجراها شيئا فشيئا على طريق الإصلاح والتهذيب، فإذا سلكت فى الرعية، وصارت قابلة لعوامل المفعولية، كساها ثوب الترتيب والانتظام، وأخرجها من القوة إلى الفعل فى ضمن قانون الأصول والأحكام، لما أنه كما يقال: أحسن المقال ما صدق بحسن الفعال. وكان مولعا ببناء العمائر، وإنشاء الاغراس(*)، وتمهيد الطرق، وإصلاح المزارع، وإتقان الصنائع والأعمال، يرغب فى توسيع دائرة التجارة، ويستميل عقول الأهالى ليجذبهم إلى ما فيه كسب البراعة والمهارة.

وبالجملة فكان وحيد زمانه فى جميع أوصافه، وفريد أوانه فى عدله وإنصافه، لا سيما بعد أن صفا له الوقت عقب توليه على مصر، فإنه مكث قبل ذلك نحو خمس سنين وهو يقاسى ما يقاسى من الشدائد، ويعانى من أخصامه جميع أنواع المكائد، حتى عزم على رجوعه إلى وطنه الأول بدون صلة وعائد، لكن لوفور سعده، وتعبه وكده، وسبق القدر بوصله إلى تمام عزه ومجده، صرف النظر عن العودة، ونال من واهب العطايا ما هيأه له من تبوؤ بحبوحة الملك وأعده، ولا شك أنه عرف داء مصر وعلاجها فى أثناء هذه المدة، ولا بد أيضا أنه كان قد(**) نوى لها تحسين الحال والمآل، إن بلغه الله الآمال وأمده، ولا يخفى أن من قصد الاستيلاء على مملكة لا يخلو عن أحد أمرين: إما أن يكون كالصياد يقتنص مصيده بكل

(*) الأغراس: جمع واحدته الغرس، وهو المغروس من الشجر. (الشروق).
(**) إضافة يقتضيها السياق. (الشروق).

مكيدة، أو كالملتقط لليتيم المفارق أبويه لينقذه من التهلكة ويجعله وليده، فالأمر الثانى هو الممدوح، وهو مقصد حميد لأولى الفضائل من أصحاب الفتوح، فإنه مقصد سنى ومطلب هنى، فاستقامة الأمور لهذا الأمير الكبير، وما حصل له فى الاستيلاء على مصر من التسخير والتيسير، يدل على حسن النية وصفاء الطوية، فكأنما أرشده إلى بلوغ هذه المنزلة مصداق حديث: «إعملوا فكل ميسر لما خلق له». فكان دأبه فى العناية بشؤون تقديم مصر الإخلاص وحسن النية، فأعماله صارت على ذلك مبنية، وقد خلصت نيته فهبت صوبه نسمات القبول، وأصاب بشرف النفس وعلو الهمة واخلاص العمل إدراك المأمول.

قال عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». ومرجع هذا الحديث أن الأمور بمقاصدها، وهو معنى قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ**﴾ (الروم: ٣٨) فالمدار على الإخلاص فى العمل. وعن أبى موسى الأشعرى، قال، يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، فأى ذلك فى سبيل الله تعالى؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل». يعنى فالعمدة على النية، لقوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات»، وقوله صلى الله عليه وسلم: «ليس للعامل من عمله إلا ما نواه». فتحت هاتين الكلمتين من كنوز العلم ما لا يوقف له على غاية، ولذا قال الشافعى، رضى الله عنه، حديث «الأعمال بالنيات»، يدخل فى نصف العلم، وذلك أن للدين ظاهرا وباطنا، والنية متعلقة بالباطن، والعمل هو الظاهر، وأيضا فالنية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح. وقال بعض الأئمة: حديث «الأعمال بالنيات» ثلث الدين، ووجهه أن الدين قول وعمل ونية. وعن أبى هريرة، رضى الله تعالى عنه، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وفى حديث آخر:

«تصعد الملائكة بالأعمال فينادى الملك: إلق تلك الصحيفة، فتقول الملائكة: ربنا قال خيرا فحفظناه عليه، فيقول الله تبارك وتعالى: لم يرد به وجهى، وينادى الملك: اكتب لفلان كذا وكذا، فتقول الملائكة: يا رب أنه لم يعمله، فيقول الله عز وجل: أنه نواه». وقال الثورى كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، فكان بعضهم يقول دلونى على عمل لا أزال به عاملا لله؟ فيقال له: انو الخير، لأنك لا تزال عاملا، وإن لم تعمل فالنية تعمل وإن عدم العمل.

والناس فى النيات على ثلاث طبقات: **الطبقة الأولى**: من ينوى بالعمل وجه الله عز وجل، **والطبقة الثانية**: من ينوى العمل لله تعالى، ويشوبه بقصد الخلق، تبعا لا أصلا، **والطبقة الثالثة**: ما يكون الباعث على العمل الرياء. فالإخلاص فى الطبقة الأولى، والتجرد من الثواب فى الثانية، والحرمة فى الثالثة.

وقد كان السلف لا يعملون شيئا إلا أن تتقدمه النية الخالصة، ومع ذلك فقد نص العلماء أن من حج بنية التجارة كان له ثواب بقدر الحج، فكذلك الفاتح لمملكة إذا نوى إصلاح حالها، وتربية أهلها، وتهذيب أخلاقهم، وإسعادهم، وتنعيم بالهم، وتحسين أحوالهم، برفع الظلم عنهم، كما يقضى به حسن الظن فى حق المرحوم محمد على، وكما هو الواقع، فهو مثاب قطعا، ولو داخل قصده منفعة دنيوية مما لا يفارق الملوك من حب المحمدة فى غالب الأحيان، ولو لم يكن من أفعاله الخيرية إلا تخليص الحرمين الشريفين والأقطار الحجازية، من عبد الله بن سعود شيخ الوهابية[1]، لكفاه، فإن ابن سعود المذكور أتعب الحجاج بقطع الطرقات، وأزعج عباد الله تعالى، فغزاه جند محمد على جنتمكان، وهزمه بعد حروب طويلة، وأرسله إلى الآستانة، فأمرت الدولة العلية بضرب عنقه ليكون

(١) الوهابية حركة إصلاحية دينية سلفية، ظهرت في شبه الجزيرة العربية على يد محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ـ ١٧٩٢م)، وهي إذا قيست بتصورات العثمانيين للإسلام اعتبرت حركة تدعو للتخلص من البدع والاضافات الغريبة عن الإسلام، ولكنها بحكم النشأة البدوية الصحراوية كانت عزوفة عن استخدام العقل في فهم أمور العقيدة، فأخذت بظاهر النصوص، والتزمت مذهب ابن حنبل وفكر ابن تيمية إلى حد كبير.

عبرة للناظرين، وكذلك حروبه فى «موره»، فإنها من أجل الأفعال المبرورة، حيث إن أروام تلك الجهة هجموا على الإسلام فى الجوامع والمساجد فقتلوا منهم الجم الغفير، ولم يرحموا الشيخ الكبير، ولا الطفل الصغير، وفتكوا بالجميع فتكا ذريعا، بطريقة فظيعة، تأباها النفوس الأبية وتنفر منها الطبيعة، وطالما قبضوا على سفن الإسلام، وقتلوا من فيها وأذاقوه كأس الحمام، وكثيرا ما عذبوا المقتولين بالتمزيق والتحريق، وأضرموا نار الفتنة فى جزائر البحر الأبض بين كل فريق، وحرضوا جزائر «كريد» «ورودس» و «ساقس» وغيرها على العصيان، وما خلا من فتنتهم فى الأروام الرعايا بلد ولا مكان، ولم يقتصروا فى الجبروت والطغيان على مخالفة الشريعة العيسوية، بل هتكوا حرمة النواميس الطبيعية، فأرسل إليهم محمد على باشا عمارته البحرية لقمعهم وإدخالهم تحت الطاعة، فحاربهم نجله الأكبر جنتمكان، فدمرهم وشتت شملهم، ثم استقلوا ببلادهم، وفارقوا الجماعة، ولم ينتج من هذا الحرب نتيجة تعود على مصر بالمنفعة، اللهم إلا أن اكتسبت عدة من أرباب الامتياز الوافر، من أعيان الأعيان الأكابر، من أهالى تلك البلاد الرومية، ممن هاجر إلى الديار المصرية، وبها أقام، وأدى بها الخدمة الصادقة ونال علو الرتبة والمقام، ومن هذا الجنس الرومى من تناسل بالقطر وعد من أبناء الوطن العظام وإن كان فى غزوة البلاد اليونانية فائدة أخرى جلية فما هى إلا تمرين الرجال العسكرية المصرية على الحروب، وممارستهم للغزو والجهاد وتعودهم على اقتحام الخطوب، تحت قيادة أحد رؤساء الجنود المعدودين، الذى لا يزال صيت صوته الجهادى باقيا إلى يوم الدين.

وكذلك فتح محمد الاسم على الشأن لغير هذه البلاد من البلدان، كفتحه للأقطار السودانية، مما وسع دائرة المنافع الوطنية. وحروبه مع والى عكا معلومة، وجولان جنوده فى الشام وغير الشام مفهومة، ولم تكن تلك من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود، والدليل على حسن النية أن هذه الحسنة، التى على صورة الجنية، أنتجت أصل وراثة مصر، التى ترتب عليها رفع الإصر، ولولا بقاؤه تحت ولاء الدولة العلية، ومراعاة حفظ الحالة الراهنة على ما هى عليه من الراجحية

والمرجوحية، لجال فى الفتوحات الخارجة مجال إسكندر الأكبر، وحسن حالة التمدن وجد فى جادة العمران، وفعل ما فعله إسكندر حيث اتحدا فى البلد فكان لا مانع أن يتحدا فى المظهر، فمن سعد مملكة مقدونيا وتخليد فخارها أنها موطن أميرين جليلين بقى ذكرهما فى الخافقين، أحدهما من بيت الملك، رأس اليونان وقادهم وفتح معهم سائر البلدان، فانتصر بالتدبير والأعوان، وتغلب بذكاء العقل وتجاريب الشجعان، والثانى من بيت مجمل، ونسل أمثل، ساعفته المقادير، واستعان بحسن العقل والتدبير، ولم يكن له بعد مولاه غير عقله نصير، فنعم المولى ونعم النصير، ألهم جموع أبناء جنسه المجردين عن الانتظام، اقتحام العقبات وحسن الاقدام والإحجام، واستسهال الصعب لنيل المرام.

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فما انقادت الآمال إلا لصابر

فلما هزم بهم جيوش المماليك بسائر الجهات، وأذهب دولة سناجقهم وتحققت الحقائق وزالت الشبهات، خلع على حزبه المراتب السنية، وجعلهم حكاما فى أقطار مصر، وحصلت بهم الأمنية، ورباهم كما يربى الأستاذ الطلبة، ونال بهم قصده ومأربه، فلو كان الإسكندر بهذه المثابة، لم يصب من العز ما أصابه، ولا بلغ نصيب محمد على ولا نصابه، وعلى كل حال فقد حل الثانى محل الأول، فكأنما ذلك وثق بهذا وعليه فى تتميم المقاصد عَوَّل، كما قلت فى تأريخ (بداية القدماء وهداية الحكماء) فى هذا المعنى من ضمن قصيدة:

لمصر به شأن شريف زهت به ... وعز منيف قد أظلت ظلاله
أتاح لها المولى مليكا قد انتمى ... إليها ومن أقصى البلاد ارتحاله
محمد أفعال على مكارم ... بديع صفات لا تعد فضاله
يقول أناس طالع السعد حظه ... وما السعد إلا عقله وعقاله
دفاتر تاريخ السلاطين سطرت ... مناقبهم فاستجمعتها خصاله
وما مثلها «مقدونيا» إذ سمت به ... وقد كان فيها حمله وفصاله
منازل منها إسكندر فاتح الورى ... إذا لم يكن عم الأمير فخاله

يضاهيه فى أوصافه الغر نجله ... إذا ما تصدى نحو شأو يناله

وفى هذا البيت الأخير إشارة إلى جنتمكان إبراهيم باشا كالإشارة إليه فى قصيدة أخرى فى الرحلة بقولى :

من كان مثل أميرنا فقرينه ... إسكندر أو كسرى أنوشروان

فى كفه سيفان سيف عناية ... والشهم إبراهيم سيف ثانى

بطل مكارمه الجليلة قلدت ... هام الزمان مكلل التيجان

ولما كان محمد على يحس من نفسه بأن عزماته إسكندرية ، كان متولعا بقراءة تاريخ إسكندر ومنكبا عليه ، وشبيه الشيء - كما يقال - منجذب إليه ، وفى الحقيقة فكان بينهما من جميل الصفات والشمائل ، ما شهدت به الشواهد ودلت عليه الدلائل ، فلو استولى أميرنا على مصر وفيها بقايا من حكماء الأعصر المصرية القديمة ، لحكموا بما يعتقده قدماؤهم فى أيام الجاهلية الذميمة ، من تناسخ الأرواح بعد الموت وإنعاشها لأجسام أخرى ، وأن روح إسكندر انتقلت بعده إلى شبيهه فهو بها أحرى ، وأما نحن معاشر أهل السنة فنقول : إن تشريك اثنين وتسويتهما فى الصفات الفاضلة ، والمعانى الكاملة ، هو محض فضل من الله ومنة ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، وهذا لقياس الفارق بينه وبين إسكندر يجرى أيضا فى قياسه بأصحاب الخروج والفتوحات المملكين ، فقد أعانتهم ممالكهم وجنودهم وقوادهم على كسب العز والتمكين .

[السلطان سليمان الثانى]

وقد كان عصر السلطان سليمان الثانى[1] أعظم الأعصار ، إذ هو الذى قدّم الدولة العثمانية إلى أوج الفخار ، فافتتح الفتوحات العظيمة ، وأعلى كلمة الله

---

(١) (١٦٤٢ - ١٦٩١م) حكم الدولة العثمانية من سنة ١٦٨٧ حتى سنة ١٦٩١م وكان عصره عصر حروب متصلة ضد دولة النمسا .

ورفع المنار، وباشر الغزو بنفسه فى ثلاث عشرة غزوة، وانتصر فى جميعها بقوة التدبير، وتنظم الجيوش وأى قوة، وبنى الأبنية العجيبة، وفعل كثيرا من الأفعال الخيرية الغريبة، وأنشأ «الدوننما»[1] العثمانية، وكان كهفا وملاذا لأكثر ملوك البلاد القاصية والدانية، وكان فى أيامه بأوربا اثنان من الملوك العظام، الأول «شرلكان»، الذى كان متوليا على النيمسا بلقب إمبراطور، وكان يسمى «كرلوس الخامس»، يعنى خامس كرلوس من الأباطرة المسميين بهذا الاسم، وكان متوليا أيضا على إسبانيا بلقب ملك إسبانيا، وكان يسمى بالنسبة لمملكتها «كرلوس الأول»، يعنى أنه أول ملك تولى عليها باسم «كرلوس». والملك الثانى من الملوك العظام هو «فرنسيس الأول» ملك فرانسا، وكان يلقب بأبى العلوم، لأنه كان يحب العلوم والمعارف، كما كان مولعا بالعمائر العظيمة، فقد أسس بفرانسا مدرسة ملكية، وكتبخانة، وبنى كثيرا من السرايات والقصور، وأدخل فى ديوانه الرفاهية وآداب التمدن وتهذيب الأخلاق، ومع كثرة مصارفه وما كان ينفقه فى المنافع والمنازه من خزينته الخصوصية، فقد ترك فيها نحو أربعمائة ألف دينار غير مالم يقبضه من خزينة المملكة من مرتب التاج الملوكى السنوى، وهو ربع مرتب السنة، وكان بينه وبين شرلكان، إمبراطور النيمسا السالف الذكر، منافسات ومشاجرات، أدت إلى تواتر الحروب بينهما، ومع أن دائرة الهزيمة كانت دائما على شرلكان إلا أن فرنسيس انهزم فى واقعة، ووقع فى قبضة خصمه، وهو شرلكان، وأخذه أسيرا إلى إسبانيا، فاستنصر الملك فرنسيس المذكور بمولانا السلطان سليمان، وكتب إليه كتابا مؤرخا فى سنة تسعمائة واثنين وثلاثين يشكو من تغلب أعدائه على مملكته، ويستصرخ به ويستغيث، فأجابه، بعد صدر الكلام بقوله: إن الكتاب الذى أعرضته إلى الآستانة الملوكية مع رسولك المستحق لأمانتك، أفاد أن العدو حاكم فى مملكتك، وأنك صرت الآن أسيرا، وتلتمس من طرفى فك أسرك، فجميع ذلك عرض على أقدام سرير سلطنتى العلية، التى هى ملجأ العالم، وقد أحاط علمى الشريف بجميع شرح كلامك، ولا غرابة فى أيامنا

(١) الأسطول البحري.

هذه إذا انهزمت الملوك ووقعت فى الأسر، فشجع قلبك، ولا تترك نفسك تجبن، ففى مثل هذه الأحوال لما رأينا سلفنا المجدين وأجدادنا الأكرمين لم يتأخروا عن الدخول فى قتال الأعداء وفتوح البلاد، فأنا مقتف لأثرهم، فطالما فتحت فى هذا العهد كثيرا من الولايات والحصون القوية التى لا يدنو منها أحد، وقد حرمت على نفسى النوم، وجعلت سيفى لا يفارق جانبى، والله يسهل علينا إتمام الخير، وغير ذلك، فاسأل رسولك عن جميع ما جرى مما استقر عليه الحال، واقنع بما يخبرك به من المقال، فإنه واقع لا محالة، ثم بعد رد الجواب أرسل مولانا السلطان سليمان عمارة بحرية، وأمَّر عليها خير الدين[1] باشا ينجد بها ملك فرانسا.

ولما وصلت إلى «مرسيليا» انضمت إلى عمارة الملك فرنسيس وساعدته على أخذ بعض البلاد، ونصرته على أعدائه، ثم عادت إلى القسطنطينية، وكان خير الدين باشا من أعظم قباطين الدنيا، وكان قد فتح أخوه بلاد الجزائر فى أيام السلطان سليم، ونزعها من يد شيخ العرب «سالم بن تيمى»، وكان حاكما عليها، ثم تقدم أخو خير الدين باشا المذكور فى توسيع الفتوحات، فأرعب «كرلوس الخامس»، حتى خاف بطشه، وخشى أن يتغلب على أملاك إسبانيا التى بأفريقة، فبعث إليه جيشا عظيما جرارا، واستشهد هذا الأمير الخطير عند هذه المدينة، فخلفه أخوه خير الدين باشا المذكور على حكومة جزائر الغرب المذكورة، ودخل فى حماية السلطان سليم، وقرر على نفسه خراجا للدولة العلية، فلما تولى السلطان سليمان جعله قبطان باشا على جميع «الدوننما» العثمانية، فحصن بلاد الجزائر بالاستحكامات اللازمة.

وفى شهر رجب سنة إحدى وأربعين وتسعمائة أرسل خير الدين باشا إلى غزوة الجزائر البحرية الملحقة بإسبانيا، وغيرها من الجهات البرية كإيطاليا، وتوجه السلطان بجيشه من جهات البر، وأرسل بطريق البحر لطفى باشا وخير الدين باشا بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر، وأمرها أن تسير وتنزل فى معسكره

---

(١) (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) تولى قيادة الأسطول العثماني من سنة ١٥٣٣ حتى سنة ١٥٤٤م وكان معروفا بلقب «بارباروسا» وهي تعني بالإيطالية: ذو اللحية الحمراء.

المنصور، فنزلت فى ثلاث وأربعين وتسعمائة فقتلت فى البر والسواحل كثيرا من الأعداء واغتنمت غنائم عظيمة وافتتحت فى جزائر ذلك البحر اثنين وثلاثين حصنا حصينا من ممالك إيطاليا وغيرها، واقتلعتها من أساسها، وغنمت جيوش المسلمين من الأموال والسبايا ما لا يحصى، وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة برا وبحرا.

وكان فى سنة إحدى وأربعين تقدم خير الدين باشا إلى أسوار مدينة تونس، وكان ملكها «مولاى حسن» من «بنى حفص»، وكان فى مدة ولايته قد قتل أربعة وعشرين من أخوته، مشتغلا بلذاته وشهواته، غير ملتفت إلى تحصين بلاده، فافتتحها خير الدين باشا وطرده من البلاد، غير أن هذا الفتوح لم يمكث إلا مدة قليلة، حيث إن مولاى حسن التجأ إلى «كرلوس الخامس» فجَيَّش على تونس واسترجعها بالحرب لدولة بنى حفص، ثم فى أيام السلطان سليم ابن السلطان سليمان صار فتحها بالدولة العثمانية، وبقيت فى أيديهم.

[لويس الرابع عشر]

ففى تلك الأيام كانت الهيبة العثمانية عظيمة مرعبة ملوك أوربا، مع وجود فرنسيس الأول ملك فرانسا وشرلكان إمبراطور النيمسا وملك إسبانيا، وفى أيام هذين «القرالين» اتسعت دائرة بلاد أوروبا فى الفنون والمعارف، وأخذت فى كمال التقدم، ومن ذلك العهد لا زالت أوربا آخذة فى تقدم الجمعيات التمدنية إلى أن أبلغها درجة الكمال عصر لويز الرابع عشر، وكان ذلك بهمة هذا «القرال» الذى تاريخه لا ينبغى أن يهمل، لما بينه وبين جنتمكان محمد على من الشبه الأكمل الأمثل، سواء فى الفصل والمجمل.

فلنذكر منه نبذة وجيزة فنقول: تولى هذا الملك على تخت فرانسا من سنة ألف وثلاثة وخمسين إلى سنة ١٠٧٢ من الهجرة[١]، وكان عمره إذ ذاك خمس

---

(١) وتوافق سنة ١٦٦١م.

سنوات، ومكث إلى بلوغ رشده تحت ولاية أمه، فنابت بنفسها عنه فى المملكة، وقلدت الوزارة الكردينال «مازارين»، فكانت مدة مملكته اثنتين وسبعين سنة، فلما تم عمر الملك اثنتين وعشرين سنة باشر أحكام مملكته بنفسه، وكان يميل إلى المجد والشوكة، فلا زال مستوزرا «مازارين»، فلما دنت وفاة هذا الوزير، وأحس بدنو أجله، وكان معهودا منه الصداقة لوطنه وملكه، أوصى الملك أن يستوزر بعده «كولبرت»، وكان من كبار الرجال الفرنساوية، فعمل الملك بوصيته وكان «كولبرت» حسن التدبير كامل الاستقامة، فبذل جهده فى تنظيم المالية وترتيب القوانين العدلية النافعة، وجعل من الأصول مكافأة أرباب المعارف وتشويق أرباب الصنائع من الأهالى والأجانب، وجدد فى المملكة الفرنساوية عمارة سفن حربية، وأسس مدارس العلوم والفنون، واعتنى بالعلوم المستظرفة، كالرسم والنقش وجعل لها مكاتب خصوصية، وجدد من المنافع العمومية ما صير ملكه مهابا عند الدول الأجنبية، وأبطل أسباب الظلم والجور فى داخل البلاد، وأقام قسطاس العدل والإنصاف لراحة العباد، وتحولت أحوال الأقاليم فى الداخل بالعمليات النافعة، وتحسنت الأحكام والقوانين وصارت رياض المنافع يانعة.

وفى أثناء ذلك استنار فكر الملك وصار قابلا لملاحظة السياسة بنفسه ولانتخاب رؤساء مملكته من كل رئيس نافع لأبناء جنسه، وكما أن الوزير «كولبرت» متقلد بالوزراة الملكية كان المارشال «تورين» متقلدا برياسة العسكرية، وكان هذا الأمير من فحول رجال عصره، نافذ الكلمة فى الجيوش الفرنساوية فى نهيه وأمره، حليف الصبر والحلم فى حالتى الحرب والسلم، لم يعهد عليه غضب مخل ولا حقد ولا حسد، بل كان يتحبب لكل أحد، مع ما كان عليه من الانفراد بالفضائل والمعارف، والغرائب واللطائف، وكان إذا وجد من غيره عيبا ستره، وخللا سده وجبره، وكان مقداما على الحروب، جلدا عند الخطوب، يحسن مكايد تدارك الأعداء، ولا يحمل أحدا من العسكر على أن يخطو خطوة سدى، فقد قضى زمانه فى خدمة الأوطان، وحاز من المجد العسكرى أبهى عنوان.

ولما مات أمر الملك بدفنه فى القبور الملوكية، وتشرف بعد انقضاء حياته بهذه المزية، وكتب على قبره من الشعر ما معناه: (قد دفن «تورين» فى مقابر الملوك، وامتاز بهذه الحظوة بسلوكه فى الحروب أقوم سلوك، وقد أذن لويز الرابع عشر بذلك ليتوج بعد الموت بتاج المجازاة، إذ كان هذا البطل قد أحسن رياسة الغزاة، وليفيد ما يأتى بعده من القرون الآتية أنه لا فرق فى الدرجة بين من بيده قضيب المملكة والقائد الذى يصون بحسن تدبيره الوطن من التهلكة).

فجميع ما كان من الغزوات الفرنساوية والانتصار فيها على الأخصام الأجنبية كان من حسن تدبير «تورين»، وأما «كولبرت» رئيس الوزراء فإنه قد جدد المنافع العمومية، ووسع دائرة التجارة الفرنساوية، بكثرة الأخذ والإعطاء فى الهند وأفريقة، وجعل فى هذه الممالك الأجنبية «قمبانيات»[1] (فرنساوية)، وسهل التجارة الداخلية بفتح مسالك فى الأنهر، بحيث صارت مسلوكة للسفن، وكذلك فتح طريقا بين البحرين يعنى المحيط الغربى والبحر الأبيض وهو خليج «لنغدوق»، وقد كان تصور فتحه فرنسيس الأول ملك فرانسا ولم يشرع فيه، ففعله «كولبرت» فى أيام لويز الرابع عشر، وأنشأ المصانع والمعامل والورشات والكراخانات المتنوعة بتنوع المشغولات، حتى سلب من البنادقة الاختصاص بصنعة المرايا والتجارة فيها دون غيرهم، ومن الفلمنك صنعة الملابس والمفروشات، ومن بلاد الدولة العلية الاختصاص بصنعة البسط والسجاجيد الجيدة، ورتب المصالح البحرية من ترسانات ودواوين عوائد، وحَسَّن الزراعة والفلاحة، واكتسب الملك من أيام وزارته الصادقة فى العمل فلاحه، ونقح الأحكام والقوانين، وهو المؤسس لمدارس العلوم الكبيرة الملوكية، ولمدارس الرسم، لا سيما مدرسة رومية، التى هى بحسن الرسم معهودة، ولم تزل باقية إلى الآن على طرف الفرنساوية، ومرصودا لها دراهم معدودة، ورتب مكاتب النحت والنقش والمبانى، وحسن مدينة باريس بتشييد الأرصفة على نهر السين، وزينها بالميادين العمومية الفسيحة، وقوى علم النجوم بالرصد خانة الملوكى،

---

(١) شركات.

وجدد فيها الحسبة والضبط والربط الداخلية، وأدخل حسن التربية فى الجيوش العسكرية، وسوى بالعمارات بالسواحل المينات المأمونة، وبنى عليها قلاع الثغور المصونة، وجدد لنفع الملة بتمامها قشلة لعساكر السقط، على أتم أسلوب وأكمل نمط، وعقد لمملكة فرانسا على غيرهم من الدول عقود المعاهدات والمحالفات النافعة، وجعل الروابط والعلاقات بينهم وبن حلفائهم متواثقة متمانعة، وأكثر من الفتوحات الفاخرة التى وسعت لعموم الوطن محيط الدائرة، وقد رثى ولتير الفيلسوفى الشاعر[1] لويز الرابع عشر بذكر بعض المآثر، فقال، ما معناه: «لم يتول قبله ملك من تلك العصابة، ولا ساواه غيره فى تربية الرعية بهذه المثابة، فالفخار شعاره، والمجد دثاره، وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد، كما كان أعظمهم فى الهيبة عند الأخدان والأضداد، وربما كان دونهم فى ميل الرعية إليه، ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه، فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف الزمان، وتتلاعب به حوادث الحدثان، وهو عند النصرة يظهر الفخار، ويتجلد عند الهزيمة ولا يظهر بمظهر الذل والانكسار، فقد أرهب عنده عشرين أمة عليه تعصبت، وعلى قتاله تحالفت وتحزبت، وبالجملة فهو أعظم الملوك فى حياته، كما كان عظيم العبرة عند مماته». انتهى.

وكان فى عصر هذا الملك من مشاهير الرجال جماعات كثيرون فى كل فن، فكان الملك فى أعلى درجات الفخار بالجمعيات العظيمة المؤلفة من هؤلاء المشاهير، أرباب القرائح الكاملة، والعقول الراجحة الفاضلة، وقد استعان بجميعهم، وعرف لكل منهم فضله، وقلده من الوظائف بقدر استحقاقه، فهو مع هذه الجمعيات العظيمة التى ساعدت مظاهر سعده، مخلد الذكر عند من جاء من بعده.

وفى بحر مدة حكمه تولى على الدولة العثمانية ستة من السلاطين، فقد تولى

---

(١) فرانسوا فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م) فيلسوف ومفكر وكاتب فرنسي، تعتبر أعماله الفكرية ومواقفه إلى جانب قضايا الحرية من العوامل التي مهدت لقيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م، وعندما جمعت أعماله الفكرية ونشرت، بعد وفاته، بلغت سبعين مجلدا.

لويز الرابع عشر على دولة فرانسا وكان إذ ذاك متوليا على الدولة العثمانية السلطان إبراهيم ابن السلطان أحمد خان الأول، فخلفه ابنه السلطان محمد الرابع، سنة وثمانة وخمسين وألف، ومات فى سنة تسعة وتسعين وألف، وخلفه ابنه فى هذه السنة السلطان سليمان الثانى، ويقال له الثالث ثم توفى فى أوائل شعبان سنة ألف ومائة واثنتين من الهجرة.

ثم تولى فى هذه السنة السلطان أحمد الثانى ابن السلطان إبراهيم خان، وتوفى فى سنة ألف ومائة وواحد من الهجرة، ثم خلفه فى هذه السنة السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد الرابع، وتوفى فى أوائل سنة ألف ومائة وخمسة عشر، ثم تولى السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع سنة خمسة عشر ومائة وألف من الهجرة، وفى أيامه توفى لويز الرابع عشر. فقد عمر لويز المذكور عمرا طويلا بقدر عمر خمسة من الملوك العثمانية فكان طول عمره مما أعانه على كثرة مشروعاته وإنجازها جميعها.

فقد علم من هذا مساعدة كبار الملوك على مقاصدهم برجال مجربين، يكاد أن تنسب الأفعال العظيمة إليهم، كمساعدة خير الدين باشا وأمثاله لمولانا السلطان سليمان، وكمساعدة الوزير «مازارين» ورئيس الوزراء «كولبرت» وكالمرشال «تورين» وغيرهم من مشاهير الأبطال الذين لا يحصون عددا، فلو حظى المرحوم محمد على فى أوائل توليته بأمثال هؤلاء الفحول المتصفين بالسياسة والرياسة وذكاء العقول لكان أعظم أبطال الدنيا، ومع ذلك فله الفضل الذى كان أن يختص به فى كونه أعمل قريحته فى تربية رجاله الذين جاءوا معه إلى الديار المصرية، أو الذين انتخبهم أو رباهم فأحسن تربيتهم فى هذه الديار، وببركة يمنه وحسن نيته الخيرية سلكوا معه سبيل الفخار، ونالوا بتربيته كمال الشهرة والاعتبار، فهو بهذه الملاحظة بالنسبة لتلك الأزمان حاز قصب السبق فى ميدان الملوك السابقين، فهو جدير بأن يعد من عظماء ملوك الدنيا بيقين، وحسبه أنه أحسن تربية نجله الأكبر إبراهيم باشا تربية عسكرية، حتى شهد له بالفضل الحربى جميع أمراء جيوش الدول الأورباوية، وأيقنوا جميعا أنه من كبار قواد الجنود الذين

اشتهروا فى القديم والحديث، وأنه أول أمير من أمراء الجنود فى الدول الإسلامية من القرون الأخيرة، وأما فى السياسة الملكية فكان من كبار المدبرين، وإدارته الخصوصية أعدل شاهد على أنه لو طال عمره بعد توليته لكان من أعظم المعمرين، وقد اقتضت حكمة الحكيم أن وضع فى إسماعيل سر إبراهيم، وأنه حين آل سرير الملك إليه أجرى الله تعالى كمال خير التمدن على يديه، وما تجدد فى عهده من المحاسن الجمة شاهد عدل على أن مولاه وضع فيه سر أبيه وجده، وهى نعمة عظيمة وأى نعمة.

الفصل الثانى

فى أن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلية وتسلطنت على قلبه وأخذت بمجامع لبه

لا شك أن المومى إليه أدرك بقريحته الصحيحة، وفطنته الرجيحة أن المملكة المثرية السعيدة وسائل الثروة فيها والسعادة، هى عين وسائل الصيانة والمجادة، وأنه ينبغى أن يعض عليها بالنواجذ، وأن لا يفتح لشواردها سبل ولا منافذ، ومن المعلوم أن منبع سعادة مصر، بالأصالة، الزراعة، فلا يسوغ لها أن تتوقع الثروة إلا من المحصولات الزراعية دون غيرها، فليس من بلاد الدنيا بلد يسهل استخراج غزارة محصولاتها كالأراضى النيلية، كما أنه ليس من أقاليم الدنيا ما هو أقرب للتلف كمصر، إذ أراضيها أشد عرضة للفساد بفساد النيل، فهى تابعة له وجودا وعدما، فإذا أغمض النيل عينه عنها سنة من السنين، وحجب عنها فيضانه الممزوج بالطينة المخصبة، كانت السنة عقيمة ومجدبة، كما إذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة واللزوم، فإن السنة الغرقية كسنة الشراقى تورث الهموم، وحسبك فى الخصب وضده ما ذكر فى سورة يوسف الصديق من ذكر (سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف)، فالآية قد أجادت فى وصف مصر على وجه التحقيق، وقوله (فما حصدتم فذروه فى سنبله) يرشد إلى الاحتياط والاحتراس، لجميع ملوك مصر وسائر من فيها من الناس، فلهذا كان حكماء ملوك مصر يحتاطون فى سنى الخصب فلا يخرجون الزائد لغيرها من البلاد، ويعتنون كل الاعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور، والترع والخلجان، لمصلحة الرى فى كل طريق

وسبيل، فلذلك ترى من مبانى الفراعنة ما عظم نفعه من المصالح الخيرية، لحفظ المزارع والمنافع النيلية، فبهذا أبدوا سعدهم، وخلدوا ذكرهم، لمن بعدهم، واقتدى بهم غيرهم من الملوك.

وعند فتوح الإسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاة، بقدر استطاعتهم، فى هذا السلوك، وإنما لما صارت مملكة مصر فى قبضة الكوليمان[1]، وصار لهم عليها الرياسة، واختلت أحوالهم بـوضعفت عندهم السياسة، ولم يبق لهم من شهامة الحكام إلا مجرد إحسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة، أهملوا عمليات النيل، فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا، وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المعنوى ولا الحسى منجدا ولا معينا، فتبدد شملهم بالكلية، وصارت مصر فى يد الفرنساوية، تعد اقليما من أقاليم الجمهورية، ولم تعد للدولة العلية، إلا بعد التى واللتيا، فزحف على المماليك، وبالهمة المحمدية العلية لم يلبثوا بها مليا، ثم بتوطن هذا الأمير، وتوطيد السرير، أدرك أنه لم يستول من الأراضى إلا على موات، ولم يسترع إلا أحياء ضعاف الهمة، وهم فى الحقيقة لاختلال الهيئة الاجتماعية فى حيز الأموات.

ولعل هذا البطل الهمام المؤسس، فهم بقوة فطنته ما أجاب به سؤال عمر بن الخطاب بعد الفتوح ملك مصر المقوقس، وذلك أن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، كتب إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر، من أين تأتى عمارتها وخرابها؟ فسأله عمرو، فقال له المقوقس: «عمارتها وخرابها من وجوه خمسة: **الأول**: أن يستخرج خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم، **الثانى**: أن يرفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم **الثالث**: أن يحفر فى كل سنة خلجانها، **الرابع**: أن تسد ترعها وجسورها، **الخامس**: أن لا يقبل مطل أهلها. فإذا فعل هذا فيها عمرت، وإن فعل فيها بخلافة خربت». انتهى.

---

(١) المماليك.

فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون إلى عمارتها، وإنما يأخذون ما بدا لهم وراج فى كل عام، حتى صارت يبابا، وازدادت خرابا، فقد كان أهملها المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية نيلية، فكانت الأراضى تفسد فى كل عام فى كثير من الأقاليم، حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادى النيل الصالح للزراعة، فتكون من الرمال على شواطىء النيل تلال وأكوام، ولو بقى حكم إبراهيم بك ومراد بك عشرين من الأعوام لفسدت جميع أراضى مصر الزراعية.

قال نابليون حين تأمله فى أراضى مصر: «لوحكمت هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرانسا وإيطاليا وإنكلتيرة والنيمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاث أضعاف ما كانت عليه فى أيام المماليك، فإن المزارع تجلب من سواحل أفريقة ومن جزيرة العرب خلقا كثيرين ينتجعون إليها للميرة، لما فيها من الخيرات». انتهى.

فقد سخر الله تعالى لها محمد على لإحياء مواتها، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضا ميتة فهى له، وليس لعرق ظالم حق». يعنى من عمر أرضا فقد ملكها بالإحياء والتعمير، وليس لمن غرس عرق شجرة ظلما حق فيما غرسه، وورد أيضا: «من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر، وما أكلته العافية منها فهو صدقة». والمراد العافية: كل طالب رزق من آدمى أو غيره، وصفه الاحياء التى يملك به الموات شرعا ما يعد مثله العرف عمارة للمحى، فيختلف ذلك بحسب الغرض منه، إلا أن إحياء الديار المصرية هى حياة ملوكية، فلعله خطر فى خاطر ولى النعم الملحوظات الآتية:

الأولى: أنه لم يكن للنيل فى هذه الأيام إلا فرعان، فرع رشيد، وفرع دمياط، وأنه يجب عمل أقفال وسدود لهذين الفرعين بطريقة تقتضى أن لا ينصب من ماء النيل فى البحر الأبيض إلا ما لا يمكن تركه، فبهذه الوسيلة يكون ماء النيل الفائض جسيما، ويمتد على كثير من الأراضى زيادة عما هو عليه، فبهذا تتسع الأرض الصالحة للزراعة أو للسكنى أزيد من الحالة الراهنة.

الثانية: إذا صار الاعتناء بتطهير الترع والخلجان كما ينبغى، وصار الاجتهاد فى تكثيرها بقدر اللزوم، تمكث المياه على الأراضى جزءًا عظيمـا من السنة، فيتسع وادى النيل ومجراه ويمتد، فيروى الأراضى الصالحة للزراعة، فمن هذه الأراضى القابلة للغرس «الواحات الخارجة» وجزء عظيم مبدؤه من برية «الفرما»[1] وسائر «البحيرة» «ومريوط» وما حوالى «إسكندرية»، فإن جميع تلك الأراضى كانت فى الازمان القديمة عامرة بالزراعة ليست من مآثر النيل محرومة.

الثالثة: قد صح بوجه الحدس والتخمين، أن بواسطة الطريقة السابقة، المستحسنة جدا، إذا أجريت بالضبط والمواظبة، وحسن الهندسة الصادرة عن فكرة سليمة، الناتجة عن حكومة منظومة، تزيد فى مزارع مصر العامرة ما ينيف عن تسعمائه فرسخ مربع.

الرابعة: الظاهر أن النيل فى الأعصر السابقة سبق مروره بالفيوم، بالأرض المسماة هناك بحرا بلا ماء، وجرى من الفيوم إلى بحيرات «النطرون»، وكان يخرج منها فينصب فى البحر المالح من المحل الذى خلف قلعة العرب، والظاهر أيضا أن «بركة قيرون»[2] المسماة بحيرة موريس التى هى كذلك بالفيوم سدت هذا الفرع وصارت بحيرة.

الخامسة: من المعلوم مما سبق أن خصب مصر ويمنها متسبب عن النيل ويمن غيرها الزراعى متسبب عن اختلاف الفصول والأمطار، فبهذا كانت مصر مستعدة لكسب السعادة أكثر من غيرها، بشرط انتظام حكومتها واجتهاد أهاليها، لأن اختلال حكومتها يخل بمزارعها، بخلاف اختلال غيرها من الحكومات فلا يؤثر شيئا فى جريان الفصول والأمطار، فينتج من هذا أن مصر إذا توفرت فيها شروط انتظام الحكومة، وإصلاح النيل، وسهولة وسائل المنافع العمومية، ودفع المضار النيلية، كثر خيرها وبرها، وإذا اختلت فسدت مزارعها، فاختلال مصر فى السنين

---

(١) المراد: صحراء سيناء، و «الفرما» مدينة مصرية قديمة، أو حصن قديم، بين العريش والفسطاط، كانت على يمين القاصد إلى مصر من ناحية الشام.

(٢) بحيرة قارون.

الماضية أضر بها كثيرا، مع أنه يمكن أن تكون أرض مصر ومزارعها مستوية الخصوبة فى جميع أجزاء الأقاليم بخصوبة واحدة إذا صار تعهدها على الوجه السالف الذكر، بخلاف ما إذا أهملت جسورها على عملها المعتاد، وتركت الترع بدون تطهير، فإن ذلك يوجب تلف الإقليم بتمامه، ويجعله صحراء لا ينتفع بها، فتأخير العمليات عن مواعيدها موجب للتلف، فإن الزرعة والحصد مبنيان على أزمان فيضان النيل وكميات مياهه، وبفوات العمليات تفوت مواعيد الزراعة والحصادة.

السادسة: إذا صار الشروع فى عملية قناطر عظيمة تسد فرع دمياط ورشيد فى المحل المسمى «بطن البقرة»، وعمل لها أبواب ورياحات ومصارف، فإن بواسطة ذلك يحصل تحويل النيل للمحلات التى لا يصل إليها بدون ذلك، فمصلحة الرى تصير كاملة، ويصير ماء النيل عند الفيضان ضعفين، بحجز مياهه ومنع الإسراف فيها بانصبابها فى البحر.

هذا ما تصورته لفكره الجلية المحمدية العلية، لا سيما مما أرادت إجراءه فيما بعد ببناء القناطر الخيرية. وبالجملة فكان ميل جنتمكان متوجها كلية إلى بذل مجهوده وقوة نشاطه لإحياء عملية الرى والزراعة، وعن ذلك نتج إحياء مصر وأهلها، واستنشقت فى أيامه رائحة الراحة، لأنه لما كان الرى مضمونا بهذه العمليات صارت الأراضى المصرية التى هى عناصر أرزاق الأهالى ذات أثمان غالية، لكونها تؤدى محصولاتها بغاية من السهولة، بشرط ترتيب المياه والاقتصاد فيها، فكانت الحكومة المصرية دائما متشبثة بتحسين مصلحة الرى، والاحتراس من الغرق والتشريق، فقد سلك جنتمكان فى ذلك مسلكا حسنا، إذ فى أقرب زمن اكتسب من مالية الأراضى أضعاف إيرادها الأول بقدر ست مرات، قبل أن يتفرغ لتكثير العمليات النافعة، وإنما تأخرت أعمال الرى الجسيمة، التى هى أهم من غيرها فى حد ذاتها، وبالنسبة للأهالى، ولتكثير إيراد المملكة، لأن غيرها كان فى ذلك الوقت أهم منها، وهو إيجاد العساكر وتكثيرهم والاحتياج إليهم لتصميم ملكه، والأمن على نفسه، وحماية الوطن، فكانت بالنسبة إلى الباشا المرحوم جميع المنافع

العمومية الملكية عرضية، وتابعة للعسكرية، التى بها تصميم كرسى الديار المصرية، فلم يلتفت لرواج الزراعة البلدية إلا التفاتا ثانويا، ولم يصرف عليها فى أوائل حكمه إلا مقادير غير جسيمة بالنسبة لما صرفه على تأسيس العسكرية، ومع قلة الإيرادات إذ ذاك فكان يحسن تدبيره ويقنن إيراده على قدر مصرفه، فلهذا لم تكن تحسينات الترع والجسور فى مبادئ أحكامه متسعة، بل كان يقتصر فيها على الضرورى منها.

ومن المعلوم أن النيل لا يقاس به غيره من أنهار الدنيا، فإنه يستدعى للاقتصاد فيه تدقيقا مستمرا، وتأملا متكررا، فلا ينبغى أن يقاس بالأنهار الواسعة البوغازات، فإن لها عند مصبها ما يسمونه حاجزا، وهو السيف الذى يرسب من الطير وغيره من الأشياء المتجمعة فى البوغاز، وهذا الحاجز يصادم مياه النهر عند انصبابها فى البحر فيجعل مجرى المياه وانصبابها بطيئا، وأما النيل فإن بوغازه عريض عرضا ذريعا مخصوصا به فى أيام فيضانه، وفى مائه من الطين الذى يتحول معه من بلاد الحبشة جزء عظيم، فيتكون منه عند بوغاز رشيد حاجز كبير جدا يعوق السفن المارة من النيل إلى البحر عن الدخول فيه، أو يجعل دخولها خطرا، وليس لمصر إلا طريق واحد من النيل إلى هذا البحر تنقل منه محصولاتها، فلما كان فى أوائل حكومة المرحوم محمد على طريق رشيد هى دون غيرها الموصلة لنقل المحصولات لمن يسافر إلى البلاد الأجنبية، اضطر فى سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة[1] أن يفتح ترعة بين النيل والإسكندرية، وكان فى قديم الزمان ترعة تسمى بالخليج الأشرفى باقية الأثر، وكانت توصل مياه النيل إلى صهريج إسكندرية وقت الزيادة، فكان يمكن توسيعها والسفر فيها، إلا أن جنتمكان محمد على عمد إلى إنشاء ترعة جديدة سماها «المحمودية»، فكانت من أعظم الترع التى أنشأها، على كثرتها، فقد فتح كثيرا من الترع والخلجان، إلا أنها متفرقة فى جهات عديدة ونافعة فى مواقعها، ولم يعمل صورة رى واحدة عمومية، بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة، لمشغوليته بما هو أهم من

---

(١) وتوافق سنة ١٨١٨م.

ذلك مدة طويلة فى مبادى أمره وفى أثناء ولايته، وإنما بعد مدة طويلة اتسعت آراؤه فى العمليات، وعرف الأسباب والمسببات، واكتسب التجارب وتفرغ للعمليات النافعة، وكان قد جاء أوانها، وتوفرت وسائلها ونفقاتها، وذلك أن النيل فى الحقيقة منه تكون قلب مصر وقالبها، وهو الموجد للرطوبة الضرورية للقطر، إذ لا يستغنى القطر عنها، فالنيل نائب عن الأمطار المرطبة فى البلاد الأخرى، وزيادة على ذلك هو الجاذب للطمى الذى هو عنصر الخصوبة وأصل النماء والبركة، حتى استظهر بعض الطبائعيين أن جميع وادى النيل متولد من الطمى، ويؤيد هذا القول ما ذكره الأقدمون من أن الوجه البحرى متولد من تراكم الطمى الطينى الراسب من فيضان النيل السنوى، وأن شكل ساحل البحر الذى على هيئة نصف دائرة علامة قوية على صحة هذه الدعوى.

وعلى كل حال فمن المحقق أن النيل كل سنة يحصل منه تغيرات وتبديلات وتحويلات يترتب عليها ثلاث مضرات ينبغى التأمل فيها لتداركها:

الأولى: أن تراكم الأرساب الطينية يتسبب عنه ارتفاع أرض وادى النيل بقدر لا يصله الرى فتضيق كميات الأراضى الزراعية التى يصل إليها الماء عند الزيادة.

الثانية: أن النيل حين يفيض يحفر الأرض وينحر الحصباء فينفذ فى خلال القيوف فيسقطها، فيحدث من ذلك كل سنة انخفاضات جسيمة، فيتسع فرش النهر ومجراه، وبقدر ذلك تتناقض تسوية ميزانية النهر، وينحط سطحه، فيتولد عن هذا أن الأراضى التى كانت تغرق سابقا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة، بحيث لا يصعد إليها الماء، فبهذا صارت يابسة، ولو فى زمان الزيادة، وهذه الحالة ملازمة للحالة الأولى.

الثالثة: أن النيل، من حيث أنه غير محبوس، يجور على البحر عند بوغازه، فيصادم ماؤه ماء البحر عند مده، ويجور البحر المالح أيضا على الأراضى المستجدة التى يضيق عنها نطاق الرى فيتلفها. وسيأتى فيما بعد معالجة هذه العلل الثلاثة المضرة بوادى النيل، وبيان مضرة البحر المالح للأراضى الزراعية أنه فى شهرى «برمودة» و «بشنس» يكون ماء النيل قليل المياه منخفضا، فيصعد البحر المالح نحو

ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد، فيرسب منه رسوب كالربوات من المياه المالحة فى السهول المنخفضة الزراعية، فيتكون من ذلك البرك المالحة، فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التى كانت مزارع وزالت، ثم يأخذ النيل فى الزيادة فى الصيف، ويحصل «الوفاء» فى الخريف، فيبقى النيل مستمرا على زيادته مدة أيام، ثم يأخذ فى النقص شيئا فشيئا، حتى إذا دخل فصل الشتاء كان ماؤه منخفضا جدا، ولكن لا تزال المياه موجودة فى الترع الكبيرة، ففى هذه الحالة يدخل فصل الزراعة، فإذا انقضى فصل الخريف يبست جميع الترع ونضب ماؤها ما عدا عدة ترع مستثناة يسقى منها «بالراحة» أو بالآلات، ففى هذا الفصل تسقى الزروع والغروس فى أكثر محال الديار المصرية بالتوابيت والسواقى، إلا أن طريقة السقى على هذا الوجه ضعيفة شاقة كثيرة المصاريف، ومع ذلك كله لا ينتفع منها إلا قليل من المزارع، لا سيما القريبة من النهر.

فبواسطة السقى الدائم يتحصل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات أو أربع فى كل سنة، ولكن أغلب أراضى مصر «ملق» غير «رواتب»، فلا تسقى بتلك الطريقة، بل يعمها الماء وقت الرى حسب العادة، فلا تزرع إلا مرة واحدة، ولا تؤدى إلا محصولا واحدا فى السنة، فقد لوحظ بالقانون الهندسى أنه إذا صار تعميم النيل بترتيب مساقى مرتبة على فصول السنة، وتوفيق السقى على مزاج القطر، وما يناسب من أصناف الزراعة، فإنه يترتب على هذا إيجاد عدة محصولات للمزارع فى السنة.

فإذا تأمل أهل الزراعة إلى أسباب تكثير المحصولات وتعددها، وما تستدعيه من القوى غير المعتادة، والأعمال المدبرة، فإن هذه القوى تساوى القوى الطبيعية فى تنمية المحصولات، فقد لاحظ جنتمكان محمد على باشا أنه ينبغى قبل كل شىء إبطال الأسباب الطبيعية الموجبة فى أكثر الأوقات لتنقيص أراضى الزراعة على التدريج، وأنه لا يدرك مرامه فى الثروة والغنى إلا بالانتصار عليها وهزمها، إذ هى أعدى عدو للبلاد، كما انتصر فى وقائعه الحربية:

الأول: من هذه الأسباب ارتفاع وادى النيل المانع لرى عدة محلات، والحاجز لهمومها بالماء.

الثانى: تلف القيوف المسبب عنه توسيع فرش النيل وانحطاط ميزانية مائه.

الثالث: جور مياه البحر المالح، وامتدادها على الأرض الزراعية، وسلبها منها على التدرج مقادير واسعة. فهذه ينبغى معالجتها وقتيا بما يليق بها من الإصلاحات كتسبيخها وتسميدها وتوصيل المياه إليها، ولو لم تنتج بهذه المعالجات قدر عدة المحصولات السنوية، إلا أن فائدتها تنسيب الزراعة على أسلوب واحد، بحيث أن الماء يصلها فلا تهمل إلى حد حصول التداركات الموفية بالغرض، وأسهل طريق فى منع تلك الأسباب المضرة، وإزالة ضررها دفعة واحدة فى آن واحد، مع الاقتصاد فى المصارف، هو أن يحصر النيل بسدود لائقة، يعنى أن يعمل له بالهندمة والهندسة فرش محصور محدود، لا يمكن معه إتلاف القيوف، فالجزء الزائد من ميزانية النهر الذى يطفو على السدود زمن الفيضان، يصير تصريفه بالتوزيع على الأراضى والحيضان، كما كان جاريا قبل عمل السد، فيحصل الطمى كالعادة.

فهذه العملية تجعل فرش النيل محصورا، وتزيد فى سرعة جريان ماء النهر عند مصبه، فيتجدد من هذه القوة فائدة عظيمة، لأن ماء النيل يزاحم حينئذ مياه البحر الملاطمة له، ويغلب عليها، فيصدها ويرد امتدادها وانتشارها بما فيه من السرعة والقوة، ويطردها طردا عنيفا كما فعل ذلك فى بعض أنهر أوروبا التى بهذه المثابة، وهذا المعنى هو الباعث للمرحوم على عمل الجسور العظيمة، وعلى عمل القناطر الخيرية، التى هى من أعظم المنافع العمومية المصرية كما يذكر فى (الفصل الثالث) من (الباب الرابع).

الفصل الثالث

فيما دبره المرحوم محمد على من أصول المنافع العمومية الجسيمة، والوصول بها إلى الحصول على التقدمات العميمة، فى زمن يسير، مما لو أنجزه من الملوك جم غفير، لعد من العمل الكثير وحسن التدبير

الغرض التكلم على رى الأراضى وسقيها بما يخص العادة، والأمور الهندسية التى هى أيضا من تدبير الحكمة الإلهية، وإلا فلو نظرنا لمحض الحكمة الإلهية لقلنا كما قال الغزالى[1]، رحمه الله تعالى، فى (إحياء الدين): «إن الرغيف لا يستدير ويوضع بين يدى الآكل حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا، أولهم ميكائيل عليه السلام، وهوالذى يكيل الماء من خزائن الرحمة، ثم الملائكة التى تزجر السحاب والشمس والقمر والأفلاك ودواب الأرض، وآخر ذلك الخباز». انتهى. ويقاس على ذلك كل فرع من فروع المعاش، فالعمل هو الذى عليه المدار، وهو القوة الأولية فى إبراز المنافع الأهلية، كما سبق فى (الفصل الثانى) من (الباب الأول)، فإن ما يأتى فى العمليات النيلية لخصب أرض مصر يؤيد ما ذكر فى ذلك الفصل، ومن المعلوم أن مصلحة الرى، التى هى عبارة عن عمل الترع والجسور والقناطر، من أهم مصالح الحكومة، لأن هذه المصلحة النيلية لها مدخل عظيم فى غنى

---

(١) أبو حامد محمد (١٠٥٩ ـ ١١١١م) مفكر ومتصوف إسلامى، ألقى ظلاله الفكرية على عصره وعلى العصور التي تلت عصره، ولا زالت تأثيراته في الفكر الإسلامى باقية وحية وفعالة حتى الآن، ولفكره جوانب متعددة، فهو أشبه ما يكون بالظاهرة الكبرى التي تحمل الكثير من الجوانب الإيجابية إلى جانب العديد من السلبيات.

الأهالى وسعادتهم، كما أن لها تأثيرا عظيما فى تكثير إيراد المملكة المصرية، لأن النيل هو رأس مال البلاد والأقاليم، كما قال بعضهم:

لمصرنا من نيلها ثروة   فالرزق من أصبعه يجرى

يقول من أبصره أحمرا   قوموا انظروا للذهب المصرى

فإذا كان النيل فى يد مدبر نشط، أحسن التصرف فيه، فإنه يربح ربحا عظيما، بخلاف ما إذا كان فى يد إنسان مهمل أو جبان أو فاتر همة أو جاهل لا يدرك العواقب، فإنه يتلفه بسوء تصرفه، فيكسد رأس ماله الذى هو النيل، وتذوق مصر عذاب القحط الوبيل، لأنها بدون الرى ليست إلا بلاقع(*)، فعماريتها بقدر حسن التصرف فى مياهها النيلية، فالنيل بالنسبة إليها كالدم لجسم الإنسان، فقوة البدن بقدر ما فيه من الدماء، كما قال بعضهم:

إن الدماء قوام   لكل جسم صحيح

وحمرة النيل فيها   قوام جسم وروح

فمصلحة الرى العمومى هى عملية الاقتصاد فى النيل وتدبير مياهه، فقد كانت مصر فى أيام الفراعنة ذات قناطر وجسور حسنة التدبير والتقدير، حتى إن الماء كان يجرى تحت منازلها بمقدار منافعها، فيحبسونه حيث شاؤوا ويرسلونه حيث شاؤوا، وذلك معنى قوله تعالى، فيما حكى عن فرعون: ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾ (الزخرف: ٥١) ولم يكن يومئذ ملك أعظم من ملك مصر.

فإذا انتظمت العمليات بأصول واسعة، فإن أرض مصر الزراعية تزيد وتمتد، وتكثر وسائل ثروتها وتمدنها، وتعظم شوكتها وقوتها المملكية، وأما إذا بقيت قليلة الترع والجسور، عديمة الانتظام والتطهير، والإصلاح والترميم، فإنه ينحط قدرها ويظهر الفقر والمسكنة على أهلها، ويضعف تمدنها، فلا بد من

(*) البلاقع: جمع مفرده البلقع وهو الخالى من كل شىء. (الشروق).

صورة تنظيمية، وأصول اجتماعية مستوفية للمذاهب المائية، وقوة إجرائية، ومثل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد والأفراد، ولا من محض وظيفة القرى والبنادر والبلاد، سواء كان بالاجتماع او الانفراد، بل هذه وظيفة القوة الحاكمة العمومية، التى هى من المولى تبارك وتعالى كالوصى على مصر وعلى جميع الرعية، فنفوذ الحكومة هو الذى يتعهد إصلاح هذه الدرة اليتيمة، وليس فى ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقى على الزراعة والفلاحة، إلا صاحب مصر، فإنه لا يجد فى إهمالها فلاحه، وبقدر نفوذه على إدارة الزراعة يكون له النفوذ على الأهالى، وأما غير مصر من البلاد التى ريها بالمطر فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهلها كبير تسلط.

ولما كان رى مصر دائما صناعيا مدبرا، كان لا بد فيه من حسن الإدارة المائية، والضبط والربط فى تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر، فإن كانت الحكومة المتولية على مصر سيئة التدبير، أو قليلة العدل، ضعيفة القوة، فإنها تقتصر على تدبير بعض الأقاليم دون بعض، أو بعض الأملاك الخصوصية على قدرة منفعتها، وتجحف بالمصلحة العمومية، فلا تخلو الأقاليم فى داخلها من المشاجرات بين الأهالى، وإذا فتحت الحكومة ترعة عظيمة خصوصية، أو أهملت ترعة من الترع وجعلتها عرضة للتلف، ترتب على ذلك أن الرى لا يكون إلا فى اماكن قليلة، فتتناقص كمية الأراضى الزراعية عن أصولها الاتساعية، وهذا الخلل انما يترتب على عدم الحكومة المركزية، فإن حكومة المماليك الاختلالية لما تجردت عن القوة المركزية، ووحدة الحكومة، تجردت بالضرورة عن صورة الرى العمومية المصرية.

فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق، تتوزع بينهم أقاليم مصر، وكل «سنجق» يقطع «لكشافه» القرى والنواحى، وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بإدارته وسياسته، لا يتبع إلاّ هوى نفسه ولا يطيع إلاّ ما يسوّله له عقله من وسائل التخريب وإن كان مستقيما، للصدفة والاتفاق، فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط، فكان فى أيامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا

ينتفع من السقى منها إلا أهاليها، ولم يكن بينهم روابط عمومية، فكان أصحاب الأراضى والمزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الرى والسقى ويختلسون من المياه ما هو قريب منهم، ويمنعون الأراضى البعيدة من ذلك، مع كونها لها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان، فكان ينشأ من هذا ما لا مزيد عليه من عداوة قرية لأخرى، وربما يترتب على ذلك القتال وسفك الدماء، فلهذه الحوادث الجارية فى أيام حكمهم تقهقرت العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين، ممن كانت دولة مصر فى أيامهم منظومة، كأيام أحمد بن طولون[1]، فإنه لما تولى الأمير أحمد على مصر تسلمها من أحمد المدبر وقد تلاشى أمرها وانحط خراجها، فاهتم ابن طولون فى عمارة جسورها، وبناء قناطرها، وحفر خلجانها، وسد ترعها، فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه، ووصل خراج مصر، مع وجود الرخاء، أربعة آلاف ألف دينار وثلاثمائة ألف دينار، يعنى أربعة ملايين دينار وثلث مليون تقريبا، وهذا غير ما يتحصل من المكوس، وكان شجاعا صاحب جيوش وسخاء، كثير الأموال والخزائن، مستقلا بمملكة مصر، يستوفى خراجها، وكانت مصر فى أيامه عامرة آهلة كثيرة المحصول، لرفقه برعيته، وتكثير ثروتها، وعدم ظلمه وجوره عليهم، وما كان تحصيل الأموال الكثيرة جدا منها إلا بسبب عمارتها، فكانت كالروض البهى فى زهرتها ونضارتها.

فقد بنى مدينة شرقى مدينة «الفسطاط» وسماها «القطائع» وكانت مدينة جليلة، بنيت قبل القاهرة، وكانت ميلا فى ميل، أولها من «كوم الجارح» إلى «الصليبة» وعرضها من «قناطر السباع» إلى «جبل المقطم»، فلما فرغ من بنائها اسكن بها جنده، وكان قريبا من المائة ألف، ثم ابتدأ بناء جامعه الذى بلغت النفقة عليه مبلغا جسيما، ورأى أحمد بن طولون الصناع يبنون فى الجامع ويتأخرون

(١) (٨٣٥ ـ ٨٨٤م) مؤسس الدولة الطولونية بمصر والشام، وكان في مبدأ أمره واليا على مصر من قبل العباسيين، ولكنه استقل بها، ثم ضم لها سورية، فكان أول من استقل بمصر وأقام بها دولة ذات حكم ذاتي منذ فتحها العرب المسلمون.

إلى دخول الليل، وكان فى شهر رمضان، فقال متى يشترى هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم وأولادهم، إصرفوهم بعد العصر، فصارت سنة غالبة إلى اليوم بمصر بقعة أعظم من البقعة التى بنى فيها هذا الجامع، وكانت تسمى «جبل يشكر»، وهو مشهور بإجابة الدعاء فيه، وبنى أيضا بجوار هذا الجامع مارستانا، وصرف عليه ستين ألف دينار، والظاهر أنه أول مارستان بمصر، وجعل به خزينة الشراب والأدوية، وكان يجلس على بابه كل يوم طبيبان برسم مناظرة الضعفاء، وأرصد عليه الأوقاف الكثيرة الدارة، وقد أصلح أيضا مقياس مصر وصرف عليه ألف دينار، فأين حسن عدله وتدبيره من ظلم المماليك الكليمان فى الأعصر الأخيرة وتدميرهم للبلاد، فمدار العمار على العدل، وبضدها تتميز الأشياء كما قيل:

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر

فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا يبقى مع الجور فى بدو ولا حضر

فلذلك فى مدة أحكامهم صارت مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدرج بانحلال الانتظام، فكانت مصر محتاجة إلى نظمها فى وحدة حكومة مركزية، فأدركت مرامها بنادرة العصور وهى الذات المحمدية العلية، ولولا أن رزقت بالمرحوم محمد على باشا لدرست رسومها بالكلية، فقد أسعدها الله سبحانه بسيادته، وكان إنقاذه لهم من قبضة الظلمة سببا لسعادتهم وسعادته، فإنه اهتم بإصلاح الترع القديمة بالترميم، وجدد ما اقتضته الضرورة من الترع والجسور والقناطر مما عاد على الزراعة بالتحسين والتقديم.

وقد أسلفنا الكلام على ترعة المحمودية، وعلى منفعتها العمومية، ولا يسعنا هنا سرد جميع العمليات المائية التى صارت فى أيام حكومته العدلية، وإنما نذكر بعضا منها فنقول: إن من جملة اعماله عمل الجسر الأعظم الممتد بطول النيل على الساحلين مبدؤه من «جبل السلسلة» فى الصعيد وانتهاؤه إلى «بحر إسكندرية» وهو محيط بالوجه البحرى، فهذا الجسر سد عظيم يحفظ بقاء مياه النيل فى فرشه ومجراه، فإذا ارتفع الماء عند الفيضان حفظته الجسور من انتشاره وتغريقه للبلاد،

كما أن هذه الجسور تحفظ أيضا مياه النيل فى زمن الرى مدة طويلة على الأرض، حتى يرسب طينها النافع، وتحصل فائدة الطمى، وقد صار عمل هذا الجسر الأعظم للمياه فى ظرف سنة واحدة بدون أتعاب للأهالى، إذ كل بلد أعانت فى عمله بقدر ما يخص بلدها منه، وهذا كله غير القناطر والجسور الخصوصية المنشأة فى الأقاليم البحرية والقبلية، لا سيما بالجهات البحرية، فإنها أخصب جدا، وتكاثرت فيها زراعة الأصناف ، وعلى الخصوص زراعة الأقطان، إذ صارت ضامنة الرى أياما كانت زيادة النيل، بخلاف الصعيد فإنه لم يصل إلى هذه الدرجة القصوى، إذ لم تغفل عنه عين المرحوم طرفة عين، وإن لم يجتهد فى إصلاح الصعيد بمثل ذلك الاجتهاد، مع أن أغلب ملوك مصر فى الأزمان القديمة كانت همتهم فى تحسين الصعيد وتمدينه، حتى قيل إن الأقاليم القبلية كانت سابقة التمدن قبل الأقاليم البحرية، قيل ولعل سبب تراخى اعتنائه به كمال الاعتناء أن الصعيد لا يصلح لزراعة الأصناف كالوجه البحرى، لا سيما زراعة القطن، وإن كان الصعيد ينجح فيه زراعة الكتان والأفيون وغير ذلك، بل والقطن على قلة، حتى إن زراعته فى بلاد النوبة التابعة لمصر ناجحة، وإنما تحتاج لعزيمة الحكومة، فكمال الاهتمام فى المصالح النيلية مبقية لعناية حكومة الذرية المتولية العزازة.

ومن أحوال الصعيد الآن أن السنين التى فيها زيادة النيل متوسطة لابد أن يبقى فيها منه جزء بدون رى، وإنما أكثر مزارع مديريتى أسيوط وجرجا ضامنة فى هذه الحالة للرى، والظاهر أن هذا الوصف فى تلك الجهة حاصل من قديم الزمان.

فقد ذكر بعض المؤرخين: أن الدنيا كلها لما صورت للرشيد لم يستحسن منها إلا كرة «أسيوط» لأن من مساحتها ثلاثين ألف فدان فى استواء الارض، لو وقع فيها قليل الماء لا تنشر فى جميعها، لا يشرق منها شىء يزرع بها: الكتان، والقمح، والقرطم، وسائر أنواع الغلات، فلا يكون على وجه الأرض بساط أعجب منه، وبها مناسج «الأرمنى» «والدبيقى» «والمثلث»، وسائر أنواع الملبوس الذى لا يخلو منه ملك إسلامى ولا جاهلى، وبها الخس، والسفرجل، الذى يزيد على كل بلد

فى كثرته وبهائه، والليمون الذى يحمل إلى سائر الآفاق، وبمدينة «أخميم» من عمل الأسيوطية: الطراز الصوف الشفاف، والمطارف، والمطرز، والمعلم الأبيض، والملوكى، ويحمل منه إلى أقصى البلاد وإلى سائر الآفاق، يبلغ الثوب منه عشرين دينارا، والمطرز مثله، فهذا يدل على حسن الزراعة والصناعة بتلك الجهات، انتهى. فانظر ما حكاه المؤرخون فى شأن أسيوط وأخميم، فإنه يتراءى استبعاده، مع أن الواقع أن قطرهما إلى الآن قابل لمثل ذلك، ولعله يعود الأمر كما كان، وفى قريب من الزمان.

وقد كان تصميم جنتمكان على أن يعمل ترعة عظمى محاذية للنيل على استقامة الصحراء، وتكون فوهتها من عند «جبل السلسلة» فلم يتم مرامه، إلا أنه صار عمل بعض ترع فوق «البلينة» أصلحت كثيرا من المحال بتلك الجهة، حتى صارت حيضان تلك الجهات تروى من بعضها فى أيام أخذ النيل فى النقص، ومع صرف المرحوم المشار إليه همته العلية فى مصلحة الرى فى الأقاليم البحرية فلم يأخذ الرى فيها حده الأكمل، بسبب تعذر تطهير الترع فى مواعيدها كل سنة، مع اتساع الدوائر الزراعية اتساعا وافرا فى الأقاليم البحرية، ولا تكمل مصلحة الرى إلا بإيجاد القناطر الخيرية على فرعى النيل المفترقين من «شلقان»، اللذين أحدهما شرقى وهو فرع دمياط والثانى غربى وهو فرع رشيد، وذلك أن هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة أيضا «الدلتة»، ومنهما تروى عدة مديريات وهى مديرية «القليوبية» و «الشرقية» و «الدقهلية» و «المنوفية» و «الغربية»، إلا أن انتفاع هذه المديريات منهما لا تكون تامة إلا فى زمن فيضان النيل، وأما فى أيام التحاريق فإن مياههما تنصب فى البحر المالح ولا تعود منها على الزراعة أدنى منفعة، فانصبابها فى البحر المالح محض خسارة على الزراعة، فاستصوب المرحوم قنطرتهما من أمام «شلقان» إلى بر «المناشى»، بقنطرتين، إحداهما على البحر الشرقى، والثانية على البحر الغربى، بعيون كثيرة، وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرين يعنى من برشلقان إلى بر المناشى، وأن يبنى على رأس الجزيرة رصيف يكون ابتداؤه من الشط الغربى من فرع دمياط وانتهاؤه إلى الشط

الشرقى من فرع رشيد، وفائدة هذا الرصيف منع المياه من أن تقطع رأس الجزيرة فتغرق «المنوفية» و «الغربية»، وأن يكون هذا الرصيف عاليا جدا بحيث لا يرتفع إليه الماء عند الفيضان، وأن يعمل لعيون هذه القناطر الخيرية بوابات محكمة تقفل وتفتح بحسب الاقتضاء، لحبس المياه وإرسالها، وأن يعمل أيضا لمساعدة القناطر الخيرية ثلاث ترع كبيرة رياحات تكون فوهاتها من فوق تلك القناطر الخيرية، إحدى هذه الترع يكون معدا لرى القليوبية والشرقية والدقهلية بالراحة، وفوهتها من الشط الشرقى قبلى «شلقان»، والترعة الثانية تكون فوهتها من وسط رأس الجزيرة، يعنى من منتصف الرصيف، وتكون معدة لرى المنوفية والغربية، والترعة الثالثة تكون فوهتها من فوق القناطر الخيرية ببر المناشى، وتكون معدة لرى مديرية البحيرة، وأن يعمل لهذه الترع الثلاثة، التى هى عبارة عن فروع خارجة من بحر دمياط ورشيد، قناطر وعيون على حسب ميزانية الأرض، وأن يعمل لها بوابات تقفل وتفتح على حسب الاقتضاء.

فإذا تمت على هذا الوجه، ترتب عليها أنه فى وقت فيضان النيل تفتح القناطر الخيرية وقناطر الثلاث ترع، المسماة بالرياحات، لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الرى فى البحر المالح، وحبسه بقدر اللزوم بقفلها بقصد السقى وبجعل سفر المراكب ممكنا، وفى أيام التحاريق تقفل بوابات القناطر الخيرية قفلا محكما بحيث ترتفع المياه أمام القناطر المذكورة بقدر عدة أمتار فتنصب بالضرورة فى الرياحات الثلاثة المستمدة الماء منها فى هذه المدة، وكذلك تقفل أبواب قناطر الرياحات فى أيام التحاريق، بحيث تفيض مياهها على الأراضى التى أمامها، ولا يترك منها إلا القدر الزائد ليتوزع على الأراضى والحيضان من حوض إلى آخر.

وبهذا القفل فى القناطر الخيرية، وفى الرياحات، يمكن السفر فى السفن فى هذه الجهة فى النيل وقت التحاريق، فالقناطر الخيرية والرصيف والرياحات هى المقصد الذى به تتم مصلحة الرى فى المديريات الستة السالفة الذكر، وقد تم منها فى أيام المرحوم جنتمكان القناطر الخيرية والرصيف، ولم يتم عمل الرياحات، بل

الذى صار إعماله جزء من رياح القليوبية وجزء من رياح المنوفية وجزء من رياح البحيرة، فجزء رياح القليوبية تلف الآن بالكلية، وجزء رياح المنوفية يستعمل الآن استعمالا غير المقصود منه، فإن مصلحة رى المنوفية أحوجت إلى استعماله بتوصيله المياه إلى الترع القديمة، وأما جزء رياح البحيرة فلم يزل إلى الآن باقيا، لكن بدون ثمرة، بل بوابات القناطر الخيرية التى بها منفعة القناطر لم يتم منها إلى الآن إلا بعضها، لا جميعها، والبعض الذى صار عمله لم يكن محكم القفل والفتح بالسهولة، فلا يكون الانتفاع منه إلا بالصعوبة، فلو تم عمل البوابات كالغرض المطلوب منها فى الفتح والقفل بغاية السهولة، وتمت الرياحات الثلاثة المذكورة وقناطرها الثلاثة، حسب المرغوب، لحصلت الثمرات العظيمة للمديريات المذكورة، وتوفرت المياه التى تسقى بالراحة، وتوفرت أيضا جميع السواقى والتوابيت، واكتسبت الأهالى المكاسب العظيمة من الزراعات، مع قلة المصاريف، حيث إنها لا تخسر مياه النيل التى لا ينصب منها فى المالح إلا القدر الزائد عن اللزوم، فلا شك أنها إذا تمت القناطر الخيرية على الوجه الأكمل، بموجب تصميمات الحكومة فى الحالة الراهنة، فإنها تكون من أعظم ما يوجب كمال الافتخار للجد والحفيد، والموجود منها الآن فهو من آثار مآثر جوهرى العقل الفريد، إذ أنوار عقله السواطع هى أشعة المنافع.

قد بلغ النيل كل نفع	**من فيض تلك اليد الكريمه**
وصار ذا غله ورزق	**فهذه نعمة جسيمه**

وقد ذكرنا عناية جنتمكان بعلاج مصب النيل، وقد اعتنى أيضا رحمه الله بالبحث عن استكشاف منبعه، اقتداء بمشاهير قدماء ملوك مصر، وملوك العجم، وإسكندر، والبطالسة، وقياصرة الروم، وعقلاء خلفاء مصر ونبلاء سلاطينها وملوكها بعد الفتح، فأرسل فى ظرف أربع سنوات ثلاث إرساليات متوالية، وكانت فى سنة ١٢٥٧م[1] الإرسالية الثانية تحت رياسة سليم بك قبودان ودرنو بك

(١) وتوافق سنة ١٨٤١م.

مهندس، وهى أنفع الإرساليات، فسارت هذه الإرسالية من الخرطوم فى النيل، المسمى هناك بالبحر الأبيض[1]، مسافة خمسمائة فرسخ، حتى وصلت إلى جزيرة تسمى «جزيزة جانكير» بمشروع «كندكرو»، وعندها رمال وصخور متكاثرة كالشلالات تمنع السير عن النيل منعا كليا، فاقتصر القبودان المذكور على أخذ الاستعلامات اللازمة مما يعلم من أهالى تلك الجهة، فاستبان من ذلك أن منبع النيل بقرب دائرة الاستواء على ثلاثين مرحلة فوق جزيرة «جانكير»، المذكورة، فتكون المسافة بين «جانكير» ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخا تقريبا، وبهذا الاستكشاف سهل لسياحى الإنكليز تمام استكشافهم بيمن إرسالية جنتمكان الذى كان لم يزل طرفه للبحث عن إحراز المكارم يقظان . .

ملك أسهر عينا لم تزل همها تشريد هم الراقدين

ما روى الراوون بل ما سطروا مثل ما خطت له أيدى السنين

(غيره)

أصبحت دون ملوك الأرض منفردا بلا شبيه إذ الأملاك أشباه

مشمرا وبنو الإسلام فى شغل عن بدء غرس لهم أثمار عقباه

فقد أنفق على مصلحة النيل النفقات الخارجية عن حد العادة، كما قيل :

لو أن فيض النيل فائض نيله لم تفتقر مصر إلى مقياس

فقد اشترى وسائل التمدن ومقاصد المآثر العالية، ومقدمات التقدم بالأثمان الغالية .

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل

ومن لم يذل النفس فى طلب العلا يسيرا يعش دهرا طويلا أخا ذل

فلله اليد الطولى التى نقلت صورة الأهالى من صورة إلى أخرى، ومن

---

(١) النيل الأبيض .

هيولى[1] إلى هيولى، فقد أوجد عزم محمد على بالتوفيقات الصمدانية من الأمة المصرية أطباء ألباء، وأرباب هندسة عالية، وترجمة سامية، وأرباب إدارة ملكية، وضباط عسكرية، وأرباب صنائع وتجارات، وكان هذا للمدارس والمكاتب من أفضل النتائج وأجمل الثمرات.

فقد أنشأ من أول الأمر مدرستى «قصر العينى» «والدرسخانة»، فكانت أولاهما كالتجهيزية والمبتديان، وكانت الثانية كالخصوصية، يخرج منها المستخدمون بأى ديوان، ثم جدد مدرسة «الطب» «والمهندسخانة» بعد تجديد عساكر النظام، فكان يخرج منها الأطباء والمهندسون للمصالح الملكية والعسكرية من المهرة العظام، ثم جدد مدارس الجهادية، من بيادة وسوارى وطوبجية، ليخرج منها الضباط الفخام، وكذلك جدد مدرسة العمليات لتعود بالنفع على الفنون والصنائع من سائر أنواع المنافع، ومدرسة للألسن الاهلية والأجنبية، لمعرفة اللغات واستفادة ترجمة الكتب الأجنبية، ونتج عنها تكثير المعلومات، وأحرزت ديار مصر منها الفوائد الجمة والمعارف المهمة، وجدد مدارس ومكاتب عديدة للمبديان، والتجهيزية على صورة جديدة، واجتنى ثمرات الجميع على وجه منتظم رفيع.

فقد أرشد الملة القاصرة إلى المنافع المفيدة، حتى صارت الملة المصرية رشيدة، فتعلمت المبادئ والمقاصد، وتمكنت من معرفة فوائد الأنحاء المراصد، ولم يكتف بتوسيع دائرة التعليم والتعلم فى بلاده، بل أرسل إلى فرانسا عدة إرساليات لتعليم العلوم والصنائع، واستخراج الفنون من معادنها لتفى بمراده، فتكفل باستخراج المنافع من معادنها، وباستنباط عيون المعارف من مواطنها، ومع ذلك فقد أنشأ كما سبق مدرسة للألسن، فى الأكثر، لقصد ترجمة الكتب الغريبة، فكانت للوفاء بجل مقصده مجيبة، وترجم فيها كثيرمن العلوم المتنوعة، ودخل رجالها فى الخدامات الميرية، وعادت منهم على البلاد المنفعة، وقد نتج عن إنشاء مدرسة الطب مشورة صحية تدير الصحة الأهلية، كما نتج عنها عدة استباليات نفعها عميم حيث ترتبت

(١) مادة.

فى جميع الأقاليم، ومدرسة الولادة تعد من أعظم المآثر، كما أن مصلحة تلقيح الجدرى وَقَتْ النفوس من الأخطار، وترتب عليها الصون من التشويه، وتنمية الأهالى وتكثير العمار، وأما تجديده لترتيب العساكر الجهادية، برية وبحرية، على صورة جميلة، وهيئة جليلة، فقد عجز عنها، على هذا الوجه، قبله ملوك الإسلام، وانصاعت هذه التنظيمات لهذا الهمام المقدام، وافندى به بعد ذلك سواه، ولكن لم يصلوا فى زمنه إلى درجة ما أحسن ترتيبه وسواه، لا سيما سفنه البحرية، فكانت بحسن النظام حرية، فقد رتبها قبل حرب «مورة» حيث استدعتها الضرورة، وذلك لأنه لما طلب منه ديوان القسطنطينية الإعانة بالقوة فى غزوة مورة التى هى أعجب غزوة مشهورة، لم يبعث هذا الديوان سفنه الحربية، ولا عمارته العثمانية، لنقل العساكر المصرية والذخيرة إلى جزيرة مورة، ولم يكن إذ ذاك عند المرحوم محمد على بمصر إلا سفينتان، كل سفينة منهما ذات ثلاثين مدفعا، لم يكمل شغلهما، فجهز ثلاثا وثلاثين سفينة حربية، كاملة الآلة والعدة، فى أقرب مدة، ومائة سفينة من سفن العادة لنقل المهمات.

وقد تكامل هذا العدد فى واقعة «أناوارين»، وتلف أكثره بإحراق المتعصبين، فشرع فى عمارة سفن أخرى أعظم منها، بشرائها من البلاد الأجنبية الأورباوية، ثم شرع فى عمل ترسانة الإسكندرية، سنة ألف ومائتين وسبعة وثلاثين[1]، التى لم تكن دون ترسانة «طولون» ببلاد الفرنساوية.

فقد رتب بهذه الترسانة مصانع ومعامل متنوعة، ومخازن مهمات ومفاتل أحبال، وأنشأ بهذه الترسانة أيضا كثيرا من السفن الحربية، التى كل سفينة منها من ذوات المائة مدفع، وغير ذلك من السفن، حتى صارت دوننما عظيمة، واستخدم فيها الأهالى، وكذلك كان الشغالون وأرباب الصنائع فيها من الأهالى المصرية، وكان جميع المستخدمين بالدوننما والترسانة على الطراز العسكرى، فكان أهلها يرقون إلى الرتب العسكرية على حسب معارفهم.

---

(١) وتوافق سنة ١٨٢١م.

فتعلم أبناء الأوطان جودة صناعة السفن، فبهذه الطريقة صارت أثمان السفن هينة جدا على الحكومة، وبطل شراؤها من الأجانب، وكانت همة جنتمكان فى هذه المادة السفينة الحربية كهمة سلطان الموسقو بطرس الأكبر فى الاجتهاد والاعتناء بهذه المادة، إذ كان دائما مواظبا على مناظرة الأشغال بالترسانة، والإقامة فيها الساعات العديدة من النهار، ولو أن ملك الموسقو كان قد تعلم عمارة السفن بنفسه، إلا أن محمد على رخص لمهندس السفن «سيريزى» بك الرخصة التامة فى حسن إدارتها، فكان مهندسا ينفذ أغراض سيده كما يحب ويختار، كأنه هو، فلا يعيب الأصيل ما رآه الوكيل حسنا، ولا ينقض عليه ما أبرمه، فكان تنازل المرحوم لهذا الحد فى التفويض يوازى تنازل بطرس الأكبر فى كونه تعلم صنعة السفن بنفسه، وعلمها لأهل وطنه، ولم يتكبر فى ذلك، وكان ابنه جنتمكان إبراهيم باشا يبادر بتشهيل التشغيل مبادرة زائدة، ويقوى عزيمة المهندس والشغالين، ويترقب إتمام السفن الحربية فى أقرب وقت، ويكرم المهندس الإكرام الكلى، ويمضى النهار بتمامه فى الترسانة بجانب الأشغال، وكان جنتمكان محمد على يديم النظر فى السفن عند صناعتها، ويتصور الغرض منها، وكلما شارفت الإتمام ازداد فرحا وسرورا، وإذا نزلت سفينة فى البحر لم يتمالك نفسه، مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار، أن يظهر أمارة السرور، فلهذا كملت عنده دوننما ملوكية على طبق مرامه، وطقَّمها بالمدافع والعساكر ونظَّمها على نسق نظام العساكر البرية، وأنشأ مدرسة بحرية بثغر إسكندرية ليخرج منها من الضباط ما تحتاج إليه هذه الدوننما، وترجم العلوم البحرية، وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الأخرى كما قيل :

إذا شئت أن تلقى عدوك راغما ... وتقتله هما وتحرقه غما

فسام العلى وازدد من الفضل أنه ... من ازداد علما زاد حاسده هما

وأيضا كان من جملة الإرسالية الأولى عدة من الأفندية المبعوثين إلى باريس، تعلموا العلوم البحرية، وسافروا إلى أمريقة والهند وغير ذلك من البلاد، وتمكنوا من العلوم البحرية، فلما حضروا قلدهم بوظيفة قبودانية السفن، وكان

لهذه الدوننما قبودان من الباشاوات، وكان معه «بوسون» بك الفرنساوى، بوظيفة رياسة رجال البحرية، فكان بمنزلة رئيس الرجال «سليمان» باشا فى الجهادية البرية.

ثم أن المرحوم إبراهيم باشا لما غزا «مورة» وحضر منها جدد «ألايات» «السوارى»، وبيان ذلك أن جنتمكان محمد على كان قبل غزوة «مورة» يعتقد أن فرسان المماليك أعظم فرسان الدنيا، حيث شاهد ذلك منهم فى الحروب المتكررة معه، وأن تعليم فروسيتهم على أجود ما يكون، وكان يظن أن حركات الخيالة الأورباوية كلاشىء بالنسبة لحركة المماليك، فكانت فرسانه جارين على طريقة الكوليمان، وكذلك المرحوم إبراهيم باشا كان يعتقد ذلك، فقد ظهر للمرحوم إبراهيم باشا فى حرب مورة إن تعليم السوارى على طراز أوربا أكمل وألزم، لما شاهده من سوارى الفرنساوية هناك، فرتب الأيات السوارى بجميع أنواعها على طراز فرانسا، من «شرخجية» و «دراغون» وغير ذلك، فبهذا صار إنشاء مدرسة السوارى فى الجيزة ليتعلم بها الفروسية النظامية والمسابقة والرسم وغير ذلك، ليخرج منها الضباط العظام، وكان عدد تلامذتها ثلاثمائة وستين نفرا، وكان عدد تلامذة مدرسة الطوبجية «بطرة»[١] أربعمائة تلميذ، وعدد تلامذة مكتب الرجال فى «الخانقاه»[٢] نحو مائتى تلميذ، وكان لا يقبل فى مكتب الرجال، أى أركان حربية، إلا الترك والمماليك، ثم انضم إليهم أبناء العرب، وكانوا لا يحرزون عند الامتحان رتب الضباط، فالمرحوم إبراهيم باشا أبطل هذه الطريقة فى حق أولاد العرب وفى حق أبناء السودان وسواهم بغيرهم.

وبالجملة فكان المرحوم محمد على لا تكل همته ولا تفتر عزيمته ولا يرتاح بدنه وعقله، بل دائما مشغول بما يخص التمدن والتفكر فى التجديدات، وحميد المشروعات، ولا يبالى بالمصارف والتكاليف، للحرص على تقديم وطنه المنيف، وإخراج الرعايا من ورطة التخشن العنيف.

---

(١) من ضواحي القاهرة، في الطريق منها إلى حلوان.

(٢) في الطريق من القاهرة إلى أبي زعبل.

المال مـلء يد والـقـــوم ملـك يد ولا أطيـل وهذا جــمـلة الخـبـــر

إذ لولاه لما وصلت مصر إلى هذه الدرجة من التقدم والرفاهية بعد أن مكثت عدة قرون في الذل والمسكنة، وكانت حبال منافعها واهنة.

فـقـد تجدد في أيامه من الأمور المقربة للتمدن «إشـارة الأخـبـار» و «وابورات البخار» و «الدواليب البخارية»، وقد عمل تجربة في «كفر مجر»[1] لسكة الحديد، وكان صمم فيها على الإنشاء والتجديد، فتنجز بعضها على وجه هين، ثم تكاملت الآن بالأصل والفرع على وجه في درجة الكمال بَيِّن:

زيادة النيل نقـص عند فـيضـهـمـا فــمـــا لنا نتـــقــاضى منـة الديم

فلو لم يكن للمرحوم محمد على من المحاسن إلا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الأجنبـيـة بعـد أن ضـعـفـت الأمـة المصـرية بانقطاعـهـا المدد المديدة والسنين العـديـدة لكفاه ذلك، فقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد، وآنسها بوصال أبناء المـمالك الأخرى والبـلاد، لنشـر المنافع العـمـومـيـة، واكـتسـاب السبق في ميـدان التقدمية، فما أحست بنتيجة الدواء الشافي، والعلاج المعافي، إلا في هذه الأيام الأخـيـرة التي ضـاعـفـت الأدوية الحسـيـة والمعنوية، النظرية والعـمليـة، بطـرق من النجابة جلية، وأضعفت داء الجهالة المعدية، فكل لصنيعها متشكر ومقر بإحسانها غير منكر..

ولدينا تضـــاعـــفـت نعم الـله وجلت عـن كل عـدو حـــصـــر
عـرف الحـق أهل مـصـر وكـــانوا قـــبـله بـين منـكر ومـــــقـــــر
وحصلنـا بالحمد والاجـر والنصـــ ـــر وطـيب الثنا وحـــسن الذكـــر
قـــد بـلغنا بـالصـبـــر كـل مـــراد وبلوغ المـراد عــقـــبى الصـــبـــر
ليس مـثـرى الرجـــال من ملك المـا ل ولكنـمـــا أخـــو اللب مـــثـــرى

---

(1) إحدى قرى مركز دسوق محافظة كفر الشيخ، بالدلتا (الوجه البحري).

وما أحسن هذا البيت الأخير الذى هو من الحكم اللطيفة، ومن جوامع الكلم المنيفة.

وقد كان المرحوم محمد على من وقت حيازته واستيلائه على السودان، التى استولى عليها بسيفه سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف[1]، مشغول البال باستكشاف معادنها واستخراجها، فلذلك سافر إليها بنفسه ليمتحن معادنها، ويلطف أهلها ويشوقهم إلى اكتساب التمدن والتقدم، كما فعل بمصر، وتفصيل ذلك فى (الفصل الرابع) من هذا الباب.

(١) وتوافق سنة ١٨٢٢م.

الفصل الرابع

فى سفر جنتمكان محمد على الجليل الشأن، إلى جبال "فازغلو" ببلاد السودان، لاستكشاف المعادن الذهبية، والكشف عنها بحضوره وأعمال الطرق التجريبية

لما مهد محمد على فى مصر الزراعة والتجارة والصناعة، التى هى المنافع العمومية، وكثرت ثروة مصر بالأخذ والعطاء، وحظى أهلها بطيب العيش والرفاهية وذاقوا ثمرة العدل والإحسان، والفضل والامتنان، وكان أواخر عصر المرحوم محمد على بالنسبة إليهم ما كان يسمى عصر الذهب عند أمة اليونان، فى أوائل تلك الأزمان، حيث عوض الله سبحانه وتعالى أهل مصر فى مقابلة ما ذاقوه من الشدائد فى أول الأمر ذوقهم طعم الهناء والراحة التامة فى آخره، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ (الشرح: ٥، ٦)، وكان المرحوم لا يزال يصرف وقته فى تكميل المنافع العمومية للديار المصرية، وكانت الأقطار السودانية التى تحت حكومته تتجر قديما وحديثا، لا سيما فى الذهب، وشهيرة بما فيها من المعادن المشبعة، صرف همته العلية إلى توسيع استخراج المعادن بتلك الجهة، لما أن معدن الذهب من أشرف نعم الله على عباده، إذ به قوام الدنيا ونظام أحوال الخلق، فإن حاجات الناس إليه كثيرة، وكلها تقضى بالنقدين، ويباع بهما ويشرى كل شىء، بخلاف غيرهما من المعادن فإنه لا يرغب فيه كل أحد رغبته فى النقدين، حيث هما كالقاضيين لمصالح كل من لقيهما، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (التوبة: ٣٤) لأن المقصود منهما تداولهما بين الناس لقضاء

الحوائج، فمن أكنزهما فقد أبطل الحكمة التى خلقا لها، وكان كمن حبس قاضى البلد ومنعه أن يقضى بين الناس، فالذهب والفضة كما يجلبان المنافع يجلبان المضار.

وأمهات معادن الذهب المستخرجة فى هذا العهد هى معادن بلاد الأمريقة، تخرج من جوف الأرض أو من تنظيف الرمال الذهبية، وفى بلاد أفريقة التبر فرع عظيم فى تجارة السودان، وليس فى بلاد أوروبا إلا معادن «سبيرن»[1] ببلاد الموسقو، ومعادن بلاد المجر فى مملكة النيمسا، وفى آسيا معادن الذهب ورماله، وأما معادن الفضة الشهيرة فى بلاد أمريقة بإقليم «برو» وغيره، وهى التى تعطى كمية عظيمة من الفضة المتعامل بها فى أيدى التجار، ففى بلاد «مقسيقا»[2] أزيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج، وكذلك معادن بلاد «برو»[3] بأمريقة فإنها مثرية جدا، ومعادن «قاليفورنيا» المشهورة بالذهب المشبع التى استكشفت سنة خمسة وستين ومائتين وألف[4] وهى فى جمهورية «مقسيقا»، فبلاد أفريقة لها شبه بأمريقة، فلهذا أرسل المرحوم محمد على باشا عدة مرات من يلزم من «المعدنجية» لتجريب معادنها، فلم يقف منهم على حقائق تامة فى شأن ذلك، فشك فى مهارتهم وفى اجتهادهم.

وقد كان حكمدار بلاد السودان أرسل إليه عدة «فلزات» من الذهب على سبيل العينة، فكاد يطير بها فرحا، فأرسل فى نحو سنة مائتين وألف[5] كلا من «موسيور روسيجير» و «موسيو بريانى»، الكيماوى، فالأول كان قد ذهب إلى المعادن قبل الثانى بكثير، فشرع فى التجربة، ورجع إلى الخرطوم فوجد «موسيو بريانى» قد أقام بها ينتظر الفصل المناسب، فكتب «موسيو روسيجير» من الخرطوم إلى المرحوم

(١) سيبيريا.
(٢) المكسيك.
(٣) بيرو.
(٤) وتوافق سنة ١٨٤٨م.
(٥) وتوافق سنة ١٧٨٥م.

محمد على ما مضمونه : إن النفر الذى يشتغل فى المعدن باليومية يستخرج ذهبا بعشرة فرنكات كل يوم، يعنى بأربعين قرشا ميريا، وكان ذلك فى مدة ولاية خورشيد باشا لحكمدارية السودان، وأخبر المعدنجى الحكمدار بذلك، فلم يصدق ذلك الحكمدار المذكور، وأما المعية السنية فأخذت كلام المعدنجى المذكور قضية مسلمة، واعتقد ذلك أيضا المرحوم محمد على، وتباشر بأنه إذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير أغنى الملوك، وانتقلت الرغبة فى الزراعة التى بها غذاء أهل مصر، والتى هى كاللبن لرضاعهم، إلى الرغبة فى المعادن، فصار مطمح النظر من النيل أنه وسيلة المسير فيه لاستخراج الذهب وجلبه، وكأنما هذا الغرض هو المقصد منه بالأصالة.

ثم لما اعتدل الوقت للياقة السفر إلى المعادن، خرج «موسيو روسيجير» «وموسيو بوريانى» من الخرطوم، ومعهما من الخفر ألف من عساكر الجهادية تحت رياسة «مير اللوى» مصطفى بك، وساروا جميعا حتى وصلوا إلى فازغلو، وشرعوا فى استخراج المعدن والبحث عنه، فوجد حفائر حفرتها العبيد قبل ذلك، وبجوانبها قصاع من الخشب، فكل واحد من المعدنجية أخذ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة فلم يظهر لأحد منهم ربح، بل ما تبقى من بعد التصفية إنما هو فلزات مشوية بالحديد والتراب، ثم كرروا التجربة فلم تنتج أزيد من ذلك، فإن «موسيو بوريانى» أخذ قنطارين من الرمل وصفاهما فلم يخرج منهما سوى حبة ونصف من الذهب، وكذلك «موسيو روسجير»، ثم توجهوا إلى جهة «سنجه» وهى أبعد محل فتحه المرحوم إسماعيل باشا، ومشهورة بكثرة الذهب، فمكثوا فيه ليلة بواد يسمى «خور البابا» كان العبيد قد حفروا فيه حفائر لاستخراج الذهب، ثم ذهبوا إلى محل يقال له «زنبو» حوله غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة، ووصلوا إلى وادى يسمى «وادى توماتو جارى المياه» فوجدوا فيه حفائر وقصاعا معدة لتنظيف الذهب وتنقيته، فكانت نتيجة التجربة كالسابقة، فاقتضى الحال أن يمروا بغابات غير مسلوكة، فوصلوا إلى «جبل أبو غولجى»، ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية، فأرسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليستعلموا منه عن

ذلك، فأبى الحضور، فرجعوا من طريقهم بوادى «أبو غولجى» نفسه، فكان يبسا لا ماء فيه بكثرة، وإنما كانوا يجدون فى طريقهم فى الحفر بعض مياه، وبعض حفائر حفرها العبيد، وعلى حكايتهم أن هذه المعادن التى بهذا الوادى كثيرة الذهب، ثم بعد ذلك بمسير مسافة ساعة، صوب الغرب، وجدوا واديا آخر عالى الحوافى الصخرية فلم يقفوا عنده، وبينما هم سائرون فى أباطحه قبض «موسيو بوريانى» قبضة من الرمل فوجد بها أربع فلزات من الذهب كل فلزة منها وزن حبة، فساروا من واد إلى آخر حتى وصلوا تجاه جبلى «سنجه» «وغويزه» وبسفحهما «بنو شنغول» «وسنجه» ولهم مساكن لطيفة مقبوة يقال لها «توكول»، وعدتها تنيف عن ألفى بيت، وعرض جبل سنجه فى الدرجة العاشرة والعشرين دقيقة شماليا، ولا يزرع سودانها إلا قليلا من الذرة والدخان حول مساكنهم، فلما رأوا العسكر قربوا من مساكنهم ولوا هاربين، فدخل العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات والأدوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراج الذهب منه، فبعث رؤساء العسكر لطلبهم فلم يحضروا، ولا حضر المندوبون فى طلبهم، ولا ظهر عنهم خبر ولا بان لهم أثر، فاحترس العرضى كل الاحتراس، وضربت الخيام فى محال عالية من الوادى خوفا من الهجوم، فظهر على حين غفلة فوق الجبل، وعلى البعد، عدة من العبيد، حتى دنوا من العرضى، وصاروا يرمون العساكر بسهامهم وحرابهم، وكان العسكر قد سكنوا بمساكنهم فهجم عليهم العسكر فهربوا، ثم عادوا وصاروا يحاربون إلى الليل.

ولما اعتكر الليل أحاطوا بالعسكر من كل جانب، ولم يتشتت شملهم إلا بضرب النيران، فلما أصبح الصباح صعدوا على ذروة الجبل وفوقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالأمطار، ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المعدنجية مائة نفر يخفرونهم فاشتغلوا فى وقت الحرب بتجربة النهر الخارج من هذا الجبل، فتحصل «موسيو بوريانى» على فلزات ذهبية خرجت بالتنظيف عدة مرات، ووضعها فى زجاجة ليمتحنها فيما بعد، ولا زال العبيد ينغصون على العسكر حتى تركوا «جبل سنجه» بدون تتميم التجربة، فاقتفى السودان أثرهم إلى جهة «وادى بولغيدية»، فأخذوا

قنطارين من دقيق رمل هذا الوادى وغسلوها، وحسبوا زمن شغلهما فكل ما خرج منهما وضع فى الزجاجة، ووجدوا أن الذخائر كادت تنفد منهم، فرجعوا من طريق «سنار» وقد جربوا تجارب كثيرة فى طريقهم، وكل ما تحصلوا عليه من الفلزات وضعوه فى الزجاج وسدوا عليه، وكانوا يجدون فى عودتهم كثيرا من المعادن الحفرية التى حفرها العبيد، ولم يجد العسكر فى طريقهم بيوتا ولا مساكن مسكونة بأحد، لان العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهرعون منها، فلذلك لم يقف المعدنجية على حقيقة الحال، ولم يمكنهم أن يذهبوا إلى المحلات المشهورة لمحصول الذهب، «كجبل دوك» لفقد الذخيرة، وقد وجدوا على شطوط نهر هادى عدة آبار مستديرة عميقة يبلغ عدها نحو ستمائة بئر، عمق البئر الواحد أربعة وعشرون قدما وقطرها نحو أربعة أقدام، وفى قاع كل بئر مماشى يتوصل إليها بواسطة سلالم صغيرة.

وهذا النهر كثير الذهب جدا فقد عثر «موسيو بوريانى» على الذهب فى ثلاث صوانات أخذها من هذا النهر، وكذلك «موسيو روسيجير» وجد به قطعا من الأحجار مشتملة على الذهب.

فباستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب أهل العرضى وفرحوا به فرحا شديدا حتى نهض العساكر على الاتقضاض بهذا النهر، اعتمادا على حكاية أهل الجهة، وجمعوا ما عثروا عليه من الحجر، ثم عادوا إلى مدينة الخرطوم التى خرجوا منها من نحو ستة أشهر، فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الأطراف، فأخذوا فى تحليل ما تحصلوا عليه فوجدوا العينات مختلفة الربح، وذلك أن «موسيو بوريانى» عمل التجربة التنظيفية «كما ميل» لم يحتو قنطارالرمل إلا على ثلاث حبات من الذهب، فالرجل الذى معه اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب إذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل إلى اثنى عشر فلا يجمع إلا سبعة قروش ميرى من الذهب وبالنسبة إلى رمال إقليم «فاشنغارو» لا يتحصل إلا على ثلاثة قروش ونصف من الذهب فى اليوم الواحد، فكتب بهذه التجربة خطابا وأرسله مع العينة إلى الحكمدار خورشيد باشا، فأرسل الحكمدار

المذكور ذلك بصحبة «موسيو بوريانى» إلى المعية السنية، وكان ذلك فى سنة أربع وخمسين ومائتين وألف[1].

وأما تجربة «موسيو روسيجير» فكانت نتيجتها بخلاف ذلك، فإن الأحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها اثنان فى المائة، يعنى أن صافى المائة درهم مثلا درهمان، وأما الذهب الصفائحى الذى يوجد فى المعادن كالعروق فإنه يتحصل فى كل ألف قنطار من مائة وستين إلى مائة وثمانين صفيحة من الذهب، يعنى من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهما إلى ألف ومائة وستة وثلاثين درهما من الذهب، وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشا، وقد تحقق عند هذا المعدنجى أن الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل، فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشا إلى مائة قرش، فكان هذا المعدل يزيد عن معدل «موسيو بوريانى» عشرين مرة، فلما اطلع المرحوم محمد على على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيما لم يتمالك نفسه من الغضب على «موسيو بوريانى» لأنه كان يميل بالطبع لما فيه الأرجحية فى الربح، فبهذا مال إلى تقرير «موسيو روسيجير»، فلأجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر إلى بلاد السودان لتصير التجربة أمامه، مع تقدمه فى السن وشيخوخته وطبيعة إقليم الأقطار السودانية، وتعب الاسفار الشاقة بها، إلا أنه كان ملحوظا بالعناية الربانية، ومحفوظا بالتوفيقات الصمدانية، كما قيل:

إن حل فالشرف التلبد أنيسه ... أو سار فالظفر الطريف قرينه

فالدهر خاذل من أراد عناده ... أبدا ورزاق العباد معينه

وأمر «موسيو بوريانى» بالذهاب قبله بعدة أيام، فأراد أن يتخلص من ذلك وقال: أن طريقة التحليل بالزئبق التى سلكها «موسيو روسيجير» ربما يمكن أن ينال بها أكثر من طريقة القصعة التى عليها العمل عند السودان، فكأنه سلم أن طريقة صاحبه مربحة، وكان قوله ذلك لمحض الاعتذار والخروج من

---

(١) وتوافق سنة ١٨٣٨م.

الورطة، ثم قال أيضا: إن الرمل لا مانع من أن يعطى كل يوم للشغال نحو أربعين قرشا، ومع أنه قال ذلك لمجرد المسايرة، الا أن المرحوم محمد على أخذه بالقبول وفرح به.

وكان المرحوم محمد على جلب من فرانسا «معدنجيا» شهيرا بعلم المعادن وهو موسيو «ليفبره»، كان سبق استخدامه من مدرسة المعادن المصرية، وكان موسيو «بوريانى» قد سافر إلى السودان امتثالا للأمر العالى، وبعده بثلاثة أيام ركب المرحوم محمد على البحر، وصحبته خير الدين بك قبودان السفن وعدة أشخاص منهم موسيو «ليفبره» المعدنجى «ودار نود» بك المهندس «ولمبير» بك المهندس وأحمد أفندى يوسف الجشنجى، فسافر بالسلامة بالنيل حتى دخل السودان.

إركب النيل ما استطعت ففيه　　راحة للفتى وغاية بغية

كم تفرجت حين سافرت فيه　　فى بلاد وكم ظفرت بمنية

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يوما مشهودا، فحضر جميع من هناك للتشريف، فلطفهم جميعا، ودعوا له بخير، وفرحوا به غاية الفرح، وأثنوا عليه بجميل الثناء ومكارم أخلاقه، كما قيل:

كل الأمور تبيد عنك وتنقضى　　إلا الثناء فإنه لك باقى

لو أننى خيرت كل فضيلة　　ما اخترت غير مكارم الأخلاق

ثم أمر موسيو «ليفبره» المعدنجى أن يتوجه إلى «جبال مويه» و «سكادى»، وهى على ثمان فراسخ فى الجنوب الغربى من «سنار»، ليجرب معادن الفضة ومعادن النحاس، التى هى على ميمنة النيل العظيم بإقليم «روسيرى»، وأرسل خلفهم كلا من موسيو «بوريانى» و «درنود» بك، وأما حضرته العلية فقد بقى فى الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليه من جميع الجهات على اختلافها، وكلهم وعدوه بالمساعدة على مشروعه، وأن يعينوه بستين ألف نفس للشغل إذا اقتضى الحال هذا القدر، ثم سافر إلى جهة «سنار» ونزل بإقليم «روسيرى»،

وحضر إليه ملوك «سنار» و «فازغلو»، وصار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها، وعن أحوال زراعة البلاد وما يناسبها، وأرشد رؤساء السودان إلى طرق جديدة فى الزراعة وفى الصنائع والفنون التى لا يعرفونها، وأمرهم بالحصول عليها واستعمالها لتصل نوبة التقدم للنوبة، باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبة، وينوب الخيط الأبيض من فجر الفنون، عن الخيط الأسود من فجور الجنون، وليكونوا من أهل البصرة وتكون عندهم آية النهار مبصرة، ثم حضر المعدنجى «ليفبره» من جبل «مويه» وأخبره أنه لم يجد أثرا لمعدن الفضة ولا معدن النحاس فى المحل الذى حكى عنه موسيو «روسيجير» فنفر من الإقامة بهذه الجهة لعدم الحصول على مقصده، ولكن:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعده الدهر

فرفع معسكره ونهض إلى إقليم «فازغلو»، وكان أحمد باشا قد تولى حكمدارا عوضا عن خورشيد باشا، وكان قد بعثه محمد على إلى محاربة «جبال رجريج»، وكانوا عاصين، فنوى أن ينتظر عودة الحكمدار بعد وصوله، ففى ظرف ثلاثة أيام وصل المرحوم محمد على إلى قرية «فاموكو» تجاه «فازغلو»، وهى على ميمنة البحر الأزرق، فضرب خيامه بها، وأعجبه حسنها وظرافتها، فأمر ببناء قصر فيها على اسمه ليذكر سفره بها، وعين حالا «درنود» بك لهذه المأمورية، فهندسه البك المذكور، وبنيت حوله الدور، حتى صار بلدة شهيرة هناك سميت بمحمد على، وهى من الأثر الجليل الجلى، إلا أنها صارت محل التغريب ينشد فيها المنفى الغريب..

يا عين إن بعد الحبيب وداره ونأت مرابعه وشط مزاره

فلقد ظفرت من الزمان بطائل إن لم تريه فهذه آثاره

ولما عاد أحمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا، والذخائر كادت تنفد، وكان المرحوم محمد على توجه إلى إقليم «فاشنغارو»، وكان قد بعث حين توجهه أحد مماليكه ليأخذ الرمل من «وادى قرادة»، فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاثة فلزات من الذهب اليسير القيمة، القليل الجودة.

ولما نزل المرحوم محمد على فى «فاشنغارو» ضرب مخيّمه تحت شجرة تين، والمعسكر حوله، ولم يبق معه من المأكولات إلا «البقسماط» واليسير من «الأرز»، فسئمت نفوس الجميع من قلة الزاد، والحط والترحال بهذه الحالة، ولام كل الناس موسيو «بوريانى» على تأميل الباشا المذكور وتجسيمه له فى ربح المعادن الذهبية، فجمع الباشا المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رأيهم فقرروا جميعا على عمل تجربة جديدة، بطريقة أخرى مفيدة، وهى أن يجمع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة، ويعلم كمية ما يخرج منها، فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق فى قلة الربح، ولكن قد استكشف موسيو «بوريانى» فى بئر من آبار «وادى قرادة» فى عمق اثنين وعشرين قدما طبقة معدنية يتراءى أنها كثيرة الذهب ليمتحنها مع التأنى، وقبل أن يرحل موسيو «ليفبره» المعدنجى من الخرطوم كان عثر أيضا على رطلين من الزئبق فى مخازن الحكمدارية، فأحب موسيو «بوريانى» أن يعمل امتحانه لما أخذه بطريقة التحليل الزئبقى، فبعد الامتحان تحصل على محصول كثير من الذهب بطريقة هذا التحليل، فسكت عن ذلك، وصار منهمكا على اتباع هذه الطريقة فى التجربة فلم يشعر إذ وجد فى قرار القزازة جرما معدنيا ذهبيا مخلوطا بغيره، ولم يعرف سبب هذا الغش، فأخبر «غيطانى» بك وموسيو «لبير» بك بذلك، وهم أخبروا المرحوم محمد على، فموسيو «بوريانى» أتهم بعض أخصامه أنهم أرادوا أن يفسدوا عليه تجربته، وأراد بأخبار من ذكر البحث عن صاحب الفعلة، فأدى أحمد أفندى الجشنجى أن موسيو «بوريانى» المذكور هو الذى خلط الذهب بالزئبق عمدا لعدم نتاج تجربته، وأخبر بذلك أمام الباشا، وصدق عليه الحاضرون، ففى اليوم استعمل موسيو «بوريانى» طريقة الغسل بالقصاع، فغسل مائة قنطار من الرمل مأخوذا من فرش الوادى بجبال قرادة، فاستخرج منها تسعا وأربعين حبة من الذهب.

فهذه التجربة الكبيرة ظهر منها إشباع معدن «وادى فاشنغارو» والذى جرب عينته موسيو «روسيجير» سابقا فوجد بين طريقة موسيو «بوريانى» وموسيو «روسيجير» فرق جسيم، فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صدر الباشا المرحوم،

وفترت همته، حتى كاد أن يصرف النظر عن قضية استخراج المعادن، ولكن عاد إلى تجلده وصبره، وأمر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الأشغال التى حصلت كلها، فبادرت الجمعية باستخراج ذلك فنتج أنه لا يتحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب إلا بقيمة ثلاثة قروش كل يوم.

فمن هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع، وقل اعتبارهما، فتغير خاطر المرحوم محمد على من ذلك، وداخله اليأس من رواج معادن السودان، ولو كان موسيو «روسيجير» حاضرا معه لسلاه وعلله بالأمانى الكاذبة.

وأما موسيو «بوريانى» فقد كان حاضرا، وأخبر بالصدق ولم يدلس، ولكن لكونه كان يهاب سيده كثيرا فلم يستطع أن يذب عن نفسه، فضرب عنه المرحوم محمد على صفحا، وأنعم على جميع المهندسين والمعدنجية عند ارتحاله من السودان بركوبة ورخت مذهب، وما استثناه من هذا الإنعام ولا غض عنه البصر، ويئس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان، ولكن لم يظهر له الحقد ولا صرف عنه النظر، بل أمر الجمعية أن تمكث وتبحث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن، فكان العسكر المحافظون على أهل هذه الغزوة العلمية يعتقدون أن سيدهم أبقى هؤلاء المهندسين رسما فقط، وأن أشغال هؤلاء المهندسين ليست إلا صورية، فكانوا لا يساعدونهم على الأشغالهم، ولا يصرفون همتهم فى إعطاء ما يلزم لتتميم التجربة، وكان قد تعين لإدارة المعدن خير الدين باشا، فكان يسيء السلوك لأنه كان مكرها على الإقامة بتلك الديار وترك وطنه، فبهذا كان يعتقد أن الإفرنج المعدنجية هم السبب فى طول غربته فكان يتجاهر بتقريعهم وتوبيخهم.

ثم إن موسيو «ليفبره» أصابته حمى شديدة، وكان قد وعده المرحوم محمد على أن يعطيه بعد تمام الأشغال رتبة «ميرالاى»، فكان على غاية من الاجتهاد، فمات بالحمى، وقبل موته صرح بأن تقرير الجمعية بعدم تربيح المعادن فى السودان ليس بقطعى، ولا ينبنى عليه حكم، وأنه لا ينبغى أن يقطع الرجاء

بالكليـة من ربح هذه المعادن، لا سيما وأن موسيو «بوريانى» قرر تقريرا شفاهيا يؤيد رأى «ليفبره» السابق، وعبارته: «ليس من أرباب الجمعية بتمامها من هو معتمد فى قوله فيما يخص قيمة ما يتحصل من الرمال من الذهب، حيث جميعنا لا معرفة له تامة باستخراج المعادن، فلسنا متبجرين فى هذا الفن، بل الظاهر أنه لو صارت الإدارة على صورة حسنة مستقيمة وصدق الممتحنون فى تجاريبهم وصار الاجتهاد فى الاستخراج على وجه مرضى، فلا بد أن تظهر نتائج عظيمة، خصوصا إذا كان المأمور بذلك من المعدنجية المتبحرين فى هذا العلم وله سابقة عمليات صحيحة، وأما سفرنا هذا فلم يكن إلا محض مناظرة واطلاع على نفس المحال المعدنية بالبلاد السودانية، مجردا عن راحة الفكر والبدن». وقوله فى محله، لأن العرضى كان دائما عرضة لإغارة السودان الهمل، وكان بدون أهبة ولا ذخيرة، وكانت عساكر الأتراك المحافظين على المعدنجية أشد عليهم عداوة من السودان.

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الأهالى، وكانت التجاريب تعمل بالخوف والعجلة، وكانت الأمراض أيضا من جملة الموانع، ومع ذلك فقد صح بتجربة موسيو «بوريانى»، التى استمرت نحو ثلاث سنوات، أن بعملية استخراج المعادن بالعبيد يعطى قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب، مع قبول الزيادة عن ذلك لو وجدت المعرفة والصداقة، ومع هذا كله فنقول: إن ذهب السودان لا ينكر، وإن الاقطار السودانية التابعة للحكومة المصرية، وإن كانت دون أقاليم أمريقة بكثير، فهى كمصر إن لم تسعفها المعادن المتطرقة، فمعادن الزراعة فيها محققة، ولولا التغافل والتكاسل من بعض الحكام، واتصاف بعض آخر بالجهل التام، لكانت ايراداتها ومحصولاتها على أكمل نظام، فإن خصوبة أرضها عجيبة، وحيواناتها نجيبة، وأخشابها جيدة، ومعادنها متعددة، فالمواليد الثلاثة فيها على غاية من الكمال، ولا نظر إلى ما يعتقده عامة الناس من أن أكثرها رمال، فقد يوجد من الأهالى من يترافع مع أخصامه فى ملكية ألوف الفدادين لنفسه، ويريد نزعها من يد أبناء جنسه، وفى أيام حكمدارية،

حضرة لطيف باشا أعطى ألف فدان لأحد السناجق وهو «دموزأغا» من البور، فلم تبرح مدة يسيرة أن صارت من المعمور، وصح فيها جميع البقول والغلال، لا سيما زرع الحنطة الذى فى تلك البلاد له بال، وهناك أراض بمديرية «دنقلة» لا يعلوها النيل إلا فى زمن الفيضان الغزير، وليست داخلة فى دفتر مكلفات الإقليم، وقد التمس زراعتها فى سنة من السنين بعض الأهالى بدفع العشور، فزرعها من صنف الذرة، فأدت محصولا فوق الأربعين ألف أردب، فدفع إلى شونة الميرى عشرها فصار صنف الذرة رخيصا فى هذه السنة، فشكا الأهالى المزارعون كساد محصولاتهم فأبى مدير تلك الجهة المتولى فى ذلك الوقت أن يعطيها بعد ذلك لأحد، وأحب أحد البكباشات المستخدم بتلك الجهة أن يتعاهدها فى كل سنة بقيمة مكافئة لعشرها السنوى، فلم يساعد على ذلك. وأمثال هذه الأراضى كثيرة جدا، والأراضى منبتة للنباتات الناتجة بنفسها بدون عمل، مع قبول أهلها للتمدن الحقيقى، لدقة أذهانهم، فإن أكثرهم قبائل عربية لا سيما «الجعليين» و«الشاقية»، وغيرهم، فإن أشغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد، ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم، حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يرحل إليه من البلاد الأجنبية للمجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير، فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة، فكل إنسان من الأهالى يخص الواحد أو الاثنين فيقيمون بشئونهم مدة التعلم والتعليم.

[السودانيون والتمدن]

ولقد رأيت فى طريقى ببلاد «الشاقية» بمديرية «دنقلة» حرم سنجق يدعى الملك الأزيرق تسمى السيدة «أمونة»، تقرأ القرآن الشريف، ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والثانى للبنات، كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون، تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله، ولا نرضى أن يشوبه شيء من مال زوجها، وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلى من العباد

والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لأداء فريضة الحج الشريف، ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام، وأمثال ذلك كثير هناك فى ظل الحكومة المصرية.

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان إلى مصر، وأدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادىء العلوم، ثم نقلهم إلى مكتب الزراعة، ثم إلى مدرسة الألسن، وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها فى بلادهم، وقد شاهدت بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب، ويغلب على الظن أنه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الأخيرة، المؤسسة على حب تقديم الجمعية المدنية، وهمة سعادة جعفر باشا صاحب الأنظار التمدنية، يمكن إيصال التقدمات العصرية بعناية الحكومة المصرية فى أطراف وأكناف تلك البلاد. التى هى الآن لم تخل قراها عن نوع التقدم فى الحضارة، مع مساعدة الوارد والمتردد إليها فى هذه هذه الأيام لقصد الزيارة أو التجارة، فإنها أقرب للتمدن من أقاليم أمريقة بكثير، وجميع أهلها - ما عدا بعض الجبال - لسانهم عربى فصيح، حيث إن جلهم من نسل قبائل العرب المنتجعة قديما، يحفظون أحسابهم وأنسابهم، وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة، وإنما يحتاجون فى حصول المطلوب إلى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام أرباب صداقة وعفاف، وعدل وإنصاف، لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات إلى الأمور الدنية، بل توجد القابلية أيضا فى الأهالى المتأصلين.

ويدل على هذا ما حكى للخليفة أبى جعفر المنصور عما جرى بين عبد الله بن مروان بن محمد وبين ملك النوبة مما ذكره المؤرخون فى حق الملك المذكور، مع أنه كان من ملوك السودان المتأصلين والجنس القطين، إذ لم تكن القبائل العربية انتجعت إلى السودان، ولا تسلط على هذا الإقليم ملك من أهل الاسلام ولا من العربان، وهو أن أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله بن على وصالح بن على فى نفر معهما، فقال عبد الله بن على: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان بن

محمد لما هرب إلى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة، سقط عنى حفظه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يرسل إليه بحضرتنا، ويسأله عما ذهب عنا. وكان فى الحبس، فأرسل إليه أبو جعفر، فلما دخل قال له: يا عبد الله، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبة، قال: «يا أمير المؤمنين، هربت ممن تبعنى بأثاث سلم إلى بلاد النوبة، فلما دخلت بلادهم، فرشت ذلك الأثاث، فجاء أهل النوبة ينظرون إلى متعجبين منى، إلى أن بلغ ملك النوبة حضورى، فجاء ومعه ثلاثة نفر، فإذا رجل طوال، آدم، أغبر، مسنون الوجه، أى مملسه، فلما قرب قعد على الأرض وترك البساط، قلت: ما يمنعك أن تجلس على أثاثنا هذا؟ قال: إنى ملك، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه الله، قال: ثم نظر إلى فقال: لم تشربون الخمر وهى محرمة عليكم؟ فقلت: عبيدنا وأتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم، قال: فلم تلبسون الديباج والحرير وتحلون بالذهب وهو محرم عليكم؟ فقلت: زال عنا الملك، وانقطعت المادة، واستنصرنا بقوم من الأعاجم كان هذا زيهم، فكرهنا الخلاف عليهم، فأطرق يقلب يده ويقول: عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا فى ديننا! يكرر الكلام على نفسه، ثم نظر إلى فقال: ليس ذاك كما تقول، ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم، وتركتم ما به أمرتم، وركنتم إلى ما عنه نهيتم، فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم، والله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها بعد، وأنا أخاف أن تنزل بكم النقمة وأنتم ببلدى فتصيبنى معكم، فارتحلوا عن جوارى». انتهى. فقام أبو جعفر وقيذا[1] من كلامه، فدخل حجرته. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ (الإسراء: ١٦) قال المفسرون: فى الآية حذف دل عليه باقيها، أى أمرنا مترفيها أى منعميها بالطاعة فخالفوا، ففسقوا، فدمرناها تدميرا» . انتهى. فيا لها موعظة بيضاء من ملك أسود. ولعل ملوكهم فى الأزمان القديمة كانوا كصلحائهم الآن، على قدم عظيم فى الاستقامة، وطريقة قويمة،

---

(١) محزون القلب، كأن الحزن قد كسره وأصابة بالضعف.

وأما موضع معرض الذم فى حق أهل السودان فهو متوجه على جمهور أهل البلاد، وهم العبيد والمولدون ومن يحذو حذوهم من رعاع أهالى تلك البلاد، أرباب الدناءة والخسة.

[سفرى للسودان]

وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف[1] كنت سافرت إلى السودان بسعى بعض الأمراء، بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم، فلبثت نحو الأربع سنين بلا طائل، وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين، فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر رجاء نشلى من أوحال تلك الأحوال، فلم يتيسر إرسالها، ثم أسعد الحال بتبديل الماضى بالحال الذى هو حال، وذلك عقب تخميسى لقصيدة نبوية برعية، متوسلا فيه بشفاعة خير البرية، وها هى القصيدة الأولى:

ألا فادع الذى ترجو ونادى	يجبك وإن تكن فى أى نادى
فمن غرس الرجا فى قلب حر	أصاب جنى النجا غب الحصاد
ومن حسن الخلائق سله صنعا	جميلا فهو أوفى بالوداد
وحدث عن وفا خل وفى	بمرسل حبه فى القلب بادى
ورب أخ تلاهى عنك يوما	فرب وداده أبدا ودادى
بنو الآداب إخوان جميعا	وأخدان بمختلف البلاد
خلائف عنصر كل تغذى	بأثداء العلا دون اقتصاد
وآداب الفتى تعليه يوما	إلى الأنجاد من بعد الوهاد
وآدابى تسامى بى الدرارى	على شعثى وتبلغنى مرادى

(١) وتوافق سنة ١٨٥٠م.

ومـــا لى لا أتيـــه بهـــا دلالا وقـــد دلـت على نـهج الـرشـــاد

إلى سبـل الفـخـار تقـود حـزمى وفى مـيـــدانه عـزم انقـيـادى

عـصـامى طريف المجـد سعـيـا عـظامى شـــريـف بالـتـــلاد

سوى نسب العلوم لى انتـساب إلى خـيـر الحـواضـر والبـوادى

حـسـينى السـلالة قـاسـمى بطهطا مـعـشـرى وبهـا مـهـادى

لسـان العــرب ينسب لى نجـارا ويـدنـيـنـى إلـى قـس الأيـادى[1]

وحـسـبى أننى أبرزت كـتـبـا تبـيـد كـتـائـبـا يوم الـطراد

فـمنا منبـع العـرفـان يـجـرى وكـم طرس تحـــبــــر بالمداد

على عـــدد التـواتر مـعـــرباتى تفـى بفـنون سلـم أو جـــهـــاد

وملطـبـرون يشـهـد وهو عـدل ومنتـــسكو يـقـــر بـلا تمادى

ومـغـتـرفـو قـراح فـرات درسى قـد اقـترحـوا سـقـاية كل صـادى

ولاح لســان باريس كـشـمس بقـاهرة المعـز على عـمــاد

ومـحيـى مصـر أحـيـا كان قـدرى وكـافـأنى على قـدر اجـتـهـادى

سـأشكر فـضله مـا دمت حيـا ومـا شكـرى لدى تلـك الأيادى

رعى الحنان عـهـد زمـان مـصـر وأمطر ربعــهــا صـوب الـعـهـاد

رحلت بصـفـقـة المغبـون عنهـا وفــضلـى فى ســواها فـى المزاد

ومـا السـودان قـط مـقـام مـثلى ولا «سلمـاى» فيـه ولا «سعـادى»

* * *

(١)قس بن ساعدة الأيادي (المتوفي حوالي سنة ٦٠٠م) أحد حكماء العرب وخطبائهم وشعرائهم، حيكت حول حياته وأفكاره ومواقفه الكثير من الأساطير.

بهـــا ريح الســمــوم يشم منه زفـيـر لظى فلا يطـفـيـه وادى
عـواصـفـهـا صـبـاحـا أو مـسـاء دوامـــا فى اضـطراب واطـراد
ونصف القــوم أكـثـره وحـوش وبعض القـوم أشـبـه بـالجـمـاد
فـلا تـعـجب إذا طبـخـوا خـليطا بمخ الـعظم مع صـافـى الرمـاد
ولطـخ الدهن فى بـدن وشـعـر كـدهن الإبل من جـرب القـراد
ويضـرب بـالسـيـاط الـزوج حتى يقـال أخـو بـنات فى الجـلاد[1]
ويرتـق مـا بزوجـتـه زمـانا ويصـعب فـتق هذا الانسـداد
وإكـراه الفـتـاة على بغـاء مع الـنهى ارتضـوه باتحـاد
نتـيـجـتـه المولد وهـو غـال به الرغـبـات دومـا باحـتـشـاد
لهم شـغف بتـعليم الجـوارى على شـبـق مـجـاذبة السـفـاد
وشـرح الحال منه يضـيق صـدرى ولا يحـصـيـه طرسـى أو مـدادى
وضـبط القـول فـالأخـيـار نزر وشـر الـناس منتـشـر الجـراد
ولولا البـيض من عـرب لـكانوا سـوادا فى سـواد فى سـواد
وحـسبى فـتكها بنصـيف صحبى كـأن وظـيـفـتى لبس الحـداد

* * *

وقـد فـارقـت أطفـالا صـغـارا بطهطا دون عـودى واعـتـيـادى
أفكر فـيـهـم سـرا وجـهـرا ولا سـمـرى يطيب ولا رقـادى
وعـادت بهـجـتى بالنأى عـنهم بلوعـة مـهـجـة ذات اتـقـاد

---

(١) إشارة إلى بعض عادات نوبية، يضرب أصحابها الشاب ليلة زفافه على عروسه، حتى يختبروا مدى صلابته وتجلده؟!.

أريد وصـــالهم والدهر يأبى ... مـــواصلتى ويطمع فى عنادى
وطالت مـدة التـغـريب عنهم ... ولا غنم لدى سـوى الكســاد

* * *

ومـا خلت العـزيز يريد ذلى ... ولا يصـغى لأخـصـام لداد
لديه سـعـوا بألسنة حـداد ... فكيف صـغى لألسنة حـداد؟!
مهازيل الفضائل خادعونى ... وهل فى حربهم يكبو جوادى؟!
وزخـرف قـولهم إذ مـوهوه ... على تزيـيـفـه نادى المنادى
فهل من صيرفى المعنى بصير ... صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسى قالوا عقيم ... بمصر، فما النتيجة فى بعادى
وكان البحر منهج سفن عزمى ... فكدت الآن أغرق فى الثماد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت ... بدون مـدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى ... هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهى أحرى ... لتأييد المقاصد بالمبادى
علوم الشرع قائمة لديهم ... لمرغوب المعاش أو المعاد
خـدمت بموطنى زمنا طويلا ... ولى وصف الوفاء والاعتماد
فكنت بمنحـة الإكـرام أولى ... بقدر للتعيش مستفاد
وغـاية مطلبى عـود لأهلى ... ولـو مـن دون راحلة وزاد
وصبرى ضاع منذ اشتد خطبى ... وهون الخطب عند الاشتداد
وكم حسنا دعوت لحسن حالى ... وكم نادى فـؤادى يا فـؤادى
وأرجو صدر مصر لشرح صدرى ... وجـهد الطول فى طول النجاد

وكم بشـــرت أن عــزيز مــصــر　　　تفـــوه بـالفكاك ولـم يفـــاد

وحـاشـا أن أقـول مـقـال غـيـرى　　　وذلك ضـد سـرى واعـتـقـادى

لقـد أسـمـعت لو ناديت حيـا　　　ولكـن لا حـــيــــاة لمن تـنادى

وفى دار الـعــزازة لى عـــيــاذ　　　يقـيـنى نشب أظفـــار العــوادى

أمـيـــر كـبـار أرباب المعـالى　　　فـتى فـى شـرعـة العـرفـان هادى

عـــروف المعنـى لا يـبــــارى　　　بمضـــمـــار العـــلا طلق الجـيــاد

بوافــر فـضله الـركـبـان سـارت　　　وغنـى باســـمــه حــاد وشـــاد

وقــالـوا فى مـعـــارفـه فـــريد　　　فـقلت: وفى الرياسـة ذو انفـــراد

وفى الاحكام قـالوا لا يضـــاهى　　　فـقلـت: وذو تحـــر واجــتــهــاد

وقــالوا فى الـذكـاء ذكـا فـقـلنا　　　وثـاقــب ذهـنــه وارى الــزنــاد

وقــــالـوا وافق الحــــسن المثنى　　　فـقـلت وكم حـدا بالوصـف حـاد

وبحـــر حــجــاه يبــدو منه در　　　لغـــواص الـعلوم بـلا نفـــاد

فـيـا حـسن الـفـعـال أغث أسـيـر　　　بســجن الزنج يـحكى ذا القــيــاد

علـيـــه دوائـر الاســـواء دارت　　　وطـالت وفـق أهواء الأعــــادى

وقــد فـوضت للـمـولى أمــورى　　　وذا عـــين الإصـــابـة والســداد

عسـى المولى يقول امـضوا بعـبدى　　　فـيـقـتـضى لى بـتقـريب ابتـعـادى

❊ ❊ ❊

ومـــا نظم القـــريض برأس مــالى　　　ولا ســـنـدى أراه ولا ســنــادى

ووافـــر بحــره إن جـــاد يومـــا　　　فــمـــمــدوحى له وصف الجــواد

وليـس لبكـر فكرى مـن صـــداق　　　ســوى تلطيف عــودى فى بلادى

فـمـا أسـمى ذراهـا من بيـوت ‏ رزان فى حـمـاسـتـهـا شـداد
ومـسك خـتـامـهـا صلوات ربى ‏ علـى طه المشــفع فـى المعــاد
وآل والصـحـابة كـل وقت ‏ مـــواصلـة إلى يـوم التـناد

وأما تخميس القصيدة البرعية التى عبق مسك ختامه أرج الفرج ، فهو هذا :

تبـدى الغرام وأهل العـشق تكتمـه ‏ وتدعـيـه جـدالا من يسلـمـه
مـا هكذا الحب يا من ليس يفـهمـه ‏ خل الغـرام لـصب دمـعـه دمـه
حـيـران توجـده الذكـرى وتعـدمـه

دع قلبـه فـى اشـتـغـال من تـقلبـه ‏ ولبـه فى اشـتـعـال من تلـهـبـه
واصنع جـمـيل فـعـال فى تجنبه ‏ واقنـع له بعـلاقـات علقـن به
لو اطـلعت عليـهـا كنت تـرحـمـه

فـؤاده فى الحـمى مـسعى جـآذره ‏ وفى نجـوم السمـا مـرعى نواظره
فـيـا عـذولا سـعى فى لوم عـاذره ‏ عـذلـتـه حـين لـم تنظر بـناظره
ولا علـمت الـذى فى الحـب يعـلمـه

أما ترى نفـسه مرعى الهوى انتـجعت ‏ وساقـها الحب فـانساقت ولا رجـعت
فاعذر أو اعذله مـا ورق الحمى سجعت ‏ لو ذقت كأس الهوى العذرى ماهجعت
عـيـناك فى جنـح ليـل جن مظـلمـه

ولا صـبـوت لسلوان ولا مـلل ‏ ولا جنـحت إلـى لوم ولا عـذل
ولا انثنيت لخطب فى الهـوى جلل ‏ ولا تثنيـت عنان الشـوق عن طلل
بال عـفت بيـد الأنواء أرسـمـه

فكيف ناقـشـتـه فى أصل مـذهبـه ‏ ومـا تحـريت تحـقـيـقـا لمطلبـه

فـو الذى صانه عن وصـمـة الشبـه		مـا الحب إلا لقـوم يعـرفـون به

قـد مـارسـوا الحب حتى هان مـعظمـه

تجـيـبـه إن دعـا للوجـد أمـتـه		وعـزمـه بينـهم سـام وهمـتـه

قـوم لديهم بيـان الحب عـجـمـتـه		عـذابه عندهم عـذب وظلـمـتـه

نور ومـغـرمـه بالـراء مـغنـمـه

يا من دعـاه هواه أن يعـاشـرهم		أسلك مشـاعرهم والزم شـعائرهم

وان تكلـفت أن تدرى أشـايرهم		كلفت نفسـك أن تقـفـو مـآثرهم

والشيء صـعب على مـن ليس يحكمـه

فى حب ليلى خـلى البـال يعـذلنى		إن لم أغـالط فـمـا ينفك يخـذلنى

فـو الذى منزل العـشـاق يـنزلنى		إنى أورى عـذولى حـيـن يسـألنى

بزيـنب عـن هوى لـيلـى فـأوهـمـه

كم فى الهوى والنوى قاسيت من ألم		وكم ملأت طروس العشق من كلم

وكم سهرت سمير النجم فى الظلم		وطالما سـجـعت وهنا بـذى سلم

ورقـاء تعـجم شكواها فـأفـهـمـه

ما السـحب إلا دموع العين باكـية		ولا لظى غـير أحـشـائى محـاكيـة

لا شك أنى أناغى الـورق شـاكـيـة		وتنثنـى عـذبات الـبـان حـاكـيـة

علم الـفـريق فـأدرى مـا تتـرجـمـه

أمـام عـشـق تولى نصـر مـلتـه		على الوشـاة وفـاداها بمـهـجـتـه

نادى وقـد ذاب وجـدا مع ثنيـتـه		يا من أذاب فـؤادى فى مـحـبـتـه

لو شـئت داويت قلبـا أنت مـسـقـمـه

متى بربع صحابى أبلغ الأملا فكم سقى ماء دمعى السهل والجبلا

وما شفى معهدا من ساكنيه خلا سقى الجبال فرعن الطود منه إلى

شعب المريحات هامى المزن مرهمه

ملث غيث يسح الوابل الهطلا وصيب طيب يستخصب الطللا

أضحى بمنهمر الأنواء منهملا وبات يرفض من وادى الخزام على

وادى أرام وما والى يلملمه

حيا منازلها فيض الحيا وملا أرجاءها من بروق يبتسمن جلا

ولا عدا عن رباها الجود إذ نزلا يسوقه الرعد من خير البطاح إلى

أم القرى ورياح البشر تقدمه

وسمى جواد سريعات نجائبه ولى عهد مريعات رغائبه

وواكف بالندى تكفى سواكبه وكلما كف أو كلت ركائبه

باداه بالرحب مسعاه وزمزمه

ما در من قبله غيث يعارضه ولا أضرت بمسراه عوارضه

تخاله وهو لا ريح يناقضه لما ألث[1] على البطحاء عارضه

علا المدينة برق راق مبسمه

برق بواسمه فى الجو قد سطعت فقهقه الرعد بالغبرا وقد خشعت

والرجع سح من الخضرا وما جمعت سقى الرياض التى من روضها طلعت

طلائع الدين حتى قام قيمه

مغارب الأرض طرا أو مشارقها تسعى إلى طيبة منها خلائقها

---

(١) ألث المطر: دام أياما.

مـدينة العلم هل تخـفى حقـائقهـا حيث النبـوة مضـروب سـرادقهـا

والنـور لا يسـتطيع الليـل يكتـمـه

يلوح فـى روضـة مـأثورة الشـرف درى كـوكـبـهـا يجـلو دجى السـدف

والبـدر يـطلـع فى أفـق بلا كـلف والشمس تسطع فى خلف الحجاب وفى

ذاك الحـجـاب أعـز الكون أكـرمـه

يا زائرا قـبـر خيـر البـدو والحضـر ألثم ثرى تربة المعـشـوشب النضـر

يلقـاك حيـا بأهنى عـيشـه الخضـر مـحمـد سيـد السـادات من مضـر

خيـر النبـيين مـحـيى الدين مكـرمـه

عـرج بسـاحـتـه يمنحـك تكرمـة فـلا تخف بعـدها بغـيـا ومظلمـة

هذا المشـفع يوم العـرض مـرحمـة فـرد الجـلالة فـرد الجـود مـكرمـة

فـرد الوجـود أبر الـكون أرحـمـه

من فى صـبـاحـتـه يحكيـه مبتسـما من فى مـلاحتـه حـاز البهـا وسمـا

كم أقسم الحق باسم المصطفى قـسما نور الهدى جوهر التوحيد بدر سما

ءالمجـد واصـفـه بالـبـدر يـظلمـه

بطيـب عنصـره طابت سـريرته شـمـائل المجـد دون الحـد سيـرته

وسـورة الفتح مـثل الحـمد سـورته من نور ذى العرش منشأه وصورته

ومنـشـأ النور من نـور يجـسـمـه

من لاذ من فـزع بالهـاشـمى أمن أو حاد عنـه فعن سبل الـرشاد عم

بالفضل قد خـصه مولاه وهو قمن ومـودع السـر فـى ذات النبـوة من

علـم وحلم وإحـسـان يقـسـمـه

مـا حكمـة الله الا تعـجـز الحكمـا　　قد أبرزت للورى اسمى الورى عظما

لب اللـبــاب تســامى أصلـه ونما　　فـذاك من ثمرات الكون أطيب مـا

جـــاد الوجـــود بأعـــلاه وأعلمـــه

سـيـوفـه بالردى نحـو العـدا لمعت　　وكـفـه بالندى قـبـل الندا همـعت

صفوفه فى المد أروم الهـدى اجتمعت　　فـما رأت مـثله عـين ولا سمـعت

أذن كـــأحـــمــــد أيـن الأين تعـلمـــه

لا تعز «روما» و «تركا» أو «جراكسة»　　لحـسنـه إن فى هذا مـــواكـــســـة

تقـــول آمنـة فـيـــه منـافـســـة　　أضـحـت لمولده الأصنام ناكـسـة

على الـرؤوس وذاق الخـزى مــجــرمــه

فلا ترى "الفـرس" للنيران جـانحة　　بعــد الخـمـود ولا الانوار لائـحـة

«والمانـوية»[1] لا تنـفك نائـحـــة　　وأصبـحت سبل التـوحيد واضـحة

والـكفـــــر يـنـدبه بـالـويل مـــــأتمـه

كم ظلمــة عند أهـل الزيغ كــامنة　　قــد انجلت بيــد لـلنفع ضـــامنة

وعــصـــبـة من هجــوم الروع آمنة　　والأرض تبـــهج من نور ابـن آمنة

والعـــدل ترمى ثغـــور الجـور أســهـمــه

فـلا ترى كـاهنا للغـيب يسـترق　　كــلا، ولا مـــاردا إلا ويحـــتــرق

---

(١) ويسمـون «الثنوية» كذلك، وهم الذين يقولون بإلهين، أحدهما للخير والثاني للشر، وهما النور والظلمة، وينسبون إلى «ماني» صاحب «السابرقان» الذي يعدونه خاتم النبيين، وهم فرق عديدة، منها: المزدقية، والديصانية، والمرقيونية، والماهانية، والصيامية، والمقلاصية. وخلافاتهم في الفروع. انظر للقاضي عبد الجبار بن أحمد [المغني في أبواب التوحيد والعدل] جـ ٥ ص ٩ ـ ٧٠ طبعة القاهرة.

والجن خابوا الرجا بل مسهم فرق وإن يقم لاستراق السمع مسترق

رصدنه أنجم الأرجاء ترجمه

فكم تحدى وأبدى فى دلالته من معجزات توالت فى رسالته

فقل لطاغ تمادى فى ضلالته إن ابن عبد مناف من جلالته

شمس لأفق الهدى والرسل أنجمه

ما جاء من سلب الأعداء غنيمته به قتادة قد ردت كريمته

فى كل آونة تزداد قيمته العدل سيرته والفضل شيمته

والرعب يقدمه والنصر يخدمه

فى حومة الدين أصمى الغى والجدلا وجندل الكفر حتى صار مبتذلا

يمم طويل نجاد حكمه عدلا أقام بالسيف نهج الحق معتدلا

سهل المقاصد يهدى من ييممه

يا صاح كن برسول الله مقتديا فى فعله وبنور الحق مهتديا

فكم أباد من الباغين معتديا وكلما طال ركن الشرك منتهيا

فى الزيغ قام رسول الله يهدمه

بسعد طالعه تسمو كواكبه وطالما ابتهجت زهوا مواكبه

سل البراق بماذا فاز راكبه سارت إلى المسجد الأقصى ركائبه

يزفه مسرج الإسرا وملحمه

سرى به وهو فى أقصى تعجبه وفاز طه بأعلى المجد أعجبه

له انجلا ما توارى فى تحجبه والشوق يهتف يا جبريل زج به

فى النور والنور مرقاه وسلمه

في رؤية الرسل ليلا كم قضى أربا وكم دنا وتدلى ثم واقتربا
لقد رأى الآية الكبرى وما اضطربا والعرش يهتز من تعظيمه طربا

إذ شرف العرش والكرسي مقدمه

اعتز بالله حبا في معزته وحل في الملأ الأعلى بحوزته
فكيف فاز نبي شطر فوزته والحق سبحانه في عز عزته

من قاب قوسين أو أدنى يكلمه

في السبع فاز بخمس فوز منصرف بأجر خمسين يسدى شكر معترف
ونال ما نال من مجد ومن ترف فكم هنالك من عز ومن شرف

لمن شديد القوى وحيا يعلمه

كفار مكة ما كانت مجوزة بل أصبحت بالأحاجي فيه ملغزة
لا زال يمنح آيات معززة حتى إذا جاء بالتنزيل معجزة

يمحو الشرائع والأحكام محكمه

أجاب كل فصيح بالسجود كما آياته أخرستهم منطقا وفما
وحيث كل لديها ألقوا السلما هانت صفات عظيم القريتين وما

يأتيه جهلا أبو جهل ويزعمه

فطالما بالغوا في السب أو ثلموا عرضا وأنفسهم والله قد ظلموا
لو ميزوا قدرهم من قدره سلموا حال السهى غير حال الشمس لو علموا

بل أهل مكة في طغيانهم عمهوا

عمى البصائر عن قدر وعن قدر صم المسامع عن تقدير مقتدر
فمن تخلف في ورد وفي صدر فاصدع بأمرك يا بن الشم من مضر

فقد بعثت لأنف الشرك ترغمه

من يبغ شأوك فى قاب الكمال يمن　　بحظ منهزم يكبو وعجز زمن
لك الشفاعة مولاك الكريم ضمن　　لك الجميل من الذكر الجميل ومن
كل اسم جود عظيم الجود أعظمه

ففى البداية كنت السيد الحكما　　وفى النهاية حزت الحكم والحكما
فرجه ودع الكهان والحكما　　يا أيها الآمل الراجى ليهنك ما
ترجوه ذا كعبة الراجى وموسمه

يمم ضريحا إذا ما قام يحصره　　عاد ملائكة الرحمن تنصره
روضا تباهت فى الدهر أعصره　　قبر أشاهد نورا حين تبصره
عينى وأنشق مسكا حين ألثمه

خضم جود تناهى فى عزازته　　فيه الأمير برىء من إمارته
من لى ولو بنصيب من خفارته　　كم استنبت رفاقى فى زيارته
عنى وما كل صب القلب مغرمه

قلبى طليق اللقا جسمى مقيده　　فليت شعرى متى يفديه سيده
كم أمه زائر مثلى يؤيده　　وكم تصافحه من لايدى يده
ولا فمى عند تقبيل الثرى فمه

أراه كالبدر فى العلياء أرصده　　قرين بعد وبالآمال أقصده
من للمريد وقد أقصاه مرشده　　متى أناديه من قرب وأنشده
قصيدة فيه أملاها خويدمه

حديثة السن ما نيطت تمائمها　　نضيرة الغصن قد غنت حمائمها
راجت حواسدها جارت لوائمها　　مهاجرية افترت كمائمها
عن ثغر در لسان الحال ينظمه

عـذراء منذورة فـى خـدمـة الحـرم		عـسى يـكون بهـا صـفح لمجـتـرم
ويبلغ القـصـد قبل الفـوت بالهـرم		كم يأمل الروضـة الغـراء ذو كـرم

يرجـــو الزيارة والأقـــدار تحـــرمـــه

لما تجنى زمـانى الذنب وافـتـعـلا		وابيض مسود شعر الرأس واشتعلا
قـصدت من جل فى سلطانه وعـلا		مـسـتـعـديا بحـبيب الزائرين على

دهر تـنكر بالإهـمـــال مـعـــجـــمـــه

هل سـام فـحـزك انسـان ولا ملك		أو رام قـــدرك سـلطان ولا مـلك
فــإن ألم زمـــان خطبـه حـلك		فقم بعبـدك يا شمس الوجود وكن

حـــمـــاه من كل خـطب مـــر مطعـــمـــه

فكم سـقـاه الردى أقذى مـشـاربه		من حـيث سـاق له أدهى نوائبـه
فـاجـعل زيـارته أبهى مـناقـبـه		وادع الإله إذا ضـــاق الخنـاق به

مـــا خـاب من أنـت فى الدارين مكرمـه

أرجـوك نصـــرة إعـــزاز مـــؤزرة		على هوى النفس إذ كـانت معـذرة
وقـد تـوالت جـيـوش الـهم منذرة		يا سـيـد العـرب الـعـرباء مـعـذرة

لـنـادم الـقلـب لا يـغـنـى تـندمـــــه

إلى حـمـاك ضـعـيف أمـره وكـلا		وكم مليك حـمى بالجاه رعى كـلا
أصبحت كـلا على نعماك بل ثكلا		أثقلت ظهرى بأوزارى وجـئتك لا

قـلب سـليـم ولا شـىء أقـــــدمـــــه

سلكت فى هذه الدنيـا سلوك غـبى		وما غدوت من الأخرى على رهب
لكن تعـلقت فى أذيال خـيــر نبى		يا صاحب الوحى والتنزيل لطفك بى

لا زلت تعـــفـــو عن الجـانى وتـكرمـه

رفاعة يشتكى من عصبة سخرت لما رأت أبحر العرفان قد زخرت

فارفع ظلامة نفس عدلك ادخرت وهاك جوهر أبيات بك افتخرت

جاءت إليك بخط الذنب ترقمه

قبول تخميسها فضل عليه ومن لأنه زمن قاسى صروف زمن

تلا مؤلفها يرجو الخلاص ثمن فانهض بقائلها عبد الرحيم ومن

يليه إن هم صرف الدهر يهزمه

فاكشف بحقك عنه اليوم مظلمة من الهموم غدت كالليل مظلمة

وانظر إليه بعين الفضل مكرمة واجعله منك بمرأى العين مرحمة

إذا ألم به من ليس يرحمه

ارحم غريبا بعيد الدار غائبه حبل النوى حمل الأثقال غاربه

فصل رغائبه وافصل غرائبه وإن دعا فأجبه واحم جانبه

يا خير من دفنت فى الترب أعظمه

أسير بين قليل الصبر قاصره وعصره بفراق الأهل عاصره

وأنت ذو كرم لا شيء حاصره فكل من أنت فى الدارين ناصره

لم تستطع محن الدارين تهضمه

وهذه حاجة الملهوف مجملها وأنت أعلم والمولى يجملها

وتنتهى وقريب العفو يشملها عليك منى صلاة الله أكملها

يا ماجدا عمت الدارين أنعمه

يسقى البرايا جميعا رى عارضها إنسا وجنا ووحشا فى مرابضها

تشفى الخلائق طرا من تمارضها بيدى عبيرا ومسكا مسك عارضها

ويبدأ الذكر ذكراها ويختمه

وها تحيـــة ربى أكـرم الكـرمـا تنحو ضريحك يا خير الورى كرما
سـواطع الـنور منهـا تملأ الحـرمـا مـا رنح الريح أغـصان الأراك ومـا
حـــامـت على أبـرق الحنان حــــومـــه

تحيـــة بصـــلات البــر عـــائدة بالخـيــر مـوصـولة للرشـد قـائدة
تثنى عليـك وليـست عنك حـائدة وتنـثنى فـــتـــعم الآل جــــائدة
بكل عـــارض فـضل جــاد مـســـجـمـــه

رفـاعــة خـمـس المنظوم مـــرتجـلا قـريضـه وهو بالخرطـوم قد وجـلا
قــالت هواتفـــه بـالله كن رجــلا فــإن جــدك طه للـخطوب جــلا
فـــأمـــر خطبـك هذا الجـــد يحـــســمـــه

مــاذا العناء وأهل البـيت قد كـفلوا عودا جميلا وما عن وعدهم غفلوا
لا تعن بالغير جـدوا السير أو قفلوا هم أجمعوا أمرهم للكيد واحتفلوا
والأمـــر لـله مـــا برضــــاه يحكـمـــه

ومع أن مدة الإقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع لوطنى، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن سفرى لم يضع هباء منثورا، فقد اعتنيت فى مدتى هناك بترجمة (وقائع تليماك) وهو بكل من فى حماك، وهو الذى صار طبعه فيما بعد فى مدينة «بيروت»، ولا شك أنه من أنفع كتب الآداب والحكم، حيث اعتنى بترجمته فى سائر لغات الأمم، وكذلك قد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معى من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القراءات، حتى صاروا ما هرين فى ذلك، وفى آخر الأمر تنظمت المدرسة نحو تسعة شهور، وتعلم فيها التلاميذ من أبناء المصريين القاطنين هناك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط، وظهرت نتيجة ذلك فى الامتحان العام، والآن حين جددت الحكومة الإسماعيلية عدة مدارس بالأقاليم السودانية، توظف بها البعض من هؤلاء المتعلمين، ولا بد أنه يرجى نجاح

تلك المدارس، بداعى أن تأسيسها مبنى على الإخلاص فى النية، وحسن الطوية الخديوية.

وبالجملة، فمتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة، ودخلت أهاليها بحسن الإدارة فى دائرة الاستقامة، صارت هى وديار مصر فى العمار كالتوأمين، وفى أيناع الإثمار صنوين، حتى ينشد لسان حالهما:

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد جميعا فى الحب ضم النطاق

فى جبين الزمان منك ومنى غرة كوكبية الانفلاق

وقد لاح على قرب عماريتها علامة ظاهرة، وهى فتح المدارس الخمسة من ابتداء الحكومة الإسماعيلية الباهرة، وكذلك إرسالية إسماعيل بك الفلكى، ناظر المهندسخانة والرصدخانة، إلى سواكن فى رمضان سنة ألف ومائتين وثلاثة وثمانين[1] مع بعض المهندسين والرسامين لتعيين الطرق الحديدية المزمع على إنشائها بالأقاليم السودانية، وإرسالية بعض أرباب المعارف الإنكليزية فى سنة ١٢٨٦[2] لاستكشاف منابع النيل وإعطاء ملحوظات خيرية، كل هذا وأمثاله دلائل قاطعة على أن السودان سيحظى عن قريب بالوسائل النافعة، فلا شك أن سياحة المرحوم جنتمكان فى بلاد السودان، وإن لم تتفتح بها كنوز الذهب، فقد أدى فى حقها من البحث عنها ما وجب، فإذا كانت الغايات لا تدرك فالميسور منها لا يترك، فكأن لسان حاله يقول:

سأضرب فى بطون الأرض ضربا وأركب فى العلا غرر الليالى

فاما والثرى وأصيب عذرا وأما والثريا والمعالى

وفى الحديث: «اعملو فكل ميسر لما خلق له»، وفى رواية: «فكل مهيأ لما خلق له». وبالجملة، فكان تهيؤه للمعالى عجيب. .

---

(١) وتوافق سنة ١٨٦٦م.

(٢) وتوافق سنة ١٨٦٩م.

الحـــــمـــــد لـله أنـنى رجـل   من كنت لا تـنقـضى أعـاجـيـبى

وحسبه من الأفعال العجيبة وقاية مصر من الأوبئة بحسن النظافة وبالاحتراسات الحكمية، وتجديد المطبعة لنشر المؤلفات العلمية، وإنشاء مسجد القلعة العامرة لتعضيد المعالم الإسلامية، وقطع دابر المفسدين للحصول على التأمينات العمومية، ومع ذلك فكم ترك الأول للآخر، وكم أبقى لمن بعده من تكميل المفاخر، فلهذا وجب على الخلف تتميم ما لم يتيسر فعله للسلف، وإعمال فكره فى استنتاج نفائس المنافع، كما يعلم ذلك من فصول الباب التابع.

الباب الخامس

[فى الآمال الحسنة والأعمال المستحسنة من الإصلاحات المصرية، بمقتضى اصطلاحات الحال العصرية.

وفيه فصول].

الفصل الأول

(فى ذكر تقدم مصر فى هذا الوقت الحالى)

من المعلوم أن مصر فى هذا العهد من أحسن البلاد الشرقية حكومة وأفضلها إدارة، إذ فيها من كمال حسن الإدارة والضبط والربط ما يفيد الأمن على الأرواح والأموال والأغراض، كما فى أعظم الممالك المشرقية والمغربية، وفيها الصنائع آخذة فى النمو والازدياد، وما أنشىء فيها من سكك الحديد الكثيرة الفروع، ومن الترع والجسور والقناطر، زاد كثيرا فى تجارتها وزراعتها، ولو لم يكن للحكومة الحالية إلا حوض السويس[1] العجيب، والترعة الإبراهيمية التى صار إنشاؤها بالصعيد على وجه من السعة غريب، لكفاها ذلك على رغم حاسدها المريب، فناهيك بترعة كادت أن تكون بحرا، وحفرها فى أقرب مدة يكاد أن يعد سحرا، وكم للحكومة الحالية غير ذلك من التجديدات والمآثر الخالدات، فلو نظرت إلى تحسين المحروسة[2] بتوسيع المشارع والمسالك، وأنها فى أقرب مدة صارت كأعظم مدن الدول الكبيرة والممالك، لازدريت من تولى حكومة مصر من الملوك والخلفا، ولصغر فى عينك مجدهم الأثيل الذى ذهب جفاء واختفى.

فشأن مصر اليوم مما يغبط عليه، فهى حرية أن تكون قدوة لجميع البلاد المجاورة

---

(١) قناة السويس.

(٢) القاهرة.. وكانت تسمى: مصر المحروسة، أو المحروسة، وكانت هذه التسمية شائعة في الأدب، خصوصا الشعبي منه.

لها، وبالجملة فأرض مصر الأريضة[1]، الطويلة العريضة، طيبة التربة كريمة المنبت، ومضافاتها من بلاد السودان جسيمة المقدار، خصبة أيضا على الأكثر، تربتها أيضا معشوشبة، فبها تعظم سعة الخديوية الجليلة المصرية، بحيث لا تنقص فى المقدار عن ثلث الممالك العثمانية، فمساحتها مساحة الممالك العظيمة، وجميع أهاليها وأهالى البلاد الملحقة بها نحو ستة ملايين، كل ذلك يجعلها مضاهية حسا ومعنى لبعض الممالك المعتبرة فى ميزان البوليتيقية.

فلا غرو أن كانت بمزاياها وخصائصها منتظمة فى سلوك أحاسن الممالك، بل هى واسطة سلوك العقود الجوهرية، ومالكها خير مالك، ومن وقت ما حسن فيها مذهب الإدارة والترتيب، جاد مصدر إيرادها بالمحصول العجيب، فمن قدره بزهاء مليون من الأكياس فقد أصاب حدسه، وما حاد عن القياس. .

وأقوى الدلائل فى الحالة الراهنة على طيب حال مصر، وما يرجى لها فى المستقبل من نمو الخير، وانتهاء محو الإصر، ما هو جار الآن من ازدياد تجارتها وامتداد معاملتها، فإن ما خرج منها إلى البلاد الأجنبية سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية[2] قد زاد الآن خمسة أضعاف على السابق، والذى دخل إليها زاد ضعفين، فاليوم صارت قيمة تجارتها الداخلية والخارجية جسيمة جدا، من رءوس أموال وأرباح حتى أبلغها بعضهم نحو مائة وخمسين مليونا من الليرات، وإن كان هذا لا يخلو عن المبالغة.

ولا تزال مصر بالتقدمات التحسينية، المتشبثة بها الحكومة الحالية، تتمادى فى الأزدياد، وتتهادى بحسن سلوك سبيل الرشد والسداد، فلا غرو أن استحالت حالة الحكومة فى أحوال متعددة إلى أطوار حسنة متجددة، ونهض بها حسن الجد والطالع إلى أسمى الطوالع، وأسنى المطالع، فما أحسن الحكومة التى أنعم الله عليها بمن يسارع فى إعزاز الوطن وتبليغه مناه، وإعلاء الحمى وتكثير غناه، ولو بإنفاق المال لتحسين الحال.

---

(١) أي الكثير عشبها الحسنة في العين.

(٢) وتوافق سنة ١٨٥٠م.

أصـــون عـــرضى بمالى لا أدنســـه لا بارك الله دون العـــرض فى المال

أحـتـال للمـــال إن أودى أحـصله ولست للعـرض إن أودى بمحـتـال

فالملك العاقل من يستطيب المتاعب فى استحصال المعونة، ويستجلب المكاسب ليقـوم أود وطنه ويتعـهـد شـؤونه، ويجـتـهـد فى تنمية الإيراد والمصرف إلى حد التعديل، بسلوك أرشد طريق وأعدل سبيل، حتى يبلغ السعى فى التنمية درجة الموازنة والتسوية، فإذا امتلأ الحوض وسقى الروض، لطف السعى وذاقت الرعية حلاوة الرعى، وظهرت ضخامة مصر التجارية وفخامتها السياسية بغرس أصول المنافع الأساسية، فإن حسن الإدارة والاقتصاد والتدبير باب عظيم لفتوح الخير الكثير، وطريق تأسيس الثروة وتمهيد الغنى، ولتجديد النعمة وازدياد الهنا، وكل ما يوجب حسن الثنا، مما يحسن فيه قول الشاعر :

بدائع من صنـع القـديم ومـحـدث تأنـق فـــيــه المحــــدث المتـــأنق

إذا أنت من أعـــلاه أشـــرفت ناظرا تجـــيل عنان الطرف فـــيـــه وتطلق

وتجـمع فـــيــه كل حـسن مــفـرق وشمل الأسـى عن حاضريـه تفوق

فكم من غـيـــاض فى رياض وجنة بهـــا كـــوثر مـن مـائـهـــا يتـــدفق

ولقـد حـصل فى هذا الزمن الأخيـر فى الـحكومـة توسيعـات وتسخيـرات عـجيبـة، لم يتـمكن منها المرحوم مـحـمـد على، وكـان يتـمنى حـصـولهـا بعض المؤرخين، حيث أبدى فيـه ملحـوظة لطيـفـة تفـيـد أنه لـو ظفرت ديار مصر بهـذا التكميل، لتم لها الدست(*) وفازت بالحظ الجزيل، فما تمناه المؤرخ المذكور تم فى هذه الحكومة الحالية، كما سنذكر ملحوظ ذلك فى (الفصل الثانى) المتكفل لبيان مبانى تلك المعانى .

(*) الدَّسْتُ: الغلبة. (الشروق).

الفصل الثانى

فى ذكر ملحوظات عمومية تتعلق بالديار المصرية، أبداها بعض من أرخ مصر من أرباب السياحة، وحرض فيها على ما يلزم من تقديم التمدن، بتحسين أحوال المنافع العمومية، تجارة كانت أو زراعة أو فلاحة، وهذا باعتبار ما كان، كما لا يخفى على ذوى العرفان.

ومضمون كلام هذا المؤرخ(١) أن خصوبة أرض مصر واعتدال قطرها وصحو زمنها، كل ذلك يؤذن باستعدادها إلى الوصول لدرجة السعادة وأوج الثروة، ومع ذلك فقد توالى عليها منذ قرون عديدة عدة من الدول، ولم يتشبث أحد من ملوكهم إلى إبلاغها درجة كمال، ولا مرتبة اعتدال، وذلك لأنها فى عهد الخلفاء كان يتولى عليها من العمال والنواب من لا يسلك أكثرهم فى حسن الإدارة والتدبير سبيل الصواب، وإنما كان النائب فاعلا مختارا يسىء معاملة الرعية بما عنده من المرخصية، وربما حدث فى أيام نيابته اختلال جسيم يتسبب عنه الدمار وانحلال العمار، فقد رأى نيل مصر بعينيه أن رمال الصحراء والبرارى انهالت عليه، وامتدت على جزء عظيم من الأرض التى كان يرويها، حتى أعقمت سواحله ببوار نواحيها، وأفسدت رسادقها وضواحيها.

وقد ازداد هذا الضرر، وتجسم الخطب والخطر، فى أيام حكومة سلاطين

---

(١) أعتقد أن «المؤرخ» الذى يعنيه الطهطاوي «هو» البعثة العلمية التي صحبت الحملة الفرنسية على مصر، والتي وضعت كتابها الكبير [وصف مصر]، وفي أواخر هذا الفصل ما يشير إلى ذلك.

الشراكسة، وبقيت أيضا فى أيام الدولة العلية، للاختلاف الواقع بين ولاتهم والمماليك الوجاقلية، ففسدت مملكة مصر بين الفريقين، وضاعت كضياع السفينة ذات الرئيسين، ولم يصفها أرباب السياحة من المتقدمين والمتأخرين حق وصفها الصحيح، بل تكلموا عليها بكلام ناقص فيما يتعلق بالتعديل والتجريح، ولا وفوا لها بما يجب من الطب والعلاج، ولا بينوا طرق التقدم والرواج.

ولما حل بها جيش الفرنساوية أمعن النظر فيها، وعرف قيمة الطرق المعاشية، وأن مصر لو حكمت بحكومة مماثلة لدول أوروبا المنتظمة لأمكن تكثير أهلها وبلوغها إلى ثمانية ملايين متممة، وإنها قابلة لنمو الزراعة والصناعة والتجارة، وان أهلها فيهم القابلية لاجتناء ثمرات العقول وفوائد المهارة، وقطرها مستعد لتحسين الصحة العمومية بطرد الأمراض الوبائية، وماء النيل إذا توزع على الأراضى بالوجه اللائق يروى من الفدادين فوق أربعة ملايين، وتكون كثيرة المحصول، فإن فلاحتها المختلفة تمكث ثمانية أشهر من السنة، ينقلب عليها الحرث والزرع المختلف باختلاف الفصول، فإن أراضى أقاليم البحيرة متساوية الأطيان تقريبا فى طبيعة المزارع مستوية الأجزاء، فجميع أراضيها صالحة للزراعة والفلاحة بالسهولة، لأن الرطوبة تبقى بها مدة فصل الشتاء وبعده فيسهل إنباتها بواسطة ما ينزل فيها من الأمطار بدون الاستعانة بالسواقى، فتخرج منها الحنطة الجيدة، فما يوجد فيها من البور بدون زرع فهو ناشىء من مجرد إهمال الأهالى وسوء إدارة الحكام. مثلا جميع الأراضى الواقعة على شطوط ترعة الاسكندرية هى أشبه بالصحراء والبرية لخلوها عن الحرث والغرس، ولو زرعت جميعها لخرج من المحصول الجسيم مقادير وافرة، فالأراضى التى لا تزرع بمديرية البحيرة نحو مائة وثمانين ألف فدان تقريبا، منها أرض بحيرة مريوط، تشتمل على ستين ألف فدان، مع أنه يمكن تجفيف جزء منها وزرعه.

وأما روضة البحرين فإنها خصبة جدا، إلا أنها لم يعطها الفلاحون فى الفلاحة ما يجب لها، فهى فى الجملة تعطى محصولات جيدة، ولو أعطى لها حقها من

الفلاحة لكثر محصولها كثرة بالغة، ففى أقسامها تخرج الحنطة والذرة والفول والشعير والكتان والنيلة والدخان، إلا أنه لا بد من تقدم الزراعة بها تقدما أجسم من ذلك لازدياد المحصول وكثرته، فإن روضة البحرين التى هى عبارة عن الغربية والمنوفية فيها نحو مائة وعشرين ألف فدان من البور، منها بالغربية نحو ثمانين ألف فدان، والباقى وهو مقدار النصف من ذلك بالمنوفية.

ومن تحسين الزراعة بمصر أن يخصص جزء من أراضى الشرقية والدقهلية لزراعة القطن والكتان والنيلة، وما يتبقى بعد هذا التخصيص يكون لزراعة الحنطة والذرة والفول والشعير والعدس ونحو ذلك، ويخصص فى مديرية الشرقية جملة أفدنة لزرعها على هيئة المروج الصناعية والمراعى المدبرة، ويصح فى هذه المديرية زراعة الكرم والتوت، كما صحت زراعة التوت فى بعض الجهات الأخرى، من الأقاليم الجنوبية الإفرنجية الشبيهة بالأراضى المصرية، فإن تربية دود القز بمصر تعطى، مع السهولة، محصولا عظيما، لمساعدة الحكومة له، واستثنائه من دفع العوائد، تمييزا له فى المحال المقتضى لها ذلك، فإن فى مملكة فرانسا أشياء تستثنى من دفع العوائد والضرائب لقصد الزراعة، وتكون معافاة من ذلك وقتيا، يعنى لا تدفع العوائد إلا بعد مدة، فمن ذلك التزام ردم قدر مخصوص من البرك والمستنقعات لمن يريد غرسها، فإنه يجوز فى فرانسا الترخيص له فى ذلك القدر، ومعافاته من دفع المال مدة لا تزيد عن خمس وعشرين سنة تمضى بعد التنشيف وصيرورته صالحا لغيره، هذا فى الأراضى البور، وأما الأراضى المعمورة فيجوز بموجب اللوائح الصادرة فى ذلك معافاتها من المال لمنفعة الأراضى نفسها إذا زرعت بزراعات أنفع من غيرها للمملكة، كزراعة الكرم، أو الأشجار، أو التوت كتنمية دود القز أو الأثمار، فتكون لها امتيازات خصوصية فى فرانسا، وقد سلك هذا المسلك المرحوم محمد على فى مبدأ الأمر برفع الأموال عن أراضى الضواحى التى يزرع فيها قدر مخصوص من شجر الزيتون، وكما صدر فى هذا العهد الأخير من قرارات مجلس النواب فيما يخص الأراضى المستبحرة والموات، من تمييزها برفع الأموال عنها مدة محدودة للمنفعة العمومية، ولا بأس أن يعمل فى مصر مثل ما يعمل فى فرانسا فى

ربط الأموال على العقارات المجددة من بيوت الأبحار والورش والمعامل وهو أن لا يربط عليها عوائد إلا فى آخر السنة الثالثة التى تمضى من تمام عمارتها، ترغيبا للمجددين، حيث إنهم فى أثناء هذه السنين الثلاثة يجنون جميع ثمرة مبانيهم، ويوفون غالبا ما عليهم من الديون للصناع وأرباب مهمات البناء، فبمثل هذه الترغيبات يكثر التجديد للأمور النافعة النادرة، فالتشويق لغرس شجر التوت لتنمية دود القز يكون من هذا القبيل.

فبحسن إدارة تربيته يكون عدة وعمدة لإمداد الفبريقات الأوروباية كما سيأتى توضيح ذلك فيما بعد فى (الفصل الثالث) من هذا الباب.

وفى إقليم الشرقية نحو أربعين ألف فدان من البور إذا صار تعهدها بالزراعة يتبدل البوار بالعمار، وقلة المحصول بالاستكثار، وكذلك بالدقهلية نحو ستين ألف فدان بدون زراعة، إذا إنصلحت راجت وكانت كنزا للبراعة، وإذا تقدمت زراعة الأرز بجوار رشيد ودمياط عما هو جار الآن، وتحسن تبييض الأرز بتكثير الطواحين التى تدور بالآلات المائية، فإن أرباب الزراعة بتلك الجهات يكتسبون الأموال الجمة من هذا الفرع الذى هو أجود من أرز أيطاليا وأمريقة والأقطار الهندية، لا سيما وأن بتلك النواحى يوجد من الأراضى البور الصالحة لزراعة الأرز نحو أربعين ألف فدان.

وأما مديرية الجيزة ومديرية القليوبية فإنهما تعطيان محصولات مماثلة لمحصولات المنوفية والغربية إذا صار تعهدهما بالحرث والغرس كما ينبغى، بل يزيدان على ذلك بصلاحيتهما لزراعة القرطم، وإذا صار إصلاح ما فيهما من البور الذى يناهز ثمانين ألف فدان يكثر محصولهما كثرة بالغة، وكذلك إقليم الفيوم إذا استمر على زراعة الزيتون والورد، وأخذ فى الكثرة، فإن محصول هذين الفرعين يزيد فى قيمته زيادة ذريعة، فإنه إقليم ظريف مخصب بكثرة الاجتهاد وتقديم فن الزراعة فيه، وإنما يتخصص منه جزء عظيم من الأراضى لزراعة الغلال بقدر الحاجة، والباقى تصح فيه زراعة النيلة والكتان والبرسيم بترتيب زراعة كل صنف بما يلائمه من فصول السنة، لصلاحية أرضه للزراعات

الراتبة، وما فيه من الأخراس[1] يقارب ستين ألف فدان قابلة للإصلاح فحالة أراضيه التى فسدت بالحروب وإغارة العرب قابلة للاستحسان، وأن يعود خصبها كما كان.

وأما مديرية بنى سويف فهى منبتة للحنطة والذرة والفول والكتان والنيلة والدخان، ومع ذلك فيها من الأخراس نحو أربعين ألف فدان إذا إنصلحت تصير جسيمة المحصول.

وفى إقليم الآطفيحية يصح القمح والفول والذرة والدخان، وفيه من الأراضى الغير المفلحة نحو ثلاثين ألف فدان، إصلاحها من الواجبات. وأما أراضى المنية فأكثرها صالح لزراعة قصب السكر، لا سيما نواحى ملوى.

قال الحكيم جالينوس: لولا قصب السكر بمصر ما برئت أهاليها من العلل سريعا. وقيل: يعمل من قصب السكر نحو ألف نوع من الحلوا، قال بعضهم - وأحسن فى الجناس -

سبحان من أنبت فى أرضنا	ما بين شوك وحلافيها
أنبوبة فى حشوها سكر	قد كان ماء وحلا فيها

وألطف منه بكثير قول بعضهم فيه، ملغزا:

جعلت فداك هل لك من حبيب	مجيب فى الوصال بلا محال
نقى الثغر معسول الثنايا	له ريق ألذ من الزلال
له قد القضيب إذا تثنى	وهزت عطفه ريح الشمال
يقام عليه حد القطع ظلما	ولم يسرق ولم يتهم بمال
ويعصر كعبه من غير ذنب	فيبدى الشكر من كرم الخلال

---

(١) أي الأرض التي امتلأت بالحشائش، وتشابكت جذورها في تربتها، وفي الريف المصري يقولون عن هذه الأرض: أرض «خِرْس» - بكسر الخاء وسكون الراء - وهي هنا مجموعة على: أخراس.

وهو كثير فى الديار المصرية، لا يكاد ينقطع عنها إلا فى خمسة أشهر فى السنة.

وقد نقل عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال: لولا قصب السكر بمصر ما سكنتها. وكان يكثر من مصه للذته التى لا يملها أحد، وقد تجدد صنف آخر من قصب السكر، مشبع فى المائية والحلاوة، لكنه لا يساوى فى اللذة القصب البلدى، وقد كثر هذا الصنف بأقاليم مصر، ولكن استفحلت أعواده فى مديرية المنية، لشدة صلاحيتها لزرعه، وفيها ثلاثون ألف فدان من البور، فإذا زرعت يتحصل منها محصولات عظيمة.

وأما مديرية أسيوط وجرجا فإنها مشتملة أيضا على نحو ستين ألف فدان بدون فلاحة، لكنها صالحة لذلك، ينجح فى أرضها الحنطة والفول والذرة والعدس والنيلة والدخان والسلجم والقرطم والخشخاش وقصب السكر وغير ذلك. ومن أسيوط إلى إسنا سائر الأراضى صالحة للقطن والكتان والقرطم والسلجم وقصب السكر والقمح والفول والذرة والعدس واللوبيا وغير ذلك، وجميع أراضيها صالحة لزراعة شجرة البن، وإنما تستدعى بها أعمالا خصوصية، يعنى إذا خدمت الآرض خدمة مخصوصة، وزرعت فيها شجرة البن فإنها تثمر إثمارا عظيما، فبهذا تستغنى مصر عن بن بلاد اليمن، فالأرض الصالحة لهذه الشجرة بتلك الجهات الصعيدية تبلغ تقريبا نحو نصف مليون فدان من الأطيان التى تخرست بالحلفاء وبغيرها من الحشائش الطفيلية كالشوك والسعدان، ويصح فى هذه الأراضى الصعيدية شجر التوت الذى يتغذى به دود القز، لأن الصعيد ينبت الجميز فى كل ناحية من نواحيه، فيفلح فيه التوت، ولا يخشى على دود القز فيه من التلف لقلة الأمطار والعواصف المتلفة لدود القز فى بلاد أمريقه، ويمكن فى مصر وقايتها والتحفظ عليها من هبوب الرياح الجنوبية المريسية بغرس الأشجار الملطفة لتلك الرياح.

وفى أودية الفيوم تنتج أغنام المارينوس ذوات الصوف الموصوف، وتحسن للغاية، لجودة مرعاها، فبذلك يتحصل فى مصر الأصواف الجيدة، وتتخذ منها

المنسوجات الظريفة، والمشغولات اللطيفة. ولا مانع من تخصيص اصطبلات عظيمة فى جزء من إقليم الفيوم وفى جانب من مديرية الشرقية لتحسين جنس الخيول، فإن توليد الكحائل العربية وجياد الخيول الدنقلاوية للتجنيس على الخيول المصرية ينشأ عنها أصناف جيدة متجنسة تعتبر من الأصائل، وكذلك إذا بلغت ترعة السويس المرام، بوصلة النيل المبارك بالبحر الأحمر، فإن مزاياه لا تحصى ولا تحصر، وإذا سهلت المواصلة بين قنا والقصير[1] للأخذ والإعطاء بتجديد منازل خانات للمأكل، وببناء صهاريج تمتلئ من الأمطار الشتائية بقدر لوازم المسافرين وإحتياجاتهم، فإن فوائد هذه التجديدات تكون مما لا مزيد عليه لرواج المخالطات والمعاملات، وكذلك إذا صار العريش الذى بين مصر والشام مركزا للتجارات والبضائع، وتأكدت المعارضات والمبادلات والأخذ والعطاء بين الأقاليم المصرية والشامية، فإن القوافل تنقل محصولات القطرين من أحدهما إلى الآخر مدة الفصل الذى يخشى فيه على السفن السير فى البحر، ولا يؤمن عليها فيه أن ترسى بلا خطر فى ميناء دمياط، فيكون سفر التجارة فى البر آمن، ولهذا يلزم إنشاء ترعة ما بين مينتى الإسكندرية لمن لا يريد التجارة فى البر، فبإنشائها يسهل عبور السفن وخروجها من الأقطار الشامية. وإذا غرست الأشجار فى صعيد مصر فإنها تحفظ القطر المصرى من ريح السموم، وتقيه من وخامة الهواء المسموم، لأن الأشجار العالية الجافة متى غرست فى الجهات المجاورة للبرارى والصحارى وَقَتْ المزارع من التلف، وحفظت الأهالى من الأمراض الناشئة فى الغالب عن هبوب هذه الرياح المسمومة المضرة. فإذا حصل ذلك كله توفر فى قطر مصر الخير والبركة فى محصولاتها، وتواجد فيها من المؤونة والمعونة قوت أهلها، فيفيض فيها ما يكفى لقوت أهالى جنوب أوروبا، ويمكنها أيضا أن يغتذى بها من مراعيها ما ينيف عن خمسمائة ألف من الإبل، ومائتى ألف من الخيل، وأربعمائة ألف من الحمير والبغال، وأربعة ملايين من الأبقار والجواميس، وعشرة ملايين من الضأن والمعز، وإذا اتخذ فيها نحو

---

(١) على البحر الأحمر.

ثمانمائة معمل لترقيد البيض وإخراج الدجاج نتج من ذلك خمسة وعشرون مليونا من الدجاج، وهذا كله ينتج الغنى والثروة مع ما يتجدد بها من العلاقات التجارية والتواصل بالمعاملات الاستمرارية بينها وبين جميع المدن التى على البحر المالح من بلاد الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب وبلاد الحبشة، ويكثر تردد السفن منها بطريق السويس والقصير على المينات العربية والحبشية، كما تصير موردا لذلك. وكذلك إذا زالت موانع الأوبئة والمضار من الجهات الجنوبية، فإن قوافل داخل بلاد أفريقية تتردد إلى ديار مصر بمتاجرهم ليستعيضوها بمحصولات فبريقات أوروبا الواردة إلى مصر، وبواسطة ما فى مصر من الأمنية والمساعدة للأجانب والأغراب، ترسل جميع البلاد إليها الرسائل التجارية لإطمئنانهم على نجاح مقاصدهم وفلاح مراصدهم، فاذا اتصفت مصر بهذه الصفات وصفت أحوالها هرع إليها كل فريق، وحج إليها الناس من كل فج عميق، فبهذا يعمر المكان وتكثر السكان، وبتجدد البركة يكثر العمل وتنبسط الحركة، فيستدعى حال المدن الأصلية تكثير المدارس العمومية والكتبخانات الأهلية المشتملة على جميع العلوم والفنون لتنوير عقول ذوى المعارف، ويكثر العلماء والمتفننون، وتنتشر على آفاق مصر أنوار المعارف الخارجية، وأسرار اللطائف الإنسانية، لا سيما وأن أبناء مصر أرباب قرائح ذكية، وحافظتهم قوية، متى قصدوا شيئا تعلموه فى أقرب وقت وزمان، وكم قام على قابليتهم واستعدادهم لعظائم الأمور أعظم برهان.

ثم إن تغير حالة مصر إلى حالة مستحسنة لا يستدعى من الزمن عشرين سنة، لأن تربتها طيبة ومزارعها مخصبة وواديها سعيد، وبها ينمو الحيوان والنبات فى أقرب وقت ويزيد. تنبت الأطفال فيها نباتا حسنا، ويترعرعون فى أقرب وقت وتنمو أبدانهم نماء مستحسنا، والنوع الإنسانى فى مصر يتعود على لطافة الأخلاق، وانتظام المعيشة والاقتصاد فيها وعدم التكليف بما لا يطاق.

والغالب على أهلها أن تبقى قواهم العقلية إلى آخر أعمارهم بدون أن يحصل فيها خسافة، وإذا بلغ الإنسان منهم سن الهرم فلا يتكلم بكلام خرافة.

قال صاحب هذه الملحوظات: «لا شك أن ما ذكرته من التحسينات فى شأن المملكة المصرية يقع - معظمه موقع التحقيق لو دامت هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية». أنتهى.

ونحن نقول: من القواعد الأساسية، أن علة الضم الجنسية..

نعم بيننا جنسية الود والصفا ولكننى لم ألفها علة الضم

فكلامه مبنى على شبهة واهية، وهى أن مصر يسوغ أن تحصلها فرانسا وأى مملكة تكون لها مضاهية، فاعتقاد ذلك من الإيغال المدهى، أو من باب التشهيات الفاسدة، وإنما يقتل النفوس التشهى [تشطير البيت المشهور].

جاء شقيق عارضا رمحه صوب بنى عم يروم الكفاح

قيل أما تخشى انكسار القنا إن بنى عمك فيهم رماح

وفى الحقيقة فأغلب ما ذكره صاحب الملحوظات، وعليه عول، فقد قام بأغلبه جنتمكان، الذى كان هو المجدد الأول، وقام بالتتميم والتكميل خلفه النبيل..

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

ولو سامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

ونقول هنا أيضا: إن علة الضم الجنسية، فإن بنى إسماعيل مستعربة، ولا يتعجب من هذا ولا يجهله غير غبى * الله أكبر كل الحسن فى العرب * وسنذكر فى (الفصل الثالث) ما يفيد أن هذه الملحوظات لم يعزب منها مثقال ذرة على المرحوم محمد على:

فإن تك أفنته الليالى فأوشكت فإن له ذكرا سيفنى اللياليا

بل ولا على خلفائه من بعده، لا سيما الحفيد المفيد الذى لا زال القطر المصرى يكتسب فى أيامه من معالى الأمور ويستفيد، فالمجددان الأمجدان أخرجا المنافع العمومية فى مصر من حيز العدم إلى حيز الوجدان:

وللمكارم أعلام تعلمنا مدح الجزيلين من يأس ومن كرم

وللعلا ألسن تثنى محامدها على الحميدين من فعل ومن شيم

وراية الشرف البزاخ ترفعها يد الرفيفين من مجد ومن همم

الفصل الثالث

فى بيان بلوغ المنافع العمومية بالديار المصرية درجة ارتقاء جلية فى عهده الحكومة الحالية مع بعض ملحوظات بهية

يفهم من الملحوظات المذكورة فى (الفصل الثانى) أن بمصر من البور الصالح ما ينيف عن مليون فدان، وأنه ينبغى إصلاحها والانتفاع بها، وأنه ينبغى، فى القطر المصرى تجديد المروج المدبرة، يعنى المراعى، كالبرسيم الحجازى ونحوه، وأنه ينبغى، لا سيما بالصعيد، غرس أشجار التوت وتربية دود القز، وتعميم ذلك فى بلاد الصالحة له بالأقاليم البحرية، وتحسين أحوال الأرز، وعمل طواحين الهواء لتبييضه وتنظيفه، والإكثار من غرس القطن، وإصلاح أراضى الفيوم بزرع الأصناف كالكتان والنيلة والقطن، والإكثار من قصب السكر فى الأقاليم التى ينمو فيها، كأراضى المنية وملوى، وغرس شجرة البن فى مساحة عظيمة من أرض الصعيد، وتربية أغنام المارينوس الأندلسية فى الفيوم، وتحسين أجناس الخيل وتوليد الخيول المصرية من الخيول العربية الأصائل، وعمل اصطبلات لذلك بالفيوم والشرقية، وتوصيل البحرين الأحمر والأبيض لتسهيل الأسفار، واتخاذ العريش مركزا لتجارة مصر والشام، وغرس الأشجار العالية بالصعيد لمنع الريح السموم، ولتسهيل ورود القوافل من داخل أفريقة إلى مصر لاتساع التجارة.

فهذا مضمون ما أشار إليه صاحب الملحوظات، كما يعلم ذلك من مطالعة الفصل السابق، ولا يخفى على الخبير بأحوال مصر الآن أن كثيرا من ذلك قد كان ،

بحسب الإمكان، فى أيام المرحوم محمد على جنتمكان، لا سيما فى أيام من أعتنى من بعده، ووفى لعمار المملكة المصرية بالشروط والأركان، فأما ما يتعلق بالبور المذكور، فقد انتظم من أيام المرحوم محمد على إلى وقتنا هذا فى مسلك المعمور، إما بالإقطاع والتمليك لقصد الإصلاح، وإما بالضريبة أو التأجير للفلاح وغير الفلاح، ومن وقت الحكومة الإسماعيلية صار إحياء ثلثمائة ألف فدان من الموات، حتى قل أن توجد من غير المنزرع إلا أطيان جزئية فى محال عالية أو كالحواجر التى انحسر عنها النيل، ولم يبق من البور إلا القليل.

وأما تجديد المراعى المدبرة فقد تجدد شىء من البرسيم الحجازى فى الدوائر والأواسى المعتبرة، إلا أن مصر تزرع البرسيم المعتاد فى فصله بكثرة للتشميه، ثم عقب الصيف يكثر فيها المراعى بعد الحصيد مجانا، ولكثرة علفها اليابس لها عن المروج المدبرة مندوحة.

[زراعة القطن]

وأما زراعة القطن فتحتاج إلى زيادة بسط الكلام والتوفية بالمرام، لأنها من أنفع المواد للديار المصرية، لدخولها قديما وحديثا فى المصانع البلدية، ومع أن أرباب زراعتها بمصر بأرياف مصر لهم خبرة تامة بغرسها ومباشرتها، فلا بأس بذكر بعض مسائل تتعلق بذلك مما هو جار فى شأن زراعة القطن فى البلاد الأجنبية، ليكون به كمال المعلومية، فنقول: إن شجرة القطن تنجح بالقرب من سواحل البحار والأنهار، وفى داخل البلاد بالبعد عن السواحل أيضا، ولا يضرها الهواء الرطب متى كانت درجة الحرارة كافية، بخلاف ما إذا كان الهواء رطبا والزمن باردا، ولا يصلح لشجرة القطن البلاد الكثيرة الأمطار المتعاقبة، لا سيما فى ابتداء غرسها وفى زمن تزهيرها وفى زمن جنيها، فإن المطر فى زمن غرسها يوجب العفونة للبذر، وفى زمن تزهيرها تسقط الأزهار، وفى زمن جنيها يقتضى تأخير المحصول ووساخة القطن والإضرار بما يجنى، وأما إذا كانت الأمطار غير متعاقبة،

بل متباعدة المسافات، فإنها تنفع لنمو أغصان هذه الشجرة وكبر حجمها وجودة جنس القطن.

ويجب أن تغرس أشجار القطن فى جهات متباعدة عن الأورمان والغابات، وأن تكون بحيث لا يمنع ظل الجبل والتلول تمكنها من أشعة الشمس، لأن سيقانها لا تجد شيئا تخترقه وتنمو فيه، ويصلح لغرس شجرة القطن الأراضى الرملية الدقيقة الرمل المشوبة بالطفل أو بالجير، فنموها فى هذه الأراضى، وإن لم يكن شديد القوة، لكن كثير المحصول الجيد الصنف وسريع الإستواء، وقد ينجح غرس القطن فى الأراضى المتوسطة الخصوبة التى يتعسر فيها نجاح غيره من الزروع. والحاصل أن تمام نجاح غرس القطن ونموه يكون فى الأراضى المحتوية على الرمال الدقيقة السهلة الحرث، القليلة الرطوبة، وإنما ينبغى الاعتناء بإصلاح الأرض قبل البذر فيها، وينبغى التفطن إلى أن ساق شجرة القطن لا بد أن يدخل فى الأرض ثمان عشرة بوصة، يعنى أصبعا لا أقل من ذلك، وأنها لا بد لسيقانها من التعريش والامتداد، فالأرض الصلبة الكثيفة الصعبة لا تليق لها، ولا يدرك الزارع التعميق والتجنب إلا بمعرفة درجة العمق المطلوب لوصول الساق فى الأرض، ومقدار مسافة البعد المطلوب بين ساق كل عود مع العود المجاور له، أما معرفة العمق فيسهل الوصول إليه بحرث الأرض، والتعمق فيها بقيمة ثمان عشرة بوصة إلى عشرين بوصة، وأما معرفة قدر مد الساق من الفراغ لتعريشه فهى تابعة لطبيعة الأراضى، والمعتاد فوات الفراغ بين الخطوط بقدر سبعة أشبار ونصف فى الأراضى الضعيفة وثلاثة عشر وأربعة عشر شبرا فى الأراضى الخصبة القوية، فينبغى للزارع أن ينتخب محلا مخصوصا ويغرس به جملة أشجار بعضها متقارب وبعضها متباعد فالأنجح يتبعه.

وينبغى الابتداء بحرث الأرض، وإزالة ما بها من آثار النباتات الطفيلية والحشائش، وأن يشق جوفها بالمحراث أو بالعزق، إلا أن العزق ينفع فى الأراضى المنفصلة الأجزاء، دون السمينة القوية، وبعد الحرث والعزق يرتبها حفرا وشقوقا ونقرا، ويتركها عرضة للشمس والهواء مدة من الزمن، مع تنقية ما فيها من

الأحجار، ثم يردها بالثانى باعادة كمية الطين الذى أخذ من جوفها بعد أن يخلطه بالسبخ، ولا يترك مكشوفا فيها بوصة واحدة، ويضع فى الجزء المكشوف تقاوى القطن بالوجه اللائق، وفى كل نقرة يضع من البذر ثلاثة أو أربعة أو خمسة، ثم يتمم ردم النقرة بباقى الطين الذى خرج منها، ويجعل ارتفاع سطح النقرة مساويا لارتفاع مسطح الأرض المجاورة لها، لئلا تكون مخزنا للمياه التى تعفن البذر، ويلزم أن تردم جميع النقر التى وضع فيها البذر فى يوم حفرها خوفا من إتلافها بنزول المطر أو نحوه، وينبغى أن تكون أشجار القطن متباعدة عن بعضها لتمكن الهواء والضوء منها، وينبغى بعد حرث الأرض لزراعة القطن أن تمر فوقها الآلة الهراسة لتكسير قطع الطين الكبيرة وفكها، ومن أهم الأمور انتخاب التقاوى بأن تكون كاملة النضج سليمة خلية عن العيوب، مأخوذة من أثمار الأشجار القوية النمو، وإلا كان محصولها ضعيفا وخسيسا وخليا عن الجودة، ولذلك ينبغى للزارع البارع أن ينتخب قطعة أرض فى جهة من الجهات المعتدلة الهواء، ويزرعها من الأشجار الشديدة القوية، ويعدها للتقاوى فينتخب منها ما يكون متكاملا فى الحب ثقيلا فى الجرم ولا يخلطه بغيره من الحبوب، ثم يبذر منه فى الأرض، ومن محصوله بالخصوص إلى أن يظهر له انتقاص المحصول فى الكمية والجودة فيتدارك غيره أو أعظم منه من التقاوى، فقد صح بتكرار التجارب أن تكرار زراعة الصنف الواحد فى الأرض نفسها يعتريه على مدى السنين تناقص فى الجرم والجودة، فالارجح لمصلحة أرباب الزراعة القطنية استبدال تقاوى أراضيهم بتقاوى الجهات المجاورة لهم(*)، أو جلب تقاوى أجنبية من الخارج، وعلامة الخسية فى تقاوى القطن أن يكون مفتوح اللون عظيم الجرم، وأن يكون غلافه محتويا على نقط بيضاء، وأن يعوم على وجه الماء، وعلامة الجيد أن يكون صلبا ثقيل الوزن، والغالب عند أرباب الزراعة أن التقاوى تكون قديمة من محصول السنة الماضية، وهناك عادة مطروقة فى بعض البلاد وهى خدمة التقاوى لانفصال

(*) كان الأولى فى هذا السياق أن يقال: (. . . استبدال تفادى الجهات المجاورة لهم بتقاوى أراضيهم). لأن الباء تدخل على المتروك. (الشروق).

الحبوب من بعضها وتفريقها من الألياف القطنية المشتبكة بها، وطريقة ذلك وضع التقاوى فى الماء عدة ساعات ومزجها بعد بالرمل أو الرماد أو الطين المسوس، ثم دعكها فيما بعد بعضها فوق بعض بالأيدى أو بالأرجل، وبعض الناس يغمسها فى الماء اثنتى عشرة ساعة لقصد تعجيل إنباتها، ويحسن إستعمال هذه الطريقة فى الأراضى اليابسة القليلة الرطوبة، وأنفع من ذلك لتكثير المحصول غمس التقاوى فى الماء الممزوج بهباب المداخن أو برجيع معاصر الزيوت، فإنه يقيها أذى الحشرات الأرضية كالدود.

ومن المعلوم عند أرباب الزراعة أن الأرض المتكونة من طرح البحار والأنهر الغزيرة الطمى غنية عن التسبيخ، ومثلها فى ذلك الأراضى البور التى صار إصلاحها قريبا، وأما ما عدا ذلك من الأراضى فلا يستغنى عن التسبيخ، وبيان ذلك أن القطعة من(*) الأرض يمكن للزارع خدمتها وغرسها قطنا والاستحصال منها على ما يشاء من المحصول بشرط أن يكون تسبيخها حسب اللزوم، وأن يكون سبخها موافقا لطبعها، وأن يوضع فيها من السبخ القدر اللازم على قدر الحاجة، فوضع السبخ بالقدر اللازم والجودة المطلوبة متعلق بمعرفة الزارع وبطبيعة الأرض، وأهل الصين هم الذين يحسنون زراعة القطن ويجبدون تسبيخ أراضيهم، إلاّ أن إستعمال التسبيخ بروث المواشى والخيول قليل جدا عندهم، لعدم اعتنائهم بتربية الحيوانات، فلهذا يقوون الأرض بطين الأنهر والخلجان والوديان والبرك، وبأنواع الرماد، ورجيع عصر الزيوت، وبالفضلات الإنسانية، إلاّ أنهم يفضلون الرماد على غيره، خصوصا رماد القصب والخيزران والحشائش الطبيعية وأوراق الأشجار، ويحترسون على(1) تجميع الأجزاء الصغيرة من أجزاء قطنهم ومن جزورها وأوراقها ولوزها وعيدانها، فيحرقونها وينشرونها فى الأرض المعدة لزراعة القطن قبيل غرسه، وقد صار الآن رجيع عصير الزيوت مستعملا فى أوروبا لتسبيخ المزروعات، ولا يفرط أهل الصين فى شىء أصلا من الفضلات

---

(1) أي: يحرصون.

(*) إضافة يقتضيها السياف. (الشروق).

الإنسانية، فيدخلونها فى إنبات البقول على الإطلاق لتقوية الإنباب، وفى جميع البلدان يستعان بها مائعة أو يابسة على تقوية المزروعات، بخلاف أهل الصين فإنهم ينتفعون بها فى زراعة القطن من وجهين: الأول: طرحها فى النقر مختلطة بكمية كافية من الماء لسقى الأرض منها، الثانى: أنهم يخلطونها خلطا جيدا بجانب من الطفل أو من طين المزارع، ويصنعون من ذلك أكرا صغيرة، وينشفونها فى الشمس، ثم يسحقونها فى وقت الطلب وينثرونها على سطح الأرض المقتضى زراعتها، وقد يستعمل فى بلاد الصين التسبيخ بالجير لإصلاح أراضى القطن، كما يستعمل ذلك فى بلاد أوروبا، وهذه الطريقة نافعة لزرع القطن إذا كانت أرض القطن خالية من المادة الجيرية.

وزمن بذر القطن يكون تارة مقدما وتارة مؤخرا بحسب ما يوافق مزاج القطر وطبيعة الأرض، ومع ذلك فهو دائما قبل دخول الشتاء بشهرين أو بثلاثة فى البلاد الباردة الثلجية والبلاد الحارة القليلة الرطوبة، وينبغى بذر التقاوى فى الأراضى حين وجود درجة الحرارة المطلوبة، فإن بذرت قبل ذلك لا تنبت ويصير تعفين البذر، وينبغى أن يكون رمى البذر فى يوم الصحو، ولا يجوز أن يكون فى زمن نزول الأمطار الكثيرة، فإنه يترتب على ذلك تعفن البذر أيضا.

ومن الواجب أن يحافظ المزارعون فى كل عام على أكثر مما يلزم لهم من التقاوى لكى يمكنهم إعادة الغرس مرة أخرى، فالمزارع المتبصر بالعواقب يحرص دائما على قدر التقاوى مرتين فأكثر.

ينبغى تعهد مزرعة القطن بالتنظيف وإزالة ما ينبت فيها من الحشائش الطفيلية والنباتات الأجنبية، وخلعها إما بالأيدى وإما بالآلات، وكذلك يجب الاعتناء بعملية تقليمها تقليما جزئيا أو كليا، وينبغى الاعتناء بها فى زمن بدو أزهارها وإثمارها والاعتناء بكيفية سقيها.

وبيان ذلك أنه متى شوهد أن الحشائش الأجنبية زاحمت عيدان شجرة القطن النابتة يجب عزق الأرض وتنظيفها من الحشائش، وقد جرت العادة أن أبذار شجرة القطن تخرج من الأرض بعد مضى أسبوع من بذرها إذا كانت الأرض

محتوية على درجة الليونة اللازمة، وكان الحر شديدا، ومع ذلك فقد يتقدم الإنبات أو يتأخر عدة أيام بحسب ما يقتضيه مزاج القطر وطبيعة الأرض، وتكون تنقية الحشائش فى المرة الأولى متى بلغت عيدان القطن أربع إبهامات أو خمسة أو ستة، يعنى متى مضى شهر كامل تقريبا بعد البذر، وإنما يلزم الاحتراس من إتلاف العيدان الصغيرة المستورة بالحشائش، والأحسن إستعمال اليد فى قلعها أو بالمنجل المقور، وكذلك ينبغى فى عزق الأرض الاهتمام بقلع عيدان القطن الضعيفة وإبقاء القوية للتخفيف، مع الإحتراس من أن لا تتزحزح العيدان الباقية عن مكانها ولا تتلف جذوره، ومن الواجب لتثبيت الجذور وتمكينها بعد خلع العيدان الضعيفة أن يصير دك الأرض بالرجل فى جميع أجزاء الغيط، وهذه العملية تكون فى التنقية الثانية، يعنى متى بلغت العيدان فى الإرتفاع ثمانية عشر أصبعا، ويقال لهذه العملية عملية الدور الثانى.

وأما الدور الثالث فيكون فى وقت دخول زمن التزهير، ولا يجب عمليات إذا نبتت الأزهار وظهرت لأنه يخشى فى ذلك الوقت من سقوط شىء من الأزهار بعملية العزق والتنقية، فإن المزرعة إذا حسنت تنقيتها قبل دخول التزهير فإن العيدان تكون فى هذا الأوان مظلة على ما تحتها من الأرض فلا تضرها النباتات الأجنبية، ومع ذلك فمن اللازم أن تكون الأرض دائما بالتلطيف نظيفة نقية خلية من الحشائش الأجنبية، بحيث لا يصير إبقاءالحشائش الأجنبية حتى تنمو وتظهر، ويلزم أنه لا يمس قشر جذوع أشجار القطن جرم أجنبى، فيلزم لهذا عزق الأرض وتنظيفها ثلاث مرات فأزيد فى العام الواحد، خصوصا فى مزارع القطن التى تزرع بالسقى، لأنها فى العادة تكثر بها الحشائش الأجنبية، فيجب تعهد هذه الحشائش بالقلع وإبعادها خارج المزرعة.

ويكون تزهير شجرة القطن بعد إنباتها على سطح الأرض بنحو خمسة أشهر، بل بما دون ذلك فى الأقطار الحارة، وبأزيد من ذلك فى الأقطار الباردة، وكذلك بدو ثمرتها قد يتقدم أو يتأخر حسب مزاج طبيعة القطر وسن الأشجار، ولا مانع من ابتداء جنى القطن فى آخر الشهر الخامس أو السادس، وتقل العمليات المقتضى

إجراؤها فى أثناء زمن التزهير إلى إستواء الأثمار، وربما انحصرت جميع العمليات فى تقليم الفروع الميتة، ويجب على الزارع الماهر أن يستيقظ بين مسافة التزهير والإنبات لحفظ الشجرة ووقايتها مما يعتريها من الآفات.

وأما سقى شجرة القطن بالبلاد الحارة اليابسة فهى أعظم ما يعين على إنبات النباتات، فإن الماء أقوى الأسباب الموجبة لإحياء الأرض وخصوبتها، وبدون إعطاء الأرض حقها فى السقى لا تجدى ولا تثمر ولو توفرت الشروط الأخرى، فسقى الأرض فى الأوقات اللازمة عليه نجاح زرع القطن، فلا تستغنى أشجار القطن عن أخذ حقها من الماء، خصوصا فى الأقاليم الحارة المتمكنة منها أشعة الشمس المحرقة، وينبغى أن يحترس فى السقى أن لا يكون زيادة عن المقنن.

فقد ظهر بالتجاريب الصحيحة أن سقى القطن إذا زاد عن المقنن ينقص جودة جنس القطن، وسواء كان ذلك فى زمن حرث الأرض أو بذر التقاوى، فينبغى أن يكون تقسيم المياه وتوزيعها بحسب الحاجة.

ثم إن السقى للأراضى القطنية وريها قد يكون لازما قبل دخول زمن البذر، وتارة يكون عقب إتمامه، والأرجح أن لا يصير سقى الأراضى المبذورة إلا بعد البذار بخمسة عشر يوما، أو بعد تخفيف الأرض من أعواد القطن الضعيفة، ما لم تكن المزرعة كثيرة اليبوسة فإنه ينبغى الإهتمام بسقيها عند مجرد الإنبات، وقد يعتنى فى بعض البلاد برى الحفر المعدة لبذر القطن وتركها مدة من الزمن حتى تنشف قبل وضع التقاوى فيها.

ولا يمكن تحديد زمن لسقى الأرض، ولا تقدير كمية الماء الذى يسقى به، بل هذا موكول لمهارة الزارع حيث يراعى ما يوافق مزاج قطر بلده وطبيعة أرضه، حيث إن الأرض المرملة المتشققة تسقى أكثر من الأرض الطينية المتكاثفة التى من طبيعتها الرطوبة، وكذا إذا كان القطر حارا يابسا قليل الأمطار يلزم تواتر السقى، ما لم يكن معتادا بكثرة الندى، لأن نفع الندى فى كثير من البلاد مثل نفع الأمطار، ولذلك كثيرا ما تنجح شجرة القطن وغيرها من النباتات فى الأراضى الشديدة الحرارة المعدومة الأمطار.

وأما إذا صار تسبيخ أرض القطن فلا بد من سقيها وفيض الماء فوقها، ولا مانع من أستمرار السقى كل خمسة عشر يوما مرة إن كان كل من الأرض ومزاج القطر صالحا لذلك، وهذا فى غير زمن الإثمار، وبعضهم يقول: إن السقى غير لازم من ابتداء التزهير، ويرجع ذلك لأن الشجرة فى زمن تزهيرها موجود بها ما يكفيها من الفواعل المعينة على تغذيتها، لا سيما وأن ساقها مغطى بما يظلله من الفروع والأوراق التى من عادتها تجديد الرطوبة المساعدة على تنضيج الإثمار وبلوغها حد الكمال.

[شجر التوت ودود القز]

وأما غرس شجرة التوت وتربية دود القز بالديار المصرية فيحتاج أيضا إلى بعض أطناب، فنقول: إن من المعلوم أن التوت مألوف الغرس عند العرب، ويسمى «الفرصاد»، قال ابن وحشية[1] صاحب الزراعة: «التوت أنواع يخالف بعضها بعضا فى الطعم والطبع، وفيه ألوان، فمنه الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والأغبر، وكذلك طعمه فيه الحلو والمر والتفه[*]، وأكثر ما يتخذ غرسا وتحويلا، وأجود ما ينبت منه ما أكله بعض الطيور الموجودة فى البساتين وزرقه، لأن بزر التوت لا ينهضم فى معد الحيوانات كلها، فالطير يأكله ويزرقه على شطوط الأنهار وتحت سقوط مجارى الأمطار، فينبت نباتا جيدا، لأنه إذا وقع إلى الأرض من جوف الطائر وقع وزبله معه فينبت بسرعة، والطيور التى تحب لقط ثمر التوت كثيرا هى الفواخت والوراشين والعصافير والغربان، وهذا النبات يوافقه الماء موافقة كثيرة، وليس له زبل يختص به، بل جميع الأزبال على إختلافها موافقة له، ويحتاج إلى التسبيخ مرتين فى السنة، وقد ينبت فى البرارى بنفسه ويعظم فيها، إلا

(١) من الصابئة الذين لمعوا في ظل الدولة العباسية، وإليه نسب ابن النديم في (الفهرست) كتاب (الفلاحة النبطية).

(*) التفة: ما لا طعم له. (الشروق).

أنه إذا نبت بقرب المياه وعلى أطراف الأنهار كان أجود، ويوافقه ريح الجنوب، وتلقحه لقاحا حسنا، وهو يمد عرقه إلى أسفل الأرض كالكمثرى، وغرسه فى أول شباط وإلى آخر آذار[1]، وتغرس أصوله بعروقها وقضبانها. انتهى كلام ابن وحشية.

وقال ابن بصال: وجه العمل فى غرسه أن تحفر له حفر رقيقة، ثم يغرس كما يغرس التين، ومن الناس من يغرسه كما يغرس الرمان أوتارا وإذا نبتت عروقه حول.

قال أحمد بن وحشية: التوت أعز الأشجار، لأن دود القز لا يأكل إلا منه، ومنافعه كثيرة جدا. وقد قال المعتصم العباسى لعمال البلاد: «استكثروا من شجر التوت، فإن شعبها حطب، وثمرها رطب، وورقها ذهب». انتهى. قال الشاعر فى ثمر التوت:

ومختضبات من نجيع دمائها إذا حبست من بكرة الغدوات

تكاد بأن تطفى إذا ما لمستها فأرحمها من سائر الثمرات

ولما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على المملكة المصرية، بتقدمها فى طريق التمدنات العصرية، وفد على مصر كل وافد وقصدها كل قاصد، ممن له نصيب فى المعلومات الصناعية، والمنافع التجارية، والزراعية، رجاء أن يجد فى مصر نصيبه فى الغنيمة، وأن يروج صناعته بأنفس قيمة، فكان ممن حضر من بلاد فرانسا شخص يسمى «ألفونس غوطيه»، من أرباب الزراعة، يتشبث بفلاحة غرس التوت وتربية دود القز واستخراج إبرازه، المسماة بالشنارق، وطرق حلجه وتصفيته وتنظيفه وكيفية غزله. وهذا الوافد كغيره من الوفود الأغراب إنما حضر إلى مصر رجاء أن يجد فيها نصيبه من الربح، بجولان النظر فيما يبديه من التعريفات لتنمية هذه المنفعة، فهو متشبث بالتجريبات والعمليات من منذ ستة أشهر، يجتهد كل الاجتهاد فى تجاريبه العديدة، وهو الآن مشغول بتجربة ذلك فى الجزيرة، بأمر عزيز مصر الجالب لها الفوائد الغزيرة، ويقال إنه كان قد نجح

---

(١) شباط هو فبراير، وآذار هو مارس.

أيضا فى تربية دود القز بالأقاليم البحرية، وظهر له أن استخراج الحرير من غرس شجر التوت وتربية دود القز واستخراج الحرير منه يزيد فى عمارية مصر وفى مصانعها وثروتها.

ونص عبارته فيما كتبه فى هذا المعنى: «قد كان محصول القطن فى العهد القريب بغية تجار مصر وزراعها، وكان الاشتغال به مستوليا على عقولهم وجل مرامهم وأقوى غرامهم، وأغلبهم يحبس رأس ماله عليه، ولا تميل نفسه إلا إليه، ولم يخطر ببال أحد منهم أن يميل إلى غرس التوت، ولا تنبه للاستحصال على الحرير، ولا استيقظ لما يترتب عليه من المنافع العمومية المهمة، مع أنه أيضا منبع الغنى والثروة، والظاهر أنه لم يعزب ذلك من عقول المتقدمين منهم، وإنما لم تساعدهم الأوقات والأحوال ولا أعانهم على ذلك ولاة الأمور فى الأزمان السابقة، والآن قد حان أوان الوعظ باتخاذه، ولعل الوعظ فيه يقرع الأسماع ويؤثر فى النفوس الزكية المحرصة على جميع أنواع الانتفاع، ولا أنفع لمصر من غرس التوت لتحصيل الحرير، فإنه ينشأ عن ذلك الخير الجزيل والغنى الغزير، فإن غنى مصر يكون فى المستقبل بدون الاستحصال على الحرير ضيق الدائرة، كما يكون كذلك بدون القطن، فإن زراعة شجر التوت القزى لم يأخذ من أراضى مصر إلا الأماكن الخالية الآن عن الغرس، فإذا انضمت من الآن فصاعدا زراعة هذا الصنف إلى زراعة القطن على طريقة حسنة فلا ينقص ذلك من أراضى مصر شيئا، ولا ينقص كمية زراعة القطن.

فبهذه الطريقة الجامعة بين الزراعتين يزيد غنى أهالى مصر عما كانوا عليه قبل كساد القطن عقب صلح أمريقة[1]، ولا شك أن كل عاقل يتمنى شدة الاعتناء بغرس التوت، بقدر اعتناء الحكومة بتنمية القطن، لإدراكه احتياج الصناعات إلى الأقطان، فكذلك المنافع العظمى تستدعى نمو الحرير لرواجه، فإن مصانع فرانسا

(١) الإشارة هنا إلى الأزمة المالية التي حدثت بمصر عندما عجزت عن تصرف محصول القطن الذي كانت تستورده ولايات أمريكا الشمالية أثناء حربها مع الولايات الجنوبية التي تزرع القطن، وهي الحرب التي دامت من سنة ١٨٦١م حتى سنة ١٨٦٥م، وبعد انتهاء هذه الحرب الأهلية عاد قطن الجنوب الأمريكي ليحل محل القطن المصري في الشمال الأمريكي، فحدثت الأزمة في مصر.

الآن فى أشد الاحتياج إلى الحرير، وهو مطلوب أيضا لمصانع إيطاليا وإسبانيا، نعم إن بلاد يابونيا[1] والصين والهند والدولة العثمانية مجلوب منها هذا الفرع التجارى الصناعى، إلا أنه لا يفى بحاجة الصناعة لعموم الجهات، وحيث إن الأقاليم المصرية مملكة مستجدة بالنسبة للصنائع الحالية، ومتشبهة بالحصول على درجة الكمال، فاستخراج الحرير فيها يكون من صالح المصالح، فإذا غرست فيها أعواد التوت الصغيرة فلا تمكث مدة إلا تجمد وتعلو، إذ ليس من الشجر ما يقوى على الشموخ مثل شجر التوت، ولا من البلاد التى فى دائرة البحر الأبيض الرومى من له هذه المنقبة مثل مصر، ففيها يكثر ويسعف جميع الجهات، فإن الحرير الآن فى سائر البلدان متجاوز الحد فى الأثمان، فلا يقدم على شرائه إلا أصحاب الأموال الجسيمة، وهم الأغنياء المفرطون فى جمع الأموال، فهم يغتنمون فرصة احتكار زراعته أو الاستيلاء عليه، فلا يكادون يخرجونه إلا بأثمان غالية لقلته، فتكثير فى بلاد الدنيا لا يكون إلا بواسطة الحكومة المصرية، حيث مواقعها الطبيعية أصلح المواقع لزراعته، إذ ما فيها من التوت العجوز يتحصل منه حالا بواسطة التربية والخدمة أجود ما يكون من الحرير، فإذا صار تقليمه بمعرفة أهل الصناعة بالطريقة اللازمة زاد محصوله وسهل اجتناء ثمره، ثم تغرس عيدان التوت الشابة، بترتيب لطيف، فيتحصل منها أوراق ظريفة، مع حسن الاقتصاد فى الصنايعية المستخدمين لذلك.

فإذا صار فى الأقاليم المصرية الابتداء بخدمة الحرير الكثير المحصول على هذا الوجه فى الأقاليم البحرية، فإنه يصير كثير الأرباح جدا، ولا يضر فى الزراعات الأخرى، فإن غرس أشجار التوت يكون علاوة على غيره من الزراعات حيث يغرس على حافات الترع والخلجان العديدة، وعلى الطرق الكبيرة والصغيرة، العمومية والخصوصية، وعلى حدود الشفالك والأواسى، والأراضى المملوكة والأترية، وعلى الجسور وأسوار المدن والقرى والكفور، لتكون أشجارهم مظلة حول القرى والغيطان والكروم والبساتين وهى أعظم ما يكون فى الوقاية من حر الشمس.

(١) اليابان.

فإذا تم غرس هذا الصنف، على هذا الوجه، فإنه يكون فى آن واحد ابتداء مغروسات سريعة الإنبات بديعة المحصول، ولا يخفى أن مديرية البحيرة واسعة الأراضى المسطوحة، فإذا غرست شطوط ترعها بأشجار التوت كان لها منظر الظرافة والثروة، وتعد من المتنزهات الخلائية، يستظل الفلاح تحتها وقت الاستراحة، ويستريح المسافر عندها وأرباب السياحة، وتحجب الرياح الشديدة الهبوب وتلطفها، وتمنع شدة مضرتها وحدة أذاها، لا سيما فى أيام القيظ وحرارة الخمسين، وتنفع أيضا هندمة الطرق المدبرة لتحسين حصيد جوز الحرير، فإنه ينمو فيها الغرس فتكونتربية الدود تربية متوالية، وأجود من تربيته فى أوروبا، إذ ثمر دود القز يخرج أربع مرات فى السنة، كما يحصد فى بلاد الصين والهند ويابونيا وفى مملكة برمان[1]، وكما أن مصر صالحة لدود القز استخراجا بزراعة التوت فهى صالحة لحلجه وتنظيفه وغزله وصناعته أكثر من غيرها، فينجح فيها كل النجاح، إذ يتحصل منه أصناف جيدة منتظمة بهيجة النعومة واللون والقوة والتمدد واللين، مستكملة لجميع ما تستدعيه جودة هذا الصنف، بخلاف الحرير فى أوروبا فلا يعطى الا محصولا واحدا، فإن شهور فصل الشتاء طويلة الليالى، كثيرة الرطوبة، موجبة لاستخراج الحرير من جوزته، فتحتاج إلى كثرة المصاريف للاحتراس والتدارك.

وكذلك فصل تربية الدود غير موافق فى تلك البلاد، فأن الدود يضعف بواسطة ندى الربيع، ويضر بالأوراق الشابة المتجددة فى أوان توليدها للحرير وفقسها له، فبهذا تكون التربية بطيئة، فيقاسى الدود مدة ما يقاسى من التعب، ثم يتغير الربيع بالصيف(*) فينضج الدود بغتة وفجأة فتنشف الأوراق وتحترق فتخيب التربية ولا يحصل المقصود منها، بل يعترى الدود أسباب الأمراض، فلا تصادف التربية محلا فى الغالب ببلاد أوروبا. وأما فى بلاد الهند والصين ويابونيا فلا يمنع الحر من تربية

---

(١) بورما.

(*) كان الأولى فى هذا السياق أن يقال: (ثم يتغير بالربيع الصيف) لأن الباء تدخل على المتروك. (الشروق).

دود القز، بل له فيها منفعة، فإذا احتاج الحال إلى ترطيبه وتعديله فإن ذلك يحصل برش المعامل، بحسن التدبير، وأما زمن البرد والصقيع الذى يقع فى أوروبا فى فصول البرد ولو(*) فى الربيع والخريف فلا يمكن مداواة نزول الصقيع على أوراق الشجر النضرة المتجددة، فيكون الصقيع فيها من أسباب مرض الدود فليس له علاج أبدا.

فمن هذا يفهم أن مصر صالحة جدا لتربية دود القز، ولا يساويها فى الصلاحية لذلك غيرها من البلدان، فبها يحصل الغنى والثروة، زراعة وشغلا، فإن زراعة التوت متى نتجت، ونتجت التربية والاستحواذ على جوز الحرير، ترتب على ذلك نتاج المصانع والمشغولات الحريرية، إذ ليس فى إقليم مصر مانع يمنع من ذلك كله لاعتدال إقليمها ووجود الحرارة الملائمة للتربية بها، واستواء الحرارة فى فصل الربيع، الذى هو عبارة عن «برمهات» و «برمودة» و «بشنش»، فهذه الشهور الثلاثة تكفى لتربية دود القز، فهى صالحة له من جهة مزاج القطر وموافقة أيضا لدود القز من جهة أخرى، وهى مواظبة أهلها على أشغال الزراعة والفلاحة وعلى أشغال التربية والجنى والحصد، فإن لين أعضاء الأولاد والبنات يوافق شغل الحرير، إذ شغل الحرير يحتاج إلى شيئين وهما: خفة الأيدى والتعود على الحر، وأبناء مصر متوفر فيهم ذلك كله، بخلاف أوروبا، فوجب أن تكون مصر مثرية فى المواد الحريرية الأولية، غرسا وتربية، وأن لا تجلب حريرها من الخارج، وأن تشتغل المشغولات الحريرية الدقيقة والغليظة بنفسها فى مصانعها، وأن تتخلص من ربقة شراء الحرير من البلاد الأجنبية بالأثمان الغالية، فإنها إلى الآن تصرف الأموال الجسيمة على الاستحصال على الحرير، فيجب عليها أن توسع دائرة محصولاتها وتجارتها، فإذا وصلت إلى أقصى درجات جهدها فى تربية دود القز اتسعت دائرتها فى غزله وفتلة سريعا، وفى صناعة نسج الحرير ومشغولاته، فتأخذ من حرير بلادها مقدار ما يكفى لحاجتها، وما زاد على الحاجة من الخام

(*) الأفضل أن يقال «أو» ولعلها هو كذلك فعلا ولكنها حُرِّفت أو صُحِّفت. (الشروق).

والمشغول تنفذه إلى البلاد الأجنبية ليباع فيها بالملايين من الأموال، وهذا خير من أن تبقى على حالتها الأصلية، فاقدة لهذه المزية، مقتصرة على اشتراء الحرير المصنوع أو غيره من البلاد الأجنبية.

فمن أمعن النظر وأنعم الفكر فى تربية دود القز بالديار المصرية، ظهر له بالحساب الصحيح مقادير الأرباح الجسيمة التى تكتسبها مصر من هذا الصنف، فإن صناعة الحرير لم تزل إلى الأن فى ديار مصر قليلة التقدم بالنسبة لغيرها من الممالك، فبالطريقة السابقة تتقدم تقدما عظيما، بحيث تعم سائر الجهات المصرية، وتمتد بأطرافها وأكنافها، لأن العمدة فى مشغولات الحرير وأقمشته على صبغته ولونه، ومياه النيل المبارك تساعد كل المساعدة على حسن الصبغة واللون، مما به تتزين المشغولات الداخل فيها الحرير، كالمناديل والمحارم والملابس، فجميع مشغولات الحرير تبلغ الدرجة العالية فى عدة من السنين، بشرط أن يحصل التشويق من الحكومة المصرية للحرير كالتشويق الحاصل الآن لزراعة القطن، حيث اتسعت دائرة مزارعه، بعناية الحكومة، كما هو ظاهر للعيان، وغنى عن الدليل والبرهان». هذا ما أبداه «موسيو فونس غوطية» المومى إليه فى هذا الفصل بصريح قوله.

[الأرز]

ومن المعلوم أن ملحوظه فى محله، وإنما فيما سلف كان قد شرع فى تربية دود القز جنتمكان المرحوم محمد على، وحصل من ذلك النفع الجلى، ولا زالت إلى الآن تربية دود القز فى حيز الموجودات، وإنما هى مقصورة على بعض جهات فى المديريات، فإذا حصل التعميم، كان بالنسبة لتقدم صنائع الوطن معدودا من النفع العميم، وأما ما أشار إليه صاحب الملحوظات المذكورة من تحسين زراعة الأرز فلا يجهل إنسان أن زراعة الأرز فى الأقاليم البحرية ملتفت إليها كل الالتفات، ولها خصائص ومزايا، بمعافاة زراعها من كثير من العمليات، وإنه قد تجدد فى أكثر

دوائرها للتنظيف والتبييض كثير من الوابورات، وقد صح بالإجماع والاتفاق على أن أرز مصر أجود من غيره على الأطلاق، فأرز «عين البنت» أجود من أرز أمريقة وأرز إيطاليا الخارج من أرض البنادقة، وهذا الرأى لا ينافى ما قضى به قضاة المعرض الباريسى من الحكم بالأولوية والامتيازية لصنف أرز إيطاليا، لأن مطمح نظرهم فيه إنما كان للون، فإنه أشد أنواع الأرز بياضا، فهو بهذا المعنى يعجب الناظر أكثر من أرز مصر.

[قصب السكر]

وأما أرز مصر فهو، وإن كان دون ما ذكر فى اللون، إلاّ أنه شتان ما بينهما فى الطعم، فلا يفوقه فى طعمه صنف من أصناف أرز الدنيا، لا سيما نموه بالنضج نموا وافرا، فهو أخص أوصافه، وأما ما أشار إليه المؤلف المذكور من غرس قصب السكر فى مديرية المنية لصلاحيتها له فهذا أمر معتنى به من أيام المرحوم محمد على كمال الاعتناء، وأعظم من اعتنى بغرسه والإكثار منه واستخراج أنواع العسل والسكر مما يكفى القطر المصرى هو المرحوم إبراهيم باشا، فإنه عمم زراعته فى شفالكه التى بغير الصعيد وبالصعيد بمديرية المنية أو غيرها، حتى نافست مصانعه السكرية مصانع الإفرنج، وهو أول من جدد الوابورات لسقى ذلك وصناعته، وجلب القصب الجمايكى، حتى انحطت بمصر أثمان السكر، وقد كان الأورباويون يتغالون فى أثمانه كل المغالاة، وتبعه فى ذلك كثير من دوائر الذوات وأوسيات الأهالى، حتى كاد لا يخلو منه قسم من الأقسام المصرية، لكثرة أرباحه، ثم لما آلت الدوائر الإبراهيمية، أى أغلبها، لنجله الخديو الأعظم اتسعت مصانعها وكثرت وابوراتها، وعظم محصولها، حتى كادت تجارة أوروبا فى السكر أن تكون كاسدة فى القطر المصرى، خصوصا وسكر مصر لا يفوقه فى الجودة والحلاوة غيره، وأما ما أشار إليه من غرس شجر البن فى الصعيد، وأنه يمكن أن يخصص لغرسه مقدار جسيم من الأراضى

فالظاهر أن الحكومة لم تعتن بذلك، لأنه سبق تجربته وأنه لا يبلغ فى الجودة درجة البن اليمنى، بل يكون دونه بكثير، نهاية الحال أنه يصير كالبن الخارج من جزيرة فرانسا وغيرها المسمى بالبن الإفرنجى، وهو قليل الرواج بالديار المصرية وغيرها من البلاد، حتى أنه على كثرته فى بلاد السودان المصرية، ورخص ثمنه، لا يعتنى أحد بجلبه إلى الديار المصرية، لأن شرب القهوة بديار مصر وغيرها بالبلاد الإسلامية إنما هو من قبيل «الكيف» والتلذذ بالنكهة، كشرب الدخان، وقل من يستعمل القهوة ممزوجة باللبن وحده أو مع البيض للأكل بالخبز كما يستعمله أهل أوروبا بكثرة، فيقنعون بأى بن كان، على أن أكثر تجار مصر يتجرون فى البن اليمنى، ولهم فيه عملاء وشركاء، فهو من أهم التجارات اليمنية، فالمقصود الأعظم الذى هو الربح حاصل بذلك، فعلى فرض غرس شجرة البن بمصر وفلاحها، تكون عديمة النكهة كالدخان البلدى بالنسبة للجبلى والصورى، وكالتنباك البلدى بالنسبة للعجمى والحجازى، وعلى كل حال فليست الحاجة ماسة لغرس شجر البن فى مصر، بل ربما عد من الأمور النافلة، لأن ما ينبغى تجديده هنا من المحسنات إن لم يكن عظيم الجودة أو تدعو إليه الحاجة فالتشبث به ليس تحته عظيم طائل.

[تربية الأغنام]

وأما ما ذكره صاحب الملحوظات من تربية أغنام المارينوس فى الفيوم فرأيه فيه أدق من رأيه فى غرس شجرة القهوة، فتربية المارينوس محض منفعة لا محض شهوة، إذ القهوة محض كيف، ولهذا أنكر على متعاطيها بعضهم، وهو الخطيب غير القزوينى والشربينى، ورد عليه بعضهم بقوله:

قهوة البن حرمت	**فاحتسوا قهوة الزبيب**
ثم طيبوا وعربدوا	**واصفعوا لى قفا الخطيب**

(وقال آخر)

قـــهـــوة الـبن حـــرمـت　　فـــاشـــربوا قـــهـــوة العـنب

ثـم قـــومـــوا وعـــربـدوا　　واصـفـــعـوا مـن هو الســبب

وقال بعضهم فى مدحها :

قم واسقنى قهوة بنية فضحت　　بنت الدخان وشنف لى الفناجينا

من كف ظبى رشيق القد ذى حور　　نادته عشاقه يا ألف ناجينا

تدعو إلى نحو ما فيه البقاء ولو　　دعت إلى نحو ما فيه الفناجينا

لو أن ألف أمرئ طافوا بساحتها　　راموا النجاة وجدت الألف ناجينا

ثم إن أغنام المارينوس، المقصودة بالتربية، هى الأغنام الأندلسية، ذوات الصوف الناعم، والصوف من حيث هو فى جميع بلاد الدنيا، قديما وحديثا، مرغوب حتى أنه يعتبر من أول عمر الدنيا ومن تاريخ الخليقة لأنه يتخذ للصناعة والنسج، فلا شك أنه معلوم الصنعة فى الأزمان الأولية، فهو قرين الفلاحة التى هى معلومة قبل الطوفان، ولم تعطلها حادثة الطوفان ولا أبطلتها، فقد دلت (التوراة) على أن نوحا عليه السلام لما نجا من الطوفان بسفينته اشتغل بحراثة الأرض وعلم أولاده الناجين معه ما كان يعرفه فى أصول الزراعة، وقد ذكر قدماء المؤرخين أن العراقيين والكنعانيين والمصريين اشتغلوا بالفلاحة من الأزمان القديمة والأعصر الخالية، حتى أن المصريين كانوا يعتقدون أن أول مخترع للزراعة أسلافهم، وزعم أهل الصين أن لهم الأسبقية فى ذلك قبل غيرهم، وأن أول رؤساء ملتهم هو الذى اخترع علم الفلاحة، والمحقق بالأخذ من التواريخ الصحيحة الجامعة بين الأقوال المختلفة أن قدماء الأمم لاضطرارهم إلى القوت والمؤونة كل منهم اخترع علم الفلاحة وبرع فيه، ومن أقاليمهم التى لها الأسبقية فى مزية الاختراع انتقلت الزراعة إلى غيرهم بالتدريج، وأن جميع الأمم أجمعوا على أن الزراعة أمر مهم، وادركوا أنه علم نفيس، ولا يقتدر على ابتداعه، من حيث كونه علما، إلا أرباب العقول الذكية، فنسبوا اختراع علم

الفلاحة لأكابر عقلائهم، وفى كتب اليونان ما يفيد أنهم تعلموا الزراعة من مصر، وقال الرومانيون إن هذا العلم وصل إلى بلادهم، يعنى إلى إيطاليا، من اليونان ومن مصر. نعم من المحقق أن أهل الصين يعتنون بزراعة الأرض ويجتهدون فى تكميل علم الفلاحة، ومما يدل على ذلك أن لهم عيدا مشهورا فى كل سنة بمدينة «تونكين»، وهو يوم مشهود يحضر محفله ملك الصين بموكب عظيم مع أعيان دولته، فيأخذ الملك المحراث ويحرث قطعة من الأرض بنفسه، وينتهى هذا الموسم بوليمة عظيمة على طرف[1] الملك، وهذا اليوم معدود عند أهل الصين من أيام المواسم والأفراح الأهلية، وفى محفل هذا اليوم لا يدور على ألسنة الجم الغفير والجموع المتكاثرة من المحادثة والمذاكرة غير المسامرات المتعلقة بخصوص الزراعة، وأنها أم النعم وزينة الأمم، وجميع أهل الزراعة من مبادى أمرهم يعتنون بتربية المواشى، لا سيما الغنم، وبطرائق تحسين حالها ونتاجها، فكانت الغنم فى الأزمان السالفة أصل ثروة سكان المعمورة، حتى أن الرومانيين كانوا يعدونها فرعا من الفلاحة لكونها ألزم الأشياء لطريق التعيش، وكانوا يتخذون المعاملة من جلود الغنم، يطبعونها بطابع السكة، وقد مكثت الغنم البيض مدة نحو ستمائة سنة فى بلاد الرومانيين يحسنون تربيتها وتنميتها ولا يهملون فيها حتى أنهم رتبوا مأمورين للتفتيش عليها، فكانوا لا يعدونها للذبح، بل أصوافها البيضاء معدة للصناعة، ومن أهمل فى تربية الماشية على العموم، وتنمية الغنم على الخصوص، عاقبوه بدفع المغارم الجسيمة، ومن أحسن تربية ذلك وتنميته كافأوه بالجوائز السنية وشوقوه بالتحف البهية والإنعامات، لا سيما من جلب من الخارج من ذوات الأصواف الجيدة إلى موطنه حيوانات للتوليد، وكان الرومانيون ينسجون من هذه الأصواف جميع الملابس المختلفة والأمتعة، المتنوعة، كالجارى الآن عند المتأخرين من الأمم، فكانوا يبحثون مع غاية الاعتناء عن الأصواف النفيسة الجامعة بين الطول والنعومة واللين، كالصوف الأنجورى وكصوف نابلى وأثينا وملطية وسيواس، وكلها أصواف ممدوحة، ولم يكن فى

---

(١) أي على حساب الملك ونفقته.

ذلك الوقت يتخذ من الأصواف اليونانية فى التجارة إلاّ أصواف خشنة لا تصلح للمصانع إلاّ بالتنظيف، ما عدا أصواف أثينا، فإن أصواف أغنامها تضاهى أصواف أغنام أسبانيا المسماة بالمارينوس، مع النعومة التى تجددت فى الأزمان الأخيرة، فهذه الأغنام الأندلسية إنتقلت فيما بعد إلى بلاد الإنكليز والفلمنك، فأتقنت هذه الدول تربية هذا الصنف، وزادت كمية محصوله بتربيته، حتى إن ولاية إسبانيا كانت فى ابتداء أمرها يتحصل فى خزينة مملكتها من مغنم الأصواف الجيدة ما ينف عن ثلاثين مليونا من الريالات، ثم إن ملك الإنكليز المسمى «إدوارد الرابع»[1] جلب من بلاد إسبانيا بإذن ملكها ثلاثة آلاف رأس من الغنم البيضاء إلى مملكة الإنكليز، فمن هذا الوقت انفتح منبع جديد للثروة والغنى والسعادة المالية لخزينة المملكة والتجارات الملية.

وفى القرن السابق الهجرى ورد من بلاد الهند الشرقى إلى بلاد الفلمنك صنف من الغنم من ذكور وإناث عالى القامة مستطيل البدن غزير الصوف، فاجتهد أهل الفلمنك بتربيته وتعويده على مزاج إقليمهم، فنجح فيها كل النجاح، حتى إن أناثى هذه الأغنام كانت تلد فى السنة الواحدة أربع أغنام، وصوف الرأس الواحد يزن من عشرة أرطال إلى ستة رطلا، فمثل هذه الأغنام تنجح ولو فى البلاد الباردة، مثل مملكة أسوج، فإنها اعتنت بتربية أغنام المارينوس وأمثالها، وغلبت على الموانع القطرية كبرودة الإقليم، بحيث إن هذه المملكة كانت تجلب قبل ذلك أصوافها من إسبانيا والفلمنك، والآن استغنت عن ذلك، فما ظنك بالخديوية الجليلة المصرية التى أقاليمها معتدلة ملائمة لتربية الأغنام فى الفيوم وغير الفيوم، فإن النجاح فيها محقق لا محالة، فمن جد وجد، فإن مملكة فرانسا كان أهاليها فى الأزمان القريبة يشترون غزل الأصواف بالأموال الجسيمة جدا، فكانوا يدفعون للبلاد الأجنبية فى الثمن هذه المبالغ الثقيلة كالجزية والخراج، فلما تقدمت حركة الصناعة من منذ نحو السبعين سنة استشعرت بما يلحقها من العار فى ذلك، لا

(١) وهو ابن ريتشارد دوق يورك (١٤٤٢ ـ ١٤٨٣م)، تُوِّج ملكا (١٤٦١ ـ ٧٠) بواسطة حروب وصراعات، ثم استقر له الأمر حتى وفاته سنة ١٤٨٣م.

سيما وأنها بهذه الحالة لا تستطيع مصانعها أن تساوى مصانع غيرها من الإنكليز والفلمنك ونحوها، فتعلقت آمالها أن تجتهد فى تقديم صناعتها لتفوق على غيرها، فانتهى الأمر بنجاحها فى تجهيز الأصواف حيث شرعت أن تدخل فى بلادها الدواليب والآلات اللازمة لحلج الصوف وغزله، فشوقت من يستجلب من الأهالى هذه الدواليب لتنظيف الصوف وغزله، فكثر فى فرانسا أرباب الصناعات والبراعات ممن يحسن عمل هذه الدواليب.

فبهذه الوسيلة تقدمت الصنائع الآلية فى بلادهم، وكثرت المكافآت من جمعية التشويقات الأهلية حيث إن هذه الجمعية الأهلية خصصت ثلاثة آلاف فرنك لكل من يخترع دولابا لغزل الصوف، فاخترع بعضهم دولابا لذلك وأخذ المكافأة، وكثر الاختراع للدواليب التنظيفية بهذا التشويق، فوجود أغنام المارينوس وحدها فى البلاد لا يكفى ولا يتم الأنتفاع إلا بالدواليب المذكورة، فإن صوف المارينوس كان موجودا فى فرانسا من عدة أجيال، وكان يساوى فى النعومة والجودة مارينوس إسبانيا، ولم يتم الانتفاع به إلا باختراع الدواليب.

ومن المجرب عند الفرنساوية أن غنم المارينوس كلما طالت مدتها فى البلاد وتربت أغنامها وتطبعت بالتوليد لا يزال يأخذ صوفها فى النعومة، وينجح النجاح التام فى مصانع الجوخ العال، والمدار على حسن تعهده بالتنظيف والتصفية، فإن ذلك يزيد فى قيمته، ولم يكن بفرانسا من حيضان تنظيف الصوف إلا حوض واحد، فالآن كثرت حيضان التنظيف حول باريس، فلعل يوما من الأيام تدرك الديار المصرية مناها فى اغتنام فرصة الاقتناء والاعتناء بتحصيل مزايا هذه الأغنام، ثم إن مزية أصواف هذه الأغنام المارينوسية ليست منحصرة فى النعومة والامتداد، بل من جملة جودتها طول قرون أصوافها، فكلما طالت كثرت فيها الرغبات، وكان الناس يعتقدون أن الأغنام تتناقص جودة أصوافها للجز كل سنة، وأن كل جزة من سنة سابقة أجود من اللاحقة، وأن الأصواف إذا بقيت على الضأن عدة سنوات لا ينمو صوفها نماء يكون كفؤا لجزها عدة مرات، فجرب ذلك بالامتحان عدة من أعضاء الجمعية الزراعية الفرنساوية، بأن أبقوا قطيعا من الغنم ثلاث

سنوات بدون جز، لتظهر النتيجة، فلم يجدوا تناقصا فى الكم والكيف، بل رأوا أن أصوافها قد اكتسبت طولا متساويا ودقة متساوية، ووجدوها ناعمة الملمس كما لو كانوا جزوها على مرار عديدة، وظهر من هذه التجربة تجديد فرع للصناعة، وهو تطويل الصوف بعدم جزه، وتفويت أوانه مدة، ليدخل فى مصانع أخرى تحتاج إليه، ومن هذا اخترعوا صنفا من الجوخ الشهير المسمى «بالكزمير»، فأكثروا من اصطناعه وتحسينه وقدموه فى أحد المعارض العمومية بفرانسا، فاستحسن الجميع جودة صناعته لعلو مرتبته وحسن أصوافه بحيث صار يضاهى بالكلية مشغولات «الكزمير» الإنكليزية.

وقد تبين أيضا بالملاحظة أن الغنم التى لم تجز مدة طويلة، وتبقى هذه المدة بقصد طول أصوافها، لا يوثر فيها تأثيرا ظاهرا ثقل الصوف على أبدانها، وهذا بخلاف ما تعتقده العامة. وقد أطلنا الكلام فى الأصواف، وحسبك فيها الآية الشريفة وهى قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ (النحل: ٨٠) ومن المعلوم أن البيوت التى يسكن الإنسان فيها على قسمين: أحدهما: البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التى بها يمكن تسقيف البيوت، وإليها الإشارة بقوله ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا** ﴾ وهو ما يسكن إليه الإنسان أو يسكن فيه، وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله، بل الإنسان ينتقل إليه، والقسم الثانى: القباب والخيام والفساطيط، وإليها الإشارة بقوله ﴿ **وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ** ﴾ وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله، والمراد بها الأنطاع، يعنى البسط المتخذة من الجلد، وما يعم البيوت منه مما تستعمله العرب وغيرهم من أهل البوادى. والمعنى يخف عليكم حملها فى أسفاركم وفى إقامتكم، أى لا يثقل عليكم فى الحالين، وقوله تعالى ﴿ **وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا** ﴾ قال المفسرون: الأصواف للضأن، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز. قوله تعالى ﴿ **أَثَاثًا** ﴾ الأثاث أنواع متاع البيت من الفرش

والأكسية، وقد يعم الثياب والكسوة، وقوله تعالى ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى ما تتمتعون به إلى يوم القيامة. وأستقرب بعض المفسرين أن المراد بالأثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء[*]، وبالمتاع ما يفرش فى المنازل ويزين به، فقد ذكر الله تعالى الأصواف وما بعدها فى معرض النعم العظيمة التى يجب شكرها، فيجب الاعتناء على اختلافها فى جميع أطراف وأكناف الممالك المصرية، بعناية الحكومة الخديوية، وهم أهل الأراضى الزراعية، لتعميم المنافع الأهلية، فإن مصر المتشبثة الآن بأن يكون لها فى الصنائع والفنون قدم رسوخ، لا ينبغى أن تيأس من تجديد مصانع الجوخ، فكم من أشياء لا يخطر إنشاؤها بالبال، ويظن أن تحصيلها من قبيل المحال، وعند انقضاء الأوقات وتعلق الآمال، يتم الحصول عليها بأسهل طريق وأتم منوال.

وأما تنبيه صاحب الملحوظات على وفود قوافل داخل إفريقية إلى الديار المصرية، واستعاضتها بضائعها بمشغولات مصر وأوروبا وخلاصة صنائعها، فهو فى محله، وقد جرى مفعول هذه الملحوظة على أصول مصونة محفوظة، فتجار «دارفور» و «برنو» ونحوهما تحضر فى ميعادها، وتأتى بسائر بضائعها على حسب معتادها، ومن جهة «سنار» والبحر الأبيض[1] تحضر التجار بسن الفيل والصموغ وريش النعام وغيرها، وإنما أهل أقاليم «تنبكتو» وهى بلاد «التكرور» لا يحضرون إلاّ لقضاء الحج، وكذلك «الفلاتة» السودانية يمرون بمصر لسفر الحجاز، وما ذاك إلا لبعد المسافة لا لقلة أمن الطريق أو وجود مخافة، فالتجارات فى داخل إفريقية الحقيقية تتسير بعد تخطيط المسالك الطرقية، وهى لا تتسير إلا بحركة عجيبة من الحكومة المصرية، واستكشافات جليلة عصرية، وانتجاعات من قبائل إسلامية متمدنة، وتوقيفات لأهالى تلك البلاد على وسائل التمدن المستحسنة، وإن شئت فقل إن حسن تمامها إنما يكون بنوع من الفتوحات والتشبث بعماريتها وإدخال ما يلزم لها من الإصلاحات حتى يصير جنوب إفريقية كالأقاليم الجنوبية بقسم أمريقه،

---

(١) المراد النيل الأبيض، أحد روافد النيل بالسودان.

(*) الوطاء: المهاد (أى الفرش) الوطيء. (الشروق).

فإن كان من السابق فى علم الله تعالى أن يكون لمصر فيه قوة التنجيز (فما ذلك على الله بعزيز).

فكم من صغير أسعفته عناية   من الله فاحتاجات إليه الأكابر

وكم خامل جاءت إليه إشارة   من الله فانحازت إليه الأشائر

فمن هذا نجد أن ملحوظات (الفصل الثانى) التى سبقت إليها الإشارة قد أجريت بتداول الأيام (وما الدهر إلا تارة بعد تارة).

فكلما خطر بالبال أمر خطير من الأعمال الصالحة يحتاج إلى حسن التدبير، كان الوطن معانا عليه من المولى القدير فالمقاصد الخيرية ميسرة الوسائل قريبة المشارع عذبة المناهل، وحق على الأمير الطالب للمعالى أن يتغالى فى المطلوب ويتعالى فى مدارج العلا بأجمل أسلوب، ويبرز فى مظهر البلاغة نظام بيت ملكه المشيد، حتى يظهر فى نظم سلوك الملوك بيت القصيد، ومن أحسن من ولاة الأمور سلوك أقوم سنن، تأيد بحسن نيته فى ميدان الانتصار على مشروعه الحسن، إن ينصركم الله فلا غالب لكم

ملك الملوك إذا وهب   لا تسألن عن السبب

الله يعطى من يشا   ء فقف على حد الأدب

يحكى أن إسكندر الأكبر تشكلت له ثلاث معان فى جلباب الجمال وثياب المهابة والإجلال، فأول شكل دخل فى حلل الحسن والبهاء، والشمائل التى يزهو بها، فأخذ بقلبه ولبه، فأحله منه بقربه، ثم سأله من أنت؟ فقال: أنا المال، فقال الإسكندر: لولا أنك ميال! ثم دخل عليه الشكل الثانى يرفل فى حلل الوقار والمعانى فأدناه منه ثم سأله: من أنت؟ فقال: أنا العقل، فقال: لولا أنك فى بعض الأحوال عقال! ثم دخل عليه الشكل الثالث تزفه الغانيات بالمثالب(*)، وقد

(*) كان يُحسن فى هذا السياق أن يقال: (تزفه الغانيات بالمناقب) لا (بالمثالب) لأن هذه الأخيرة جمع (مثلبة) وهى العيب، أما (المناقب) فهى جمع (منقبة) وتعنى: الفعل الكريم. (الشروق).

أشرقت بجماله وجوه المطالب، وانجلت بإقباله ظلم الغياهب، فقام له على قدميه وقبَّل ما بين عينيه، ثم قال: من الزائر، أيها البهى الزاهر؟ فقال: أنا السعد: فقال: أشهد أنك عناية الحق، وميزان اختبار الخلق، فالويل لمن جهل حقوق إقبالك عليه، ويا سعادة من وفى حق الخلافة إذا سلمت إليه! ثم عاهده على أن يكون من أعوانه، وعلى وفق ما يقتضيه حكم ميزانه. والحمد لله الذى جعل نعمة مصر فى المزيد ليزداد الشكر والمحبة لوليها الذى أجريت النعمة على يديه، إذ هو السبب الأصلى الحامل على ذلك والدال عليه، والمائل بالطبع إليه، وستأتى الإشارة إلى ما يجدد من المحاسن الحالية فى (الفصل الرابع) من هذا الباب.

الفصل الرابع

(فى أسعاد الحاكم للبلاد والعباد)

ليس من ملوك مصر من تفتخر به الأهالى مثل افتخارهم بالخديو الأكرم، حيث إنه تأسس فى أيامه قواعد عدلية لا تحصى ومآثر منافعها جليلة لا تستقصى، ولو لم يكن له من المآثر إلاّ كونه حمل الأهالى على أن يستنيبوا عنهم نوابا ذوى فكرة ألمعية، ليتذاكروا فى شأن مصالحهم المرعية، لكفاه شرفا ومجدا وعزا وسعدا، حيث صار مستوليا على أمة حرة الرأى باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لأجلهم، كما أن له الفخار فى أنه لا يضيع حقوقهم حيث جعله الله أمينا عليها، فبهذه الوسيلة القوية يتمكن من أداء ما وجب عليه فى حق الرعايا مع كونه يتمدح بالحكم على رعايا أحرار يتمتعون بحقوقهم ويحظون بمزاياها، وبهذا أيضا يكون على يقين من التسلطن المعنوى على النفوس والأرواح، وأن يدرك بمساعدتهم إياه، فقل أن تخلع الرعايا خلعه محبتها القلبية ومودتها الإخلاصية على حاكمها مجانا، فالعاقل من لا يحب أو يبغض إلاّ بسبب من الأسباب، وقد تقدم غير مرة أن غنى مصر ورأس مالها الحقيقى إنما هو متكون بالأصالة من زراعتها، وبالتبعة من تجارتها فى محصولات الزراعة، مع ما يتبع الزراعة من تنمية المواشى وتكثيرها، لا سيما مايعين على الحرث وتنمية النبات كالبقر الذى هو لخاصة مصر قديما وحديثا أنفع بهيمة الأنعام وأجل غنيمة الأنعام، بدليل أن البلاد تذوق مرارة المضرة فى السنة التى يذوق فيها هذا النوع كأس الحمام، ولولا إلهام أهلها التبصر عند حلول مثل هذه المصيبة الفظيعة لحزنوا جميعا فى سنة نفق المواشى بالوباء ولا حزن «أبى بكر بن

قريعة» حيث نفق له ثور أبيض وجلس على العزاء عليه ترافعا وتحامقا، حتى أن أبا «إسحق الصابئى» كتب إليه يعزيه على هذا المفقود عن لسان «أبى لعبة» فى أيام وزارته فقال: «التعزية على المفقود دائما تكون بحسب محله من فاقده، من غير أن تراعى قيمته ولا قدره ولا ذاته ولا عينه، إذا كان الغرض منها تبريد الغلة وإخماد اللوعة وتسكين الزفرة وتنفيس الكربة، قرب ولد عاق وأخ ذى شقاق، وذى رحم أصبح لها قاطعا، وقريب قوم قلدهم عارا، وناط بهم شنارا، فلا لوم فى ترك التعزية عنه، وأحرى بها أن تكون تهنئة بالراحة منه، ورب مال صامت غير ناطق قد كان به مستظهرا، وله مستثمرا فالفجيعة به إذا فقد موضوعة موضعها، والتعزية عنه واقعة منه موقعها، وبلغنى أن القاضى أصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكيا، وأجهش عليه باكيا، وللندم مواليا، وحكيت عنه حكايات فى التأبين له، وإقامة الندبة عليه، وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التى تفرقت فى غيره واجتمعت فيه وحده، فصار كما قال «أبو نواس»[1] فى مثله من الناس.

وليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

لأنه يكرب الأرض معمورة، ويثيرها مزروعة، ويدور فى الدواليب ساقيا، وفى الأرجاء طاحنا، ويحمل الغلات مستقلا، والأثقال مستخفاة، ةفلا يؤده عظيم ولا يعجزه جسيم، ولا يجرى فى الحائط مع شقيقه، ولا فى الطريق مع رفيقه إلا كان جلدا لا يسبق، ومبرزا لا يلحق، وفائتا لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته، ويشهد الله أن ما ساءه ساءنى، وما آلمه آلمنى، ولم يجز عندى فى حق المودة استصغار خطب جل عنده فأرمضه وأرقه، وأمرضه وأقلقه، فكتب هذه الرقعة فأصابها من الحق فى مصابه هذا بقدر ما أظهر من إكثاره إياه وأبان من إعظامه له، وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر عن

---

(١) الحسن بن هانئ (٧٦٢ ـ ٨١٤م) علم على شعر الغزل والخمر في العصر العباسي، وأحد الأعلام الذين جددوا في الشعر من حيث المضمون، فعبروا عن الطابع الحضاري للمجتمع البغدادي في ذلك التاريخ.

البقر، وأن يفرد هذه البهيمة العجماء بأثرة من الثواب، تضيفها إلى المكلفين من الألباب، فإنها وإن لم تكن منهم فقد استحقت أن لا تفرد عنهم، بأن مس القاضى سببها وصار إليه منتسبها، حتى إذا أنجز الله ماوعد به من تمحيص سيئاتهم، وتضعيف حسناتهم، والإفضاء بهم إلى الجنة التى رضيها لهم دارا، وجعلها لجماعتهم قرارا، وأورد القاضى، أيده الله تعالى، موارد أهل النعيم، مع أهل الصراط المستقيم، جاء وثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به، وكما أن الجنة لا يدخلها الخبث، ولا يكون من أهلها الحدث، ولكنه عرق يجرى من أعراضهم، كذلك يجعل الله ثور القاضى مركبا من العنبر الشحرى، وماء الورد الجورى، فيكون له ثورا، وجونة عطر له طورا، وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر، ولا مستصعب ولا متعذر، إذا كانت قدرة الله بذلك محيطة، ومواعيده لأمثاله ضامنة، بما أعده الله فى الجنة لعباده الصادقين وأوليائه الصالحين من شهوات أنفسهم، وملاذ أعينهم، وليس ما منحه من غامر فضله فائض كرمه بمانع له من صالح مساعيه، ومحمود شيمه، وقلبى متعلق بمعرفة خبره، أدام الله عزه فيما أدرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من إيثار الأجر، ورفع إليه من السكون لأمر الله تعالى فى الذى طوقه، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكون ضاربا معه بسهم المساعدة عليه، وآخذا بقسط المشاركة فيه». فأجاب القاضى أبو بكر بقوله: «وصل توقيع سيدنا الوزير أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعماءه، وأكمل رفعته وعلاه، وحرس بهجته ومرقاه، بالتعزية عن الثور الأبيض، الذى كان للحرث مثيرا، والدواليب مديرا، وبالسبق إلى سائر المنافع شهيرا، وعلى شدائد الزمان مساعدا وظهيرا، لعمرك لقد كان بعمله ناهضا، ولحماقات البقر رافضا، أنى لنا بمثله وشرواه ولا شروى، فإنه من أعيان البقر، وأنفع أجناسه للبشر، مضاف ذلك إلى أخلاق لولا خوفى من تجدد الحزن عليه، وتهييج الجزع وانصرافه إليه، لعددتها، ليعلم - أدام الله عزه - أن الحزين عليه غير ملوم، وكيف يلام امرؤ فقد من ماله قطعة يجب فى مثلها الزكاة، ومن خدم معيشته بهيمة تعين على الصوم والصلاة، وقد احتذيت ما مثله الوزير من شمل الاحتساب، والصبر على المصاب، فإنا لله وإنا إليه راجعون، قول من علم أنه أملك لنفسه وماله

وأهله، وأنه لا يملك شيئا دونه، إذا كان جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، هو الملك الوهاب، المرتجع ما ارتجع مما يعوض عليه نفيس الثواب، وقد وجدت - أيد الله الوزير - للبقر خاصة فضيلة على سائر بهيمة الأنعام، تشهد بها العقول والأفهام».
ثم ذكر جملة من فضائله لا يحتاج إليها هنا. انتهى. وإنما نقول: إنه لا يتوجه على مثل هذا القاضى فى مصيبته ملامة لائم، فكيف والسعد فى طالع البهائم، ولهذا تقول العامة: إن الدنيا على قرن ثور، وقال الشاعر:

والدهر كالدولاب ليس يدور إلا بالبقر

وأما التعزية فلا بأس بها..

فلعمرى يحق لو كتبوها   بسواد العيون فوق المجرة

قال بعضهم: ومن موجبات الثروة، الهمة، والصنعة، فإن الهمم الموجبة لها فى المملكة يقال لها «القوة المحصلة»، وهى مختلفة فى الممالك، فبعض الممالك لا تكون ثروته أزيد من الأخرى، وذلك بنسبة تزايد القوة المحصلة لها ونقصها، والقوة المحصلة للثروة عبارة عن شيئين: سعى الإنسان، وموضوعه الأرض، فإذا نظر فى الهيئة الاجتماعية وجد أن الأرض فى جميع الأزمان على طبيعتها، وإنما اختلفت باختلاف الأطوار الحاصلة، كاختراع السفن البخارية والطرق الحديدية واستعمال السلوك البرقية المسماة «بالتلغراف» فى المخابرات، مما يخترعه الإنسان بواسطة توسيع دائرة العلوم والفنون، فيجعل الإنسان ما لا يمكن تحويله بطبيعته فى طرز آخر، وبالتأمل فى أحوال الأمم المختلفة والممالك الداخلة فى حوزة حكوماتها بعلم اختلاف الأمزجة والطباع من وجهين:

الأول: أن أهالى الممالك التى تحت المنطقة الحارة ليست مثل الممالك التى تحت المنطقة المستجمدة، كالبلاد التى بأطراف القطب، فى اللوازم الضرورية، فإن أهل المنطقة القطبية المتجمدة تفتقر إلى زيادة الملبس للتحفظ من تأثير البرد، بخلاف أهل المنطقة الحارة فهى بعكسها مفتقرة إلى ما يقيها من تأثير الحرارة والرطوبة، وبخلاف أهل المنطقتين المذكورتين أهالى المنطقة المعتدلة.

الثاني: أن طبيعة الأراضى والأقاليم ترشد الإنسان إلى وسائط متنوعة فى الصناعة، ونماء النبات والحيوان إنما يكون بالنسبة لأهوية المملكة الموجودة هى فيها، وبعض الممالك مشهور بكثرة الطيور والمراعى النضرة والمعادن، وبعضها ليس فيها شيء من أسباب الثروة الطبيعية بالكلية، ومن الممالك ما تسهل المخابرات فيه بكثرة الأنهار، ومنها ما تشق فيه لعدم ذلك، فالإنسان لا يمكنه محوها، وإنما بالقوة الصناعية العلمية يمكنه تحويل الحال إلى حالة أخرى، وحصول هذه الحالة واختراعها وبلوغها درجة كاملة كالتلغراف مثلا، إنما يكون بصرف المساعى والهمم، وكذا سائر الوسائل، كالسفن البخارية والطرق الحديدية وسائر المخترعات النافعة، فكلها من أعظم أركان القوة المحصلة، وتزايدها موقوف على ترقى الفنون والصنائع، وبعظم هذه القوة يرتقى بعض الأمم إلى درجة الثروة، ويضعفها تراجع الأخرى، فعمار المملكة موقوف على وصولها إلى الدرجة الكمالية. وذلك موقوف على إتساع الدائرة الصناعية، وهو موقوف على تتميم الصناعات الموروثة سلفا عن خلف، ونقل ما اخترع منها فى الممالك إلى البلاد التى ليست فيها هذه الاختراعات موقوف على صرف الهمة إليها والسعى، فالمدار فى استكمال الثروة على السعى.

[الصنائع تصرف عن الفتن]

وحيث كانت التجارة من منابع الثروة العظيمة، فلا شك أن صاحب الاشتغال بها، الباذل همته وسعية فيها، ذهنه مصروف إليها بالكلية، ففكر عادة ملهى عن الأفكار الباطلة التى يتسبب عنها هدم بنيان الأمة بالفتن والشرور، ومتى كانت التجارة متسعة فى مملكة تنصرف الهمم إلى التشبث بالأرباح الحقيقية، وتشتد الرغبات فى الأسباب والمسببات المكونة لاتساع رءوس الأموال، وفى تمكين القوة الصناعية بالقوى العلمية، من كل ما يسهل طرق المكاسب ويحولها إلى درجات كمالية، مما يهتم به الآن بالنظر لتقديم المنافع العمومية أصالة والمنافع السياسية تبعا.

وقد اختلفت هذه الأزمان الحديثة عما كان يجرى فى الأزمان القديمة من صرف المساعى والهمم فى تسهيل وسائل الدولة بالأصالة مما يكون لمنافع الرعية حاصلا غير مقصود، فقد دلت التواريخ على أن المخترعات الجديدة فى الدول المتأخرة لم تخل عن مقابل لها من بعض الوجوه فى الدول القديمة، كالطرق الحديدية والتلغراف ونحوها، فكان البريد وحمام الرسائل قائما مقامها فى مصالح الدولة، وكذلك هجن الثلج والمراكب المسفرة بالثلج فى البحر «لشر ابخانة» السلطنة المصرية، وكذلك المناور لاستطلاع أخبار العدو والاحتراس منه، والمحرقات للزروع والمراعى لقطع وجاء العدو المريد الإغارة على بلاد السلطنة، فجميع هذه إنما كانت منافع سلطانية كما سيعلم.

[البريد]

فقد كان البريد فى عهد الأكاسرة والقياصرة موجودا، وإنما أحواله مجهولة، وأول من وضع البريد فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان، رضى الله عنهما، حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على، كرم الله وجهه، وسلم إليه ابنه الحسن، وخلا من المنازع، فوضع البريد ليسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البرد، واتخذ لها بغالا بأكف كان عليها سفر البريد، ثم اتسع الأمر فى زمن عبد الملك بن مروان حين خلا وجهه من الخارجين عليه، كعمر بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير[١]، والمختار بن أبى عبيد[٢]، واستعمل البريد الوليد بن عبد الملك بعد أبيه، فكان يحمل عليه الفسيفسا، وهى

(١) شارك أخاه عبد الله بن الزبير الثورة على بني أمية، وتولي حكم العراق حتى انتزعه منه الحجاج بن يوسف في عهد عبد الملك بن مروان.

(٢) زعيم ثورة الشيعة الكيسانية بالعراق زمن استيلاء عبد الله بن الزبير على مكة، حارب الأمويين وحارب مصعب بن الزبير أيضا.

الفصوص المذهبة من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة والقدس الشريف، ثم لم يزل البريد قائما والعمل عليه دائما حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينتقض، ولحيلها أن ينتكب، فانقطع ما بين خراسان والعراق لانصراف الوجوه إلى الدعوة القائمة للدولة العباسية، ودام الأمر على هذا حتى انقرضت أيام مروان بن محمد، آخر خلفاء بنى أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدى، والبريد لا يشد له سرج ولا يلجم له دابة، ثم إن المهدى أغزى ابنه هرون الرشيد بلاد الروم، وأحب أن لايزال على علم قريب من خبره، فرتب ما بينه وبين معسكر ابنه بردا كانت تأتيه بأخباره، وتريه متجددات أيامه، فلما قفل الرشيد قطع المهدى تلك البرد، ودام الأمر على هذا باقى مدته ومدة خلافة موسى الهادى بعده.

فلما كانت خلافة هرون الرشيد، ذكر يوما حسن صنيع أبيه فى البرد التى جعلها بينهما، فقال له يحيى بن خالد: لو أمر أمير المؤمنين بإجراء البريد على ما كان عليه كان صلاحا لملكه. فأمر به، فقرره يحى بن خالد ورتبه على ما كان عليه أيام بنى أمية، وجعل البغال فى المراكز، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر، ثم استمر على هذا فى خلافة المأمون، واتسع أمر البريد فيها حتى رتب لصاحب البريد أربعة آلاف من الهجن مع مؤونتها وآلاتها ليستخبر بها عن أمور المملكة فكان يعلم أمور العالم فى يوم واحد.

ولما دخل هذا الخليفة بلاد الروم نزل على نهر «البردون»، وكان الزمان حارا، فقعد على هذا النهر، ودلى رجليه فيه، وشرب من مائه، فاستعذبه واستبرده واستطابه، وقال لمن كان معه مستفهما: ما أطيب ما يشرب عليه هذاالماء؟ فقال كل برأيه، فقال هو: أطيب ما يشرب عليه هذا الماءرطب أزاد(*). فقالوا له يعيش أمير المؤمنين حتى يأتى العراق ويأكل من رطبها الأزادى، فما استتموا كلامهم حتى أقبلت بغال البريد تحمل أشياء منها رطب أزاد، فأتى للمأمون منها فأكل، وشرب من ذلك الماء فأكثر، فعجب الحاضرون لسعادته حيث لم يقم من مقامه حتى بلغ

(١) رطب أزاد: نوع جيد من التمر. (الشروق).

أمنيته مع ما كان يظن من تعذرها، فلم يقم المأمون حتى حم حمى حارة كانت فيها منيته.

ولما جاءت دولة بنى بويه[1]، وعلوا على الخلافة، وغلبوا عليها الخلفاء العباسيين، قطعوا البريد ليخفوا على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد، وكان الخليفة يأخذهم على بغتة، وجاءت الملوك السلاجقة على هذا، وكان بين ملوك الإسلام إذ ذاك اختلاف ذات بينهم وتنازعهم، فلم يكن بينهم إلا الرسل على الخيل والإبل، كل أرض بحسبها، فلما أتت الدولة الزنكية أقام السلطان نور الدين الشهيد للبرد النجابة، وأعد لها النجب الجيدة، ودام هذا فى جميع أزمان الدولة، وفى أيام بنى أيوب، رحمهم الله، إلى آخر أيامهم وسقوط أقدامهم، وتبعها على ذلك أوائل الدولة التركية المصرية، فبطل فى أثنائها البريد، حتى صار الملك إلى الظاهر بيبرس، رحمه الله، واجتمع له ملك مصر والشام وحلب إلى نهر الفرات، وأراد تجهيز دولة إلى دمشق، فعين لها نائبا ووزيرا وقاضيا وكاتبا للإنشاء، وكان الصاحب شرف الدين محمد عبد الوهاب هو كاتب الإنشاء، فلما مثل بين يديه ليودعه أوصاه بوصايا كثيرة آكدها مواصلته بالأخبار، لا سيما ما يتجدد من أخبار التتار والفرنج، وقال له: إن قدرت أن لا تبيتنى ليلة الا على خبر ولا تصبحنى إلا على خبر فافعل، فعرض له بما كان عليه البريد فى الزمان الأول، وأيام الخلفاء، وحرضه عليه، فحسن موقعه منه، وأمر به، ورتب عليه جمال الدين عبد الله الدوادارى البريدى، المعروف بابن السديد، فكان جمال الدين فى ذلك الوقت جناح الإسلام الذى لا يقص، وترتبت فى أيام نظارته مراكز البريد فى الممالك الإسلامية، ومنها فى محروسة مصر مركز قلعة الجبل إلى نواحيها الخاصة بها وهى ثلاث جهات: أولها: إلى جهة

---

(١) تنسب إلى أبي شجاع بن بويه، من شعب الديلم، ولقد أصبحت لها الكلمة النافذة على خلفاء بغداد منذ استولي سلاطينها عليها سنة ٩٤٥م وحتى هزيمتها أمام السلاجقة سنة ١٠٥٥م. وكان خليفة بغداد يلقب سلطان البويهيين بلقب "أمير الأمراء". وكانت الدولة البويهية شيعية علا في بلاطها نجم الفكر الاعتزالى بعد اضطهاده زمن المتوكل العباسي، وفي ظلها عاش قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد (المتوفى سنة ٤١٥هـ) فبلور وجمع تراث المعتزلة من جديد.

قوص ثم إلى أسوان، ثانيها: من القلعة إلى جهة الإسكندرية، ثالثها: إلى جهة دمياط، فالأولى من مركز القلعة إلى الجيزة ثم منها إلى زاوية حسين وإلى منية القائد ثم منها إلى وناثم منها إلى بياثم منها إلى دهروط ثم منها إلى أقلوصنا ثم منها إلى منية ابن خصيب، التى يقال إن الخصيب أيام ولايته عمرها لابنه وسماها باسمه، ثم من منية ابن خصيب إلى الأشمونين التى كانت إحدى مدن الصعيد العظيمة وكان بها إذ ذاك مقر الولاية ثم منها إلى ذروة الشريف، نسبة إلى الشريف حصن الدين بن ثعلب، فإنها كانت دار مقامه وبها دوره وقصوره، وكان قد خرج، وملك الصعيد، وعجز عنه ملوك مصر، وأمن أيام المعز أيبك ومن بعده فلم يظفر به، ثم خدعه الظاهر بيبرس ومناه العوض بالإسكندرية فلما أناب أعلق به الظفر والناب، وجهز إلى الإسكندرية ليتملكها فشنق على بابها، ثم منها ذروة الشريف إلى منفلوط، وهى أجل خالص السلطان، ثم منها إلى أسيوط ثم منها إلى طما ثم منها إلى المراغة ثم منها إلى بلسبورة ثم منها إلى جرجا ثم منها إلى البلينة ثم منها إلى هو ويليها الكوم الأحمر، وهما من خالص السلطان، وعندهما ينقطع الريف فى البر الغربى، ويكون الرمل المتصل بدندرة، ويسمى خانق دندرة، ثم من هو المذكورة إلى قوص ثم من قوص يركب البريد الهجن إلى أسوان وإلى عيذاب ثم إلى النوبة أو إلى سواكن على ما يكون.

وأما جهة إسكندرية فالمراكز من القلعة إليها فى طرقين، فالوسطى تشق العامر الآهل وهى من مركز القلعة المحروسة إلى قليوب ثم منها إلى منوف ثم منها إلى محلة المرحوم، مدينة الغربية، ثم منها إلى النحريرية ثم منها إلى الإسكندرية، والطريق الأخرى وهى الآخذة من طريق البر وتسمى طريق الحاجز وهى من مركز القلعة إلى الجيزة ثم منها إلى جزيرة القط ثم منها إلى وردان ثم منها إلى الطرانة ثم منها إلى زاوية مبارك ثم منها إلى دمنهور، مدينة أعمال البحيرة، ثم منها إلى لوقين ثم منها إلى الإسكندرية.

وأما طريق دمياط فمن القلعة إلى سرياقوس ثم منها إلى بلبيس، وهى آخر المراكز التى لخيل السلطان، أى الخيل التى تشترى بمال السلطان، ويقام لها السواس

والعلوفات على طرف السلطان، ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى إقطاعات، عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر فى مراكز أصحاب النوبة بالخيل، فإذا انسلخ الشهر جاء غيرهم، ولهذا تسمى خيل الشهارة، وعلى بريد الشهارة وال من قبل السلطان يستقبل فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالدّاغ السلطانى، ثم من بلبيس إلى السعيدية، وهى أول بريد الشهارة، ثم منها إلى أشموم الرمان ثم منها إلى دمياط، فبهذه المراكز الخاصة بالديار المصرية، وكان ثم مراكز آخذة من قلعة الجبل المحروسة إلى الفرات تبتدىء من سرياقوس، وتجتمع ببريد دمياط، وتفترق من السعيدية السالفة الذكر، وتتشعب فى البلاد الشامية إلى جهات مختلفة.

وأما حمام الرسائل فإن منشأ من بلاد الموصل، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر، وبالغوا حتى أفردوا لمراكزه ديوانا وجرائد بأنساب الحمام، وأول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل فهو الشهيد نور الدين محمود بن زنكى، رحمه الله، سنة خمس وستين وخمسمائة[1]، حيث بنى الأبراج على الطريق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها، وفوقهم الحمام الهوادى، فإذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم، فلم يبلغ العدو منهم الغرض، وكان هذا من ألطف الفكر وأكثره نفعا، وهذا معنى قول الحافظ عماد الدين بن كثير[2] فى تاريخه: «اتخذ السلطان نور الدين الشهيد الحمام الهوادى فى سنة سبع وستين وخمسمائة، وذلك لامتداد مملكته واتساعها، فإنها من حد النوبة إلى همدان، فلذلك اتخذ فى كل قلعة وحصن الحمام التى تحمل الرسائل إلى الآفاق فى أسرع مدة وأيسر عدة». انتهى. وتسمى حمام الرسائل حمام البطاقة أيضا، ولعل تربية حمام البطاقة فى بلاد الموصل التى بها جبل الجودى مستنبطة من بعث نوح الغراب ثم الحمامة لاستعلام خبر الطوفان، فقد أخرج ابن المنذر وابن

---

(١) وتوافق سنة ١١٦٩م.

(٢) أسماعيل بن عمر عماد الدين أبو الفداء بن الخطيب القرشي (١٣٠١ - ١٣٧٣م) صاحب التفسير للقرآن، وكتاب التاريخ الشهير (البداية والنهاية).

أبى حاتم عن ابن عباس قال: استقرت السفينة على الجودى، فبعث نوح الغراب ليأتيه بالخبر، فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء نضب أى نشف.

وقد كان بالديار المصرية تدريج الحمام بالوجه القبلى بالرسائل، فكان متصلا من القاهرة إلى قوص وأسوان وعيذاب، ومن القاهرة إلى إسكندرية، ومن القاهرة إلى دمياط، ومن القاهرة إلى السويس، من طريق الحاج، ومن القاهرة إلى بلبيس، متصلا بالشام، وبالجملة فكانت مراكز الحمام فى سائر البلاد الإسلامية حتى قيل: إن الحمام ملائكة الملوك.

وفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة[1] اعتنى الخليفة الناصر لدين الله[2] بحمام البطاقة اعتناء زائدا، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر: أنه من ولد الطير الفلانى، وقيل إنه بيع بألف دينار، وقد جرت العادة فى مصر أن الحمامة لا تحمل البطاقة إلا فى جناحها، لأمور منها حفظها من المطر، ولقوة الجناح. والواجب أنه إذا بطقت الحمامة من مصر لا تطلق إلا من أمكنة معلومة، فإذا سرحت إلى الإسكندرية فلا تسرح إلا من منية عقبة بالجيزة، وإلى الشرقية فمن مسجد التبين، ظاهر القرافة، وإلى دمياط، والذى استقر عليه قواعد الملك أن طائر البطاقةلا يلهو عنه الملك ولا يغفل ولا يمهل لحظة واحدة فتفوته مهمات لا تستدرك أما من واصل وإما من هارب وإما من متجدد فى الثغور، ولا يقلع البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة أحد، فإن كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ، أو نائما لا يمهل حتى يستيقظ، بل ينبه، وينبغى أن يكتب البطاق البطاقة فى ورق الطير المعروف بذلك، وتؤرخ بالساعة واليوم، لا بالسنة، ومماقيل فى حمامة البطاقة المعروف بذلك، وتؤرخ بالساعة واليوم، لا بالسنة، ومما قيل فى حمامة البطاقة من الأدب.

خضر تفوت الريح فى طيرانها　　　لا بعد بين غدوها ورواحها

---

(١) وتوافق سنة ١١٧٥م.

(٢) صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧-١١٩٣م). وتقدمت الإشارة إليه.

تأتى بأخبار الغدو عشية | كمسير شهر تحت ريش جناحها
وكأنما الروح الأمين بوحيه | نفث الهداية منه فى أرواحها

ومن إنشاء القاضى الفاضل فى وصفها: «سرحت لا تزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحة وتجهز جيوش القاصد والأقلام أسلحة، وتحمل من الأخبار ما تحمله الضمائر، وتطوى الأرض إذا نشرت الجناح للطائر، وتزوى لها الأرض حتى يرى ما سيبلغه ملك هذه الأمة، وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همة، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعا، ويركب البحر بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا، وتعلق الحاجات على أعجازها، ولا تعوق الإرادات عن إنجازها». وقد أشار ابن الوردى[1] فى (إشارة الحمامة) إلى ما يفيد مزية حمام الرسائل، مستوفيا لكل خاصة فيه وعلامة، حيث قال: «فبينما الباز سكران بما بان له من البان، وإذا حمامة قد وقفت أمامه وقالت: كم تفتخر وأنت عظم نخر، أنت من آلة اللعب والصيد، وأنا من آلة الجد والكيد، أنا مع الطوق والخضاب من حملة الكتاب، ومع حذرى من شرك الشرك، وخوفى من فخ الإفك، حملت الأمانة التى أبت الجبال عن حملها، وامتثلت مرسوم: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) فلما أوصلت الحقوق أمنت العقوق، وقوبلت بالبشائر والخلوق، ومما أعجب العالمين أنى مخضوب البنان ولى يمين أقول للملك دع الاهتمام، لا تلعب بى فأنا الحمام، فمهما حدث على البعد من أخصامك، أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، كتمت عن الناس سرى، وأبهمت بين الغناء والنوح أمرى..

رأوا خضابى وطوقى | فاستنكفوا من بكائى
ثم ادعوا أن زيى | مناسب للغناء
فقلت كفوا فعذرى | باد بغير خفاء

---

(١) عمر بن المظفر (١٢٩١ - ١٣٤٩م) أديب وفقيه، وعمل بالقضاء، وله كثير من المؤلفات في التاريخ والفقه والتصوف، إلى جانب الشعر والمقامات.

فــالخـــصب من فــيض دمـــعى والـطوق عــــــقـــــــد ولائـى

وقال بعضهم

فـحـــبـذا الطائـر الميـمـون يـطرقنا فى الأمـر بالطائر الميـمـون تنبـيهـا
فاقت على الهدهد المذكور إذ حملت كـتب الملوك وصـانـتـهـا أعـاديهـا
تأتى بكل كـتـاب نحـو صـاحـبـه تصـون نظرته صــونا وتخـفـيـهـا
فـمـا تمـكن غـيـر الشـــمس تنظره ولا تجــوز أن تلقـيــه من فــيـهـا
منسـوبة لرسالات الملوك فـبالمنسـو ب تسـمـو ويدعـوها مـسـمـيـهـا
أكـرم بجـيش سـعـيـدى سـعـادته مما يشكك فـيـهـا ذكـر حـاكـيـهـا
حـمامـتـا الغـار يوم الغـار تحرسـه فـيـا لهـا وقفـة عـزت مـسـاعيـهـا
وقــوفـه عند ذاك البـــاب شـرفـــه وللسـعـــادة أوقـــات تواتيـــهـــا
ويوم فـــتح رســول الله مكـة عند الدخـــول إليـــهـــا من بواديـهـا
صـفت تظلل من شـمس كتـيـبتـه الخـضـراء مـظهـرة فـيـه تواليـهـا
فـعـندمـا حظيـت بالقـرب أمنـهـا فـشــرفت بعطايـا جل مـهـديـهـا
فـمـــا يحل لذى صـــيـد تناولـهـا ولا ينال المنى بالنار مـصـليــهـا
سمت بملك المعالى غـير ذى دنس لا ترتضـيـه ولو جـزت نواصيـهـا
وانظر لها كـيف تأتى للخلائق من آل الرســول لحب كـامل فــيـهـا
من المقـــام إلى دار الســـلام ولم يمض النهـار لـعـزم فى دواعـيـهـا
وربما ضـل نحــو الهند ملتـــقط حـبــات فلفلة وارتد مـبطيــهـا
فـجـاء فى يومـه فى إثر سـابـقـة حــفظا لحـق يد طابـت أياديهـا
منـاقب لرســول الـله أيســـرها لدى نبــوتـه الغــراء يكفــيـهـا

وأما مراكز هجن الثلج فكانت تعمر فقط فى أوان نقل الثلج من دمشق إلى قلعة الجبل، وهذه المصلحة متأخرة الإنشاء عن مصلحة سفن الثلج، فإن الثلج كان يحمل فى البحر خاصة إلى مصر، من الثغور الشامية إلى دمياط فى البحر، ثم يخرج الثلج فى النيل إلى ساحل بولاق، فينقل منه على البغال السلطانية، ويحمل إلى «الشرابخانة الشريفة»، ويخزن فى صهريج أعد له، ثم صار يحمل فى البر والبحر، وكانت مدة ترتيب حمله من حزيران إلى آخر تشرين الثانى[1]، وعدة نقلاته فى البر إحدى وسبعون نقلة متفاوتة مدة ما بينها، بل ربما زاد على ذلك، وكان يجهز لكل نقلة بريدى يتدركه ويجهز معه بالسلاح، وكان المرتب لكل ستة هجن، خمسة للحمل وواحد للهجان، وكانت المراكز البريدية مرتبة فى المسافات من مملكة الشام إلى مصر، والكلفة على مال مصر.

وأما عدة المراكب المسفرة به فى البحر فكانت فى أيام الملك الظاهر ثلاثة مراكب فى السنة، ثم أخذت بعد ذلك فى الزيادة إلى أن بلغت أحد عشر مركبا من مملكتى الشام وطرابلس، ثم صارت من السبعة إلى الثمانية، وإذا سفرت المراكب من البلاد الشامية سفر معها من يتدركها مع الملاحين، ولا يصل الثلج متوفرا إلا إذا أخذ من الثلج المجلد، واحترز عليه من الهواء، فإنه أسرع إذابة له من الماء. ومنذ ترتب من الثلج ما يحمل برا على ظهور الهجن استقر منه خاص المشروب، لأنه أنظف وآمن عاقبة، لا سيما وأن المسفرين به يأخذون الجشنى منه بحضور أمير مجلس وناظر "الشرابخانة" السلطانية وخزانها، وكان المنقول فى البحر لسوى ذلك، وكان للحاضرين بالثلج من الخلع والإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة.

وأما المناور فكانت مواضع معدة لرفع النار فى الليل والدخان فى النهار، للإعلام بحركات التتار إذا قصدوا البلاد للدخول لحرب أو لإغارة، وقد أرصد فى كل منور ما يلزم من المراقبين والنظارة لرؤية ما وراءهم وإراءة ما أمامهم، وكان لهم

---

(١) أي من يونية إلى آخر نوفمبر.

على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة، وكانت المناور المذكورة على رءوس الجبال وفى الأبنية العالية، ومواضعها معروفة، وكانت من أقصى ثغور الإسلام «كالبيرة»[١] «والرحبة»[٢] إلى ديوان السلطان بقلعة الجبل، حتى أن المتجدد بكرة بالعراق كان يعلم به عشاء بمصر، والمتجدد به عشاء كان يعلم به بكرة، وكانت تأتى أخبار لسان النار على الجناح والبريد، وهذه المناور فى الدولة السلطانية الأخيرة لها شبه بما صنعته فى الأحقاب الخالية «دلوكة» العجوز ملكة مصر التى تولت على مصر بعد إغراق فرعون وأشراف أهل مصر، فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها من مزارع ومدائن وقرى، وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء، وأقامت القناطر والخلجان، وجعلت فى ذلك الجدار محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، وجعلت على كل محرس رجالا وأجرت عليهم الأرزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس، فإذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس فيأتيهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة فينظروا فى ذلك، فمنعت بذلك مصر ممن يطمع فيها ويمد عينه إليها، وفرغت من بناء ذلك الجدار فى ستة أشهر، فكانت فكرتها فى ذلك لا بأس بها فى ذلك الوقت.

وأما المحرقات فكان الاهتمام بها أول كل شىء، وهى مواضع مما يلى بلاد سلطنة مصر والشام من حد الشرق، داخلة فى تلك المملكة، فكان يخشى من مجاوريها من الأعداء مباغتة الأطراف ومهاجمة الثغور، كجهة بلاد الموصل وبلاد الأكراد، فكان يجهز رجال لتحرق زرعها ونباتها، حيث هى أرض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل المغيرين مرعى إذا قصدوا البلاد، فكان فى حرقها إضعافهم وإقعاد حركاتهم، إذ كان من عاداتهم أن لا يتكلفوا علوفة لخيلهم بل يكلوها إلى ما ينبت

(١) بلدة حصينة من نواحي شهرزور، بالمشرق.

(٢) هناك ثلاثة مواضع تسمى «الرحبة» - بضم الراء المشددة - إحداها قرية بالقرب من صنعاء، والثانية ناحية بين المدينة والشام، والثالثة، - وهي المرادة هنا - بقرب القادسية، على مرحلة من الكوفة.
أما «الرحبة» - بفتح الراء - فهي اسم لثمانية مواضع تقع جميعها بالعراق والشام واليمن.

من الأرض، فإذا كانت مخصبة سلكوها أو مجدبة تجنبوها، وكان ينفق فى هذه المحرقات فى كل سنة من خزينة دمشق جملة من الأموال، ويجهز منها لذلك شجعان الرجال، وكان شأنهم فى الإحراق استصحاب الثعالب الوحشية والكلاب المستنفرة، ثم يكمن المجهزون لذلك عن أمناء النصاح وفى كهوف الجبال وبطون الأودية، وتمضى الأيام حتى يكون يوم ريح عاصف وهواؤه زعزع فتعلق النار موثقة فى أذناب الثعالب والكلاب ثم الثعالب والكلاب فى إثرها قد جوعت فتجد الثعالب فى الهرب والكلاب فى الطلب، فتحرق ما مرت به، وتعلق الريح النار منه فيما جاوره، ويضاف هذا إلى ما كانت تلقيه الرجال بأيديها فى الليالى المظلمة وعشايا الأيام المعتمة، وكان يستثنى من ذلك أرض الجبال التى هى بلد البقية القادرية من ولد شيخ الإسلام عبد القادر الجبلى[1]، فكانت ذريته معظمة عند الأكابر والملوك لقديم سلفهم وصميم شرفهم، ولما كان للإسلام وأهله من إسعافهم بما تصل إليه القدرة ويبلغه الإمكان.

فمن هذا كله يفهم أن من تولى مصر من الملوك والسلاطين كان يجدد فيها بقدر استطاعته من المنافع ما يظنه لازما لسعادتها، فأول مسعد لمصر من دبر أمر النيل بالمقياس، وصعد إلى منبعه ومسيله، ودبر وزن الماء والأرض بمصر، ورسم التعاليم، وبنى القناطر، وأصلح مجرى النيل من جبال الحبشة إلى مصر، ولا زالت المنافع تتزايد ثم تتناقص على حسب صروف الدهور والعصور إلى أن توازنت الأحوال فى جميع الممالك والمسالك بحركة عمومية، وأسباب بلغت درجة الأهمية، ودواع دعت إلى أنه يجب على كل مملكة أن تضرب فى الاجتهاد بسهم وتصيب، وإلا أصابها سهم غيرها إذا قصرت فى أن تجتهد وتصيب، فعلى الملة العاقلة أن تتشبث بأسباب الغنى، لتحظى فى أيام ملكها العادل ببلوغ المنى. (راجع الفصل الأول من الباب الثانى والفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب).

---

(١) عبد القادر الجيلاني (١٠٧٧ - ١١٦٦م) متصوف، يعده المتصوفون أحد الأقطاب الأربعة، وإليه تنسب «الطريقة القادرية» من طرق أهل التصوف، ولها أنصار ومريدون بمصر والسودان والمغرب والصومال، واليمن والهند وتركيا.

[الغنى ممدوح]

فلا شك أن الغنى حلية تحلى بها أغنياء الأنبياء كداود، وسليمان، ويوسف، وإبراهيم، وموسى، وشعيب، على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وكثير من الصحابة والتابعين كانوا من الغنى فى روضة غناء، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يوصف بالغنى، بدليل قوله، جل من قائل: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: ٨) فقد إمتن الله سبحانه وتعالى على نبيه بإغنائه عن فقر، كما هو صريح الآية، فهو غنى وإن كان فى كيفية الإغناء وجوه عند المفسرين، فمنهم من قال: إن الله تعالى أغناه بتربية أبى طالب، ولما اختلت أحوال أبى طالب أغناه بمال خديجة، ولما اختل ذلك أغناه بمال أبى بكر، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة، وأغناه بإعانة الأنصار، ثم أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم.

وروى أنه عليه السلام دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له: مالك؟ فقال: الزمان زمان قحط، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك فاستحى منك، وإن أنا لم أبذل أخاف الله. فدعت خديجة قريشا وفيهم الصديق، رضى الله عنه، قال الصديق: فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغا لم يقع بصرى على من كان جالسا قدامى لكثرة المال، ثم قالت أشهدوا أن هذا المال ماله، إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه. ومن المفسرين من قال أغناه بأصحابه، كانوا يعبدون الله سرا حتى قال عمر حين أسلم أنعبد اللات جهرا ونعبد الله سرا؟! فقال عليه الصلاة والسلام: حتى تكثر الأصحاب، فقال: حسبك الله وأنا، فنزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٤) فأغناه الله بمال أبى بكر وبهيبة عمر. ومنهم من قال فى التفسير: أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوى عندك الحجر والذهب، لا تجد فى قلبك سوى ربك، فربك غنى عن الأشياء لا بها، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء، وأن الغنى الأعلى الغنى عن الشىء لا به. وهذا المعنى الأخير ما أشار إليه البوصيرى فى قوله:

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شم

وأكـدت زهده فيـها ضـرورته   إن الضـرورة لا تعدو على العـصم

أى طلبت الجبال العالية أن تصير ذهبا له صلى الله عليه وسلم، فارتفع عنها إرتفاعا معنويا أعلى وأرفع من إرتفاعها الحسى، وذلك بالإعراض الكلى، وعدم الالتفات إلى جهتها، كما أمره ربه سبحانه وتعالى فى قوله، جل من قائل: ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ (طه: ١٣١) أى لا تنظر نظرا طويلا إلى ما متعنا به المذكورين استحسانا للمنظور إليه وأعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون أنه لذو حظ عظيم.

ولما كان النظر إلى الزخارف كالمركوز فى الطباع نهى الله سبحانه وتعالى رسوله، ومن المعلوم أن النهى له نهى لأمته، وقيل إن الذى نهى عنه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿ **وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ** ﴾ ليس هو النظر، بل هو الأسف، أى لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا، لأنك غنى عنها بربك، حيث هى غير ممدوحة، والدنيا إذا كانت ممدوحة فإنما يكون مدحها باعتبار أنها وصلة لدار القرار، ولذلك قال بعضهم وأجاد:

لا تتبع الدنيا وأيامها   ذما وأن دارت بك الدائرة

من شرف الدنيا ومن فضلها   أن بها تستدرك الآخرة

فكيف يذم مطلق الغنى، وهو وصف لله سبحانه وتعالى ولنبيه عليه الصلاة والسلام، فهو ممدوح شرعا، فلا بأس أن يتشبث بالوصف به الملوك والرعايا.

وأقل مزايا غنى الحكومة المصرية أنه لما قصرت بلادها عقب آفات قسرية كموت المواشى وقلة المحصول، وعز على الأهالى تحصيلها إلا بالأثمان الغالية من البلاد الأجنبية، ولا يتيسر لكل إنسان جلبها، استجلبها الخديو الأكرم بنفوذ يسار الحكومة بالأثمان اللائقة، وصار التوسيع بذلك على الأهالى فكان كما قيل:

فتى كسماء الغيث والناس حوله   إذا أجدبوا جادت عليهم سحائبه

ولقد أحسن من قال :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

فكم له من جدوى على الأوطان فى قضاء أوطار، وكم استمدت الرعايا فى هذه الأعصار استمداد الجداول من البحار، مما تعجز العقول عن فهم كنهه، وعن حق أداء الشكر على الإنعام به، فقد أنجز الله لمصر ما قدره لها من السعادة، وأبرز فى حيز الوجود ما كتبه لها من الحسنى وزيادة.

وإذا السعادة لا حظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهى حبائل واقتد بها الجوزاء فهى عنان

ومع أن كل قسم من أقسام الدنيا له كوكب من الممالك فى أفقه مشرق، فمصرنا بأعلى منارها كوكب قسم أفريقة وشمس أفق المشرق، فقد كسيت فى هذه العهد حلة المهابة والنباهة، وخرج أهلها بصقال البراعة واليراعة عن لكنة القصور والفهاهة، واكتسبت الفنون والمنافع حتى صارت ترنو إليها الأبصار وتومى إليها الأصابع، وبتوفيق الله تعالى تمسك أهلها بالآية الشريفة التى العمل بها من الفرض وهى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ**﴾ (البقرة: ٢٦٧) يعنى من التجارة والزراعة، فسياسة الحكومة الحالية الالتفات إلى جذب النفوس إلى هذه المنافع العمومية من أعجب التأثيرات العصرية، وفى الحقيقة .

لولا السياسة ما قامت لنا سبل وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

[أقسام السياسة]

فمدار انتظام العالم على السياسة، وهى خمسة أقسام: **الأول**: السياسة النبوية، والله يختص بها من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ**

يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤) وهو الذى يهدى لأتباعهم من يشاء من فضله بسابق السعادة. ولا معقب لحكمه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، قال سيدى محمد وفا:

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى بكرائم الأموال والأشباح

وظننت جهلا أن حبك هين تفنى عليه نفائس الأرواح

حتى وجدتك تجتبى وتخص من أحببته بلطائف الأمناح

فجعلت فى عشق الغرام إقامتى ولويت رأسى تحت طى جناحى

الثانى: السياسة الملوكية، وهى حفظ الشريعة على الأمة، وإحياء السنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

الثالث: السياسة العامة، وهى الرياسة على الجماعات، كرياسة الأمراء على البلدان أو على الجيوش، وترتيب أحوالهم على ما يجب من إصلاح الأمور، وإتقان التدبير، والنظر فى الضبط والربط والحسبة.

الرابع: السياسة الخاصة، وتسمى السياسة المنزلية، وهى معرفة كل إنسان حال نفسه وتدبيره أمر بيته وما يتعلق به، وقضاء حقوق إخوانه شرعا وفتوة وعرفا، كما قال من يميل بطبعه إلى حب المعروف.

إنى لأهوى أن أكون لصاحبى غيثا وغوثا فى الندا والبأس

وإذا أكتسى ثوبا جميلا لم أقل يا ليت هذا الثوب كان لباسى

وهذه السياسة فى الغالب لا يحسنها إلا أشراف الناس، كما قيل:

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة وإن عظموا إلا لفضل صنائع

الخامس: السياسة الذاتية، وهى تفقد الإنسان أفعاله وأحواله وأقواله وأخلاقه وشهوته وزمها بزمام عقله، فإن المرء حكيم نفسه، وبعضهم يسميها بالسياسة البدنية، قال الشاعر:

تعلمت فعل الخير من غير أهله وهذب نفسى فعلهم باختلافه

أرى ما يسوء النفس من فعل جاهل فآخذ فى تأديبها بخلافه

وما أحرى من الملوك من يتمسك بهذه السياسات الخمسة لينزه بها وطنه عن النقائص، ويحلى بها نفسه، لأن تفاضل الأنفس إنما هو بقدر تحصيلها من الفضائل التى يظهر بها التفاوت فى القيم، وذلك بمقدار ترافع الهمم، والكَيِّس من ينافس فى تحصيل النفيس والأنفس، ليتوصل إلى درجة الكمال فيما هو أصون لحفظ الناموس وأحرس.

من يستطيع بلوغ أعلى رتبة ما باله يرضى بأدنى منزل

ومن العار على كامل التمييز أن يطلب رتبة دون الرتبة القصوى، وأن يقصر عن الوصول إلى وصال «سعدى» «وعلوى»، وأما قول الشاعر:

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

فهو قول من يقنع بالدون، ويرضى بصفة المغبون، وما أحسن ما قاله بعضهم:

إن الغنى لشهاب كلما اعتكرت دجى الكروب جلا عنها حنادسها

لا تنفع الخمسة الأسماء محدقة لديك إلا إذا ما كنت سادسها

والمراد من الأسماء الخمسة أبوك وأخوك وحموك، المرتجى نفعهم ونجدتهم عند الشدائد، وهنوك، وهو كناية عن الشىء، وفوك وهو الفم، والمراد الفصاحة والبلاغة، وسادس الأسماء ذو مال، وهو سيدها، فذو المال أقرب لاكتساب المعالى لذويه ولوطنه، وأن يقلده قومه ويتبعوه فى ذلك.

تناهض القوم للمعالى لما رأوا نحوها نهوضى

فكل ما يتمناه المتمنى بلسان الاستعداد، وشهادة الاستحسان والرشاد، من المراتب الباهية، والمناصب الزاهية، والمقاصد السنية، والموارد الهنية، والعزة والجاه، بلغ فيه رجاه فمطمح نظر مصر الآن التبصر فى تكميل وسائل التمدن، والتمصر من باب إحسان العمل، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ**

عَمَلاً﴾ (الكهف: ٣٠) وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الأحسان على كل شيء»، فمباشرة الأسباب مظنة الأنجاب، ولذلك أوصى بعض الصلحاء بعض أرباب الفلاحة بقوله: لا تدع غرس أرضك وإن سمعت بخروج الدجال، فالأسباب لا تنكر. وقال داود البصير بمناسبة ذكر الأسباب: «إن قيل: إذا كان الطب حافظا للصحة دافعا للمرض فالواجب البقاء وعدم إختلال البنية، خصوصا من نفس الطبيب، ونحن نرى الحكماء، فضلا عن غيرهم، يمرضون ويموتون، فلا فائدة حينئذ فى الطب، قلنا: ليس على الطبيب منع الموت والهرم، ولا تبليغ الأجل المطول، ولا حفظ الشباب، لعدم قدرته على ضبط ما ليس إليه أمره، كتغيير الهواء، وروده فى الأغذية من حيوان وغيره، ومشقة الاحتراز فى تعديل أمور المأكل والمشرب وغيرها، وعدم إمكان جلب الفصول على طبائعها الأصلية، فقد ينقلب كل منهما إلى الآخر، وإنما عليه إصلاح ما أمكن من دفع طارئ مناف، وحفظ صحة إلى الأجل المعلوم». فإن قيل موجبات الموت والحياة ولوازمها إما أن تكون بتقدير الصانع إيجابا وسلبا، كما هو الحق، أو باقتضاء طالع الوقت، وعلى التقديرين ليس للطبيب قدرة على أحدهما فانتفت الحاجة إليه، قلنا: لو كان الأمر كذلك لكان الأكل والشرب وسائر ما به القوام من هذا القبيل، فكان يجب تركه، لأن المقدر من بقاء الأجل أن كان بدونها فلا فائدة فى تعاطيها، أو بها لزم ذلك، والكل باطل، بل تقادير علق الأمر عليها كما فى محله، فكذا الطب، وبه جاءت السنة عن أرباب النواميس، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «تداووا فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء، وما من داء إلا له دواء». إلى غير ذلك، فقيل له: أيدفع الدواء القدر؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «الدواء من القدر». انتهى.

ونتيجة هذه المسألة أن مباشرة الأسباب من هذا القبيل، والتشبث بتصحيح الأعمال تطبيب للنفس وتعليل، والملوك فى الظاهر حكام وفى الباطن حكماء. يقال إنه كان بين يدى الإسكندر كرة مثمنة من الذهب وضعها له الحكيم «أرسطاطا ليس» على كل جهة منها كلمة سياسية، تتعلق كل واحدة بالأخرى،

لتكون بين يديه يقلبهافى حركاته ويعمل بما فيها، وهى هذه: «العالم بستان سياجه الدولة»، «الدولة سلطان يحفظها السنة»، «السنة شريعة يحوطها الملك»، «الملك راع يعضده الجند»، «الجند أعوان يكلفهم المال»، «المال رزق تجمعه الرعية»، «الرعية خدام يتعبدهم العدل»، «العدل مألوف وبه صلاح العالم». فحقيق لمن قلده الله أمر عباده وبلاده أن يعطف عليهم ويعدل فيهم، وينصف ضعيفهم من قويهم، ويساوى فى الحق بين شريفهم ومشروفهم، ويبتدئ أولا بالإنصاف من نفسه وولده وأهله وخاصته، فالناس على دين الملك، كما قيل، بمعنى أنهم يتبعونه فى أحواله وأفعاله، ولذلك لما قدم بريد من الشام على عمر بن عبد العزيز، فقال له: كيف تركت الشام؟ قال: تركت ظالمهم مقهورا، ومظلومهم منصورا، وغنيهم موفورا وفقيرهم محبورا - (أى مسرورا) - قال عمر: الله أكبر! لو كانت لا تتم خصلة من هذه إلا بفقد عضو من أعضائى لكان ذلك يسيرا.

وبالجملة فالسعى فى أداء الحقوق الوطنية منحة إلهية يمنحها الله سبحانه وتعالى من يصطفيه من خلقه، فإنها مرتبة جسيمة، ونعمة وفيه عظيمة، فيجب علينا أن نقيدها بشكر المولى سبحانه وتعالى على إنعامه بها علينا، ولقد كان السلف الصالح كالفضيل ابن عياض[1] والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها لولى الأمر، لأن فى صلاحه صلاح المسلمين. أصلح الله حال ملكنا وسلطاننا وسائر الملوك والسلاطين، آمين.

وهذا دعاء لا يرد لأنه ... يزان به كل الورى والممالك

تراه بلا شك أجيب لأنه ... إذا ما دعونا أمنته الملائك

وسيأتى بسط الكلام على سياسة ولاة الأمور فى (الخاتمة).

خاتمة

[وهى إن شـاء الله حـسنة ، فيـما يجب للوطن الشـريف على أبنائه من الأمـور المستحسنة .

وفيها فصول :

وذلك لأن أهل الوطن أربع طبقات :

فالطبقة الأولى : ولاة الأمور ،

والطبقة الثانية : طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين ،

والطبقة الثالثة : الغزاة ،

والطبعة الرابعة : أهل الزراعة والتجارة والصناعة .

فلهذا كانت (الخاتمة) على أربعة فصول] .

الفصل الأول

(فى ولاة الأمور)

وظيفة ولاة الأمور من أعظم واجبات الدين، وأهم أمور المتوطنين، فهم قوام الدن والدنيا، وعليهم فى حركة الأعمال مدا البركة العليا، وبدونهم يختل نظام العالم لوجود المفسدين من بنى آدم، فلولا ولى الأمر لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم الشرعى والسياسى على تنفيذ حكمه، ولا العابد على عبادته، ولا الصانع على صناعته، ولا التاجر على تجارته، ولولاهم لانقطعت السبل وتعطلت الثغور، وكثرت الفتن والشرور، ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وتهاجرت، وطمع بعضهم فى بعض، واستولى الأقوياء على الضعفاء، وتمكن الأشرار من الأخيار، فيضطرون إلى التشرد والتفرد، وفى ذلك خراب البلاد وفناء العباد، فالملك كالروح والرعية كالجسد، ولا قوام للجسد إلا بروحه. ولكن من لطف الله تعالى بعباده أجرى عادته فى كل زمان أن ينصب فى الأرض من ينصف المظلوم من الظالم، ويردع أهل الفساد عن المظالم، ويصنع للرعية جميع المصالح، ويقابل كل أحد يستحقه من صالح وطالح.

فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمرانى إلى قوتين عظيمتين: إحداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح، الدارئة للمفاسد، وثانيهما: القوة المحكومة، وهى القوة الأهلية المحرزة لكمال الحرية، المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه ووجوه كسبه تحصل سعادته، دنيا وأخرى، فالقوة الحاكمة العمومية وما يتفرع عليها تسمى أيضا بالحكومة وبالملكية، هى أمر مركزى تنبعث منه ثلاثة أشعة قوية تسمى أركان الحكومة وقواها، **فالقوة الأولى**: قوة تقنين

القوانين، وتنظيمها، وترجيح ما يجرى عليه العمل من أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية، **الثانية**: قوة القضاء وفصل الحكم، **الثالثة**: قوة التنفيذ للأحكام بعد حكم القضاة بها، فهذه القوى الثلاثة ترجع إلى قوة واحدة وهى القوة الملوكية المشروطة بالقوانين، لأن القوة القضائية إنما هى فى نفس الأمر راجعة للملك، لأن القضاء نواب ولى الأمر على المحاكم، ومأذونون منه، فهو الذى يقلد القضاء بالولايات القضائية، وحكام المجالس أى قضاتهم الشرعية أو السياسة الشرعية، وينتخب لكل ولاية قضائية أو مجلس من يرى فيه الأهلية لذلك، على موجب أصول المملكة المرعية، فالقضاء فى الحقيقة من حقوق ولاة الأمور، والقضاة خلفاؤهم فى مباشرته، ولذلك كانت أحكام القضاة التى على طبق الشرع لا تنقض، لاعتبار إذن ولى الأمر بها ضمنا، من حيث فصل الحكم، فرجعت هذه القوة إلى الملك، وكذلك قوة تنفيذ الأحكام بعد قطع الحكم فيها، فإنها حق خاص بولى الأمر من أول وهلة لا يشاركه فيه غيره، كما أنه هو الذى ينسب إليه تقنين القوانين، حيث يتوقف على أوامره تنظيمها وترتيبها وإجراء العمل بموجبها، فقد انحصرت فيه القوى الثلاثة التى هى أركان القوة الحاكمة.

[فن السياسة]

ثم إن الأصول والأحكام التى بها إدارة المملكة تسمى: فن السياسة الملكية، وتسمى: فن الإدارة، وتسمى أيضا: علم تدبير المملكة، ونحو ذلك، والبحث فى هذا العلم، ودوران الألسن فيه، والتحدث به، والمنادمة عليه فى المجالس والمحافل، والخوض فيه ألغازيتات، كل ذلك يسمى «بوليتيقة»، أى سياسة، وينسب إلبه فيقال بوليتيقى، أى سياسى. فالبوليتيقية هى كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها، فقد جرت العادة فى البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف فى البلاد الإسلامية وكتب الأديان فى غيرها قبل تعليم الصنائع، وهذا لا بأس به فى حد ذاته، ومع ذلك فمبادىء العلوم الملكية السياسية، التى هى قوة حاكمة عمومية، وفروعها، مهملة فى الممالك والقرى بالنسبة لأبناء الأهالى،

مع أن تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية، فما المانع من أن يكون فى كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان - بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادىء العربية - مبادىء الأمور السياسية والإدارية، ويوقفهم على نتائجها، وهو فهم أسرار المنافع العمومية التى تعود على الجمعية وعلى سائر الرعية من حسن الإدارة والسياسة والرعاية فى مقابلة ما تعطيه الرعية من الأموال والرجال للحكومة، ويفيدهم أسباب إيجاب الحكومة على الأهالى أن تخدم وطنها بنفسها خدمة شخصية فى العسكرية، وأسباب إلزام الأهالى بدفع حصة مخصصة من أموالهم بوصف خراج أو «ويركو» أو عوائد، أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة فى الدول الإسلامية مقام الزكاة المعطلة، وكذلك ليعرف الأهالى أسباب إيجاب الحكومة عليهم أن يتنازلوا عن شىء من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة لذلك للمصلحة العمومية، كتوسيع الطرق وما أشبه ذلك من العمليات التنظيمية. فإذا ارتكز فى إزهان الصبيان من زمن شبوبيتهم أصول هذه السياسات الشرعية وفروعها، وفهموا الأسباب والمسببات، سهل عليهم عند بلوغ الرشد، والوصول إلى كمال الرجولية، إجراء مفعولها، وهل هذا التعليم إلا إيقاف أهل الوطن على معرفة حقوقهم وواجباتهم بالنسبة لأملاكهم وأموالهم ومنافعهم وما لهم وما عليهم، محافظة على حقوقهم، ودفعا للتعدى عليها؟ فاللائق أن يكون بكل ناحية معلم لمبادىء الإدارة ومنافع الجمعية العمومية فى مقابلة ما تدفعه الجمعية للحكومة، فإن هذا التعليم، مع تقديمه الشخص المتعلم، له تأثير معنوى فى تهذيب الأخلاق، ومنه تفهم الأهالى أن مصالحهم الخصوصية الشخصية لا تتم ولا تتنجز إلا بتحقيق المصلحة العمومية، التى هى مصلحة الحكومة، وهى مصلحة الوطن، فتذعن نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست فى حد ذاتها مضمونة الحصول إلا فى ضمن الفوائد العمومية المذكورة. وأيضا مما يقتضى لياقة تعليم مبادىء الإدارة بالنواحى كون قانون الحكومة لا يمنع من جواز استخدام أحد من الأهالى، فاستخدامه فى الملكية، لا سيما منصب المشيخة البلدية - كما سيأتى ذكره - يستدعى سبق معرفة بأصولها، وإلا ترتب على استخدام الجاهل بها من السقامة ما لا

يخفى، وإنما العلم بالتعلم، لا سيما أيضا مع تجديد جمعيات الانتخاب ومجالس النواب.

وكان المانع لتعلم البوليتيقية والسياسة فى الأزمان السابقة ما تشبث به رؤساء الحكومات من قولهم: إن السياسة من أسرار الحكومة الملكية، لا ينبغى علمها إلا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين، مع كون لفظ البوليتيقة كان معروفا أيضا بمعنى آخر وهو: الحيلة والخداع والتدبير مما لا يليق إلا بالمملكة الجائرة، وفى هذه الأيام جميع الأحكام الملكية مؤسس على العدل والأمانة وخلوص النية، المتقوم منها الحق، وهو أبيض أبلج، لا ينبنى إلا على الإسخلاص فى القول والعمل، وحسن العلاقات بين الراعى والرعية، مما يغرس المحبة والمودة فى قلب الملك ورعاياه، بسبب إتباعه الأصول المربوطة وسيره على السنن القويم، حسب أحكام المملكة المشروطة، وهى غير مكتومة، ومن المعلوم أن الملك الذى يحب رعاياه يحب تقدمهم فى المناصب الملكية للاستعانة بآرائهم، التى هى فى حقه ضرورية، فهو أحق باصطفاء رجاله منه باصطفاء أمواله، لأنه مع استبداده بالنهى والأمر وسمو المقام وجلالة القدر لا يكتفى بالوحدة، ولا يستغنى عن الكثرة، فمثله كمثل المسافر فى الطريق البعيد يجب أن تكون عنايته بفرسه المجنوب كعنايته بفرسه المركوب، ومن أحب المقاصد والنتائج سهل الوسائل والمقدمات، وأيضا من البديهى أن للإنسان حقوقا وعليه واجبات، فطلبه لحقوقه وتأديته لواجباته على الوجه الأكمل يقتضيان معرفة الحقوق والواجبات ومعرفتهما متوقفة على فهمهما، وفهمهما عبارة عن معرفة قوانين الحكومة التى هى السياسة، فالذى لا يريد خدامة الحكومة هو أيضا مثل المستخدم فيها لمعرفة قوانينها.

وقد تجدد فى مديريات مصر، فى هذا العهد الأخير، مبادىء ما أشرنا إليه، وهو صدور الأوامر الخديوية بجلب من يرغب من أبناء العمد ووجوه الناس إلى دواوين المديريات ليتمرنوا على تعليم الأحكام والإدارة لتوظيفهم فيما بعد فى الوظائف الإدارية، ونفعهم كمال النفع للحكومة، قال الشاعر:

وكاذب الصبح يبدو قبل صادقه ... وأول الغيث قطر ثم ينهمل

(وقال آخر)

رب قليل غـدا كـثـيـرا كم مطر بدؤه مطير

ثم إن الحكومة التى عبرنا عنها فيما سبق بالقوة الحاكمة هى من مقولة النسب والإضافات، تقتضى حاكما ومحكوما، يعنى ملكا ورعيته فلا يفهم الملك إلا بالرعية، ولا تفهم الرعية إلا بالملك، كالأبوة والبنوة، فلهذا وجب أن نبين كلا منهما، مع ما يتعلق به، ونبتدىء بولاة الأمور، فنقول:

ولى الأمر هو رئيس أمته، وصاحب النفوذ الأول فى دولته، وحاكم متصرف بالأصول المرعية فى مملكته، ولاتوجد رعية فى مملكة منتظمة بدون راع، وإلا ضعفت واختلت وشقى أهلها لعدم من يسعى فى إسعادهم بتحسين شؤونهم.

وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا، بالتسوية فى الأحكام، والحرية، وصيانة النفس والمال والعرض على موجب أحكام شرعية، وأصول مضبوطة مرعية، فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين.

ولما كانت السياسة جسيمة لا يقوم بهاواحد اختص الملك بمعالى الأحكام وكلياتها، وخلع بعض نفوذه فى جزئيات الأحكام على المحاكم والمجالس، وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصية ترشد أفعالهم ولا يتعدونها. قال بعضهم: ليست فى الدنيا جمعية منتظمة ولا مملكة معتدلة الأحكام إلا وتكون القوة فيها بالأصول العدلية، فالأصول العادلة تصون ناموس الدولة عن الملامة، ولهذا كان جميع ما أمضاه الملك السالف من الأحكام وأجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز لا يسوغ لمن جاء بعده أن يخدشه ويبطل أحكامه التى جرى مقتضاها، وهذه القاعدة جارية فى سائر الممالك، فحرمة الأصول الملكية بصونها عن نقض ماجرياتها راجعة فى الحقيقة لحفظ حرمة الملك، فإن بت الحكم فى عهد الملك إثر نتائج أفكاره أو ثمرة أوامره ونواهيه وتصديقه عليه فهو منسوب إلى المنصب الملوكى فلا يسوغ نقضه، وقد كان المنصب الملوكى فى أول الأمر فى أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الأعظم وإجماع الأمة، ولكن لما ترتب على أصل الانتخاب ما لا

يحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح اختيار التوارث فى الأبناء وولاية العهد، على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها، فكان العمل بهذه الرسول الملوكية ضامنا لحسن انتظام الممالك.

ثم إن للملوك فى ممالكهم حقوقا تسمى بالمزايا، وعليهم واجبات فى حق الرعايا، فمن مزايا الملك أنه خليفة الله فى أرضه، وأن حسابه على ربه، فليس عليه فى فعله مسئولية لأحد من رعاياه، وإنما يذكر للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسيات برفق ولين، لإخطاره بما عسى أن يكون قد غفل منه، مع حسن الظن به، لقوله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصحة» فقلنا: لم يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم». وأيضا للإنسان فى نفسه محكمة تجرى الأحكام على صاحبها، وهى الذمة التى هى النفس اللوامة أو المطمئنة، فهى قاض لا يقبل الرشوة، فإذا فعل الملك كغيره ما لا يوافق لامته نفسه، لأن نور الحق يسطع فى القلب، وإذا فعل الملك ما لا ينبغى فعله لا تطمئن نفسه إلى ذلك ولا يركن إليه ولا يفرح به، وأما فعل الخير فتطمئن إليه النفس ويركن إليه القلب وينشرح له الصدر.

وبيان ذلك أن القلب مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية، فإن صدرت عنه إرادة صالحة تحرك البدن حركة صالحة، وإن صدرت عنه إرادة فاسدة تحرك البدن حركة فاسدة، فالقلب كالملك والأعضاء كالرعية، ولذلك قال أهل السنة والجماعة: إن العقل فى القلب، وله شعاع متصل بالدماغ. فالقلب يطمئن للعمل الصالح طمأنينة تبشره بأمن العاقبة، فصاحب هذا العمل قضى له قاضى الذمة بأنه محق فى عمله، بخلاف العمل السيء فإنه يورث القلب تندما وحسرة، ويكسبه ملامة تنذره بسوء العاقبة، فصاحب هذا العمل السيء قضى عليه قاضى الذمة بأنه آثم مبطل فى عمله، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لوابصة ابن معبد[1]، لما أتاه

(١) وابصة بن معبد بن مالك بن عبيد الأسدى، من أسد بنى خزيمة، وكنيته: أبو سالم، صحابى، سكن الكوفة ثم تحول عنها إلى الرقة، ولقد روى أحاديث عن الرسول عليه السلام.

فى وفد: «جئت تسأل عن البر؟ البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك فى النفس، وتردد فى الصدر، فاستفت نفسك وأن أفتاك الناس وأفتوك». وسبب ذلك أيضا أن الله سبحانه وتعالى فطر عباده على معرفة الحق، والسكون إليه، وقبوله، وركز فى الطباع محبته، ومن ثم ورد حديث: «كل مولود يولد على أصل الفطرة». قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ (الروم: ٣٠) وهذا يؤيد قول بعضهم: إن عمل القلب إن كان خيرا أو شرا كصدى الصوت فى الجبل يعود على القلب برنة الخير أو الشر، وهو معنى قولهم: كاد المرتاب أن يقول خذنى.

فذمة الملوك كذمة غيرهم تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر، فالذمة حكم عدل، تنفر غالبا من الظلم والجور، فهى عنوان الخوف من الله تعالى فى كونها تحمل الملوك على العدل، ومما يحملهم على العدل أيضا ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العمومى، أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك، فإن الملوك يستحيون من اللوم العمومى، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والأكابر، لا يتساهل فى حكمه، ولا يهزل فى قضائه، فويل لمن نفرت منه القلوب، واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب.

ومما يحاسب الملوك أيضا على العدل والإحسان: التاريخ، أى حكاية وقائعهم لمن بعدهم من ذراريهم وخلفهم من الأجيال الآتية، فإن المؤرخ يذكر للأمة أخبار ملوكها، فينتقل من العين إلى الأثر، ومن البيان إلى الخبر، فيبث محاسن الملوك ومثالبهم لأعقابهم ليعتبروا، فدأب الملك العاقل أن يتبصر فى العواقب، وأن يستحضر فى دائم أوقاته وفى حركاته وسكناته أن الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية، وجعله ملكا عليهم لا مالكا لهم، وراعيا لهم، يعنى ضامنا لحسن غذائهم حسا ومعنى، لا آكلا لهم، وأنه تعالى خصه بمزايا جليلة: أولها: أنه خليفة الله فى أرضه على عباده، وقد أمر الجميع بالعدل والإحسان وما بعده، حيث قال جل من قائل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ (النحل: ٩٠) الآية،

فمأمورية العدل أول واجبات ولاة الأمور، وهو وضع الأشياء فى مواضعها، وإعطاء كل ذى حق حقه، والمساواة في الإنصاف بميزان القوانين، وأفضل الأزمنة أزمنة أئمة العدل، قال تعالى: ﴿ **وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ (الحجرات: ٩) وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب العدل»، وقال بعض الحكماء: إذا نطق لسان العدل فى دار الإمارة فهو بشرى لها بالعز، وعلى السعادة إمارة. فتدبير الملوك أمر العباد والبلاد بالعدل أرفع لذكرهم وأعلى لقدرهم. وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل: هل الشجاعة عندكم أبلغ، أو العدل؟ فقالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة! . فإلى العدل إنتهت الرياسة الكاملة، والمملكة الفاضلة.

ومن مزايا ولاة الأمور أيضا أن النفوذ الملوكى بيدهم خاصة، لا يشاركهم فيه مشارك، وهذه المزية العظمى تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة، حيث إن إجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهى بالسرعة، لكونه منوطا بإرادة واحدة، بخلاف ما إذا نيط بإرادات متعددة بيد كثيرين فإنه يكون بطيئا، وهذا النفوذ الملوكى القضائى غير النفوذ الإجرائى الذى هو مباشرة العمل، وهو من خصائص الوزراء ونظار الدواوين وغيرهم، فالنفوذ الملوكى هو الترتيب والأمر بالنفوذ الإجرائى لمن يجريه، فهو حق محترم لا مسؤولية فيه على الملك ولا يكون لغيره، فكيف وهو رئيس المملكة وأمير الجيوش البرية والبحرية وقائدهم الأول، وعليه مدار الأمور الملكية والعسكرية الداخلية والخارجية، وهو الذى يقلد المناصب العمومية لمن يستحق بإصدار أوامره فيها، ويرتب الوظائف وينظم اللوائح المبينة لطرق إجراء الأصول والقوانين، ويأمر بتنفيذ الأحكام الصادرة من ديوانه ومحاكمه ومجالسه، وله الرياسة على أمناء دين مملكته، وله الحق فى أن يمنح المناصب والألقاب العالية وأن يعطى عنوان الشرف ونيشانه.

وإذا أمر المجالس بتنظيم لوائح فإنها لا يجرى مفعولها ولا يعتد بها إلا إذا صدق على نفس اللوائح، وعلى ترتيب الجزاء على من خالفها، وترتيب الجزاء على مخالفة القوانين، وهو مايسمى تقرير القوانين وترسيخها، فإنها بدون ترتيب الجزاء ليس على مخالفها لوم.

وأما وظائف المجالس الخصوصية ومجالس النواب فليس من خصائصهما إلا المذكرات والمداولات، وعمل القرارات على ما تستقر عليه الآراء الأغلبية، وتقديم ذلك لولى الأمر، وكذلك من خصوصيات ولى الأمر نشر القوانين وإجراء مفعولها من يوم نشرها، ومن المزايا الملوكية ما يسمى حق الصفح عن الجانين، وهو أجل المزايا اللائقة بالمنصب الملوكى، وهو أن له الحق فى الصفح عن العقوبة المترتبة على الجانى الذى جنايته من قبيل: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨) أو تخفيف جزاء هذه الجناية، فإن العظيم يعفو عن الذنب العظيم، وكذلك له أن يسامح من جزاء المذنب بالصغائر، وأن يقبل توبة من يتوب، وهذه المزية الجليلة لائقة بما ينبغى أن يكون عليه الملك من الرأفة والرحمة والحلم، فإن الحلم يجب أن يكون من الأوصاف الذاتية للملوك، وليس لهذا الحلم المطلوب حد محدود ولا قيد مخصوص، بل على إطلاقه وعمومه فى حقه، ومفوض فيه أمره إليه، وإنما ضابطه أن يكون لرعيته بمنزلة الوالد فى الشفقة على أولاده، وإن حدث فى الرعية حادث فليتداركه بلطفه وتدبيره لئلا يتسع الخرق على الراقع، فإن أصابهم خلل فى أمر المعيشة من الطعام والشراب والكسوة والدواب، أو فى الذهب والفضة، فإنه يوسع عليهم ويلم الشعث الحادث بهم، كما فعل السلطان الغازى محمود بن سبكتكين سلطان «غزنة»، فإنه لما أجدبت رعيته، وكان له طعام، فقال بعض وزرائه: ينبغى أن يعطى لهم بثمن عدل، فقال: لا، بل نوسع لهم، ونتصدق به عليهم، فإنهم رعيتنا لا ينبغى أن نأخذ منهم شيئا، ولا يستحسن منا أن نكون فى الرخاء ورعيتنا فى الشدة والغلاء. ثم أمر حتى أفيض عليهم، فإن ضاقت البلدة بالرعية وشق عليهم المقام فى ازدحامهم فليزد فى البلد، فإن لم يمكن فلينقل من البلد جانبا من الأهالى إلى بلد آخر، فهذا هو الملك الحليم العادل.

ويجوز له أن يبذل حلمه إلى ما لا نهاية، فلا يليق الاستفسار منه عن الأسباب الحاملة له على الصفح عن الجانى، فى حالة ما إذا صفح عنه، ولا عن عدم الصفح فى حالة ما إذا لم يصفح، وإنما اللائق فى حقه فى حالتى العفو والعقاب أن لا يتجاوز فى ذلك الحد، حفظا لناموس الشريعة، وصونا لحدود الله من التعطيل،

ومحافظة على إبقاء قوة السياسة الشرعية الضامنة للأمن العام، ومنعا للتجرى وتعدى الناس بعضهم على بعض، ولهذا لما صدر من بعض الملوك الصفح عن بعض الجانين، وحضر الجانى أمام القاضى ليصدر له الأمر بالصفح عنه، حكم أمر الملك، قال له القاضى: لقد صدر أمر الملك بالعفو عن ذنبك، فاذهب سريعا، فقد ارتفع عنك العقاب، وبقى عليك الوزر! وقال قاض آخر لإنسان آخر قتل شخصا بالسم، وحكمت عليه المحكمة بعقوبة القتل، فخففها الملك باستبدال القتل بالليمان: (*) إذهب إلى الليمان لتزعج أهله، فقد قدم عليهم معتد أثيم، قبيح الفعال، ليصاحبهم، فلا شك أنهم ينفرون منك كل النفور!

وفى الممالك المدققة فى الأحكام العدلية لا يصفح الملك عن الجانى فى الغالب إلا فى ذنب الخوض فى الناموس الملوكى أو فى الصغائر الخاصة بالسياسة الملوكية، ولا يتجاوز الملك عن المعتدى فى شىء بالنسبة لحقوق العباد المبنية على المشاحة، فلا يمنع حدود الله، ولا يصفح عن القاتل لشخص له ورثة أبدا، لأن الدية أو القود(**) حقهم، ومع صفح الملك عن الجانى فلا يبطل تحقيق الدعوى المقامة فى شأن الجناية، فإن حقوق الملك إنما هى تخفيف عقاب المذنب نظرا للنفوذ الملوكى والناموس السلطانى المبنى على الشفقة والرحمة، فليس من المصلحة عفوه عن الذنب قبل ظهوره، ولا إظهار ذلك للمحاكم قبل التحقيق، لأن ذلك يفضى إلى ستر الحق. وله فى حقوق الحكومة، إذا حصلت فتنة عمومية، وخمدت نارها، وظهر رؤساء الفتنة، وبان المفسدون، أن يخبر المجالس المحكمية المقامة فيها قضاياهم بأنه قد عفا عن الجنح السياسية، وكذلك إذا حصل اتهام للمستخدمين فى الأموال الميرية بإختلاس أو إهمال، وكان عليهم تحقيق أو محاسبة، أن يسامحهم مما أتهموا به ويخلى سبيلهم.

وبالجملة فحق العفو من الملوك، الذى هم خلفاء الله فى أرضه على عباده،

(*) الأصح فى هذا السياق أن يقال: «فخففها الملك. باستبدال الليمان بالقتل» لأن الباء تدخل على المتروك. (الشروق).

(**) النَفَودُ: القصاص. (الشروق).

مبنى على وجوب التخلق بأخلاق الرحمن، أى الاتصاف بصفاته، كالرأفة والرحمة والحلم، وفى الحديث الشريف: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء». وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: إن كنتم تريدون رحمتى فارحموا عبادى. وقيل فى هذا المعنى:

إن كنت لا ترحم المسكين أن عدما ... ولا الفقير إذا يشكو لك العدما

فكيف ترجو من الرحمن رحمته ... وإنما يرحم الرحمن من رحما

وقال آخر:

أبغ للناس من الخـ ... ـير كما تبغى لنفسك

وارحم الناس جميعا ... أنهم أبناء جنسك

[حقوق الرعية]

وأما الرعية فهم طبقات متكاثرة، فينبغى للملك أن يحسن تربية رعيته على إختلافهم، ويهذب أخلاقهم بالآداب الحسنة، وأن يحمل أرباب الزراعة والتجارة والعمارة على تأدية حرفهم جميع حقوقها، وينهاهم عن استنفاد الذهب والفضة فيما لا يحل كالأوانى والأطواق واللجم والمناطق، لئلا يضيق عليهم أمر المعاش، بمعنى أنهم لا يستعملون النقدين فى الأشياء المستغنية عنهما، فإن الملوك المتقدمين كانوا لا يفعلون ذلك، هم ولا رعاياهم، فكثرت فى أيامهم النقود والخيرات، وينبغى أن يشوق المحترفة[1] بالعطايا والمكافآت، وشمول النظر والمسامحات، حتى يتسابقون إلى تكثير مصنوعاتهم وهكذا كل طبقة.

وبسط الكلام على عموم الرعية أن يقال: إن لهم حقوقا فى المملكة تسمى بالحقوق المدنية، يعنى حقوق أهالى المملكة الواحدة بعضهم على بعض، وتسمى

(١) أى الحرفيين أرباب الصنائع.

بالحقوق الخصوصية الشخصية، فى مقابلة الحقوق العمومية، وهى عبارة عن الأحكام التى تدور عليها المعاملات في الحكومة، وهذه الحقوق فى كتب الفقه عبارة عن: المعاملات، والأنكحة، والفرائض، والوصايا، والحدود، والجنايات، والدعاوى، والبينات والأقضية، فالحقوق المدنية المذكورة هى حقوق أهل العمران بعضهم على بعض لحفظ أملاكهم وأموالهم ومنافعهم ونفوسهم وأعراضهم وما لهم وما عليهم، محافظة ومدافعة، ويتفرع من حقوق المملكة العمومية أى السياسة والإدارة الملكية، ومن الحقوق المدنية الشخصية فرع آخر من الحقوق يسمى بحقوق الدوائر البلدية، يعنى حقوق النواحى والمشيخة البلدية، فهذه الحقوق تتعلق بالامتيازات الخصوصية لكل ناحية.

ثم إن الدائرة البلدية والناحية والمشيخة ألفاظ مترادفة فى عرف الإدارة على معنى واحد، فحقوق الدوائر والبلدية الامتيازية هى استقلال النواحى بالتصرفات الرشدية، يعنى استقلال كل ناحية بتحسين نظامها من حيث خصائصها البلدية، وحال أهاليها، واستبدادها بحفظ مصلحتها الخاصة بها، تحت ظل الحكومة، وهى مجموع قرية أو حارة أو أكثر صارت ناحية لما فيها من الروابط والعلاقات الخصوصية التى استدعتها المنافع العمومية، فهى جزء من المملكة الكلية، امتازت من أجزاء مملكتها بالمزايا الخصوصية البلدية، كاختصاصها بأسواق دورية ومواسم سنوية وعوائد محلية وعمائر خيرية.

ثم إن تكون النواحى سابق الوجود على تكون الحكومات وأقدم منها فى التجمعات التأنسية، فالنواحى أصل الممالك، فقد كانت النواحى مشيخات صغيرة مستقلة منفرد بعضها عن بعض، على قرية أو أكثر أو على بندر أو مدينة بوصف دائرة بلدية، وكان الحامل لأهلها على الاجتماع والاتحاد اقتضاء الحاجة الإنسانية للتأنس والتعيش والتحفظ، حيث أحسوا باحتياجاتهم إلى إدارة داخلية لدائرتهم، فاحتاجت تلك الإدارة إلى عمل ومحافظة وحسن تدبير وملاحظة، فاستدعى الحال إلى رئيس يقوم بإدارة تلك الدائرة ويسوس أمرها ويقوم أودها، فاختار أهل هذه الدائرة لهذه الوظيفة أعقل العشيرة وأنورهم بصيرة.

وكانوا فى مبدأ الأمر يختارون بالرغبة والطوع لمثل ذلك شيخا من شيوخ الأهالى، الطاعنين فى السن، ممن أفادتهم كثرة التجاريب المعلومات القوية والهيبة والوقار، ويجعلونه كبير الناحية، ومن المعلوم أن من طعن فى السن يطلق عليه اسم الشيخ، فلذلك قيل لهذا الشيخ شيخ البلد أو شيخ الناحية أو شيخ الحارة، وقيل للبلد وللناحية وللحارة مشيخة، فاستمر الحال على هذه التسمية حتى انتظمت النواحى فى الحكومات، وانخرطت فى سلك الممالك، وصارت أجزاء لكل أو جزئيات لكليات، وبقى اسم الشيخ دالا على كبير القوم أيا ما كان عمره.

ثم بتداول الأزمان وترتيب البلدان وانضمام عدة أقاليم أو مدن تحت رياسة واحدة تنظمت النواحى تنظيما رسميا تابعا لانقسام البلاد إلى ممالك، والممالك إلى إيالات، والإيالات إلى كور أو مديريات، والمديريات إلى أقسام، والأقسام إلى أخطاط، والأخطاط إلى نواحى ودوائر بلدية، أو إلى مدن، والمدن إلى أجزاء، وسمى شيخ المملكة سلطانا أو ملكا أو رئيس جمهورية، وسمى حاكم الإيالة واليا أو أميرا، وحاكم المدينة محافظا أو مأمورا، وحاكم المديرية مديرا، وهكذا، وحاكم البلد شيخ البلد أو عمدة، وهكذا على حسب عرف كل بلاد، واختلفت الأسماء باختلاف عرف الأقاليم والنواحى، والمسميات متحدة.

فقد تأسست كلية الحكومة على عمد نواحيها ومعاونيهم، فهم أعضاء لجسد الحكومة، وجميع الخدامات المحلية محالة على عهدتهم واعتماديتهم، حتى إن القوانين قد ترتبت فى الحكومة بحسب دوائرها البلدية، واقتضاء مواقعها المحلية من المزايا الخصوصية.

وفى الأزمان السالفة، قبل تقدم الجمعية فى البلاد الأوروبية، وقبل أخذها من التمدن بالحظ الأوفر، كان أكثر أهالى حكوماتها ملتزمين، وأمراء كبار مستقلين بتملك الدوائر البلدية والأراضى الزراعية، يملك الواحد منهم القسم بتمامه، ويستبد فيه برأيه وتنفيذ أحكامه، ويدفع خراجا مقررا لرئيس الحكومة الكبيرة، فكان هؤلاء الملتزمون والأمراء مستبدين بما تحت أيديهم من المدن والقرى والبلاد،

ومستعبدين لما فيها من الفلاحين والأهالى والعباد، وفى مقابلة ذلك يدفعون الخراج المقرر المعلوم لولاة الأمور، بشرط اتباع القوانين المعلومة والأصول والرسوم، فكانت النواحى تابعة لهؤلاء الأساتيذ الملتزمين، التابعين تبعية ضعيفة لملوكهم، مع مبارزتهم لهم بالمشاحنات فى كل وقت، مثل ما كان جاريا بالديار المصرية فى عهد المماليك.

فلما دعت الحروب الصليبية والغزوات الإفرنجية فى البلاد المشرقية الإسلامية إلى سفر رؤساء الجيوش بأنفسهم إلى هذه الحروب، وكانوا هم أرباب الالتزام، واقتضى الحال أن يأخذوا من التزاماتهم ما قدروا عليه من الأموال والنفوس لحرب الإسلام، وكانوا أرباب حمية قوية وغيرة دينية، وطالت أزمنة الغزو والقتال، للتغلب على القدس الشريف العزيز المنال، مع كثرة الإنفاق لطول الشقاق، وتبصرهم فى إدخال محاسن التمدن المشرقية فى بلادهم المغربية، وتعلمهم من الإسلام ما حسن بلادهم، وإنفاقهم النفقات الجسيمة فى الحصول على ذلك كله مددا مديدة، فتضعضع بهذا من جهة المعايش حالهم، وضاعت فى الأزمان المختلفة أموالهم ورجالهم، وعمتهم لضرورة الحروب الفاقة، وعجزوا عن الإطاقة، واضطروا إلى بيع الأراضى والرجال، فاشترى منهم أهل النواحى أملاكهم وأنفسهم بالأموال، ومنهم من اشترى الامتياز بحق تنصيب شيخ من الناحية للمحاماة عن الحقوق الأهلية، فتمتعوا من ذلك الوقت بالمزايا الأهلية، والحقوق المدنية، وتملكوا الأملاك، وخرجوا من ربقة التبعية، وصاروا على تداول الأيام يزدادون فى القوة بقدر ضعف الملتزمين وفقدهم للنخوة، فتواجدت عند الجميع الحرية، وصارت ممالك أوروبا بالتمدن حقيقة وحرية.

وقد ترتب على إعتاق أعناق الدوائر البلدية، وتحرير رقاب النواحى فى البلاد الأوروباوية، كما فى غيرها من البلاد المتمدنة فائدتان مهمتان: **(إحداهما)**: تمتع أهالى النواحى بثمرات الاكتساب وتحصي المنافع وتحسين أحوال أهاليها بالثروة والغنى، والأخذ فى التمدن والتقدم فى العمران، (وثانيتهما): قوة الحكومة وتمكين الدولة، حيث صارت جميع النواحى بالمملكة تابعة لها مباشرة بدون توسط

الملتزمين والأمراء والأساتيذ والكبراء لأن النظام العمومى فى الدولة إنما يتم بوحدة الحكومة واستبدادها بالتصرفات الملكية، ورفض مذهب السيادة الأرضية، وطرح مشعب الالتزامات البلدية ظهريا، ونبذ طرق تعدد الأحكام المختلفة مكانا قصيا، فالمملكة المتوحدة يضرها كثرة الحكام المتعددة.

ثم لم تزل النواحى تأخذ فى التمكن من التصرفات الرشدية، والتقدم فى محافظات حقوق الدوائر البلدية، بعناية الحكومة الكلية، حتى صارت قوية متينة، محررة مصونة، لأن قوة الأجزاء مستلزمة لقوة الكل، فتمتع جميع الأهالى إذ ذاك بثمرات مهارتهم الصناعية، وآثار براعتهم الزراعية.

ومن المعلوم أن الشريعة الشريفة من صدر الإسلام ناطقة بما هو أقوى من ذلك وأقوم، والسيرة العمرية صادقة فيما هو أتم من ذلك كله وأنظم، والإسلام سوى بين الجميع فى العدل والإنصاف، وقد عم به التمدن فى سائر الأقطار والأطراف، واعترف له بذلك جميع أمم الدنيا كمال الاعتراف، فلا يضيره ولا يضره سفاهة بعض حكام سلفوا، حيث خالفوا أحكامه المرضية فى أيامهم، فلا يقاس على تلك الأيام، وذلك كحكومة المماليك فى مصر، وتحميلهم لأهلها ثقيل الإصر، فهذه قضية شخصية لا تنتقض العموم، بدليل زوالها فى أجل مسمى ووقت معلوم.

[الإدارة المحلية]

فقد ولى المولى تبارك وتعالى المرحوم محمد على، صاحب المساعى المشكورة، وكذلك من بعده من ورثائه، على قدر حاله وإمكانه، لا سيما حفيده خديو مصر العادل، فقد شرع فى تأسيس الدوائر البلدية المحررة، وبنى ذلك على قواعد ثابتة مقررة، فالآن بعناية هذا العزيز الجليل، وحسن رعايته الظاهرة كالشمس فلا يقام عليها دليل، تفوز مصر بنجح الآمال، وترقى إلى درجة الكمال، ثم إن ترتيب عمد

الدوائر البلدية التي هي النواحي، وترتيب معاونيهم ومأموريهم، ومعاوني الضبطية، إنما هو بحسب جسامة كل ناحية واتساع دائرتها وثروة أهلها، حتى أن الناحية الجسمية يترتب فيها أيضا مشورات بلدية رشدية، للاتحاد مع العمدة ومساعدته في الأمور المهمة، فالمدار في إدارة الناحية وضبطيتها على العمدة، وهو كثير الوظائف ومنوط بأمور جمة، منها تنظيم جرائد الأنساب، وهو تسجيل المولودين والمتزوجين والمفقودين على الرسوم المربوطة، وهو من أهم أمور المملكة في حفظ الأموال والنفوس والقرابات، ينبني عليه أبواب كثيرة من الفقه والسياسة، فالعمدة من ذوي الإدارة المدنية، والضبطية الحاكمية، إلا أن الإدارة البلدية التي هي أصل وظيفته الأصلية تحت رياسة المديرية، ولما تفرعت وظائفه وتشعبت خصائصه، كان شيخ الناحية بالنسبة لها كمدير صغير، وولي على دائرتها، فهي كاليتيم وهو كالكفيل النصير، فمن خصائصه مباشرة أملاك دائرة الناحية، وعقاراتها وإيراداتها، وتقنين مصاريفها بما تقتضيه المصلحة والغبطة، وتسديد ما عليها من أموال الميري ومن الديون.

ومن خصائصه أيضا ترتيب الأشغال العمومية، وإجراء العملية اللزومية على طرف الدائرة البلدية، إذا كانت هي الملزومة بالمصاريف، ومن خصائصه أيضا مباشرة إدارة عمائر المحال الخيرية التابعة للناحية، إذا كانت مصاريفها على دائرة الناحية، أو كانت المصاريف على الحكومة، وكانت المحال الخيرية معدة لمنافع الدائرة البلدية، كالاسبتاليات والمكاتب، ومن خصائصه أيضا التشبث بكافة الوسائل التي تجلب الراحة والأمنية وحسن الانتظام لأهالي البلدة، وكذلك الاعتناء بتهذيب الأخلاق والتأديب والتربية للأهالي وتعويلهم على الاستقامة، وعدم ارتكاب ما فيه سقامة، ومن مأمورياته أيضا توزيع ما يخص دائرة الناحية، في ضمن عموم المديرية، من الأموال والعوائد، وتوزيعها على أشخاص الناحية بحسب ميسرة كل منهم، بالاتحاد مع شورى الناحية، لعدم المغدورية، وكذلك يجب تحصيل الأموال والعوائد بحسب التوزيع، وتوريدها إلى خزينة القسم أو إلى خزينة المديرية، حسب الأصول المقررة، وعليه أيضا الملاحظة للأشغال العمومية والعمليات، والمحافظة على أملاك الحكومة، والبحث عن إصلاح المساجد والمعابد

والمشاهد والقرافات والأضرحة والمكاتب والمدارس والآثار القديمة، وكل ما هو فى الناحية من أمثال ذلك.

وبالجملة فعمدة البلد أو الناحية مرخص له، بدون استئذان من ديوان القسم أو المديرية، أن يجرى من بادئ رأيه جميع ما هو من خصائصه ووظائفه وحدوده، ما عدا بعض أشياء جسيمة يحتاج فيها للاستئذان من الرئيس الذى هو أعلى منه، وهو المدير بالنسبة للإدارة البلدية، ونائب الملك فى المحاكم بالنسبة للضبطية الحاكمية، فمما يحتاج فيه العمدة للاستئذان شراء عقارات أو أراضى للناحية، أو بيع مثل ذلك من الناحية، أو ضرب عوائد على الأهالى غير المقنن فوق العادة لمصروف الناحية لاحتياجاتها، وكاقتراض أموال على طرف أموال الناحية المتوفرة فى صندوقها بعد المصرف، وكالتداعى فى قضايا تخص الناحية، أو قبول التخاصم والتداعى مع أحد أدعى على دائرة الناحية بشىء، فكل هذا على العمدة أن يستأذن فيه من محل الاقتضاء، وما عدا ذلك من حقوق الناحية هو من دائرة تصرفه وحدوده، فيجب على العمدة بحسب الإمكان أن يباشرها بنفسه، فهو المحامى عن الناحية محاماة الولى لليتيم والكفيل للمكفول، وللحكومة العليا تولية من يفتش أحوال الدائرة البلدية، كالناظر الحسبى.

فيجب على كل عمدة أن يكون له إلمام بالأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، وممارسته للأحكام الملكية، فإن جهله لهذه الأحكام يحط بمقامه، ويزرى به بين أقرانه وأقوامه، ولهذا اعتنى المؤلفون فى سائر الدول والملل فى تأليف كتب السياسة على سائر الفنون، وجعلوها فى طاقة الحكام، وإذا كان هذا وصف شيخ البلد، وأنه يزرى به جهل شريعة البلد وأحكامها السياسية الشرعية، فما بالك بمن هو أعلى منه من الموظفين كوكلاء المملكة ووزرائها ونوابها وحجابها، فالملك العاقل المدبر لا ينتخب للوظائف المهمة إلا من يكون جامعا لخصال الخير، حسن الخلق والخلق، يجمع بين البشاشة والوقار، والحلم والهيبة، والعفة والنزاهة، وعزة النفس وسداد الرأى، وحسن التدبير، وسرعة الفهم، والعلم بالأمور السياسية

والقوانين الملكية والأحوال الديوانية، والوقوف على أحوال المسالك والممالك وما بينهما من العلاقات والروابط والعهود والضوابط، وأن يكون معروفا بالصدق والوفاء، متبحرا فى أنواع العلوم السياسية، له خبرة بكتاب الإنشاء والمحاسبات، ذكى الفطنة سريع الجواب كثير الصواب، متيقظا فى تدبير الدولة العادلة، معمرا للجهات والنواحى والأعمال، مثمرا لإصناف الأموال، وتحصيل الغلال، مقتصدا فى وجوه مصرفها ونفقاتها.

قالت الحكماء: «يجب أن يكون الوزير مثل المرأة التى لها وجهان، ينظر بوجه منهما إلى الله تعالى، وبالآخر إلى الرعية» انتهى. ومثل الوزير فى ذلك سائر رؤساء المملكة، فإنهم جميعا كالراعى الذى استؤجر لحفظ الأغنام، فإذا حفظوها استحقوا الأجرة، وإن ضيعوها أخذوا بالغرامة، وحبسوا فى سن الملامة، وخسروا الدنيا والآخرة، ويقال لهم، يا رعاة السوء، أكلتم السمين، وضيعتم الهزيل، فحق منكم الانتقام. . بخلاف الوزراء الذين يعلمون أن الشريعة معيار المملكة، والسياسة ميزان السلطنة، فيزنون الرعايا، كأنفسهم، بميزان الشريعة والسياسة، فهؤلاء يفوزون بسلامة الدنيا والآخرة، لما حفظوه من الوزن بقسطاس العدل فى صيانة النفس والمال والعرض، فبالعدل قامت السموات والأرض.

وبالجملة فعلى ولى الأمر أن يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته، وأن ينزل نفسه منزلتهم، وكل ما يحبه لنفسه يحبه لهم، وعليهم الطاعة الكاملة له لقوله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ (النساء: ٥٩) فقد قرن تعالى طاعة ولاة الأمر بطاعة نفسه ورسوله، فهذه عظمة جميلة لولاة الأمر ومنزلة جليلة، تبلغ النهاية فى رفعة القدر، فإذا ظهر لولى الأمر عدو لزمهم معاونة الملك عليه، فإذا استقرضهم أقرضوه، وإذا استعان بهم أعانوه، وإن عدل فيهم مدحوه، وإن ثقل عليهم شىء من أحكامه صبروا إلى أن يفتح الله لهم باب هدايته للخير، وإرشاد دولته للعدل وزوال الضير، ويسألون الله تعالى أن يرزقه بطانة أهل حكمة وشجاعة وعفة وعدالة.

فالملك المرزوق بموظفين متصفين بهذه الخصال المحمودة، هو مسعود الرعية، فهو الذى يتجمل به الزمان، ويرضى عنه الرحمن، واهتمام الملك وموظفيه بمصالح الرعية لا يمنع من سعيهم أيضا فى إصلاح أنفسهم بقدر الإمكان، لأن من لم يصلح نفسه عسر عليه إصلاح غيره، وكيف يعرف رشد غيره من لا يعرف رشد نفسه؟ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الفصل الثانى

(فى طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين)

والمراد بهم هنا ما يشمل : **علماء الحقيقة، وعلماء الشريعة، وعلماء الحكمة والأمور النافعة التى عليها نظام الدنيا والدين.**

فأما علماء الحقيقة أهل الزهد والورع، وقليل ما هم، فهم أصحاب الإخلاص فى الدين، وعن محبة الدنيا تراهم متباعدين. وأما العلماء، وهم ورثة الأنبياء، وحملة الشريعة، فدرجتهم من أمة النبى، صلى الله عليه وسلم، مثل درجة أنبياء بنى إسرائيل، وكرامتهم عظيمة، ولحومهم مسمومة، من شمها مرض، ومن أكلها سقم، فمن عظمهم فقد عظم الله ورسوله، وأعطى درجة العلم حقها، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء. قال صلى الله عليه وسلم : «لولا العلماء لهلكت أمتى». اللهم احفظ العلماء، واعف عن الجهال، وارحم الناس، فيجب على الدولة أن تحترم علماء الشريعة، وتكرمهم، وتثيبهم على تعليمها والمحافظة عليها، بل عليها أيضا أن تتحرى إدخال السرور عليهم، واستمالة قلوبنهم، والتعطف عليهم ، وأن تتقرب إليهم بالصلات، وأن تتحف أولادهم بالتحائف، رفقا بهم، وتلطيفا لهم، وأن تحملهم على الاشتعال بالعلم.

والمراد بعلماء الشريعة العارفون بالأحكام الشرعية والعقائد الدينية، أصولا وفروعا، يعنى الأحكام المتعلقة بالعمل، عبادات ومعاملات، ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التى يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية، لأن الوسائل تشرف بشرف المقاصد. وينبغى زيادة الإجلال والتبجيل لأهل التفسير والحديث، وهم العلماء المنتدبون لعلوم القرآن وتفاسيره ورواية الحديث بأسانيده، وبعلوم

الترغيب والترهيب. وتبجيل علماء الحقيقة الذين انجلى عن قلوبهم الخبث وقاذورات الدنيا، وارتفع عنها الغطاء والرين حتى اتضحت لهم حلية الحق عيانا، وانتظمت شمائلهم فى سمات الصالحين، الذين بذكرهم تنزل الرحمات من رب العالمين، فمثل هؤلاء ينبغى الاتحاد بهم لاستفادة الخير منهم، فمن كان جليسه صاحب علم أو صلاح استفاد منه خيرا، لأنه قلما يخلو مجلسه عن مسألة وعظ أو نصح.

أحب الصالحين ولست منهم — لعلى أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعته المعاصى — وإن كنا سواء فى البضاعة

(وقيل)

لى سادة من عزهم — أقدامهم فوق الجباه
إن لم أكن منهم فلى — من حبهم عز وجاه

فمجالسة الصالحين فائدة عائدة بالخير العميم على مجالسيهم، وفى الحديث: «يحشر المرء مع من أحب»، وقال صلى الله عليه وسلم: «العالم والمعلم شريكان فى الخير».

وكذلك يحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج إليها فى الدولة والوطن، كعلم الطب، والهندسة، والرياضيات، والفلكيات، والطبيعيات، والجغرافيا، والتاريخ، وعلم الإدارة، والاقتصاد فى المصاريف، والفنون العسكرية، وكل ما كان له مدخل فى فن أو صناعة، فإن أهله يجب إكرامهم من أهل الدولة والوطن. وكذلك يجب إسداء المعروف واصطناعه لأرباب المعارف الأدبية والفصاحة العربية، فقد ذكر ابن رشيق[1] فى (العمدة) أن أعرابيا

---

(١) أبو على الحسن بن رشيق الأزدى (٩٩٥-١٠٦٤م)، مؤرخ، وشاعر، وفقيه، ولغوى، وأهم كتبه وأشهرها كتاب (العمدة) فى صناعة الشعر ونقده، ولقد بلغ من شهرته أن صار لقبا لصاحبه فعرف بابن رشيد العمدة؟!

وقف لعلى، رضى الله عنه، فقال: إن لى إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك. فقال: خطها فى الأرض، فخط: إنى فقير. فدفع إليه حلة، فلما تسلمها أنشد:

كسوتنى حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن الثناء ليحيى ذكر صاحبه كالغيث يحيى نداه السهل والجبلا

لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به فكل عبد سيجزى بالذى فعلا

فأمر له بخمسين دينارا، وقال: الحلة لفاقتك، والخمسون لأدبك، سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «أنزلوا الناس منازلهم».

وقد نص المؤرخون على أنه لم يك فى الدنيا فى قديم الزمان أعظم دولة ولا أشمخ مملكة ولا أدوم أياما وذكرا من دولة مصر والفرس واليونان، وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكمة، وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه، حتى كان أكثر ملوكهم علماء وحكماء: فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على أئمة فى هذه العلوم بأسرها، فما أضيع دولة قل علماؤها وحكماؤها، وفسدت مزارعها، وكسدت منافعها، ولم تجد من يحييها، ولا من يحيى بتحيات العلوم معالمها ونواحيها، ولكن الحمد لله الذى مَنَّ على مصر بخلافه الخلفاء على الإطلاق، حيث جعلوا فيها شموس العلوم ساطعة الإشراق، ثم من عليها بدولة آل عثمان فحفظت بالنسبة إليها ما بقى فيها من مكارم الأخلاق، مع المحافظة على القوانين الشرعية، لا سيما وأن من نتيجة تسلطنهم عليها تشريف ذى النفس الزكية، والمناقب السنية، جنتمكان المرحوم محمد على، الذى أبقى بحسن صنيعه ذكره مدى الأيام، وآل أمر المملكة لحفيده الرفيع المقام.

إنما المجد ما بنى والد الصد ق وأحيا فعاله المولود

فقد جدد دروس العلوم بعد اندراسها، وأوجدت بعد العدم رؤساء العلماء والفضلاء نتيجة قيامها، لقصد إنتشار العلم والزيادة فى الفضائل، فأتى من ذلك بما

لم تستطعه الأوائل، غير أنه، حفظه الله وأبقاه، ولو أنه أعلى منار الوطن ورقاه، لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور، ولم يجذب طلابه إلى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر. نعم إن لهم اليد البيضاء فى إتقان الأحكام الشرعية، والاعتقادية، وما يجب من العلوم الآلية، كعلوم العربية الاثنى عشر، وكالمنطق والوضع وآداب البحث والمقولات وعلم الأصول المعتبر، ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون، غير أن هذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر، والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر.

[المعارف المدنية ضرورية]

ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة، التى ينبغى أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقديم الوطنية، من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية، فإنه بانضمامه إلى علوم الشريعة والأحكام، يكون من الأعمال الباقية على الدوام، ويقتدى بهم فى اتباعه الخاص والعام، حتى إذا دخلوا فى أمور الدولة، يحسن كل منهم فى إبداء المحاسن المدنية قوله، فإن سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم، ومنهجه الأبهج هو القويم، يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم، وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم، لا سيما **وأن هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية، هى علوم إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن فى خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة، بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوروبا حكماء الأزمنة الأخيرة**، فإن من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى، الذى كانت مشيخته قبل شيخ الإسلام الشيخ أحمد العروسى، الكبير، جد شيخ شيوخ الجامع الأزهر الآن السيد المصطفوى العلم الشهير، رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير، وأنه له فيها المؤلفات الجمة، وأن تلقيها إلى

أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المهمة، فإنه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية وآلاتها، معقولا ومنقولا: أخذت عن أستاذنا الشيخ المعمر الشيخ على الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات، وبما توقف عليها كالفرائض والميقات، وسيلة ابن الهائم ومعونته، كلاهما فى الحساب، والمقنع لابن الهائم، ومنظومة الياسمينى فى الجبر والمقابلة، ودقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الأزياج[1]، ورسالتين إحداهما على ربع المقنطرات والأخرى على ربع المجيب، كلاهما للشيخ عبد الله المارديني، جد السبط، ونتيجة الشيخ اللادقى، المحسوبة لعرض مصر، والمنحرفات لسبط المارديني فى علم وضع المزاول، وبعض اللمعة فى التقويم، وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب الموجز واللمحة العفيفية فى أسباب الأمراض وعلاماتها، بشرح الأمشاطى، وبعضا من قانون ابن سينا، وبعضا من كامل الصناعة، وبعضا من منظومة ابن سينا الكبرى، والجميع فى الطب، وقرأت على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطى كتاب لقط الجواهر فى معرفة الحدود والدوائر لسبط المارديني، فى الهيئة السماوية، ورسالة ابن الشاط فى علم الاسطرلاب[2]، ورسالة قسطاس لوقا فى العمل بالكرة، وكيفية أخذ الوقت منها، والدر لابن المجدى فى علم الزيج، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة، وبعضا من الجغمينى فى علم الهيئة، وبعضا من رفع الإشكال عن مساحة الأشكال فى علم المساحة، وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومى جملة كتب منها رسالة فى علم الإرتماطيقى للشيخ سلطان المزاحى، وقرأت على الشيخ محمد، الشهير بالسحيمى، منظومة الحكيم درمقاش المشتملة على علم التكسير وعلم الأوفاق وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب، ورسالة أخرى فى رسم ربع المقنطرات والمنحرفات، لسبط

(١) مفردها «الزِّيج» وهى كلمة أصلها فارسى، وتعنى الجداول الفلكية القديمة.

(٢) آلة قديمة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية، وهى من اختراع «هيباخوس» أو «أبو لونيوس»، وأول من استعملها من العرب، فصنعها وكتب عنها، إبراهيم الفزارى (المتوفى سنة ٧٧٧م)، ولقد طور العرب هذه الآلة، وظلت مستعملة حتى القرن الخامس عشر الميلادى.

الماردينى، وعلم المزاول، ومنظومة في علم الأعمال الرصدية، وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم، لمحمد بن ساعد الأنصارى، وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما، أولها علم الحرف، وآخرها علم الطلاسم، ورسالة للإسرائيلى، ورسالة للسيد الطحان، كلاهما فى علم الطالع، ورسالة للخازن فى علم المواليد، أعنى الممالك الطبيعية، وهى الحيوانات والنباتات والمعادن، وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة، ومتن الجغمينى فى علم الهيئة، بمراجعة قاضى زاده، ومطالعة السيد عليه، وأخذت عن سيدى أحمد الشرفى، شيخ المغاربة بالجامع الأزهر، كتاب اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة».

ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم، أعقبه بما طالعه بنفسه، بدون الأخذ عن شيخ، فقال: «طالعت كتاب إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد، فى علم الإرتماطيقى، فى نحو كراسين، وكتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه، فى نحو كراسين، ورسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير، فى نحو كراسين، ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح، فى نحو كراسين، ومنها كتاب اتحاف البرية بمعرفة الأمور الضرورية فى علم الطب، فى نحو خمسة كراريس، ومنها رسالة القول الأقرب فى علاج لسع العقرب، فى نحو كراس، ومنها منهج السلوك فى نصيحة الملوك، فى نحو عشرة كراريس، ومنها كتاب بلوغ الأرب فى أسماء سلاطين العجم والعرب، معنونا باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان أحمد خان، المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة وألف، يوم الأربعاء، أول النهار، فى الساعة الأولى بعد الشمس، الجالس على سرير الملك فى سابع عشر شهر صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة ألف، يوم الأحد، قبل الشمس» انتهى كلامه ملخصا بتصرف.

فانظر إلى هذا الإمام الذى كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر، وكان له فى العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر، مما تلقاه عن أشياخه الأعلام، فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهرية، ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه

العلوم النافعة فى الوطنية، وفضل العلامة الجبرتى[1] المتوفى فى أثناء هذا القرن فى هذه العلوم وفى فن التاريخ أمر معلوم، وكذلك العلامة الشيخ عثمان الوردانى الفلكى، وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار[2] شيخ الأزهر أيضا مشاركة فى كثير من هذه العلوم، حتى فى العلوم الجغرافية، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبى الفداء، سلطان حماه، المشهور أيضا بالملك المؤيد، وللشيخ المذكور هوامش أيضا وجدتها بأكثر التواريخ، وعلى طبقات الأطباء، وغيرها، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية، مع غاية الديانة والصيانة، وله بعض تأليف فى الطب وغيره، زيادة عن تآليفه المشهورة. فلو تشبث من الآن فصاعدا نجباء أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية التى جددها الخديو الأكرم بمصر بإنفاقه عليها أوفر أموال مملكته، لفازوا بدرجة الكمال، وانتظموا فى سلك الأقدمين من فحول الرجال، وربما يتعللون بالاحتياج إلى مساعدة الحكومة، والحال أن الحكومة إنما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد، فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر، فترجع المسألة دورية، والجواب عنها: أن الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل، ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل، وكل من سار إلى الدرب وصل، وإنما تكون المكافأة على تمام العمل. فهذا ما يتعلق بطبقة العلماء، وقد ذكرنا ما يتعلق بالعلم فى (الفصل الأول) من (الباب الأول) من هذا الكتاب مبسوطا بما فيه الكفاية.

---

(١) عبد الرحمن (١٧٥٤ ـ ١٨٢٥م) أعظم مؤرخى عصره، وهو حجة عالمية فى التاريخ للأحداث التى عاصرها وشهدها، خصوصا ما كتبه عن الحملة الفرنسية على مصر، وقيام دولة مصر الحديثة بقيادة محمد على باشا. ويعتبر كتابه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) أهم مصادر ذلك العصر، كما يعد كتابه (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) تاريخا وحيدا ـ لكاتب عربى ـ عن الحملة الفرنسية.

(٢) (١٧٦٦ ـ ١٨٣٥م) تولى مشيخة الأزهر، وتأثر بالحملة الفرنسية، وشجع رفاعة الطهطاوى على اكتساب المعارف الحديثة.

[القضاء]

ومن أجلاء طبقة العلماء القضاة، فرتبة القضاء قد جعل الله إليها منتهى القضايا، وإنهاء التظلمات والشكايا، ولا يكون صاحبها إلا من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فالقاضى متولى الأحكام الشرعية لهذه الرتبة كما ورث عن النبى صلى الله عليه وسلم علمه ورث عنه بهذه الوظيفة الشريفة حكمه.

* * *

ومما ينبغى ذكره هنا بالمناسبة أن من منن الله سبحانه وتعالى على عائلتنا بطهطا أن اجتمع فيها مع منصب نقابة الإشراف، التى هى لم تزل فى بيتنا إلى الآن، منصب قضاء الولاية فى كثير من نسلنا:

إن لله علينا نعما يعجز العبد عن العد لها

فله الحمد على نعمائه وله الشكر على الحمد لها

وكنت أسمع من أسلافنا أن من ذرية جدنا أبى القاسم الطهطائى من تقلد بمحروسة مصر بولايات شريفة، وحظى عند ملوكها بالمراتب المنيفة، حتى وقفت الآن على كتاب يسمى (ذيل رفع الإصر فى قضاة مصر) للحافظ شمس الدين أبى الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان بن محمد السخاوى، صاحب (الضوء اللامع) ترجم فيه لاثنين من أقاربنا توليا قضاء مصر بالتعاقب، ولما كان هذا الكتاب مرتبا على حروف المعجم ترجم للخلف منهما قبل السلف، فقال هذا المؤلف ما نصه: «عمر بن أبى بكر بن محمد بن حريز، ويدعى محرز ابن أبى القاسم بن عبد العزيز بن يوسف بن رافع بن جندى بن سلطان بن محمد بن أحمد بن حجون بن أحمد بن محمد بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر التركى بن محمد المأمون بن على الحارض بن الحسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، القاضى سراج الدين بن الشيخ مجد الدين الحسينى المغربى الأصل الطهطائى المنفلوطى المصرى المالكى الشهير بابن حريز، بضم المهملة، وآخره زاى، وهو أخو القاضى حسام الدين

محمد الآتى. والحسام هو الذى أملى علَّى هذا النسب بعد أن أثبته، ثم أوقفنى عليه صاحب الترجمة فى جزء فيه ترجمة جده الأعلى الشيخ أبى القاسم المذكور بالكرامات والأحوال السنية، وكون الشيخ عبد الرحيم القنائى بن عم جده وتقدمه فى الزمان، وأن من جملة من لقيه السراج البلقينى، وأنه مات فى مستهل سنة اثنتين وستين وسبعمائة[1] عن نحو تسعين سنة، ودفن بزاويته التى أنشأها بطهطا، وقبره هناك ظاهر يزار». انتهى. أنجب أبو القاسم هذا عدة أولاد، كانت لهم جلالة وهيبة وكلمة نافذة، منهم نور الدين أبو الحسن على الضرير المقرى، وجد والد صاحب الترجمة الزين أبو المعالى حريز الموصوف من بعض من لقيه فى سنة ثمان وسبعين بالشيخ الإمام المحدث المقرى، وكان مولد صاحب الترجمة فى سنة تسع عشرة بمنفلوط، ونشأ بها فحفظ القرآن والرسالة والملحة وجوَّد القرآن على الشهاب الطهطائى، وقرأ الفقه على الزينين: عبادة، وطاهر، والشهاب السخاوى، وعليه قرأ فى العربية والفرائض ولازمه وانتفع به، وأخذ فى علم الكلام عن أبى عبد الله اليشكرى المغربى، وسمع الحديث عن النجم بن عبد الوارث، فمن دونه، وممن سمع عليه الشيخ أحمد بن يونس المغربى، نزيل مكة حين إثبات هذه الترجمة، وأجاز له العلم البلقينى، وناب عنه وكذا عن غيره من الشافعية بعده، وعلى الولى السنباطى المالكى، وحج فى سنة أربع وستين وتعانى[2] إدارة الدواليب والمعاصر (أى معاصر قصب السكر) ونحوها كأخيه.

ولما استقر أخوه فى قضاء المالكية صار يكتب على الفتوى، وعرف بالديانة والأمانة والتصلب فى أمر دينه، ومزيد اليبس، وحسن المعاملة، وصدق اللهجة، والوفاء بالعهد، وذكر باستحضار فروع المذهب فصار إلى رياسة وجلالة، فلما مات أخوه استقر فى قضاء المالكية بعده فى شعبان سنة ثلاث وسبعين، وأعرض عن بعض وظائف كانت مع أخيه كتدريس الشيخونية، فاستقر فيها المحيوى بن تقى، وتدريس جامع طولون أيضا، فاستقر فيه النووى بن التنيسى، ثم رجع إليه

(١) وتوافق سنة ١٣٦٠م.

(٢) أى تولى.

بعد وفاته، وقام بالمنصب مقاما حسنا متحريا فيه جهده، وشكرت سيرته فيه، وصمم فى قضايا، وبرز فى مواطن جبن فيها غيره. كل ذلك مع اشتغال فكره بما التزمه من ديون أخيه وكثرة التعرض له بسببها من الدوادار[1] الكبير وكذا الثانى مرة بعد أخرى، وآل الأمر فى بعضها إلى أن أمر السلطان بالترسيم عليه، وأقام بطبقة الزمام بضعة عشر يوما[2]، وعد ذلك فى النوازل، ثم أطلق، وبعد ذلك أنهى إلى السلطان فى شىء من تتمات ما أشير إليه يقتضى تغير خاطره منه، فبادر يوم الاثنين سادس صفر سنة سبع وسبعين إلى التصريح بعزله، وتقرير الشيخ برهان الدين اللقانى، وجاءه الشرقى الأنصارى مبشرا بذلك، وتألم السراج لهذا الأمر كثيرا، وظن أنه بسبق سعى من البراهان، والظاهر خلافه، وكذا تألم له أحبابه. هذا بعد أن كان فى أول هذا الشهر وقت التهنئة بالغ فى المشى فيما رأى أنه الحق مما هو موافق لغرض السلطان فى قتل شاه سوار الذى شرحت خبره فى غير هذا المحل، وجهر بذلك جهرا زائدا عن رقفته، وأنه لا تقبل توبته، بل يضم إليه فى القتل كل جماعته، ولم يعجب السلطان فيما قيل الجهر بذلك، بل كان يجب إخفاء الأمر فيه، والله يحسن العاقبة.»

ثم ترجم لأخيه فقال:

«محمد بن أبى بكر بن محمد بن حريز، وباقى نسبه مضى فى أخيه عمر القاضى حسام الدين أبو عبد الله، الحسينى، المغربى الأصل، الطهطائى المنفلوطى، المصرى، المالكى، عرف بابن حريز، ولد فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربع وثمانمائة بمنفلوط، وانتقل منها، وهو صغير مع أبيه، إلى القاهرة، فقرأ القرآن بها على الشريف جمال الدين بن الإمام الحسينى، وتلاه برواية أبى عمرو من طريق الدورى على الجمال يوسف المنفلوطى، أحد تلامذة

---

(١) صاحب هذا المذهب يعرض المسائل على السلطان، ويبلغ عنه إلى الرعية، وكان يختار من بين العسكريين.

(٢) بلغة عصرنا: حددت إقامته فى موطنه (وهو تقييد للحريه أشبه بالإيقاف والاعتقال، وإن كان أقل منه فى الأثر والقسوة والإيذاء).

جدة الأعلى أبى القاسم المذكور بالإمامة فى القراءات وغيرها، كما سلف فى أخيه عمر، ثم على الشهاب بن البابا، والشهاب الهينمى، وتلاه بعد ذلك وهو كبير فى مجاورته بمكة بالسبع، أفرادا وجمعا، على الشيخ محمد الكيلانى، أحد أصحاب الشمس بن الجزرى، ابتدأ عليه فى عاشر المحرم سنة ثمان وأربعين وختم فى رابع ذى الحجة منها، وحفظ قبل ذلك(العمدة) و (الشاطبية) و (الألفية) وعرضها على الجمال الأقفهسى، والبدر الدمامينى، والشمس البساطى، وابن عمه القاضى جمال الدين، والشمس بن عماد، والولى العراقى، والعز بن جماعة، والجلال البلقينى، والشمس والمجد البرماويين، وشيخنا، والتلوانى وآخرين، وتفقه على الزين عبادة، قرأ عليه الرسالة مرتين، وصل فى الثانية إلى الوصايا وربع العبادات فقط من ابن الحاجب، والرسالة فقط على الشمس الغمارى المغربى نزيل الصرغتمشية، وكذاأخذ عن الشمس البساطى وغيرهم، وسمع على الولى العراقى بعض الصحيح، وعلى الزين بن عياش بمكة صحيح مسلم والسنن لأبى داود، وعلى البدر حسين الأهدل بقراءته الشفاء، وبقراءة القاضى فتح الدين بن سويد الموطأ، وعلى الشرف أبى الفتح المراغى بقراءة ابن سويد أيضا الشفاء، كل ذلك فى مجاورته الماضية بعينها. وكان حج قبل ذلك فى سنة اثنتين وعشرين، وولى قضاء منفلوط عن شيخنا، فمن بعده، وأورد شيخنا فى حوادث سنة اثنتين وأربعين أن القاضى بهاء الدين الإخنائى حكم بحضرة مستنيبه بقتل بخشيباى الأربلى حدا لكونه لعن أجداد صاحب الترجمة بعد أن قال له أنا شريف، وجدى الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتصل ذلك بقاضى الإسكندرية فأعذر، ثم ضربت عنقه.

ولازم القاضى حسام الدين المطالعة فى كتب الفقه والتفسير والحديث والتاريخ والأدب حتى صار يستحضر جملة مستكثرة من ذلك كله، ويذاكر بها مذاكرة جيدة، مع سرعة الإدراك والفصاحة والبشاشة والحياء والشهامة والبذل لسائليه وغيرهم، والقيام مع من يقصده فى مهماته، واقتناء الكتب النفيسة، والتبسط فى أنواع المآكل ونحوها، والقيام بما يصلح معيشته من زرع الغلال والقصب وطبخ

السكر وغير ذلك. وحمد الناس معاملته فى صدق اللهجة والسماح وحسن الوفاء، حتى رغب ذوو الأموال فى معاملاته، وممن كان يتردد إليه من مشايخنا لمزيد إحسانه وإكرامه السيد النسابة، وربما سمع الحسام عليه بعض (النسائى الكبير)، بل استكتبه ليسمعه بتمامه، فما تيسر، والزين البوتيجى، وكان يحكى من كرامات بعض سلف الحسام شيئا كثيرا، ولم يزل دأبه ما حكيناه إلى أن مات القاضى ولى الدين السنباطى فى ليلة الجمعة تاسع شهر رجب سنة إحدى وستين، والتمس من يصلح لقضاء المالكية، ويستقر لمن بعده فيه، وتطاول لذلك غير واحد فاقتضى رأى الجمالى ناظر الخاص استقراره به لما علمه فيه من رياسته وشهامته، وأرسل كلا من القاضى الشافعى ابن البلقينى، والقاضى الحنفى ابن الديرى فى الثناء عليه عند السلطان واستحقاقه له، ففعلا، واستقر فى يوم الأحد ثانى عشر الشهر المذكور، وركب فى أبهة وخفر، وفرح الناس به لا سيما رفقته من بقية المذاهب لما وقر عندهم من حشمته ومحاسنه الجمة، وحينئذ باشره بعفة ونزاهة وشهامة مفرطة، وقيام بأعباء جماعة مذهبه، والإنعام عليهم بأنواع من الإكرام، فاجتمع شملهم بوجوده، وبلغ كلهم فيما يؤمله غاية مقصوده، ومنعهم من تعاطى الاخذ على الأحكام، وأكد على من لم يثق به منهم فى ذلك التأكيد التام حتى بالأيمان ونحوها، ولزم الاختصاص به من أعيانهم البدر بن المخلطة، وقرأ عنده فى (المدارك) للقاضى عياض، وفى (الجواهر) لابن شاس وغيرهما، واستناب فى بعض الأوقات فى تداريسه أعيان المذهب، قصد البر بهم، ففى المنصورية الشيخ يحيى العلمى، وفى الناصرية الشيخ نور الدين السنهورى، وفى الصالحية الشيخ نور الدين الوراق، وتزاحم عليه الفضلاء من سائر أرباب المذاهب، وممن تردد إليه الشهاب بن صالح أحد نوادر أئمة الأدب، وسمعت حينئذ قاضى المذهب الحنبلى، وناهيك بذلك من مثله، يقول: إن الشهاب لا ينهض أن يغرب عليه فى فنه إشارة إلى ملاءته وتقدمه فى جودة محاضرته، وكذا كان الشهاب بن أسد شيخ القراء فى زمنه ممن يتردد اليه، وقد صحبته قبل استقراره فى المنصب، وساعدنى فى بعض القضايا، وكان يجلنى، وسمع من لفظى بعض تصانيفى

بحضرة الإمام الزين البوتيجى، وتفضل هو بسؤالى فى الإذن له بالإجازة وكتب القاضى خطه بما يشهد لهذا.

ولما استقر التمس منى إسنادى بالبخارى ونحوه، فخرجت له جزأ فيه أسانيد كثيرة من الكتب الحديثية والعلمية فسر بذلك، ورغب إلى فى تبييض ما علم أننى جمعته من طبقات المالكية والمرور عليه عنده فعاق عنه بعض الشواغل، وكذا رغب فى قراءتى (الجامع) للترمذى عنده فى رمضان ففعلت، وحرص على المداومة على ذلك فثقلت على الحركة بسبب ذلك، خصوصا فى شهر الصوم، فبادر صاحبنا الشمس بن الفالاتى لذلك، وانتهز الفرصة فلم يزل يقرأ عنده حتى مات، واقتصر فى آخرة الأمر عليه بعد أن كان يقرأ عنده الثلاثة فأكثر، وينعم على القراء بالخلع والجوائز وغير ذلك فى الضحايا وغيرها، بل ويصرف على جميع من يحضر عنده يوم الختم دراهم متفاوته على قدر منازلهم، ولما مات يحيى العجيسى استقر فى تدريس الشيخونية، ثم لما مات ولده استقر فى تدريس جامع طولون، وباشر التدريس فيهما، وكذا درس بالمؤيدية نيابة عن ولد صاحبه البدر ابن المخلطة بعد وفاة والده، وفى سلخ المحرم سنة ثلاث وستين لبس خلعة الاستمرار.

ولم يزل على جلالته وعلو مكانته فى جميع ما أشرت إليه حتى حصل بينه وبين العلاء بن الأهناسى الوزير ما يقتضى الاستيحاش، فقام فى معاونة الشرف يحيى بن صنيعة أحد الكتاب حتى استقر عوضه فى الوزارة فى ربيع الآخر سنة ست وستين بعد أن رسم بالقبض على ابن الأهناسى وهو بالوجه القبلى فى الصعيد، ولزم من ذلك قيامه معه خوفا من حصول خلل يعود اللوم عليه بسببه، حتى يقال إنه تكلف فى تلك الحادثة نحو ثلاثين ألف دينار، فتزايدت ديونه بسبب ذلك، وطمع فيه أرباب الدولة، وأدى ذلك إلى انحطاط جانبه، وهو مع ذلك لا ينفك عن التجمل جهده، وإظهار الجلد والصبر لمن يجىء عنده، إلى أن كاد الأمر أن يتفاقم فلطف الله به ومات فى ليلة الاثنين مستهل شعبان سنة ثلاث وسبعين

وثمانمائة[1] بمنزله بمصر، وصلى عليه من الغد بجامع عمرو، وتقدم للصلاة عليه أخوه السراج عمر، الماضى، ودفن بتربة جده من قبل أمه الشيخ محمد الهلالى العريان، بجوار تربة الشيخ أبى العباس الجرار من القرافة الكبرى عند أولاده، واستقر أخوه فى المنصب بعده، ولم يتعرض لوظيفة الشيخونية وجامع طولون كما سلف، وقد قتل بسيف الشرع جماعة من المفسدين منهم حمزة بن غيث ابن نصير، أحد مشايخ العربان أبوه بالغربية، منصور بن صفى الاستادار[2]، وما خلا عن عتب فى بعضهم جريا على عادة الناس فى اختلاف أغراضهم، وكان منفحما على قتل سعد الدين بن بكير القبطى فكفه عنه بعض الحنابلة العز الكنانى، كما سلف فى ترجمته». انتهى.

وفى(تاج العروس) شرح القاموس للسيد مرتضى[3] فى صحيفة ٢٥ من الجزء الرابع ما نصه: «والشريف أبو المعالى حريز، كزبير، ويدعى أيضا محرز ابن الشريف أبى القاسم الحسينى الطهطائى التلمسانى، تقدم فى القراءات كأبيه، وروى، وحدث، وكذا ولده الإمام المحدث شمس الدين محمد، وحفيده القاضى مجد الدين ابو بكر بن محمد حريز، تولى القضاء بمنفلوط، وحسنت سيرته، وولده قاضى القضاة أبو عبد الله حسام الدين محمد، حدث عن أبى زرعة العراقى، وأخوه سراج الدين عمر، توفى سنة ٨٩٢ وهم أكبر بيت بالصعيد، ويقال لهم المحارزة والحريزيون». انتهى.

وقول السخاوى فى ترجمة الأول فى حق جده: أنجب أولادا وذكر منهم اثنين، وأقول: إن الثالث منهم يسمى يحيى، وعائلتنا بطهطا الموجودة الآن هم من ذرية

---

(١) وتوافق سنة ١٤٦٨م.

(٢) أصلها «أستاذ دار»، وأستاذ فى الأصل كلمة فارسية معناها: الرئيس والمعلم ورب الصنعة، «وأستاذ دار» لقب لعامل من أكبر عمال سلاطين المماليك.

(٣) محمد بن محمد، مرتضى الزبيدى (١٧٣٢ - ١٧٩١م)، ولد بالهند ونشأ باليمن، ومات بالقاهرة، وكان محدثا لغويا، كما كان زاهدا ورعا، وأشهر آثاره شرحه للقاموس الذى سماه (تاج العروس من جواهر القاموس) وهو شرح وترتيب للقاموس المحيط الذى وضعه الفيروزبادى.

يحيى المذكور، وينتهى نسبنا إليه حيث إن المرحوم والدى السيد بدوى ابن على بن محمد بن على بن حريز بن أبى القاسم الصغير بن جلال الدين، وليس عندى الآن بمصر السلسلة الموصولة إلى سيدى أبى القاسم:

أحببت أروى صحاح در عن حسن جاء عن مسدد
سلسلة أطلقت بيانى لكن رقى بها مقيد

ومن جهة الأم فوالدتى فاطمة بنت المرحوم الشيخ أحمد الفرغلى الأنصارى ابن المرحوم الشيخ عبد العزيز الأنصارى ابن المرحوم القاضى أبى الحسن الأنصارى ابن المرحوم العلامة القاضى محمد الأنصارى، ينتهى نسبهم إلى الإمام العالم القطب الربانى سيدى رفاعة بن عبد السلام الأنصارى المشهور بالخطيب المكتوب على ضريحه:

اقصد رفاعة كلما كرب يضيق سبيله
وانزل بساحته وقل حاشا يضام نزيله

وعلى كل حال فما أحسن قول من قال:

يزداد فى مسمعى تكرار ذكركم طيبا ويحسن فى عينى مكرره

ويتفرع عن عائلتنا التى بطهطا عائلة شريف أبيار المشهورة، فانها نزلت بأبيار[١] فى القرن الحادى عشر، وهم بيت مجد مؤثل كأصولهم، وأما أولاد سيدى حريز فهم أشراف أسيوط، وفيهم النقابة إلى الآن، ولعل هذا هو معنى قول النسابة عبد الواحد بن ابراهيم الحسينى الهاشمى فى نبذة الأنساب عند ذكر الأشراف، بعد أن ذكر بنى الحسن، وأنهم فى جرجا، يعنى أشراف منشاة التيدة، قال: «وفى أسيوط طائفة من أولاد جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن على بن الحسين بن على عليهما السلام، يعرفون بأولاد الشريف قاسم» انتهى. ومن أولاد حريز أشراف منفلوط،

---

(١) قرية من قرى مركز كفر الزيات محافظة الغربية بدلتا النيل.

وفيهم النقابة والقضاة إلى الآن، ومنهم فرع العالم الفاضل السيد حسنين حريز الغمراوى أحد فضلاء الجامع الأزهر ومدرس الجامع العالى بالقلعة العامرة، ومنهم فرع منتشر فى بلاد أناطلى[1] .

واما أولاد سيدى على نور الدين البصير، المدفون بجزيرة شندويل[2]، بعمالة جرجا، وله مشهد يزار، فهم أشراف جزيرة شندويل، منهم جماعة بقرية «مطاى» بالأقاليم الوسطى، ومنهم أشراف عربان بالوجه البحرى مشهورون بالقواسم، منهم العالم الفاضل الشيخ إسماعيل رأس نقباء الطريقة المحمدية الدمرداشية حالا، ويفهم من قول العلامة السخاوى أن القاضى حسام الدين جده لأمه الشيخ محمد الهلالى العريان، ومع ذلك فسيدى أبو القاسم أستاذه هذا الشيخ المذكور، حيث يوجد فى مناقبه أن الشيخ محمد الهلالى العريان ألبسه طاقيته، كما أشرت لذلك فى قصيدة جامعة لمناقبه منها قولى :

طاقيـــة العـريان قـــد ألبـســتــهـــا رمـــزا لســـر خـــلافـة آنـســتــهـــا

كم صُنت طهطا من أذى وحرستها كم من يد بيـضـاء منك غـرستـهـا

ثمـــراتـهـــا لبنـيك أضـــحت مكـســـبـــا

وقد جدد الأمير الكبير، والمفرد العلم الشهير، لطيف باشا ناظر عموم البحرية سابقا جامع سيدى أبى القاسم بطهطا، وتأنق فى بنائه بالبناء العجيب، الذى صرف فيه جزيل الأموال، من ضمن ما جدده بطهطا من العمائر، كالحمام النفيس المبنى على شكل حمام المرحوم مطوش باشا بالإسكندرية، مما به صارت طهطا بهية. جزاه الله خير الجزاء، وأحسن له الحال والمآل، وفى هذا القدر مقنع وإن كان مجال الكلام أوسع. وقد كان كل من القاضى حسام الدين والقاضى سراج الدين ابنى حريز، بلفظ التصغير، بحاء مضمومة ثم راء مهملة ثم زاى معجمة، خلافا لما وجد من الرسم فى طبع (حسن المحاضرة) فى ذكر قضاة المالكية بأن حسام ابن جرير،

---

(١) أو «أناطولى» وتطلق - بوجه عام - على آسيا الصغرى، وكانت حاضرتها مدينة «كوتاهية».

(٢) ويسميها بعض الكتاب العرب «شندويد».

وصحته ابن حريز بالحاء والراء والزاى، وكان توليتهما القضاء فى زمن ملوك الجراكسة، وكان منصب القضاء فى ذلك العهد وما قبله يتعدد بمصر بتعدد المذاهب الأربعة، حتى منصب قضاء العسكرية فكان تارة يضاف إلى القاضى الحنفى وتارة يضاف إلى القاضى الشافعى وتارة ينفرد به قاض حنفى، وما ذاك إلا لأن قاضى العسكر إنما ينتفع به فى الجهاد ووقت خروج العسكر وتقع وصايا من الأمراء وشهادات بينهم، ولا يوجد فى العسكر الجالسين فى المراكز أحد، ويحتاج إلى إثبات ذلك عند القاضى الشافعى فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل إثبات ذلك فتبطل وصاياهم وشهاداتهم، فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضى الحنفى لما اتفق له فى الجهاد مثل ذلك، وامتنع القاضى الشافعى فى ذلك الوقت من سماع شهاداتهم، ثم بتداول الأيام ودخول أكثر الممالك الإسلامية فى قبضة الدولة العثمانية، المقلد جمهور حكامهم لأبى حنيفة النعمان، انتهى الأمر أن صار حصر القضاء على مذهب إمامهم الذى هو أول من دَوَّن الفقه وجمعه، وتقدم وسبق من العلماء من تبعه، واختص بكثير من الفروع التى تلائم ولاة الأمور، وأعظمها عدم اشتراط أمور كثيرة فى المراسم السلطانية، والفسحة فى اشتراط المعدلة، وإن كانت فى الغالب لا يخلو منها من قضت له بالتولية الإرادة الصمدانية، فيجوز تقليد الإمام غير القرشى المناصب والأعمال، وأصله قصة معاوية، فإن الصحابة تقلدوا منه الولايات، واستدل الشافعية بقوله صلى الله عليه وسلم «الأئمة من قريش»، فبهذا كان مذهب أبى حنيفة أوفق للملوك وأصلح.

ومن الفروع أن من له أرض خراجية عجز عن زراعتها وأداء خراجها فللإمام على مذهب أبى حنيفة أن يؤجرها من غيره ويأخذ من أجرتها الخراج، سواء رضى صاحبها بذلك أو لم يرض، ومنها أن من عزره ولى الأمر لا ستحقاقه التعزيز فمات فى أثناء تعزيزه فلا ضمان عند أبى حنيفة على ولى الأمر، وهذه المسألة موافقة لولاة الأمور، ولولاها لفسد أمرهم، ومنها أن من أحيا أرضا مواتا بإذن ولى الأمر ملكها، وإن كان بغير إذنه لم يملكها عند أبى حنيفة، ومنها إذا احتاج ولى الأمر إلى تقوية الجيش له أن يأخذ من أرباب الأموال ما يكفيه من غير رضاهم على مذهب

أبى حنيفة، ففيه مساعدة لولاة الأمور على مشروعاتهم، حتى لو اضطرت الحكومة إلى تولية قاض غير حنفى وجب تقليده لمذهب أبى حنيفة لأجل الولاية وإجراء الأحكام عليه.

ثم أن الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الأقضية والأحكام على وفق معاملات العصر، بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة المتنوعة بتنوع الأخذ والإعطاء من أمم الأنام، وقد تقدم بعض ما يتعلق بذلك فى (الفصل الرابع) من (الباب الثانى)، ومن المعلوم أن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ (الأنعام: ٣٨) فلا ريب فى انقياد شمم كل عرنين[١] إليها صاغرا بدوام النفوذ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية، لا على سبيل التهاون ولا على سبيل الشذوذ، بل سارت على مشاعب المذاهب لمجاراة ماجريات النوازل والنوائب، وما شرع مذهب السيف إلا لنصرة مذاهب الشرع، لأنها أصل وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع، فاختلاف مذاهب الأئمة رحمة، وجواز تقليد أى واحد منهم والرجوع إلى اجتهاد الآخرين للحاجة نعمة، ومما يستأنس به فى الاقضية والأحكام بهذه الأزمان ما أفتى به وقد سئل عنه العلامة الشيخ محمد الشافعى الشهير بالصبان، وقد عثرت بهذه الفتوى الجليلة وهى جديرة بأن يجعلها من يريد التقليد للحاجة دليله.

ونص السؤال: «ما قولكم، دام فضلكم، فى الإنتقال فى بعض المسائل إلى غير المذهب الذى عليه الشخص، هل يجوز ولو كان منبوعه فى هذا مفضولا؟ وهل يجوز العمل بالقول الضعيف فى خاصة النفس؟ وهل يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة؟ أفيدوا الجواب.

ونص الجواب بخطه مشمولا باسمه وختمه، محفوظا عندى برسمه ووسمه:

«الحمد لله وحده.

---

(١) العرنين يطلق على الأنف، وعلى ما صلب منه، كما يطلق على السيد الشريف، وهو المراد هنا.

قـال الزركـشى[1] فى (البـحـر المحيط) : فى تقليـد المفـضـول مـذاهب ، **أحدها:** امتناعه ، ونقل عن أحـمد وابن سريج ، **ثانيها:** وهو الاصح واختاره ابن الحاجب وغيره ، الجواز ، **ثالثها:** يجوز لمن يعتقده فاضلا أو مساويا . وقال ، فى موضع آخر : لو التزم العامى مذهبا معينا ، واعتقد رجحانه ، من حيث الإجماع ، فهل يجوز أن يخالف إمامه فى بعض المسائل ، ويأخذ بقول مجتهد آخر؟ فيه خلاف والأصح الجواز ، كما فى «الرافعى» ، ثم قال : وقسم بعضهم الملتزم لمذهب ، إذا أراد تقليد غيره ، إلى احوال ، إلى أن قال : **الثانية:** أن يقصد بتقليده الرخصة فيما هو محتاج إليه لحاجة لحقته أو ضرورة أرهقته ، فيجوز ، إلى أن قال : **السادسة:** أن تجمع من ذلك حقيقة مركبة ممتنعة بالإجماع ، فيمتنع ، كما إذا افتصد ومس الذكر وصلى - (أى لان ذلك يعد تلفيقا فى مسألة واحدة) - ثم ذكر الخلاف فى جواز التقليد بعد العمل ، والخلاف فى جواز تتبع الرخص ، ورجح المنع ، وحكى الجواز عن بعض مشايخ الشافعية ، ثم قال : لا ينبغى إطلاق القول بالجواز لكل أحد ، بل يرجع إلى حال المستفتى وقصده كما وقع لابن القاسم مع ولده إذ حنث فى يمين بالمشى إلى الكعبة فاستفتى أباه فقال له أفتيك فيها بمذهب الليث كفارة يمين ، وإن عدت أفتيك بمذهب مالك ، يعنى الوفاء .

ويجـوز عمل الشخص بالقول الضعيف فى حق نفسه خاصة إذا دعت إليه حاجة ، ولم يلزم تتبع الرخص ، ولا تركيب حقيقة أجمع على بطلانها ، وإنما الممنوع أن يفتى به أو يحكم . وفى (البحر المحيط) أيضا مجتهد الصحابة إذا لم يجعل قوله حجة ففى جواز تقليده فى هذه الأعصار خلاف ، ذهب إمام الحرمين[2] وغيره إلى أن العامى لا يقلد وبه جزم ابن الصلاح ، وزاد أنه لا يقلد التابعين أيضا ، ولا غير من لم يدون مذهبه ، لعدم الوقوف على حقيقة مذاهبهم ،

---

(١) مؤلف مغربى ، ينسب إليه كتاب تاريخ الموحدين وبنى حفص .

(٢) أبو المعالى الجوينى (١٠٢٨ - ١٠٨٥م) من أئمة المذهب الأشعرى فى علم الكلام ، وعلى يديه تبلورت جوانب كثيرة من هذا المذهب بعد أن كانت غامضة فى فكر الأشعرى . وهو من أساتذة الإمام الغزالى .

فإنهم إنما نقل عنهم فتاوى مجردة فلعل لها مكملا أو مقيدا أو مخصصا لو انضبط كلام قائله لظهر، فمقلدهم على غير ثقة، وعلى هذا فينحصر التقليد فيمن دون مذهبه كالأربعة والأوزاعى وسفيان وإسحق وداود، على خلاف فى داود، وذهب غيرهم إلى أن الصحابة يقلدون، وهذا هو الصحيح، إن علم دليله، وقد قال الشيخ عز الدين فى فتاويه: إذا صح عن بعض الصحابة مذهب فى حكم جاز تقليده وإلا فلا. انتهى. وبالجملة فلا يختص التقليد بالأربعة على كلا القولين، والله أعلم. كتبه الفقير محمد الصبان الشافعى.

موضع الختم.

مرتجى الغفران.

محمد الصبان.

وقوله وسفيان لعله أراد به أبا عبد الله سفيان بن سعد الثورى، نسبة إلى ثور بن عبد مناف، وقيل إلى ثور همدان، الكوفى، مات بالبصرة فى شعبان ودفن بها لإحدى وستين ومائة، ولم يزل مقلدوه إلى القرن السادس، ومن الناس من يعد من أصحاب المذاهب «سفيان ابن عيينة» فيدخل تحت كاف التمثيل، كما يدخل أيضا «إسحق بن راهوية» «ومحمد بن جرير الطبرى»، وقوله وداود على خلاف فيه لعله نظر إلى قول إمام الحرمين: إن المحققين لا يقيمون للظاهرية وزنا، وإن خلافهم لا يعتبر، ولكن قال العلامة اللقانى فى شرح الجوهرة عند قوله: «ومالك وسائر الأئمة» إلى آخره: «حمل ابن السبكى قول إمام الحرمين على ابن حزم وأمثاله، قال السبكى وأما داود فمعاذ الله أن يقول إمام الحرمين أو غيره أن خلافه لا يعتبر، فلقد كان جبلا من جبال العلم والدين، وله من سداد النظر وسعة العلم ونور البصيرة والإحاطة بقول الصحابة والتابعين، والقدرة على الاستنباط ما يعظم وقعه، وقد دونت كتبه وكثرت أتباعه، وذكره الشيخ أبو إسحق الشيرازى فى طبقاته من الإئمة المتبوعين فى الفروع، وقد كان مشهورا فى زمن الشيخ وبعده بكثير، لا سيما فى بلاد فارس شيراز وما والاها إلى ناحية العراق وفى بلاد المغرب». انتهى على أن

ابن حزم المحمول عليه عدم اعتبار المذهب نسب إليه بعضهم الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى وإنه من مقلديه، حكاه العلامة الأمير فى حاشيته على شرح الملوى للسمرقندية عند التكلم على البسملة، ثم قال: وجدت فى ديوان محيى الدين ما يدل على اجتهاده وهو قوله:

نسبونى إلى ابن حزم وإنى	لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا قال غيره فمقالى	قال نص الكتاب ذلك علمى
أو يقول الرسول أو أجمع الخلق	على ما أقول ذلك حكمى

واما الأوزاعى وهو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى، إمام أهل الشام، روى عنه الثورى، وأخذ عنه عبد الله بن المبارك وجماعة كثيرة، ولد ببعلبك، ثم نقلته أمه إلى بيروت، ودفن بقرية على باب بيروت يقال لها حنتوس، فى قبلة المسجد، ولا يعرف قبره بها إلا الخواص من الناس، وأما أهل القرية فيقولون ههنا رجل صالح ينزل عليه النور. وأما ذكر العلامة الصبان نقلا عن الزركشى استفتاء ولد ابن القاسم وإفتاء أبيه له على مذهب الإمام الليث فيدل على جواز الإفتاء بغير المذاهب الأربعة، كجواز العمل فى حق نفسه، فحينئذ قول السبكى يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة فى العمل فى حق نفسه لا فى الإفتاء والحكم كما قاله ابن الصلاح فلعله ليس على إطلاقه، وأما ذكر العلامة الصبان أصحية تقليد الصحابة فيما علم دليله وصح عنهم فظاهر، لأن جميعهم رضى الله عنهم لا يتطرق إلى آرائهم تجريح، إذ كلهم عدول، لأن الله عز وجل ورسوله زكياهم وعدلاهم، فمذهب كل منهم صحيح رجيح، ومما يدل على أن التشديد والتخفيف فى الأحكام قد يختلف باختلاف الأزمان والأيام ما قاله العلامة السيوطى فى (كتاب الإنصاف فى تمييز الأوقاف): «إنك إذا تأملت فتاوى النووى وابن الصلاح وجدتهما يشددان فى الأوقاف غاية التشديد، وإذا تأملت فتاوى السبكى والبلقينى وسائر المتأخرين وجدتهم يرخصون ويسهلون، وليس ذلك منهم مخالفة للنووى بل كل تكلم بحسب الواقع فى زمنه». انتهى. وقد أتى بمثل

ذلك نادرة عصره خير الدين باشا التونسى[1] وذكر فى كتابه (أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك) ما لم يسبق به غيره، ونصح أهالى الأوطان فى سائر الممالك الإسلامية بما لا ينكر لدين الإسلام من النفع خيره، فإنه حمل هموم أوطانه وإخوانه المسلمين عملا بحديث: «من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم». وكان عمر بن الخطاب إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط حتى يرتفع ذلك البلاء، وكذلك عمر بن عبد العزيز، وسفيان الثورى، وغيرهم، فتنظيم كتاب للأحكام الشرعية بمناسبة تفرع النوازل فى هذه الأيام بأكمل نظام مما تنتظم به الأحكام القضائية فى أوطاننا ويكون عمدة للقضاة والحكام.

وعلى ولى الأمر إذا أراد أن يولى القضاء لأحد على مذهبه أن يطلب أعيان ذلك المذهب، ويسأل كل واحد بانفراده سرا عن رجل يصلح للقضاء، يكون كاملا فى العقل والدين، وإن اجتمع مع هذين الوصفين: الكمال فى الفضيلة، فهو أجود، وإلا فالمتوسط فى الفضيلة مع كمال هذين الوصفين أولى، فإذا اتفقوا أو أكثرهم على تعيين شخص صرفهم عن مجلسه، ثم سأل عن هذا الشخص الذى عين من غير أهل مذهبه سرا، فإن أثنى عليه أنه أكمل أهل مذهبه فى العقل والدين استخار الله تعالى وولاه، وإن أثنوا على غيره أكثر منه جمع أعيان ذلك المذهب فى مجلسه وأهل المذهب الآخر وذكر لهم ذلك الشخص الذى عين أولا، وهذا الشخص الآخر، وطلب منهم أن يتفقوا على الأرجح منهما، فإن اتفقوا أو أكثرهم على أحد الشخصين ولاه، ولا يعتمد الترجيح إلا على الأدين الأعقل، ولا يغتر بكثرة الفضيلة مع قلة الدين والعقل، فيكون الضابط لولى الأمر حينئذ فى هذا الباب

---

(١) (١٨١٠ - ١٨٧٩م) معاصر للطهطاوى، يعد من أعظم من كتب فى الفكر السياسى فى حياة الشرق فى القرن التاسع عشر، وذلك بكتابه الذى يشير إليه الطهطاوى، ولقد أشار الكواكبى إلى هذا الكتاب ومؤلفه فى مقدمته [طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد] وهو من أصل شركسى، نشأ فى بلاط «باى» تونس أحمد، واقترب من فكر الحضارة الفرنسية، وخاض صراعا مريرا ضد القوى المحافظة وأنصار الحكم الفردى فى تونس، ثم فى الآستانة بعد إنتقاله إليها، وتولى المناصب الوزارية العديدة فى تونس والآستانة، التى وصل فيها إلى منصب رئيس الوزراء.

اعتبار الأدين الأعقل، وإن لم يكن له فضيلة تامة، فإن المتدين تمنعه ديانته عن أن يقع فيما لا يجوز وأن يحكم فى شىء لا يعرفه، ولا كذلك الأعلم إذا كان متهاونا فى الدين، فإنه يخشى منه، وهكذا أصحاب أبى حنيفة نصوا إنه إذا اجتمع الأدين والأعلم قدم الأدين، وإنما وجب الفحص عن أهلية القاضى وقت الولاية، وإنه يكون أدين أهل مذهبه وأعقلهم، لقوله عليه السلام: «من قلد إنسانا عملا وفى رعيته من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين.» فعلى ولاة المسلمين أن لا يخرجوا عن هذا الأمر الذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع قوله تعالى أيضا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٧).

ثم إن القاضى متى تقلد منصب القضاء، وحصل على توليته التوافق والرضا، فقد أصبح بيده زمام الأحكام، وفصل القضاء الذى عساه أن يعرض على غيره من الحكام، وما منهم إلا من ينقد نقد الصيرفى، وينفذ حكمه نفاذ المشرفى، فليترو فى أحكامه قبل إمضائها، وفى المحاكمات إليه قبل فصل قضائها، وليراجع الأمر مرة بعد مرة حتى يزول عنه الالباس، ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والإجماع والقياس، وما أشكل عليه بعد ذلك فليحل مظلمه بالاستخارة، وليحل مشكله بالاستشارة، ولا ير نقصا عليه إذا استشار، فقد أمر الله رسوله، صلى الله عليه وسلم، بالشورى، ومر من أول السلف من جعلها بينه وبين خطأ الاجتهاد سورا، فقد يسنح للمرء ما أعيا غيره وقد أكثر فيه الدأب، ويتفطن الصغير لما لم يفطن إليه الكبير، كما فطن ابن عمر للنخلة ما منعه أن يتكلم الأصغر سنه، ولزومه مع من هو أكبر منه للأدب، ثم إذا وضح له الحق قضى به لمستحقه، وأسجل له به وأشهد على نفسه بثبوت حقه، وحكم له به حكما يسره يوم القيامة أن يراه، وإذا كتب له به تذكر إذا بلى وأبقى الدهر ما كتبت يداه وليسوا بين الخصوم حتى فى تقسيم النظر، وليجعل كل عمله على الحق فيما أباح وما خطر، وليحد النظر فى أمر الشهود حتى لا يدخل عليه زيف، وليتحر فى استئداء الشهادات فرب قاض ذبح بغير سكين، وقتل بغير سيف، ولا يقبل منهم

إلا من عرف بالعدالة، وألف منه أن يرى أوامر النفس أشد العدى له، وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عادة، ولا تصدى للارتزاق بسحبها ومات وهو حى على الشهادة، فليقبل منهم من لا يكون فى قبول مثله ملامة، فرب عدل بين منطقة وسيف، وغير عدل فى فرجية وعمامة، ولينفث على ما يصدر من العقود التى يؤسس أكثرها على شفا جرف هار، ويوقع فى مثل السفاح: إلا أن الحدود تدار بالشبهات، ويبقى العار وشهود القيمة الذين يقطع بقولهم فى حق كل مستحق ومال كل يتيم، ويقلد شهاداتهم أمر كل عظيم، فلا يعول منهم إلا على كل رب مال عارف، ولا يخفى عليه القيم ولا يخاف معه خطأ الحدس، وقد صقل التجريب مرآة فهمه على طول القدم، وليتأن فى ذلك كله أناة لا تقضى بإضاعة الحق، ولا إلى المطاولة التى تقضى إلى حرمان من استحق، وليمهد لرمسه، ولا يتعلل بأن القاضى أسير الشهود، وهو كذلك، وإنما يسعى لخلاص نفسه، والوكلاء هم البلاء المبرم، والشياطين المسولون لمن يوكلون له بالباطل، ليقضى لهم به، إنما يقطع لهم قطعة من جهنم، فليكف بمهابته وساوس أفكارهم، ومساوى فجارهم، ولا يدع لمجنى أحد منهم ثمرة ممنوعة، ولا يد اعتداء تمتد إلا مغلولة إلى عنقه وإلا مقطوعة، وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق، وإذا رأى واحد منهم درهما ود لو حصل فى يده ووقع فى نار الحريق، وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصى، ولا أن يحصى عليه منه أفراد عمله وهو لا يحصى، وعليه أن ينظر فى أمور أوقاف مذهبه نظر العموم ليعمرها بجميل نظره، فرب نظرة أنفع من مواقع النجوم.

ومما يشمله بالنظر وينعم فيه الفكر أمر دعاوى بيت المال المعمور، ومحاكماته التى فيها حق كل فرد فرد من الجمهور، فليحترز فى قضاياها غاية الاحتراز، وليعمل بما يقتضيه لها الحق من الصيانة والاحتراز، وليتثبت فى قضايا أموال الأيتام الذين حذر الله من أكل مالهم بالمعروف إلا بالشبهات، وقد مات آباؤهم ومنهم صغار لا يهتدون إلى غير الثدى للرضاع، ومنهم حمل فى بطون الأمهات، فليأمر المتحدثين لهم بالإحسان إليهم، وليعرفهم بأنهم سيجزون فى بنيهم بمثل ما يعملون

معهم، إذا ماتوا وتركوا ما فى يديهم، وليحذر منهم من لا ولد له (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم)، وليقص عليهم فى مثل ذلك أنباء من سلف تذكيرا، وليتل عليهم قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴾ (النساء: ١٠). فهذه وصية قاضى العمل المستقل.

فإذا كان قاضى العسكر منفردا فليكن مستحضرا لهذه المسائل، وليعلم أن العسكر المنصور هم فى موطن الحرب أهل الشهادة، وفيهم من يكون جرحه تعديلا لهم وزيادة، فليقبل منهم من لا يخفى عليه سيما القبول، ولا يرد منهم من لا يضره إن رده هو، وهو عند الله مقبول، وليجعل له مستقرا معروفا فى المعسكر يقصد فيه إذا نصبت الخيام، وموضعا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر، وأشهر ما كان على يمين الأعلام، وليلزم ذلك طول سفره، وفى مدة المقام، وليتخذ معه كتابا تكتب للناس، وإلا فمن أين يوجد مركز شهود، ويسجل لذوى الحق بحقه، وإلا فما إنسد باب الجحود، وتقوى الله هى التى بها ينصر الجنود، وما لم تكن أعلى ما يكون أعلام الحرب، وإلا فما الحاجة إلى نشر البنود، ثم إنه من حيث يجب على ولى الأمر الكشف عن أحوال الولاة والدواوين فى كل وقت، ومحاسبتهم فيما يلزم بواسطة كشاف من أعقل الناس وأكثرهم أمانة وعفة، فالقضاة ونوابهم داخلون فى هذه الزمرة، ولو أنه سبق اشتراط شروط فى ولاية القاضى إذا توفرت يحصل إلا من وقوع شيء منه مما يخل بمنصب القضاء، إلا إنه غير معصوم من حب المال، الذى يكون الطمع فيه طبعا، فلذا وجب التثبت فى ذلك بالتفتيش، فقد يحدث العيب، وتخالف الشهادة الغيب..

فكل يسلى النفس عند خلوه ... بزهد ولكن لا تصح العزائم

فينبغى لولى الأمر أن يتخذ عليهم باحثا فى السر، يكون ثقة دينا عفيفا أمينا قليل الكلام، لا يتفطن له من مثلهم، ولا يدرى به أنه مطلع عليهم، بحيث يطالع ولى الأمر بأحوالهم فى السر ساعة بساعة، ويكون ولى الأمر فى العلانية معظما

للقضاة، لا يظهر منه إنه يتكشف عن أحوالهم أبدا، لحفظ ناموسهم الرفيع، وشرف منصبهم المنيع، فإذا صح عنده إنه وقع من أحدهم جريمة، فإن كانت من أخذ رشوة أرسل إلى القاضى وطلبه إليه سرا، وسأله عن الواقعة، فإن اعترف بذنبه أخذ الرشوة التى التمسها من الناس وردها على صاحبها، وأدب الذى بذلها فى السر من غير أن يظهر تأديبه عماذا، وعزل القاضى، وكشف عليه، فإن وجده التمس من الناس مالا أو اكتسبه بالقضاء أخذه لبيت المال، كالهدية ونحوها، وإن لم يعترف القاضى، وظهر لولى الأمر من قرائن الأحوال أو من صدق الناقل إليه ذلك عن القاضى، عزل القاضى ولا يظهر بأى سبب عزله.

وإن كانت الجريمة من غير أخذ الرشا، ولم يكن من هذا القبيل، وإنما كان بسبب قوة نفسه، وتحامله فى الحكومات، وهوى النفس، يجب على ولى الأمر عزله، والاستبدال به، ولا يغره كثرة علمه ولا ديانته فى الظاهر، فإن التحامل من القاضى من اصعب الأمور، ومما يوجب عزله، ولا يلتفت إلى انتصاره لحكمه، بعد أن يعرف ولى الأمر منه الهوى والغرض والتحامل، وله أن يعزره بسبب ذلك إذا تحقق جوره، كى يتأدب به غيره. وإن كانت الجريمة بسبب إرتكاب بعض المعاصى، من شراب وغيره، سأل ولى الأمر عن هذا الأمر من الثقات، فإن صح ذلك عزره سرا، ورفعه، ولا يشهر ذنبه بين الناس. وإن جمع القاضى مالا من الحكومات أخذه ولى الأمر ووضعه فى بيت المال.

وإن كان هذا القاضى نائبا، وقد قيل عنه شيء مما ذكرنا، كشف عن حال مستخلفه، فإن تبين عند ولى الأمر إنه كان يعلم به، ويستر عليه، عزله أيضا، وإن كان لا يعلم، واشتبه فيه، فهو بالخيار، إن شاء عزله وإن شاء تركه، وإذا صح عند ولى الأمر أن القاضى جمع مالا بعد توليه القضاء، وقد كان فقيرا قبل التولية، ينبغى أن يفحص عن ذلك الجمع، فإن كان من متعلقات المنصب، كما يأخذه بعض القضاة بدون حق من قضاة النيابات أو من ديوان الأيتام أو الصدقات أو الأوقاف، فإن ولى الأمر يأخذه منه ولا يترك فى يده شيئا، ويضعه فى بيت المال، وإن عرف إنه من مال الأيتام أو الأوقاف رده على من أخذ منه، وإن كان من غير متعلقات

المنصب، بأن يكون اتجر أو ورث أو استفضل من معلوم مدارسه وكسبه فهو له، وإن كان للقاضى حاشية وأولاد يتعرضون إلى أموال الناس وقطع مصانعاتهم ـ كما كان فى زمن الملك الناصر بن قلاوون بمصر من القاضى الشافعى والحنفى وعزلهما بسبب أولادهما ـ فإن ولى الأمر يجب عليه عزله إن كان ذلك بعلمه، وأخذ ما حصله اولاده وحاشيته بجاه المنصب، ويضعه فى بيت المال، ويؤدبهم ولا تأخذه رأفة عليهم، ولا يقبل فى القاضى ولا فى أولاده المذكورين شفاعة أحد، فإن ذنبهم كبير وفسادهم متعد.

وقد أسلفنا أن شرط الباحث الكاشف عن أحوال القضاة وغيرهم. الأمانة والعفة والوثوق، فبهذه الوسيلة يقبل ولى الأمر قوله فى القاضى، بخلاف ما إذا كان المخبر لولاة الأمور من السعاة المشائين بالنميمة، المتخلقين بالأخلاق الذميمة، فلا ينبغى أن يقام لقولهم فى حق القضاة وزن ولا قيمة.

إن نصف الناس أعداء لمن ولى الأحكام، هذا أن عدل

كما يحكى عن الخلنجى القاضى عبد الله بن محمد ابن اخت علوية المغنى. وكان هذا القاضى قد تقلد القضاء للأمين العباسى، وكان خاله علوية عدوا له، فجرت له قضية فى بغداد، فاستعفى عن القضاء، وسأل أن يولى بعض الكور البعيدة، فتولى قضاء دمشق وحمص، فلما تولى المأمون الخلافة غناه يوما علوية بشعر للخلنجى وهو:

برئت من الإسلام إن كان ذا الذى أتاك بك الواشون عنى كما قالوا
ولكنهم لما رأوك غرية بهجرى تواصوا بالنميمة واحتالوا
فقد صرت أذنا للوشاة سميعة ينالون من عرضى، فلو شئت ما نالوا

فقال له المأمون: من يقول هذا الشعر؟ قال: قاضى دمشق، فأمر المأمون بإحضاره، فأشخص، وجلس المأمون للشرب وأحضر علوية، ودعا بالقاضى، فقال له: أنشدنى قولك: برئت من الإسلام... الأبيات، فقال: يا أمير المؤمنين

هذه أبيات قلتها منذ أربعين سنة، وأنا صبى، والذى أكرمك بالخلافة، وورثك ميراث النبوة، ما قلت شعرا منذ أكثر من عشرين سنة إلا فى زهد أو عتاب صديق، فقال له: إجلس، فجلس، وناوله قدح نبيذ كان فى يده، فأعول وبكى، وأخذ القدح من يده، وقال: والله يا أمير المؤمنين ما غيرت الماء بشىء قط مما يختلف فى تحليله، فقال: لعلك تريد نبيذ التمر أو الزبيب؟ فقال: لا، والله يا أمير المؤمنين، لا أعرف شيئا من ذلك، فأخذ المأمون القدح من يده، وقال: أما والله لو شربت شيئا من هذا لضربت عنقك، ولقد ظننت أنك صادق فى قولك كله، ولكن لا يتولى القضاء رجل بدأ فى قوله بالبراءة من الإسلام، إنصرف إلى منزلك، وأمر علوية فغير هذه الكلمة، وجعل مكانها: حرمت مكانى منك.
فكان ما جرى للمأمون، عفا الله عنه، مع هذا القاضى المسكين هو المعهود من حلم هذا الخليفة ومكارم أخلاقه، وكان غير هذا الفعل أولى به وبرياسته، ولكن الخليفة صان منصب القضاء ووقره وأجله، فعفا الله عنه. وأما هذ القاضى الخلنجى، رحمه الله، فقد اختلج فى خاطره من الوشاة ما أضر به عند محبوبته وعند الخليفة، وهذا من كهانة الشعر ومما يتفق وقوعه للشاعر بعد مدة مديدة، وأما علوية، فأعله الله ولا أعلى له كعبا، فلقد أضر بابن أخته وعطله من حلى القضاء، وقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم: «لعن الله المثلث»، فقيل: يارسول الله وما المثلث؟ قال: «الذى يسعى بصاحبه إلى سلطان فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه».

قال الواثق[1] يوما لابن أبى دؤاد[2]: قد سعى بك عندى قوم؟ قال: فما قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما قال صاحب عزة..

---

(١) الواثق بالله (٨٤١ـ٨٤٦م) هو الخليفة العباسى أبو جعفر هارون، بن المعتصم، كان على مذهب المعتزلة فى التفكير، وفى عصره نال الفكر الاعتزالى مكانا عاليا فى بلاط بغداد.

(٢) أحمد بن الفرج، ابن أبى دؤاد (٧٧٧ـ٨٥٤م) أديب، وقاض، كان علما من أعلام مفكرى المعتزلة فى عصره، وتولى منصب قاضى القضاة، وكان بمثابة الوزير لكل من المعتصم والواثق، وفى ظل سلطانه حدث الاضطهاد للذين رفضوا القول بخلق القرآن على مذهب المعتزلة، وإلى ابن أبى دؤاد أهدى الجاحظ كتابه (البيان والتبيين).

وسعى إلى بعيب عزة نسوة جعل الإله خدودهن نعالها

ورفع بعض السعاة إلى الخليفة السفاح قصة بسعاية على بعض عماله فوقع فيها: «هذه نصيحة لم يرد بها ما عند الله، فنحن لا نقبل قول من آثرنا على الله!» ومما أتفق فى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إنه حضر فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة[1] تاج الدين كاتب المفتاح إلى الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى، لما كان وزيرا، وذكر عنده أناسا بكل قبيح، والتزم فيهم جملة من الذهب إذا صودروا وأخذت منهم وظائفهم، فدخل الجمالى إلى السلطان وحكى له ما قاله الكاتب، فقال: أحضره لى، فلما استحضره سمع كلامه، وقال له: هل لك علم بأحد فى القاهرة يعرف شيئا من هذه الأحوال؟ فقال: نعم، جماعة، وعدهم، فقال للوزير: خذ هذا عندك، واحتفظ به، وأحسن إليه، وإذا حضر إليك كل هؤلاء الذين ذكرهم عرفنى بهم، فخرجا من عنده، وذكر له الكاتب جماعة وهو يحضرهم إلى أن لم يبق منهم أحد، ودخل الجمالى إلى السلطان وعرفه بهم، فقال: أخرج الآن فى هذه الساعة، وجهز الجميع، ولا تدع أحدا منهم فى القاهرة، فإن هؤلاء مناحيس يرافعون الناس، فنفاهم أجمعين.

وقال رجل للمهدى: عندى لك نصيحة يا أمير المؤمنين، فقال: لمن هى؟ ألنا؟ أم لعامة المسلمين؟ أم لنفسك؟ قال: لك يا أمير المؤمنين، قال: «ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالا من قابل سعايته، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا نشفى غيظك، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك!» ثم أقبل على الناس، فقال: «لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رضا الله تعالى وللمسلمين فيه صلاح، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب، ومن استتر لم نكشف له، ومن نادانا طلبنا توبته، ومن أخطأ أقلنا عثرته، إنى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة، والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعالجة، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف، ولا يعفو إذا قدر، ولا يغفر إذا ظفر، ولا يرحم إذا استرحم». انتهى.

---

(١) وتوافق سنة ١٣٢٧م.

وقد كان بعض الأمراء، رحمه الله تعالى، إذا جاءه أحد ورافع كتابه والمباشرين الذين فى بابه، قال: هؤلاء قد أخذوا وشبعوا، لا تغيروهم، فإن الذى يجىء بعدهم يكون جوعانا! ونقل نحو ذلك أيضا عن المرحوم محمد على، وما ألطف قول البهاء زهير، رحمه الله تعالى، وأرقه فى عدم سماع قول الوشاة:

حبيبتى ما هذا الجفاء الذى أرى — وأين التقاضى بيننا والتعطف

لك اليوم أمر لا يسئك يريبنى — فما وجهك الوجه الذى كنت أعرف

نعم نقل الواشون عنى باطلا — وملت كما قالوا فزادوا وأسرفوا

كأنك قد صدقت فى حديثهم — وحاشاك من هذا فخلقك أشرف

وقد كان قيل الناس فى الناس قبلنا — فكذب يعقوب وسرق يوسف

بعيشك قل لى ما الذى قد صنعته — فإنك تدرى ما أقول وتنصف

فإن كان قولا صح أنى قلته — فللقول تأويل وللقول مصرف

وهب أنه قول من الله منزل — فقد بدل (التوراة) قوم وحرفوا

وها أنا والواشى وأنت جميعنا — يكون لنا يوم عظيم وموقف

[بطريك القبط]

ولا بأس بتعقيب هذا (الفصل) بالتتمة مما ينبغى ذكره فى رؤساء أحبار أهل الذمة، ليكون فيه أوفر سهم وأوفى قسط لرؤساء العبرانيين والبطاركة:

فأما بطريك اليعاقبة فهو أهل ملته، والحاكم عليهم ما امتد فى مدته، وإليه مرجعهم فى التحريم والتحليل، وفى الحكم بينهم بما أنزل فى (التوراة) ولم ينسخ فى (الإنجيل)، وشرعته مبنية على المسامحة والاحتمال، والصبر على الأذى وعدم الاكتراث والاحتفال، وهو مؤدب لنفسه فى الأول بهذه الآداب، وفى المدخل إلى شريعته قسيم الباب - (أى بابا رومة) - وإنهما سواء فى الاتباع،

ومتساويان، فإنه لا يزيد مصراع على مصراع، فدأبه التخلق من الأخلاق بكل جميل، وأن لا يستكثر من متاع الدنيا، فإنه قليل، فليقدم المصالحة بين المتحاكمين إليه قبل الفصل البت، فإن الصلح - كما يقال - سيد الأحكام، وهو قاعدة دينه المسيحى، ولم يخالف فيه المحمدية الغراء دين الإسلام، ولينظف صدور إخوانه من الغل، ولا يقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الأجسام. وهو رأس جماعته، والكل له تبع، فلا يتخذ له تجارة مربحة أو يقتطع بها مال عيسوى يقربه، فإنه ما يكون قد قربه إلى المذبح وإنما ذبحه! وكذلك الديارات وكل عمر والقلالى فيتعين عليه أن يتفقد فيها كل أمر، ويجتهد فى إجراء أمورها على ما فيه رفع الشبهات، علما أنهم اعتزلوا فيها للتعبد فلا يدعها تتخذ متنزهات، وإنهم إنما أحدثوا هذه الرهبانية للتقلل فى هذه الدنيا والتعفف عن الشهوات، وحبسوا فيها أنفسهم حتى أن أكثرهم إذا دخل إليها لا يعود يبقى مع المطلوقين من الجماعات، فليحذرهم من جعلها مصيدة للمال، بل خلوة منزهة عن الحرام، مرصدة على الحلال، لا يأوى إليها من الغرباء القادمين عليه من يريب، ولا يكتم عن الحكومة مشكل أمر ورد عليه من بعيد أو قريب، وليتجنب ما لعله فيما يخص المذاهب من طرف الأجانب ينوب، وليتوق ما يأتيه من تلقاء الحبشة حتى إذا قدر فلا يشم أنفاس الجنوب، فمادة سؤدد السودان وإن كثرت مقصرة، فإن الله تعالى جعل آية الليل مظلمة وآية النهار مبصرة، والتقوى مأمور بها أهل كل ملة، وكل موافق ومخالف فى القبلة، فليكن عمله بها على وجه صحيح، وفى الكناية ما يغنى عن التصريح، وبالتقوى رضا الله ورسوله، وبها أمر المسيح.

[حاخام اليهود]

وأما رئيس اليهود فهو الضابط لطائفته على قلتهم، والمؤمن لسربهم الذى لو لم يؤمنوا فيه لأكلهم الذئب لذلتهم، فعليه بضم جماعته ولم شملهم باستطاعته، والحكم فيهم على قواعد ملته وعوائد أئمته فى الحكم إذا وضح له بأدلته، وعقود الأنكحة وخواص ما يعتبر عندهم فيها على الإطلاق، وما يفتقر فيها إلى الرضا من

الجانبين فى العقد والإطلاق، وفيما أوجب عنده حكم دينه عليه التحريم، وأوجب عليه الانقياد إلى التحكيم، وما نص فيه الأحبار التواتر من الأخبار والتوجه تلقاء بيت المقدس إلى جهة قبلتهم، ومكان تعبد أهل ملتهم، والعمل فى هذا كله بما شرعه موسى الكليم، والوقوف معه إذا ثبت أنه فعل ذلك النبى الكريم، وإقامة حدود (التوراة) على ما أنزل الله من غير تحريف، ولا تبديل لكلمة بتأويل ولا تصريف، واتباع ما أعطوا عليه العهد، وشدوا عليه العقد، وأبقوا به ذمامهم، ووقوا به دماءهم، وما كان يحكم به الأنبياء والربانيون، ويسلم إليه الإسلاميون منهم ويعبر عنه العبرانيون، كل هذا مع إلزام الرئيس لهم من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أقروا فى هذه الديار، ووقاية أنفسهم بالإنصاف بالخضوع والانكسار، ومد رؤوسهم بالإذعان إلى ملة الإسلام، وحفظ شعار الذمة بتمام الانقياد والاستسلام، وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة، أو يفهم منه المعارضة، وعلى هذا الرئيس ترتيب طبقات أهل ملته من الأحبار فيمن دونهم على قدر استحقاقهم، وعلى ما لا يخرج عنه كلمة إتفاقهم، وكذلك له الحديث فى جميع كنائس اليهود المستمرة إلى الآن، المستقرة بأيديهم من حين عقد عهد الذمة، ثم ما تأكد بعده بطول الزمان، وتقريرهم على ما سلف عليه سلف هذه الأمة. وفى هذا كفاية وتقوى الله وإطاعة الدولة الإسلامية رأس الأمور المهمة.

قال الشيخ بدر الدين بن عبد الرحمن البرلسى المالكى فى كتابه المسمى (بالقول المرتضى فى أحكام القضا) مسألة: اختلف القرويون، هل يجوز تمكن الخصم من طلب يهودى فى سبته؟ وإلزامه الحكم فيه، أو يكره ذلك؟ قال العلامة قاضى القضاة البساطى: وعندى إنه يمنع إلا أن تقوم القرائن على أن المسلم اضطر إلى ذلك، ولم يقصد ضررا، قال: ولقد حكى لنا أن بعض الناس يتعيش بذلك، فيذهب إلى بعض القضاة ويرفع إليه ورقة ويطلب فيها يهوديا، وربما كان معه ورقتان أو ثلاث من قضاة مختلفة، وإذا كان يوم السبت توجه إلى اليهود ومعه رسول قد أطلعه على سره، ويقول: طلبتك إلى الشرع، فلا يسعه إلا أن يصالحه على الترك فى ذلك اليوم. انتهى كلام الشيخ بدر الدين، ثم قال فى محل آخر:

تغليظ اليـمين يكون فى المحل المعظم وهو الجـامع للمـسلمين، ولا يقـوم مـقـامـه مسجد، ويحلف غير المسلم حيث يعظم، فيحلف اليهودى فى البيعة، ويحلف النصرانى فى الكنيسة، والمجوسى فى بيت النار. انتهى. وعند الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان: لا يحلفون فى بيوت عباداتهم، وإنما يحلفون عند القاضى، فقد راعى مذهب الإمام مالك، عالم المدينة، معتقدهم، ثم قال الشيخ بدر الدين أيضا، فى محل آخر: قال الشيخ سراج الدين عمر الحنفى، قارئ الهداية: إذا بنى الذمى دارا عالية بين دور المسلمين وجعل لها طاقات وشبابيك تشرف على جيرانه، هل يمكن من ذلك؟ فأجاب بقوله: أهل الذمة فى المعاملات كالمسلمين، وما جاز للمسلمين جاز لهم، وإنما يمنع الذمى من تعلية بنائه إذا حصل ضرر لجاره من منع ضوء أو هواء، هذا هو ظاهر المذهب. انتهى. وقال الإمام النووى فى (التحفة) ما نصه: وللإمام أو نائبه الاستعانة بأهل الذمة، والاستئمان على العدو، بشرط أن تؤمن خيانتهم، بأن يعرف حسن رأيهم فينا، ويشترط فى جواز الإعانة بهم الاحتياج إليهم ولو بنحو خدمة أو قتال لقلتنا، ونفعل بالمستعان بهم الأصلح من أفرادهم أو تفريقهم فى الجيش. انتهى. ويحسن هنا أن نقول ما قاله هرقل ملك الروم، حين أمر فى جيشه بالشام جبلة بن الأبهم الغسانى على من معه من العرب ليحاربوا معه عرب الإسلام، وجعل جبلة وقومه مقدمة لجيش الروم، وكان جبلة قد أسلم ثم ارتد وانضم للروم ليخلص من حكم عمر، رضى الله تعالى عنه، حيث أراد أن يسوى بينه وبين خصمه فى القصاص فى نظير لطمة لطمها جبلة، فقال هرقل، حين صدر به فى حرب الإسلام: لا يقطع الماس إلا الماس! يعنى لا يغلب العرب إلا العرب، أى لا يغلب الجنس إلا جنسه.

فلا شك فى جواز مخالطة أهل الكتاب ومعاملتهم ومعاشرتهم، وإنما المحظور الموالاة فى الدين. ومما يقرب ذلك حل الكتابية للمسلم، وولاية العقد له من وليها، لقوله تعالى ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ (المائدة: ٥). أى حل لكم، مع جواز التسرى بالكتابيات اللاتى وقعن فى أسر الإسلام بحرب، لأنه صلى الله عليه وسلم تسرى بصفية وريحانة قبل إسلامهما، وممن

تزوج بالكتابيات من الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان، رضى الله تعالى عنه، فإنه تزوج بنصرانية كتابية لكن أسلمت بعد ذلك وحسن إسلامها.

وبالجملة فرخصة تدين أهل الكتاب بدينهم مؤسسة على العهود المأخوذة عليهم عند الفتوح الإسلامى، وكل مسلم يحفظ العهد لأن العهد فى الحقيقة إنما هو لله تعالى، وفى العادة أن العهد يلتزمه من يعقده بالطوع والاختيار، فبهذا يجب الوفاء به، قال تعالى لنبيه، عليه الصلاة والسلام: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (الفتح: ١٠). وقد ذكر بعض ما يتعلق بذلك فى (المقدمة) عند التكلم على حرية الذمة التى تعتبر عند أهل الأديان، وفى (الفصل الثالث)، الآتى بعد هذا، ما يتعلق بوفاء العهود، فليراجع.

ومما يحكى مما يناسب ذلك، فى الجملة، أن البرنس جرجس بن جاكس الثانى ملك الإنكليز وولى عهده، الذى هو بروتستانى المذهب، لما سافر إلى مملكة فرانسا للسياحة، ذهب لزيارة «فنلون» القسيس الفرنساوى صاحب التآليف الكثيرة التى منها (سياحة تلماك) أوصاه بقوله: «إذا آل الملك إليك أيها الأمير لا تجبر رعيتك القاثوليقية[1] على تغيير مذهبهم ولا تبديل عقائدهم الدينية، فإنه لا سلطان يستطيع أن يتسلطن على القلب وينزع منه صفة الحرية، فقوة العنفوان الحسية والشوكة الجبرية الغاصبة لا تفيد برهانا قطعيا فى العقيدة، ولا تكون حجة يطمئن إليها القلب، فلا ينتج الإكراه على الدين إلا النفاق وإظهار خلاف ما فى الباطن». انتهى.

---

(١) الكاثوليكية.

[التعصب الدينى مذموم]

ومن هذا يعلم أن الملوك إذا تعصبوا لدينهم، وتداخلوا فى قضايا الأديان، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم فإنما يحملون رعاياهم على النفاق، ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته، وينزعون الحرية منه، فلا يوافق الباطن الظاهر، فمحض تعصب الإنسان لدينه لإضرار غيره لا يعد إلا مجرد حمية، وأما التشبث بحماية الدين لتكون كلمة الله هى العليا فهو المحبوب المرغوب، ولذلك كان الجهاد الصحيح لقمع العدو إنما يتحقق إذا كان القصد منه إعلاء كلمة الله عز وجل وإعزاز الدين ونصرة المسلمين، لا لحيازة الغنيمة واسترقاق العبيد واكتساب اسم الشجاعة وتحصيل الصيت وطلب الدنيا، ففاعل ذلك تاجر أو طالب، وليس بمجاهد، كما ستعرفه فى (الفصل الثالث).

الفصل الثالث

فى طبقة الغزاة المجاهدين

قال صلى الله عليه وسلم : «إن أقرب الناس درجة من درجة النبوة أهل الجهاد، وأهل العلم، أما أهل العلم فقالوا ما قال الأنبياء، وأما أهل الجهاد فجاهدوا على ما جاءت به الأنبياء» . وسأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، أى الجهاد أفضل؟ فإن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، ويقاتل ابتغاء عرض الدنيا، فأى ذلك فى سبيل الله؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» . وهذا الحديث مرآة لكل غاز ومجاهد بحيث يكون جهاده لله عز وجل حتى يستحق الثواب، أما من حارب للحمية أو لطلب الدنيا لسبب من هذه الأسباب فلا يكون غازيا . ثم إن المحاربة لا تجوز إلا فى ستة مواضع : **الأول**: محاربة المشركين، وأهل الحرب، **الثانى**: محاربة الملحدين، لأنهم شر الخلائق، **الثالث**: محاربة المرتدين، **الرابع**: محاربة البغاة، **الخامس**: محاربة قطاع الطريق، **السادس**: محاربة القاتلين ليقتص منهم .

ومن شهامة الملك أن يتولى الحرب العظيم بنفسه، وأن يتحفظ من لقاء العدو فى بلاده لسلامة نفسه، كما قيل :

إن سلامة من سلمى وجارتها ... أن لا تمر، على حال، بواديه

وينبغى أن يخوف الملك العدو بما يمكنه، فربما رجع، ويجتهد فى قمع العدو بالحيلة والمكيدة، فالحيلة أنفع وسيلة، وإذا حضره العدو أجزل العطاء للعسكر ووفى بالمواعيد لهم لئلا تنكسر قلوبهم، فبهذا يبيعون أرواحهم لقتال عدوهم، لأنهم حماة الوطن والدين .

قال الحكماء: الناس حازمان وعاجز، فأحزم الحازمين من عرف الأمر قبل وقوعه فاحترس منه، والحازم بعده من إذا نزل به تلقاه وعمل الحيلة حتى يخرج منه، والعاجز من تردد بين ذلك ، لا يأتمر رشيدا، ولا يطيع مرشدا حتى تفوته النجاة. ويقال: احتل تغنم، وتفكر تسلم، ويقال: ترك التقدم أحسن من التندم. وأوصى ملك قائد سريته، فقال له: كن كالتاجر الكيس، إن وجد ربحا أتجر وألا حفظ رأس ماله، ولا تطلب الغنيمة حتى تحمد السلامة، وكن من أحتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك. ويقال: لا تنشب فى حرب، وإن وثقت بقوتك، حتى تعرف وجه الهرب منها، فإن النفس أقوى ما تكون إذا وجدت سبيل الحيلة مدبرة لها، واختلس من تحاربه خلسة الذئب، وطر منه طيران الغراب فإن التحرز زمام الشجاعة، والتهور عدو الشدة.

ومما يجب، مع التفكر، على المحارب مشاورة العقلاء من النصحاء أولى التجارب، فقد حكى أن قوما من العرب أتوا شيخا قد أربى على الثمانين وقارب التسعين، فقالوا: إن عدونا أستاق سرحنا[1]، فأشر علينا بما ندرك به الثأر وننفى العار، فقال: إن ضعف قوتى نسخ همتى، ونقض إبرام عزيمتى، ولكن شاوروا الشجعاء من ذوى العزم، والجبناء من أولى الحزم، فإن الجبان لا يألو برأيه ما وقى مهجكم، والشجاع لا يألو ما يشيد ذكركم، ثم خلصوا من الرأيين نتيجة تبعد عنكم معرة نقص الجبان وتهور الشجعان، فإذا نجم الرأى على هذا كان أنقد على عدوكم من السهم الصائب والحسام القاضب، وملاك التحيل فى بلوغ الأمانى رفض العجلة واستعمال التوانى. قال الحكماء: إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم ويعزم قبل أن يفكر ويقطع قبل أن يقدر ويمدح قبل أن يجرب ويذم قبل أن يختبر، ولن تصحب هذه الصفة أحدا إلا صحب الندامة وجانب السلامة، قال الشاعر:

---

(١) ماشيتنا.

الصبر مفتاح ما يرجى وكل صعب به يهون
وربما نيل باصطبار ما قيل هيهات لا يكون
فاصبر وإن طالت الليالى فربما أمكن الحزون[1]

وقال تعالى فى نهى نبيه عن العجلة، تعليما لأمته ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ (طه : ١١٤) وقال بعض الحكماء : تأن واحزم، فإذا استوضحت فاعزم فإذا اجتمع فى الرجل الحزم والشجاعة فهو الذى يصلح لتدبير الجيوش وشجاعة أمر الحروب، والناس : رجل، ونصف رجل، ولا شيء، فالرجل من اجتمع له إصابة رأى وشجاعة، ونصف الرجل هو الذى إنفرد بأحد الوصفين دون الآخر والذى لا شيء هو من عرى من الوصفين.

[الشجاعة]

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الغزاة المجاهدين الذين هم أنصار الوطن والدين بوصف فى حقهم بالخصوص، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف : ٤) وقد أعد الجنة لمن منهم ذاق بالشهادة طعم الحتوف، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الجنة تحت ظلال السيوف»، وحسبك قوله تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران : ١٦٩) الآية. ومدار فن الحرب الآن على تعليم الحركات العسكرية، وحسن الرأى، والشجاعة، وخيرها أوسطها، قال صلى الله عليه وسلم : «الحرب خدعة». وقال المتنبى . .

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى
فإذا هما اجتمعا لنفس مرة بلغت من العلياء كل مكان

(١) مفردها حزن ـ بفتح الحاء وسكون الزاى ـ وهي ما غلظ من الأرض.

ولربما طعن الفتى أقرانه بالرأى قبل تطاعن الأقران

ولو أن الشجاعة هي عماد الفضائل، ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة، إلا أن الرأى مقدم عليها، كما حكى أن الإسكندر حاصر قلعة سنة كاملة فلم يفتحها، فكتب إليه الحكماء: لو جلست سبعين سنة لا تملك فتحها إلا بالمكيدة للأعداء، وأن يكون بأسهم بينهم. فبعث لبعضهم وخدعهم، ثم بعث إلى آخرين بضد ذلك، فتنازعوا وتحاربوا، ثم سلموا القلعة.

وعرف بعضهم الشجاعة بأنها: غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده، وقيل فى تعريفها أيضا: هى سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب الشجاعة ولو فى قتل حية» وقال بعض أهل التجارب: الرجال ثلاثة: فارس، وشجاع، وبطل، **فالفارس**: الذى يشد إذا شدوا، قال عامر بن الطفيل:

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل كوكب

فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ويكنى بأبى على، وهو ابن أخى عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة، أحد فرسان العرب المشهورين وكبارهم، ومراد عامر بن الطفيل: أن قبيلة عامر لم تجعله سيدا لأجل وراثته من أبيه السيادة، بل لأمر آخر، ولمح بعضهم لهذا المعنى بقوله:

يسود من يسود بغير ريب إذا الأسباب كان لها وجود

ألم تسمع أخى ما قال قيس لأمر ما يسود من يسود

وأما **الشجاع**: فالداعى إلى البراز، والمجيب داعيه إلى ذلك، والبطل المحامى لظهور القوم إذا ولوا، والعرب تسمى ذلك كله شجاعة، ويجعلون أول مراتب الشجعان الهمام، سمى بذلك لاهتمامه وعزمه. **ثانيها**: المقدام، سمى بذلك للإقدام، وهو ضد للإحجام، **ثالثها**: الباسل من البسالة، وهى الجراءة والشدة،

رابعها: البطل أى الذى يبطل فعل الأقران وبطفئ شجاعة الشجعان. **خامسها**: الصنديد وهو الذى لا يقاومه مقاوم.

وحكم الشجاعة ومظهرها وثمرتها الإقدام فى موضع الإقدام، والثبات فى موضع الثبات، والزوال فى موضع الزوال، وضد ذلك يخل بالشجاعة، وقالوا: الحرب كالنار إن تداركت أولها خمد إضرامها، وإن استحكم أضرامها صعب إخمادها، وهذا معنى قولهم: ينبغى أن تتغدى بالعدو قبل أن يتعشى بك. وزعم بعضهم أن السخاء والكرم دليل الشجاعة، وأن كل سخى شجاع، والصحيح أن ذلك أغلبى غير مطرد، بل بنو آدم على أربعة أحوال، فمنهم الجواد الشجاع، يجود بماله ونفسه، وهو أعلاهم مرتبة، ومنهم البخيل الجبان، وهو أذلهم وأكثرهم مذمة، ومنهم الجواد الجبان، يجود بماله ويضن بنفسه، ومنهم الشجاع البخيل، بضد ذلك. والأخلاق مواهب من الله يهب منها ما يشاء لمن يشاء، ويجبل خلقه على ما يريد، وإنما الأخلاق الفاضلة تتلازم غالبا، وكذا الأخلاق الدنيئة.

قال أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمل الناس وجها، وأجود الناس كفا، وأشجع الناس قلبا، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس ثائرين قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم راجعا، قد سبقهم إلى الصوت، وسبر الخبر على فرس لأبى طلحة عرى والسيف فى عنقه، وهو يقول: لن تراعوا لن تراعوا» وقال عمران ابن حصين[1]: ما لقى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كتيبة إلا كان أول من يضرب. وقال الحكماء: أصل الخير كله فى ثبات القلب، وهو الشجاعة، وأعظم أهل الجند شجاعة وأقواهم جأشا من إذا إنهزم أصحابه يلزم الساقة[*]، ويضرب فى وجوه القوم، ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوى قلوب أصحابه، فمن وقع أقامه ومن وقف

(١) صحابي، أسلم عام فتح خيبر، وكان فقيها في الدين، شارك في تعليم أهل البصرة أمور دينهم وأعتزل نزاع علي ومعاوية، ومات سنة ٥٢هـ.
(*) السَّاقَةُ: (من الجيش): مؤخَّرُه. (الشروق).

حمله، ومن كبا به فرسه حماه، حتى ييأس العدو منهم. حتى قيل إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم فى الشجاعة الدفاع عن الحريم.

ولقد اعترف الجميع لأبى بكر الصديق، رضى الله عنه، بقوة الجأش والصبر فى المواطن الكريهة، وكان عمر، رضى الله عنه، موسوما بالشدة والشجاعة، كان يضع يده اليمنى على أذن فرسه اليسرى ويجمع بدنه ويثب على ظهرها كأنما خلق عليها.

وكان على، رضى الله عنه، شجاعا بطلا، إذا ضرب لا يثنى، وكذلك الزبير بن العوام معدود من شجعان الفرسان، قالوا: لم يكن فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم فارس أشجع من الزبير، ولا رَاجِل أشجع من الإمام على، كرم الله وجهه، ومن الشجعان «بنو قيلة»، وهم الأنصار، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع»، يريد أنهم يقاتلون أبتغاء مرضاة الله، لإعلاء كلمته لا للغنيمة، ومن شجعان الأنصار معاذ بن عفراء[1]، قطع كتفه يوم بدر فبقى معلقا بجلده، فلم يزل يقاتل جميع يومه وهو معلق حتى وجد ألمه فوضع رجله على يده وتمطأ حتى قطع الجلدة! ومن شجعان الصحابة خارجة بن حذافة[2]، والمقداد بن الأسود[3].

ولما كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، رضى الله عنهما، وهو يحاصر مصر يطلب ثلاثة آلاف فارس ليبعث إليه بها، بعث إليه بهؤلاء الثلاثة رضى الله عنهم، ولم يكن فى الجاهلية ولا فى الإسلام أشجع من خالد بن الوليد،

---

(١) هو معاذ بن الحارث بن رفاعة، وعفراء أمه، صحابي، أنصاري خزرجي بخاري، شهد بدر أو المشاهد كلها مع الرسول عليه السلام، ويقال إنه عاش حتى عهد عثمان بن عفان.

(٢) أحد فرسان قريش، شارك في فتح مصر، وتولي بها المناصب، حتى قتل بيد أحد الخوارج الذي حسبه عمرو بن العاص.

(٣) هو المقداد عمرو بن ثعلبة، من السابقين إلى الإسلام، ومن الذين هاجروا للحبشة، وكان من الذين أرادوا الخلافة لعلي بن أبي طالب بعد موت الرسول، وعاش حتى زمن عثمان.

ولشجاعته سماه رسول الله، صلى الله عليه وسلم سيف الله، لم ينهزم فى جاهلية ولا فى إسلام، ومات على فرشه، وقيل لعبد الملك بن مروان: من أشجع الناس؟ فقال العباس بن مرداس السلمى[1] الذى يقول:

أشد على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها

وقيس بن الحطيم حيث يقول:

وإنى فى الحرب العوان موكل بإقدام نفس لا أريد بقاءها

وممن اشتهر بالشجاعة أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى، فارس بطل، شاعر نديم، جامع لما تفرق فى غيره، حمل على فارس ووراءه رديف فطعنها فانتظما فى رمحه، وكان ذلك فى بعض حروبه، وفيه يقول بكر بن النطاح، ويذكر طعنته..

وإذا بدا لك قاسم يوم الوغى يختال خلت أمامه قنديلا

وإذا تلذذ بالعمود ولينه خلت العمود بكفه منديلا

وإذا تناول صخرة ليرضها عادت كثيبا فى يديه مهيلا

قالوا وينظم فارسين بطعنة يوم اللقاء ولا تراه كليلا

لا تعجبوا لو كان مد قناته ميلا إذا نظم الفوارس ميلا

ومن كلام أبى دلف العجلى المذكور:

ليس المروءة أن تبيت منعما وتظل منعكفا على الأقداح

ما للرجال وللتنعم إنما خلقوا ليوم كريهة وكفاح

وقد أرشد الله سبحانه وتعالى عباده المجاهدين بخمسة أشياء ما اجتمعت فى فئة

(١) (توفي حوالى سنة ٦٣٩م) شاعر مخضرم، من أصل فارسي، أسلم قبيل فتح مكة، وشارك في فتحها مع قومه ضمن جيش الإسلام.

قط إلا نصرت، وإن قلت وكثر عدوها وهى مجموعة فى قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٤٦) أحدها: الثبات، ثانيها: كثرة ذكره سبحانه وتعالى، ثالثها: الطاعة، رابعها: اتفاق الكلمة، خامسها: الصبر، فهذه الخمسة تبنى عليها قبة النصر، ولما اجتمعت هذه القوى الخمس فى الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم حتى فتحوا الدنيا ودانت لهم البلاد والعباد، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل أمرهم إلى ما آل إليه.

ولا بأس أن نذكر هنا من أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد ونقله صاحب (المستطرف)[1] قال: «نزل علينا بنو تغلب فى بعض السنين، وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن أسمعها وأجمعها، فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم إذ أنا بمرأة واقفة فى فناء خبائها، وهى آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله فى حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسبج[2] المنظوم، وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن إليه الأسماع وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها، أى بنى، وهو يبتسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا، فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فدنوت منه وسلمت، فرد على السلام، فوقفت أنظر إليهما، فقالت ياحضرى ما حاجتك؟ فقلت: الأستكثار مما أسمع والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام، فقالت يا حضرى إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره، فقلت: قد شئت، يرحمك الله، فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد، حملا خفيفا، حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عزوجل أن أضعه، فوضعته خلقا سويا، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه حتى أفضل الله عز وجل وأعطى وآتى من الرزق بما كفى وأغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أسد، أقيه برد الشتاء وحر الهجير، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته المؤدب فحفظه القرآن فتلاه،

---

(١) (المستطرف من كل فن مستظرف) للأبشيهى.

(٢) الخرز الأسود.

وعلمه الشعر فرواه، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده، فلما أن بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بويتات الحى الخيلاء، فأخذ فى قرى الضيف وإطعام الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه، فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحى فى طلب ثأر لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق فى الحى غيره ونحن آمنون وادعون ما هو إلا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو، فما هو إلاهنيهة حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، وهو يسألنى عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر إشفاقا عليه وضنا به، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يثور الأسد، وأمر بأسراج فرسه ولبس لامة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم فطعن أدناهم منه فرمى به ولحق أبعدهم عنه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيا صغيرا لا مدد وراءه، فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه . وامتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال، فو الله لا رجعت إلا به أو لأهلكن دونه، فانصرفت إليه الأقران وتمايلت نحوه الفرسان وتحيزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة وعطفوا عليه بالأعنة، فوثب عليهم وهو يهدر الفحل من وراء الإبل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها ولا كتيبة إلا مزقها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه، ثم ساق المال وأقبل به، فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فو الله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا وأحسن رواحا من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الأبيات:

تأملن فعلى هل رأين مثله	**إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب**
وضافت عليه الأرض حتى كأنه	**من الخوف مسلوب العزيمة والقلب**
ألم أعط كلا حقه ونصيبه	**من السمهرى اللدن والمرهف العضب**

أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك	سليل المعالى والمكارم والسيب[1]
أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف	وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الجبال	الرواسى لا نخططن إلى الترب
وعرض نقى أتقى أن أعيبه	وبيت شريف فى ذرى تغلب العلب
فإن لم أقاتل دونكن وأحتمى	لكن وأحميكن بالطعن والضرب
فلا صدق اللاتى مشين إلى أبى	يهنينه بالفارس البطل الندب»

هكذا فضائل شبان العرب فى الشجاعة ومكارم الأخلاق . .

آراؤهم ووجوههم وسيوفهم	فى الحادثات إذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح	تجلو الدجى والأخريات رجوم

كما أن شجاعة شيوخهم فى قوة آرائهم المؤسسة على التجارب، كما حكى قريبا عن الشيخ الذى قارب التسعين لما استشاره قوم من العرب فى شأن عدوهم فأشار عليهم برأى سديد.

ومن الشيوخ من يجمع بين فضيلتى الشجاعة والرأى كعمرو بن معدى كرب الزبيدى، فإنه بعد أن عمر وضعف كان فى واقعة الفرس يحمل على عدوه، وذلك أنه معدود من فرسان الجاهلية والإسلام، فله فى حروب الجاهلية مواقف مذكورة ومواطن مشهورة، أسلم ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام، وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة وأحوال جسيمة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إذا رآه قال: الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرو. وروى عنه رضى الله عنه أنه سأله يوما فقال له يا عمرو، أى السلاح أفضل فى الحرب؟ قال: فعن أيها تسأل؟ قال: ما تقول فى السهام؟ قال: منها ما يخطئ ويصيب، قال: فما تقول فى الرمح؟ قال: أخوك، وربما خانك، قال: فما تقول فى الترس؟ قال: هو

(١) العطاء.

الدائر، وعليه تدور الدوائر، قال: فما تقول فى السيف؟ قال: ذلك العدة عند الشدة. وقيل إنه نزل يوم القادسية على النهر، فقال لأصحابه: إننى عابر على هذا الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتمونى وسيفى بيدى أقاتل به تلقاء وجهى، وقد عرفنى القوم وأنا قائم بينهم، وإن أبطأتم وجدتمونى قتيلا بينهم، ثم انغمس فحمل على القوم، فقال بعضهم لبعض: يا بنى زبيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن أنكم تدركونه حيا، فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه، وقد أخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها، والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك، فلما رآنا أدركناه رمى الرجل نفسه، وخلى فرسه فركبه عمرو وقال: أنا أبو ثور، كدتم والله تفقدوننى، فقالوا: أين فرسك؟ فقال رمى بنشابة فعار وشب فصرعنى.

ويروى أنه حمل يوم القادسية على «رستم»، وهو الذى كان قدمه «يزدجرد»، ملك الفرس، يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو، وكان «رستم» على فيل، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط «رستم» وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار، فقتل «رستم» وانهزمت العجم، وكان عمرو من الشعراء المعدودين، وفيه يقول العباس ابن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطئى زبيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

وما أحسن قوله فى وصف السيف: ذاك العدة عند الشدة، فقد كان له سيف يسمى الصمصامة، فكان يضرب به وبسيفه المثل، إذ هو أشرف سيوف العرب، فيقال: ما كل من يسطو بصمصامة عمرو. ويقال له: الصمصام، قال نهشل متمثلا به:

أخ ماجد ما خاننى يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص، ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل لهشام فلم يزل عند بنى مروان حتى جَدَّ الهادى العباسى فى طلبه فأخذه، قال صلى الله عليه وسلم: «الخير فى السيف، والخير مع السيف والخير بالسيف»، قال السموءل:

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وقال ابن الرومى :

لم أر شيئا حاضرا نفعه ... للمرء كالدرهم والسيف

يقضى له الدرهم حاجاته ... والسيف يحميه من الحيف

وما أحسن قول الطغرائى :

وعادة السيف أن يزهي بجوهره ... وليس يعمل إلا فى يدى بطل

ولذلك لما انتصر بعض الأمراء على أعدائه وأطلق أسراهم من عليهم بسلاحهم، فقال موقع[1] جيشه يصف ذلك : «مننا عليهم من الأسلاب بالبيض القواطع، ليجعلوا حليها أساور فى أيدى البيض ذوات البراقع، وحلية السيف لا يحسن إلا بكف يكون به ضاربا له لا جالبا، وإذا عطل فى مواقف الجهاد فالأولى له أن يجعل عاطلا» كما قال أبو العتاهية :

فصغ ما كنت حليت ... به سيفك خلخالا

فما تصنع بالسيف ... إذا لم تك قتالا

ومدح أعرابى قومه فقال : قومى ليوث حرب، وغيوث جدب، ليس لأسيافهم أغماد غير الهام، ولا رسل للمنايا غير السهام. قال الشاعر :

كأن سيوفه صيغت عقودا ... تجول على الترائب والنحور

وسمر رماحه جعلت هموما ... فما يخطرن إلا فى الضمير

وقال عبد الله بن طاهر :

---

(١) أي كاتب التوقيعات، وهي الأوامر والبلاغات والتنبيهات . . وأيضا «التأشيرات» باللغة الديوانية المعاصرة لنا الآن .

يبيت ضجيعى السيف طورا وتارة ... تعض بهامات الرجال مضاربه

أخو ثقة أرضاه فى الروع صاحبا ... وفوق رضاه أننى أنا صاحبه

وليس أخو العلياء إلا فتى له ... بها كلف ما تستقر ركائبه

وقال ابن الرومى :

كتبت لنا أيدى النزال صحائفا ... عجما من الأعراب والأفصاح

أطراسها جثث الكماة وحبرها ... مما أسلنا من دم الأرواح

فالشكل فوق سطورها بصوارم ... والنقط فوق حروفها برماح

وقد تنازع الأدباء فى التفضيل بين السيف والقلم، ففضل بعضهم السيف فى قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وأشار بعضهم إلى تفضيل القلم على السيف بقوله :

الكتب عقل شوارد الكلم ... والخط خيط فرائد الحكم

بالخط نظم كل منتشر ... منها وفصل كل منتظم

والسيف وهو بحيث تعرفه ... فرض عليه عبادة القلم

ولو أن بكل من السيف والقلم قوام الممالك إلا أن تقديم الثانى على الأول أقرب، لأن بالأقلام تساس الأقاليم، فالقلم أنفع من السيف وإن كان السيف أرفع منه، قال الشاعر :

لا يسلم الشرف المنيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

فكيف وبه دوام المجد، وتمام السعد، فمما ينقش على سيوف بعض العرب :

إن أسيافنا القصار الدوامى ... صيرت مجدنا طويل الدوام

باقتحام الأهوال من وقت حام　　　واقتسام الأموال من وقت سام

ثم إن التعبير فى المواطن الحربية بالسيف القصد منه آلات الحرب وعدته، إذ هو فى الأزمان القديمة كان أشهرها، وإلا فليس للأهوان والمدافع فى وقت الأهوال من دافع ولا مدافع، فهى أولى من الرمى بالسهام والنبال فى قول من قال:

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا　　　ما لم ينالوا بحد المشرفيات

فإنها فى العدو انكى، وأبلغ فى الانتقام والبلية، وأهلك للأخصام وأملك فى قطع المنازعات الحربية بين أمم البرية، إلا أنه لم تزل الشهرة للمرهفات، وأيضا القوة كانت فى قديم الزمان الرمى بالنبال، حيث فسر النبى، صلى الله عليه وسلم، القوة به حين مر على أناس يرمون فقال: «ألا أن القوة الرمى، ألا أن القوة الرمى». وأراد بالقوة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ (الأنفال: ٦٠) وقوله تعالى ﴿ **مَّا اسْتَطَعْتُم** ﴾ مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحلية، فالآية الشريفة جامعة لأبواب الحرب، وهى الأصل فى تدبير الحروب التى وضع الناس لها كتبا ورتبوا فيها تراتيب خاصة وتفننوا فيها تفننا عجيبا، مع قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ (الصف: ٤) ومن المعلوم أنه ليس ثم بناء مرصوص أتم ولا أنظم من تشكيل المربع المسمى بالقلعة فى التعاليم الجديدة النظامية، التى تجددت منذ سنين عديدة فى مصر المحمية، فهذه النظامات الحديثة الأخيرةمن أعظم ما تكون به ديار الإسلام جديرة، والفضل فى إدخالها الديار المصرية واقتفاء الاقتداء بها وتأليفها فى الديار الإسلامية، للحضرة المحمدية العلية، ثم قويت واتسعت دائرتها برياسة نجله الأكبر سمى الخليل، ثم تشكلت أشكالا متنوعة إلى أن قويت شوكتها بالخديو الجليل، عزيز مصر إسماعيل، فإنه فرع تبع الأصل الأصيل فى كسب المجد الأثيل..

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه　　　وتغرس إلا فى منابتها النخل

فإنه ربى للسجال لهم فى ميادين الحرب أعلى مجال.

ينى الرجال وغيره ينى القرى شتان بين قرى وبين رجال
قلق بكثرة ماله وجياده حتى يفرقها على الأبطال

وقال آخر:

وشرط الفلاحة غرس الثمار وشرط السياسة غرس الرجال

ولا بأس أن تذكر هنا عظة تمثيلية وصى بها الحكيم «منطور» تلميذه «تليماك» حين رياسته على بعض السريات اليونانية، وإن كانت الواقعة فى حد ذاتها خيالية إلا أن لها معنى من المعانى الصحيحة، يجب أن يتمسك به أمراء الجنود فى سفراتهم النجيحة، فنقول: [1] قال منطور لتليماك: إذهب إلى أى خطر كان، واقتحم المخاوف والمهالك، متى أحتاج الأمر لذلك، فإن المرء يتدنس عرضه إذا هاله الخوض فى المعارك، ولم يقتسم الأخطار مع أربابها ولم يشارك، ولم يقتحم معامع الحرب والجدال، فإن هذا يلوثه أزيد مما إذا منع من السفر لحضور الحرب والنزال، ولا ينبغى لمن يقود الجيوش وله عليهم إمرة أن تكون شجاعته مترددة بل محققة، لينفذ على الجميع نهيه وأمره، فإذا كانت الرعية تحتاج لحفظ ملكها وبقائه، فهى أحوج لأن تجد شهرته مترددة، يخشى عليها من السقوط ومن شماتة أعدائه، ولا تنس أن الذى يحكم العساكر ويقودها فى الكفاح، لا بد أن يكون انموذج الجمع وشاكى السلاح، وبشجاعته الجاسرة الباسلة يحيى قلوب الجنود الفاضلة، فإياك أن تهاب الأخطار، بل مت فى ميدان الحرب ونقع الغبار، فهذا خير من أن يرميك الناس بالجبن ويصفوك بالذل والصغار، وأما المداهنون الذين يصدونك عن التعرض للخطر عند الاقتضاء واللزوم، فهم أول من يقول فى حقك سرا: إنك ملوم ومذموم، وإنك ضعيف الفؤاد والجأش، وجهدك جهدا لأوباش، ويفوقونك بسهام الملام، متى وجدوا أن يسهل عليك الاحتجاب والإحجام، والتأخر عن الإقدام، ولكن لا ينبغى لك أن تنهض وقت الرخاء

(١) يقتبس الطهطاوي هذه «العظة التمثيلية» من ترجمته لكتاب (مواقع الأفلاك في وقائع تليماك)، وهو قد ترجمه أثناء مقامه بالسودان، وطبع في بيروت.

والسعة، لتطلب الأخطار بدون منفعة، فإن الشجاعة ليست محمودة العلقة والارتباط، إلا إذا كانت موزونة بقسطاس العقل وميزان الحزم والاحتياط، وإلا فهى بدون ذلك عبارة عن احتقار النفس النفيسة، والمخاطرة بها بدون رأى ولا تدبير، فهى إذن خسيسة، فترجع إلى الحمية الشهوانية، والصفة الغضبية الحيوانية ، فلا تنتج نتيجة محققة مأمونة، ولا تثمر ثمرة عن الهوان مصونة، مع أن النفس جوهرة مكنونة، فيجب أن تكون دماؤها محقونة، فالإنسان الذى لا يملك نفسه فى وقت الأخطار، هو إنسان غضبى ورجل أحمق لا شجاع باسل حليف انتصار، ولا هو معدود من فحول الرجال، بل محتاج أن يخرج من مركز العقل ويدخل فى زوايا الاختلال، ليغلب الخوف بصولة الغضب وجولته، ولا يقتدر على غايته لقوة قلبه وحضور عقله واستحضار فكرته، فهو فى هذه الحالة لا يكر ولا يفر، ولا يقبل ولا يدبر، وإنما يتعكر ويتكدر، ولا يتذكر ولا يتفكر، بل يختلط ولا يتدبر، ويخسر حرية عقله وفكره، مما يلزم لتنظيم حاله واغتنام تدمير عدوه، وتدبير أمره، وينسى خدمة الأوطان، ومنفعة البلدان، وهذا عين الهوان، فإذا كان عند ذلك المجازف شجاعة النفر العسكرى المجالد، فليس عنده فطانة الرئيس الكامل ولا أمارة الأمير القائد، بل ليس متصفا فى الحقيقة بحقيقة شجاعة النفر الصحيحة، ولا يسأله آحاد الجنود وأفراد العساكر الرجيحة، لأن النفر العسكرى من واجباته أن يحافظ فى المعركة على استحضار عقله، والاعتدال والحلم حتى يكون ملازما للطاعة فى جميع فعله، فأى محارب تعرض للمجازفة فى الحرب العوان، كدر نظام العساكر وأخل بالتعليمات والحركة العسكرية فى حومة الميدان، وكان قدوة للمجازفة والمخاطرة جميع فعله، فأى محارب تعرض للمجازفة فى الحرب العوان، كدر نظام العساكر وأخل بالتعليمات والحركة العسكرية فى حومة الميدان، وكان قدوة للمجازفة والمخاطرة والمثابرة والمكابرة، وعرض الجيش بتمامه، بفقده استحضار العقل الصائب، للوقوع فى مكايد الخطر والمصائب، فكل من يؤثر مطامعه الفاسدة، ويقدم وسائله ومقاصده على مقتضيات العدل والمصلحة العامة، يستحق الجزاء والعقاب لا المكافأة والثواب، على رأى الخاصة والعامة. فاحذر يا بنى أن تطلب الفخار بدون صبر ولا تؤدة، بل

أقرب الوسائل فى الحصول عليه أن تنتظر اغتنامه بالفرصة لتستعبده، فلا يكون سعيك إليه سعيا خائبا، ولا ترم سهمك صوبه إلا صائبا، فإن الخصلة الحميدة فى الإنسان صاحب الكمال تحمد ما دامت مبنية على الرفق والاعتدال، فهى معادية للزينة وحب الرياء والسمعة، وقصد التعمق فى المطلوب والوسعة، فمتى زادت الحاجة الداعية لاقتحام الأخطار، ودعت الدواعى لاقتحام العقبات الكبار، وجب أيضا الاستحصال على وسائل التبصر والاستبصار، والحزم فى الشجاعة لبلوغ الأوطار، فتقوى الشجاعة بقوة الحاجة إليها، ويجب توسيع دائرة البال فى الحصول عليها. وبالجملة فتنبه لأن تسلك فى أمورك كلها مسلكا لا يجلب إليك غيرة الباقين، ولا يوجب لك عداوة الآخرين، فامدحهم فيما يستحقون عليه المدح، وليكن مدحك مصحوبا بتمييز كل على قدر حاله، لئلا يستحيل إلى القدح، أن تذكر حسنات ذوى الإحسان والخصال الملاح، من خالص قلب متهلل بالفرح والإنشراح، فتضرب صفحا عن سيئاتهم، وترثى لحال فاعلها، وتتأسف على وقوعه فى الفعائل القباح، ولا تحكم بشىء وتقضى به استقلالا بحضور هؤلاء الرؤساء الأفاضل الذين مارسوا الأمور، وجربوا الوقائع والنوازل، فإنك خلى عن ذلك، ولست مثلهم فى سلوك هذه المسالك، فاسمع قولهم مع الأدب والاحترام، وشاورهم فى الأمر لتبلغ صحيح المرام، واخضع لأرباب المعارف والعوارف، وافزع إليهم وتضرع ليعلموك ما لم تعلمه من اللطائف، ولا تسنح من أن تعزو إلى من تعلمت منهم جميع ما يصدر عنك من الأمور الصائبة، فانسب لهم وأضف محاسنه وأطايبه، ولا تسمع أبدا مقالة من يثبط همتك بالبعد عنهم، وأَخْذ الحذر منهم، ليوقع المنافسة والعداوة والمناقشة والقساوة بينك وبين هؤلاء الرؤساء السادة والأمراء القادة، وإذا تحدثت معهم فاعتمد عليهم كل الاعتماد، واركن إليهم وثق بهم وسلم لهم القياد، ولا تشك فيهم ولا تتوسوس، ولاطفهم فى الخطاب ليتمكن الحب ويتأسس، وإذا ظننت أو رأيت أن أحدا منهم حصل منه تقصير فى حقك، به عليه يعاب فعاتبه برفق، واصف نيتك فى العتاب، واصدقه فى الدعاوى والأسباب، فإن وجدت فيه أهليه لفهم مقصدك الشريف بالإنصاف، والعود على نفسه بالإذعان

والاعتراف، فحدثه بما يشرح صدره، ويرفع قدره، ويعلى ذكره، فبهذا تأمل منه نوال ما تحتاج إليه، واستكمال ما تطلبه لديه، وأما إذا رأيته لا عقل له فى موافقة رأيك الصائب، فصبر نفسك على ما تجده عنده من التعسف، فهو إحدى المصائب، ولا تجزع، وتجلد إلى أن ينتهى الحرب على أحسن حال، فإنه لا يلام عليك فى التمسك بآداب الحرب على هذا المنوال، ولكن إحترس أيضا أن تفشى لبعض المتملقين والسعادة والوشاة من المنافقين شكوى ما تظنه ظلما عن هؤلاء الرؤساء الموجودين فى الوجاقات والمواقع، التى أنت فيها معهم فى الحروب والوقائع واقع». انتهى.

* * *

وقد عمل بعض الملوك وصية لناظر الجيش قال فيها: «وليأخذ أمير هذا الديوان بكليته، ويستحضر كل مسمى فيه إذا دعى باسمه وحليته، وليقم قياما بغيره لم يرض، وليقدم من يحب تقديمه فى العرض، وليقف على معالم هذه المباشرة، وجرائد جنودنا بما يحصى له من الأعلام ناشرة، وليقتصد فى كل محاسبة، ويحررها على ما يجب أو ما قاربه أو ناسبه، وليستنصح أمر كل ميت يأتى إليه من ديوان المواريث الحشرية ورقة وفاته، أو يخبره مقدمه أو نقيبه إذا مات معه فى الأسفار عند موافاته، وليحرر ما تضمنته الكشوف، وتحقق ما يقابل به من إخراج كل حال على ما هو معروف، حتى إذا سئل عن أمر كان لم يخف، وإذا كشف على شىء أظهر ما هو عليه حقيقته ولا ينكر هذا لأهل الكشف وليحرر فى أمر كل مربعه، وما فيها من الجهات المقطعة، وكل منشور يكتب ومثال عليه جمع للأمر يترتب، وما يثبت عنده وينزل فى تعليقه، ويرجع فيه إلى تحقيقه، وليعلم أن وراءه من ديوان الاستيفاء من يساوقه فى تحرير كل إقطاع، وفى كل زيادة وأقطاع، وفى كل ما ينسب إليه وإن كان إنما فعله بأمرنا المطاع، وليتبصر بمن وراءه، وليتوق اختلاف كل مبطل وافتراءه، وليتحقق أنه هو المشار إليه دون رفقته، والموكل به النظر، والمحقق به جملة جندنا المنصور من البدو والحضر، وإليه مدارج الأمراء يما ينزل، وأمر كل جندى لهم ممن فارق أو

نزل، وكذلك مساوقات الحساب، ومن يأخذ بتاريخ المنشور الشريف أو على السباقة، ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطليعة أو فى الساقة، وطوائف العرب والتركمان والأكراد، ومن عليهم تقدمه، أو درك بلاد ملزمة، أو غير ذلك مما لا يفوت إحصاؤه القلم، وأقصاه أو أدناه تحت كل لواء ينشر أو علم، فلا يزال لهذا كله مستحضرا، وله على خاطره محضرا، لتكون لفتات نظرنا إليه دون رفقته فى السؤال راجعة، وحافظته الحاضرة غنية عن التذكار والمراجعة، وملاك الوصايا تقوى الله، وهى من أخص أوصافه، والجمع بين العدل والإحسان، وهما من نتائج أنصافه، فليجعلهما عمدتى حكمه فى القول والعمل، والله يجعله من أوليائه المتقين، وقد جعل». انتهى.

* * *

ومما ينبغى ذكره أن أمراء الجيوش هم نواب الإمام فى الجهاد، فكما يجوز لهم قتال أهل الحرب مقبلين ومدبرين، ونصب المنجنيقات والفرادات وإلقاء الحيات، ورمى النيران بجميع آلاتها وقطع أشجار العدو ولو مثمرة عند الاقتضاءات والضرورات، وقتل الشبان والشيوخ ومن يتعرض للطعن والضرب، لا قصد قتل النساء والصبيان، فكذلك يجوز لهم بمقتضى رخصتهم أن يعقدوا عقود العهود والأمانات، ويؤمنوا من ألقى السلاح مما شرع لجلب المصلحة ودرء المفسدة، ومتى عقدوا العقود وعاهدوا العهود فلا يجوز نكثها بوجه من الوجوه، إلا أن ظهر لهم من العدو المتعاقدين معه خيانة مستورة، وخوف مضرة، فينبذ العهد إليهم حتى يستووا فى معرفة نقض العهد، لقوله تعالى: ﴿ **وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ** ﴾ (الأنفال: ٥٨) وكذلك إذا كان العهد مؤجلا بمدة، فانقضت المدة، فبانقضائها ينقض العهد وينبذ إذا كان الغرض عدم تجديده، بل العزم على المحاربة والمقاتلة، ولا يجوز نقضه فى غير ما ذكر، لأن نقضه يجرى مجرى الغدر وخلف القول، قال تعالى: ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ** ﴾ (التوبة: ٤) ومتى جاز نقض العهد وجب إخبار المعاهدين بذلك ليكونوا على بصيرة، لأن النبى، صلى الله عليه

وسلم، حين نقض العهد مع أهل مكة بعث مناديه، وهو على رضى الله عنه، فى الموسم فنادى يوم النحر عند جمرة العقبة بنقض الصلح، فينبغى لكل أمير أن يتأدب بآدابه صلى الله عليه وسلم فى حفظ العهود وإجرائها على وجه معهود. يحكى أن خالد بن الوليد لما حارب بنى حنيفة بأرض اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب حتى صار إلى حصن لبنى حنيفة فخرج إلى خالد رجل من الحصن فأسلم على يده، ثم قال له: إن فى(*) هذا الحصن ضعفة ونساء وصبية، فأعطهم أمانا ليخرجوا إليك، فليس فيهم درك، فأخذ أمانا من خالد للجميع، ثم أخرجهم، فخرج فيهم رجال كأنهم الأسد، فقال خالد: لم أعطك لهؤلاء أمانا، وإنما أعطيتك للضعيف، قال الرجل فهم كلهم ضعيف، لأن الله عز وجل يقول: ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨) فكتب فى ذلك إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فأجاز الأمان على خالد، وما قاله الرجل الأسلمى لخالد يعد من باب المكروه بقول صادق فى حد ذاته. كما يحكى أن رجلا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة فقال: يا محمد أغثنى، فإن خلفى من يطلب دمى، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: إمض لوجهك لأصد الطلب عنك، ثم قام عليه السلام وجلس بعد نفوذ الرجل فإذا قوم يتعادون بالسيوف، فقالوا: يا محمد هل مر بك رجل هارب من صفته كذا وكذا؟ فقال عليه السلام أما منذ جلست فلا، فصدقه القوم، وأنصرفوا فى غير ذلك الطريق.

وقال بعض المؤرخين: لما غزا أبو عبيدة، رضى الله عنه، مدينة دمشق، فى عهد أبى بكر الصديق، رضى الله تعالى عنه، وكان قد نازل هذه المدينة من جهة «باب الجابية» ونازلها خالد من جهة «الباب الشرقى» ونازلها عمرو بن العاص من جهة «باب ثوما» ونازلها يزيد بن أبى سفيان من جهة «الباب الصغير»، وحاصروها قريبا من سبعين يوما، وكان خالد بن الوليد، رضى الله تعالى عنه، مصمما على أخذها بأى وجه كان، صلحا أو عنوة، وكان عساكر الروم بدمشق قد أيقنوا أن حصارها على هذه الحالة لا بد أن يعقبه الفتوح الإسلامى، وأنه لا مفر لهم من وقوعهم فى

(*) إضافة يقتضيها السباق. (الشروق).

أسر المسلمين، وكان محافظ دمشق الأمير «ثوما» صهر القيصر هرقل، فدبر حيلة عسى يكون بها نجاة نفسه وجنده من الوقوع فى أيدى المسلمين، فخرج بجنده من المدينة عدة خرجات عساه أن يدافع جيوش المسلمين عن المدينة، وينتصر عليهم، وكان يعتمد على أنه سيصله إمدادات من القيصر، فخاب رجاؤه، وانهزم فى جميع خرجاته ثم لما أيس من النصرة والإمداد القريب، وجزم بأنه واشك بالوقوع فى قبضة الإسلام، شرع فى التماس المسالمة بعقد الصلح مع أبى عبيدة، رضى الله تعالى عنه.

وكان قد بلغه موت الخليفة أبى بكر، رضى الله تعالى عنه، واستخلاف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه، وكان أبو عبيدة هينا لينا صاحب رأفة ورحمة على عباد الله، غير متعصب ولا مشدد على أهل الكتاب بدون حق، وكان شريف النفس عالى الهمة، يميل إلى العدل والحلم، وكان قد اشتهر عند الروم بحسن الشمائل، ومكارم الأخلاق، وصدق المقال، فلما التمس أهل دمشق الصلح من هذا الأمير، وفاتحوه فى شأن ذلك، صالحهم على أن يؤمنهم على نفوسهم، ورخص لمن لم يسلم إذا أراد أن يخرج من دياره خرج منها بجانب من أمواله، واشترط عليهم أن يبلغوا مأمنهم بعد مضى ثلاثة أيام بلياليها من زمن جلائهم، يجدون فيها السير كما يشاؤون، ولا يقفو أثرهم أحد من جيش الإسلام إلا بعد مضيها، فعلى هذا الصلح سلموا له مفاتيح المدينة، فلما دخل فيها بجنده، ووصل فيها إلى ميدان عام فى وسطها، رأى فى هذا الميدان جند خالد بن الوليد، فكانوا نقبوها وأخذوها عنوة من الأبواب المسامتة للباب الذى دخل منه أبو عبيدة عقب الصلح، فكانت عساكر خالد، بوصف كونهم فتحوها عنوة، يقتلون من يجدونه فى ممرهم، فنهاهم عن ذلك بالتى هى أحسن، وأمرهم بتقوى الله والرفق بعباده، وأخبر الأمير خالد بن الوليد بما صالحهم عليه، لأن خالد، رضى الله تعالى عنه، كان بمنزلة عظيمة عند أمير المؤمنين، وكان قد أتاه كتاب من عمر، رضى الله تعالى عنه، بتقليده إمارة جيشه، فأقر خالد ما صالح عليه أبو عبيدة، ووعده برفع السلاح عنهم، وأن لا

يقفو أثرهم إلا بعد مضى الثلاثة الأيام المتفق عليها، وأنجز حر ما وعد، واغتنم منهم ما أغتنم، ثم عاد سالما غانما إلى دمشق، وبعث أبو عبيدة بالفتح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنهما، فمدحه المؤرخون بوفائه بنفسه، وبتوسطه إلى خالد بن الوليد وحمله على ذلك.

قال بعض من وقف على هذه الواقعة من مؤلفى أوروبا: «لو كانت أوصاف هذا الصحابى الجليل، الذى كان أمير الجيش الإسلامى فى ذلك الجيل مجتمعة فى أمراء الجنود بالأجيال الجديدة المشهورة بالتمدنات المتنوعة والتقدمات العديدة، لأفادتهم غاية المجد والشرف، ونفت عنهم مثالب الجور والسرف، فأجل أمراء جيوش الدول العظيمة التمدن فى عهدنا هذا لم تبلغ درجة ذلك الأمير الخطير، الذى هو من بين الفاتحين عديم النظير، فكل منقبة من مناقب عدله وحلمه ووفائه تخجل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة، وتزدرى بأمرائه». انتهى. وهذا من قبيل: * ومليحة شهدت لها ضراتها * ومع ذلك فنقول: إن تمدن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين وتابعيهم هو تمدن حقيقى مكتسب من أنوار النبوة، واتباع هدى من لا ينطق عن الهوى، مع سلامة طبع أبى عبيدة عامر بن الجراح، الذى قال فى حقه عليه الصلاة والسلام: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح». وقد كانت شفقته على نصارى الروم بدمشق واجبة، لأنها نتيجة المصالحة والمعاهدة، وإلا فكان لا يخشى فى الله لومة لائم، فهكذا مكارم أخلاق الصحابة، فمن أراد أن يقتدى بهم فهو من أهل السداد والإصابة، وما أسعد من يتنزه من أول شبيبته عن الجهالات، ويتمسك بناموس المروءة والشريعة، ويخالف أهواء النفس اللوامة، ويحالف معالى الأمور المؤسسة على ما فى الكتاب العزيز من الآيات البينات، فلا أحمق ممن تجرد عن الشفقة والمرحمة، وأفضى به الجهل إلى ارتكاب الأمور المحرمة، فكأنما هو تربى فى الجبال ورضع ألبان الوحوش والوعال، كما يحكى عن نية غدر من مغربى مسلم، بأسير من نصارى الأسبانيول، منقاد لقضاء الله عليه بالأسر ومستسلم، وذلك أن أكثر عرب المغاربة المتوطنين ببلاد أفريقية أصلهم من عرب الأندلس الذين أجلاهم الأسبانيول من

ديارهم بعد تغلبهم عليها وكانوا بقايا من نجا من القتل فكانت العداوة باقية بين الفريقين.

وكان أغلب المغاربة يعتقدون حل التقرب إلى الله تعالى بقتل النصارى، لمخالفة الدين، لا سيما إذا كانو من نصارى الأسبانيول المعتدين، وكان من قواد المغاربة الذين يغيرون على بلاد الأسبانيول الساحلية، أمير يقال له «على بن جرمى»، من قواد ملوك أفريقية، فانتصر مرة فى حربه مع الأسبانيول نصرة عظيمة، وقتل وأسر وشحن سفينته من أسراهم، حتى أرسى على سواحل أفريقية، وأنزلهم إلى البر، فحضر إليه شخص من حمقى العرب متمثلا بين يديه، وجعل يقبل قدميه، وقال له يا أيها الأمير، لقد أسعدك الله تعالى بالظفر والتأييد، ووفقك لجلب عدد كثير من النصارى الأسارى، فهم لجنابك العالى من قبيل الأرقاء والعبيد، وطالما انتهزت الفرصة فى سفك دمائهم، وسبى رجالهم ونسائهم، وفى طاقتك أن تقتل منهم ما تشاء من العدد الكثير، والجم الغفير، فلا شك أن مثلك من أهل الجنة، حيث وفقه الله تعالى إلى الحصول على هذه المنة، وأما أنا فلم أحظ فى عمرى بهذه الفضيلة، ولا تيسرت لى هذه النعمة الجزيلة، فأناشدك الله ألا تفضلت على من إحسانك، وجميل فضلك وامتنانك، بأحد هؤلاء الأسرى أعداء الدين، لأتقرب به إلى طاعة رب العالمين، فأظهر له الأمير حسن الإجابة، وأنه لبى دعوته لينال الأجر والإثابة، وأفهمه أنه يرسل إليه هذا الشاب طويل النجاد فى الغابة، وأمره أن ينتظره فيها فى هذه الساعة، ليفتك به سرا بدون إشاعة، ثم أمر الأسير بالمسير، وأطلعه على خبيئة هذا الأحمق وحذره منه وأنذره، حتى يعمل لنفسه فى الذب عنها أحسن التدبير، واقتحم الأسير الغابة شاكى السلاح، مصمما على المناضلة والكفاح، فلما رآه خصمه على أهبة بهذه الحالة، لم يجد من الهروب بدا، فنجا بنفسه ولا محالة، ورجع إلى الأمير يرجف فؤاده، وقد فاته مراده، فقال له الأمير بصوت جهورى، بغاية من الحماس، يسمعه كل من حضر من الناس، يا أيها الشقى الأحمق، والعدو الأزرق، كيف عشت بين أظهر مؤمنى البرية، ولم تعلم حرمة قتل النفس البرية؟

وهل محض اختلاف الأديان يبيح التعدى بقتل الإنسان ابتغاء مرضاة الشيطان؟ وكيف تظن أن بتصميمك على هذه النية ترضى الله سبحانه وتعالى أو نبيه؟ وهل من المروءة والسماحة قتل من ألقى سلاحه؟ أما تعلم أن قتل النفس بغير حق من أعظم الآثام عند الله؟ فخجل المغربى بالخزى والخجل، يطلب الغفران من الله عز وجل، واستحسن جميع الحاضرين ما دبره الأمير! . فما أحسن العدل المرفوق بحسن التدبير، لا سيما من قائد خطير. ويحكى أن عمرو بن معدى كرب مر بحى من أحياء العرب فرأى فرسا مشدودا ورمحا مركوزا ورجلا فى وهدة يقضى حاجته، فقال له عمرو: خذ حذرك، فإنى قاتلك، فقال له: من أنت؟ قال: أبو ثور عمرو بن معدى كرب، قال: وأنا أبو الحرب، ولكن ما أنصفتنى، أنت على ظهر فرسك وأنا فى موضعى، فاعطنى عهدا أن لا تقاتلنى حتى أريب فرسى وآخذ حذرى، فعاهده على ذلك، فخرج من الموضع الذى كان فيه وجلس محتبيا بسيفه، فقال له عمرو: وما هذا الجلوس؟ قال: ما أنا براكب فرسى ولا أنا مقاتلك! فإن نكثت العهد فأنت أعلم بما يليق بالناكث، فتركه عمرو ومضى، وقال: هذا أجبن من رأيت! فانظر إلى حفظ العهود، فهو وإن كان واجب الوفاء به فى حد ذاته، إلا أن أحق الناس به الأمراء والجنود. وفى هذا القدر كفاية فيما يتعلق بالطبقة الثالثة التى هى طبقة الغزاة.

الفصل الرابع

(فى طبقة أهل الزراعة والتجارة والحرف والصنائع)

قد أسلفنا الكلام على هؤلاء بالبيان الشافى فى عدة مواطن، لا سيما فى (الباب الثانى) من هذا الكتاب فلا فائدة فى الإعادة، وإنما نقول هنا: إنه ينبغى لأبناء الوطن أن يؤدوا ما يجب عليهم من الحقوق لوطنهم، أيا ما كانت طبقتهم، لاتحادهم فى وصف الأهلية، وأن يتعاونوا على ما فيه صلاح مملكتهم وجمعيتهم السياسية، وأن يبذل المستطيع ما عنده فى إصلاح حالها ومآلها حتى يصدق عليه أنه ممن أحيا نخوة الملة وأنعش قوة الدولة، فيشكره وطنه الذى هو مصره، ويحمده زمنه الذى هو عصره، فيكون مخلد الذكر فى دفاتر أخبار الأخيار الذين اشتهروا فى سلسلة الأعصار، وأن يتصف كل عضو من أعضاء الجمعية الأهلية بالأمانة التى هى أشرف الخصال التى يحتاج إليها فى المعاملات، وقد كانت هذه الفضيلة قديما فى الديار المصرية على غاية من التمسك بها ولو عند البادية، ومن غريب ما يحكى فى ذلك ما أخبر به الشيخ عبد الرازق القفطى أنه جاء إليه الشريف الأحمر ومعه بدوى، فقال لعبد الرازق أشتهى أن تقرضنا دينارين وتركب معنا لله تعالى، قال فدفعت لهما دينارين وركبت معهما، فسقنا فى الحاجرساعة، فقلت للشريف: ما تقول لى إيش أنت تطلب بنا؟ فقال: هذا البدوى كان أودع ناسا من العرب سخلة فى الحجاز من إحدى عشرة سنة، وهو يطلب وديعته، قال فقلت له، ضيعت على دينارين، وأتعبتنا، فقال لى: الدينار الواحد معى والآخر اشتريت به هذا الحمار، فإن وجدنا شيئا وإلا رددنا لك مالك، فسرنا إلى أبيات عرب هناك فجلسنا بعيدا، وتقدم الأعرابى ونادى يا أبا فلان، فكلمه إنسان، فقال: من تكون، أو قال: من تريد؟ فقال: الله تعالى يعلم أنى كنت أودعت لك بوادى الصفراء فى الحجاز فى السنة

الفلانية سخلة، قال فجاء الرجل الذى كلمه ونحى القرمزية عن رأس البدوى ونظر إلى شجة فى رأسه، وقال: والله أنت هو، وأبو فلان مات، وأنا أخوه، فعد حتى تروح إبلنا، فقعدنا حتى راحت الإبل عليهم، فعزل البدوى منها تسع نوق، وقال: الله تعالى يعلم أن السخلة ولدت، وولد أولادها، فبعناها واشترينا تلك الناقة، فولدت وتوالدت، فالذى كان منها ذكورا بعناه وأبقينا الإناث، وأخرجنا عنك الزكاة، وأخرج صرة زرقاء مربوطة بخيط من شعر فقال: هذا من ثمن الذكور، ففتحناها فوجدنا فيها: أما قال تسعة عشر دينارا، أو قال: اثنين وثلاثين دينارا، غاب عنى أيهما، قال: لطول المدة، فقال الأعرابى: أما هذا الذهب فخذوه ولا حاجة لى به، وتكفينى النياق، فقلنا والله ما نأخذ إلاّ الدينارين، فأخذناهما ورجعنا. انتهى. فانظر إلى قيمة قدر الأمانة عند عرب البادية المؤتمنين، والتعفف من المتوسطين، وسماحة الأعرابى الذى أراد أن يترك الذهب لهم، فلا يدرى أى الفرق الثلاثة أكرم وأعظم مروءة، فعلى العاقل أن يتمسك بكل فضيلة يتمدح بها، وتبيض بها صحيفته دنيا وأخرى، من كل ما يحرز المنافع العمومية، دنيوية أو دينية، مما يكون به لأهل ملته تمام النظام، وتعود منفعته عاجلا أو آجلا على قوة دولة الإسلام.

وقد أسلفنا فى(الفصل الأول) من (الباب الأول) فى بيان المنافع العمومية ما يتعلق بفعل الصدقات الجارية، وأن من جملتها بناء العمائر الخيرية، وأن كثيرا من الأمراء تشبثوا بذلك، ونقول الآن إن من جملة من اجتهد فى فعل الخير الجارى على الدوام ما فعلته صاحبة الدولة والعصمة والدة الخديو الأكرم ولى النعمة، فإن بناءها المسجد المنير للقطب الشهير ولى الله تعالى الشيخ صالح أبى حديد، هو من أعظم الخيرات، لا سيما ما أجرته عليه من الأوقاف الدارة، والوظائف البارة، ومثل ذلك شروع حضرتها السنية فى بناء مسجد القطب الرفاعى، الجارى فيه العمل الآن أمام السلطان حسن، فإنه أيضا صار توسيعه بما لا مزيد عليه من الدور المتخذة له بالشراء، وتطيب خواطر أربابها، مع الجد والاجتهاد فى العمارة، التى يظهر أنها تصير ضخمة جدا، وتنافس جامع السلطان حسن المواجه لها، مع ما

سيرصد عليها من الأوقاف الجزيلة، مما أرادت حضرتها العلية تحصيله، ومن المعلوم أن لحضرة المشار إليها من جزيل الخيرات ما لا يحصى، ومن جميل المبرات ما لا يستقصى، والرأفة الكاملة الكافلة بالتعطف على كل فقير، والتلطف بجبر كل كسير، وتوزيع الصدقات على الجم الغفير، فهى سارة مصرها، وأين منها زبيدة فى عصرها.

وقد سبق فى (الفصل الأول) من (الباب الأول) ذكر ما فعله من الخير العميم، وحسن الصنيع الجسيم، حضرة خليل أغا باش أغاوات الجهة السامية المشار إليها، من المدرسة والتكية ابتغاء مرضاة الله تعالى، مما ازداد به وجه مصر ضياء وتلالا، هكذا هكذا وإلا فلالا، وكنا قد ذكرنا فى الفصل المذكور ما أنشأه من الخيرات الأمير الجليل والشريف النبيل سعادة راتب باشا بالجامع الأزهر، ثم بلغنا فيما بعد أنه أنشأ مسجدا جليلا بالإسكندرية، ومدرسة جليلة عمومية بالإسكندرية أيضا، وأرصد لذلك ما فيه الكفاية لدوامه، وأرصد جرايات لها وقع كبير على الأضرحة والمشاهد والمقارى بالمحروسة، وأحيا تكية للنساء العجائز الفقراء مرصدة على إحدى وعشرين مرأة كان أنشأها المرحوم عبد الرحمن كتخدا ثم دثرت، وبلغنا أن حضرة الباشا المشار إليه مصمم على تجديد بيمارستان للفقراء والضعفاء، وأوقف الأمير المذكور من أراضيه وعقاره على خيراته ما يقوم بها على كثرتها، وأنه أوقف باقى أراضيه وعقاراته على ذريته، وشرط أنها تؤول من بعدهم إلى محال خيراته توسيعا لها زيادة، هكذا يكون الكرم الواسع من الأشراف، أهل الديانة والصيانة والعفاف، أطال الله بقاه ومن الأسواء حفظه ووقاه، وكثير من الأمراء والأعيان ممن لا تعلم حقيقة أوقافهم الخيرية إلا إجمالا تصدى لفعل الخيرات على قدر حاله، وبذل فيها جزأ عظيما من ماله، فالحمد لله الذى وفق كثيرا من الأمراء والأهالى المصريين رجالا ونساء، بالمحروسة أو بالأقاليم، على التشبث بأسباب الخير العميم، والناس كما يقال على دين ملوكهم، وهو أدب قديم، ومع أن هذه الخيرات تعد نوعا من المنافع العمومية، إلا أن هناك خيرات أعم منها نفعا، وأتم وقعا، كالشركات السلمية الشرعية،

وجمعية الاقتراضات المرعية، فإنها نافعة كل النفع لفك المضايقات عن أرباب الاحتياجات من أهل الصناعة والزراعة، لسد خلتهم والقيام عند الاقتضاء بقضاء حاجتهم، فإن هذه الشركات السلمية والجمعيات الاقتراضية من أهم الأمور، ومفرجة على الجمهور، وبها تتقدم التجارة والزراعة، وترتقى الدولة والملة فى المالية واللوازم الأهلية إلى أوج الفخار ودرج الاعتبار. كما بينا ذلك فى (الفصل الأول) من (الباب الأول).

فلله من بيض الأهالى صحائف أعماله النافعة، وجعل أنوار أفعاله على آفاق وطنه مشرقة ساطعة، وأما من بخل بذلك فقد خلا عن فضائل النفع العام، وسود سطور صحائف أعماله بمداد الآثام، وأخجل عصره الموجودفيه، حيث غدره وخانه بدون أن يوافيه أو يصافيه، بل كدر رائق نفعه وزلال صافيه، وهذا القدر من المكروه كافيه، فعلى ولى الأمر العادل أن يرشد بأفعاله السنية رعيته إلى سبل الرشاد السنية، وأن يعينهم على ذلك بالحصول على كمال الحرية، متى وجد أن رعيته بتلك الحرية حرية، حتى يحب الناس أوطانهم، ويديموا شكرهم لمن حسن حالهم، وأصلح شأنهم.

فالحمد لله الذى وفق خديو مصر الأكرم لفعل ذلك بفك عهد المتعهدين للبلاد، وبتأسيس نظاما الدوائر البلدية المبنى على تحرير رقاب أهالى النواحى من شبه الاستعباد، فإن هذا لا محالة قوام الإنصاف والعدالة، فإن من ملك أحرارا طائعين كان خيرا ممن ملك عبيدا مروعين، ولا شك أن قلوب الرعية هى خزائن ملكها، فما أودعه فيها فهو مستودع فى أنحاء مسالكها، ولا يكون الملك عظيم القدر إلا بأهال دونه عظموه، ولا تقوى قوته إلا برجال أطاعوه، ولا تشرف منزلته إلا بعوام اتضعوا له بالإذعان واتبعوه، فعليه أن يمنحهم وسائل التعزيز والتكبير، وأن يمنع عنهم رذائل التصغير والتحقير، فرب صغير ترفع عن دناءة الهمة وتفرغ لجلائل التدبير، وعلى الملك أن يعامل أحرار الناس بمحض المودة، والعامة بالرغبة والرهبة، وأن يسوس السفلة بالمخافة الصريحة، وأن يحسن سياسة جميع رعاياه على اختلاف أنواعهم لاجتناب الأسباب التى تبعث قلوبهم على معصيته، ليقود

أبدانهم إلى طاعته، فبهذا يستقيم أمره إلى مدته. وسأل رجل بعض حكماء بنى أمية: ما كان سبب زوال نعمتكم؟ فقال: «قد قلت ما سمع، وإذا سمعت فافهم، إنا شغلنا بلذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا، وظلمت رعيتنا ففسدت نياتهم لنا، ويئسوا من إنصافنا فتمنوا الراحة لغيرنا، وخربت معايشهم فخرجت بيوت أموالنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم مخالفونا فتظاهروا على أمرنا، فطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا». انتهى.

وقال المنصور يوما: ما كان أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم، قيل: يا أمير المؤمنين، ومن هم؟ قال: «هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم، أن نقصت قائمة واحدة وهى، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى، والثالث صاحب خراج يستقضى لى ولا يظلم الرعية، فإنى غنى عن ظلمها، ثم عض على أصبعه السبابة يقول فى كل مرة: آه آه!! قيل من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة». انتهى.

ومما مَنَّ الله سبحانه وتعالى على الديار المصرية أن خديويها الأكرم يحسن انتخاب وكلائه وينقدهم بعين البصر والبصيرة، وأنه بترتيبه لراحة الرعية الدوائر البلدية، وتنظيمه المجالس المحكمية، وحسن تربيته لأبناء الرعية، وتقليدهم بالمناصب الإدارية، تستحوذ مصر، التى هى منبع كل خير وفضل، ومحط رحال كل شرق وغرب، وبعد وقرب، على الفضائل العليا، ويصدق عليها اسمها القديم، وأنها أم الدنيا.

[تقسيمات مصر الإدارية]

ومن أمعن النظر فى حسن تقسيمها فى حلبة السياسة، وأمعن الفكر فى نظام تقويمها فى رتبة الرياسة، وجدها الآن على حالة أحسن تقسيما وتقويما مما كانت عليه فى أيام أن كانت كرسى الملك ودار الخلافة فى تلك الأزمان، كما يفهم من ذكر تخطيطها فى تلك الأيام لبعض العلماء الأعلام، حيث يقول: لمصر وجهان، قبلى، وبحرى، فالقبلى هو أجملها قدرا وأطولها مدى، وأكثرها جدى، وهو الجيزة، وهى أقربها إلى القاهرة، غربى النيل، ويقع قباله القبلى منها بلاد أطفيح شرقى النيل فى بر القاهرة، تصاقب بركة الحبش وبساتين الوزر، ثم يلى الجيزة مقبلا فى برها بلاد البهنسا، وتصاقب البهنسا من غربها بلاد الفيوم، وبينهما منقطع رمل، والفيوم هو الذى بحره دائما مستمر، وينقسم به الماء فى مقاسم، ، ولا يعرفون قسمة الماء إلاّ بالقصبات، ثم يلى البهنسا مقبلا الأشمونين، وفيها الطحاوية، ثم يليها بلاد منفلوط، ثم يليها بلاد أسيوط، ثم يليها بلاد أخميم، وأخميم شرقى النيل، ويقابل دمنتها البرابى المشهورة فى البلاد، المضروب بها المثل على الألسنة، وهى وإن كانت شرقى النيل فكل بلادها ومزارعها غربى النيل، ثم يليها بلاد قوص، وقوص أيضا شرقى النيل،ه وهناك جل العمارة وموضع الحرث والزرع، وفى غربى النيل قبالتها البلاد المعروفة بغرب قمولا، وهى من مضافات قوص وبلادها، ثم أسوان، وهى من عمل قوص وواليها نائب عن واليها، ويخرج مما بين قوص وأسوان إلى صحراء عيذاب حتى ينتهى إلى عيذاب، وهى قرية حاضرة البحر ومنها تعدى إلى جدة، ويكون بها جند من قوص، وواليها وإن كان من قبل السلطان فإنه نائب لوالى قوص، ووالى قوص أعظم ولاة مصر وأجلهم. فهذه جملة الوجه القبلى، وفيه الصعيدان الأدنى والأعلى، والأدنى كل ما سفل عن الأشمونين إلى القاهرة، والأعلى كل ما علا عن الأشمونين إلى أسوان، وغالب زرعه ورفعه وجلب قوته وحلب ضرعه غربى النيل، وما يوجد شرقى النيل قليل وهو تبع لا متبوع. فأما الوجه البحرى فهو كل ما سفل عن الجيزة إلى حيث مصب النيل فى البحر الشامى

بدمياط ورشيد، وهو أعرض من الوجه القبلى، وبه الإسكندرية، وهى مدينة مصر العظمى، فأما ما وقع منه شرقى النيل فى بر القاهرة المتصل بها فأقربها منه الضواحى وهى القرى التى أمرها يبدو إلى القاهرة، ثم قليوب، ثم الشرقية، ومدينتها بلبيس، وأما ما وقع غربى أحد مرمى النيل الفرقتين فى هذا الوجه فأقربها إلى الجيزة جزيرة بنى نصر، ثم منف، وكلاهما عمل واحد والاسم لمنف، وهى كانت مدينة مصر العظمى زمن فرعون موسى، ثم أبيار وهى من عمل منف أيضا، ثم يليها بلاد الغربية ومدينتها محلة المرحوم، وهى عمل جليل متسع يضاهى قوص، ثم يليه أشموم وتعرف بأشموم الرمان لكثرة وجود الرمان بها، وهى بلاد الدقهلية والمرتاحية، ثم يليها دمياط، حماها الله، وهى أحد الثغور الضالة المستنقذة بعد طول الدهور[1]، وإليها أحد مصبى النيل، ثم ما هو غربى الفرقة الثانية من النيل فأقربه إلى الجيزة بلاد البحيرة، ومدينتها دمنهور، وهذه البلاد تشتمل على بلاد مقفرة وطوائف من العرب، وبها بركة النطرون التى لا يعلم فى الدنيا أن يستغل من بقعة صغيرة نظير ما يستغل منها، فإنها نحو مائة فدان تغل نحو مائة ألف دينار، ثم يلى بلاد البحيرة مدينة الإسكندرية ثغر الإسلام المفتر، وحمى الملك المخضر، حرسها الله تعالى، وهى مدينة لا يتسع لها عمل، ولا يكثر لها قرى، فهذه جملة الوجه البحرى. ثم لم يبق ما تنبه عليه إلا قطيا وهى قرية فى الرمل جعلت لأخذ الموجبات وحفظ الطرقات، وأمرها مهم، ومنها يطالع بكل وارد وصادر، وأما الواحات فجارية فى إقطاع أمرائهم، يولون عليها كل مقطع فى إقطاعه ومغلها كأنه مصالحة لعدم التمكن من استغلاله أسوة بقية ديار مصر لوقوعه منقطعا فى الرمال النائية والقفار النازحة، وهذه جملة نطق القاهرة المحيطة بمصر سفلا وعلوا. انتهى.

---

(١) يشير الطهطاوي إلى تعرض دمياط لعديد من الغزوات الصليبية في العصور الوسطى. فلقد تعرضت مصر للغزو الصليبي عن طريق دمياط في أواخر الدولة الفاطمية وفي عصر الدولة الأيوبية عدة مرات، اشتهر منها في التاريخ غزوات سنة ١١٦٩م وسنة ١٢١٨م وسنة ١٢٤٩م. وفي الغزوة الثانية احتل الصليبيون دمياط قرابة الأربعين شهرا. انظر كتابنا (معارك العرب ضد الغزاة) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م.

والظاهر أن فى عصر هذا المؤرخ كانت قصابات الصعيد الأعلى «قوصا» «وأخميما»، ولم تكن جرجا من القصبات المشهورة شهرة غيرها، وأنها صارت فيما بعد متصرفية، وقد أنزل إلى ناحيتها السلطان الظاهر برقوق بعد واقعة بدر ابن سلام هناك «هوارة» الصعيد فى نحو سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة[1]، وكانت خرابا، ليعمروها، فأقطع هذه الناحية لإسماعيل بن مازن منهم، وأقام بها حتى قتله على بن غريب فولى بعده عمر بن عبد العزيز الهوارى حتى مات، فولى بعده إبنه المعروف بأبى الشوشة، وفخم أمره وكثرت أمواله، فإنه أكثر من زراعة النواحى وأقام دواليب السكر واعتصاره حتى مات، فتولى بعده أخوه يوسف بن عمر، وهكذا، وهؤلاء الهوارة أصل ديارهم من عمل سرت بالمغرب إلى طرابلس، قدم منهم طوائف إلى أرض مصر ونزلوا بلاد البحيرة وملكوها من قبل السلطان، ونزل منهم هوارة بالصعيد كما ذكرنا، ونزلوا جهة جرجا التى نابت فيما بعد عن قوص وعن أخميم وصارت ولاية فى التقسيم. فتقاسيم مصر الآن أكثر تنوعا، وأعظم استقصاء وتتبعا، وإن لم تصل فيما يخص العلم والعلماء درجة ذلك الزمن البعيد، الذى يعلم كثرة علمائه وفضلائه لمن طالع مثلا (الطالع السعيد فى نجباء الصعيد) إلا أن المعارف الآن سائرة بسيرة مستجدة فى نظريات العلوم والفنون الصناعية، التى هى جديرة بأن تسمى بالحكمة العملية والطرائق المعاشية، ومع هذا فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعية والأدبية، ومعرفة اللغات الأجنبية، والوقوف على معارف كل مملكة ومدينة مما يكسب الديار المصرية المنافع الضرورية، ومحاسن الزينة، فهذا طرز جديد فى التعلم والتعليم، وبحث مفيد يضم حديث المعارف الحالية إلى القديم، فهو من بدائع التنظيم، وإذا أخذ حقه من حسن التدبير والاقتصاد فيه استحق مرتبة التعظيم، ولا ينبغى لأبناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف تجرد عن فضائل السلف، وأنه لا ينصلح الزمان إذ صار عرضة للتلف، فهذا من قبيل البهتان، فالفساد لاعتقاد ذلك لا فساد الزمان، كما قال الشاعر:

---

(١) وتوافق سنة ١٣٨٠م.

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو فى الزمان بغير عيب ... ولو نطق الزمان بنا هجانا

وإنما حصول مثل هذه الأوهام السوفسطائية ناشئ من عدم فهم كلام العلماء الراسخين على المعنى المقصود منه، وأخذه على ظاهره، فإذا حفظ الإنسان من (جوهرة التوحيد) قول الناظم:

وكل خير فى اتباع من سلف ... وكل شر فى ابتداع من خلف

أخذه على ظاهره فى أمر الدين والدنيا، والمعاد والمعاش، والترقى فى الرفاهية والزينة، مع أنه خاص بالأمور الدينية، واتباع الأحكام الشرعية من الحلال والحرام دون المباح، كما أوضحه بعد قوله:

وكل هدى للنبى قد رجح ... فما أبيح إفعل ودع ما لم يبح

فيا ليت من تمسك بتلك الأفهام، وتنسك بمضامين تلك الأوهام، استمسك بقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ** ﴾ (البقرة: ٢٦٧) وبقوله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ (الملك: ١٥) فليس كل مبتدع مذموم، بل أكثره مستحسن على الخصوص والعموم، فإن الله سبحانه وتعالى جرت عادته بطى الأشياء فى خزائن الأسرار، ليتشبث النوع البشرى بعقله وفكره ويخرجها من حيز الخفاء إلى حيز الظهور، حتى تبلغ مبلغ الانتشار والاشتهار..

إذا حار وهمك فى معنيين ... وأعياك حيث الهدى واليقين
فخالف هواك فإن الهوى ... يقود النفوس إلى ما يهين

فمخترعات هذه الأعصر المتلقاه عند الرعايا والملوك بالقبول، كلها من أشرف ثمرات العقول يرثها على التعاقب الآخر عن الأول، ويبرزها فى قالب أكمل من السابق وأفضل، فهى نفع صرف لرفاهية العباد، وعمارة البلاد، ومن ذا الذى

يخطئ صواب رأى هذه الاستمدادات المعينة على المهمات المعاشية بطرقها النافعة وأنوارها الساطعة، التى لظلام الأرجاء دافعة؟ وبسط الكلام على المخترعات كغيرها من المحسنات البديعات مبسوطة فى (أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك) لحكيم السياسة خير الدين باشا، وعمل من طب لمن حب يورث القلب انتعاشا. [مربع لبعضهم]:

بدور لهم مغرب * بقلبى وإن أغربوا * فوجدى بهم معرب

* عن الحال ما أصنع *

لكل هوى منتهى * وحبى إذا ما أنتهى * أأسلو وأهل النهى

* على حستهم أجمعوا *

فما أشار به فى كتابه من الإشارت القولية جله فى مصرنا من قبيل الدلالات الوضعية، ودلالة الفعل فى الأصول أقوى من دلالة القول، فما أجدر ما تجدد فى مصرنا من حسن التنظيم المستحق من أهل الوطن كمال التبجيل والتعظيم، مما به عظم قدر الوطن وشرفت منزلته ومجدت فخامته، حيث استأثر بالفوائد الجمة، بهمة وأى همة، مما لا يحصل إلا من البررة المشفقين، ومن أبناء الوطن الصادقين، ممن روض نفسه لخدمة الوطن الحقيقية، من الراعى والرعية، وقد خرجوا من درجة التصغير والتحقير إلى درجة الترفع والتكبير، بصرف الهمة فى حسن التدبير، لتنمية المنافع الوطنية، الحسية والمعنوية.

ومما ينبغى للعاقل أن ينوه بذكره، ولا يخرجه العارف من مرآة بصيرته وفكره، أن ملوك الإسلام على كثرتهم، وإن كان يجب عليهم جميعا أن يكونوا على قلب رجل واحد فى تقديم أبهة الإسلام، وأن يهتموا بتأييد الأوطان المحمدية بالعلوم النافعة والمنافع العمومية، لترقى الديار الإسلامية درجة الكمال العلية، إلا أن الأولى بالمسارعة فى ذلك، لسهولة سلوك أقوم المسالك الدولة العلية العثمانية، والخديوية الجليلة المصرية، فإن حصل منهما براعة المخلص وحسن المقطع، على شاكلة براعة الاستهلال على وجه أبدع، بلغت شهامة الأوطان الإسلامية بالنسبة إلى قوة الدولة ونخوة الملة المحل الأرفع.

فأما تشبث الدولة المحروسة العلية بذلك الآن فغنى عن البيان، وغير محتاج إلى برهان . .

إذا ما رحاء الخير دارت على الورى فإنك منها قطبها وعمودها

وأما خديوينا الجليل فلا زال ينجز ما وعد به عند الولاية، ويجدد عند انتهاز الفرص ما يستطيعه بكمال العناية، فكأن الفرصة تناجيه بقولها :

مولاى هذا الملك قد نلته برغم مخلوق من الخالق

والدهر منقاد لما شئته وذا أوان الموعد الصادق

هل مثله وامق إن قدر، يرمقها بصحيح النظر، وإلى ما تدعو يجيبها، ولكن ملء عين حبيبها، فلا يزال لسانه يلهج بمعنى قول القائل :

إنا لنأمل ما كانت أوائلنا من قبل تأمله إن ساعد القدر

ولسان حال النصر الحقيقى ينشد لنيل أكرم مرام وأعظم مقصد :

من جعل الحق له ناصرا أيده الله على نصرته

وهاتف السعادة يحثه على كمال نيل المجادة وكسب السعادة بقوله :

وكن فاعلا مثل فعل الزمان فإن الزمان فعولن فعول

ولسان الأعتراف يبث على سبيل الإجمال ما فعله لوطنه من المحاسن والجمال بإنشاده :

لقد نبتت فى مصر منك منافع كما نبتت فى الراحتين الأصابع

ولا عجب لمن توفيق العزيز رفيقه، أن يستمد منه القطر المصرى جميع ما يعجبه من الكمالات ويروقه، كما قال بعضهم فى هذا المعنى :

قد أطلع الله لنا كوكبا أضاء شرق الأرض والمغربا

صاحب سعد يقتضى سعده سعادة الوالد إذ نجبا

والأصل إن طاب يرى غرسه أنبت فرعا مثمرا طيبا

مع هبة خص بها الله من أصبح للنعمة مستوجبا

فدم قرير العين حتى ترى خلفك من أولاده موكبا

ولما كانت حسنات ولى النعم تكاثر النجوم عددا، والأنفاس مددا، أهتف لسان الجميع عن خالص الود الشاكر على حسن الصنيع بالدعاء له ببسط الأكف إلى المولى السميع، فقالوا: اللهم أدم علينا إحسانه العديد، وبحر إنعامه المديد، حتى لا يزال يقول طالب رفده وإحسانه: هل من مزيد.

وهذا آخر ما يسر الله جمعه جمع سلامة، مما يلوح عليه من القبول أبهى علامة، وهو جدير باسم مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية:

وإذا انتهيت إلى السلا مة فى مداك فلا تجاوز

إن السفين متى يصل بر السلامة فهو فائز

حسب الفتى أمنا إذا فى سيره جاب المفاوز

وهل السلامة للرئيس سوى مصادقة الجلاوز

والحمد لله ولى النعمة، والصلاة والسلام على من هديت به الأمة، وعلى آله وأصحابه الذين تلألأت أنوارهم، وأضاءت فى آفاق المعالى أقمارهم، وتفتحت للسعادة بصائرهم وأبصارهم، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.